راما ٢







جنتري لي وآرثر كلارك

ترجمة فايقة جرجس حنا

راما ٢

تأليف
جنتري لي وآرثر كلارك

ترجمة
فايقة جرجس حنا

مراجعة
مجدي عبد الواحد عنبة



راما ٢

جنتري لي وآرثر كلارك

Rama II

Gentry Lee and Arthur C. Clarke

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٠٣١ ٦

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٨٩.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٠.

المحتويات

إهداء

إلى سريلانكا

حيث صعدت سلم الآلهة.

شكر وتقدير

ساهَم الكثيرون على اختلاف خلفياتهم في خروج هذه الرواية من خلال عقد مناقشات عديدة امتدت على مدار فترة تربو على عامين. ومن بين هؤلاء الأشخاص الذين ساهموا بتعليقات أو رؤًى مستنيرة قيِّمة على وجه الخصوص: بيبي باردين، وبول تشوداس، وكلايتون فروهمان، ومايكل كلاسمان، وبروس جاكوسكي، ورولاند جوفي، وجيري سنايدر، وإيان ستيوارت.

وقدَّم كلٌّ من لوو أرونيكا ومالكولم إدواردز وروس جالينوس إسهاماتٍ مهمةً لهذه الرواية. وكانت أفكارهم الثاقبة الخاصة بالتحرير عنصرًا جوهريًّا في وضع اللمسة الأخيرة لحبكة الرواية.

وأخصُّ بالذكر البابا مارتن سلوت، الذي كانت له رؤًى دينية ألمعية أسهمت بصورة لا غنى عنها في ابتكار شخصية الجنرال أوتول، وكذلك أتوجه بالشكر إلى بيتر جوبر، الذي جعلني ألتقي بجنتري لي لأول مرة منذ أكثر من ثلاث سنوات.

وأخيرًا، لن يكتمل الشكر والتقدير دون التوجه بخالص الشكر إلى أسرة السيد لي. لقد تكرمت زوجته ستايسي، وأبناؤه الخمسة: كوبير وأوستن وروبرت وباتريك ومايكل، بالسماح له بالقيام بالرحلات اللازمة حول العالم إلى سريلانكا، ومنْحه الوقت الخاص اللازم لتأليف هذه الرواية.

الفصل الأول

عودة راما

ظل مولد ذبذبات الرادار الضخم بمحطة إكسكاليبور، الذي يعمل عن طريق الانفجارات النووية، معطَّلًا لما يقرب من نصف قرن. وقد بُذلت جهود محمومة لتصميمه وتطويره خلال الشهور التي تلت مرور المركبة الفضائية راما عبر النظام الشمسي. وكان الغرض الذي أُعلن عنه عند تشغيل المولد عام ٢١٣٢ لأول مرة هو إنذار كوكب الأرض بقدوم أي زُوار من خارج الكوكب في المستقبل، وذلك قبل قدومهم بوقت كافٍ. فأصبح من الممكن اكتشاف جسم بضخامة راما قبل سنوات ضوئية من وصوله؛ أي قبل سنوات من تأثيره بأي صورة على الحياة الإنسانية.

وقد اتُّخذ قرار إنشاء محطة إكسكاليبور حتى قبل أن تمرَّ راما بالحضيض الشمسي (أقرب نقطة للشمس). ونظرًا لأن أول زائر من خارج كوكب الأرض دار حول الشمس واتجه نحو النجوم، فعكفت جموع العلماء على دراسة البيانات التي تجمعت لديها من البعثة الوحيدة التي تمكنت من لقاء الزائر الدخيل.

فأعلنوا أن راما هي جسم آلي يتمتع بالذكاء، وليس لديه أدنى اهتمام بنظامنا الشمسي أو بسكان الأرض. ولم يقدم التقرير الرسمي أي تفسيرات للألغاز العديدة التي وجدها المحققون، بيد أن الخبراء أقنعوا أنفسهم بأنهم أدركوا مبدأً أساسيًّا واحدًا فيما يتعلق بالتقنية الهندسية لراما. يتلخص ذلك المبدأ في أنه نظرًا لأن أغلب الأنظمة الرئيسية والفرعية التي وجدها المستكشفون من البشر داخل راما كانت مزوَّدة بنسختين احتياطيتين منها، فيبدو أن الزوار القادمين من خارج الأرض يصممون «ثلاث» نسخ من كل شيء يصنعونه. وعليه، ونتيجةً لأن المركبة العملاقة بأكملها كانت تُعتبر آلة، فقد كان العلماء يرجحون بدرجة كبيرة احتمالَ قدوم سفينتَي فضاء أُخريين مثل راما عقب هذه الزيارة الأولى.

ومع ذلك فلم تدخل أي سفينة فضائية أخرى حيِّز النظام الشمسي قادمة من الفضاء الفارغ الذي يصل ما بين النجوم. ومع مرور السنوات انشغل سكان الأرض بمواجهة مشكلات أكثر إلحاحًا. مما أدى إلى تلاشي الاهتمام شيئًا فشيئًا بأمر سكان راما — أو من صنعوا تلك المركبة الأسطوانية القاتمة التي يصل طولها إلى خمسين كيلومترًا أيًّا كانوا — بعد أن تحولت الزيارة الوحيدة من خارج كوكب الأرض إلى مجرد حدث تاريخي. وقد ظلت زيارة راما تشغل عقول العديد من الباحثين، لكن أغلب البشر اضطروا إلى التركيز على قضايا أخرى. وفي أوائل أربعينيات القرن الثاني والعشرين تعرَّض العالم إلى أزمة اقتصادية حادَّة. ولم يتوفر المال للحفاظ على محطة إكسكاليبور. ولم تكن اكتشافاتها العلمية المحدودة لتُفسِّر المصروفات الهائلة التي كانت تُنفَق لضمان سلامة تشغيلها. فجَرى التخلي عن مولد الذبذبات النووي الضخم.

وبعد مرور خمسة وأربعين عامًا أخرى، استغرقت عملية إعادة تشغيل محطة إكسكاليبور ثلاثة وثلاثين شهرًا. وكان السبب الرئيسي وراء تجديد المحطة سببًا علميًّا. ففي السنوات التي ظلت المحطة فيها معطلة ازدهر علم الرادار وقدَّم طرقًا جديدة لتحليل البيانات؛ مما أدى إلى زيادة قيمة ما تبثُّه المحطة من مشاهدات بصورة كبيرة. وعندما بدأ المولد من جديد في التقاط صور للفضاء البعيد، لم يكن أي إنسان تقريبًا على الأرض يتوقع وصول مركبة فضائية أخرى مثل راما.

ولم يهتم مدير التشغيل بالمحطة حتى بإخبار رئيسه المباشر بظهور الصورة الغريبة على شاشة معالجة البيانات لديه عندما رآها لأول مرة. فلقد ظن أنها صورة زائفة، أو طيف نتج عن خطأ في لوغاريتم المعالجة. لكنه بدأ يُعِير الأمر اهتمامًا أكبر عندما تكررت الإشارة عدة مرات. فاستدعى المدير كبير علماء محطة إكسكاليبور، الذي حلل البيانات وقرر أن الجسم الجديد هو مُذنَّب ذو زمن دوران طويل. وقد مر شهران قبل أن يُثبت طالب دراسات عليا أن إشارات الرادار كانت لجسم أملس يصل طوله إلى أربعين كيلومترًا على الأقل في أكبر أبعاده.

وبحلول عام ٢١٧٩ عَلِم العالم بأسره أن الجسم المندفع عبر النظام الشمسي نحو الكواكب الداخلية، ما هو إلا مركبة فضائية أخرى من خارج الأرض. فركَّزت وكالة الفضاء الدولية مواردها على إعداد بعثة منظمة من شأنها اعتراض طريق الجسم الدخيل داخل مدار كوكب الزهرة في أواخر شهر فبراير ٢٢٠٠. ومرةً أخرى تطلعت البشرية إلى الفضاء، وشخصت أبصارها نحو النجوم، ومن جديدٍ بدأ سكان الأرض في مناقشة الأسئلة الفلسفية

المعقَّدة التي طُرحت عند الزيارة الأولى لراما. وعند اقتراب الجسم الزائر أكثر، واتضاح السمات المادية له بصورةٍ أكثر دقةً عن طريق أجهزة الاستشعار المتعددة التي وُجِّهت ناحيته، تم التأكد من أن تلك المركبة الفضائية مماثلة — على الأقل في شكلها الخارجي — لمركبة راما ١ التي سبقتها. لقد عادت راما. وأضحت البشرية على موعد آخر مع القدر.

الفصل الثاني

الاختبار والتدريب

سار المخلوق المعدني الغريب بطول الجدار بحذر وببطء شديد، زاحفًا إلى أعلى متجهًا إلى الجزء المتدلي من السقف. لقد كان يشبه حيوان المُدرَّع لكنه نحيل، فجسده الحلزوني ذو المفاصل مغطًّى بصدفة رقيقة ملتفَّة حول مجموعة مضغوطة من الأدوات الإلكترونية على كلا الجانبين في منتصف أجزائه الثلاثة. وكانت هناك طائرة مروحية تُحلق على مسافة مترين من الجدار. ويخرج من مقدمتها ذراعٌ طويلة ومرنة تنتهي بكماشة تحاول إطباق مخلبَيها على ذلك المخلوق الغريب، إلا أنه أفلت عندما أوشكت أن تمسك به.

صاح جانوس تابوري متذمرًا: «اللعنة، إن الأمر شبه مستحيل مع استمرار تحرُّك الطائرة. وحتى في أفضل الأحوال لا يمكن العمل بدقة مع امتداد هذين المخلبين بكامل طولهما.» وألقى نظرة خاطفة على الطيار. ثم قال: «ولماذا لا يمكن لهذه الطائرة الرائعة أن تحافظ على ارتفاعها وثباتها؟»

فأمره الدكتور ديفيد براون، قائلًا: «تحرك بالطائرة لتصبح أكثر قربًا من الجدار!»

نظر هيرو ياماناكا إلى براون دون أن ينطق بكلمة، وأدخل أمرًا إلى لوحة التحكم. فأومضت الشاشة التي أمامه باللون الأحمر، وظهرت رسالة تقول: «الأمر مرفوض. قدرة تحمُّل غير كافية.» لم ينبس ياماناكا ببنت شفة. وظلت الطائرة تُحلق في مكانها نفسه.

فكر براون بصوت عالٍ، قائلًا: «هناك مسافة خمسين سنتيمترًا أو ربما خمسة وسبعين بين مروحة الطائرة والجدار. وسيصبح ذلك الكائن الآلي آمنًا عندما يستقر تحت ذلك الجزء المتدلي بعد دقيقتين أو ثلاث. فلننتقل إلى التحكم اليدوي ونحاول الإمساك به. افعل ذلك الآن. ولا ترتكب أي خطأ هذه المرة يا تابوري.»

حدَّق هيرو ياماناكا لحظة برِيبة في العالم الأصلع الذي يرتدي نظارةً طبية، والجالس على مقعدٍ خلفه. ثم التفت الطيار وأدخل أمرًا آخر إلى لوحة التحكم، وحوَّل المقبض

الأسود الكبير إلى اليسار. فأومضت الشاشة برسالة تقول: «الطائرة الآن في وضع التحكم اليدوي. لا توجد حماية آلية.» فأخذ ياماناكا يقترب بالطائرة من الجدار بحذر.

كان المهندس تابوري مستعدًّا. فأدخل يديه في القفازات المزوَّدة بأدوات تحكم، واختبر فتح وإغلاق المخالب الموجودة في نهاية الذراع المرن. ومرةً أخرى امتدَّت الذراع وأطبقت المخالب الآلية بخفة على الحيوان الحلزوني ذي المفاصل وعلى صَدفته. أدرك تابوري أنه نجح في الإمساك بفريسته عن طريق رد الفعل الصادر عن أجهزة الاستشعار المزوَّد بها القفازان. فصاح مُهللًا «لقد نجحت!» ثم بدأ عملية نقل الفريسة إلى الطائرة المروحية ببطء.

وهنا هبَّت رياح مفاجئة جعلت الطائرة تميل يسارًا، فاصطدمت الذراع والكائن الآلي بالجدار. شعر تابوري بأنه يفقد السيطرة على قبضته. فصرخ قائلًا: «ثبت الطائرة!» واستمر في عملية جذب الذراع. وبينما كان ياماناكا يكافح كي يوقف ترنُّح الطائرة، أمال المقدمة قليلًا عن غير عمد. فسمع أفراد الطاقم الثلاثة الصوت المزعج لاصطدام المروحة المعدنية الدوَّارة بالجدار.

أسرع الطيار الياباني بالضغط على زر الطوارئ، فعادت الطائرة إلى وضع التحكم الآلي. وفي أقل من ثانية دوَّى صوت إنذار حاد وأومضت الشاشة باللون الأحمر. «تعرَّضت الطائرة لأضرار بالغة. هناك احتمال كبير لوقوع عطل، أخْلِ الطائرة.» لم يتردد ياماناكا. وفي لحظات معدودة انطلق من كابينة القيادة وفتح مظلة الهبوط. ثم تبعه تابوري وبراون. وما إن أخرج المهندس المجري يده من القفازات المجهزة حتى تراخت قبضة المخالب الواقعة في نهاية الذراع الآلية، وسقط الكائن الشبيه بحيوان المُدرَّع من مسافة مائة متر مصطدمًا بالسهل المنبسط أسفل، وتهشَّم إلى أشلاء متناثرة.

هوَت الطائرة، التي أصبحت دون طيار، بعنف نحو السهل. ومع أن خوارزميات الهبوط الآلي كانت قيد العمل والتحكم الكامل، فقد قفزت الطائرة بشدة على قوائمها عندما ارتطمت بالأرض، وانقلبت على جانبها. وعلى مسافة ليست ببعيدة من مكان هبوط الطائرة، ومن مصعد مفتوح قفز رجلٌ سمين يرتدي بذلة عسكرية بُنية اللون ومغطاة بالأشرطة. كان قد نزل لتوِّه من مركز تحكم المهمة، وكان يبدو عليه الغضب وهو يتجه مسرعًا نحو طوافة كانت في انتظاره. وتبعته سيدة شقراء مسرعة ورشيقة ترتدي زي طياري وكالة الفضاء العالمية، وتُعلق معدات تصوير على كتفَيها. كان الرجل الذي يرتدي الزي العسكري هو الجنرال فاليري بورزوف، القائد الأعلى لـ «مشروع نيوتن».

فسأل مهندس الكهرباء، ريتشارد ويكفيلد، الذي كان موجودًا في الطوافة: «هل وقعت أي إصابات؟»

«يبدو أن كتف جانوس قد اصطدم بشدة أثناء قفزه من الطائرة. بيد أن نيكول بعثت لتوها رسالةً لا سلكية تخبرنا فيها بأنه لم يُصَب بأي كسور في العظام أو خلع، لكن به عددًا كبيرًا من الكدمات.»

صعد الجنرال بورزوف إلى المقعد الأمامي بالمركبة بجانب ويكفيلد، الذي كان يجلس أمام لوحة التحكم. وتوقفت السيدة الشقراء — المراسلة الصحفية فرانشيسكا ساباتيني — عن تصوير المشهد، وبدأت في فتح الباب الخلفي للطوافة. لكن الجنرال بورزوف منعها بحزم، وقال لها وهو يشير عبر السهل المنبسط: «اذهبي للاطمئنان على نيكول دي جاردان وتابوري. وعلى الأرجح سيكون ويلسون قد ذهب إلى هناك بالفعل.»

استقل بورزوف وويكفيلد المركبة وذهبا في الاتجاه المعاكس. وقد سارا لمسافة تقترب من الأربعمائة متر قبل أن يتوقفا بجانب ديفيد براون، وهو رجل نحيل يناهز الخمسين عامًا ويرتدي بذلة طيار جديدة. لقد كان مشغولًا بطيِّ مظلة الهبوط ووضعها في حقيبة صغيرة. فترجَّل الجنرال بورزوف عن الطوافة واقترب من العالم الأمريكي.

وسأله الجنرال، وكان من الواضح أنه لا يطيق الخوض في أي مقدمات: «هل أنت بخير يا دكتور براون؟»

فأومأ براون برأسه موافقًا ولكنه لم يرد. فأكمل الجنرال بورزوف بلهجة حازمة: «إذَن، ربما يمكنك أن توضح لي ما كان يجول في خاطرك عندما أمرت ياماناكا باستخدام التحكم اليدوي؟ فقد يكون من الأفضل أن نناقش الأمر هنا، بمنأًى عن سائر الطاقم.»

ظل الدكتور ديفيد براون صامتًا، فاستكمل بورزوف بعد لحظة صمت قصيرة: «ألم ترَ إشارات الإنذار؟ ألم تفكر، ولو لحظة، في أن سلامة باقي الرواد قد تتعرض للخطر بسبب تلك المناورة؟»

في النهاية حدق براون في بورزوف بنظرة عابسة وساخطة. وعندما تحدث أخيرًا كانت كلماته مقتضبة ومصطنعة، وتتناقض مع المشاعر التي يكتمها داخله. فقال: «بدا لي أن الحكمة تقتضي تحريك الطائرة المروحية لتصبح أقرب إلى الهدف. كان أمامنا مساحة فارغة متبقية، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمكننا من الإمساك بالكائن الآلي. فمهمتنا في النهاية هي إعادة ...»

قاطعه بورزوف منفعلًا: «لست في حاجة لأن تخبرني بماهية مهمتنا. تذكر أنني اشتركت في كتابة هذه المهمة بنفسي. وسأذكرك مرةً أخرى أن أهم أولوية هي دائمًا سلامة

الطاقم. ولا سيما في عمليات المحاكاة هذه ... يجب أن أخبرك أنني مصدوم تمامًا بسبب العمل الجنوني الذي قمت به. فلقد تحطمت المروحية، وأصيب تابوري، ومن حسن حظك أن أحدًا لم يلقَ حتفه.»

لم يعد ديفيد براون يعير انتباهه إلى ما يقوله الجنرال بورزوف. لقد استدار لينتهي من وضع مظلة الهبوط في حقيبتها الشفافة. وكان واضحًا من وضع أكتافه والقوة التي يؤدي بها تلك المهمة البسيطة، أنه كان يستشيط غضبًا.

عاد بورزوف إلى الطوافة. وبعد أن انتظر ثواني معدودة عرض على الدكتور براون أن يوصله إلى القاعدة. فهزَّ الطبيب الأمريكي رأسه دون أن ينطق بكلمة، ووضع الحقيبة على ظهره، ومضى في اتجاه المروحية والمصعد.

الفصل الثالث

اجتماع الطاقم

خارج غرفة الاجتماعات في مبنى التدريب، كان جانوس تابوري جالسًا على أحد المقاعد التي تعلوها مجموعة من مصابيح محمولة صغيرة الحجم غير أنها تتميز بقوة إضاءتها الشديدة. وكان يشرح ما حدث أمام عدسة الكاميرا الصغيرة التي تحملها فرانشيسكا ساباتيني، ويقول: «لقد كانت المسافة التي يقع عليها الكائن الآلي في نطاق الذراع الآلية. وقد حاولت الإمساك به مرتين لكنني فشلت. فقرر الدكتور براون وقتها نقل المروحية إلى وضعية التحكم اليدوي، والاقتراب أكثر من الجدار. ثم اعترضت الرياح طريقنا ...»

انفتح باب غرفة المؤتمرات، وطل منه وجهٌ باسم ومتورِّد اللون. كان هذا الوجه هو وجه الجنرال أوتول الذي تحدَّث بلطف قائلًا: «نحن جميعًا بانتظارك هنا. أعتقد أن بورزوف قد أصبح ضيِّق الصدر إلى حدٍّ ما.»

أطفأت فرانشيسكا المصابيح، وأعادت كاميرا الفيديو إلى جيب بذلة الطيران التي ترتديها. وقالت ضاحكة: «حسنًا يا بطلي المجري، من الأفضل أن نتوقف الآن. فأنت تعرف كم يكره رئيسنا الانتظار.» ثم تحركت وأحاطت بلطفٍ الرجل النحيل بذراعَيها. وربَّتت على كتفه المربوط بالضمادة. ثم قالت: «لكننا مسرورون للغاية أنك بخير.»

كان هناك رجل وسيم، ذو بشرة سوداء في أوائل الأربعينيات من عمره، جالس على بعد مسافة صغيرة للغاية من إطار الكاميرا خلال اللقاء الذي كانت فرانشيسكا تُجريه، وكان يكتب ملحوظاته على لوحة مفاتيح مسطحة ومستطيلة الشكل، يبلغ طولها قرابة القدم المربع. فتبع فرانشيسكا وجانوس إلى غرفة المؤتمرات. همس ريجي ويلسون إلى تابوري وهما يجلسان: «أريد أن أكتب هذا الأسبوع مقالةً خاصة عن خطة التصميم الجديد الخاصة بالعمليات التي يجري التحكم فيها عن بعد للذراع والقفاز. فهناك مجموعة من قُرائي يرون أن كل هذا الهراء التقني مذهل للغاية.»

دوَّى صوت بورزوف الساخر في أرجاء غرفة المؤتمرات: «أنا سعيد بحضور ثلاثتكم. فكنت قد بدأت أفكر في أنه ربما كان الاجتماع بالطاقم عبئًا ثقيلًا عليكم جميعًا، ويعطلكم عن مهامكم الأكثر أهميةً المتمثلة في الإبلاغ عمَّا يصادفنا من مشكلات، أو كتابة أبحاث علمية وهندسية تنمُّ عن سعة اطلاعكم.» وأشار إلى ريجي ويلسون، الذي كان يضع أمامه على الطاولة لوحة المفاتيح المسطحة التي يصطحبها معه في كل مكان. ثم قال: «ويلسون، ألم يخطر ببالك أن قيامك بمهامك بصفتك عضوًا في هذا الطاقم له أولوية تفوق مهامك الصحفية؟ ألا تعتقد أن عليك — ولو لمرة واحدة — وضع هذا الجهاز اللعين جانبًا وتنصت لما أقول؟ لديَّ بعض النقاط التي أرغب في إخباركم بها، وأريد أن يكون ذلك الحديث سرًّا بيننا.»

وضع ويلسون لوحة المفاتيح في حقيبته. وفي الوقت نفسه نهض بورزوف وسار في الغرفة وهو يتحدث. كانت الطاولة الموجودة في غرفة اجتماعات الطاقم بيضاوية وطويلة، ويصل عرضها إلى مترين عند أعرض جانبَيها. وحولها اثنا عشر مقعدًا (وعندما يحضر ضيوف ومراقبون يجلسون على المقاعد الإضافية المواجهة للجدران)، وأمام كلٍّ منها لوحة مفاتيح كمبيوتر وشاشة مدمجة في سطح الطاولة، ومغطاة — عندما لا يكون هناك من يستخدمها — بغطاء محبب مصقول يتناسب والخشب الاصطناعي الفاخر المصنوع منه باقي الطاولة. وكالعادة جلس الرجلان العسكريان الآخران في البعثة — الفريق البحري الأوروبي أوتو هيلمان (بطل تدخل مجلس الحكومات في أزمة كاراكاس)، وجنرال القوات الجوية الأمريكية مايكل رايان أوتول — على جانبَي بورزوف عند طرف الطاولة البيضاوية. أما سائر أعضاء طاقم نيوتن التسعة، فلم يكونوا يجلسون دائمًا في نفس المقاعد، وهو الأمر الذي كان يزعج الفريق البحري هيلمان المهووس بالنظام، ويزعج القائد العام للمشروع بورزوف ولكن بدرجة أقل.

أحيانًا ما كان يتجمع «غير المهنيين» الأربعة من أعضاء الطاقم حول الطرف الآخر للطاولة، بعيدًا عن «رواد الفضاء المبتدئين» الخمسة، كما كان يطلق على الرواد حديثي التخرج من أكاديمية الفضاء؛ مما يؤدي إلى خلق منطقة فاصلة في الوسط. وبعدما يقرب من عام من التغطية الإعلامية المستمرة صنَّف الجمهور كل عضو من أعضاء مشروع نيوتن الاثني عشر في واحد من مجموعات فرعية ثلاثة؛ مجموعة غير المهنيين، التي تتكون من العلماء والصحفيين، ومجموعة الثلاثي العسكري، ومجموعة رواد الفضاء الخمسة الذين يقومون بمعظم العمل المتخصص خلال المهمة.

ومع ذلك فقد كانت المجموعتان غير العسكريتين مختلطتين تمامًا في هذا اليوم بصورة خاصة. كان العالم الياباني الشهير المتخصص في العديد من العلوم، شيجيرو تاكاجيشي، جالسًا في منتصف الطاولة بين قائدة الطائرة السوفييتية، إيرينا تورجينيف، والرائد الفضائي الذي يعمل مهندسًا للكهرباء، ريتشارد ويكفيلد. ويُعَد شيجيرو تاكاجيشي من أكثر خبراء العالم درايةً ببعثة راما ١ التي وقعت منذ سبعين عامًا (وهو أيضًا مؤلف كتاب «أطلس راما»، الذي كان على جميع أفراد الطاقم قراءته). وكانت الطبيبة المسئولة الجميلة قمحية اللون نيكول دي جاردان، وهي فرنسية ذات أصول أفريقية، والطيار الياباني شبه الآلي والهادئ ياماناكا، والسيدة المذهلة فرانشيسكا، يجلسون في الجهة المقابلة. أما في الطرف «الجنوبي» من الطاولة البيضاوية، أمام الخرائط والرسومات البيانية الكبيرة الخاصة براما المعلقة على الحائط المقابل، فكان الصحفي الأمريكي ويلسون، وتابوري الثرثار (رائد فضاء سوفييتي من بودابست)، والدكتور ديفيد براون يشغلون المقاعد الثلاثة الأخيرة. كان براون يبدو عمليًّا وجادًّا، ولديه مجموعة من المستندات المنثورة أمامه عند بداية الاجتماع.

قال بورزوف وهو يسير بحزمٍ عبر الغرفة: «لا أستطيع أن أتصور أنه يمكن أن ينسى أيٌّ منكم — ولو للحظة — أنه جرى انتقاؤكم للقيام بأهم مهمة إنسانية في التاريخ. لكن بعدما حدث في آخر مجموعة من عمليات المحاكاة، يجب أن أقر بأنني بدأت أشك في قدرات بعضكم.»

ثم أكمل بورزوف: «هناك من يعتقدون أن مركبة راما ٢ ستكون نسخة مطابقة لسابقتها، وأنها ستكون غير مهتمة أيضًا بأي مخلوقات عديمة القيمة ستذهب لدراستها. وبناءً على بيانات الرادار التي كنا نحللها في السنوات الثلاثة الماضية، فعليَّ أن أعترف بأنها تبدو بلا شك بالحجم والشكل أنفسهما. لكن حتى إن اتضح أنها مجرد سفينة فضاء معطلة صمَّمتها كائنات من خارج كوكب الأرض واندثروا منذ آلاف السنين، فستظل هذه المهمة أهم مهمة في حياتنا. وأعتقد أنها تتطلب أقصى مجهود يمكن أن تبذلوه.»

توقَّف الجنرال السوفييتي عن الحديث لوهلة كي يستجمع أفكاره. فهمَّ جانوس تابوري بطرح سؤال، لكن بورزوف قاطعه وأكمل خطبته الفردية. وقال: «لقد كان أداؤنا كطاقم في مجموعة التدريبات الأخيرة تلك سيئًا للغاية. لقد كان أداء بعضكم رائعًا — وهم يعرفون أنفسهم — لكن كثيرًا منكم تصرف كما لو أنكم نسيتم الهدف وراء هذه المهمة. أنا على قناعة من أن اثنين أو ثلاثة منكم لا يقرءون حتى الإجراءات المتبعة أو

بنود البروتوكولات قبل بداية التدريب. أتفق معكم بأنها مملة ومضجرة في بعض الأحيان، لكنكم جميعًا وافقتم عندما قبلتم بتعيينكم في هذه المهمة منذ عشرة أشهر أن تتعرفوا على الإجراءات وأن تلتزموا بالبروتوكولات وسياسات المشروع. وذلك يتضمن من ليس لهم خبرة سابقة منكم بالطيران.»

توقف بورزوف أمام إحدى الخرائط الكبيرة المعلقة على الحائط، وكانت هذه الخريطة تظهر ركنًا من أركان مدينة «نيويورك» داخل سفينة راما ١. فقد وُضع رسم جزئي لمنطقة تحتوي على مبانٍ طويلة تشبه ناطحات السحاب بمانهاتن، وتستقر جميعًا على جزيرة في وسط البحر الأسطواني، عندما التقى البشر بالمركبة في المرة السابقة. ثم تحدَّث بورزوف قائلًا: «سوف نلتقي بعد ستة أسابيع بمركبة فضائية مجهولة، ربما تحتوي داخلها على مدينة كهذه، والبشرية بأسرها تعتمد علينا كي نمثلها. وليس بإمكاننا معرفة ما ينتظرنا هناك. فاستعداداتنا مهما بلغت يمكن أن تكون غير كافية. ويجب أن تكون معرفتنا بالإجراءات المعدة مسبقًا تامة وتلقائية، حتى تكون أذهاننا صافية للتعامل مع أي ظروف جديدة يمكن أن نواجهها.»

جلس القائد على رأس الطاولة. ثم قال: «لقد أوشك تمرين اليوم على أن يكون كارثة. وكان من الممكن أن نفقد ثلاثة من أعضاء فريقنا ممن يتمتعون بصفات باهرة، وذلك بالإضافة إلى فقدان أغلى طائرة مروحية في التاريخ. أريد أن أذكركم جميعًا، وللمرة الثانية، بأولويات هذه المهمة كما حدَّدتها وكالة الفضاء العالمية ومجلس الحكومات. فسلامة الطاقم تتصدر قائمة أولويات المهمة. ويأتي بعدها تحليل أي خطر محتمل على سكان كوكب الأرض أو تحديده أو كليهما، إن وُجدا.» أخذ بورزوف ينظر مباشرة إلى براون الجالس في آخر الطاولة، الذي رد بدوره على نظرة القائد المليئة بالتحدي بنظرة تخلو من المشاعر. فاستكمل حديثه قائلًا: «فلا قيمة للإمساك بكائن آلي أو أكثر إلا بعد تحقيق هاتين الأولويتين والتأكد من أن المركبة راما غير عدائية.»

بادَر ديفيد براون على الفور بالحديث بصوته الجهوري قائلًا: «أود أن أذكِّر الجنرال بورزوف بأن بعضنا لا يؤمن بالالتزام بتطبيق الأولويات بطريقة عمياء ومتسلسلة. إذ لا ينبغي إغفال أهمية الكائنات الآلية البالغة للمجتمع العلمي. وكما سبق وذكرت مرارًا وتكرارًا في اجتماعات الرواد وفي التلفزيون، إذا كانت المركبة الفضائية راما ٢ مثل راما ١ — مما يعني أنها ستتجاهلنا تمامًا — وأخذنا نتقدم بخُطًا بطيئة حتى نفشل في أن نمسك بكائن فضائي واحد على الأقل قبل أن نضطر إلى مغادرة السفينة الفضائية والعودة إلى

الأرض، فعندها سنكون قد ضحَّينا بفرصة نادرة جدًّا للعلم من أجل تهدئة مشاعر الذعر الجماعي الذي يعانيه سياسيُّو العالم.»

همَّ بورزوف بالرد، لكن براون نهض واقفًا وأشار بيديه على نحو حاسم. وقال: «لا، لا، استمع إليَّ. لقد اتهمتني بعدم الكفاءة فيما قمت به في تدريب اليوم، ويحق لي الرد على اتهامك.» فأمسك بصفحة مطبوعة ولوَّح بها أمام بورزوف. وقال: «ها هي الظروف الأولية لتدريب المحاكاة الذي خُضناه اليوم، كما أعلنها مهندسوك وحدَّدوها. دعني أنعش ذاكرتك ببعض النقاط البارزة المذكورة فيها، إذا كنت قد نسيتها. الظرف الأولي رقم ١: لقد أشرفت المهمة على الانتهاء، وجرى التوصل إلى أن مركبة راما ٢ سلمية ولا تمثل أي تهديد لكوكب الأرض. الظرف الأولي رقم ٢: في خلال الرحلة الاستكشافية لم تُشاهد الكائنات الآلية إلا فُرادى، ولم تُرَ في مجموعات قط.»

أدرك ديفيد براون من إيماءات سائر أفراد الطاقم أنه نجح في استهلال كلامه. فالتقط أنفاسه، ثم أكمل حديثه. وقال: «بعد قراءتي للظروف الأولية هذه، افترضت أن هذا التمرين على وجه الخصوص قد يكون آخر فرصة للإمساك بكائن آلي. وظللت أفكر طوال الاختبار فيما سيحدث إذا ما استطعنا الإمساك بكائن آلي أو أكثر والعودة بهم إلى الأرض؛ ففي تاريخ البشرية أجمع لم يحدث اتصالٌ أكيد بثقافة من خارج الأرض إلا عام ٢١٣٠، عندما صعد رواد الفضاء التابعون لنا على متن المركبة الفضائية راما ١.

ومع ذلك فقد كانت المنفعة العلمية طويلة الأجل التي عادت من ذلك الاتصال أقل من المفترض. نتفق جميعًا على أن لدينا كمًّا هائلًا من البيانات من التحقيق الأول الذي أجري، بما في ذلك المعلومات المستقاة من التشريح المفصل الذي أجْرته الدكتورة لورا إيرنست لكائن العنكبوت الآلي. لكن رواد الفضاء لم يُحضروا معهم إلا كائنًا آليًّا واحدًا، وكان قطعة صغيرة من نوعٍ ما من الزهور الآلية التي تغيرت خصائصها المادية بصورة تامة قبل إدراك أيٍّ من ألغازها. وليس لدينا أي تذكار آخر من تلك الرحلة الأولى. فلا يوجد مطفأ سجائر أو أكواب للشرب، أو حتى ترانزيستور خاص بأي جهاز ليُطلِعنا على أي سمة من سمات التقنية الهندسية لسكان راما. والآن لدينا فرصة ثانية.»

نظر الدكتور براون إلى أعلى متأملًا السقف الدائري فوقه. وتحدث بصوت مليء بالقوة. وقال: «إذا ما نجحنا في اكتشاف كائنين آليين مختلفين أو ثلاثة وإحضارهم إلى الأرض، ثم حللناهم للكشف عمَّا يُخفوه من أسرار، فستكون هذه المهمة حينها بلا شكٍّ أهمَّ حدث تاريخي. ذلك لأن التعمق في فهم العقول الهندسية لسكان راما سيُمكِّننا من إجراء أول اتصال حقيقي بهم.»

لقد أثَّر ذلك الكلام حتى في بورزوف نفسه. فكعادته دائمًا، استغل ديفيد براون فصاحته في تحويل الهزيمة إلى انتصار جزئي. فقرر الجنرال السوفييتي تغيير استراتيجيته، فتحدث بلهجة لطيفة، وقال براون خلال التوقف المؤقت عن الكلام: «لكن يجب ألا ننسى أن حياة البشر في هذه المهمة معرَّضة للخطر، ويجب ألا نعرض سلامتهم لأي خطر.» ثم نظر حول الطاولة إلى باقي أفراد الطاقم. واستكمل حديثه: «لديَّ رغبة لا تقل عن رغبة أيٍّ منكم في إحضار كائنات آلية وغيرها من العينات من راما، لكن يجب أن أُقرَّ بأن الافتراض المتهور بأن المركبة الثانية ستكون مشابهة تمامًا للمركبة الأولى يزعجني للغاية. فما الدليل الذي نملكه من الزيارة الأولى ويؤكد أن سكان راما، أو أيًّا كان اسمهم، هم قوم مسالمون؟ لا نملك أي دليل. إن الإمساك بكائن فضائي قبل الوقت المناسب قد يكون محفوفًا بالمخاطر.»

تدخَّل ريتشارد ويكفيلد الذي كان يجلس في جانب الطاولة في حديث بورزوف وبراون. وقال: «لكن لا توجد أي طريقة لنتأكد من ذلك، أيها القائد. فحتى لو تحققنا من أن سفينة الفضاء هذه مطابقة تمامًا للسفينة الأولى، فلن يكون لدينا أي معلومات حول ما سيحدث إذا ما سعينا للإمساك بكائن آلي. فلنفترض أن الدكتور براون على حق، وأن السفينتين ليستا إلا جسمين آليين شديدَي التعقيد، وقد صممهما جنس من الجانب المقابل في المجرة منذ ملايين السنين، ولم يعد له وجود. كيف يمكننا حينها أن نتوقع ما بُرمجت تلك الكائنات عليه في حالة تعرضها لأي هجوم؟ وماذا سيحدث لو أن تلك الكائنات الآلية — بطريقة أو بأخرى — هي جزء لا يتجزأ من العملية الرئيسية لتشغيل المركبة؟ ومع أن تلك الكائنات هي مجرد آلات فسيكون من الطبيعي حينذاك أن تكون تلك الكائنات مبرمجة على حماية أنفسها. ويمكن تصور أن ما قد يبدو عملًا عدائيًّا من جانبنا يمكن أن يكون الزر الذي يغير طريقة عمل السفينة كليًّا. فأنا أتذكر قراءة موضوع عن مركبة فضاء آلية اصطدمت ببحر الإثين بقمر تيتان عام ٢٠١٢، وقد كانت تتضمن متوالية مختلفة تمامًا بناءً على …»

قاطعه جانوس تابوري بابتسامة ودودة. وقال: «صه، إن أسرار الاستكشاف الآلي الأول للنظام الشمسي ليس مدرجًا في جدول أعمال تقييم اليوم.» ونظر إلى بورزوف عبر الطاولة. ثم قال: «أيها القائد، إن كتفي يؤلمني، ومعدتي فارغة، وقد أنهكني تدريب اليوم. كل هذا الحديث رائع، لكن إن لم يكن هناك أي مسألة عمل محددة، فهل سيكون من غير الملائم أن أقترح إنهاء هذا الاجتماع مبكرًا حتى يتسنى لنا الوقت الكافي، ولو لمرة واحدة، كي نحزم أمتعتنا؟»

انحنى الفريق البحري هيلمان على الطاولة. ثم قال: «تابوري يا رائد الفضاء، إن الجنرال بورزوف هو المسئول عن اجتماعات الطاقم. والقرار يرجع إليه ...»

أشار القائد السوفييتي بذراعه إلى هيلمان. وقال: «كفى يا أوتو، أعتقد أن جانوس على حق. لقد كان يومًا طويلًا بعد سبعة عشر يومًا من العمل المضني. وستكون هذه المحادثة أكثر نفعًا إذا ما أجريناها ونحن جميعًا نشطون.»

نهض بورزوف. ثم قال: «حسنًا، سننصرف الآن. وسترسل مكاكيك الفضاء إلى المطار بعد العَشاء مباشرة.» بدأ الطاقم في الاستعداد للرحيل. أضاف بورزوف: «وخلال فترة راحتكم القصيرة أريد من كل واحد منكم أن يفكر بشأن المرحلة التي نحن فيها من جدول الأعمال. فلم يعد أمامنا إلا أسبوعان للقيام بتدريبات المحاكاة هنا في مركز التدريب قبل بداية إجازة آخر العام. وبعد ذلك مباشرة سنبدأ أنشطة ما قبل الانطلاق المكثفة. وتعد مجموعة التدريبات الأخيرة هذه فرصتنا الأخيرة لتصحيح الأوضاع. وأنتظر من كلٍّ منكم أن يعود وهو على أتم الاستعداد للعمل المتبقي، ومقدر لأهمية هذه المهمة.»

الفصل الرابع

الفوضى العارمة

كان لاختراق سفينة الفضاء راما ١ للنظام الشمسي الداخلي، بداية عام ٢١٣٠، أثره العظيم على تاريخ البشرية. ومع عدم وقوع أي تغييرات فورية في أسلوب الحياة اليومية بعد عودة الطاقم بقيادة القائد نورتون من مواجهة سفينة راما ١، فقد فرض الدليل الواضح والقاطع بوجود ذكاء فائق بدرجة كبيرة (أو على الأقل وجوده فيما مضى) إعادة التفكير في موقع الإنسان في النظام الشامل للكون. فقد أصبح جليًّا الآن أن المواد الكيماوية الأخرى — التي تكونت أيضًا وبلا شك لدى وقوع التغيرات الكوكبية العنيفة في السماء — قد نمت وأصبحت ذات إدراك في مكان وزمان آخرين. فمن كانوا سكان راما أولئك؟ ولماذا بنوا مثل تلك السفينة الفضائية العملاقة والمعقدة وأرسلوها في رحلة استكشافية إلى عالمنا؟ لقد ظل الحديث عن سكان راما هو موضوع الساعة لشهور عديدة في الأحاديث العامة والشخصية على السواء.

ولقد انتظر الجنس البشري ما يزيد على العام بشيء من الصبر إشارةً أخرى تدل على وجود سكان راما في الكون. وأُجريت دراسات تليسكوبية مكثفة على طول الموجة لرؤية هل من الممكن الحصول على أي معلومات إضافية ذات صلة بسفينة الفضاء المتقهقرة. لكن لم يكن هناك شيء. وكانت السماء هادئة. لقد رحل سكان راما بنفس السرعة والغرابة التي جاءوا بها.

وما إن عادت محطة الرادار إكسكاليبور للعمل وأظهر بحثها الأولي أنه لا يوجد أي شيء جديد يلوح في الآفاق، حتى حدث تغير ملحوظ في الموقف الجماعي للبشر تجاه أول اتصال براما. فبين ليلة وضحاها تحوَّل الاتصال براما إلى حدث من التاريخ، قد وقع وولى. فقد تحوَّلت النبرة التي كانت تسود مقالات الصحف والمجلات وتبدأ بعبارات مثل «عندما يعود سكان راما ...» حتى أصبحت «لو حدث اتصال آخر مع المخلوقات

التي صنعت السفينة الفضائية الضخمة التي اكتُشفت عام ٢١٣٠ ...» وهكذا فقد تراجع الحدث، الذي كان يُعد يومًا ما تهديدًا محدقًا بالسلوك المستقبلي للإنسان، إلى مجرد فضول تاريخي. لم تعد هناك حاجة مُلحَّة لتناول تلك القضايا الرئيسية مثل عودة سكان راما أو مصير الجنس البشري في كون يعجُّ بالمخلوقات الذكية. فاسترخى الجنس البشري، على الأقل لوهلة. ثم انفجر البشر في نوبة مفاجئة من النرجسية التي جعلت جميع العصور التاريخية التي شهدت أنانية فردية تبدو هينة مقارنة بها.

كان من السهل استيعاب انتشار موجة الانغماس في ملذات النفس المطلقة على نطاق عالمي. لقد تغيرت سمة رئيسية في النفس البشرية نتيجة للاتصال بمركبة راما الفضائية الأولى. فقبل الاتصال بالمركبة كان الجنس البشري هو النموذج الأوحد للذكاء المتقدم في الكون. فكانت فكرة أن الجنس البشري يستطيع، كمجموعة، أن يتحكم في قدره عنصرًا حيويًّا في جميع فلسفات الحياة الناجحة. لقد غيَّر وجود سكان راما (سواء كان في هذا الزمان أو في زمانٍ ولى، فالمنطق الفلسفي توصل إلى النتيجة ذاتها) كل شيء. لم يكن الجنس البشري فريدًا، وقد لا يكون حتى متميزًا. وكانت المسألة مجرد مسألة وقت قبل أن تتحطم الفكرة السائدة بأن الإنسان مركز الكون في ظل وعي أكثر وضوحًا عن «الآخرين». ولذلك كان من السهل استيعاب السبب وراء تغير أساليب حياة أغلب البشر فجأة إلى تمجيد الذات، وهو ما قد يذكر علماء الأدب بوقت مماثل منذ خمسة قرون تقريبًا، عندما حض روبرت هيريك الفتيات العذارى على استغلال أعمارهن القصيرة في قصيدة تبدأ بقوله «اجمعن براعم الزهور عندما تستطعن؛ فالزمن الغابر لا يزال قصيرًا ...»

فاستمرَّت موجة من الاستهلاك الظاهر والجشع العالمي لما يقرب من السنتين. وكان الاستحواذ الجنوني على كل ما يمكن للعقل البشري أن ينتجه يستند على بنية تحتية اقتصادية ضعيفة تتأهب بالفعل لانكماش اقتصادي في بداية عام ٢١٣٠، عندما حلقت السفينة الفضائية راما ١ عبر النظام الشمسي الداخلي. وقد تأخَّر وقوع الركود الاقتصادي الوشيك عامَي ٢١٣٠ و٢١٣١ نتيجة أعمال التلاعب التي قامت بها الحكومات والمؤسسات المالية، دون معالجة فعلية لعوامل الضعف الاقتصادي الرئيسية. وبوقوع الموجة الثانية من حمى الشراء عام ٢١٣٢، قفز العالم مباشرة إلى مرحلة أخرى من النمو السريع. فزادت كميات الإنتاج، وانتعشت أسواق الأوراق المالية، وارتفع كلٌّ من ثقة المستهلك وإجمالي العمالة إلى معدلات لم تشهدها من قبل. وشهد العالم ازدهارًا غير مسبوق، وكانت المحصلة النهائية هي تحسنًا قصير الأجل غير أنه كان ملموسًا في مستوى معيشة أغلب البشر.

وبنهاية عام ٢١٣٣ أصبح من الواضح لبعض متابعي تطورات التاريخ الإنساني الأكثر خبرة أن «الازدهار الذي حدث بسبب راما» كان يقود البشرية إلى كارثة. وبدأت أصوات التحذيرات المفزعة من أزمة اقتصادية وشيكة تعلو على صوت الصرخات المتهللة للملايين من الذين قفزوا حديثًا إلى الطبقة المتوسطة أو العليا. وقوبلت بالتجاهل الشديد جميع الاقتراحات التي قُدمت بهدف إحداث التوازن في الموازنات العامة للدول، والحد من القروض الائتمانية على جميع مستويات الاقتصاد. وبدلًا من ذلك استُنفدت جميع الجهود الإبداعية في التوصل إلى طريقة بعد أخرى لوضع قوة شرائية في أيدي العامة الذين نسوا كيف يقولون لأهوائهم «تمهلي» أو «لا».

أخذ سوق الأوراق المالية العالمي يطلق صيحات التحذير في يناير من عام ٢١٣٤، وكان هناك توقعات بحدوث انهيار اقتصادي. لكن مفهوم ذلك الانهيار كان يفوق إدراك أغلب البشر في الأرض وعبر المستعمرات المتناثرة في النظام الشمسي. فمع كل ذلك ظل الاقتصاد العالمي يتوسع لما يزيد على تسعة أعوام، محققًا معدلًا في السنتين الأخيرتين غير مسبوق في القرنين الماضيين. وأصرَّ قادة العالم على أنهم توصلوا أخيرًا إلى الآليات التي من شأنها منع حالات الانكماش الاقتصادي للدورات الرأسمالية. وصدقهم الناس — حتى بداية شهر مايو عام ٢١٣٤.

فعلى مدار الأشهر الثلاثة الأولى من هذه السنة تدهور سوق الأوراق المالية العالمي بصورة مفزعة وبطيئة في بادئ الأمر، ثم أخذ يتهاوى بصورة كبيرة. وربط الناس بين الأزمات التي يتعرض لها سوق الأوراق المالية بعودة مذنب هالي، مما يعكس الميل الخرافي للإيمان بالمذنبات الزائرة الذي كان سائدًا لألفَي سنة. وقد اتضح من مظهر المذنب الذي أخذ في الظهور في شهر مارس، أنه أكثر سطوعًا مما كان متوقعًا. وظل العلماء من جميع أنحاء العالم يتنافسون على مدار أسبوعين بهدف الوصول إلى سبب هذا السطوع الزائد عن المتوقع. وبعد أن مر بالحضيض الشمسي مندفعًا في نهاية شهر مارس وبدأ يظهر أثناء الليل في منتصف شهر أبريل، ملأ ذيله الهائل السماء.

وعلى العكس من ذلك هيمنت الأزمة الاقتصادية العالمية المتصاعدة على اهتمامات أهل الأرض. وفي الأول من مايو ٢١٣٤ أعلن ثلاثة من أكبر البنوك العالمية إفلاسهم بسبب الديون المتعسرة السداد. وفي خلال يومين انتشرت حالة من الذعر في أرجاء العالم. وجرى استخدام ما يزيد على مليار كمبيوتر يتمتع بحق الدخول إلى الأسواق المالية العالمية بغرض بيع محافظ الأوراق المالية والسندات الشخصية بأقل الأسعار. وكان حمل الاتصالات على نظام الشبكة العالمية هائلًا. وتعرضت آلات نقل البيانات عبر نظام الشبكة لحمل يزيد

كثيرًا على سعتها ومواصفات تصميمها. وقد أدى ازدحام البيانات إلى تأخير التعاملات لدقائق، ثم لساعات، الأمر الذي زاد من حالة الذعر.

وبعد مرور أسبوع أصبح هناك أمران جليان؛ أولهما: أن ما يزيد على نصف قيمة الأوراق المالية في العالم قد ذهب مع الريح، وثانيهما: أن الكثيرين من كبار المستثمرين وصغارهم، الذين استخدموا الحد الأقصى لخياراتهم الائتمانية، قد أفلسوا بالفعل. إن قواعد البيانات المساعدة التي من شأنها حفظ معلومات الحسابات المصرفية الشخصية وتحول النقود بصورة تلقائية لتغطية التأمينات النقدية، كانت تصدر رسائل مفجعة فيما يقرب من عشرين بالمائة من مؤسسات العالم.

لكن الموقف في حقيقة الأمر كان أسوأ من ذلك بمراحل. فلم تُصَفَّ إلا نسبة ضئيلة من المعاملات عن طريق أجهزة الكمبيوتر المساعدة؛ لأن معدلات البيانات في جميع الاتجاهات كانت تفوق أي معدلات جرى توقعها من قبل. ففي لغة الكمبيوتر اتجه النظام المالي العالمي بأكمله إلى حالة يطلق عليها خطأ الدورة. فعملت شبكة أجهزة الكمبيوتر على «تأجيل» عدد مهول من عمليات نقل المعلومات ذات الأولوية الدنيا، في حين أخذت في التعامل مع المهام ذات الأولوية القصوى أولًا.

وأدى ذلك التأخير في نقل البيانات إلى مرور ساعات، بل أيام، دون خصم المبالغ المستحقة من الحسابات المصرفية الإلكترونية الشخصية بصورة صحيحة لتغطية خسائر سوق المال المتزايدة في كثير من الحالات، وما إن أدرك المستثمرون من الأفراد ما يحدث حتى أسرعوا بإنفاق كل أرصدتهم قبل أن تستكمل أجهزة الكمبيوتر جميع المعاملات. وعندما أدركت الحكومة والمؤسسات المالية ما كان يحدث بصورة كاملة، وحاولوا اتخاذ إجراءات لوقف ذلك العمل الجنوني، كان الوقت قد فات. لقد انهار النظام المشوش تمامًا. وكانت عملية تدارك ما حدث تتطلب تفريغ ملفات نقاط الفحص الاحتياطية المخزنة فيما يقرب من مائة مركز من المراكز البعيدة حول العالم، وإدخالها بدقة.

وعلى مدار فترة تجاوزت ثلاثة أسابيع، تعذَّر على الجميع الدخول إلى نظام الإدارة المالية الإلكترونية الذي كان يتحكم في جميع المعاملات المالية. ولم يستطِع أي شخص معرفة حجم الأموال المتاحة في حسابه. ونظرًا لأن المعاملات النقدية المباشرة كانت قد ولت، فلم يكن هناك من يمتلك المال النقدي الكافي لشراء طعام يكفيه لمدة أسبوع إلا المحصلين وبعض الأفراد. وبدأ الناس يلجئون للمقايضة للحصول على الضروريات. وكانت التعهدات المستندة إلى الصداقة والمعرفة الشخصية هي التي مكنت العديد من

الأشخاص من النجاة مؤقتًا. لكن ما حدث ما كان إلا مبتدأ الأوجاع. فكلما أعلنت منظمة الإدارة الدولية التي أشرفت على النظام المالي العالمي أنها ستعود للعمل بنظام «الاتصال المباشر»، وناشدت الناس ألا يدخلوا على النظام «إلا في الحالات الطارئة»، تجاهل الناس تلك المناشدة وأغرقوا النظام بفيض من الطلبات، مما أدَّى إلى تعطل أجهزة الكمبيوتر مرة أخرى.

ولم يستطِع علماء العالم الاتفاق على تفسير للسطوع الزائد لمذنب هالي إلا بعد مرور أسبوعين آخرين. لكن الناس لم يستطيعوا الاعتماد مرة أخرى على معلومات قاعدة بيانات موثوقة من نظام الشبكة العالمية إلا بعد ما يزيد على أربعة أشهر. وقد مُني المجتمع الإنساني بخسائر فادحة نتيجة لتلك الفوضى العارمة. وعندما عاد النشاط الاقتصادي الإلكتروني إلى طبيعته كان العالم يعاني تدهورًا ماليًّا شديدًا لم يكن سيبلغ حده الأدنى إلا بعد اثنتي عشرة سنة. ولن يصل إجمالي الناتج العالمي إلى معدلاته المرتفعة التي بلغها قبل الأزمة الاقتصادية لعام ٢١٣٤، قبل ما يزيد على خمسين عامًا.

الفصل الخامس

ما بعد الانهيار

هناك إجماع على أن «الفوضى العارمة» غيَّرت جميع أشكال الحضارة الإنسانية تغييرًا شديدًا. ولم تنجُ أي شريحة من شرائح المجتمع من تبعاتها. وقد كان العامل الدافع للانهيار السريع نسبيًّا للبنية التحتية المؤسسية القائمة هو انهيار السوق وما عقبه من انهيار النظام المالي العالمي؛ ومع ذلك فلم تكن تلك الأحداث في حد ذاتها قادرة على إدخال العالم في فترة كساد غير مسبوق. وقد كاد أن يكون ما تلا الأزمة الاقتصادية الأولى ليس إلا مزحة مضحكة لولا فقدان العديد من الناس حياتهم نتيجة للتخطيط السيئ. لقد أنكر قادة العالم السياسيون غير الأكْفاء وجود المشكلات الاقتصادية القائمة في بادئ الأمر أو تجاهلوها، ثم بالغوا في ردة فعلهم لتلك المشكلات باتخاذ مجموعة من الإجراءات الفردية التي كانت تتصف بالبلبلة وعدم الاتساق أو إحدى الصفتين، وفي نهاية الأمر ألقوا بأسلحتهم في يأس، في حين أخذت الأزمة العالمية في التفاقم والتوسع. وباءت بالفشل جميع الجهود الرامية للوصول إلى حلول دولية نتيجة للحاجة المتزايدة لكل أمة مستقلة للاستجابة لجمهور الناخبين بها.

وقد جرى التوصل إلى إدراك متأخر بأنه من الواضح أن تجميع دول العالم تحت مظلة الدولية الذي حدث خلال القرن الحادي والعشرين يعاني على الأقل نقيصة واحدة حيوية. ومع أن العديد من الأنشطة — ومن أهمها الاتصالات والتجارة والنقل (بما في ذلك الفضاء) وقانون النقد وحفظ السلام وتبادل المعلومات وحماية البيئة — أصبحت دولية بالفعل (بل أيضًا عابرة للكواكب، فيما يتعلق بالمستعمرات الفضائية)، فإن أغلب الاتفاقيات المنشِئة لتلك المؤسسات الدولية اشتملت على ملاحق منحت الأمم المنفردة حق الانسحاب منها بموجب إشعار قصير المدة نسبيًّا، في حالة لم تعد السياسات المعلنة بموجب تلك الاتفاقات «تخدم مصالح» تلك الدولة المعنية. فباختصار، يحق لكل دولة

مشاركة في خلق الكيان الدولي أن تلغي ارتباطها القومي من جانب واحد عندما تصبح غير راضية عن أعمال المجموعة الدولية.

وكانت السنوات السابقة للاتصال بمركبة راما الفضائية الأولى في بداية عام ٢١٣٠ تتسم باستقرار ورخاء فائقين. فبعد أن تعافى العالم من الأثر المدمر للمذنب قرب مدينة بادوا بإيطاليا عام ٢٠٧٧، ساد معدل نمو معتدل لمدة نصف قرن كامل. وباستثناء بعض حوادث الركود الاقتصادي القصيرة نسبيًّا وغير الحادَّة، تحسنت أحوال المعيشة في مجموعة كبيرة من الدول خلال تلك المدة. ومع اندلاع حروب فردية، واضطرابات مدنية من وقت إلى آخر في الدول النامية بصورة رئيسية، فقد استطاعت الجهود المتضافرة لقوات حفظ السلام الدولية دائمًا احتواء هذه المشكلات قبل أن تتفاقم. ولم تقع أي أزمات جسيمة كان من شأنها وضع استقرار الآليات الدولية الجديدة على المحك.

وعقب مواجهة مركبة راما الفضائية الأولى مباشرة، كان هناك تغيرات سريعة في النظام الحاكم الرئيسي. وكان أولها استنفاد مخصصات الطوارئ الخاصة بتشغيل محطة الرادار إكسكاليبور وغيرها من المشروعات الضخمة ذات الصلة بالمركبة راما لجميع عوائد البرامج القائمة. وفي بداية عام ٢١٣٢، ثارت ضجة عارمة تنادي بخفض الضرائب بهدف توفير مزيد من الأموال في أيدي الأفراد، مما أدى إلى خفض المخصصات الخاصة بالخدمات الضرورية بصورة أكبر. وفي أواخر عام ٢١٣٣ أصبح لدى أغلب المؤسسات الدولية الحديثة نقص في العمالة وأصبحت غير فعالة. ونتيجة لذلك انهار السوق العالمي في ظل أجواء يسيطر فيها على عقول الشعب شعور متنامٍ بالشك في شبكة المنظمات الدولية كافة. وباستمرار الانهيار المالي كان من السهل على الدول المستقلة أن تتوقف عن الإسهام في صناديق الأموال المخصصة للمنظمات العالمية، التي كان من الممكن أن تمنع وقوع الكارثة التي حدثت لو أنها استُخدمت بصورة جيدة.

وسُجلت الأحداث المرعبة التي صاحبت «الفوضى العارمة» في آلاف النصوص التاريخية. ففي السنتين الأوليين كانت معدلات البطالة وحالات الإفلاس المتزايدة هي المشكلات الرئيسية — على مستوى كلٍّ من الأشخاص والشركات — لكن هذه المشكلات المالية بدت غير مهمة أمام استمرار تضخم أعداد المشردين والجياع. فظهرت المجتمعات التي تسكن الخيام والصناديق في المتنزهات العامة في جميع المدن الكبرى بحلول شتاء ٢١٣٦–٢١٣٧، وتجاوبت الحكومات المحلية عن طريق بذل جهود مضنية وشجاعة بهدف إيجاد طرق لتزويدهم بالخدمات. وكان الغرض من تلك الخدمات الحد من الصعاب

التي خلقها وجود تلك الجموع من الأفراد العاطلين عن العمل الذين يعانون نقصًا في التغذية، ومن المفترض أن يكون وجودهم ذلك مؤقتًا. لكن عندما لم ينتعش الاقتصاد لم تختفِ المجتمعات القذرة ذات الخيام. بل أصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياة المدينة، وأخذت تنمو كالسرطان لتصبح قائمة بذاتها، وتمتلك مجموعة كاملة من الأنشطة والاهتمامات المختلفة تمامًا عن أنشطة واهتمامات المدن التي تحتضنها بين طياتها. وبمرور الوقت وبتحول المجتمعات المقيمة في الخيام إلى حالة يائسة وهائجة من الغليان، هددت تلك المجتمعات الجديدة المتمركزة في وسط المناطق الحضرية بأن تثور مدمرة الكيانات التي كانت تسمح لها بالوجود. وبالرغم من وجود القلق الناجم عن التهديد المستمر بوقوع فوضى في المدينة، فقد نجح العالم بشق الأنفس في النجاة من وحشية الشتاء القارص في ٢١٣٧–٢١٣٨ دون المساس — إلى حدٍّ ما — بالبناء الأساسي للحضارة الحديثة.

في بداية عام ٢١٣٨ وقعت سلسلة مدهشة من الأحداث في إيطاليا. وقد شغلت تلك الأحداث — التي تركزت حول شخص واحد يُدعى مايكل بالاتريسي، وهو راهب فرنسيسكاني شاب، وعُرف بعد ذلك باسم القديس مايكل من كاتدرائية سيينا — انتباه العالم وأحبطت بصورة مؤقتة تفكك المجتمع. كان مايكل مزيجًا رائعًا من العبقرية والروحانية والمهارات السياسية، ومتحدثًا بالعديد من اللغات، وذا جاذبية خاصة، وإحساس سديد بالغاية والتوقيت. وقد ظهر على الساحة العالمية فجأة في مدينة توسكاني — وقد بدا كما لو أنه ظهر من العدم — برسالة دينية مخلصة اخترقت قلوب وعقول العديد من المواطنين المذعورين أو المحرومين من حقوقهم أو الذين يعانون الأمرين معًا. فانتشرت رسالته بسرعة مذهلة وبصورة تلقائية دون الالتفات إلى الحدود الدولية. وأصبح يمثل تهديدًا محتملًا لجميع القادة الموجودين تقريبًا نتيجة لدعوته الحازمة لمواجهة المشكلات المحدقة بالجنس البشري بصورة جماعية. وعندما استشهد في شهر يونيو عام ٢١٣٨ في ظل ظروف مروعة، بدا كما لو أن آخر بارقة أمل للبشرية تتلاشى. لقد تفتت العالم المتحضر — الذي كان متماسكًا لعدة أشهر بوميض أمل وخوف طفيف من التقاليد — فجأة إلى أجزاء متناثرة.

لم تكن الحياة في السنوات الأربعة التي امتدت من ٢١٣٨ إلى ٢١٤٢ جيدة. وكانت الويلات التي تعانيها البشرية لا حد لها تقريبًا. وانتشرت المجاعات والأمراض والجريمة في كل مكان. وكانت الحروب والثورات الصغيرة أكثر من أن تُحصى. وكان هناك شبه انهيار كلي في المؤسسات التقليدية للحضارة الحديثة، مما أدى إلى خلق حياة وهمية للبشر كافة

في جميع أنحاء العالم ما عدا الصفوة القليلة القابعين في منتجعاتهم الحصينة. لقد ضل العالم السبيل، ووصل إلى أقصى مراحل الفوضى. وفشلت محاولات المجموعات الحسنة النية من المواطنين في حل المشكلات التي تواجههم؛ نظرًا لأن الحلول التي توصلوا إليها كانت لا تغطي سوى النطاق المحلي في حين كانت المشكلات عالمية.

وامتدت «الفوضى العارمة» أيضًا لتصل إلى المستعمرات البشرية في الفضاء، واضعةً نهاية فصل عظيم في تاريخ الاستكشاف. وما إن انتشرت الكارثة الاقتصادية في كوكب الأرض حتى أصبحت المستعمرات المتناثرة حول النظام الشمسي، التي كان استمرارها يحتاج إلى المال والإمدادات والأفراد بصورة منتظمة، كربيب الأرض المنسي. ونتيجةً لذلك عاد ما يَقرب من نصف سكان المستعمرات إلى الأرض بحلول عام ٢١٤٠؛ نظرًا لتدهور أحوال المعيشة في منازلهم المجهزة بالمستعمرات، إلى درجة أنهم فضَّلوا مواجهة الصعاب التي سيتعرضون لها لإعادة التكيف مع جاذبية كوكب الأرض والفقر المدقِع المهيمن على العالم أجمع عن البقاء في المستعمرات، والموت على الأرجح. وقد زادت عملية الهجرة في ٢١٤١ و٢١٤٢، وهما عامان شابتهما أعطال ميكانيكية في الأنظمة البيئية الاصطناعية الموجودة في المستعمرات، وكانا بداية لنقصٍ حادٍّ في قِطع غيار المركبات الآلية المستخدَمة في الحفاظ على المستعمرات الجديدة.

وبحلول عام ٢١٤٣ لم يبقَ إلا مجموعة ضئيلة جدًّا من المستعمرين الأشداء في القمر وكوكب المريخ. وأصبحت الاتصالات بين الأرض والمستعمرات متقطعة وغير منتظمة. فلم تعد الأموال اللازمة حتى للحفاظ على طرق الاتصال اللاسلكية بالمستعمرات النائية متوافرة. وقد توقفت «منظمة الكواكب المتحدة» عن العمل منذ سنتين. ولم يكن هناك اجتماعات بين البشر لتناول المشكلات التي يتعرض لها الجنس البشري، وحتى مجلس الحكومات لم يتكون إلا بعد مرور خمس سنوات. وقد كافح سكان المستعمرتين المتبقيتين عبثًا للبقاء على قيد الحياة.

وفي السنة التالية — ٢١٤٤ — انطلقت آخر بعثة فضائية كبيرة تحتوي على طاقم من الجنس البشري في تلك المرحلة. وكانت بعثة إنقاذ تقودها سيدة مكسيكية تُدعى بينيتا جراسيا. وقد استطاعت بينيتا، باستخدام مركبة إنقاذ فضائية صُنعت في عجالة من قِطع بالية وبالاستعانة بطاقم مكوَّن من ثلاثة رجال، أن تصل إلى المدار الجغرافي الثابت للسفينة المعطلة «جيمس مارتن»، وهي آخر مركبة نقل عاملة بين الكواكب، وتمكنت من إنقاذ أربعة وعشرين شخصًا من أصل مائة سيدة وطفل أُعيدوا من كوكب المريخ إلى

الوطن. ويرى كل مؤرخ لأحداث الفضاء أن عملية إنقاذ ركاب السفينة «جيمس مارتن» كانت نهاية لعهد انقضى. وفي ستة أشهر أُخليت جميع محطات الفضاء المتبقية، ولم يغادر أي إنسان كوكب الأرض متجهًا إلى الفضاء إلا بعد مرور ما يَقرب من أربعين سنة.

وبحلول عام ٢١٤٥ بدأ العالم المتصارع يرى أهمية بعض المنظمات الدولية التي جرى تجاهلها وتهميشها في بداية مرحلة «الفوضى العارمة». وبدأ أنبغ أفراد الجنس البشري في إدراك أنه لن يُستعاد أي شكل من أشكال الحياة المتحضرة إلا عن طريق مهاراتهم الجماعية، وذلك بعد أن تجنبوا أي مشاركة شخصية في السياسة في العقود الأولى المعتدلة من ذلك القرن. وفي بداية الأمر لم تحقق الجهود التعاونية الضخمة إلا نجاحًا متواضعًا، لكنها أعادت إشعال بريق الأمل في روح البشر، وبدأت عملية التجديد. وببطء شديد بدأت عناصر الحضارة الإنسانية تعود إلى مكانها الطبيعي.

وقد مر عامان آخران قبل أن يظهر الانتعاش الاقتصادي العام أخيرًا في الإحصاءات الاقتصادية. وبحلول عام ٢١٤٧ تضاءل إجمالي الناتج العالمي بنسبة ٧٪ عن معدلاته منذ ست سنوات. وبلغ متوسط نسبة البطالة في الدول المتقدمة ٣٥٪، ووصل مجموع الذين يعانون البطالة والذين يعملون بدوام غير كامل إلى ٩٠٪ من عدد السكان في بعض الدول النامية. ويُقدَّر عدد الذين ماتوا بسبب الجوع عام ٢١٤٢ المأساوي وحده بمائة مليون شخص، وذلك عندما تعرَّضت المناطق الاستوائية من العالم إلى جفاف عظيم مصحوبًا بمجاعة. إن الارتفاع الضخم في معدل الوفَيات الذي نتج عن العديد من الأسباب، والانخفاض الكبير في معدل المواليد (فمن ذا الذي كان يرغب في إنجاب طفل في هذا العالم البائس!) قد تسبَّبا في فقدان مليار من سكان العالم في العقد الذي انتهى عام ٢١٥٠.

لقد تركت تجربة «الفوضى العارمة» جرحًا غائرًا في جيل بأكمله. وبمرور السنوات، وبلوغ الأطفال الذين وُلدوا عقب تلك التجربة سن المراهقة، اصطدم أولئك الأطفال بآباء حذرين لدرجة مرَضية. فكانت حياة المراهقين في ستينيات القرن الثاني والعشرين، وحتى في سبعينيات القرن نفسه، تتسم بالصرامة الشديدة. فالذكريات الأليمة التي تركها زمن «الفوضى» على جيل الآباء ظلت تطاردهم وجعلتهم شديدي الصرامة في تطبيق الرقابة الأبوية على أبنائهم؛ الجيل الذي بلغ سن الرشد وجعله متشددًا في تطبيقه للتهذيب الأبوي. فالحياة في نظرهم لم تكن مجرد نزهة في مدينة ترفيهية. بل كانت مسألة خطيرة، ولا يمكن تحقيق السعادة بها إلا عن طريق مزيج من القيم الثابتة وضبط النفس والتزام راسخ بهدف يستحق الجهد المبذول في سبيل تحقيقه.

وهكذا كان المجتمع الذي بزغ في سبعينيات القرن الثاني والعشرين مختلفًا تمامًا عن المجتمع الداعي إلى التحرر الذي ساد قبل خمسين عامًا. وقد شهدت العديد من المؤسسات العريقة، مثل الدولة القومية والكنيسة الكاثوليكية والملكية البريطانية، نهضة خلال مدة نصف القرن تلك. وقد ازدهرت تلك المؤسسات لأنها تكيفت بسرعة مع الأوضاع، واضطلعت بدور قيادي في عملية إعادة الإعمار التي تلت مرحلة «الفوضى».

وبنهاية سبعينيات القرن الثاني والعشرين، عندما عاد نوع من الاستقرار إلى الكوكب، بدأ يظهر الاهتمام بالفضاء مرة أخرى. وأطلقت وكالة الفضاء العالمية التي أعيد تشكيلها — وهي أحد الأقسام الإدارية التابعة لمجلس الحكومات — جيلًا جديدًا من أقمار الرصد والاتصالات. كان النشاط الفضائي في بادئ الأمر يتصف بالحذر، وكانت الميزانية المخصصة له ضئيلة جدًّا. ولم تشارك فيه بصورة فعلية إلا الدول المتقدمة. وعندما استأنفت الرحلات المأهولة عملها ونجحت، وُضِع جدول متواضع للمهام التي من المُزمَع تنفيذها في تسعينيات القرن الثاني والعشرين. وافتُتحت أكاديمية فضاء جديدة لتدريب الرواد اللازمين للقيام بتك المهام عام ٢١٨٨، وتخرجت أول دفعة منها بعد أربع سنوات.

أما على كوكب الأرض فكان معدل النمو بطيئًا للغاية، لكنه في الوقت نفسه كان يتسم بالثبات وإمكانية التنبؤ به في الجزء الأكبر من السنوات العشرين التي سبقت اكتشاف سفينة الفضاء راما ٢ عام ٢١٩٦. ومن الناحية التقنية كانت البشرية قد وصلت عام ٢١٩٦ تقريبًا لنفس المستوى من التقدم الذي كانت عليه منذ سبعين عامًا، عندما ظهرت سفينة الفضاء الأولى، لكن تجربة الرحلات الفضائية الحديثة كانت أقل كثيرًا في وقت المواجهة الثانية مع السفينة راما. أما في عدد من المجالات التقنية الحيوية، مثل الطب وإدارة المعلومات، فكان المجتمع الإنساني الذي عاصر العقد الأخير من القرن الثاني والعشرين أكثر تقدمًا مما كان عليه عام ٢١٣٠. وقد كان هناك عامل اختلاف واضح بين الحضارتين اللتين واجهتا مركبتَي راما ١ وراما ٢، ألا وهو أن العديد من البشر الذين كانوا أحياءً عام ٢١٩٦، ولا سيما الذين كانوا كبارًا ويشغلون مناصب تسيطر على عملية اتخاذ القرارات في النظام الحاكم، قد عاصروا بعض السنوات التي كانت فيها «الفوضى العارمة» المؤلمة في أوجها. وكانوا يدركون معنى الخوف. وقد أثرت تلك الكلمة القوية «الخوف» في مشاوراتهم وهم يناقشون الأولويات التي يجب أن تسيطر على مهمة بشرية للقاء سفينة الفضاء راما ٢.

الفصل السادس

السيدة فرانشيسكا ساباتيني

«إذن كنتِ تُحضرين رسالة الدكتوراه في الفيزياء بجامعة سازرن ميثوديست عندما تنبأ زوجك بنبوءته الشهيرة عن سطوع سوبرنوفا عام ٢١٩١.»

كانت إلين براون جالسة على مقعد كبير وثير في غرفة المعيشة. ترتدي حلة بنية اللون وبلوزة ذات ياقة مرتفعة. وبدت جامدة وقلقة، كما لو كانت مستعدة لإنهاء المقابلة.

قالت بحذر، وهي تختلس النظر إلى زوجها: «كنت في السنة الثانية، وكان ديفيد المشرف على رسالتي.» كان ديفيد جالسًا في نهاية الغرفة يشاهد الأحداث من وراء الكاميرات. ثم استدركت قائلة: «كان ديفيد يعمل بدقة مع طلابه. والجميع يعلم ذلك. وهذا أحد أسباب التحاقي بهذه الجامعة لاستكمال دراساتي العليا.»

كانت فرانشيسكا ساباتيني جميلة. وكان شعرها الأشقر ينسدل على كتفيها. وترتدي بلوزة بيضاء باهظة الثمن مصنوعة من الحرير، مزيَّنة بوشاح لونه أزرق فاتح مربوط بأناقة حول عنقها. وترتدي بنطالًا له نفس لون الوشاح. وتجلس على مقعد آخر بجانب إلين. وبينهما طاولة صغيرة موضوع عليها قدحان من القهوة.

«كان دكتور براون متزوجًا في ذلك الوقت، أليس كذلك؟ أقصد في الوقت الذي كان يشرف فيه على رسالتك.»

احمرَّت وجنتا إلين بصورة ملحوظة فور انتهاء فرانشيسكا من جملتها. استمرت الصحفية الإيطالية في النظر إليها بابتسامة مشرقة وبريئة، كما لو أن السؤال الذي سألته لتوها كان بسيطًا ومباشرًا، وكأنها سألتها ما حاصل جمع ٢ + ٢. ترددت السيدة براون، وأخذت نفسًا، ثم تلعثمت قليلًا في إجابتها. فقالت: «في البداية أظن أنه كان لا يزال متزوجًا. لكن طلاقه كان قبل أن أحصل على درجة الدكتوراه.» توقفت مرة ثانية عن

الحديث ثم أشرق وجهها. وقالت وهي محرجة: «وقد أهداني خاتم الخطبة عند حصولي على الدكتوراه.»

تأملت فرانشيسكا ساباتيني المرأة. وقالت في نفسها: «يمكنني أن أقطعك إربًا على هذه الإجابة. بالإضافة إلى إجابتك عن سؤالين آخرين. ولكن ذلك لن يخدم غايتي.»

وعندئذٍ قالت فرانشيسكا فجأة: «حسنًا. انتهينا. لنُلقِ نظرة ثم يمكنك إعادة المعدات إلى الشاحنة.» سار المصور الرئيسي إلى الجانب الموجود به الكاميرا الآلية رقم ١، التي بُرمجت على أن تبقى مركزة على فرانشيسكا، وأدخل ثلاثة أوامر عبر لوحة المفاتيح المصغرة بجانب غطاء الكاميرا. وفي تلك الأثناء تراجعت الكاميرا الآلية رقم ٢ على قوائمها الثلاثة وسحبت عدسات التقريب؛ نظرًا لنهوض إلين من مقعدها. وأشار مصور آخر إلى إلين كي تقف مكانها حتى يتمكن من فصل الكاميرا الثانية.

وفي ثوانٍ برمج المخرج آلة العرض الآلية على إعادة عرض الدقائق الخمسة الأخيرة من المقابلة. عُرضت صور الكاميرات الثلاثة في وقت واحد، في شاشة تظهر أكثر من صورة في وقت واحد؛ إذ كانت صورة فرانشيسكا وإلين المركبة تظهر وسط الشاشة وعلى جانبيها الصور التي التقطتها كاميرتا التقريب. كانت فرانشيسكا بارعة في عملها. وباستطاعتها أن تعرف بسرعة أنها حصلت على المادة التي تحتاجها لهذا الجزء من العرض. كانت إلين، زوجة الدكتور ديفيد براون، شابة ذكية ومجتهدة وصريحة، ومنزعجة بسبب تركيز الانتباه عليها. وكان ذلك كله واضحًا في الشريط.

في حين كانت فرانشيسكا تتناول التفاصيل النهائية مع طاقمها وتستعد لتسليم محتوى المقابلة إلى الفندق بمجمع دالاس للنقل قبل انطلاق طائرتها في الصباح، عادت إلين براون إلى غرفة المعيشة وبصحبتها خادم آلي، ومعها نوعان من الجبن، وزجاجة من الخمر، وعدد كبير من الكئوس تكفي كل من بالغرفة. لمحت فرانشيسكا نظرة غاضبة على وجه ديفيد براون عندما أعلنت إلين أنها ستقيم «حفلًا صغيرًا» للاحتفال بإتمام المقابلة.

تجمَّع الطاقم وإلين حول الخادم الآلي والخمر. استأذن ديفيد وانصرف خارجًا من غرفة المعيشة، وسار عبر ردهة طويلة تصل بين مؤخرة المنزل — حيث تقع جميع غرف النوم — وغرف المعيشة التي تقع في مقدمة المنزل. وعندئذٍ تبعته فرانشيسكا.

نادت على ديفيد قائلة: «ديفيد، معذرة.» فالتفت وعلامات الضجر بادية على وجهه. فاستطردت: «لا تنسَ أنه لا يزال لدينا بعض المسائل التي لم نُنهِها. فلقد وعدت شركة شميت وهاجينست بالرد عليهما فور عودتي إلى أوروبا. وهما يتطلعان لاستكمال المشروع.»

فأجابها: «لم أنسَ. لكنني أودُّ فقط التأكد من أن صديقك ريجي قد انتهى من إجراء مقابلات مع أبنائي.» ثم تنهد. وقال: «تمر عليَّ أوقات كثيرة أتمنى فيها لو أنني لم أكن مشهورًا.»

دنت فرانشيسكا منه. وقالت وعيناها مثبَّتة في عينيه: «لا أصدق ما تقول نهائيًّا. إنك فقط عصبي اليوم نظرًا لأنك لا تستطيع التحكم فيما تقوله زوجتك وأبناؤك لريجي ولي. وأعلم أن أكثر شيء يهمك هو التحكم.»

شرع دكتور براون في الرد، لكنه توقف لدى سماعه صرخة «أمي» تدوي في آخر الردهة من غرفة نوم بعيدة. وفي ثوانٍ اندفع طفل صغير يناهز السادسة أو السابعة من العمر، مارًّا بديفيد وفرانشيسكا، وهُرع إلى حضن أمه التي كانت في تلك اللحظة تقف عند الباب الذي يصل بين الردهة وغرفة المعيشة. انسكب بعض الخمر من كأس إلين من فرط قوة اصطدام ابنها بها، فلعقته من يدها بصورة لا إرادية لرغبتها في التخفيف عن الصبي الصغير.

سألته: «ما الخَطب يا جاستين؟»

أخذ جاستين ينتحب وهو يقول: «لقد حطم ذلك الرجل الأسود كلبي. لقد ركل مؤخرته ولا أستطيع تشغيله الآن.»

أشار الصبي إلى نهاية الردهة. كان ريجي وفتاة طويلة ونحيفة تبدو في سن المراهقة وعليها سمات الجدية يسيران صوب باقي المجموعة. قالت الفتاة وفي عينيها نظرة توسل لديفيد براون كي يساعدها: «لقد كان السيد ويلسون يتحدث معي عن مجموعة الدبابيس التي امتلكها عندما جاء ذلك الكلب الآلي اللعين وعضَّ ساقه. بعد أن بال عليه أولًا. لقد برمجه جاستين على القيام بأفعال سيئة ...»

قاطعها الصبي الباكي صارخًا: «كاذبة! إنها لا تحب كلبي والي. ولم تحبه قط.»

كانت إحدى يدَي إلين تُربت على ظهر ابنها الذي انتابته حينئذٍ حالة شِبه هستيرية، واليد الأخرى ممسكة بإحكام بكأس الخمر. وكان المشهد في ذاته كفيلًا بأن يشعرها بالاضطراب، حتى لو لم تلحظ عبوس زوجها. ارتشفت جرعة من الخمر، ثم وضعت الكأس على رف قريب للكتب. وقالت وهي تنظر في خجل إلى الحضور: «حسنًا، اهدأ يا جاستين وأخبر أمك بما حدث.»

فقال: «إن الرجل الأسود لا يحبني. وأنا لا أحبه. وكان والي يشعر بذلك، فهجم عليه وعضَّه. والي يحميني دائمًا.»

زاد ذلك من غضب الفتاة أنجيلا. فقالت: «كنت أشعر بأن ذلك سيحدث. فعندما كان السيد ويلسون يتحدث معي ظل جاستين يدخل غرفتي ويعرض ألعابه وحيواناته الأليفة وجوائزه، بل ملابسه أيضًا، على السيد ويلسون، ولم يكن من السيد ويلسون إلا أن اضطر إلى التحدث إليه بشيء من الحدة. ولم نرَ بعد ذلك إلا والي وهو مندفع بجنون نحو السيد ويلسون الذي لم يملك إلا الدفاع عن نفسه.»

فصاح الصبي: «إنها كاذبة، يا أمي. كاذبة كبيرة. أخبريها أن تتوقف ...»

كان الدكتور ديفيد براون قد نال كفايته من هذا الضجيج والهياج. فصاح بغضب: «إلين، أخرجيه من هنا.» ثم التفت إلى ابنته، في حين أخذت زوجته الصبي الباكي ومضت معه إلى غرفة المعيشة. وقال وقد اشتد غضبه وأصبح جليًّا: «أنجيلا، أعتقد أنني أخبرتك اليوم بألا تتشاجري مع جاستين تحت أي ظروف.»

تراجعت الفتاة أمام هجوم أبيها. وترقرق الدمع في عينيها. وهمَّت بالحديث، إلا أن ريجي ويلسون سار ووقف بينها وبين والدها. وقال متشفعًا: «اسمح لي يا دكتور ديفيد، إن أنجيلا لم ترتكب أي خطأ. وقد قالت ما حدث بالفعل. إنها ...»

قاطعه ديفيد براون بحدة: «سيد ويلسون، أنا قادر على تولي أمور أسرتي بنفسي، إن كنت لا تمانع.» ثم سكت لحظة ليحد من غضبه. ثم أكمل بنبرة لطيفة: «أنا آسف للغاية على كل هذه الفوضى، لكن الأمور ستهدأ خلال دقيقة.» ورمق ابنته بنظرة قاسية تفتقد الحنان. ثم قال: «عودي إلى غرفتك يا أنجيلا. وسوف أتحدث إليك فيما بعد. نادي أمك وأخبريها أنني أريد منها أن تصطحبك قبل العشاء.»

كانت فرانشيسكا تراقب تطور الأحداث باهتمام شديد. وقد لاحظت إحباط ديفيد براون وعدم ثقة إلين بنفسها. وأخذت تحدث نفسها: «رائع، أفضل حتى مما كنت آمل. سيكون فريسة سهلة.»

مر القطار الفضي اللامع عبر ريف شمال تكساس بسرعة مائتين وخمسين كيلومترًا في الساعة. وما هي إلا دقائق حتى لاحت أضواء «مجمع دالاس للنقل» في الأفق. وكان المجمع يغطي مساحةً كبيرة، تقترب من خمسة وعشرين كيلومترًا مربعًا. كان جزء منه مطارًا، وآخر محطة قطار، وثالث مدينة صغيرة. وقد تأسس عام ٢١٨٥ بغرض التعامل مع التطور المتنامي لحركة الملاحة الجوية إلى مسافات بعيدة، ولتوفير وسائل ربط سهلة لنقل الركاب إلى نظام القطارات الفائقة السرعة، وقد تطور المجمع — مثل مراكز النقل المشابهة حول العالم — ليصبح مجتمعًا متكاملًا. كان ما يزيد على ألف شخص — أغلبهم

ممن يعملون في مجمع دالاس للنقل الذين وجدوا الحياة أسهل دون الحاجة للتنقل من العمل وإليه يوميًّا — يعيشون في المنازل التي شكلت نصف دائرة حول المركز التجاري الذي يقع جنوب المحطة الرئيسية. وكانت المحطة الرئيسية تشمل أربعة فنادق رئيسية، وسبعة عشر مطعمًا، وما ينيف على مائة متجر متنوعة النشاط، مثل: سلسلة محلات أزياء دوناتيلي الأنيقة.

كان الشاب يقول لفرانشيسكا عند اقتراب القطار من المحطة: «كنت في التاسعة عشرة من عمري في ذلك الوقت، وتربَّيت وسط جو يغلب عليه طابع الحماية الزائدة. وقد تعلمت عن الحب والجنس في الأسابيع العشرة التي قضيتها في مشاهدة برنامجك التلفزيوني أكثر مما تعلمته خلال حياتي بأسرها. أود فقط أن أشكرك على ذلك البرنامج.»

تقبلت فرانشيسكا المجاملة بلباقة. وقد اعتادت أن يتعرف عليها الناس عندما تكون بين الجمهور. فابتسمت مرة أخرى للشاب ورفيقته عندما توقف القطار ونزلت إلى رصيف المحطة. عرض ريجي ويلسون حمل معدات التصوير الخاصة بها عندما كانوا يتجهون نحو الناقلة التي ستُقلهم إلى الفندق. فسألها «هل هذا يزعجك؟» فنظرت إليه متسائلة. فأضاف مفسرًا: «هل يزعجك كونك شخصية عامة؟»

فأجابته: «بالطبع لا.» وابتسمت بينها وبين نفسها. وقالت في نفسها: «هذا الرجل لم يفهمني حتى بعد مرور ستة أشهر. لعله لا يفكر إلا في نفسه حتى إنه لا يستطيع أن يدرك أن بعض النساء لهن نفس طموح الرجال.»

كان ريجي يقول: «كنت أعلم أن مسلسلَيك التلفزيونيين مشهوران قبل أن أقابلك خلال تدريبات اختيار الموظفين. لكن ما كنت أجهله هو أنه سيكون من المستحيل الذهاب إلى مطعم أو الظهور بين الجمهور دون أن نقابل أحد معجبيك.»

استمر ريجي في تجاذب أطراف الحديث مع فرانشيسكا عندما كانت الناقلة تغادر المحطة متجهة إلى المركز التجاري. وبجانب الطريق في نهاية أحد أطراف المركز التجاري المحاط بسياج، احتشدت مجموعة من الناس خارج أحد المسارح. كانت اللافتة عليها اسم المسرحية التي تُعرَض، وهي «في أي طقس» (إن إني ويزر) التي كتبها الكاتب المسرحي الأمريكي لينزي أولسين.

بادر ريجي بسؤال فرانشيسكا دون تفكير: «هل شاهدتِ هذه المسرحية من قبل؟» ثم أكمل دون انتظار ردها: «لقد شاهدت الفيلم المأخوذ عن هذه القصة عند عرضه لأول مرة منذ خمسة أعوام. أتذكر أن الفيلم قام ببطولته هيلين كاوديل وجيرمي تيمبل.

هذا قبل أن تحظى هيلين بشهرة فائقة. والقصة كانت غريبة، وتدور أحداثها عن رجل وامرأة اضطرا للمكوث معًا في غرفة واحدة بأحد الفنادق خلال هبوب عاصفة ثلجية على شيكاجو. وكان كلاهما متزوجًا. فأحب أحدهما الآخر عندما كانا يتحدثان عن أحلامهما التي لم تتحقق. إنها قصة غريبة كما أخبرتكِ.»

لم تكن فرانشيسكا مصغية لما يقول. فقد صعد إلى العربة أمامهما صبي ذكَّرها بابن عمها روبرتو، في أول محطة توقف في المركز التجاري. كان شعره وبشرته داكنين، وكانت ملامحه وسيمة. فتساءلت في نفسها: «كم مضى على آخر مرة رأيت فيها روبرتو؟ على الأرجح ثلاثة أعوام. كان ذلك في مدينة بوسيتانو، وبصحبته زوجته ماريا.» تنهَّدت فرانشيسكا وتذكرت الأيام الخوالي، منذ عهد مضى. وتراءى لها مشهد وهي تضحك وتجري في شوارع أورفيتو. كانت تبلغ من العمر التاسعة أو العاشرة، ولا تزال بريئة وطاهرة. وروبرتو في الرابعة عشرة من عمره. وكانا يلعبان كرة القدم في الساحة العامة الواقعة أمام الكاتدرائية. وقد كانت تحب إغاظة ابن عمها. وكان هو وديعًا جدًّا وغير متكلف. إن روبرتو كان الشيء الوحيد الجميل في طفولتها.

توقفت الناقلة أمام الفندق. وكان ريجي يحدق فيها ولا يرفع عينيه عنها. فأدركت فرانشيسكا أنه سألها سؤالًا لتوه. فقال وهما ينزلان من العربة: «حسنًا؟»

فأجابته: «آسفة يا عزيزي. كنت شاردة مرةً أخرى. ماذا كنت تقول؟»

فقال ريجي جادًّا: «لم أكن أعلم أنني ممل لهذه الدرجة.» والتفت فجأة ليتأكد من انتباهها له. ثم قال: «ماذا ستأكلين على العشاء؟ لقد حصرت الاختيارات في الطعام الصيني أو الفرنسي.»

في تلك اللحظة لم يرقَّ لفرانشيسكا أن تتناول العشاء مع ريجي. فقالت له: «أنا منهَكة تمامًا الليلة. أظن أنني سآكل بمفردي في الغرفة ثم أنهي بعض الأعمال.» وكانت تتوقع نظرة الألم التي تعتلي وجهه. فشبَّت وقبَّلته برقة على شفتَيه. وقالت: «يمكنك أن تأتي إلى غرفتي لتناول كأس من الخمر في العاشرة.»

ما إن دخلت فرانشيسكا جناحها بالفندق حتى شغَّلت جهاز الكمبيوتر الخاص بها وراجعت صندوق بريدها بحثًا عن أي رسائل جديدة. وقد وجدت أربع رسائل واردة. وقد أوضحت القائمة هوية المرسل ووقت الإرسال ومدة الرسالة وأولويتها. إن نظام الأولوية كان ابتكارًا جديدًا من ابتكارات شركة الاتصالات الدولية، وهي إحدى شركات الاتصالات

الثلاثة الباقية التي أخذت في الازدهار مرة أخرى بعد عملية دمج ضخمة في منتصف القرن. فكان مستخدم نظام الأولوية يدخل جدوله اليومي للأولويات في الصباح الباكر ويحدد الرسائل ذات الأولوية المسموح لها بقطع أنشطته. لم تختَر فرانشيسكا إلا قَبول تمرير الرسائل ذات الأولوية القصوى (ضرورة مُلحة) إلى الكمبيوتر بمنزل ديفيد براون؛ وذلك لأن تسجيل ديفيد وأسرته كان يجب أن يكتمل في يوم واحد، وكانت ترغب في الحد من فرص تعطل العمل أو تأخره، أما باقي رسائلها، فكانت تظل باقية في الفندق.

كانت لدى فرانشيسكا رسالة واحدة فقط من مجموعة الرسائل ذات الأولوية الثانية، وهي من كارلو بيانكي ومدتها ثلاث دقائق. تجهَّم وجهها وأدخلت الرمز المناسب إلى الكمبيوتر وشغلت شاشة الفيديو. فظهر رجل إيطالي جذاب في منتصف العمر، يرتدي الملابس الخاصة التي تُرتدى بعد ممارسة رياضة التزلج، ويجلس على أريكة ومن خلفه مِدفأة تشتعل بداخلها النيران. فحيَّاها قائلًا: «صباح الخير، كارا.» وبعد أن سمح للكاميرا بأن تدور في أنحاء غرفة المعيشة بفيلته الجديدة بمدينة كورتينا دي أمبيزو، دخل السيد بيانكي إلى صلب الموضوع مباشرة. واستفسر عن سبب رفضها الظهور في إعلانات الملابس الرياضية الصيفية التي يُنتجها. فلقد عرضت عليها شركته مبلغًا طائلًا من المال، ووضعت حملة دعائية خاصة يُركِّز فيها على موضوع الفضاء. ولم تكن المشاهد الإعلانية ستُعرَض قبل نهاية مهمة نيوتن؛ وبذلك لن يكون هناك تعارض مع اتفاقها مع وكالة الفضاء العالمية. وأقر بوجود بعض الاختلافات بينهما في الماضي، لكنه رأى أن تلك الاختلافات منذ زمن بعيد. وهو في حاجة لإجابتها في غضون أسبوع.

فحدثت فرانشيسكا نفسها قائلة: «تبًّا لك يا كارلو»، وقد فاجأها شدة ردة فعلها. كان هناك قلة قليلة من الأشخاص في العالم الذين يمكن أن يثيروا سخط فرانشيسكا، وكارلو بيانكي أحدهم. فأدخلت فرانشيسكا الأوامر اللازمة لتسجيل رسالة لوكيل أعمالها، داريل بومان، في لندن. وقالت فيها: «مرحبًا يا داريل. أنا فرانشيسكا أحدثك من دالاس. أخبر ذلك المخادع بيانكي أنني لن أقبل تنفيذ إعلاناته ولو عرض عليَّ عشرة ملايين مارك. وبالمناسبة أعتقد أن منافسه الرئيسي حاليًّا هو سلسلة دوناتيلي، فأرجو أن تتصل بمديرة الدعاية بها، جابريلا التي لا أذكر باقي اسمها، لقد قابلتها في ميلانو من قبل، وأخبرها بأنه يسعدني أن أقوم ببعض الإعلانات لشركتها بعد الانتهاء من مشروع نيوتن. في شهر أبريل أو مايو.» وتوقفت عن الحديث لحظة. ثم تابعت: «هذا كل شيء. سأعود إلى روما مساء الغد. تحياتي إلى هيذر.»

وكانت أطول رسالة تلقتها فرانشيسكا مرسَلة من زوجها ألبرتو، الذي كان طويلًا وأشيب الشعر ومديرًا مميزًا، ويبلغ الستين من العمر، ويدير القسم الإيطالي بشركة شميت وهاجينست، وهي مجموعة شركات ألمانية للوسائط المتعددة تمتلك — من بين عدة أشياء — ما يزيد على ثلث الصحف والمجلات المستقلة في أوروبا، وشبكات التلفزيون التجارية الرائدة في كلٍّ من ألمانيا وإيطاليا. وفي خلال بث رسالته كان ألبرتو جالسًا في مختلاه بالمنزل، مرتديًا بذلة فاخرة لونها رمادي غامق ويحتسي البراندي. كان صوته دافئًا وحميمًا، لكنه بدا أبًا أكثر منه زوجًا. وأخبر فرانشيسكا أن لقاءها الطويل مع الفريق البحري أوتو هيلمان كان يُعرَض في النشرات الإخبارية عبر أوروبا في ذلك اليوم، وأنه استمتع بتعليقاتها وفطنتها كالعادة، إلا أنه رأى أن أوتو هيلمان بدا نرجسيًّا. فاستغرقت فرانشيسكا في التفكير عندما سمعت تعليق زوجها، قائلة: «لا عجب؛ فهو كذلك حقًّا. لكنه كثيرًا ما يكون مفيدًا لي.»

نقل ألبرتو إليها بعض الأخبار السارَّة عن أحد أبنائه (كان لزوج فرانشيسكا ثلاثة أبناء، جميعهم أكبر منها سنًّا) قبل أن يخبرها بأنه يفتقدها ويتطلع لرؤيتها في الليلة التالية. فقالت فرانشيسكا في نفسها قبل أن تجيب على رسالته: «وأنا أيضًا. إن الحياة معك تشعرني بالراحة. فأنا أنعم معك بالحرية والأمان.»

بعد مرور أربع ساعات كانت فرانشيسكا تقف في شرفة غرفتها بالفندق تدخن بين نسمات هواء تكساس البارد في شهر ديسمبر. وكانت متدثرة في الثوب الثقيل الذي يوفره الفندق في غُرف النُّزلاء. قالت في نفسها وهي تأخذ نفسًا عميقًا من سيجارتها: «على الأقل، الحال هنا مختلف عن كاليفورنيا. فعلى الأقل يوجد في تكساس بعض الفنادق المزودة بشرفات للتدخين. أما أولئك المتعصبون بالساحل الغربي الأمريكي فسيجرمون التدخين إذا استطاعوا.»

سارت إلى جانب درابزين الشرفة حتى تحظى بوضع أفضل لمشاهدة طائرة تنطلق بسرعة تتجاوز سرعة الصوت، وهي تقترب من المطار من ناحية الغرب. وكانت تسبح بخيالها داخل الطائرة، كما ستكون في رحلتها المتجهة إلى منزلها بروما في اليوم التالي. وقد تخيلت أن هذه الرحلة بعينها قادمة من طوكيو التي كانت بمنزلة عاصمة العالم الاقتصادية بلا منازع قبل «الفوضى العارمة». وبعد أن تعرَّض اليابانيون للخراب بسبب نقص المواد الخام خلال سنوات القحط التي توسطت القرن، أصبحوا الآن على طريق

الازدهار مرة أخرى في ظل عودة العالم إلى نظام السوق الحر. أخذت فرانشيسكا تراقب الطائرة وهي تهبط، ثم نظرت إلى أعلى، إلى السماء المرصَّعة بالنجوم. ثم أخذت نفسًا آخر من السيجارة، وراحت تحدق في الدخان المتصاعد وهو يتطاير ببطء في الهواء.

وظلت تفكر: «والآن يا فرانشيسكا تأتي أعظم مهمة في حياتك. مهمة تمنحك فرصة الخلود، على الأقل سيتذكرني الناس لفترة طويلة بصفتي عضوًا في طاقم نيوتن.» فتحول ذهنها للتفكير في مهمة نيوتن ذاتها، واستحضرت في ذهنها في لقطات موجزة صورًا للمخلوقات الرائعة التي يمكن أن تكون قد صنعت السفن الفضائية العملاقة وأرسلتها لزيارة النظام الشمسي للأرض. لكن سرعان ما قفز ذهنها عائدًا إلى العالم الحقيقي متذكرةً العقود التي وقَّعها ديفيد براون قبل أن تغادر منزله بعد ظهر ذلك اليوم.

فقالت في نفسها: «إن ذلك يجعلنا شركاء يا دكتور براون المحترم. كما أنه يتمم المرحلة الأولى من عملي. وإن لم يخني إحساسي، فلقد رأيت في عينيك اليوم لمعانًا ينمُّ عن الاهتمام.» تذكرت فرانشيسكا أنها قد أعطت ديفيد قُبلة سريعة عند الانتهاء من مناقشة العقود وتوقيعها. كانا منفردين في غرفة مكتبه. وللحظة فكرت في أنه سيردُّ قبلتها بقبلة أشد قوة وإحساسًا.

انتهت فرانشيسكا من تدخين سيجارتها، وأطفأتها في مطفأة السجائر، ثم عادت إلى غرفتها. وما إن فتحت الباب حتى سمعت صوتًا لرجل يتنفس بصوت مرتفع. كان السرير كبير الحجم غير مرتَّب، وكان ريجي ويلسون مجردًا من ملابسه ومستلقيًا على ظهره، وكان صوت غطيطه المنتظم يقطع الصمت المخيم على الجناح. فعلقت في صمت: «يا صديقي، إنك تمتلك ما يلزم الحياة وممارسة الجنس على حدٍّ سواء. لكن الاثنين ليسا بمسابقة رياضية. وكنت ستصير أكثر جاذبية لو أنك تمتلك بعض الفطنة، أو ربما بعض المهارة.»

الفصل السابع

العلاقات العامة

في عنان السماء كان يحلق نَسرٌ بمفرده فوق المستنقعات خلال ضوء الصباح الباكر. وكان يعتمد على موجة ريح قادمة من المحيط، واتجه شمالًا على طول الساحل. وأسفل النسر بمسافة بعيدة، بداية بالرمال ذات اللون البني الفاتح والبيضاء بجانب المحيط، مرورًا بمجموعة من الجُزر والأنهار والخلجان الممتدة لمسافة أميال نحو الأفق الغربي، كان هناك مجمع من المباني المختلفة الأشكال والمتصلة بعضها ببعض عن طريق طرق ممهدة تتخلل المساحات الخضراء والمستنقع. منذ خمسة وسبعين عامًا كانت قاعدة كينيدي لإطلاق المركبات الفضائية أحد المواقع الستة في الأرض، حيث يمكن للمسافرين أن ينزلوا من قطاراتهم الفائقة السرعة أو طائراتهم واللحاق برحلة مكوكية إلى إحدى محطات الفضاء بالمدار الأرضي المنخفض. لكن أحداث «الفوضى العارمة» حولت قاعدة إطلاق المركبات الفضائية إلى طيف تذكاري لحضارة كانت مزدهرة يومًا ما. وقد هُجرت بواباتها وممراتها لسنوات عديدة لتغزوها الحشائش، والطيور المائية، والتماسيح، والحشرات المنتشرة في جميع أنحاء وسط فلوريدا.

وفي ستينيات القرن الثاني والعشرين، وبعد مرور ما يَقرب من عشرين عامًا من التدهور الكامل، أعيد تشغيل محطة إطلاق المركبات الفضائية تدريجيًّا. فاستخدمت في بادئ الأمر كمطار، ثم تحولت مرة أخرى إلى مركز للنقل العام يخدم ساحل المحيط الأطلنطي بفلوريدا. وعندما أعيد إطلاق المركبات الفضائية في منتصف سبعينيات القرن الثاني والعشرين، كان من الطبيعي إعادة تزويد قواعد الإطلاق القديمة بقاعدة كينيدي بالرجال والتجهيزات اللازمة. وبحلول شهر ديسمبر من عام ٢١٩٩، جرى تجديد ما يزيد على نصف محطة الإطلاق القديمة بهدف التعامل مع حركة التنقل المتنامية بانتظام بين الأرض والفضاء.

راقب فاليري بورزوف من إحدى نوافذ مكتبه المؤقت النسر العظيم وهو يُحلق برشاقة عائدًا إلى عشه في أعلى إحدى الأشجار الباسقات القليلة داخل المركز. لقد كان يحب الطيور. ولطالما فُتن بها لسنوات، منذ نعومة أظافره في الصين. وكان يلازمه حلم مفعم بالحياة ومتكرر يرى نفسه فيه يعيش على ظهر كوكب مذهل حيث تعج سمواته بأسراب من المخلوقات الطائرة. وكان لا يزال يتذكر عندما سأل أباه عن وجود أي كائنات آلية طائرة في مركبة الفضاء راما ١، ويتذكر الإحباط الشديد الذي شعر به عند تلقي الإجابة.

سمع الجنرال بورزوف صوت مركبة ضخمة، ونظر عبر نافذته الغربية. وعلى الجانب الآخر من الطريق، أمام منشأة الاختبارات، كان نموذج الدفع الذي سيُستخدم في المركبتين التابعتين لنيوتن يخرج من مجمع الاختبارات محمولًا على منصة هائلة تسير في مسارات متعددة. كان من المزمَع وضعُ ذلك النموذج — الذي خضع للتصليح وأعيد إلى منطقة الاختبارات الخاصة بالنظام الفرعي نتيجة لوجود مشكلة في جهاز التحكم في الأيونات — في مكوك شحن بعد الظهيرة ونقله إلى منشأة تجميع السفن الفضائية بالمحطة الفضائية بالمدار الأرضي المنخفض ٢، حيث سيجرى تجديدها قبل الاختبارات النهائية للمركبات المجمعة قُبيل احتفالات عيد الميلاد. كانت كلتا المركبتين الفضائيتين التابعتين لنيوتن تخضعان في ذلك الوقت لفحص واختبار نهائيين بالمحطة الفضائية بالمدار الأرضي المنخفض ٢. ومع ذلك فقد كانت تدريبات المحاكاة التي خاضها الرواد تجري في المحطة الفضائية بالمدار الأرضي المنخفض ٣ بالاستعانة بالمعدات الاحتياطية. ولم يكن الرواد يستخدمون أنظمة الطيران الفعلية إلا في المحطة الفضائية بالمدار الأرضي المنخفض ٢ في الأسبوع الأخير قبل الانطلاق.

وعند الجانب الجنوبي من المبنى توقفت حافلة كهربائية وخرج منها عدد قليل من الأشخاص. من بينهم امرأة شقراء ترتدي بلوزة ذات أكمام طويلة لونها أصفر ذات خطوط سوداء رأسية، وبنطالًا حريريًّا أسود اللون. تسير برشاقةٍ صوب مدخل المبنى. لقد أُعجب الجنرال بورزوف بفرانشيسكا من بعيد، مُذكرًا نفسه بأنها كانت عارضة أزياء ناجحة قبل أن تصبح مراسلة تلفزيونية. وأخذ يتساءل في نفسه عما تريده، والسبب الذي جعلها تُصر على مقابلته على انفراد قبل الاجتماع الطبي هذا الصباح.

وبعد دقيقة حياها على باب مكتبه. وقال: «صباح الخير يا سيدة فرانشيسكا.»

فأجابته ضاحكة: «ألا تزال متمسكًا بالرسميات يا جنرال حتى عندما لا يوجد أحدٌ سوانا؟ فأنت والرجلان اليابانيان الوحيدون في الفريق الذين يرفضون مناداتي باسم

فرانشيسكا.» لاحظت فرانشيسكا أنه كان يُحدق فيها بطريقة غريبة. فنظرت إلى ملابسها ظنًّا منها بوجودِ خَطبٍ ما بها. فسألته بعد لحظة خاطفة من التردد: «ما الخَطب؟»

فأجاب الجنرال برعشة: «لا بد أن هناك خَطبًا ما بثوبك. فلقد تخيلتك لحظة نمرًا متأهبًا للانقضاض على ظبي أو غزال تعيسَين. ربما يكون ذلك راجعًا لتقدُّمي في السن. أو أن عقلي بدأ في الهذيان.» ثم دعاها إلى مكتبه.

جلست فرانشيسكا على مقعد بجانب مكتب الجنرال قائلة: «لقد شبَّهني عدد من الرجال بالقطة من قبل. لكن لم يشبهني أحد بالنمر قط.» وأصدرت مواءً ضعيفًا وهي تبتسم ابتسامة عابثة. ثم قالت: «إنني مجرد قطة منزلية مسالمة.»

فأصدر بورزوف ضحكة خافتة قائلًا: «لا يمكنني تصديق ذلك أبدًا. فهناك كثير من الصفات التي يمكن استخدامها لوصفك يا فرانشيسكا، لكن صفة المسالمة لا يمكن أن تكون ضمن تلك الصفات.» ثم تحوَّل فجأةً إلى الجدية. وقال: «والآن كيف يمكنني مساعدتك؟ لقد ذكرتِ أن هناك مسألة مهمة تودين أن تناقشيها معي وهي لا تحتمل التأجيل.»

أخرجت فرانشيسكا ورقة كبيرة من حقيبتها الملساء وسلمتها إلى الجنرال بورزوف. ثم قالت له: «هذا هو جدول اللقاءات الصحفية للمشروع. ولم أكن قد راجعته بالتفصيل إلا يوم أمس مع المكتب الإعلامي العام والشبكات التلفزيونية العالمية. وأرجو أن تلاحظ أننا لم ننتهِ إلا من خمسة لقاءات شخصية تفصيلية مع الرواد. وكان من المقرَّر الانتهاء من أربعة لقاءات أخرى خلال هذا الشهر. ولاحظ أيضًا أنه بإضافتك تدريبات المحاكاة التي تستمر ثلاثة أيام إلى مجموعة التدريبات القادمة، فقد استنفدت الوقت المخصص لإجراء مقابلة مع ويكفيلد وإيرينا تورجينيف.»

صمتت فرانشيسكا قليلًا لتتأكد من أنه ينصت إليها. ثم قالت: «لا تزال أمامنا فرصة لمقابلة تاكاجيشي يوم السبت القادم، وسوف نسجل مقابلة مع آل أوتول عشية عيد الميلاد في بوسطن. لكن كلًّا من ويكفيلد وإيرينا يقولان إنهما ليس لديهما متسع من الوقت لإجراء المقابلات. علاوة على ذلك، لا نزال نواجه مشكلة قديمة، ألا وهي أنك ونيكول لستما مُدرَجين في الجدول نهائيًّا ...»

فقاطعها بورزوف: «هل أصررتِ على الاجتماع بي في السابعة والنصف صباحًا من أجل مناقشة جدول اللقاءات الصحفية؟» وعكس صوته ضآلة نسبة الأهمية التي وضعها لمثل تلك الأنشطة.

فأجابت فرانشيسكا برباطة جأش: «هذا ضمن مسائل أخرى.» وتجاهلت النقد المتضمن في تعليقه. وأكملت: «تُظهر الاستطلاعات أن الرأي العام يركز بصورة أكبر عليك وعليَّ وعلى نيكول وعلى ديفيد براون من بين أفراد طاقم المهمة. وحتى الآن لم أتمكن من تحديد موعد معك لإجراء لقاء شخصي، وتقول السيدة نيكول إنها لا تعتزم إجراء مقابلة أصلًا. إن الشبكات التلفزيونية غير راضية. وستصبح تغطيتي الصحفية لمرحلة ما قبل الانطلاق غير مكتملة. إنني في حاجة إلى مساعدتك.»

نظرت فرانشيسكا مباشرة إلى الجنرال. وقالت: «إنني أطلب منك إلغاء تدريب المحاكاة الإضافي، وأن تحدد موعدًا لإجراء مقابلة شخصية معك، وأن تتحدث إلى نيكول نيابة عني.»

قطَّب الجنرال جبينه. فقد كان غاضبًا ومنزعجًا من جراءة فرانشيسكا. وكان على وشك أن يخبرها بأن جدول لقاءات الدعاية الشخصية ليس ضمن قائمة أولوياته. لكن شيئًا ما حال بينه وبين إخبارها. لقد حدثته حاسته السادسة وخبرته الحياتية في التعامل مع الأشخاص بأن يتمهل، وأن هذه المناقشة لا تزال تحتوي على مسائل لم تُناقش بعد. فقرر أن يكسب بعض الوقت عن طريق تغيير الموضوع.

«بالمناسبة، يجدر بي أن أخبرك بأن لديَّ قلقًا متزايدًا فيما يتعلق بالإسراف في حفل عشية عيد الميلاد هذا العام، الذي سيقيمه أصدقاؤك في الحكومة الإيطالية/التحالف التجاري. أعلم أننا اتفقنا في بداية تدريبنا أننا سنشارك كمجموعة في هذه المناسبة الاجتماعية الوحيدة. لكنني لم أكن أعلم أنها ستكون «حفلة القرن» كما أطلق عليها الأسبوع الماضي في إحدى المجلات الأمريكية التي تتابع حياة المشاهير. أنت على صلة قريبة بجميع أولئك الأشخاص، ألا تستطيعين أن تحاولي الحد من تلك الجلبة المثارة حول الحفلة؟»

فأجابت فرانشيسكا، محاولة بحذر أن تتجنب الهجوم المتضمن في كلامه: «إن الاحتفال كان من ضمن جدول الأعمال. وأود أن تساعدني في هذا الأمر أيضًا. فهناك أربعة من رواد مشروع نيوتن يقولون إنهم لن يحضروا، وذكر اثنان أو ثلاثة آخرون أنه قد يكون لديهم التزامات أخرى في ذلك الوقت، ذلك مع أننا جميعًا اتفقنا على موعد إقامة الحفل في مارس الماضي. ويريد كلٌّ من السيد تاكاجيشي والسيد ياماناكا الاحتفال بالعيد مع أسرتيهما في اليابان، وأخبرني ريتشارد ويكفيلد أنه حجز رحلة لممارسة الغطس في جزر كايمان. ذلك بالإضافة إلى تلك المرأة الفرنسية، التي ترفض حضور الحفل دون إبداء أي مبرر.»

لم يستطِع الجنرال إخفاء ابتسامة ارتسمت على شفتيه. وقال: «لماذا تقابلك مثل هذه المشكلات مع السيدة نيكول دي جاردان؟ أظن أن كونك امرأة مثلها سيجعلكما أقدر على الحديث معًا بسهولة أكبر من الحديث مع الآخرين.»

«إنها لا تؤمن بدور الصحافة في المهمة. ولقد أخبرتني بذلك أكثر من مرة. وهي متحفظة جدًّا فيما يتعلق بخصوصيتها.» ثم هزت فرانشيسكا كتفيها. وقالت: «لكن الجمهور معجب بها بشدة. فمع كل ذلك فهي ليست فقط دكتورة أو عالمة لغوية أو بطلة أولمبية سابقة فقط، بل أيضًا ابنة روائي شهير، وأم لابنة تبلغ أربعة عشر عامًا، وهي لم تتزوج قط ...»

بدأ بورزوف ينظر في ساعته. وقاطعها: «هل لي أن أعرف كم بندًا موجودًا على «قائمة أعمالك» كما تُسمينها؟ فنحن يجب أن نكون في قاعة الاجتماعات خلال عشر دقائق.» ثم ابتسم إلى فرانشيسكا. وقال: «ويجب أن أذكرك أن السيدة نيكول قد بذلت ما في وسعها اليوم من أجل تلبية طلبك الخاص بتغطية هذا الاجتماع.»

أخذت فرانشيسكا تتفرس في الجنرال بورزوف لبضع ثوانٍ. وقالت في نفسها: «أظن أنه مستعد الآن. وإن لم يخني ظني فسيفهم ما أريد على الفور.» أخرجت شيئًا صغيرًا مكعَّب الشكل من حقيبتها وسلَّمته إليه عبر الطاولة. وقالت: «هذا هو البند الأخير على جدول أعمالي.»

بدا قائد مشروع نيوتن حائرًا. وأخذ يقلب الجسم المكعب بين يديه. قالت فرانشيسكا بصوت شديد الجدية: «لقد باعه لنا أحد الصحفيين المستقلين. وتأكد لنا أنه لا توجد نسخة أخرى منه.»

وتوقفت عن الحديث قليلًا في حين كان بورزوف يدخل الجسم المكعب في الجزء المخصص له في الكمبيوتر المكتبي. وشحب وجهه بوضوح عندما ظهر مقطع الفيديو الأول من المكعب على الشاشة. فلقد رأى ابنته ناتاشا وهي تصيح بجنون لمدة خمس عشرة ثانية. أضافت فرانشيسكا برقة: «أردت أن أبقي هذا التسجيل بعيدًا عن الصحف الصفراء.»

فسألها الجنرال بورزوف بهدوء: «ما مدة هذا التسجيل؟»

أجابته: «ما يقرب من نصف ساعة. ولم يشاهده كاملًا أحدٌ غيري.»

تنهَّد الجنرال عند سماع ردها. فقد جاءت اللحظة التي كانت تخشاها زوجته بيترا منذ أن عُين رسميًّا قائدًا لمشروع نيوتن. وقد وعده مدير المعهد بمدينة سفيردلوفسك بأنه

سيمنع جميع المراسلين الصحفيين من الاقتراب من ابنته. وها هو الآن يرى تسجيلًا لها مدته ثلاثون دقيقة. ستتألم بيترا كثيرًا عندما تعلم بالأمر.

فنظر خارج النافذة محدقًا. وأخذ يفكر فيما يمكن أن يحدث للمهمة إذا ما علم الناس بمرض ابنته بانفصام حاد في الشخصية. وفي النهاية سلم بأن الأمر سيكون مخزيًا، لكنه لن يضر بالمهمة بصورة حقيقية ... نظر الجنرال بورزوف إلى فرانشيسكا. كان يكره المساومات. ولم يكن يستبعد أن تكون فرانشيسكا نفسها هي التي أجرت المقابلة مع ناتاشا. ومع ذلك ...

هدأ بورزوف ورسم ابتسامة مفتعلة على شفتيه. وقال: «أظن أن عليَّ أن أشكر لك صنيعك، لكن ذلك لا يبدو لائقًا.» وسكت برهة. ثم أكمل: «أظن أنه من المتوقع أن أبدي بعض الامتنان.»

قالت فرانشيسكا في نفسها: «الأمور تسير على ما يرام حتى الآن.» فقد كانت تعرف أنها من الأفضل ألا تنبس ببنت شفة في هذه اللحظة.

أردف الجنرال بعد الصمت الذي ساد طويلًا: «حسنًا، سألغي تدريب المحاكاة الإضافي. فهناك آخرون تذمَّروا منه بالفعل.» قلب مكعب البيانات بين يديه. وقال: «وسأحضر أنا وبيترا إلى روما مبكرًا، كما اقترحتِ من قبل، لإجراء المقابلة الشخصية. وسأُذكر جميع الرواد غدًا بالحفل الذي سيُقام عشية عيد الميلاد في نيويورك، وسأخبرهم أن الواجب يحتم عليهم حضور الحفل. لكن فيما يتعلق بنيكول، لا أستطيع أنا أو أي شخص آخر أن يطلب منها التحدث معك في أي موضوع إلا ما يخص عملها.» ثم وقف فجأة. وقال: «والآن حان وقت ذهابنا إلى اجتماع الإحصاء البيولوجي.»

شبَّت فرانشيسكا وقبَّلته على وجنته. وقالت: «شكرًا لك يا فاليري.»

الفصل الثامن

الإحصاء البيولوجي

كان الاجتماع الطبي قد بدأ بالفعل عندما وصل كلٌّ من فرانشيسكا والجنرال بورزوف. وجميع الرواد حاضرون، بالإضافة إلى خمسة وعشرين أو ثلاثين مهندسًا وعالمًا مشاركين في المهمة. وكان ضمن الحضور أربعة مراسلين صحفيين وفريق عمل من التلفزيون. في الجزء الأمامي من غرفة الاجتماعات تقف نيكول دي جاردان مرتديةً بذلةَ الطيران الرمادية كالعادة، وتُمسِك في يديها قلم ليزر. وبجانبها رجل ياباني طويل القامة يرتدي بذلة رسمية زرقاء. ينصت لسؤالٍ طرحه أحد الحضور. فقاطعته نيكول للتعريف بالعضوين اللذين انضمَّا للاجتماع.

قالت: «عذرًا سيد هاكاماتسو–سان. أقدم إليكم قائدنا الجنرال فاليري بورزوف من الاتحاد السوفييتي، والسيدة فرانشيسكا ساباتيني رائدة الفضاء التي تقوم بالتغطية الصحفية.»

ثم توجهت نيكول إلى العضوين المتأخرين. وقالت للجنرال: «صباح الخير»، وفي الوقت نفسه أومأت برأسها بسرعة في اتجاه فرانشيسكا لتحيتها. ثم أردفت: «هذا هو الدكتور الموقَّر توشيرو هاكاماتسو. لقد صمَّم نظام الإحصاء البيولوجي وطوَّره، وسوف نستخدمه في أثناء الطيران، ويشمل ذلك المسابير الدقيقة التي ستوضع في أجسادنا.»

مد الجنرال يده مصافحًا. ثم قال: «سعدت بلقائك سيد هاكاماتسو–سان. لقد أطلعتنا السيدة نيكول على عملك الرائع.»

فأجاب الرجل: «شكرًا لك»، وانحنى للجنرال بورزوف بعد أن صافحه. ثم أردف: «تشرفني مشاركتي في هذا المشروع.»

جلس كلٌّ من فرانشيسكا والجنرال بورزوف في المقعدين الشاغرين في الجزء الأمامي من غرفة الاجتماعات، واستؤنف الاجتماع. أشارت نيكول بقلم الليزر الذي في يدها إلى

لوحة مفاتيح موضوعة على جانب منصة صغيرة، وفي الجزء الأمامي من الغرفة ظهر نموذج كبير الحجم لجهاز القلب الوعائي لرجل في صورة ثلاثية الأبعاد وبالحجم الطبيعي، ويحمل ألوانًا متعددة، حيث تحمل الأوردة اللون الأزرق والشرايين اللون الأحمر. وكانت المؤشرات البيضاء الضئيلة التي تدور داخل الأوعية الدموية الجارية تشير إلى اتجاه الجريان ومعدله. كانت نيكول تقول: «لقد منح مجلس علوم الحياة بوكالة الفضاء العالمية في الأسبوع الماضي موافقته النهائية على المسابير الجديدة التي قدَّمها هاكاماتسو باعتبارها النظام الرئيسي لمراقبة حالتنا الصحية أثناء المهمة. وقد امتنع المجلس عن الموافقة حتى آخر دقيقة حتى يتمكن من تقييم نتائج اختبار الإجهاد بصورة صحيحة؛ إذ كان على المسابير الجديدة أن تعمل في مواقف عديدة متنوعة غير متوقعة. وحتى في ظل تلك الظروف لم تظهر أيٌّ من آليات الرفض في أيٍّ من حالات الاختبار.

ومن حسن حظنا أننا سنستعين بهذا النظام؛ نظرًا لأنه سيسهل الأمور عليكم وعليَّ، بصفتي الطبيبة المسئولة عنكم. ولن تخضعوا خلال المهمة إلى تقنيات الحقن أو الفحص الروتينية التي استُخدمت في مشروعات سابقة. فهذه المسابير الجديدة يجري حقنها مرة، أو مرتين على الأكثر، خلال مهمتنا التي ستستمر لمدة مائة يوم، ولن تكون هناك حاجة لإبدالها.»

قطع حبل أفكارها أحد الأطباء الحاضرين متسائلًا: «كيف حللتم مشكلة الرفض التي أزعجتنا كثيرًا؟»

فأجابته: «سأتطرَّق إلى هذا الموضوع بالتفصيل خلال جلستنا الخاصة التي ستُعقَد بعد الظهيرة. أما الآن فيكفي أن أذكر أنه نظرًا لأن العوامل الكيميائية الأساسية التي تتحكم في الرفض تركز على أربعة أو خمسة عوامل متغيرة مهمة، بما فيها عامل الحامضية؛ فإن المسابير مغلفة بمواد كيميائية تتكيف مع المواد الكيميائية الموجودة في مكان زرع المسابير. بمعنًى آخر، ما إن يصل المسبار إلى مكانه المنشود حتى يختبر بيئة الكيمياء الحيوية المحيطة به دون أن يخترق الجلد، ثم يفرز طبقة رقيقة مصمَّمة لتتوافق مع كيمياء الجسم المضيف، مما يمكنه من تجنب التعرض للرفض.»

استرسلت نيكول، وهي تلتفت لمواجهة النموذج الكبير الحجم الذي يُظهر الدورة الدموية في الجسم البشري: «لكن الحديث عن هذا الأمر سابق لأوانه. سيجري إدخال مجموعة المسابير هنا، في الذراع اليسرى، وستنتشر أجهزة المراقبة المنفردة، وفقًا لبرامج التوجيه في اثنين وثلاثين مكانًا مميزًا في الجسم. وهناك سوف تتخلل النسيج المضيف.»
أخذ النموذج الثلاثي الأبعاد يتحرك من الداخل وهي تتحدث، وشاهد الحضور اثنتين

وثلاثين نقطة ضوئية وامضة تبدأ من الذراع اليسرى وتنتشر خلال الجسم. فذهب أربع منها إلى المخ، وثلاث إلى القلب، وأربع إلى الغدد الرئيسية في جهاز الغدد الصماء، في حين انتشرت أجهزة المراقبة الواحدة والعشرون الباقية خلال أماكن وأعضاء مختلفة بدءًا من العين حتى أصابع اليد والقدمين.

فقالت: «تحتوي المسابير المنفردة على مجموعة من أجهزة الاستشعار لاختبار المؤشرات الصحية المهمة، ونظام بيانات منتقًى يخزن المعلومات المسجلة ثم ينقلها فور استلام أمر تفعيل من جهاز الفحص. ومن الناحية العملية، أتوقَّع أن أفحص كلًّا منكم وآخذ قراءات المقاييس الصحية الخاصة بكلٍّ منكم يوميًّا، ومع ذلك فيمكن لجهاز تسجيل البيانات أن يحتفظ بالبيانات لمدة أربعة أيام، عند الضرورة.» ثم توقفت ونظرت إلى الحضور، وتساءلت: «هل لدى أيٍّ منكم سؤال فيما يتعلق بما سبق؟»

فقال ريتشارد ويكفيلد الجالس في الصف الأول: «نعم. أرى أن هذا النظام يجمع كمًّا هائلًا من البيانات. لكن هذه هي المهمة السهلة. المشكلة هي أنه لا أحد يستطيع الاطلاع على كل هذه المعلومات. فكيف يجري تجميع تلك البيانات أو تحليلها حتى تتمكني من معرفة أن هناك مشكلةً ما؟»

ابتسمت نيكول قائلة: «أحسنت يا ريتشارد، هذا هو لب الموضوع. إن هذا هو الموضوع التالي الذي سأتحدث عنه.» وحملت في يدها جهازًا رفيعًا وصغيرًا ومسطحًا يحتوي على لوحة مفاتيح. واسترسلت قائلة: «بين يديَّ هنا جهاز فحص قياسي قابل للبرمجة، ويسمح بتقييم المعلومات المسجلة بطرق شتى. فيمكنني أن أطلب تفريغًا كاملًا من أي قناة أو من جميع القنوات معًا، أو يمكنني طلب نقل بيانات الإنذار فقط …»

رأت نيكول نظرة الحيرة في عيون كثير من الحضور. فقالت: «من الأفضل أن أعيد شرح هذا الجزء من جديد. إن كل قياس يسجله كل جهاز له «معدل متوقع» — وسيختلف المعدل بالطبع من شخص إلى آخر — وهناك «معدل احتمال» أوسع لتحديد الحالات الحرجة حقًّا. إذا تجاوز قياسٌ ما المعدل المتوقع فقط، يجري إدخاله في ملف الإنذارات ويوضع على تلك القناة تحديدًا علامة إنذار. وأحد الخيارات المتاحة أمامي لاستخدام شاشة الفحص هو قراءة قوائم الإنذارات تلك فقط. فإذا كان رائد الفضاء يشعر أنه بصحة جيدة، فسأكتفي بأن أطلع على أي مدخلات في قائمة الإنذارات.»

عندئذٍ قدَّم جانوس تابوري مداخلة: «لكن في حالة وجود قياس يتجاوز معدل الاحتمال، فكن حذرًا. يشغل جهاز المراقبة جهاز إرسال إنذار الحالات الحرجة، ويستخدم

كل طاقته الداخلية بغرض إرسال صوت إنذار رهيب يدوي «بيب، بيب». وأنا أعلم جيدًا ما أتحدث عنه؛ فقد حدث الأمر معي خلال اختبار قصير مع قيم احتمال تبين أنها غير مناسبة. لقد ظننت أنني أحتضر.» كان جانوس الطبيب الاحتياطي، وقد أشاع تعليقه نوبة ضحك عارمة. إذ كان تصور جانوس الضئيل الحجم وهو يسير مُصدرًا أصوات إنذار عالية مضحكًا للغاية.

فاستكملت نيكول حديثها قائلة: «لا يوجد نظام كامل. وهذا النظام يكون جيدًا بحسب جودة القيم التي يُزود بها لإطلاق حالات الإنذار أو الحالات الحرجة. مما يؤكد على أهمية بيانات التقييم. لقد فحصنا السجل الطبي لكلٍّ منكم بدقة متناهية، وأدخلنا قيمًا أولية في أجهزة المراقبة. لكن يجب أن نرى النتائج الفعلية باستخدام المسابير الحقيقية الموضوعة في أجسامكم. وهذا هو السبب في لقائنا اليوم. فسندخل مجموعة المسابير في أجسادكم اليوم، وسنراقب أداءكم خلال تدريبات المحاكاة الأربعة الأخيرة التي ستقام يوم الخميس، وسنحدث قيم إطلاق الإنذار — إذا دعت الحاجة — قبل الانطلاق الفعلي.»

سرَت رجفةٌ تلقائية في جسد الحضور؛ نظرًا لأن الرواد أخذوا يتصورون وضع أجهزة طبية معملية صغيرة في أجسامهم إلى أجل غير مسمًّى. فقد اعتادوا على مسابير الفحص الاعتيادية التي كانت توضع في الجسم للحصول على بعض المعلومات المحددة، مثل حجم الترسبات التي تعترض مجرى الشرايين، لكن تلك المسابير كانت مؤقتة. فأقل ما يمكن أن يقال عن فكرة إدخال جسم إلكتروني دائم إلى الجسم، إنها مزعجة. وقد طرح الجنرال مايكل أوتول سؤالين أزعجا أغلبية أفراد الطاقم.

سأل بطريقته الجادَّة المعهودة: «نيكول، هل يمكن أن تخبرينا كيف نضمن انتشار المسابير في أماكنها الصحيحة؟ بل الأهم من ذلك، ماذا سيحدث إذا تعطَّل أحد المسابير؟»

فأجابته بلطف: «بالطبع، يا مايكل. وتذكر أن تلك الأشياء ستوضع في جسدي أنا أيضًا، وكان عليَّ أن أسأل السؤال نفسه.» كانت نيكول في منتصف الثلاثينيات من عمرها. وكانت ذات بشرة برونزية لامعة، وعيناها بنية قاتمة اللون وتأخذ شكل حبة اللوز، وشعرها ذو لون أسود حالك ومنمق. وتنبعث منها هالة ثقة بالنفس ساطعة كالشمس، لكن البعض كان يفسرها في بعض الأحيان على أنها نوع من التكبر. أردفت: «ولن تغادروا العيادة اليوم حتى نتأكد من أن جميع المسابير اتخذت مواضعها بشكل صحيح. وبناءً على تجربة أُجريت حديثًا فقد يخرج أحد أجهزة المراقبة خارج المسار المحدد له. لكن من السهل تتبعه بواسطة معدات المعمل؛ ومن ثَم إرسال أمر يدوي لتصحيح مساره إلى الموقع الصحيح.

وفيما يتعلق بمسألة عطل أحد الأجهزة توجد مستويات عدة للحماية ضد حدوث خلل. فبادئ ذي بدء، كل جهاز مراقبة يختبر بطارية أجهزة الاستشعار المزود بها أكثر من عشرين مرة في اليوم. وفي حالة فشل أي جهاز منفرد في الاختبار يوقفه البرنامج الإجرائي في جهاز المراقبة الخاص به على الفور. إضافة إلى ذلك تخضع كل مجموعة من مجموعات المسابير إلى اختبار ذاتي كامل ودقيق جدًّا مرتين يوميًّا. ويعد فشل الاختبار الذاتي إحدى حالات الخلل المتعددة التي تجعل جهاز الفحص يفرز موادَّ كيماوية تسبب التدمير الذاتي للجهاز، مع امتصاص الجسم لها تدريجيًّا دون وقوع أي أضرار. وحتى لا يصيبك القلق دون حاجة، تحققنا من جميع حالات الخلل هذه عن طريق حالات خضعت للاختبار خلال السنة الماضية.»

أنهت نيكول حديثها ووقفت صامتةً أمام زملائها. ثم سألت: «هل من أسئلة؟» وبعد مرور بضع ثوانٍ من التردد، أكملت: «إذَن أنا في حاجة إلى متطوع ليأتي إلى هنا بجانب المرضة الآلية ليُجرى تلقيحه. لقد حُقِنت مجموعة مسابيري وجرى التحقق منها في الأسبوع الماضي. فمن التالي؟»

نهضت فرانشيسكا من مقعدها. فقالت نيكول: «حسنًا، سأبدأ بالسيدة فرانشيسكا.» وأشارت إلى طاقم التلفزيون. وقالت: «ركز هذه الكاميرات على محاكاة التعقب. فالعرض يكون ممتعًا عندما تنتشر هذه الأجهزة الإلكترونية الصغيرة عبر مجرى الدم.»

الفصل التاسع

عدم انتظام ضغط الدم الانبساطي

كانت نيكول تُطل عبر نافذتها، ولا تكاد تميز حقول الثلج السيبيرية في خيوط الضوء المائلة في شهر ديسمبر. كانت تلك الحقول تقع أسفلها على مسافة تزيد على خمسين ألف قدم. أخذت الطائرة ذات السرعة الأعلى من الصوت تخفف من سرعتها وهي تتجه جنوبًا نحو فالديفوستوك وجزيرة اليابان. تثاءبت نيكول. فقد كان بقاؤها مستيقظة، وهي لم تحظَ إلا بثلاث ساعات من النوم، معركة صعبة. كانت الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا في اليابان، لكن في الوطن، في بوفوا بمنطقة وادي اللوار على مسافة غير بعيدة من مدينة تور، كان لا يزال أمام ابنتها جينيفيف أربع ساعات أخرى حتى يُدوِّي صوت جهاز المنبه ليوقظها من نومها في السابعة.

انفتحت شاشة العرض الموجودة خلف الكرسي أمام نيكول آليًّا، وذكرتها بأن الطائرة ستهبط إلى «مركز كانساي للنقل» بعد خمس عشرة دقيقة فقط. وقد اقترحت الفتاة اليابانية الجميلة التي تظهر على الشاشة أن هذا هو الوقت المثالي لحجز وسيلة للتنقل عند الهبوط وتدبر أمر المسكن، أو تأكيد تلك الحجوزات. فشغلت نيكول نظام الاتصال في مقعدها، فظهر أمامها درج رفيع مثلث الشكل مزود بلوحة مفاتيح وشاشة عرض صغيرة. وفي أقل من دقيقة استطاعت نيكول حجز تذكرة القطار إلى كيوتو، وحجز تذكرة في ترام كهربائي لنقلها من محطة القطار إلى الفندق. واستخدمت بطاقتها الائتمانية العالمية لسداد تكاليف جميع تلك المعاملات، بعد أن أكَّدت هويتها على نحو صحيح عن طريق ذكر اسم والدتها قبل الزواج، وهو أناوي تياسو. وعند انتهائها خرج من نهاية الدرج المثلث الشكل جدول صغير مطبوع يحدد تفاصيل القطار والترام اللذين ستستقلهما، ومواعيد الوصول والانتقال (كان من المفترض أن تصل إلى الفندق في الساعة ١١:١٤ صباحًا بتوقيت اليابان).

وفي حين كانت الطائرة تستعد للهبوط فكرت نيكول في السبب وراء رحلتها المفاجئة قاطعةً ثلث مساحة العالم. فمنذ أربع وعشرين ساعة فقط كانت تخطط لقضاء هذا اليوم في منزلها، بعد القيام ببعض الأعمال المكتبية في الصباح، ومساعدة جينيفيف على ممارسة اللغة بعد الظهيرة. لقد كانت هذه بداية عطلة رواد الفضاء، وباستثناء تلك الحفلة التافهة في روما في نهاية العام، كان من المفترض أن تكون نيكول في إجازة حتى موعد تقديم التقرير إلى المحطة الفضائية بالمدار الأرضي المنخفض ٣ في الثامن من يناير. لكنها وجدت ظاهرة غريبة وهي تجلس في مكتبها بالمنزل صباح أمس أثناء فحص روتيني للإحصاءات البيولوجية المسجلة في المجموعة النهائية من تدريبات المحاكاة. فقد كانت تفحص حالة قلب ريتشارد ويكفيلد وضغط دمه خلال اختبار جاذبية متغير، ولم تفهم سبب حدوث ارتفاع سريع وشديد في معدل نبضات القلب. ومن ثَم قررت فحص الإحصاء البيولوجي المفصل لقلب دكتور تاكاجيشي لمقارنته بنتائج ريتشارد؛ وذلك نظرًا لأنه اشترك مع ريتشارد في نشاط جسدي عنيف في وقت ارتفاع معدل نبضات القلب.

ولقد فوجئت أكثر بما اكتشفته عندما اطلعت على تقرير كامل حول حالة قلب تاكاجيشي. لقد كان التمدد الانبساطي لعضلة قلب الدكتور الياباني مضطربًا بلا جدال، بل قد يكون مرضيًّا. لكن المسابير لم تصدر أي إنذارات ولم تُنبه أي قناة من قنوات البيانات. ما الذي كان يحدث؟ هل اكتشفت قصورًا في نظام هاكاماتسو؟

إن ساعة من العمل البحثي الجاد أدَّت إلى اكتشاف مزيد من الأشياء الغريبة. فقد ظهرت مشكلة تاكاجيشي في أربع فترات منفصلة في خلال مجموعة تدريبات المحاكاة الكاملة. وقد كانت تلك الظاهرة الغريبة متقطعة. في بعض الأوقات كان ضغط الدم الانبساطي مفرط الطول، وهو أمر يوحي بوجود مشكلة في أحد الصمامات تحدث عند امتلاء بطين القلب بالدم، لا يظهر لمدة ثمانٍ وثلاثين ساعة. ومع ذلك فتكرار حدوثه في أربعة أوقات مختلفة ينذر بوجود خطأ ما.

لم تكن البيانات الأولية في حد ذاتها هي ما أزعج نيكول، بل فشل النظام في إصدار الإنذارات المناسبة في وجود مشاهدات غير منتظمة بشدة. وقد تتبعت سجل تاكاجيشي الطبي كجزء من تحليلها، مُركزةً بشدة على تقرير حالة القلب. فلم تجد أي إشارة إلى وجود أي خلل؛ ولذا أقنعت نفسها بأن ما حدث كان خطأً من جهاز الاستشعار وليس مشكلة طبية حقيقية.

عللت نيكول الموقف في ذهنها: «لو كان النظام يعمل بصورة صحيحة، لكان الانبساط الطويل سيصل بجهاز مراقبة القلب على الفور إلى مقياس يتجاوز المعدل المتوقع، وكانت

إشارة الإنذار ستنطلق. لكن ذلك لم يحدث. لا في المرة الأولى ولا في المرات التي تلتها. من المستحيل أن يكون لدينا فشل مزدوج. وإلا فكيف نجحت الوحدة في اجتياز الاختبار الذاتي؟»

في بادئ الأمر فكرت نيكول في الاتصال بأحد مساعديها في مكتب مسئولي علم الحياة بوكالة الفضاء العالمية لمناقشة الظاهرة الغريبة التي اكتشفتها، لكنها قررت بدلًا من ذلك الاتصال بالدكتور هاكاماتسو في اليابان نظرًا لأن أفراد وكالة الفضاء العالمية كانوا في عطلة. وقد أربكتها تلك المكالمة الهاتفية تمامًا. حيث أخبرها بصراحة أن الظاهرة التي اكتشفتها يجب أن تكون في المريض بالفعل، فلا يوجد مزيج من الأعطال في مكونات مسباره يمكنه أن يفضي إلى مثل هذه النتائج الغريبة. لكنها سألت مهندس الإلكترونيات الياباني: «لكن لماذا لم تظهر أي بيانات مسجلة في ملف الإنذارات؟»

فأجاب بثقة: «لأنه لم يحدث تجاوز لأيٍّ من قيم المعدلات المتوقعة. لا بد أنه جرى إدخال معدل متوقع كبير أكثر من اللازم لهذا الرائد، لسبب ما. هل اطلعتِ على سجله الطبي؟»

وفي جزء لاحق من المكالمة الهاتفية، عندما أخبرت نيكول الدكتور هاكاماتسو أن البيانات غير المفسرة قد ظهرت من مجموعة المسابير الموضوعة في جسد أحد أبناء وطنه، وهو رائد الفضاء العالم تاكاجيشي، صاح المهندس الهادئ عادةً في الهاتف. وقال: «رائع، إذَن سأتمكن من حل هذا اللغز بسرعة. سأتصل بتاكاجيشي في جامعة كيوتو، وسأخبرك بالنتيجة.»

وبعد ثلاث ساعات، ظهر وجهُ الدكتور شيجيرو تاكاجيشي البائس على شاشة نيكول. قال بلطفٍ جم: «سيدة نيكول، لقد علمت أنه دار بينك وبين زميلي هاكاماتسو حديث بشأن نتائج الإحصاء البيولوجي الخاص بي خلال تدريبات المحاكاة. فهلا شرحتِ لي ما وجدتِ؟»

فعرضت نيكول جميع المعلومات على زميلها دون أن تخفي عنه شيئًا، وأبدت إيمانها الشخصي بأن البيانات الخاطئة كانت نتيجة لخلل بأحد المسابير.

خيَّم صمتٌ طويل عقب تعليق نيكول. وبعد مرور وقت طويل تحدَّث العالم الياباني القلق مرة أخرى. وقال: «لقد زارني هاكاماتسو لتوه هنا في الجامعة، وفحص مجموعة المسابير الموضوعة في جسدي. وسيقدم تقريرًا يفيد بأنه لم يجد أي خلل بالأجهزة الإلكترونية.» وسكت تاكاجيشي برهة، وبدا عليه أنه مستغرق في التفكير. ثم أردف بعد

ثوانٍ معدودة: «سيدة نيكول، أود أن أطلب منك معروفًا. وهو أمرٌ شديد الأهمية بالنسبة لي. هل يمكنك أن تأتي لرؤيتي في اليابان في القريب العاجل؟ فأنا أرغب في التحدث إليكِ على انفراد، وتوضيح أمر قد يكون ذا علاقة ببيانات الإحصاء البيولوجية غير المنتظمة.»

ارتسمت نظرةٌ جادَّة على وجه تاكاجيشي لم تستطِع نيكول التغاضي عنها أو إساءة تفسيرها. إنها نظرة استغاثة. ودون أن تطرح أي أسئلة أخرى وافقت على زيارته على الفور. وفي خلال دقائق معدودة حجزت مقعدًا في الرحلة الليلية بطائرة أسرع من الصوت من باريس إلى أوساكا.

قال تاكاجيشي وهو يشير بذراعيه إلى مدينة كيوتو الممتدة أسفلهما: «إن هذه المدينة لم تتعرض للقذف بالقنابل قط خلال الحرب العظيمة ضد أمريكا، ولم تتعرض تقريبًا إلى أي خسائر عندما سيطر عليها السفاحون لمدة سبعة أشهر عام ٢١٤١.» وقال مبتسمًا: «أقرُّ بأن رأيي فيه نوع من التحيز، لكنني أرى أن مدينة كيوتو هي أجمل مدينة في العالم.»

أجابت نيكول: «إن العديد من أبناء وطني يتملكهم هذا الشعور نفسه تجاه باريس.» وشدت معطفها بإحكامٍ حول جسدها. فقد كان الهواء باردًا ورطبًا. وقد بدا كما لو أن السماء ستمطر ثلجًا في أي لحظة. وقد كانت تتساءل متى سيبدأ زميلها في الحديث عن المسألة التي أتت من أجلها. فهي لم تقطع مسافة خمسة آلاف ميل لتقوم بجولة في المدينة، مع أنها أقرَّت بالفعل بروعة موقع معبد كيوميزو الذي يقع بين الأشجار على منحدر تل يطل على المدينة.

قال تاكاجيشي: «لنتناول كوبًا من الشاي.» وقادها إلى إحدى الغرف الخارجية المتعددة المخصصة لتناول الشاي المحيطة بالمعبد البوذي العتيق. قالت نيكول في نفسها وهي تكتم تثاؤبها: «الآن سيخبرني بحقيقة الأمر.» كان تاكاجيشي قد قابلها في الفندق عند وصولها. وقد اقترح أن تتناول الغداء وتأخذ قسطًا من الراحة قبل أن يعود إليها. وقد توجَّها مباشرة إلى المعبد عندما أقلها في الساعة الثالثة.

صبَّ تاكاجيشي الشاي الياباني الثقيل في كوبين، وانتظر حتى ترتشف نيكول من كوبها رشفة. أدفأ الشاي الساخن فمها حتى إنها لم تُلقِ بالًا لمذاقه المر. فبدأ تاكاجيشي الحديث: «سيدتي، أنت تتساءلين بلا شك عن سبب طلبي أن تقطعي كل تلك المسافة إلى اليابان لمقابلتي بهذه السرعة.» ثم بدأ يتحدث بتؤدة، ولكن بحدة شديدة: «طالما منيت

نفسي بأن مركبة فضائية أخرى كمركبة راما سوف تعود إلى الأرض وأنا لا أزال على قيد الحياة. وطوال سنوات دراستي في الجامعة وطوال سنوات البحث الطويلة، كنت أعد نفسي لحدث واحد فقط، ألا وهو عودة سكان راما. لقد بكيت من الفرحة تقريبًا عندما دعاني الاستير مور في صباح أحد أيام شهر مارس عام ٢١٩٧ ليخبرني بأن آخر الصور التي التقطتها محطة إكسكاليبور تشير إلى قدوم زائر فضائي آخر. وعلمت على الفور أن وكالة الفضاء العالمية ستجهز بعثة لزيارة المركبة الفضائية. وعزمت على أن أكون جزءًا من تلك البعثة.»

ارتشف العالم الياباني رشفة من كوبه، ونظر إلى يساره إلى الخارج، عبر الأشجار الخضراء المشذَّبة والمنحدرات التي تعتلي المدينة. ثم أكمل، وكان يتحدث الإنجليزية بتحفظ وصوته يُسمع بشق الأنفس: «عندما كنت صبيًّا كنت أتسلق هذه التلال في ليلة صافية وأحدق في السماء باحثًا عن المنزل الذي يقطنه العقل الخارق الذي صنع تلك الآلة العملاقة المنقطعة النظير. ذات مرة أتيت بصحبة والدي، وجلسنا معًا في هواء الليل البارد، وأخذنا ننظر إلى النجوم، في حين كان والدي يحكي لي حال قريته أيام مواجهة المركبة الفضائية راما ١ قبل أن أولد باثنتي عشرة سنة. لقد آمنت في تلك الليلة …» وعاد ينظر إلى نيكول، التي استطاعت أن ترى العاطفة في عينيه مرة أخرى: «ولا أزال أومن بأن هناك سببًا ما وراء تلك الزيارة، وأن هناك غرضًا من ظهور سفينة الفضاء المذهلة. لقد درست جميع بيانات اللقاء الأول براما أملًا في أن أجد أي إشارة يمكن أن تفسر سبب قدومها. لكنني لم أجد أي دليل قاطع. توصلت إلى عدد من النظريات حول المسألة، لكنني لا أملك الدليل الكافي لتأكيد أيٍّ منها.»

توقف تاكاجيشي مرة أخرى عن الحديث ليحتسي بعضًا من الشاي. وقد فوجئت نيكول بعمق المشاعر التي أظهرها وتأثرت بها بشدة. فجلست بصبر ولم تنبس بكلمة في انتظار أن يكمل حديثه. فقال: «كنت أعلم أن هناك فرصة كبيرة لاختياري كرائد فضاء ضمن المهمة، وذلك ليس فقط بسبب الأعمال التي نشرتها، بما فيها كتاب «أطلس»، ولكن أيضًا بسبب كون أحد زملائي المقربين، هيسانوري أكيتا، هو الممثل الياباني في لجنة اختيار الرواد. وعندما جرت تصفية العلماء المتبارين إلى ثمانية وكنت من ضمنهم، أخبرني أكيتا أنه يرى أن المرشحين الأساسيين هما أنا والدكتور ديفيد براون. وتذكري أنه حتى ذلك الحين لم تكن قد أجريت أي فحوصات طبية بعد.»

فأخذت نيكول تتذكر: «هذا صحيح. لقد قُلِّل عدد الطاقم المرشح إلى ثمانية وأربعين فردًا، ثم ذهبنا إلى هايدلبرج بهدف إجراء الفحوصات الطبية. حيث أصرَّ الأطباء الألمان

المسئولون عن إجراء الفحوصات، على ضرورة تخطي كل مرشح لجميع الاختبارات. وجرى فحص خريجي الأكاديمية أولًا، وأخفق خمسة من مجموع عشرين. ومن ضمنهم ألين بلامونت.»

أكمل تاكاجيشي: «لقد أُصبت بالذعر عندما استبعد بلامونت، وهو من قام بالفعل بست مهام رئيسية لوكالة الفضاء العالمية، بسبب مسألة صوت خفقان القلب التافهة تلك وتأييد لجنة اختيار الرواد قرار الأطباء ورفضها لالتماسه.» وأخذ عالم الفيزياء الياباني المعتز بنفسه يحدق في عيون نيكول مباشرة، حاثًّا إياها على إدراك الموقف. ثم أردف: «كنت أخشى أن أضيع أهم فرصة في حياتي المهنية بسبب مشكلة طبية غير خطيرة ولم تؤثر على حياتي بطريقة أو بأخرى من قبل.» سكت تاكاجيشي برهة لانتقاء كلماته بعناية. ثم قال: «أعلم بأن ما فعلته عمل غير أخلاقي وغير شريف، لكنني أقنعت نفسي وقتها بأنه لا بأس من القيام به، وأن مشاركتي في حل أكبر لغز في تاريخ الإنسانية لا ينبغي أن تعيقها مجموعة من الأطباء ضيقي الأفق لا يحددون مستوى الصحة المقبول إلا من خلال قيم رقمية.»

أكمل الدكتور تاكاجيشي ما تبقى من قصته دون زخرفة أو انفعالات وعواطف واضحة. فالعاطفة التي أظهرها لفترة وجيزة عند حديثه عن سكان راما قد تلاشت. وكان حديثه الرتيب حازمًا وواضحًا. وبدأ يشرح كيف تملق أحد الأطباء في أسرته ليمده بسجل طبي مزيف، وليزوده بعقار جديد لمنع حدوث عدم الانتظام الانبساطي أثناء يومَي فحصه في هايدلبرج. ومع أن العقار الجديد كان له آثار جانبية مُضرَّة فقد سار كل شيء وَفقًا للخطة. تخطى تاكاجيشي الفحص الطبي الصارم، واختير في النهاية ضمن علماء المهمة هو ودكتور ديفيد براون. ولم يفكر في مسألة الفحص الطبي مرة أخرى إلا منذ ثلاثة أشهر، عندما شرحت نيكول لرواد الفضاء لأول مرة أنها كانت تخطط للتوصية باستخدام نظام مسابير هاكاماتسو خلال المهمة بدلًا من فحوصات المسابير المؤقتة القياسية مرة واحدة أسبوعيًّا.

فأخذ تاكاجيشي يشرح، وقد قطَّب جبينه الآن: «فكما ترين، كان يمكنني استخدام العقار نفسه مرة أسبوعيًّا في ظل التقنية القديمة، وحينها لم يكن أحد من الأطباء ولا أنتِ سيعلم بأمر عدم انتظام ضغط الدم الانبساطي لديَّ. لكن كيف كان لي أن أخدع نظام مراقبة مستمرًّا؟ والاستخدام المستمر للعقار ينطوي عن خطورة كبيرة.»

وعندئذٍ استنتجت نيكول باقي الأحداث في ذهنها: «لهذا عقدت صفقة مع هاكاماتسو. سواء بعلمه أو دون علمه. ووضعت معدلات القيم المتوقعة بأرقام لن ينطلق معها الإنذار

في حالة وجود أي اضطراب. وكنت تأمل عدم قيام أي شخص ممن يقومون بتحليل الاختبارات بطلب تفريغ كامل للإحصاء البيولوجي. الآن فقط أدركت سبب استدعائه لي على وجه السرعة في اليابان. وأيضًا تريد مني أن أحفظ سرك.»

قالت نيكول بلطف، وقد انتقلت للحديث باليابانية لتظهر تعاطفها مع آلام زميلها: «أنا مقدرة لمشاعرك يا زميلي. وأنا على دراية بالتوتر الذي يعتريك جرَّاء هذا الموقف. وليس عليك أن تشرح بالتفصيل كيف تلاعبت بمسابير هاكاماتسو.» توقفت نيكول بعض الوقت، وشاهدت ملامح وجهه وهي تتحرر من التوتر. ثم أكملت: «لكنني أفهم من حديثك أنك تريدني أن أصبح متواطئة معك في خداعك. تعلم بالطبع أنني لا أستطيع حتى مجرد التفكير في التستر على سرك إلا إذا اقتنعت تمامًا بأن مشكلتك الصحية غير الخطيرة — كما وصفتها أنت — لا تمثل أي تهديد للمهمة. وإلا فسأكون مضطرة إلى ...»

فقاطعها تاكاجيشي: «سيدة نيكول، أنا أكنُّ أشد تقدير لنزاهتك. وما كنت لأطلب منك التستر على عدم انتظام قلبي إلا إذا اقتنعتِ أنها حقًّا مشكلة غير خطيرة.» وأخذ ينظر إليها في صمت لعدة ثوانٍ. ثم أكمل بهدوء: «عندما اتصل هاكاماتسو بي ذلك اليوم، فكرت أول ما فكرت في أن أعقد مؤتمرًا صحفيًّا، ثم أعلن استقالتي من المشروع. لكن بينما كنت أفكر فيما سأورده في استقالتي ظلت صورة البروفيسور براون تراودني. إنه رجل ذكي، ويُعد نظيري الأمريكي، لكنه أيضًا يثق بنفسه ثقةً عمياء. وسيكون البديل الرئيسي لي على الأرجح البروفيسور وولفجانج هاينريش من مدينة بون، الذي أصدر العديد من المطبوعات التي تتحدث عن راما. لكنه، مثل براون، يؤمن بأن أولئك الزوار الفضائيين يمثلون أحداثًا عشوائية، ليس لها أي علاقة بنا نحن البشر أو بكوكبنا.» بدأت الحدة والانفعال يظهران مجددًا في عينيه. ثم قال: «لا يمكنني أن أستقيل من المشروع الآن. إلا إذا لم يكن لديَّ خيار آخر. لكن كلًّا من براون وهاينريش قد لا ينتبه إلى مفتاح اللغز.»

وخلف تاكاجيشي، على الطريق الذي يؤدي إلى المبنى الخشبي الرئيسي للمعبد، مر ثلاثة رهبان بوذيين برشاقة. ومع برودة الجو، كانوا يرتدون ملابس خفيفة بثيابهم الرمادية القاتمة الفضفاضة المعهودة، وكانت أقدامهم مكشوفة للهواء البارد من خلال فتحات الصنادل. اقترح العالم الياباني على نيكول أن يقضيا بقية اليوم في مكتب طبيبه الخاص، حيث يمكنهما دراسة سجله الطبي الكامل وغير الخاضع لأي حذف، وهو من بداية طفولته. كما أضاف أنه يمكن أن تأخذ مكعب تخزين بيانات يحمل جميع المعلومات لكي تتمكن من أخذها معها إلى فرنسا ودراستها في وقت فراغها.

حولت نيكول — التي ظلت تصغي إلى تاكاجيشي لما يقرب من الساعة — انتباهها لفترة قصيرة إلى الرهبان الذين يصعدون السلالم الآن بعزم على بعد. فأخذت تفكر: «إن أعينهم صافية. وحياتهم خالية من التناقضات. إن التوحد قد يكون فضيلة. فهو يجعل جميع الإجابات سهلة.» ومرَّت بها لحظة شعرت بمشاعر الحسد تجاه الرهبان وحياتهم المنظمة. وتساءلت عن الطريقة التي سيتعامل بها الرهبان مع المحنة التي عرضها عليها الدكتور تاكاجيشي. وبدأت تفكر: «إنه ليس أحد المبتدئين بالأكاديمية، ودوره ليس مهمًّا للغاية لنجاح المهمة. وبدرجة ما أرى أنه على حق. فقد كان أطباء المشروع شديدي الصرامة على نحو مبالغ فيه. وما كان ينبغي لهم استبعاد ألين. وسيكون من العار أن …»

فقالت قبل أن ينهي حديثه: «حسنًا. سأذهب معك لرؤية طبيبك، وفي حالة لم أجد أي شيء مقلق سآخذ الملف بأكمله إلى المنزل وأدرسه خلال العطلة.» فتهلل وجه تاكاجيشي. فأردفت: «لكن دعني أحذرك مجددًا أنه في حالة وجود أي شيء مريب في سجلك الطبي، أو إذا وجدت أدنى دليل يفيد إخفاءك لأي معلومة عني، فسأطلب منك الاستقالة على الفور.»

فأجاب الدكتور تاكاجيشي وهو يقف ثم ينحني لزميلته ممتنًّا: «شكرًا لك، شكرًا جزيلًا.» وأخذ يردد: «شكرًا جزيلًا لك.»

الفصل العاشر

رائد الفضاء والبابا

لم يستطِع الجنرال أوتول أن ينام إلا أقل من ساعتين. فقد تسبب مزيج من الإثارة والأرق الناتج عن السفر لمدة طويلة واختلاف التوقيت في إبقاء ذهنه يقظًا طوال الليل. وقد أخذ يتأمل لوحة جدارية تُصور الريف مرسومة على الحائط المقابل لفراشه في غرفة الفندق، وعدَّ جميع الحيوانات باللوحة مرتين. إلا أنه، ولسوء الحظ، ظل مستيقظًا حتى بعد أن فرغ من العد.

أخذ نفسًا عميقًا آملًا أن يساعده على الاسترخاء. وسأل نفسه: «إذن، لمَ كل هذا التوتر؟ إنه ليس إلا رجلًا، مثله مثل أي رجل آخر على وجه الأرض. حسنًا، ليس مثل أي رجل آخر بالضبط.» اعتدل أوتول منتصبًا في جلسته على كرسيه وابتسم. كانت الساعة العاشرة صباحًا، وكان يجلس في غرفة انتظار صغيرة داخل الفاتيكان. لقد كان في انتظار عقد مقابلة خاصة مع الحبر الأعظم، البابا يوحنا-بولس الخامس.

طالما حلم مايكل أوتول طوال طفولته بأن يصبح يومًا ما أول بابا من أمريكا الشمالية. لقد أطلق على نفسه «البابا مايكل» عندما كان يدرس كتاب التعاليم الدينية وحده بعد ظهر كل أحد. كان يكرر كلمات الكتاب المقدس مرارًا وتكرارًا ويحفظها عن ظهر قلب، وهو يتخيل نفسه بعدما يقرب من خمسين عامًا مرتديًا رداء البابا وخاتمه، ويقيم القداس للآلاف في كنائس العالم الكبرى وملاعبه. ويتخيل أنه سيكون مصدر إلهام الفقراء واليائسين والمضطهدين. وأنه سيريهم كيف يمكن أن يهديهم الله لحياة أفضل.

كان مايكل أوتول يحب جميع أنواع العلوم في مرحلة الشباب، لكنه كان مفتونًا بثلاث مواد بعينها. فهو لم يستطِع أن يشبع نهمه قط من قراءة المزيد عن الدين والتاريخ والفيزياء. لقد وجد عقله البارع أن من السهل التنقل بين أنواع المعرفة تلك. ولم يزعجه

قط الاختلاف الشاسع بين نظرية المعرفة لعلم الدين ونظرية المعرفة لعلم الفيزياء. ولم يقابل أي مشكلة في التمييز بين المسائل الحياتية التي تحتاج إلى علم الفيزياء للإجابة عنها والمسائل التي تحتاج إلى الدين.

وقد اجتمعت المواد الفلسفية الثلاثة المفضلة لديه في دراسة الخلق. ففي النهاية، كان الخلق بداية كل شيء، بما في ذلك الدين والتاريخ والفيزياء. كيف كان هذا؟ وهل كان الله موجودًا؟ ربما كان موجودًا، كحكم، لمشاهدة ضربة البداية إيذانًا ببدء الكون منذ ثمانية عشر مليار سنة؟ هل كان هو المسئول عن القوة الدافعة التي أحدثت الانفجار المدمر المعروف باسم «الانفجار العظيم» الذي أنتج جميع المواد من الطاقة: ألم يأخذ في حسبانه أن جميع ذرات الهيدروجين النقية الأولية ستندمج مكونة سحبًا عملاقة من الغاز، ثم تتحطم بسبب عامل الجاذبية لتكوِّن النجوم، التي ستتكون بداخلها وحدات التركيب الكيمائي الأساسية للحياة؟

أخذ أوتول يحدث نفسه وهو في انتظار مقابلة البابا: «ولم أفقد قط افتتاني بالخلق. كيف حدث؟ وما المغزى من تسلسل الأحداث على هذا النحو؟» وتذكر أسئلته للقساوسة عندما كان مراهقًا. فقال: «على الأرجح، كان قراري بألا أصبح قسيسًا يرجع إلى خوفي من أن يحد ذلك من حريتي في التوصل إلى الحقيقة العلمية. فالكنيسة لم ترحب قط — كما أرحب أنا — بالاختلافات الواضحة بين ما أنزله الله وما جاء به أينشتين.»

عندما عاد أوتول من الجولة السياحية في الليلة السابقة كان في انتظاره بالفندق المقيم به في روما قسيس أمريكي يعمل بوزارة الخارجية بالفاتيكان. قدم القسيس نفسه لأوتول واعتذر بشدة عن عدم الرد على الخطاب الذي كان أوتول قد أرسله من بوسطن في شهر نوفمبر. وقد ألمح القسيس، بصورة عابرة، إلى أن الجنرال لو أشار في خطابه إلى أنه الجنرال أوتول، رائد الفضاء بمشروع نيوتن، كان ذلك «سيُيسِّر الأمور». ومع ذلك، فقد أكمل القسيس حديثه وأخبره بأنه حدث تعديل في جدول البابا، وأنه يسرُّه مقابلته صباح اليوم التالي. وما إن فُتح الباب المؤدي إلى مكتب البابا حتى نهض الجنرال الأمريكي واقفًا بتلقائية. دخل القسيس الذي قابله الليلة الماضية إلى الغرفة وعلى وجهه علامات التوتر الشديد، وصافح أوتول في عجالة. وألقى كلٌّ منهما بنظره نحو الباب حيث كان البابا واقفًا في ردائه الأبيض المعتاد، وينهي محادثة مع أحد مساعديه. دخل يوحنا-بولس الخامس إلى غرفة الانتظار، وابتسامة صافية تعتلي وجهه، ثم مد يده لمصافحة أوتول. فجثا الجنرال على ركبتيه بصورة تلقائية وقبَّل خاتم البابا.

وهمس، وهو مذهول من الشدة التي كان قلبه يخفق بها: «قداسة البابا، شكرًا لك للسماح لي بمقابلتك. إن هذا يمنحني عظيم الشرف.»

فأجابه البابا بلغة إنجليزية واضحة نوعًا ما: «ويشرفني أنا أيضًا. لقد كنت أتابع نشاطاتك أنت وزملائك باهتمام كبير.»

أشار البابا إلى أوتول، فتبعه الجنرال الأمريكي إلى مكتب ضخم أسقفه عالية. وفي أحد جوانب الغرفة مكتب خشبي أسود عظيم الحجم، أسفل لوحة بالحجم الطبيعي للبابا يوحنا-بولس الرابع، الذي أصبح البابا في أكثر الأيام تدهورًا في فترة «الفوضى العارمة»، وقاد العالم والكنيسة عشرين عامًا مليئة بالنشاط والإلهام. وقد أظهر البابا الفنزويلي — الموهوب، والشاعر والباحث التاريخي، وهي ألقاب استحقها عن جدارة — للعالم فيما بين ٢١٣٩ و٢١٥٨ مدى القوة الإيجابية التي يمكن أن تمثلها الكنيسة المنظمة في وقت كانت جميع المؤسسات الأخرى تقريبًا تنهار وغير قادرة على تقديم أي مساعدة للجماهير الحيارى.

جلس البابا على أريكة، وأشار إلى أوتول كي يجلس بجانبه. وغادر القسيس الأمريكي الغرفة. وكان أمام أوتول والبابا نافذة كبيرة تُشرِف على شرفة تُطل على حدائق الفاتيكان الواقعة على مسافة تقارب العشرين قدمًا أسفلهما. وعن بعدٍ لاح لأوتول في الأفق متحف الفاتيكان، حيث أمضى فترة ما بعد الظهيرة في اليوم السابق.

قال قداسة البابا، دون الإشارة إلى أي ملاحظات: «لقد ذكرت في خطابك أن هناك بعض «المسائل اللاهوتية» التي تود مناقشتها معي. أظن أن هذه المسائل تتعلق بصورة أو بأخرى بمهمتك.»

نظر أوتول إلى الرجل ذي الأصول الإسبانية الذي يناهز السبعين من العمر، الزعيم الروحي لمليار شخص يعتنق المذهب الكاثوليكي. كانت بشرة البابا زيتونية اللون، وملامح وجهه صارمة، وشاب أغلب شعره الأسود الكثيف. وعيناه البُنِّيَّتا اللون صافيتان وتنبعث منهما نظرة حنونة. قال أوتول في نفسه وهو يتذكر مقالةً قرأها في مجلة كاثوليكية، مدح فيها أحد الكرادلة البارزين بإدارة الفاتيكان البابا يوحنا-بولس الخامس لحسن إدارته: «لا بد أنه لا يهدر وقته.»

قال أوتول: «نعم قداسة البابا. كما تعلم أنا على وشك الانطلاق في رحلة من أهم الرحلات للبشرية. ولأني كاثوليكي فلديَّ بعض التساؤلات التي رأيت أن مناقشتها معك قد تساعدني.» وتوقف عن الحديث برهة. ثم أردف: «بالطبع ليس بالضرورة أن أجد جميع الإجابات لديك. لكن ربما يمكنك إرشادي بما لك من حكمة واسعة.»

أومأ البابا برأسه وانتظر حتى يكمل أوتول حديثه. تنفس رائد الفضاء نفسًا عميقًا، ثم قال: «إن مسألة الفداء هي إحدى المسائل التي تؤرقني، وذلك مع علمي أنها مجرد جزء من مسألة أكبر تشغلني تتعلق بالتوفيق بين سكان راما ومعتقداتنا.»

عبس وجه البابا، وأدرك أوتول أنه لم يكن ينقل وجهة نظره بصورة صحيحة. فأردف الجنرال موضحًا: «ليس لديَّ أي مشكلة تُذكَر فيما يتعلق بأن الله هو خالق سكان راما، فهذا أمر سهل إدراكه. لكن هل اتبع سكان راما نموذج تطور روحيًّا مشابهًا، وبناءً عليه يحتاجون إلى الفداء، في وقتٍ ما في تاريخهم، مثل البشر على وجه الأرض؟ وإذا كان هذا حالهم، فهل أرسل الله إليهم يسوع، أو من يشبهه لدى سكان راما، ليخلصهم من خطاياهم؟ وهل نُمثل نحن البشر نموذجًا تطوريًّا كان ولا يزال يتكرر مرارًا وتكرارًا في جميع أنحاء الكون؟»

اتسعت ابتسامة البابا حتى أصبحت ابتسامةً عريضة. وقال مازحًا: «يا لك من رجل، يا جنرال. لقد توغلت سريعًا في منطقة فكرية شاسعة. ويجب أن تعرف أنني لا أملك إجابات سريعة لمثل هذه الأسئلة العميقة. إن لدى الكنيسة العلماء الذين يتناولون المسائل المتعلقة براما منذ ما يقرب من سبعين عامًا، ولعلك تعلم أن بحثنا قد كُثف حديثًا نتيجة لاكتشاف سفينة الفضاء الثانية.»

لكن أوتول ألحَّ في السؤال: «لكن ما رأي قداستك الشخصي؟ هل ارتكبت المخلوقات التي صنعت هاتين المركبتين الفضائيتين العظيمتين خطيئة أصلية وتحتاج أيضًا إلى مُخلص في وقتٍ ما في تاريخهم؟ هل قصة يسوع فريدة من نوعها هنا على كوكب الأرض فقط، أم إنها فصل صغير في كتاب ذي فصول لا تُحصى عن جميع المخلوقات الواعية وضرورة عامة للفداء من أجل تحقيق الخلاص؟»

أجاب قداسة البابا بعد عدة ثوانٍ: «لست على يقين من الإجابة. فأحيانًا أرى أنه من شبه المستحيل أن أتخيل وجود أي مخلوقات أخرى عاقلة تأخذ أشكالًا مختلفة عنا في سائر الكون. ثم ما إن أسلم بأنها بلا شك لا تشبهنا حتى أظل أصارع صورًا تشتت تفكيري عن الأسئلة اللاهوتية التي طرحتها عليَّ هذا الصباح.» وسكت قليلًا يفكر. ثم قال: «لكنني أتخيل في معظم الوقت أن سكان راما أيضًا لديهم دروس يتعلمونها في البداية، وأن الله لم يخلقهم كاملين أيضًا، وأنه في وقت ما في تاريخهم أرسل الله إليهم يسوع ...»

قاطع البابا نفسه، ونظر إلى الجنرال أوتول بتمعن. ثم أكمل بلطف: «نعم، لقد قلت يسوع. أنت سألتني عن قناعتي الشخصية. أنا أرى أن يسوع هو المخلص الحقيقي وابن الله الوحيد. وسيكون هو من أرسل إلى سكان راما أيضًا، حتى إن كان في صورة مختلفة.»

تهلل وجه أوتول بنهاية تعليقات البابا. وقال متحمسًا: «أوافقك الرأي، قداسة البابا. وبذلك تتحد جميع المخلوقات العاقلة في كل مكان في الكون، عن طريق تجربة روحانية متشابهة. وفي الواقع إن افترضنا أن سكان راما وغيرهم قد حصلوا على الخلاص، فهم حقًّا إخوتنا. ففي نهاية الأمر، لقد خلقنا جميعًا من العناصر الكيمائية الأساسية ذاتها. وذلك يعني أن الجنة لن تكون مقصورة على البشر، بل ستحوي جميع المخلوقات في جميع أرجاء الكون الذين استوعبوا رسالته.»

فأجاب يوحنا-بولس: «أستطيع أن أدرك من أين لك هذا الاستنتاج. لكنه بالطبع ليس استنتاجًا مقبولًا عالميًّا. فحتى داخل الكنيسة يوجد بعض الأشخاص الذين يحملون وجهة نظر مختلفة حول سكان راما.»

فقال الجنرال: «تقصد المجموعة التي تستشهد باقتباسات من كلام القديس مايكل من كاتدرائية سيينا لدعم وجهة نظرها؟»

فأومأ البابا برأسه مؤكدًا على افتراضه.

قال الجنرال أوتول: «من وجهة نظري أجد أن تفسيرهم المحدود والمركزي لموعظة القديس مايكل عن سكان راما مقيد للغاية. فقول القديس مايكل إن السفينة الفضائية قد تكون بشيرًا، مثل النبي إيليا أو حتى النبي أشعيا، ينبئ بالمجيء الثاني للمسيح، لم يكن يحصر دور سكان راما في هذا الدور فقط في تاريخنا ويستبعد أي وظيفة أخرى أو وجود آخر. بل كان بكل بساطة يشرح إحدى وجهات النظر المحتملة للحدث من منظور روحاني إنساني.»

ابتسم البابا من جديد قائلًا: «أرى أنك قضيت وقتًا طويلًا واستهلكت كثيرًا من طاقتك في التفكير بشأن كل هذه الأمور. ولم تكن المعلومات الأولية التي وردتني عنك كاملة. فقد ورد في ملفك إخلاصك للرب والكنيسة وأسرتك. لكن لم يكن هناك ذكر كبير لاهتمامك الفكري النشيط بعلم اللاهوت.»

فقال أوتول: «إنني أعتبر هذه المهمة أهم مهمة في حياتي. وأريد التأكد من أنني أخدم كلًّا من الرب والبشرية بصورة صحيحة. ولهذا الغرض أحاول إعداد نفسي بشتى الطرق الممكنة، بما في ذلك معرفة هل لدى سكان راما عنصر روحاني أم لا. فذلك قد يؤثر على تصرفاتي خلال المهمة.»

توقف أوتول عن الحديث هُنيهةً قبل أن يستكمل حديثه. ثم قال: «بالمناسبة، هل وجد الباحثون لدى قداستك أي دليل، عندما حللوا أول لقاء مع راما، على تمتع سكان راما بأي قيم روحانية؟»

هز يوحنا-بولس الخامس رأسه. ثم قال: «ليس بالضبط، لكن أحد أكثر رؤساء الأساقفة إخلاصًا، وهو رجل تغلب حماسته الدينية منطقه أحيانًا، يصر على أن الطراز البنائي داخل المركبة الفضائية راما ١ — بما فيها من تناسق وأشكال هندسية وحتى التصميمات الزائدة والمتكررة التي تتعلق بالرقم ثلاثة — توحي بهيكل معبد. وقد يكون صحيحًا في افتراضه. ولكننا غير متأكدين. في جميع الأحوال لا نرى أي دليل على وجود طبيعة روحانية لدى المخلوقات التي صنعت المركبة الفضائية الأولى.»

قال الجنرال أوتول: «رائع! لم تخطر لي هذه الفكرة من قبل. تصور لو أن تلك السفينة قد صُنعت في الأصل لتكون معبدًا. إن مثل هذه الفكرة سوف تصعق ديفيد براون.» ضحك الجنرال. ثم قال موضحًا: «إن الدكتور براون يصر على أننا البشر الجهلاء والضعفاء لن نتمكن أبدًا من معرفة الغرض من تلك السفينة؛ نظرًا لأن التكنولوجيا التي يملكها صانعوها متقدمة جدًّا بدرجة تفوق إدراكنا، فيكون من المستحيل أن نستوعب أيًّا منها. ويرى بالطبع أن سكان راما لا يدينون بدين. ومن وجهة نظره لا بد أن يكونوا قد تخلوا عن جميع الطقوس الخرافية منذ سنوات طوال قبل أن يرتقوا بقدرتهم لبناء مثل تلك المركبة الفضائية الخرافية.»

فسأله البابا: «هل السيد براون ملحد؟»

فأومأ أوتول برأسه موافقًا. وقال: «نعم هو ملحد مُجاهر بإلحاده. ويرى أن الأفكار الدينية تعيق عمل العقل بصورة صحيحة. ويعتبر كل من يخالفه في الرأي شديد الحمق.»

«وماذا عن بقية الطاقم؟ هل هم أيضًا متشبثون برأيهم في هذه المسألة مثل دكتور براون؟»

«إنه أكثرهم إنكارًا لوجود الله، مع أنني أشك في أن ويكفيلد وتابوري وإيرينا تورجينيف يشاركونه مواقفه الأساسية. ومن الغريب أن حدسي يخبرني بأن داخل قلب القائد بورزوف جزءًا رقيقًا يميل إلى الدين. هذا هو حال أغلب الذين نجوا من مرحلة «الفوضى». على كلٍّ، يبدو أن بورزوف يستمتع بطرح أسئلة تتعلق بإيماني.»

توقف الجنرال أوتول عن الحديث لحظة وهو يستعرض في ذهنه المعتقدات الدينية لدى طاقم نيوتن. «إن السيدتين الأوروبيتين نيكول وفرانشيسكا كاثوليكيتان اسميًّا فحسب، مع أنه لا يمكن القول إنهما متدينتان بأي حال من الأحوال. أما الفريق البحري هيلمان فهو لوثري لكنه لا يتبع هذا المذهب إلا في الأعياد فقط، أما تاكاجيشي فيتأمل مبادئ طائفة زين البوذية ويدرسها. لكنني لا أعرف شيئًا يخص العضوين الآخرين بالطاقم.»

قام البابا وسار متوجهًا إلى النافذة. وقال: «هناك في مكان ما مركبة فضائية غريبة ومذهلة، صنعتها مخلوقات من كوكب آخر، تتجه نحونا. وسنرسل طاقمًا يتكون من اثني عشر فردًا للقائها.» ثم اتجه البابا نحو أوتول. وقال: «قد تكون المركبة الفضائية رسولًا من الرب، لكن على الأرجح ستكون أنت الشخص الوحيد الذي سيراها على هذا النحو.»

لم يجب أوتول على كلام البابا. أخذ البابا يحدق خارج النافذة مرة أخرى وظل صامتًا ما يقرب من دقيقة. ثم قال برقة في النهاية، موجهًا الحديث لنفسه بالقدر نفسه الذي يوجهه لأوتول: «لا يا بني. لا أملك الإجابة على أسئلتك. فالرب وحده يعلم الإجابة. عليك أن تصلي له حتى يلهمك الإجابة عندما تكون في حاجة إليها.» وأدار البابا وجهه إلى الجنرال. ثم قال: «يجب أن أخبرك بأنني سعيد لأنك مهتم بمثل هذه الأمور. وأنا على يقين من أن الله أيضًا قد عمد إلى اختيارك ضمن هذه المهمة.»

أدرك الجنرال أوتول أن المقابلة أوشكت على الانتهاء.

فقال: «أشكرك قداسة البابا مرة أخرى على مقابلتي. فأنا فعلًا أشعر بشرف كبير.»

ابتسم البابا يوحنا-بولس الخامس، وسار نحو ضيفه. فعانق الجنرال على الطريقة الأوروبية وصاحبه إلى خارج مكتبه.

الفصل الحادي عشر

القديس مايكل من كاتدرائية سيينا

كان باب الخروج من محطة مترو الأنفاق مقابلًا لمدخل حديقة إنترناشيونال بيس بارك. أوصل السلم المتحرك الجنرال أوتول إلى مستوى الأرض وسار في ضوء ما بعد الظهيرة، فاستطاع أن يرى الضريح ذا القبة عن يمينه، على مسافة لا تزيد على مائتَي ياردة. وعلى يساره، في الناحية الأخرى من المتنزه، قمة المدرج الروماني العتيق «الكولسيوم» بازغة من وراء مجمع من المباني الإدارية.

سار الجنرال بخفة إلى داخل المتنزه، واتجه يمينًا إلى الطريق المؤدي إلى الضريح. فمر على نافورة مياه صغيرة رائعة المنظر، وهي جزء من نصب تذكاري لأطفال العالم، ووقف لمشاهدة الشخصيات المتحركة المنحوتة وهي تلعب في المياه الباردة. كانت الإثارة تغمر أوتول. فأخذ يحدث نفسه: «ما أروع هذا اليوم! في بدايته حظيت بشرف مقابلة البابا. والآن ها أنا ذا أحظى أخيرًا بزيارة ضريح القديس مايكل.»

فعندما أعلن أن مايكل الذي ينتمي إلى كاتدرائية سيينا قد أصبح قديسًا عام ٢١٨٨، أي بعد موته بخمسين عامًا (بل الأهم من ذلك أن ذلك الإعلان جاء بعد مرور ثلاث سنوات على انتخاب يوحنا-بولس الخامس البابا الجديد للفاتيكان)، كان هناك إجماع فوري على أن أفضل مكان لوضع ضريح عظيم لتكريمه هو حديقة إنترناشيونال بيس بارك. كان المتنزه المترامي الأطراف الممتد من ميدان فينيسيا إلى «الكولسيوم»، يمتد حول وبين ذلك الحطام المتبقي من الميادين الرومانية العامة التي نجت من الإبادة النووية. وقد كانت عملية اختيار موقع الضريح بالضبط حساسة للغاية. فقد ظل النصب التذكاري للشهداء الخمسة — الذي يخلد ذكرى الرجال والنساء الشجعان الذين كرسوا حياتهم لإعادة النظام إلى روما خلال الشهور التي أعقبت وقوع الكارثة مباشرة — عامل الجذب الرئيسي إلى المتنزه لسنوات مديدة. وكان هناك شعور عام بأن الضريح الجديد للقديس

مايكل يجب ألا يطغى على الشكل الخماسي الجليل والمكشوف المصنوع من الرخام، الذي يشغل الجانب الجنوبي من المتنزه منذ عام ٢١٥٥.

وبعد جدل واسع تقرر وضع ضريح القديس مايكل في الجهة المقابلة، شمال غرب المتنزه، بحيث تكون قاعدته متمركزة بشكل رمزي أعلى المركز السطحي الفعلي للانفجار؛ أي على بعد عشر ياردات فقط من الموقع الذي ظل عمود تراجان قائمًا به حتى تبخر على الفور نتيجة للحرارة الشديدة المنبعثة من مركز الانفجار. كان الطابق الأول من الضريح الدائري الشكل مخصصًا للتأمل والعبادة فقط. وكان ملحقًا بصحن الكنيسة الرئيسي اثنا عشر مختلًى أو مكانًا للعبادة، واشتملت ستة منها على رسومات ومنحوتات على الطراز الكاثوليكي الروماني الكلاسيكي، أما الستة الأخرى فكان كلٌّ منها يُمجد إحدى ديانات العالم الرئيسية. كان هذا التقسيم المنتقى بعناية للطابق الأول يهدف إلى إدخال إحساس بالراحة على العديد من غير الكاثوليكيين الذين كانوا يحجون إلى الضريح لتخليد ذكرى القديس مايكل المحبوب.

لم يمكث الجنرال أوتول وقتًا طويلًا في الطابق الأول. فجثا على ركبتيه، وصلى في هيكل القديس بطرس، وألقى نظرة سريعة على التمثال الخشبي الشهير لبوذا القائم في الركن بجانب المدخل، لكن شأنه شأن أغلب السياح، لم يطق الجنرال صبرًا على رؤية اللوحات الجصية الموجودة بالطابق الثاني. وما إن خرج أوتول من المصعد حتى فاجأه حجم اللوحات الشهيرة وجمالها الساحر. وكان قبالته مباشرةً صورة بالحجم الطبيعي لفتاة فاتنة في الثامنة عشرة من عمرها، ينسدل على كتفيها شعرٌ أشقر طويل. كانت مُنحنية إلى الأمام في كنيسة قديمة بمدينة سيينا عشية عيد الميلاد عام ٢١١٥، ومن خلفها طفل رضيع ذو شعر أجعد، وملفوف في غطاء وموضوع في سلة على أرضية الكنيسة الباردة. تلك اللوحة تمثل ليلة ميلاد القديس مايكل، وهي الأولى في سلسلة من اثنتَي عشرة لوحة جصية تحيط بالضريح من كل جانب، وتصور أطوار حياة القديس.

سار الجنرال أوتول إلى الكشك الصغير الواقع بجانب المصعد، واستأجر جهاز تسجيل به شريطٌ مُدته خمس وأربعين دقيقة يتحدث عن المزار، كان حجم الجهاز عشرة سنتيمترات مربعة؛ ولذلك كان من السهل وضعه في جيب معطفه. والتقط إحدى السماعات الصغيرة التي تُستخدم مرة واحدة فقط، ووضعها في أذنه. وبعد اختيار اللغة الإنجليزية ضغط على زر «مقدمة»، واستمع إلى امرأة بريطانية تشرح ما سيَراه في جولته بصوت رقيق.

جاء صوت المرأة عبر المسجل في حين كان الجنرال يتفرس في ملامح القديس مايكل وهو طفل في اللوحة الأولى: «يبلغ ارتفاع كل لوحة من الاثنتي عشرة لوحة جصية ستة أمتار. ويُعد ضوء الغرفة مزيجًا من الضوء الطبيعي الذي ينبعث من خارج الغرفة عبر فتحات بها مرشحات، وضوء اصطناعي ينبع من مصفوفات إلكترونية موجودة في القبة. وهناك أجهزة استشعار لتحديد الظروف المحيطة؛ ومن ثَم يمتزج الضوء الطبيعي بالضوء الاصطناعي بحيث تكون مشاهدة اللوحات ممكنة في جميع الأحوال.

إن اللوحات الاثنتي عشرة مرتبطة بالمختليات الاثنتي عشرة الموجودة في الدور الأسفل. ويسير ترتيب اللوحات نفسها، التي تتبع مسار حياة القديس بتسلسل تاريخي، في اتجاه عقارب الساعة. ونتيجة لذلك تجد أن اللوحة الأخيرة التي تمثل الاحتفال بإعلان مايكل قديسًا في روما عام ٢١٨٨، تقع بجانب اللوحة التي تمثل مولده في كاتدرائية سيينا قبل اثنين وسبعين عامًا.

صمَّم تلك اللوحات ونفَّذها مجموعة عمل من أربعة فنانين، من بينهم البروفيسور فينج يي من الصين، الذي وصل فجأةً ربيع عام ٢١٩٠ دون إشعار مسبق. ومع أنه لم يعلم أي شخص خارج الصين عن مهارته شيئًا، فقد رحَّب أعضاء الفريق الثلاثة — روزا دي سيلفا من البرتغال، وفيرناندو لوبيز من المكسيك، وهانز رايشفاين من سويسرا — بانضمام فينج يي إليهم استنادًا إلى الرسوم التخطيطية المذهلة التي أحضرها معه.»

أخذ أوتول ينظر حول الغرفة الدائرية وهو يستمع إلى الصوت المعبر على المسجل. وفي ذلك اليوم الأخير من عام ٢١٩٩، كان الطابق الثاني من ضريح القديس مايكل يجمع بين طياته ما يزيد على مائتَي شخص، من ضمنهم ثلاثة أفواج سياحية. سار رائد الفضاء الأمريكي بتؤدة حول الدائرة، ووقف أمام كل لوحة ليتفرسها ويستمع إلى التعليق على المسجل.

لقد كانت اللوحات تصور الأحداث المهمة في حياة القديس مايكل بالتفصيل. فاللوحات من الثانية وحتى الخامسة تصور المرحلة التي كان فيها راهبًا فرانشيسكانيًّا مبتدئًا في سيينا، وجولته حول العالم لتقصي الحقائق أثناء «الفوضى العارمة»، وبداية نشاطه الديني عند عودته إلى إيطاليا، واستعماله لموارد الكنيسة من أجل إطعام الجائعين وإيواء المتشردين. أما اللوحة السادسة فتصور القديس الدَّءوب داخل استوديو التلفزيون الذي وهبه إياه أمريكي ثري من معجبيه. وهنا أخذ مايكل، الذي كان يتحدث ثماني لغات، مرارًا وتكرارًا ينادي بوحدة البشر جميعًا وضرورة اهتمام الأغنياء بالفقراء.

كانت اللوحة السابعة من عمل فينج يي، وتصور المواجهة التي وقعت في روما بين مايكل والبابا المسن المحتضر. لقد كانت تحفة فنية رائعة تعبر عن التناقض. كان لاستخدام فينج يي للألوان والضوء بصورة عبقرية الفضلُ في أن تعكس اللوحة صورة شابٍّ نشيط ونابض بالحياة والحيوية يتعرض لانتقاد أسقف ناقم على الحياة ويتوق إلى قضاء أيامه الأخيرة في الدنيا في سكينة وسلام. ويمكن للناظر إلى وجه مايكل أن يميز ردَّي فِعل مختلفين لما يُقال له: أولهما طاعة البابا، وثانيهما الشعور بالمقت لأن الكنيسة تهتم بالشكل والنظام أكثر من اهتمامها بالجوهر.

ثم أكملت المرشدة الصوتية الحديث: «أُرسل البابا مايكل إلى دير بمدينة توسكاني، وهناك حدثت النقلات الأخيرة في شخصيته. وتصور اللوحة الثامنة تجلي الله لمايكل خلال فترة العزلة تلك. ووفقًا لكلام القديس، فقد تحدث الله إليه مرتين: الأولى خلال عاصفة رعدية، والثانية عندما غطى السماء قوس قزح هائل. وقد أعلن الله أثناء تلك العاصفة الطويلة والعنيفة، عبر قصف الرعد، «قوانين الحياة» الجديدة التي نادى بها مايكل فيما بعد في صلاة صباح عيد الفصح بمدينة بولسينا. وفي حديث الله إليه في المرة الثانية أخبره الله بأن رسالته ستصل إلى نطاق امتداد قوس قزح، وأنه سيعطي إشارة إلى عباده المخلصين أثناء قداس عيد الفصح.

وتصور اللوحة التاسعة أشهر معجزة أتى بها مايكل، التي شاهدها ما يزيد على مليار شخص عبر شاشات التلفزيون. وتعرض اللوحة القديس مايكل وهو يقدم قداس عيد الفصح للحشود المجتمعة حول شواطئ بحيرة بولسينا. هطل وابل من أمطار الربيع الغزيرة على الحشود الغفيرة، الذين كان معظمهم يرتدي المعطف الأزرق السائد بين أتباعه. لكن المطر المتساقط حول القديس مايكل لم تسقط منه قطرة على منبر الوعظ أو معدات الصوت المستخدَمة لتكبير الصوت. ولمع في وجه القديس الصغير ضوءٌ متوهج ثابت من الشمس وهو يعلن قوانين الله الجديدة على العالم. لكن هذا التحول من كونه زعيمًا دينيًّا بكل معنى الكلمة ...»

أوقف الجنرال أوتول المسجل وسار نحو اللوحتين العاشرة والحادية عشرة. فقد كان يعرف باقي القصة. فبعد القداس الذي أقامه في بولسينا حلت البلايا بمايكل. وانقلبت فجأةً حياته رأسًا على عقب. ففي أسبوعين ألغيت أغلب رخص قنواته التلفزيونية. وتناقلت الصحف أخبارًا عن قصص فساد وفجور بين صغار أتباعه الذين وصل عددهم إلى مئات الآلاف في العالم الغربي وحده. ونجا من محاولة اغتيال بعد أن أحبطها مساعدوه في

اللحظة الأخيرة. إضافة إلى ذلك نقلت وسائل الإعلام تقارير ليس لها أساس من الصحة عن إعلان مايكل نفسه المسيح الثاني.

فقال أوتول في نفسه: «ولهذا شعر زعماء العالم بالخوف منك. جميعهم فعلوا. فقد كانت قوانين الحياة التي أتيت بها تمثل تهديدًا للجميع. ولم يفهم أيٌّ منهم ماذا كنت تقصد من وراء التطور النهائي.» وقف أوتول أمام اللوحة العاشرة. فقد كانت تصور مشهدًا كان يعرفه عن ظهر قلب. بل في غمضة عين يعرفه تقريبًا كل شخص مثقف في العالم. فقد كانت مشاهد الثواني الأخيرة لما قبل وقوع الانفجار الإرهابي تُعرَض على التلفزيون كل سنة في يوم الثامن والعشرين من شهر يونيو، وهو اليوم الأول من عيد القديس بطرس والقديس بولس والذكرى السنوية لهلاك مايكل بالاتريسي، ومعه ما يقرب من مليون شخص في روما في صباح مشئوم في بداية صيف عام ٢١٣٨.

ومجددًا قال أوتول في نفسه: «لقد دعوتَهم للانضمام إليك في روما. لتُريَ العالم أن الجميع متحدون. وبالفعل لبُّوا دعوتك.» كانت اللوحة العاشرة تُصور مايكل مرتديًا معطفه الأزرق، ويقف عاليًا على درجات النصب التذكاري لفيتوريو إيمانويل بجانب ميدان فينيسيا. وكان يعظ الناس. ويحيط به من كل اتجاه حشدٌ لا ينتهي من أصحاب المعاطف الزرقاء، يفيض داخل الميادين الرومانية عبر شارع «فيا داي فوري إمبريالي» المكتظ والمؤدي إلى «الكولسيوم». ويا للوجوه! لقد كانت الوجوه متلهفة ومنفعلة، أغلبها من الشباب، وتنظر إلى أعلى آثار المدينة العتيقة وحولها محاولةً إلقاء نظرة خاطفة على الفتى الذي واتته الجرأة على القول إنه يعرف الطريق، طريق الله، ليخرجهم من اليأس والقنوط الذي نزل بسكان العالم.

وعند رؤية اللوحة الحادية عشرة جثا على ركبتيه مايكل ريان أوتول الأمريكي الكاثوليكي القادم من بوسطن، البالغ من العمر سبعة وخمسين عامًا، وأجهش بالبكاء مثل الآلاف من قبله. إن تلك اللوحة تصور نفس المشهد الموجود في اللوحة السابقة، لكن بعد مرور ما يزيد على الساعة من وقوع المشهد السابق؛ بعد ساعة على انفجار قنبلة نووية تزن خمسة وسبعين ألف طن، مخبأة في شاحنة ذات مذياع بالقرب من عمود تراجان، ونشرها لسحابتها التي تأخذ شكل فطر عيش الغراب البشع إلى سماء المدينة. لقد تبخَّر على الفور كل ما على الأرض على مسافة مائتَي متر من مركز الانفجار. فتلاشى مايكل وتلاشى ميدان فينيسيا وتلاشى النصب التذكاري الضخم لفيتوريو إيمانويل. لم يكن في مركز اللوحة إلا فجوة. ومن حولها، حيث لم تكتمل عملية التبخر تمامًا، كانت

هناك مشاهد ألم وذعر قادرة على القضاء على إحساس الرضا الذي يمكن أن يتملك أكثر الناس شعورًا بالأمن.

قال الجنرال أوتول وهو يذرف الدمع: «إلهي، أَعِنِّي على استيعاب الدرس المستفاد من حياة القديس مايكل. أَعِنِّي على إدراك الطريقة التي يمكنني بها أن أسهم، ولو بقدر ضئيل، في خُطتك العامة التي رسمتها لنا. أرشدني وأنا أعد نفسي كي أكون رسولك إلى سكان راما.»

الفصل الثاني عشر

سكان راما والرومان

«ما رأيك إذن؟» نهضت نيكول واستدارت ببطء أمام الكاميرا بجانب الشاشة. كانت نيكول ترتدي ثوبًا أبيض ضيقًا مصنوعًا من نوع جديد من القماش المرن. كانت حافة الثوب تحت ركبتيها بالضبط، وتميزت الأكمام الطويلة بشريط أسود يمر أسفل مرفقيها حيث يمتد من الكتف إلى المعصم. وكان الحزام العريض ذو اللون الأسود الحالك يتناسب مع لون الشريط ولون شعرها وحذائها ذي الكعب العالي. أما شعرها فقد وضعت مشطًا يمسك به خلف رأسها ثم يتركه ليسترسل حتى يصل إلى خصرها تقريبًا. وكانت لا ترتدي من الحلي إلا سوارًا به ثلاثة صفوف من الماس الصغير الحجم، تضعه حول معصمها الأيسر.

أجابت ابنتها جينيفيف عبر الشاشة: «تبدين رائعة يا أمي. لم أرك من قبلُ مرتدية ملابس سهرة ومسدلة شعرك. ماذا حل ببذلتك الرياضية؟» ثم ضحكت الفتاة ذات الأربعة عشر عامًا. وقالت: «ومتى ستبدأ الحفلة؟»

أجابت نيكول: «في التاسعة والنصف. إن الموعد متأخر كما جرت العادة حديثًا. وعلى الأرجح لن نتناول العشاء قبل مرور ساعة من بداية الحفلة. لذلك سأتناول بعض الطعام في غرفتي بالفندق قبل التوجه إلى الحفلة كي لا أتضور جوعًا.»

قالت الابنة: «والآن لا تنسي وعدك يا أمي. فلقد ذكرت جريدة «أوجوردوي» أن مطربي المفضل جوليان لوكليرك سيكون من بين من سيرفهون عن الضيوف. يجب أن تخبريه أن ابنتك تعشقه!»

تبسمت نيكول إلى ابنتها. وقالت: «سأخبره من أجلك يا حبيبتي. مع أن ذلك سيُفسَّر على الأرجح بطريقة خاطئة. فقد سمعت أن السيد لوكليرك يظن أن كل نساء العالم مفتونات به.» وتوقفت عن الحديث لحظة. ثم أردفت: «أين جدك؟ أعتقد أنك قلت إنه سينضم إليكِ بعد بضع دقائق.»

قال والد نيكول مع ظهور وجهه المجعد الودود على الشاشة بجانب حفيدته: «أنا هنا. كنت أنهي جزءًا من روايتي الجديدة عن بيتر أبيلارد. ولم أكن أتوقع أن تتصلي مبكرًا هكذا.» كان بيير دي جاردان يبلغ من العمر السادسة والستين. وكان روائيًّا تاريخيًّا ناجحًا لعدة سنوات، وقد أصبحت حياته منذ موت زوجته المبكر مليئة بالحظ الوافر والإنجازات. وعندما رأى ابنته في ملابس السهرة، صرخ قائلًا: «تبدين رائعة. هل اشتريت هذا الثوب من روما؟»

قالت نيكول، وهي تستدير مرة أخرى لتُري أباها الثوب كاملًا: «في الحقيقة يا أبتي اشتريت هذا الثوب من أجل حضور زفاف فرانسواز منذ ثلاث سنوات. لكن بالطبع لم يكن هناك فرصة لأرتديه. هل تعتقد أنه أبسط مما ينبغي؟»

أجاب بيير: «مطلقًا. بل أعتقد أنه مناسب تمامًا لمثل هذه الحفلة الفخمة. فإن كانت تلك الحفلة مثل الحفلات التي اعتدت حضورها، فستجدين أن كل امرأة هناك مرتدية أفخم ثيابها وجواهرها وأبهظهما ثمنًا. وستكونين بارزة في ثوبك «البسيط» ذي اللونين الأسود والأبيض. لا سيما وشعرك منسدل هكذا. إن مظهرك يبدو خلابًا.»

قالت نيكول: «أشكرك. ومع أنني على علم بتحيُّزك لي، فلا أزال أستمتع بسماع مجاملاتك.» ثم نظرت إلى أبيها وابنتها، الشخصين الوحيدين القريبين منها خلال السنوات السبعة الماضية. وقالت: «أنا فعلًا متوترة على نحو غريب. ولا أظن أنني سأكون بهذا التوتر في يوم لقائنا براما. كثيرًا ما أشعر بأنني متوترة في الحفلات الكبيرة مثل حفلة اليوم، وبالأخص الليلة يساورني هاجس غريب لا أقدر على وصفه. هل تذكر يا أبتي الإحساس الذي انتابني عندما كنت طفلة قبل يوم واحد من موت كلبنا؟»

تحولت ملامح أبيها إلى الجدية. وقال: «ربما من الأفضل أن تمكثي في الفندق. فهواجسك قلما أخطأت في الماضي. فأنا أذكر عندما أخبرتني بأن هناك خطبًا ما وقع بأمك قبل أن نتسلم تلك الرسالة بيومين ...»

قاطعته نيكول قائلة: «إن الهاجس ليس قويًّا بهذه الدرجة. وفوق ذلك، ما العذر الذي يمكن أن أتذرَّع به لعدم حضور الحفل؟ فالجميع ينتظرونني، وبالأخص الصحافة، وفقًا لما أخبرتني به فرانشيسكا ساباتيني. فهي لا تزال غاضبة مني لرفضي إجراء مقابلة شخصية معها.»

«إذَن أظن أن عليك الذهاب للحفل. لكن حاولي أن تحظي ببعض المرح. وعليك أن تتخلي عن الجدية ولو لهذه الليلة.»

أردفت جينيفيف: «ولا تنسي أن تنقلي تحياتي إلى جوليان لوكليرك.»

قالت نيكول: «سأفتقدكما عندما يحل منتصف الليل. فهذه هي المرة الأولى التي نبتعد فيها بعضنا عن بعض في عشية عيد الميلاد منذ عام ٢١٩٤.» صمتت نيكول برهة، تذكرت خلالها احتفالاتهم العائلية معًا. ثم قالت: «اعتنيا بأنفسكما. فأنتما تعلمان كم أحبكما.»

صاحت جينيفيف: «وأنا أيضًا أحبك يا أمي.» ولوَّح إليها بيير مودعًا.

أغلقت نيكول مكالمة الفيديو ونظرت في ساعتها. كانت الساعة الثامنة. أي إنه ما زال أمامها ساعة على لقاء سائقها في بهو الفندق. فذهبت إلى الكمبيوتر لتطلب شيئًا تأكله. وببضعة أوامر أدخلتها للكمبيوتر طلبت حساء المينيسترون وزجاجة مياه معدنية صغيرة. وقد أعلمها جهاز الكمبيوتر أن طلبها سيصل إليها فيما بين ست عشرة وتسع عشرة دقيقة.

أخذت نيكول تفكر وهي تتصفح مجلة «إيطاليا» وتنتظر وصول طعامها: «أنا بالفعل متوترة جدًّا الليلة.» كان الموضوع الرئيسي في المجلة يتناول مقابلة شخصية مع فرانشيسكا ساباتيني. ونشر الموضوع على عشر صفحات كاملة وعشرين صورة مختلفة لـ «السيدة الجميلة». وقد ناقش المحاور مشروعَي فرانشيسكا الوثائقيين ذائعَي الصيت (الأول عن الحب العصري والآخر عن المخدرات)، وشدد — في خلال طرحه لبعض الأسئلة المتعلقة بحلقاتها عن المخدرات — على نقطة تدخين فرانشيسكا للسجائر على نحو متكرر أثناء إجراء المقابلة.

اطلعت نيكول على المقالة في عجالة، ولاحظت أن هناك جوانب في شخصية فرانشيسكا لم تكن قد تنبهت لها من قبل. فتساءلت نيكول في نفسها: «لكن ما الدافع الذي يحركها؟ وماذا تريد؟» وقرب نهاية المقالة، سأل المحاور فرانشيسكا عن رأيها في السيدتين الأخريين في طاقم نيوتن. فأجابته فرانشيسكا: «أنا أشعر بأنني المرأة الوحيدة في المهمة.» فتمهَّلت نيكول لقراءة بقية الفقرة: «إن قائدة الطائرة الروسية إيرينا تورجينيف تعتقد أنها رجل وتتصرف مثل الرجال، أما الأميرة نيكول دي جاردان التي تنتمي إلى جذور فرنسية وأفريقية فهي تكبح أنوثتها عن عمد، وهذا أمر محزن لأنها يمكن أن تبدو امرأة فاتنة.»

لم تغضب نيكول من تعليق فرانشيسكا العفوي إلا بدرجة ضئيلة. بل شعرت بنوع من الاستمتاع. وشعرت بإحساس تنافسي خاطف يبزغ في أعماقها، لكنها وبَّخت نفسها بسبب رد فعلها السخيف. ففكرت نيكول وهي تبتسم: «سوف أسأل فرانشيسكا عن

هذه المقالة في الوقت المناسب. ومن يدري؟ ربما أسألها أيضًا عما إذا كان إغراء الرجال المتزوجين يجعل منها أنثى.»

خيَّم الصمت على نيكول طوال الأربعين دقيقة التي استغرقتها المسافة بين الفندق والحفل المقام في «فيلا هادريان»، الواقعة على أطراف الضواحي الرومانية بمكان ليس ببعيد عن المدينة السياحية تيفولي. كان بصحبة نيكول في العربة هيرو ياماناكا، أقل الرواد كلامًا. وقد سألته فرانشيسكا ساباتيني التي كانت تشعر بالإحباط في المقابلة التلفزيونية التي أجرتها معه منذ شهرين — بعد أن ظل يجيب على جميع أسئلتها لمدة عشر دقائق بإجابات مقتضبة مكونة من كلمتين أو ثلاث — عن مدى صحة الإشاعة التي تقول إنه إنسان آلي.

فقال ياماناكا: «ماذا تقولين؟»

أعادت فرانشيسكا السؤال بابتسامة خبيثة: «هل أنت إنسان آلي؟»

فأجاب الطيار الياباني، وقد بقيت ملامحه خالية تمامًا من أي انفعال في حين اقتربت الكاميرا من وجهه: «لا.»

أصبحت حركة المرور مزدحمة عندما غادرت العربة الطريق الرئيسي بين روما وتيفولي لتقطع مسافة الميل المتبقية إلى «فيلا هادريان». وأخذت العربة في التقدم ببطء، ليس فقط بسبب العربات الكثيرة التي تُقل الناس إلى الحفل، بل أيضًا بسبب مئات المتفرجين ومُصوري المشاهير المستقلين الذين اصطفوا في الطريق الضيق ذي الحارتين فقط لسير السيارات.

تنفَّست نيكول الصعداء عندما انعطفت السيارة إلى ممر دائري وتوقفت هناك. ورأت خارج النافذة الملونة لسيارتها حشدًا من المصورين والمراسلين، متأهبين للانقضاض على أي شخص يخرج من العربة. انفتح باب السيارة آليًّا وترجَّلت عن العربة ببطء، وجذبت معطفها الجلدي الأسود حول جسدها محاولةً ألا يعلق بكعب حذائها.

فترامى إلى مسامعها صوت يقول: «من هذه؟» فقال أحدهم: «فرانكو، تعالَ إلى هنا بسرعة، إنها رائدة الفضاء نيكول دي جاردان.» فعلا صوت تصفيق، ولمع وميض العديد من الكاميرات. وجاء رجل إيطالي حسن المظهر واصطحب نيكول من يدها. فتجمهر الناس حولها، ووُضع عدد هائل من الميكروفونات أمام وجهها، ووجدت نفسها أمام مائة سؤال وطلب يُطرح عليها في وقت واحد بأربع لغات مختلفة أو خمس:

«لماذا رفضتِ إجراء أي مقابلة شخصية معك؟»

«نرجو أن تفتحي معطفك لتكشفي لنا عن ثوبك.»

«هل يقدرك رواد الفضاء الآخرون بصفتك طبيبة؟»

«هلا توقفتِ لحظة! ابتسمي.»

«ما رأيك في فرانشيسكا ساباتيني؟»

لم تتفوَّه نيكول بكلمة؛ نظرًا لأن رجال الأمن حالوا بينها وبين الحشود، وأوصلوها إلى عربة كهربائية مغطاة. تحركت العربة المخصصة لأربعة ركاب ببطء إلى أعلى تل طويل، تاركةً الجماهير الغفيرة وراءها، وفي غضون ذلك كانت امرأة إيطالية لطيفة في منتصف العشرينات تقدم لنيكول وهيرو ياماناكا معلومات باللغة الإنجليزية عن المشاهد التي يرونها حولهما. وقد أخبرتهما أن هادريان، الذي حكم الإمبراطورية الرومانية من عام ١١٧ إلى ١٣٨ ميلاديًّا، بنى هذه الفيلا الضخمة من أجل متعته الخاصة. وتمثل التحفة المعمارية مزيجًا من جميع الطرز المعمارية التي رآها هادريان في رحلاته العديدة للأقاليم البعيدة، وصممها الإمبراطور نفسه على سهلٍ مساحته ثلاثمائة فدان يقع في سفح تلال تيبورتيني.

كان من الجلي أن ركوب العربة التي تمر بمجموعة المباني العتيقة جزء من مراسم الاحتفال. ولم تكن الأطلال المضاءة نفسها توحي حقًّا بالمجد الذي شهدته يومًا ما، فقد كانت أغلب الأسقف غير موجودة، وأزيلت جميع التماثيل المزخرفة، وكانت الجدران الحجرية الصلبة خالية من أي زخارف. لكن ما إن تخطت العربة أطلال كانوبس، وهو أثر مبني حول بركة مستطيلة الشكل على الطراز المصري (وهو المبنى الخامس عشر أو السادس عشر في المجمع، لم تستطع نيكول إحصاءها بالضبط)، حتى نما لديها شعور عام بمدى ضخامة الفيلا.

فقالت نيكول في نفسها، وهي تتذكر التاريخ: «لقد مات الرجل منذ ما يزيد على ألفَي عام. وهو من أذكى البشر الذين عرفهم التاريخ. وكان جنديًّا وزعيمًا وعالمًا لغويًّا.» ابتسمت نيكول وهي تتذكر قصة أنطونيو: «لقد أمضى أغلب حياته وحيدًا، إلا من علاقة قصيرة تملكت منه وانتهت بمأساة.»

توقفت العربة عند نهاية رصيف قصير. وأنهت المرشدة حديثها. وقالت: «وتكريمًا لفترة السلام الروماني، وهي فترة سلام عالمي طويلة منذ ألفَي عام، قررت الحكومة الإيطالية، بالاستعانة بالتبرعات السخية التي قدمتها الشركات الواردة أسماؤها أدنى النصب التذكاري الواقع على اليمين، تشييد نسخة مطابقة من مسرح هادريان البحري.

ويمكنكم أن تتذكروا معي أننا شاهدنا أطلال المسرح الأصلي في بداية جولتنا. وكان الغرض من إعادة بناء المسرح هو أن يتصور المرء الإحساس الذي كان سيشعر به لو أنه زار جزءًا من هذه الفيلا في حياة الإمبراطور. وتم الانتهاء من تشييد المبني في ٢١٩٣، ومن يومها وهو يُستخدم في المناسبات الرسمية.»

وكان في انتظار الضيوف شباب إيطاليون يرتدون زيًّا رسميًّا، وجميعهم طِوال القامة وحسنو المظهر، ويصاحبونهم طوال الرصيف، إلى «بهو الفيلسوف»، وأخيرًا إلى المسرح البحري. كان على الضيوف المرور بفحص أمني قصير على البوابة الرئيسية، وبعدها يمكنهم الانطلاق كما يحلو لهم.

أسر المبنى لب نيكول. إذ كان على شكل دائرةٍ قُطرها أربعون مترًا. وكان هناك دائرة من الماء تفصل بين جزيرة داخلية — يقع عليها منزل ضخم يتكون من خمس غرف وفِناء كبير — ورواق عريض بأعمدة ذات خطوط غائرة. لم يكن يعلو المياه أو الجزء الداخلي للرواق سقف، مما يسمح للسماء بإضفاء هالة رائعة من الحرية على المسرح بأكمله. اختلط الضيوف حول المبنى، وأخذوا في تجاذب أطراف الحديث وتناول المشروبات؛ فقد كان النُّدُل الآليون يطوفون حاملين صواني كبيرة عليها شمبانيا ونبيذ وغيرها من الكحوليات. وفي الجانب الآخر من الجسرَين الصغيرين اللذين يربطان الجزيرة والمنزل والفِناء بالرواق وباقي المبنى، رأت نيكول عددًا من الناس يرتدون جميعًا زيًّا أبيض ويعدون مأدبة العشاء.

وعلى بعد ثلاثين قدمًا، كانت امرأة شقراء ضخمة وزوجها القصير خفيف الظل الذي كان أصلع الرأس ويرتدي نظارة عتيقة الطراز، يقتربان مسرعين من نيكول. استعدَّت نيكول للهجوم الوشيك بتناول رشفة من الشمبانيا وشراب كوكتيل مُنعِش قدَّمه إليها منذ دقائق إنسان آلي ألحَّ عليها بصورة غريبة لتتناوله.

قال الرجل، مُلوحًا إليها ومقتربًا منها بسرعة كبيرة: «سيدة نيكول دي جاردان. نريد التحدث إليكِ. فزوجتي من أشد المعجبين بكِ.» وقف الرجل بجانب نيكول، وأشار إلى زوجته. وقال صائحًا: «أسرعي يا سيسيليا، لقد وصلت إليها.»

تنفَّست نيكول الصعداء وارتسمت على شفتَيها ابتسامةٌ عريضة مفتعَلة. وقالت في نفسها: «يبدو أن هذه الأمسية لن تكون أفضل من سابقتها.»

فكرت نيكول مُحدِّثةً نفسها: «أخيرًا، سأحظى ببضع دقائق من الصفاء والهدوء.» كانت تجلس بمفردها على طاولة صغيرة في ركن الغرفة، موجهةً ظهرها إلى الباب عن

عمد. وكانت الغرفة تقع خلف المنزل المشيد على الجزيرة وسط المسرح البحري. أنهت نيكول طعامها ثم احتست بعضًا من النبيذ.

تنهدت نيكول محاولة تذكر ولو نصف الأشخاص الذين رأتهم في الساعة الماضية، لكن دون جدوى. فقد كانت كالصورة القيمة تنتقل من شخص لآخر ويثني عليها الجميع. فمنهم من عانَقها ومنهم من قبَّلها ومنهم من احتضنها ومنهم من قرصها ومنهم من غازلها (رجال ونساء)، بل عرض عليها رجل سويدي ثري يعمل في مجال تصميم وبناء السفن إقامة علاقة جنسية ودعاها إلى «قلعته» التي تقع خارج المدينة في جوتبرج. وكانت نيكول نادرًا ما تتحدث ولو بكلمة لأيٍّ من أولئك جميعًا. وشعرت بأن وجهها يؤلمها من تصنع الابتسامة اللبقة التي ترسمها على وجهها، وقد أسكرها قليلًا النبيذ ومزيج الشمبانيا.

سمعت نيكول صوتًا تألفه قادمًا من خلفها، يقول: «حسنًا، أعتقد أن السيدة ذات الرداء الأبيض هي زميلتي رائدة الفضاء، أميرة الثلج بذاتها، السيدة نيكول دي جاردان.» فاستدارت نيكول ورأت ريتشارد ويكفيلد يترنح في اتجاهها. فاصطدم بطاولة ثم ارتد عنها، فمد يده إلى مقعد ليستعيد توازنه، وأوشك على الوقوع في حضنها.

فابتسم محاولًا الجلوس إلى جانبها، قائلًا: «أعتذر. أظن أنني أفرطت في الشرب.» فأخذ رشفة كبيرة من الكأس التي يحملها في يده اليمنى، ومن العجيب أنه لم تنسكب منها قطرة. ثم أردف وهو يغمز بعينه: «والآن، اسمحي لي أن أغفو قليلًا قبل أن يبدأ عرض الدولفين.»

تعالت ضحكة نيكول عندما رأت رأس ريتشارد تصطدم بالطاولة الخشبية بقوة مدوية، ويتظاهر بفقد الوعي. وبعد لحظة، مالت عليه مازحة وفتحت أحد جفنيه بالقوة. وقالت: «هل يمكنك ألا تفقد وعيك حتى تخبرني قليلًا عن عرض الدولفين؟»

اعتدل ريتشارد في جلسته بشق الأنفس، وبدأ يحرك عينيه. ثم قال: «هل تقصدين أنك لا تعرفينه؟ وأنتِ التي طالما عرفتِ جميع جداول الأعمال والإجراءات؟ إن هذا مستحيل.»

انتهت نيكول من احتساء كأسها. وردت: «أنا أعني ما أقول، يا ريتشارد. أخبرني عن موضوع عرض الدولفين هذا.»

فتح ريتشارد إحدى النوافذ الصغيرة وأخرج ذراعه منها مشيرًا إلى حوض المياه الذي يحيط بالمنزل. وقال: «إن الدكتور العظيم لويجي باردوليني قد حضر هنا ومعه مجموعة الدولفين الذكية الخاصة به. سوف تقدمه فرانشيسكا في خلال ما يقرب من ١٥

دقيقة.» ونظر إلى نيكول بتمعن. ثم صاح: «إن دكتور باردوليني سوف يثبت اليوم أن الدولفين يمكنه اجتياز امتحانات القبول بجامعتنا.»

تراجعت نيكول ونظرت بحذر إلى زميلها. وقالت في نفسها: «إنه سكران حقًّا. ربما يشعر بأنه لا ينتمي لهذا المكان مثلي.»

كان ريتشارد عندئذٍ يُحدق خارج النافذة باهتمام. قالت نيكول بعد صمت طويل: «إن هذه الحفلة تشبه حديقة الحيوان، أليس كذلك؟ فأين وجدوا ...»

قاطعها ريتشارد فجأة ضاربًا بيده على الطاولة كعلامة انتصار، قائلًا: «وجدتها. لهذا بدا لي هذا المكان مألوفًا منذ أن وطئته قدمي.» فألقى نظرة خاطفة على نيكول التي كانت ترمقه كأنه فقد عقله. «إنها نموذج مصغَّر للمركبة الفضائية راما، أليس كذلك؟» فقفز عاليًا، غير قادر على كتمان سعادته الناتجة عن اكتشافه. «إن المياه التي تحيط بهذا المنزل هي البحر الأسطواني، ويمثل الرواق السهل المركزي، ونحن يا سيدتي الجميلة نجلس في مدينة نيويورك.»

بدأت نيكول تدرك ما يرمي إليه ريتشارد، لكنها لم تستطِع مجاراة أفكاره السريعة. فأخذ يفكر بصوت عالٍ: «وما الذي يثبته التشابه في التصميم؟ ماذا يعني أن المهندسين من البشر صمَّموا من أَلفَي عام مسرحًا يحمل بعض المبادئ التوجيهية التي استُخدمت في تصميم المركبة راما؟ تشابه الطبيعة؟ تشابه الثقافة؟ بالطبع لا.»

توقف ريتشارد عن الحديث نظرًا لأنه أدرك أن نيكول تحدق فيه بثبات. فقال مؤكدًا: «علم الرياضيات.» لكن بدا على وجهها التساؤل مما جعله يدرك أنها لم تستوعب الفكرة تمامًا بعد. فقال مرةً أخرى، لكن بطريقة عاقلة: «علم الرياضيات. إن هذا هو المفتاح. إنني شِبه متأكد من أن سكان راما لا يبدون مثلنا، ومن الواضح أنهم ينتمون لعالم مختلف تمامًا عن عالمنا. لكن لا بد أنهم أدركوا علم الرياضيات ذاته مثل الرومان.»

تهلل وجه ريتشارد. وصاح مجددًا: «ها»؛ الأمر الذي جعل نيكول تقفز من مكانها. فلقد كان فخورًا بنفسه. قال: «إن الليلة تدور حول سكان راما والرومانيين. هذا ما تدور حوله الليلة. وبينهما في مستوًى ما من التطور يقع الإنسان العصري.»

هزَّت نيكول رأسها في حين كان ريتشارد سعيدًا بذكائه. فقال وهو يمد يديه ليساعدها على النهوض من مقعدها: «ألم تُدركي الأمر سيدتي الجميلة؟ إذَن ربما علينا الذهاب لمشاهدة عرض الدولفين وسوف أحدثك عن سكان راما هناك والرومان هنا، وعن أي شيء وكل شيء؛ عن الملفوف والملوك، وعن أي شيء وأختام الشمع، وعما إذا كان للخنازير أجنحة.»

الفصل الثالث عشر

عام سعيد

بعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام وأصبحت جميع الأطباق فارغة، ظهرت فرانشيسكا ساباتيني في منتصف الفناء ومعها ميكروفون، وأمضت عشر دقائق في تقديم الشكر لجميع رعاة الحفل. ثم قدمت الدكتور لويجي باردوليني، موضحةً أن الأساليب التي طوَّرها للتواصل مع الدولفين قد تكون مفيدة للغاية عندما يحاول البشر التواصل مع أي كائن فضائي.

اختفى ريتشارد قبل أن تبدأ فرانشيسكا في التحدث مباشرة، ومن الواضح أنه ذهب ليقضي حاجته ويتناول شرابًا آخر. لمحته نيكول بعد مرور خمس دقائق وبعد أن أنهت فرانشيسكا كلمتها الافتتاحية. وكان محوطًا بممثلتين إيطاليتين جذابتين، كانتا تضحكان على الفكاهات التي يلقيها بابتهاج شديد. فلوَّح بيديه إلى نيكول وغمز لها بعينيه مشيرًا إلى السيدتين وكأنما أفعاله لا تحتاج شرحًا.

ففكرت نيكول، وهي تبتسم: «عظيم يا ريتشارد. فعلى الأقل نجح أحدنا — غير الأكْفاء اجتماعيًّا — في أن يحظى بوقت سعيد.» وعندئذٍ أخذت تشاهد فرانشيسكا تسير برشاقةٍ عبر الجسر، وبدأت في تحريك الجمهور إلى الخلف بعيدًا عن المياه حتى توفر مساحة كبيرة للدكتور باردوليني ودلافينه. كانت فرانشيسكا ترتدي فستانًا أسود ضيقًا، وأحد كتفيه عارٍ، وفي مقدمته يلمع ترتر ذهبي اللون. وتربط حول خصرها وشاحًا ذهبيَّ اللون. وشعرها الأشقر مجدول ومثبَّت بدبابيس في رأسها.

ففكرت نيكول، وهي معجبة حقًّا بتصرف فرانشيسكا المتحرر بين الحشود: «إنكِ حقًّا تنتمين إلى هذا المكان يا فرانشيسكا.» بدأ الدكتور باردوليني الجزء الأول من عرض أسماك الدولفين، وحوَّلت نيكول انتباهها إلى حوض المياه الدائري. كان لويجي باردوليني أحد العلماء المثيرين للجدل الذين يتميز عملهم بالذكاء لكنه لم يكن عالمًا فريدًا بالدرجة

التي يريد أن يوهم الناس بها. بالفعل نجح باردوليني في تطوير طريقة فريدة للتواصل مع أسماك الدولفين، ونجح في عزل أصوات ما بين ثلاثين إلى أربعين فعل حركة لديها وحددها في ملف أصواتها. لكن ادعاءه بأن اثنين من أسماك الدولفين لديه يمكنهما اجتياز اختبار القبول بالجامعة لم يكن صحيحًا. ولسوء الحظ، كان المجتمع العلمي الدولي في القرن الثاني والعشرين يسير على نهج يقول إنه في حالة عدم إثبات العالم لأكثر نظرياته خروجًا عن المألوف أو أكثرها تقدمًا، أو في حالة تعرضها للاستهزاء، فغالبًا ما يحط من قدر بقية اكتشافاته بصرف النظر عن مدى صحتها. وقد تسبب ذلك في تكوُّن اتجاه محافظ مستوطن في العلوم لم يكن صحيًّا بالمرة.

أما باردوليني فقد كان ماهرًا في عرض أعماله على عكس أغلب العلماء. ففي الجزء الأخير من عرضه، عقد اختبار ذكاء بين سمكتَي الدولفين المشهورتين لديه، إيميليو وإيميليا، واثنين من المرشدين بالفيلا اختِيرا عشوائيًّا أثناء الأمسية، أحدهما رجل والأخرى امرأة، في منافسة حقيقية. كان نسق الاختبار التنافسي سهلًا جدًّا. فعلى شاشتين من الشاشات الأربعة الإلكترونية الضخمة (كانت شاشتان منها في المياه والأخريان في الفناء)، ظهرت مصفوفة ثلاثة في ثلاثة مع وجود فراغ مكان العنصر الواقع في الزاوية اليمنى السفلى. أما العناصر الثمانية الأخرى، فكانت مليئة بصور وأشكال مختلفة. وكان على المشتركين من البشر وأسماك الدولفين تمييز الأشكال المتغيرة التي تتحرك من اليسار إلى اليمين في المصفوفة ومن أعلى إلى أسفل، ثم يختارون العنصر الصحيح الذي يجب وضعه في الزاوية اليمنى السفلى الفارغة من مجموعة تتكون من ثمانية اختيارات معروضة على الشاشة الأخرى. وكان أمام المتنافسين دقيقة واحدة فقط للاختيار في كل مرة. وأمام سمكتَي الدولفين في المياه، كما أمام البشر في الفناء، لوحة تحكم من ثمانية أزرار يضغطان على أحدها للاختيار (كانت سمكتا الدولفين تستخدم أنفها للضغط على الأزرار).

كانت المجموعة الأولى من الأسئلة سهلة على كلٍّ من البشر وسمكتَي الدولفين على حدٍّ سواء. ففي المصفوفة الأولى توجد كرة بيضاء واحدة في الزاوية اليسرى العليا، وكرتان بيضاوان في العمود الثاني من الصف الأول، وثلاث كرات بيضاء في عنصر المصفوفة الذي يطابق الصف الأول والعمود الثالث. ونظرًا لأن العنصر الأول من الصف الثاني أيضًا كرة واحدة، نصفها أبيض والآخر أسود، ونظرًا لأن العنصر الأول من الصف الثالث كرة واحدة أخرى، سوداء تمامًا؛ فمن السهل قراءة المصفوفة كاملة بسرعة وتحديد أن عنصر الزاوية اليمنى السفلى الفارغ هو ثلاث كرات سوداء.

أما الأسئلة اللاحقة فلم تكن بسهولة سابقاتها. فكان المزيد من التعقيدات يضاف إلى الأسئلة مع الانتقال من سؤال لآخر. ارتكب البشريَّان خطأهما الأول في المصفوفة الثامنة، أما سمكتا الدولفين فارتكبتا أول خطأ لهما في المصفوفة التاسعة. وقد قدم الدكتور باردوليني ست عشرة مصفوفة ككلٍّ، وكانت أُخراهم أشدهم تعقيدًا حتى إنه كان على المتنافسين التعرف على عشرة أشكال متغيرة منفصلة على الأقل لتحديد الشكل الذي يجب أن يوضع مكان العنصر الأخير. أما النتيجة النهائية فكانت التعادل، حيث حقق البشريَّان وسمكتا الدولفين ١٢ نقطة. انحنى كلا الفريقين واستقبل تصفيق الجمهور.

وجدت نيكول التدريب مذهلًا. ولم تكن متأكدة من إصرار الدكتور باردوليني على أن المنافسة كانت عادلة ولم يتدربا عليها، بيد أنها لم تُلقِ لهذا الأمر بالًا. إن الأمر الذي وجدته شيقًا حقًّا هو طبيعة المنافسة في حد ذاتها، إنها فكرة أن الذكاء يمكن أن يُحدَّد عن طريق القدرة على تحديد الأشكال والاتجاهات. فأخذت تفكر: «هل يمكن قياس القدرة الاستنتاجية؟ وهل يمكن فعل ذلك مع الأطفال؟ أو حتى مع البالغين؟»

شاركت نيكول مع المتنافسين من البشر وأسماك الدولفين في حل الاختبار، ونجحت بالفعل في الإجابة عن الثلاثة عشر سؤالًا الأُوَل، لكنها أخطأت في الرابع عشر نتيجةً لافتراضها افتراضًا خاطئًا، ونجحت في الإجابة عن السؤال الخامس عشر بشق الأنفس قبل أن تعلن الصافرة انتهاء الوقت المحدد للاختبار. ولم يتسنَّ لها الوقت للإجابة عن السؤال السادس عشر. وأخذت تتساءل في نفسها، في حين أخذت فرانشيسكا الميكروفون لتقديم نجم جينيفيف المفضل، جوليان لوكليرك «وماذا عنكم يا سكان راما؟ هل كنتم ستجيبون عن جميع الأسئلة الستة عشرة بشكل صحيح في عُشر الوقت المحدد؟ أم واحد على مائة من الوقت المحدد؟» بلعت نيكول ريقها عندما أدركت المدى الشاسع للاحتمالات، وهي تقول في نفسها: «أو ربما واحد على مليون.»

«قبل أن ألقاك، لم أكن عائشًا ... قبل أن أراك لم أحب قط ...» سبحت الألحان الرقيقة للأغنية القديمة في ذاكرة نيكول، وذكرتها بمشهدٍ حدث منذ خمسة عشر عامًا، وهي في رقصة أخرى مع شخص آخر عندما كانت لا تزال تؤمن بأن الحب يمكنه التغلب على جميع الصعاب. أساء لوكليرك فهم إشارات جسدها، وجذبها بالقرب منه. فقررت نيكول ألا تقاومه. فقد كانت منهَكة، وفي حقيقة الأمر شعرت نيكول بإحساس جميل لأنها الآن بين يدَي رجل للمرة الأولى منذ سنوات طوال.

وبالفعل أوفت نيكول بوعدها لابنتها جينيفيف. فعندما أنهى المطرب الفرنسي لوكليرك مجموعة أغانيه القصيرة، دنت منه نيكول وأبلغته رسالة ابنتها. وكما توقعت، فسَّر لوكليرك تقربها منه بشيء آخر تمامًا. أخذ الاثنان يتحدثان في حين أعلنت فرانشيسكا عن توقف الفقرات الترفيهية الرسمية حتى منتصف الليل، وأنه يمكن للضيوف تناول المشروبات أو الطعام أو الرقص على نغمات الموسيقى حتى ذلك الحين. مد لوكليرك يده إلى نيكول، وسارا معًا إلى الرواق، حيث ظلا يرقصان.

كان جوليان لوكليرك رجلًا وسيمًا، في أوائل الثلاثينيات من عمره، لكنه لم يكن من النوع الذي تُفضِّله نيكول. بادئ ذي بدء، بدا لها لوكليرك مغرورًا جدًّا. فكان يتحدث عن نفسه طوال الوقت ولا ينتبه إذا ما تغير موضوع الحديث. ومع كونه مطربًا موهوبًا، لم يكن يتمتع بأي صفات مميزة. أخذت نيكول تفكر وهي ترى رقصهما المستمر يسترعي انتباه الحضور: «لكنه راقص جيد، وهذا أفضل من أن أقف لا أفعل شيئًا.»

وخلال فترة توقف الموسيقى، أتت فرانشيسكا للتحدث معهما. وقالت لنيكول وقد بدت ابتسامتها العريضة صادقة: «حسنًا صنعتِ يا نيكول. يسعدني أن أراكِ تستمتعين بوقتك.» ومدَّت صينية صغيرة بها نصف دستة من كرات الشوكولاتة عليها القليل من مادة بيضاء، من المحتمل أن تكون حلوى سكر. وقالت: «إنها رائعة. لقد أعددتها خاصة من أجل طاقم نيوتن.»

اختارت نيكول واحدة من كرات الشوكولاتة ووضعتها في فمها. وكانت فعلًا لذيذة. وأكملت فرانشيسكا حديثها بعد ثوانٍ معدودة: «هل من الممكن أن تُسدي لي خدمة؟ نظرًا لأني لم أستطِع قط أن أحدد موعد لقاء خاص معكِ، وتشير معدلات البريد أن الملايين من الجماهير يتطلعون لمعرفة المزيد عنك، هل تعتقدين أنه يمكنك الحضور إلى الاستوديو الموجود هنا ومنحي عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة من وقتك قبل منتصف الليل؟»

حدَّقت نيكول بثبات في فرانشيسكا. كان صوتٌ داخلها يرسل لها رسالة تحذير، لكن عقلها كان يشوش على الرسالة.

قال جوليان لوكليرك في حين كانت السيدتان تنظران إحداهما إلى الأخرى: «أنا أوافق. فالصحافة دائمًا ما تتحدث عن «الرائدة الفضائية الغامضة» أو تشير إليها بعبارة «أميرة الثلج». أريهم ما أريتِني الليلة، أنكِ امرأة طبيعية وسليمة مثل الآخرين.»

فقررت نيكول أخيرًا، كابحةً صوتها الداخلي: «ولمَ لا؟ على الأقل لن يكون عليَّ أن أقحم أبي وجينيفيف في الأمر إذا ما أجريت المقابلة هنا.»

كان الجميع قد بدءوا في السير إلى الاستوديو المؤقت في الجانب الآخر من الرواق عندما رأت نيكول شيجيرو تاكاجيشي عبر الغرفة. كان شيجيرو يستند إلى عمود ويتحدث إلى ثلاثة رجال أعمال يابانيين يرتدون ملابس رسمية. فقالت نيكول لرفقائها: «انتظروني لحظة، سأعود على الفور.»

حيَّته نيكول باليابانية قائلة: «عام سعيد يا سيد تاكاجيشي.» فاستدار العالم الياباني وقد تفاجأ في بادئ الأمر، ثم ابتسم عندما رآها تقترب. وبعد أن قدَّم نيكول إلى رفقته، وانحنوا جميعًا تحيةً لها، بدأ تاكاجيشي الحديث معها بأدب.

سألها: «كيف حالك؟»

أجابته: «بخير، شكرًا لك.» مالت نيكول نحو زميلها الياباني، وهمست في أذنه. «ليس لديَّ من الوقت إلا دقيقة. وأردت أن أخبرك أنني فحصت جميع سِجلاتك الطبية بعناية، وأتفق تمامًا مع طبيبك الخاص. فلا داعي لإخبار اللجنة الطبية بمشكلات قلبك.»

انفرجت أسارير الدكتور تاكاجيشي وبدا كما لو أن أحدًا أخبره للتو بأن زوجته وضعت ولدًا بصحة جيدة. فهَمَّ بإخبار نيكول بأمر شخصي لكنه تذكر أنه وسط رفقة من أبناء وطنه. فقال لنيكول، التي كانت تتراجع للوراء: «شكرًا جزيلًا»، وكانت عيناه الودودتان تعكسان عمق امتنانه.

شعرت نيكول بإحساس رائع وهي تنطلق إلى داخل الاستوديو وبجانبها فرانشيسكا ولوكلير. ووقفت طواعية للمصورين في حين تأكدت السيدة فرانشيسكا من أن المعدات التلفزيونية جاهزة لإجراء المقابلة الشخصية. رشفت نيكول بعضًا من الشمبانيا ومشروب الكاسيس الكحولي، مع إجراء حديث مقتضب ومتقطع مع جوليان. وأخيرًا، جلست بجانب فرانشيسكا. وأخذت نيكول تفكر بشأن الحوار الذي حدث بينها وبين تاكاجيشي: «ما أروع مساعدة مثل ذلك الرجل العبقري.»

كان السؤال الأول الذي وجهته فرانشيسكا بريئًا للغاية. فقد سألت نيكول عما إذا كانت متحمسة للمهمة القادمة. فأجابت نيكول: «بالطبع.» ثم أعطت ملخصًا عن التدريبات البدنية التي خاضها طاقم رواد الفضاء وهم في انتظار فرصة لقاء مركبة راما الفضائية الثانية. جرت المقابلة الشخصية بالكامل باللغة الإنجليزية. وتدفقت الأسئلة بطريقة منظمة. وطلبت من نيكول أن تصف دورها في المهمة، وماذا تتوقع أن تكتشف («لا أعلم في الحقيقة، لكن أيًّا كان ما سنجده فسيكون شيقًا للغاية»)، وما الذي جعلها تلتحق بأكاديمية الفضاء في المقام الأول. وبعد مرور خمس دقائق، كانت نيكول تشعر بالراحة والطمأنينة، وبدا لها أنه أصبح بينها وبين فرانشيسكا تناغم.

ثم وجَّهت فرانشيسكا لنيكول ثلاثة أسئلة شخصية، أولها عن أبيها، والثاني عن أمها وقبيلة سينوفو بساحل العاج، أما السؤال الثالث فكان عن حياتها مع جينيفيف. ولم يكن أيٌّ من الأسئلة الثلاثة صعبًا. ومن ثَم لم تكن نيكول مستعدة للسؤال الأخير.

قالت فرانشيسكا بنفس النبرة والطريقة التي طرحت بها الأسئلة السابقة: «عند النظر لصور ابنتك، يتضح أن لون بشرتها أفتح من بشرتك. إن ذلك يشير إلى أن والدها كان على الأرجح أبيض البشرة. فمن هو والد ابنتك؟»

شعرت نيكول بضربات قلبها تتسارع وهي تستمع إلى السؤال. وبدا أن الزمن قد توقف عند هذه اللحظة. واجتاحها فيض من المشاعر الجياشة، وشعرت بالخوف من أن تبكي. فوثبت إلى مخيلتها صورة بارزة ونابضة بالحياة لجسمَين متشابكين تعكسهما مرآة كبيرة، وجعلتها تلهث. فنظرت إلى الأرض عند قدميها لحظة، محاولةً إعادة توازنها.

فقالت نيكول لنفسها وهي تكافح من أجل أن تخفف من حدة غضبها وألمها، وتتذكر الحب الذي اجتاح قلبها كالموجة العنيفة: «يا لكِ من امرأة حمقاء. كان يجب أن يكون تصرفك أفضل من ذلك.» ومرة أخرى، أوشكت دموعها أن تسيل، لكنها غالبتها. ونظرت إلى الأضواء وإلى فرانشيسكا. وبدا لنيكول كما لو أن الترتر الذهبي الموجود في مقدمة ثوب الصحفية الإيطالية يمثل شكلًا ما. فقد تمثل لها الترتر كرأس هرة كبيرة، وكانت عيناها تلمعان، وفمها ذو الأسنان الحادَّة يوشك أن ينفتح.

وأخيرًا، وبعد فترة صمت بدت أنها ستستمر أبد الدهر، شعرت نيكول بأنها استعادت السيطرة على مشاعرها. فنظرت إلى فرانشيسكا بغضب، وقالت بهدوء مستخدمةً اللغة الإيطالية: «لا أريد التحدث في هذا الموضوع. لقد انتهينا من هذه المقابلة الشخصية.» نهضت نيكول وجلست مرة أخرى عندما وجدت نفسها ترتجف. كانت الكاميرات لا تزال دائرة. وأخذت تتنفس بعمق لعدة ثوانٍ. وفي النهاية، قامت نيكول وسارت إلى خارج الاستوديو المؤقت.

كانت نيكول تريد أن تلوذ بالفرار، وأن تهرب من كل شيء، وأن تذهب إلى مكان منعزل حيث يمكنها أن تُترك وحيدة مع مشاعرها الخاصة. لكن هذا كان ضربًا من ضروب المستحيل. فقد جذبها جوليان من ذراعها وهي تخرج من المقابلة. وقال مشيرًا بأصابع الاتهام إلى فرانشيسكا: «يا لها من امرأة سافلة!» كان الناس يحيطون بنيكول

من كل جانب. وجميعهم يتحدثون في الوقت نفسه. وكانت تواجه مشكلة في تركيز سمعها وبصرها وسط كل هذا التشويش.

ومن بعيد سمعت نيكول موسيقى لأغنية ميَّزت ألحانها قليلًا، لكن مضى أكثر من نصف الأغنية قبل أن تدرك أنها أغنية «نشيد الوداع» (أولد لانج ساين). وضع جوليان ذراعه حول ظهرها وأخذ يغني بقوة. وكان أيضًا يقود مجموعة من حوالي عشرين شخصًا متجمعين حولهما في غناء الكلمات الأخيرة من الأغنية. وشاركت نيكول في غناء المقطوعة الأخيرة بصورة تلقائية محاولةً الحفاظ على توازنها. وفجأةً وجدت شفتين رطبتين تضغطان على شفتيها بقوة، ووجدت لسانًا مفعمًا بالحيوية يحاول فتح فمها واختراقه إلى الداخل. لقد كان جوليان يقبلها بانفعال شديد، وكان المصورون يلتقطون الصور من جميع الجوانب، وكان المكان يعج بالضوضاء. بدأ رأس نيكول في الدوران، وشعرت كما لو أنها ستفقد وعيها. فأخذت تقاوم بقوة، حتى نجحت في تحرير نفسها من قبضة جوليان.

مالت نيكول إلى الخلف فاصطدمت بريجي ويلسون وكان يستعر غضبًا. فدفعها بعيدًا نظرًا لتعجله للإمساك بشخصين يتبادلان قبلة عنيفة احتفالًا بالعام الجديد تحت الأضواء الوامضة. راقبته نيكول بعدم اكتراث، كما لو أنها تشاهد فيلمًا سينمائيًّا، بل كأنها في حلم من أحلامها. جذب ريجي الشخصين وفرَّقهما، ورفع ذراعه اليمنى كما لو كان سيضرب الرجل.

أمسكت فرانشيسكا ساباتيني به لتمنعه في حين تراجع ديفيد براون المرتبك عن حضنها.

صاح ريجي، وهو لا يزال يهدد العالم الأمريكي: «ابعد يدك عنها أيها السافل. ولا تحسب أنني غافل عما تفعل.» لم تستطِع نيكول أن تصدق ما ترى. فلم يكن ما يحدث منطقيًّا. وخلال ثوانٍ معدودة كانت الغرفة مليئة برجال الأمن.

كانت نيكول من ضمن العديد من الناس الذين أبعدوا عن المشاجرة على الفور في حين كان رجال الأمن يعيدون النظام للمكان. وفي طريقها إلى خارج منطقة الاستوديو صادفت إلين براون جالسةً بمفردها في الرواق ومستندة إلى عمود. لقد قابلت نيكول إلين واستمتعت بصحبتها عندما ذهبت إلى دالاس للتحدث إلى طبيب عائلة ديفيد براون عن الحساسية التي يعانيها. في ذلك الوقت كانت إلين ثملة تمامًا وفي حالة لا تسمح لها بالحديث مع أي شخص. فسمعتها نيكول تتذمر: «أيها الحثالة، كان يجب عليَّ ألا أريك النتائج قبل أن أنشرها بنفسي. ووقتها كان الأمر سيختلف.»

ما إن تدبَّرت نيكول أمر وسيلة المواصلات التي ستُقلها إلى روما، حتى غادرت الحفل. ومن الغريب أن فرانشيسكا حاولت مصاحبتها إلى السيارة كأن شيئًا لم يكن. لكن نيكول رفضت عرضها بجفاء وسارت بمفردها.

بدأت قطرات الثلج تتساقط وهي في طريق العودة إلى الفندق. وكانت نيكول تسبح بخيالها في حبات الثلج الرقيقة المتساقطة، وتمكنت تدريجيًّا من تصفية ذهنها بما يكفي لتقييم أحداث الأمسية. ولم تكن متأكدة إلا من أمر واحد. هذا الشيء هو أن كرة الشوكولاتة التي تناولتها كانت تحتوي على شيء غريب وشديد القوة. فلم يحدث من قبلُ أن أوشكت نيكول على فقد السيطرة على مشاعرها بتلك الدرجة. وفكرت نيكول: «ربما تكون قد أعطت ويلسون كرة من تلك الشوكولاتة هو الآخر. وهذا قد يفسر إلى حدٍّ ما شدة انفعاله.» ولكنها عادت تسأل نفسها. «لكن لماذا فعلت ذلك؟ وما الذي تحاول فعله؟»

وعند عودتها إلى الفندق، استعدَّت نيكول سريعًا للخلود إلى النوم. لكن ما إن أوشكت على إطفاء الأنوار، حتى ظنت أنها سمعت نقرًا خفيفًا على الباب. فتوقفت وأخذت تنصت، ومرَّت ثوانٍ دون أن تسمع شيئًا. وقد أوشكت أن تقنع نفسها بأن الأمر قد خُيل لها، لكن صوت الدق على الباب عاد من جديد. ارتدت نيكول ثوبها وأخذت تقترب من الباب المغلق بحذر شديد. فقالت بقوة زائفة: «من الطارق؟ من أنت؟»

سمعت نيكول صوت إلقاء شيء ما، واندفعت ورقة مطوية من أسفل الباب. التقطت نيكول الورقة، وهي لا تزال تتصرف بحذر وخوف، وفتحتها. وكان مكتوبًا بها ثلاث كلمات، بحروف قبيلة أمها سينوفو الأصلية: «روناتا». و«أوميه». و«هنا». وكلمة روناتا هي مقابل اسم نيكول في لغة قبيلة سينوفو.

مزيج من الذعر والإثارة دفع نيكول لفتح الباب دون أن تنظر إلى الشاشة أولًا لترى من بالخارج. فرأت رجلًا مسنًّا تبدو عليه الحكمة، ومرسوم على وجهه خطوط خضراء وبيضاء بشكل أفقي، واقفًا على بعد عشر أقدام وعينه الهرمة العجيبة مثبتة عليها. ويرتدي زيًّا قبليًّا كاملًا ذا لون أخضر فاتح، يشبه الرداء، وبه تموجات ذهبية ومجموعة من الرسومات الخطية التي لا تعطي معنًى واضحًا.

قالت نيكول بلغة سينوفو، وقلبها يكاد يقفز من صدرها «أوميه! ماذا تفعل هنا؟»

لم يتفوه الرجل الأسمر المسن بكلمة. وكان يحمل في يده اليمنى حجرًا وقارورة صغيرة من نوع ما. وبعد ثوانٍ، خطا بخُطًا ثابتة إلى داخل الغرفة. وكانت نيكول تتراجع مع كل خطوة يخطوها. ولم تتزحزح عينه من عليها. وما إن أصبحا في منتصف الغرفة،

ولم يكن يفصل بينهما إلا مسافة ثلاث أقدام أو أربع، حتى نظر الرجل المسن إلى سقف الغرفة وبدأ يغني ترنيمة خاصة بقبيلة سينوفو. وكانت مباركة وتعويذة استخدمها الكهنة في القبيلة منذ مئات السنين لطرد الأرواح الشريرة.

وعندما انتهى الرجل المسن أوميه من الغناء، أخذ يحدق مرةً أخرى في نيكول، وهي ابنة أحد أحفاده، وبدأ يتحدث ببطء شديد. فقال: «روناتا، إنني شعرت بخطر كبير في هذه الحياة. إنه مذكور في كتاب تاريخ القبيلة أن الرجل الذي يعيش ثلاثة قرون سوف يطارد الشياطين ليبعدهم عن السيدة التي بلا رفيق. لكن أوميه لا يستطيع أن يحمي روناتا بعد رحيلها عن مملكة ميناو. خذي»، وأخذ يدها ووضع فيها الحجر والقارورة: «يجب أن تبقيهما معكِ دائمًا.»

نظرت نيكول إلى الحجر، ولم يكن إلا حجرًا بيضاوي الشكل وأملس ولامعًا، ويبلغ طوله ما يقرب من ثماني بوصات، ويبلغ بُعداه الآخران أربع بوصات. وهو حجر أبيض بلون القشدة ويتخلل سطحَه خطوطٌ بنية مموجة غريبة الشكل. ولم تكن القارورة الصغيرة الخضراء التي أعطاها إياها أكبر من زجاجة العطر التي يصطحبها المسافر معه.

قال أوميه: «قد تساعد المياه المستخرجة من بحيرة الحكمة. وستعرفين الوقت الذي يجب أن تشربي فيه منها.» أمال أوميه رأسه إلى الخلف وأعاد بحماس ترتيل الأغنية التي سبق وغناها، لكن في هذه المرة كانت عيناه مغمضتين. وقفت نيكول بجانبه وهي صامتة ومرتبكة، وفي يدها اليمنى الحجر والقارورة. وعندما فرغ أوميه من الغناء صاح بثلاث كلمات لم تفهمها نيكول. ثم استدار فجأة وسار بسرعةٍ صوب الباب المفتوح. شعرت نيكول بالفزع، فجرت خارجة إلى الردهة لترى رداءه الأخضر يتلاشى في المصعد.

الفصل الرابع عشر

الوداع يا هنري

سارت نيكول وبصحبتها جينيفيف عبر الثلج الخفيف ويداهما متشابكتان. قالت جينيفيف ضاحكة: «هل رأيت النظرة التي ارتسمت على وجه ذلك الأمريكي عندما أخبرته عن هويتك؟» كانت فخورة للغاية بأمها.

غيَّرت نيكول اتجاه زلاجتها وعصاها وهما يقتربان من الفندق. فغمغم رجل مسنٌّ يبدو مثل بابا نويل وهو يسير بجانبهما ببطء، قائلًا بالألمانية: «مساء الخير.» قالت نيكول، ولم تكن حقًّا تزجر ابنتها: «أتمنى ألا تتسرعي هكذا في إخبار الناس عن هويتي. ففي بعض الأحيان يكون من الأفضل ألا يتعرف عليَّ أحد.»

كان هناك مكان مخصص لوضع الزلاجات بجانب مدخل الفندق. توقفت نيكول وجينيفيف ووضعتا أدوات التزلج في الخزانة. واستبدلتا الأحذية عالية الرقبة الخاصة بالتزلج بخف خفيف مخصص للسير على الثلج، وسارتا عائدتين في الضوء الذي بدأ يتلاشى، وقفت الأم وابنتها معًا لحظة ونظرتا خلفيهما أسفل التل صوب قرية دافوس. فقالت نيكول: «مررت بوقت اليوم، أثناء سباقنا أسفل منطقة التزحلق الخلفية نحو كلوسترز، وجدت فيه من المستحيل أن أومن بأنني سأكون حقًّا هناك في غضون أقل من أسبوعين ...» وأشارت إلى السماء وأكملت: «متوجهة للقاء مركبة فضائية غامضة. فأحيانًا يمتنع العقل البشري عن إدراك الحقيقة.»

قالت ابنتها بمرح: «لعله حلم فقط.» ارتسمت ابتسامة على شفتَي نيكول. كانت تحب خفة ظل جينيفيف. فكلما أوشك أن يتغلب على نيكول الإجهاد الناتج عن العمل الشاق والإعداد الممل، اعتمدت دائمًا على طبيعة ابنتها المرحة لكي تخفف عنها. كان الثلاثة الذين يعيشون في بوفوا بمنزلة الثلاثي المتحد. وكان كل منهم يعتمد على الاثنين

الآخرين بصورة كبيرة. ولم تكن نيكول تريد التفكير في الأثر الذي يمكن أن يخلفه البعد عنهما لمدة مائة يوم على توافقهم المتناغم.

سألت نيكول جينيفيف وهما تدخلان بهو الفندق: «هل يزعجك أنني سأبعد عنكِ لتلك المدة الطويلة؟» وهناك مجموعة من الأشخاص ملتفون حول نار ملتهبة في وسط القاعة. ونادل سويسري كفء لا يشعر أحد بوجوده يقدم المشروبات الساخنة لمجموعة التزلج تلك. ولم يكن هناك أي إنسان آلي يعمل في فندق موروساني، ولا حتى لخدمة الغرف.

فأجابتها ابنتها المبتهجة: «أنا لا أنظر إلى الأمر على ذلك النحو. ففي النهاية، سأتمكن من التحدث إليك كل ليلة بمكالمة فيديو. وحتى التأجيل سيجعل الأمر ممتعًا. ومثيرًا للتحدي.» ثم مرَّت الاثنتان بمكتب التسجيل العتيق الطراز. فأردفت جينيفيف: «علاوةً على ذلك، سأكون محل اهتمام الجميع في المدرسة طوال مدة المهمة. وقد حددت بالفعل المشروع المدرسي الذي سأقوم بتنفيذه، فسأرسم لوحة للحالة النفسية لسكان راما استنادًا إلى محادثاتي معك.»

ابتسمت نيكول مرةً أخرى وهزَّت رأسها. فقد كان تفاؤل جينيفيف ينتقل إلى الآخرين دائمًا. إنه أمرٌ مُخزٍ أن ...

«سيدة نيكول.» قاطع الصوت تفكير نيكول. كان مدير الفندق يشير إليها من المكتب. فاستدارت نيكول تجاهه. فأردف المدير: «هناك رسالة لك. وقد أُخبِرت أن أسلمها لك شخصيًّا.»

سلمها مظروفًا صغيرًا بسيطًا. فتحته نيكول، ولم ترَ إلا جزءًا صغيرًا جدًّا من الشعار الموضوع على بطاقة الرسالة. فتسارعت دقات قلبها وهي تغلق الظرف مرةً أخرى. فسألتها جينيفيف: «ما الأمر يا أماه؟ لا بد أنه أمر مهم ليطلب تسليمه يدًا بيد. فلا أحد يفعل ذلك في هذه الأيام.»

حاولت نيكول أن تخفي مشاعرها عن ابنتها. فكذبت عليها قائلة: «إنه سر يتعلق بعملي يا حبيبتي. وقد أخطأ حامل الرسالة خطأً فادحًا. لم يكن يجدر به أن يسلم الرسالة إلى السيد جراف. بل كان عليه أن يسلمها لي يدًا بيد.»

سألتها جينيفيف: «هل هي معلومات طبية سرية أخرى تتعلق بالطاقم؟» فكثيرًا ما تحدثت هي وأمها عن الدور المهم الذي يضطلع به الأطباء في البعثات الفضائية الكبرى.

أومأت نيكول برأسها. وقالت لابنتها: «حبيبتي، لماذا لا تسرعين إلى أعلى وتخبرين جدك أنني سألحق بك في غضون دقائق معدودة. وسنتناول العشاء في السابعة والنصف. سأقرأ هذه الرسالة الآن وأرى هل ستحتاج ردًّا عاجلًا.»

قبَّلت نيكول جينيفيف وانتظرت حتى استقلت ابنتها المصعد ثم خرجت حيث الثلج الخفيف. كان الظلام قد حلَّ الآن. ووقفت أسفل ضوء أحد مصابيح إنارة الشارع، وفتحت المظروف بيديها الباردتين. وكانت تجد صعوبة في التحكم في أصابعها المرتجفة. فجال بخاطرها: «أيها الأحمق، أيها الأحمق الطائش. بعد مرور كل هذا الوقت. ماذا كان سيحدث لو أن الفتاة رأت ...»

كان الشعار يبدو كما كان منذ خمسة عشر عامًا ونصف في وقت ما بعد الظهيرة، عندما سلمها دارين هيجينز دعوة العشاء خارج المنطقة المخصصة لوسائل الإعلام في دورة الألعاب الأولمبية. وفوجئت نيكول بقوة مشاعرها. لكنها استجمعت شجاعتها وبدأت تقرأ الرسالة الواردة أسفل الشعار.

«آسف لإرسالي لك في الدقيقة الأخيرة. يجب أن أراك غدًا. في وقت الظهيرة على وجه التحديد. في كوخ الإحماء رقم ٨ بقمة فايسفلويوخ. تعالَي بمفردك. هنري.»

في صباح اليوم التالي، كانت نيكول من أوائل المنتظرين للعربة الكهربائية التي تنقل المتزلجين إلى قمة فايسفلويوخ. فصعدت إلى العربة ذات الزجاج اللامع ومعها ما يقرب من عشرين شخصًا آخر، واستندت إلى النافذة في حين كان الباب يغلق آليًّا. أخذت تفكر: «لقد رأيته مرةً واحدة فقط خلال الخمسة عشر عامًا تلك، ومع ذلك ...»

وفي حين كانت العربة الكهربائية تصعد إلى القمة، أنزلت نيكول نظارة الجليد على عينيها. لقد كان نهارًا ساطعًا، ولا يختلف كثيرًا عن ذلك النهار في شهر يناير منذ سبع سنوات عندما نادى عليها أبوها من داخل الفيلا. تساقط آنذاك قليل من الثلج على بوفوا في الليلة السابقة، وبعد كثير من التوسل، سمحت لجينيفيف بعدم الذهاب إلى المدرسة والمكوث في البيت لتلعب بالثلج. كانت نيكول وقتها تعمل في مستشفًى بمدينة تور، وفي انتظار سماع أخبار عن طلب التحاقها بأكاديمية الفضاء.

وكانت نيكول تشرح لابنتها البالغة من العمر سبعة أعوام كيفية عمل ملاك من الثلج عندما نادى عليهما بيير من المنزل للمرة الثانية: «نيكول، جينيفيف، تعاليا فهناك شيء خاص في بريدنا. لا بد أنه وصل ليلًا.» هُرعت نيكول وجينيفيف إلى الفيلا مرتديتين ملابس الحماية من الجليد في حين كان بيير يضع نص الرسالة الكامل على شاشة العرض على الحائط.

قال بيير: «أمر مدهش حقًّا. يبدو أننا دُعينا جميعًا إلى حفلة التتويج الإنجليزية، وأيضًا حفلة الاستقبال الخاصة التي تليها. لكن هذا أمر غريب جدًّا.»

قالت جينيفيف بحماسة: «أوه يا جدي، أريد أن أذهب. هل يمكننا الذهاب؟ هل يمكن أن أقابل ملكًا وملكة حقيقيين؟»

فأجابها جدها: «لا توجد ملكة يا عزيزتي، إلا إذا كنتِ تقصدين الملكة الأم. فالملك لم يتزوج بعد.»

قرأت نيكول الدعوة أكثر من مرة دون أن تنطق بكلمة. وبعد أن هدأت جينيفيف وغادرت الغرفة، وضع بيير ذراعيه حول نيكول.

فقالت بهدوء: «أريد الذهاب للحفل.»

فسألها مبتعدًا عنها وناظرًا إليها نظرة متسائلًا: «هل أنتِ متأكدة؟»

فأجابت بثبات: «نعم.»

أخذت نيكول تفكر وهي تتحقق من ساعتها ثم معداتها استعدادًا للتزلج من القمة: «لم يكن هنري قد رآها حتى تلك الأمسية. وقد كان والدي رائعًا، فجعلني أختبئ في بوفوا ولم يعرف أي شخص تقريبًا أن لديَّ طفلة حتى بلغت جينيفيف عامها الأول تقريبًا. ولم يشك هنري في الأمر مطلقًا. لم يشك إلا بعد تلك الليلة في قصر باكنجهام.»

كانت نيكول لا تزال قادرة على تذكر نفسها وهي منتظرة في صف الاستقبال. لقد تأخَّر الملك، وأصبحت جينيفيف قلقة. وأخيرًا جاء هنري ووقف أمامها. «السيد المبجل بيير دي جاردان من بوفوا بفرنسا، وابنته نيكول، وحفيدته جينيفيف.» انحنت نيكول بلياقة تامة وكذلك جينيفيف انحنت احترامًا.

فقال الملك: «إذَن، هذه هي جينيفيف.» فمال عليها لحظة فقط ووضع يده أسفل ذقن الطفلة. وعندما رفعت الفتاة وجهها، رأى في ملامحها شيئًا ميَّزه على الفور. فعاد ينظر إلى نيكول بنظرة متسائلة. لكن نيكول ابتسمت دون أن تكشف عن شيء. كان المنادي يعلن أسماء الضيوف التالين في صف الاستقبال. فانتقل الملك لمن يليهم.

فكرت نيكول وهي تتزلج متخطيةً منحدرًا قصيرًا بقفزة صغيرة، فحملها الهواء لثانية أو ثانيتين: «إذَن، أرسلت دارين إلى الفندق. وأخذ يتردد حتى سألني أخيرًا إن كنت أستطيع الحضور وتناول الشاي.» غرست نيكول عصا التزلج في الثلج ووقفت فجأة. وتذكرت أنها قالت لدارين في لندن منذ سبعة أعوام: «أخبر هنري أنني لن أتمكن من الحضور.»

نظرت مرة أخرى إلى ساعتها. فوجدتها الحادية عشرة وحسب؛ لذا فقد كان الوقت لا يزال مبكرًا على التزلج إلى الكوخ. فتحركت إلى أحد المصاعد وأخذت طريقها إلى القمة من جديد.

كانت الساعة الثانية عشرة ظهرًا ودقيقتين عندما وصلت نيكول إلى الكوخ الصغير على أطراف الغابة. فخلعت زلاجاتها وغرستها في الثلج، وسارت إلى الباب الأمامي. وتجاهلت جميع اللافتات البارزة التي تقول «ممنوع الدخول». وفجأةً ظهر أمامها شخصان ضخمان، قفز أحدهما ليحول بين نيكول وباب الكوخ. فسمعت صوتًا مألوفًا يقول: «لا بأس، فنحن في انتظارها.» فاختفى الحارسان بنفس السرعة التي ظهرا بها، ورأت نيكول دارين، المبتسم كعادته، واقفًا أمام باب الكوخ.

قال بطريقته الودودة المعتادة: «أهلًا بكِ يا نيكول.» لقد تقدم العمر بدارين، فظهر بعض الشعر الأبيض حول صدغيه ويتخلل لحيته القصيرة القليل من الشعر الأبيض الممتزج باللون الأسود. ثم سألها: «كيف حالك؟»

فأجابته، مدركةً أنه بالرغم من تدريبها لنفسها على الهدوء، فقد بدأت تشعر بالتوتر بالفعل: «على ما يُرام يا دارين.» فذكرت نفسها بأنها أصبحت الآن محترفة، وبارعة في مجالها كما كان ذلك الملك الذي ستراه. ثم خطت نيكول خطوةً واسعة إلى داخل الكوخ في عزم.

كان الجو دافئًا في الداخل. وكان هنري واقفًا وظهره في اتجاه مدفأة صغيرة. فأغلق دارين الباب خلفها وترك الاثنين بمفردهما. وبخجل أزالت نيكول وشاحها وفتحت سترتها. وخلعت نظارة الثلج. وظلا يحدقان أحدهما في الآخر عشرين ثانية أو ربما ثلاثين، دون أن يتفوه أيٌّ منهما بكلمة، فلم يرغب أيهما أن يعوق تدفق المشاعر القوي الذي كان يحمل كلًّا منهما ويعيده إلى يومين رائعين قضياهما منذ خمسة عشر عامًا.

أخيرًا تحدث الملك قائلًا: «أهلًا بكِ يا نيكول.» كان صوته رقيقًا وحنونًا.

أجابت: «أهلًا بك يا هنري.» بدأ هنري السير حول الأريكة ليقترب منها، وربما ليلمسها، لكن شيئًا ما في حركاتها أوقفه. فمال على جانب الأريكة.

فقال لها: «ألن تجلسي؟»

هزت نيكول رأسها إشارة إلى أنها لن تجلس. وقالت: «أفضِّل الوقوف، إذا لم يكن هذا سيضايقك.» وانتظرت عدة ثوانٍ. تواصلت أعينهما خلالها بشدة. ووجدت نفسها تنجذب إليه بالرغم من تحذيراتها الداخلية. فاندفعت فجأةً قائلة: «هنري، لماذا استدعيتني إلى هنا؟ لا بد أن يكون هناك خَطبٌ مهم. فليس من المعتاد أن يقضي ملك إنجلترا أيامه جالسًا في كوخ على جانب جبل سويسري للتزلج.»

سار هنري إلى ركن الغرفة. وقال وهو يميل لأسفل وظهره لنيكول: «أحضرت لكِ هدية بمناسبة عيد ميلادك السادس والثلاثين.»

ضحكت نيكول. وبدأ التوتر يتلاشى شيئًا فشيئًا. فقالت: «إن عيد ميلادي غدًا. لقد سبقت بيوم. لكن لماذا …»

قدم لها مكعبًا لتخزين البيانات. وقال بجدية: «هذه هي أقيم هدية وجدتها، وقد كلَّف جمعُها الخِزانة الملكية كثيرًا من المال.»

رمقته بنظرة متسائلة.

فقال هنري: «لقد مر بي وقت كنت فيه قلقًا بشأن المهمة التي ستقومين بها، وفي البداية لم أستطِع أن أفهم السبب وراء ذلك. لكن منذ أربعة أشهر في إحدى الليالي التي كنت ألعب فيها مع الأمير تشارلز والأميرة إليانور، أدركت ما كان يؤرقني. فحدسي يخبرني أن طاقمك سيواجه عددًا من المشكلات. أعرف أن هذا قد يبدو ضربًا من الجنون، ولا سيما وهو صادر عني، لكنني لست قلقًا من سكان راما. وأعتقد أن براون المصاب بجنون العظمة هو على الأرجح محق، فسكان راما غير مهتمين بنا، نحن أهلَ الأرض. لكنك ستقضين مائة يوم في مكان مغلق مع أحد عشر …»

وكان يرى أن نيكول غير مُنصتة لكلامه. فقال: «خذي هذا المكعب. فقد قام عملاء الاستخبارات لديَّ بجمع ملفات كاملة عن كل عضو من أعضاء الطاقم، بما فيهم أنتِ.» فقطبت نيكول حاجبَيها. «إن المعلومات، التي لا يوجد أغلبها في الملفات الرسمية بوكالة الفضاء العالمية، تؤكد رأيي الشخصي أن طاقم نيوتن يشمل مجموعة ليست بقليلة من العناصر غير المتزنة. ولم أعرف ماذا أفعل بـ…»

فقاطعته نيكول غاضبة: «إن هذا ليس من شأنك.» لقد شعرت بالإهانة لتدخل هنري في حياتها المهنية. «لماذا تتدخل في …»

فأجاب الملك: «لا عليك، لا عليك، اهدئي من فضلك. أؤكد لكِ أن دوافعي كلها كانت حسنة.» ثم أردف: «انظري، على الأرجح لن تحتاجي إلى كل هذه المعلومات، لكنني فكرت أنها ربما تفيدك في شيء. خذيها. تخلصي منها إن شئتِ. فأنت الطبيبة المسئولة. ويمكنك التعامل معها بأي طريقة ترينها.»

أدرك هنري أنه أفسد اللقاء. فسار مبتعدًا وجلس على مقعد ووجهه مقابل للمدفأة. وكان ظهره ناحية نيكول.

وغمغم قائلًا: «اعتني بنفسك يا نيكول.»

فأخذت تفكر لفترة طويلة، ووضعت مكعب البيانات في سترتها، ثم سارت من خلف الملك. وقالت: «شكرًا لك يا هنري.» وتركت يدها تسقط على كتفه. لكنه لم يستدر. بل رفع يده ولف أصابعه حول أصابعها. وظلا على هذا الوضع ما يقرب من الدقيقة.

قال بصوت منخفض: «كان هناك بعض البيانات التي حيرت حتى المحققين لديَّ. ولا سيما حقيقة بعينها تعنيني أنا شخصيًّا.»

كانت نيكول تستطيع سماع دقات قلبها تتصاعد وسط طقطقة الأخشاب الموضوعة في المدفأة. وصوتٌ داخلها يصيح: «أخبريه، أخبريه!» لكن صوتًا آخر، مليئًا بالحكمة، جعلها تلزم الصمت.

جذبت أصابعها برفق من بين أصابعه. فاستدار لينظر إليها. ابتسمت نيكول. ثم سارت نحو الباب. ووضعت وشاحها على رأسها وأغلقت سترتها قبل أن تخرج. ثم قالت: «الوداع يا هنري.»

الفصل الخامس عشر

المواجهة

قامت المركبة الفضائية الخاصة بطاقم نيوتن بمناورة حتى أصبحت المركبة راما تملأ منفذ العرض الممتد داخل مركز التحكم. لقد كانت سفينة الفضاء الدخيلة ضخمة. وسطحها ذو لون رمادي شاحب، وهيكلها الطويل على شكل أسطوانة كاملة من الناحية الهندسية. وقفت نيكول صامتة بجانب فاليري بورزوف. فقد كانت رؤية المركبة راما كاملة للمرة الأولى في ضوء الشمس لكلٍّ منهما لحظة لها مذاق خاص.

وأخيرًا، قالت نيكول: «هل اكتشفت أي اختلافات؟»

فأجابها القائد بورزوف: «ليس بعد. يبدو أن كلتيهما خرجت من خط التجميع ذاته.» وساد الصمت من جديد.

فسألته نيكول: «ألا تود رؤية خط التجميع ذلك؟»

فأومأ بورزوف رأسه بالإيجاب. اندفعت طائرة صغيرة، تشبه الوطواط أو طائر الطنان، عبر منفذ العرض نحو راما. وأردف قائلًا: «ستؤكد طائرات الاستطلاع الخارجية أوجه الشبه. فكلٌّ منها مزود بمجموعة مخزنة من صور المركبة راما ١. وسوف تُدون أي اختلافات ويبلغ عنها خلال ثلاث ساعات.»

سألته نيكول: «ماذا سيكون الوضع لو أنه ليس هناك اختلافات غير مفسَّرة؟»

أجاب الجنرال بورزوف بابتسامة: «سنسير وفق الخطة. سنهبط بمركبتنا، ونفتح المركبة راما، ثم نطلق طائرات الاستطلاع الداخلية.» ألقى الجنرال نظرة خاطفة على ساعته. ثم قال: «ينبغي أن يحدث كل ذلك بعد اثنتين وعشرين ساعة من الآن، في حالة أكدت الطبيبة المسئولة استعداد الطاقم.»

فأبلغته نيكول: «الطاقم بحالة جيدة. وقد انتهيت لتوي من الاطلاع على ملخص البيانات الصحية للرحلة للمرة الثانية. وكانت منتظمة بصورة مذهلة. ولم نجد أي

خلل خطير خلال أربعين يومًا، إلا من خلل في هرمونات السيدات الثلاثة، وهو أمر كان متوقعًا.»

قال القائد باهتمام شديد: «إذن، نحن مستعدون من الناحية البدنية للانطلاق. لكن ماذا عن استعدادنا النفسي؟ هل تزعجك سلسلة الخلافات التي اندلعت منذ قليل؟ أم يمكنك أن ترجعيها إلى الشعور بالتوتر والإثارة؟»

سكتت نيكول لحظة. ثم قالت: «أقر بأن هذه الأيام الأربعة منذ أن هبطنا كانت قاسية بقدر ما. بالطبع، كنا نعلم بالمشكلة الموجودة بين ويلسون وبراون قبل الانطلاق. وقمنا بحلها جزئيًّا عن طريق إبقاء ريجي في سفينتك خلال معظم الرحلة، لكن نظرًا لدمجنا للمركبتين الفضائيتين الآن وجمع الفريق كاملًا مرة أخرى، يبدو أن الاثنين يتصادمان كلما سنحت الفرصة. ولا سيما في وجود فرانشيسكا.»

قال بورزوف بنبرة يائسة: «لقد حاولت التحدث مع ويلسون مرتين عندما كانت السفينتان منفصلتين. لكنه رفض مناقشة الأمر. لكن من الواضح أنه غاضب جدًّا من شيء ما.»

سار الجنرال بورزوف إلى لوحة التحكم وأخذ يحرك أصابعه على لوحة المفاتيح. فظهرت معلومات متسلسلة على إحدى الشاشات. فأكمل حديثه: «لا بد أن للأمر علاقة بفرانشيسكا. فويلسون لم يقم بكثير من العمل خلال الرحلة، ويظهر سجله أنه أمضى وقتًا كبيرًا يتحدث إليها في مكالمة فيديو. وقد كان دائمًا في حالة مزاجية سيئة. بل وصل الأمر إلى أنه أهان أوتول.» استدار بورزوف ونظر إلى نيكول بانتباه. وقال: «بصفتك الطبيبة المسئولة، أود أن أعرف هل لديك أي توصيات رسمية بشأن الطاقم، وبخاصة فيما يتعلق بتعامل أفراد الفريق بعضه مع بعض.»

لم تكن نيكول تتوقع هذا الحديث. فعندما حدد الجنرال بورزوف هذا الاجتماع الأخير معها بشأن «تقييم صحة الطاقم»، لم تفكر في أن الاجتماع سيتطرق إلى الصحة النفسية لطاقم نيوتن. فسألته: «هل تطلب مني أيضًا تقييمًا مهنيًّا للحالة النفسية للطاقم؟»

فقال بورزوف مؤكدًا على كلامه السابق: «بكل تأكيد. أريد أن تعدي لي تقريرًا يؤكد الاستعداد البدني والنفسي لكلٍّ من أفراد الطاقم. فالإجراء المتبَع هو أنه على القائد المسئول أن يطلب تقريرًا من الطبيب المسئول يوضح حالة الطاقم قبل كل رحلة.»

«لكنك لم تطلب خلال تدريبات المحاكاة إلا بيانات عن الصحة البدنية.»

ابتسم بورزوف. وقال: «يمكنني الانتظار يا سيدة نيكول إذا كنتِ في حاجة لبعض الوقت لإعداد التقرير.»

قالت نيكول بعد تفكير: «لا، لا. يمكنني أن أعطيك رأيي الآن، ثم أضعها في تقرير رسمي الليلة.» ثم ترددت ثواني معدودة قبل أن تكمل. فقالت: «لا أوصي بوضع ويلسون وبراون معًا في فريق فرعي واحد، على الأقل في الرحلة الأولى. ولديَّ مخاوف، لكن بالطبع ليست بالقوة نفسها، بشأن وضع فرانشيسكا في أي مجموعة مع أيهما. وبخلاف ذلك، ليس لديَّ أي قيود على الطاقم.»

«حسنًا. حسنًا.» وابتسم القائد ابتسامة واسعة قائلًا: «أقدر ما ذكرتِه في تقريرك، وهذا ليس فقط لأنه يؤكد وجهة نظري. وكما تعلمين يمكن أن تكون تلك المسائل حساسة للغاية.» انتقل بورزوف فجأة للحديث عن موضوع آخر. فقال: «والآن أود أن أطرح عليك سؤالًا مختلفًا تمامًا.»

سألته: «وما هو؟»

«لقد جاءتني فرانشيسكا في الصباح واقترحت أن نقيم حفلةً مساء غد. وتزعم أن الطاقم متوتر وفي حاجة إلى التهدئة قبل الرحلة الأولى داخل راما. هل تتفقين معها؟»

فكرت نيكول للحظة. ثم أجابت: «ليست بفكرة سيئة. فقد ظهر الإجهاد بلا شك … لكن ما نوع الحفلة التي تفكر فيها؟»

«سنتناول العشاء معًا، هنا في غرفة التحكم، مع احتساء بعض النبيذ والفودكا، ويمكن أيضًا أن ندرج برنامجًا ترفيهيًّا.» ابتسم بورزوف ووضع ذراعه على كتف نيكول. وقال: «إنني أسألك عن رأيك المهني باعتبارك الطبيبة المسئولة.»

فضحكت نيكول وهي تقول: «بالطبع.» ثم أردفت: «يا جنرال، إذا كنت ترى أن هذا وقت مناسب لإقامة حفلة للطاقم، فيسعدني أن أساندك …»

أنهت نيكول تقريرها ونقلت الملف عن طريق خط بيانات إلى الكمبيوتر الخاص ببورزوف في السفينة العسكرية. وقد كانت دقيقة جدًّا في اختيار كلماتها لتعريف المشكلة بأنها «صراع شخصيات» أكثر منه أمراضًا سلوكية. لقد كانت المشكلة بين ويلسون وبراون واضحةً أمام نيكول: الغيرة، بوضوح وبساطة، نفس الوحش القديم.

وكانت نيكول متأكدة من أن الحكمة تقتضي منع ويلسون وبراون من العمل معًا عن قربٍ خلال الرحلة داخل راما. وبَّخت نيكول نفسها لعدم طرحها للمسألة على بورزوف من نفسها. وأدركت أن مهمتها تشتمل على التعرض للصحة العقلية أيضًا، لكنها وجدت صعوبة في تصور نفسها طبيبة نفسية للطاقم. فأخذت تحدث نفسها: «أنا أتجنب ذلك العمل لأنها عملية غير موضوعية، فنحن لا نملك بعدُ أجهزة لقياس الصحة العقلية.»

سارت نيكول عبر ردهة منطقة المعيشة. وكانت تحرص على إبقاء إحدى قدميها على الأرض في جميع الأوقات، فقد تعودت العيش في البيئة التي ينعدم فيها الوزن، كأنها طبيعة ثانية لديها. وكانت سعيدة لأن مهندسي التصميم العاملين في مشروع نيوتن قد عملوا بجد لتقليص الاختلافات بين العيش في الفضاء والعيش على الأرض. وجعلوا العمل كرائد فضاء أسهلَ بكثير من خلال السماح للطاقم بالتركيز على العناصر الأكثر أهمية في عملهم.

كانت غرفة نيكول تقع في نهاية الرواق. ومع أن كل رائد فضاء كان لديه مسكن خاص به (نتيجة للخلافات المحتدمة بين الطاقم ومهندسي النظام، الذين أصروا على أن النوم في غرف مزدوجة أفضل لتوفير المساحة)، كانت الغرف صغيرة جدًّا ومحدودة. وكان هناك ثماني غُرف نوم في هذه المركبة الكبرى، التي كان أفراد الطاقم يطلقون عليها اسم السفينة العلمية. أما السفينة العسكرية، فكانت تحتوي على أربع غرف نوم صغيرة إضافية. وكانت كلتا السفينتين تحوي أيضًا غرفًا للتدريب و«ردهات»، وهي غرف عامة حيث يوجد أثاث أكثر راحة وبعض الاختيارات الترفيهية غير المتاحة في غرف النوم.

وبينما كانت نيكول تمر أمام غرفة جانوس تابوري في طريقها إلى منطقة التدريب، سمعت ضحكة تعرفها جيدًا. كان باب غرفته مفتوحًا كالعادة. وكان جانسون يقول: «هل حقًّا كنت تتوقع أن أتخلى عن الأفيال وأدع فرسانك يسيطرون على لوحة الشطرنج؟ قد لا أكون لاعبًا محترفًا يا شيج، ولكنني أتعلم من أخطائي، أنسيت أنني خسرت في مباراة سابقة بسبب هذا الخطأ.»

كان تابوري وتاكاجيشي منهمكين في مباراة الشطرنج التي يخوضانها عادةً بعد تناول الطعام. فكل «ليلة» تقريبًا (كان الطاقم قد قضى يومًا مدته أربع وعشرين ساعة بتوقيت جرينتش)، كان الرجلان يلعبان مدة ساعة تقريبًا قبل أن يخلدا للنوم. كان تاكاجيشي أستاذًا مصنفًا في لعبة الشطرنج، لكنه في الوقت نفسه كان رقيق القلب ويريد تشجيع تابوري. ولذا، في كل لعبة تقريبًا وبعد أن يضع تاكاجيشي نفسه في موضع قوي يجعل حيله تنهار عن عمد.

ألصقت نيكول رأسها بالباب، وأخذت تستمع. قال جانوس ضاحكًا: «تعالَي يا عزيزتي، وشاهديني وأنا أقضي على صديقنا الآسيوي في محاولته الفاشلة هذه.» فأخذت نيكول تشرح له أنها كانت في طريقها إلى غرفة التدريب عندما هرول مخلوق غريب، بحجم فأر كبير، بين ساقيها صوب غرفة تابوري. فقفزت إلى الخلف بطريقة عفوية عندما توجهت الدمية، أو أيًّا كان ذلك المخلوق، نحو الرجلين:

شحرور الغابة ذو اللون الفاحم،
والذيل الأصفر في لون الحناء؛
والبلبل غنى بالصوت الناعم،
والسمان ذو الأنغام الرعناء …

كان المخلوق الآلي ينشد تلك الكلمات وهو يقفز نحو جانوس. فجثت نيكول على ركبتيها وتفحصت الوافد الفضولي الجديد. لقد كان جسده السفلي يشبه جسد الإنسان، ورأسه رأس حمار. واستمر في الغناء. توقف تابوري وتاكاجيشي عن اللعب وأخذا يضحكان على ملامح الذهول التي ارتسمت على وجه نيكول.

قال جانوس: «هيا، أخبريه بأنك تحبينه. فهذا ما كانت الملكة الجنية تيتانيا ستفعله.»

هزَّت نيكول كتفيها. وظل المخلوق الآلي الصغير هادئًا لفترة مؤقتة. ونظرًا لإلحاح جانوس، تمتمت نيكول قائلة للمخلوق الآلي الذي يبلغ عشرين سنتيمترًا ورأسه رأس بغل: «أحبك.»

استدار بوتوم الصغير إلى نيكول. وقال لها: «أعتقد يا سيدتي أن هناك سببًا يدفعك لقول هذا. ومع ذلك، وإحقاقًا للحق، فالحب والعقل لا يجتمعان معًا هذه الأيام.»

شعرت نيكول بالذهول. تقدَّمت نيكول لالتقاط الكائن الضئيل، لكنها توقفت عندما سمعت صوتًا آخر.

«إلهي، ما بال هؤلاء البشر الأغبياء! أين ذلك الأخرق الذي حولته إلى حمار؟ أين أنت يا بوتوم؟»

وثب مخلوق آلي آخر صغير إلى الغرفة، كان يبدو كالجنِّي الصغير. وعندما رأى نيكول قفز من الأرض وحلق على مستوى النظر لثوانٍ معدودة، وجناحاه الخلفيان الصغيران يُرفرفان بسرعة جنونية. فقال: «أنا باكٍ، أيتها الفتاة الجميلة. ولم أرَك من قبل.» سقط المخلوق الآلي على الأرض ولزم الصمت. فصُعقت نيكول مما حدث.

فبدأت تقول: «ما هذا …»

فقال جانوس، وهو يشير إليها لتصمت: «صهٍ …» فأشار إلى بوك. كان بوتوم نائمًا في الركن بالقرب من حافة فراش جانوس. والآن وجد بوك بوتوم وبدأ ينثر عليه بعض الغبار الخفيف الناعم من كيس صغير الحجم. وبينما كان البشر الثلاثة يراقبون ما يحدث، بدأ رأس بوتوم في التغير. كانت نيكول ترى قطعًا صغيرة من البلاستيك والمعدن التي تشكل رأس الحمار تعيد تنظيم نفسها بكل بساطة، لكنها أيضًا كانت مندهشة من

عظم عملية التحول. وما إن استيقظ بوتوم برأسه البشري الجديد وبدأ يتكلم حتى ولَّى بوك مدبرًا.

فقال بوتوم: «لقد شاهدت رؤيا غريبة جدًّا، شاهدت حلمًا يعجز إدراك الإنسان عن تصوره. ولن يكون الإنسان إلا حمارًا إذا حاول تفسير ذلك الحلم.»

هتف جانوس بينما لاذ المخلوق بالصمت: «مرحى، مرحى!»

أردف تاكاجيشي: «تهانيَّ.»

جلست نيكول على الكرسي الوحيد الشاغر ونظرت إلى رفيقَيها. وقالت وهي تهز رأسها: «لم يكن لي أن أخبر القائد أنكما بحالة نفسية سليمة.» توقفت عن الحديث ثانيتين أو ثلاثًا، ثم أردفت: «هل يخبرني أحدكما ماذا يحدث هنا؟»

قال جانوس: «إنه ويكفيلد. فالرجل عبقري حقًّا، بل إنه بارع على عكس بعض العباقرة. علاوة على ذلك، يتميز الرجل بكونه أحد المولعين بشكسبير. إنه يمتلك عائلة كاملة من تلك المخلوقات الصغيرة، لكنني أعتقد أن بوك هو الوحيد الذي يمكنه الطيران، وبوتوم هو الوحيد الذي يمكنه أن يغير شكله.»

قال ريتشارد ويكفيلد، وهو يخطو داخل الغرفة: «بوك لا يطير، بل يمكنه التحليق بشق الأنفس ولمدة قصيرة.» بدا على ملامح ويكفيلد الإحراج. وقال لنيكول: «لم أكن أعلم بوجودك. فأحيانًا ما أقوم بتسلية هذين الزميلين أثناء لعبهما الشطرنج.»

أردف جانوس بينما لزمت نيكول الصمت: «ذات ليلة، بعد أن سلمت بالهزيمة إلى شيج، سمعنا صوتًا بدا لنا كمشاجرة في الردهة. وبعد لحظات، دخل كل من تيبالت ومركوتيو الغرفة وهما يتشاتمان ويتبارزان بالسيف.»

سألت نيكول بعد مرور ثوانٍ معدودة، وهي تشير إلى المخلوقات الآلية: «هل هذه هوايتك؟»

قاطعها جانوس قبل أن يجيب عنها ويكفيلد: «مطلقًا يا سيدتي، لا تخلطي بين الشغف والهواية. فعالمنا الياباني المبجل لا يلعب الشطرنج على سبيل الهواية. وكذلك لا يصنع هذا الشاب القادم من مدينة الشاعر العظيم شكسبير، ستراتفورد أبون أفون، المخلوقات الآلية على سبيل الهواية.»

ألقت نيكول نظرة سريعة على ريتشارد. وكانت تحاول تخيل حجم الجهد والعمل اللازمَين لصنع مثل هذه المخلوقات الآلية المعقدة. ذلك بالإضافة إلى الموهبة، والشغف بالطبع. فقالت لريتشارد: «شيء مثير للإعجاب.»

ابتسم معبرًا عن امتنانه لمجاملتها. استأذنت نيكول، وهمَّت بمغادرة الغرفة. لكن بوك دار حولها بسرعة واعترض طريقها.

إن كنا نحن ظلال الكون أسأنا أو أخطأنا،
فسيكفي أن يتخيل كلٌّ منكم
أن النوم طواه هنا،
ورأى ما شاهد في الأحلام.

كانت نيكول تضحك وهي تخطي فوق الجني الصغير وتمنَّت لهم ليلة سعيدة.

مكثت نيكول في غرفة التدريب أكثر مما توقعت. فعادةً يكون قضاء ثلاثين دقيقة في ممارسة تمرين ركوب الدرَّاجة أو الجري في المكان كافيًا لتحريرها من التوتر ومساعدة جسدها على الاسترخاء تمهيدًا للنوم. لكن في ذلك المساء، كان عليها ممارسة التمارين لوقت أطول لتهدئة جهازها العصبي المفرط النشاط؛ نظرًا لاقترابهم من الوصول للهدف من المهمة. وكان جزء من مشكلتها يتمثل في قلقها الزائد بشأن التقرير الذي قدمته وأوصت فيه بالفصل بين ويلسون وبراون في جميع الأنشطة الهامة للمهمة.

سألت نفسها: «هل تسرعت في قراري؟ هل تركت الجنرال بورزوف يؤثر على رأيي؟» كانت نيكول فخورة جدًّا بسمعتها المهنية، وكانت كثيرًا ما تعيد التفكير في قراراتها المهمة مرة أخرى بطريقة بنَّاءة. وباقتراب انتهاء فترة تمرينها الرياضي، أقنعت نفسها مرة أخرى بأنها رفعت التقرير الصحيح. وشعرت أن جسدها المنهَك مستعد للنوم.

وعندما عادت نيكول إلى منطقة المعيشة في مركبة الفضاء، كان الظلام يخيم على المكان إلا في الرواق. وبينما بدأت تتجه يسارًا إلى الممر المؤدي إلى غرفتها، ألقت نظرةً سريعة إلى ما وراء الردهة، في اتجاه غرفة صغيرة حيث تحتفظ بجميع التجهيزات الطبية. تعجَّبت في سرها وهي تحاول النظر خلال الضوء الخافت. وحدَّثت نفسها: «يا للعجب! يبدو أنني تركت باب غرفة التجهيزات مفتوحًا.»

سارت نيكول عبر الردهة. وكان باب غرفة التجهيزات مواربًا بالفعل. وما إن نشطت القفل الآلي وشرعت في إغلاق الباب، حتى سمعت صوتًا ما داخل الغرفة المظلمة. فدخلت نيكول إلى الغرفة وأضاءتها، ففوجئت بفرانشيسكا التي كانت تجلس في الركن أمام جهاز كمبيوتر. كان أمامها شاشة تظهر عليها مجموعة من المعلومات، وكانت تمسك بإحدى يديها زجاجة رفيعة.

قالت فرانشيسكا بلا مبالاة: «أوه، مرحبًا نيكول.» كأنه من الطبيعي أن تكون جالسة في الظلام على جهاز كمبيوتر في غرفة التجهيزات الطبية.

سارت نيكول ببطء إلى جهاز الكمبيوتر. وسألتها وعينها تتفحص المعلومات الظاهرة على الشاشة: «ماذا تفعلين؟» اتضح لنيكول أن فرانشيسكا طلبت من البرنامج الفرعي للمخزون أن يعطيها قائمة بوسائل تحديد النسل الموجودة على متن المركبة الفضائية.

سألتها نيكول، وهي تشير للشاشة: «ما هذا؟» وقد بدا على صوتها الغضب. فجميع الرواد يعرفون أنه غير مسموح لأي شخص دخول غرفة التجهيزات الطبية إلا الطبيب المسئول.

استشاطت نيكول غضبًا عندما لم تُجِب فرانشيسكا عليها. فسألتها: «كيف دخلتِ إلى هنا؟» كان لا يفصل بين المرأتين إلا بعض السنتيمترات في الفجوة الصغيرة الموجودة قرب المكتب. مدَّت نيكول يدها فجأة وسحبت الزجاجة من يد فرانشيسكا. وبينما كانت نيكول تقرأ الملصق، إذ بفرانشيسكا تدفعها بعيدًا عنها في هذا المكان الضيق وتتجه نحو الباب. اكتشفت نيكول أن الزجاجة التي في يدها تحوي مادةً سائلة للإجهاض، فهُرعت خلف فرانشيسكا إلى الردهة.

سألتها نيكول: «هلا شرحتِ لي ما يحدث؟»

تكلمت فرانشيسكا أخيرًا قائلة: «أرجوكِ، أعطيني الزجاجة.»

أجابت نيكول وهي تهز رأسها: «لن أفعل. فهذا الدواء قوي للغاية وله آثار جانبية خطيرة. ماذا كنت تظنين أنك فاعلة؟ هل ظننتِ أنكِ ستسرقين الزجاجة دون أن يلحظ أحد؟ فسرعان ما كنت سأكتشف اختفاءها عندما أجرد المخزون.»

أخذت السيدتان تحدقان إحداهما في الأخرى ثواني معدودة. قالت فرانشيسكا أخيرًا، مصطنِعةً ابتسامة: «اسمعيني يا نيكول، إن هذه المسألة بسيطة للغاية. لقد اكتشفت حديثًا، وهو ما كدَّرني، أنني في المراحل الأولى من الحمل. وأرغب في التخلص من الجنين. إنها مسألة شخصية ولم أرغب في إزعاجك أنتِ أو أيًّا من أفراد الطاقم بالأمر.»

أجابت نيكول بسرعة: «لا يمكن أن تكوني حاملًا.» ثم أردفت: «ففي تلك الحالة، كنت سأكتشف الأمر عن طريق بيانات الإحصاء البيولوجي الخاصة بكِ.»

قالت فرانشيسكا: «لم يمر على الأمر إلا أربعة أيام أو خمسة. لكنني على يقين من حدوث الحمل. فأنا أشعر بالفعل بالتغيرات في جسدي. وهذا هو الوقت المناسب من الشهر.»

قالت نيكول بعد أن ترددت قليلًا: «إنكِ تعرفين الإجراءات المناسبة عند وقوع أي مشكلة طبية.» ثم تابعت قولها: «وكانت المسألة ستكون بسيطة للغاية، كما قلتِ، لو أنك لجأتِ لي من البداية. وكنت على الأرجح سأحترم رغبتك في الحفاظ على سرية الأمر. لكنك الآن وضعتِني في مأزق ...»

قاطعتها فرانشيسكا بحدة: «هلا انتهيتِ من تلك المحاضرة المملة؟» وأردفت: «فأنا لا أكترث باللوائح اللعينة. لقد حملت من شخص ما وأرغب في التخلص من الجنين. هلا أعطيتني الزجاجة الآن أو أذهب لأجد طريقة أخرى؟»

استشاطت نيكول غضبًا. فردَّت على فرانشيسكا: «إنكِ مذهلة. هل تتوقعين أن أسلمك الزجاجة وأتركك؟ دون حتى أن أطرح أي أسئلة؟ قد تكونين كما قلتِ لا تكترثين بحياتك أو صحتك، لكنني يجب أن أكترث بها. يجب أن أفحصك أولًا، وأطلع على سجلك الطبي، وأحدد عمر الجنين، ووقتها فقط يمكن أن أفكر في وصف هذا الدواء لكِ. وإضافةً إلى ذلك، سيكون من واجبي أن أخبرك بأن هناك عواقب معنوية ونفسية ...»

أطلقت فرانشيسكا ضحكةً مُدوية. وقاطعتها قائلة: «جَنِّبيني تلك العواقب يا نيكول. فأنا في غنًى عن إصدارك للحكم على حياتي وفقًا لأخلاقيات الطبقة العليا بمدينة بوفوا. وأود أن أهنئك لأنك ربيتِ طفلتك بمفردك. أما في حالتي فالموقف مختلف كثيرًا. فقد توقَّف والد الطفل الذي أحمله عن تناول حبوب الدواء الخاصة به عن عمد؛ لأنه تصوَّر أن حملي سيُعيد إشعال شرارة الحب في قلبي. لكنه كان مخطئًا. فأنا لا أرغب في إنجاب هذا الطفل. والآن، هل عليَّ أن أعبر أكثر ...»

قاطعتها نيكول، وهي تزم شفتَيها في اشمئزاز: «هذا يكفي.» وأردفت: «إن تفاصيل حياتك الشخصية لا تعنيني حقًّا. يجب أن أقرر ما في مصلحتك ومصلحة المهمة.» فسكتت لحظات، ثم تابعت: «على أي حال، يجب إجراء فحص دقيق لكِ، بما في ذلك مجموعة صور طبيعية داخلية للحوض. وفي حالة رفضك الخضوع للفحص، لن أوافق على إجراء الإجهاض. وبالطبع، سأكون ملزَمة برفع تقرير كامل ...»

ضحكت فرانشيسكا. وقالت: «لا حاجة لتهديدي. فأنا لست بهذا الغباء. فأنا لا أمانع إذا كان وضع أجهزتك الغريبة بين ساقيَّ سيجعلك تشعرين بحالٍ أفضل. كل ما يهمني هو أن ننتهي من الأمر. فأنا أريد التخلص من ذلك الجنين قبل الرحلة على راما.»

وفي الساعة التالية، نادرًا ما تبادلت نيكول وفرانشيسكا أي حوار فيما بينهما سوى كلمات مقتضَبة. ذهبت السيدتان معًا إلى حجرة صغيرة للعناية الصحية حيث استخدمت

نيكول أدواتها الدقيقة للتحقق من وجود الجنين، وتحديد حجمه. كما فحصت قدرة فرانشيسكا على تحمُّل دواء الإجهاض. كان الجنين ينمو داخل أحشاء فرانشيسكا منذ خمسة أيام. أخذت نيكول تفكر وهي تنظر إلى الصورة الميكروسكوبية للكيس الصغير الملتصق بجدار الرحم: «من يمكن أن تكون؟» وحتى باستخدام الميكروسكوب الموجود في المسبار، لم تكن هناك أي وسيلة للتأكد من أن مجموعة الخلايا تلك كانت كائنًا حيًّا. «لكنك حي بالفعل. وقد حددت الجينات كثيرًا من مستقبلك بالفعل.»

طبعت نيكول لفرانشيسكا قائمة بما يمكن أن تتوقعه من الآثار على المستوى البدني بمجرد أن تبتلع الدواء. فسوف ينجرف الجنين ويخرج من جسدها خلال أربع وعشرين ساعة. ويمكن أن تعاني آلامًا خفيفة بسبب الحيض الطبيعي الذي سيعقب تلك العملية.

تناولت فرانشيسكا الدواء دون تردد. وبينما كانت فرانشيسكا ترتدي ثيابها عادت نيكول بذاكرتها إلى الوقت الذي شكَّت فيه لأول مرة في أنها حامل. وحدَّثت نفسها: «لم أفكر قط في … وليس ذلك بسبب أن والدها كان أميرًا. لا، لقد كانت المسألة مسألة تحمُّل للمسئولية. والحب.»

قالت فرانشيسكا عندما كانت مستعدة للرحيل: «أعرف ما يدور في خلدك.» وكانت تقف بجانب باب حجرة الرعاية الصحية. وأردفت: «لكن لا تضيعي وقتك، فلديك ما يكفي من المشكلات.»

لم تُجِبها نيكول. فقالت فرانشيسكا ببرود، وكان يبدو على عينيها الإرهاق والغضب: «إذَن فسأتخلص من ذلك الجنين غير الشرعي غدًا. هذا أمر جيد. فالعالم ليس في حاجة إلى طفلٍ آخر أبوه أسود.» ولم تنتظر فرانشيسكا الرد من نيكول.

الفصل السادس عشر

راما، راما تركض كالنار الملتهبة

كان الهبوط بالقرب من مدخل السفينة راما هادئًا ودون وقوع حوادث. وعلى غرار ما حدث منذ سبعين عامًا مع القائد نورتون، أمر الجنرال بوررزوف كلًّا من ياماناكا وتورجينيف بإرشاد سفينة نيوتن لنقطة اتصال خارج القرص الدائري الذي يمتد مائة متر، والمتمركز على المحور الدوار للأسطوانة العملاقة. وكانت مجموعة من هياكل منخفضة على شكل علبة صغيرة تُثبِّت سفينة الفضاء القادمة من الأرض، ومقاومة قوة الطرد المركزية الخفيفة التي أحدثتها السفينة الفضائية الدوَّارة. وفي غضون عشر دقائق كان هناك أدوات تثبيت قوية تربط سفينة الفضاء الخاصة بطاقم نيوتن بهدفها بقوة.

وكما كان متوقعًا، كان القرص الكبير هو القفل الخارجي للسد الهوائي للسفينة راما الذي يسمح بمرور الأشخاص إلى داخلها دون أن يتأثر ضغط الهواء بها. غادر ويكفيلد وتابوري سفينة فضاء نيوتن مرتديين ملابس المهام الخارجية، وبدآ في البحث عن عجلة مثبتة، وهي أداة التحكم اليدوي في السد الهوائي. كانت العجلة المثبتة في المكان المتوقع بالضبط. فدارت العجلة كما كان متوقعًا، وكشفت عن فتحة في الطبقة الخارجية لراما. ونظرًا لأنه لم يبدُ أي اختلاف حتى الآن بين راما ٢ وسابقتها، استمر رائدا الفضاء في اتباع إجراءات الدخول.

وبعد مرور أربع ساعات، وبعد التحرك جيئة وذهابًا في الممرات والأنفاق التي تمتد لمسافة نصف كيلومتر وتربط الجزء الداخلي المجوَّف الضخم لسفينة الفضاء الدخيلة بالسد الهوائي الخارجي، انتهى الرائدان من فتح الأبواب الأسطوانية الثلاثة المخصصة للاستخدام عند الطوارئ. علاوةً على ذلك حرَّكا المركبة التي ستنقل البشر والمعدات من نيوتن إلى داخل راما. لقد صمَّم تلك المركبةَ المهندسون في كوكب الأرض بغرض الانزلاق على طول الأخاديد المتوازية التي حفرها سكان راما في جدران الأنفاق الخارجية من قديم الأزل.

وبعد أن نال ياماناكا فترة راحة قصيرة لتناول الغداء انضم إلى ويكفيلد وتابوري، وأنشأ الثلاثة محطة الاتصالات ألفا المخطط لها في النهاية الداخلية للنفق. وقد صُمِّمت نماذج أجهزة الهوائي المنظمة بعناية كي يكون من الممكن إجراء اتصال متبادل بين رواد الفضاء في أي مكان على السلالم أو في النصف الشمالي من السهل المركزي، إذا كانت سفينة راما الفضائية الثانية مطابقة لسفينة راما الفضائية الأولى. وتقتضي خطة الاتصالات الرئيسية إنشاء محطة رئيسية أخرى، ستُسمى «بيتا»، بالقرب من البحر الأسطواني؛ وستقدم المحطتان روابط اتصال قوية في كل مكان في نصف الأسطوانة الشمالي، بل أيضًا تمتد حتى جزيرة نيويورك.

اتخذ براون وتاكاجيشي مكانيهما في مركز التحكم فور التأكد من تشغيل المحطة ألفا. وبدأ العد التنازلي لعملية نشر طائرات الاستطلاع الداخلية. وعندما أنهى تاكاجيشي إجراء اختبارات ما قبل التحليق على طائرته كان من الواضح عليه أنه يشعر بالتوتر والإثارة في آنٍ واحد. أما براون فقد بدت عليه علامات الاسترخاء، بل اللامبالاة، عندما أنهى استعداداته النهائية. وكانت فرانشيسكا جالسةً أمام الشاشات المتعددة، وجاهزة لاختيار أفضل الصور لتبثَّها إلى الأرض بثًّا فوريًّا.

وقد شرح الجنرال بورزوف بنفسه الأحداث الرئيسية التي ستُنفَّذ بالتسلسل. وصمت قليلًا ليأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يصدر أمر تشغيل طائرتَي الاستطلاع. ثم حلقت الطائرتان في الفضاء المظلم لراما. وبعد مرور ثوانٍ غمر الضوء الشاشة الرئيسية في مركز التحكم، التي بُثَّت صورتها مباشرةً من الطائرة التي يقودها براون، لدى إضاءة أول ضوء. وعندما أصبحت هناك إمكانية للرؤية من خلال الضوء ظهر شكل أول صورة عريضة الزاوية. كان من المخطط دائمًا أن تكون الصورة الأولى مؤلفة من نصف الأسطوانة الشمالي، الذي يغطي جميع المنطقة الممتدة من الطرف المجوف حيث دخلوا إلى البحر الأسطواني في منتصف العالم الاصطناعي. كانت الصورة الواضحة التي تجمدت في النهاية على الشاشة قوية للغاية. فقد كان الأمر يختلف عند القراءة عن راما وإجراء تدريبات محاكاة داخل نموذج مشابه لها، عن الرُّسو على سفينة الفضاء العملاقة بالقرب من مدار عطارد، وعن أن تلقي النظرة الأولى داخل …

وقد حد من هول المشهد بدرجة قليلة كونُه مألوفًا. في نهاية التجويف الذي يأخذ شكل فوهة البركان، بداية من الأنفاق، مجموعة من الأراضي شبه المستوية والمنحدرات الممتدة حتى الجسم الرئيسي للأسطوانة الدوَّارة. قسمت ثلاثة سلالم عريضة هذا التجويف

إلى ثلاثة أقسام، لتشبه بذلك قضبان سكك حديدية عريضة، يمتد كلٌّ منها ليصبح سلالم هائلة، يتألف كلٌّ منها مما يزيد عن ثلاثين ألف درجة. إن مجموعة السلالم تشبه ثلاثة أضلاع من مظلة وممتدة على مسافات متساوية، وتوفر طريقًا للصعود (أو النزول) من القاع المسطح للتجويف إلى السهل المركزي الشاسع الملتف حول جدران الأسطوانة الدوارة.

يمتد النصف الشمالي من السهل المركزي ليملأ أغلب الصورة الظاهرة على الشاشة. وانقسمت المنطقة المترامية الأطراف إلى حقولٍ مستطيلة الشكل ذات أبعاد غير منتظمة ما عدا المنطقة المحيطة بـ «المدن» مباشرة. وقد تمكَّن أفراد الطاقم من التعرف على المدن الثلاثة الظاهرة على الصورة ذات الزاوية العريضة — التي تحتوي على مجموعات من الهياكل الطويلة والرفيعة، وتشبه المباني التي يشيدها الإنسان، وبعضها مرتبط ببعض بما يشبه الطرق الرئيسية التي تمتد على طول حدود الحقول — على الفور بأنها فرنسا وروما ولندن كما أطلق عليها مستكشفو راما الأوائل. وكان من المدهش أيضًا، في الصورة، الأخاديد أو الأودية الطويلة والمستقيمة الموجودة في السهل المركزي. وكانت تلك الخنادق الثلاثة الطولية، التي تمتد على طول عشرة كيلومترات وعرض مائة متر، ممتدة على مسافات متساوية حول منحنى راما. وفي خلال المواجهة الأولى مع سكان راما كانت تلك الأودية مصدر الضوء الذي ساد «العالم المصغر» بعد فترة قصيرة من ذوبان البحر الأسطواني.

كان البحر الغريب، وهو مجرًى مائي يجري بأكمله حول الأسطوانة الهائلة، يقع على الحد البعيد للصورة. ولا يزال متجمدًا، كما كان متوقعًا، وفي مركزه الجزيرة الغامضة التي تحوي ناطحات سحاب شاهقة أُطلق عليها نيويورك منذ اكتشافها الأول. وكانت ناطحات السحاب تلك تمتد لتتخطى نهاية الصورة، حيث تجذبك البروج المشيدة لزيارتها.

ظل جميع أفراد الطاقم يحدقون في الصورة في صمت لما يقرب من الدقيقة. قطع دكتور ديفيد براون الصمت مستهزئًا. وقال بنبرة متكبرة: «حسنًا، راما!» وأردف يقول بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه الجميع: «هل ترون جميعكم أيها المشككون؟ إنها مثل السفينة راما ١ بالضبط.» أدارت فرانشيسكا كاميرا الفيديو لتسجل لحظة تهلل وجه براون. وكان أغلب أفراد الطاقم لا يزالون صامتين ومفتونين بالتفاصيل الظاهرة على الشاشة.

وفي غضون ذلك كانت طائرة الاستطلاع الخاصة بتاكاجيشي تبث صورًا ذات زاوية ضيقة للمنطقة الواقعة أسفل النفق مباشرة. كانت تلك الصور تظهر على أصغر الشاشات حجمًا المنتشرة حول مركز التحكم. وستستخدم تلك الصورة في إعادة التحقق

من تصميمات البنية التحتية للاتصالات ووسائل النقل التي ستؤسس داخل راما. كانت تلك هي «المَهمَّة» الفعلية المقرر القيام بها في هذه المرحلة من المهمة؛ مقارنة آلاف الصور التي ستلتقطها طائرتا الاستطلاع بصور الفُسيفساء من راما. ومع أن أغلب المقارنات كان يمكن إجراؤها بصورة رقمية (ومن ثَم على نحو آلي)، فسيكون هناك دائمًا اختلافات تحتاج إلى التدخل البشري. فحتى إن اتضح أن سفينتَي الفضاء راما متطابقتان، فاختلاف مستوى الضوء في وقت التقاط الصور يتسبب في حدوث مقارنة غير دقيقة.

وبعد مرور ساعتين عادت آخر طائرة استطلاع إلى المحطة وتم إعداد ملخص أولي للمسح الفوتوغرافي. لم تكن هناك اختلافات تركيبية جوهرية بين راما ٢ وراما ١ على مقياس دقة يصل إلى مائة متر. أما المنطقة البارزة الوحيدة التي تعذر إبراز أوجه المقارنة عند تلك الدقة فكانت منطقة البحر الأسطواني ذاته، وكان من المعروف أن انعكاسية الجليد هي ظاهرة يصعب التعامل معها باستخدام خوارزمية مقارنة رقمية بسيطة. لقد كان يومًا طويلًا ومشوقًا. أعلن بورزوف أن مهام الطاقم في الرحلة الأولى سوف تُعلن في غضون ساعة، وأن «عشاءً خاصًّا» سيُقام في مركز التحكم بعد ساعتين.

«لا يمكنك فعل هذا.» هكذا صاح ديفيد براون الغاضب، مندفعًا إلى مكتب القائد دون أن يطرق الباب، ومُلوحًا بنسخة مطبوعة من مهام الرحلة الأولى.

أجابه الجنرال بورزوف: «ما الذي تتحدث عنه؟» كان الجنرال منزعجًا من الطريقة الفظة التي دخل بها براون مكتبه.

أكمل براون حديثه بصوت مرتفع: «لا بد أن هناك خطأً ما. هل حقًّا تتوقع مني أن أجلس هنا في السفينة نيوتن خلال الرحلة الأولى؟» لكن عندما لم يجد العالم الأمريكي استجابة من الجنرال بورزوف بدأ في تغيير أسلوبه. فقال: «لتعلم أنني لن أقبل بهذا. وإدارة وكالة الفضاء العالمية لن تقبله أيضًا.»

نهض بورزوف من وراء مكتبه. وقال بهدوء: «أغلق الباب يا دكتور براون.» صفع براون الباب المنزلق. فأردف الجنرال: «والآن أصغِ إليَّ دقيقة. أنا لا آبه بالأشخاص الذين تعرفهم. فأنا قائد هذه المهمة. وإن استمررت في التصرف بتلك الطريقة المتعجرفة فسوف أحرص على ألا تطأ قدمك أعتاب راما مطلقًا.»

غضَّ براون صوته. وقال بعداء واضح: «لكنني أريد تفسيرًا لما يحدث. فأنا كبير العلماء في هذه المهمة. وأنا أيضًا المتحدث الأول لمشروع نيوتن أمام وسائل الإعلام. فكيف ستفسر تركي على متن السفينة نيوتن وترسل بتسعة رواد آخرين إلى راما؟»

فأجابه بورزوف، مستمتعًا بسلطته على الأمريكي المتكبر: «ليس عليَّ تبرير أفعالي.» ثم مال للأمام. وأردف قائلًا: «لكن لمجرد العلم، ولأنني كنت أتوقع أن يصدر عنك ذلك الغضب الصبياني، سأخبرك بسبب استبعادك من الرحلة الأولى. هناك غرضان أساسيان من زيارتنا الأولى؛ أولًا: تأسيس بنية تحتية للاتصالات والنقل، ثانيًا: مسح مفصل للجزء الداخلي للسفينة راما، للتأكد من أن هذه المركبة مطابقة تمامًا للسفينة الأولى ...»

قاطعه براون: «لقد تأكدنا من ذلك عن طريق طائرات الاستطلاع.»

رد عليه بورزوف: «لكن تاكاجيشي يرى غير ذلك. ويقول إن ...»

«اللعنة يا جنرال، لن يقتنع تاكاجيشي حتى يتأكد أن كل سنتيمتر مربع من راما يطابق المركبة الأولى. لقد رأيت تقرير طائرات الاستطلاع بنفسك. هل يخالجك أي شك ...»

توقف براون عن الحديث في منتصف الجملة. كان الجنرال بورزوف ينقر بأصابعه على المكتب محدقًا في دكتور براون بنظرة باردة. قال بورزوف في النهاية: «هل ستدعني أنهي حديثي الآن؟» انتظر عدة ثوانٍ أخرى، ثم أكمل: «أيًّا كان ما تعتقد، فدكتور تاكاجيشي يُعد أكثر علماء العالم خبرةً بالأجزاء الداخلية لراما. ولا يمكنك الزعم، ولو لدقيقة، أن معرفتك بتفاصيل المركبة تقترب من معرفته. وأحتاج إلى رواد الفضاء الخمسة جميعًا لتأسيس البنية التحتية. ويجب أن يذهب معهم الصحفيان، ليس فقط لأنه توجد مهمتان منفصلتان، بل لأن انتباه العالم مُوجَّه نحونا في هذا الوقت. وأخيرًا أعتقد أنه من المهم لكي أستطيع قيادة هذه المهمة في المستقبل أن أذهب إلى داخل السفينة بنفسي ولو مرة واحدة على الأقل، وأرى أن أقوم بتلك الزيارة الآن. ونظرًا لأن النظام يقضي صراحةً ببقاء ثلاثة من أعضاء الطاقم خارج راما خلال الغارات الأولى، فليس من الصعب التوصل إلى ...»

قاطعه ديفيد براون بخبث، قائلًا: «لن أنخدع بكلامك ولو لحظة واحدة. فأنا أعلم حقيقة الأمر. لقد اختلقت عذرًا يبدو منطقيًّا لتخفي السبب الحقيقي لاستبعادي من فريق الرحلة الأولى. أنت تغار مني يا بورزوف. فأنت لا تستطيع تحمُّل حقيقة أن معظم الناس يعتبرونني القائد الفعلي لهذه المهمة.»

أخذ القائد يحدق في العالم ما يزيد على خمس عشرة ثانية دون أن يتفوه بكلمة. وأخيرًا قال: «هل تعلم يا براون أنني أشعر بالأسف لك. فأنت موهوب بشدة، لكن إيمانك بموهبتك تلك يفوق حجم موهبتك الفعلية. لو لم تكن ...» والآن جاء دور بورزوف ليوقف نفسه عن الحديث في منتصف الجملة. فحوَّل نظره بعيدًا. ثم أردف: «وعلى كل حال، بما

أنني أعرف أنك ستعود إلى غرفتك وتسارع بالشكوى إلى وكالة الفضاء العالمية، ينبغي على الأرجح أن أخبرك أن تقرير اللياقة الذي قدمته الطبيبة المسئولة يوصي بعدم إشراكك في أيٍّ من واجبات المهمة مع ويلسون؛ نظرًا للعداء الشخصي الظاهر بينكما.»

نظر براون شزرًا. وقال: «هل تقصد أن نيكول دي جاردان رفعت مذكرة رسمية بالفعل تذكرني فيها وويلسون بالاسم؟»

فأومأ بورزوف بالإيجاب.

فغمغم براون: «السافلة.»

فقال الجنرال بورزوف، مبتسمًا لغريمه: «دائمًا ما يقع اللوم على شخص آخر، أليس كذلك يا دكتور براون؟»

استدار ديفيد براون، وخرج من المكتب يمشي الخُيلاء.

أمر الجنرال بورزوف بفتح عدد من زجاجات النبيذ الثمينة من أجل المأدبة. وكان القائد في حالة مزاجية ممتازة. فقد كان اقتراح فرانشيسكا جيدًا حقًّا. كان هناك بالفعل شعور قوي بالزمالة الحقيقية بين الرواد وهم يحضرون الطاولات الصغيرة معًا في مركز التحكم ويثبتونها في الأرضية.

لم يحضر دكتور براون المأدبة. ومكث في غرفته في حين استمتع سائر أفراد الطاقم الأحد عشر بتناول الدجاج والأرز الهندي البري. صرحت فرانشيسكا بسذاجة أن براون «مريض»، لكن عندما تطوع جانوس مازحًا للذهاب للاطمئنان على صحته، أسرعت فرانشيسكا وأضافت أن الدكتور براون يرغب في أن يُترَك بمفرده. كان أمام جانوس وريتشارد ويكفيلد عدد كبير من كئوس الخمر، وكانا يمزحان مع فرانشيسكا عند أحد طرفَي الطاولة، في حين كان ويلسون والجنرال أوتول مشتركين منخرطين في مناقشة حامية حول موسم لعبة البيسبول القادم عند طرف الطاولة الآخر. كانت نيكول تجلس بين الجنرال بورزوف والفريق البحري هيلمان، وأخذت تستمع إلى ذكرياتهما التي تعود إلى أنشطة صنع السلام في الأيام الأولى لمرحلة ما بعد «الفوضى».

وعند الانتهاء من تناول الطعام استأذنت فرانشيسكا للرحيل. واختفت هي والدكتور تاكاجيشي لبضع دقائق. وعندما عادا طلبت فرانشيسكا من الرواد أن يديروا مقاعدهم لمواجهة الشاشة الضخمة. انطفأت الأنوار، وعرضت هي والدكتور تاكاجيشي مشهدًا خارجيًّا لراما على الشاشة. لكن ما ظهر على الشاشة لم يكن الأسطوانة ذات اللون

الرمادي القاتم التي رآها الجميع من قبل. بل كانت هذه المرة ملونة بطريقة بارعة، باستخدام النظم الفرعية لمعالجة الصور، وأصبحت الآن أسطوانة سوداء تتخللها شرائط صفراء ذهبية. وكانت مؤخرة السفينة تبدو كالوجه تقريبًا. وساد صمت مؤقت في الغرفة قبل أن تبدأ فرانشيسكا في الإنشاد. تقول:

النمر، النمر يركض كالنار الملتهبة
في غابات الليل،
أي أيد أو أعين أبدية
يمكنها أن تبدع تناسقك المهيب؟

اقشعرَّ بدن نيكول وهي تستمتع إلى فرانشيسكا تبدأ في المقطع الشعري التالي.

في أي أعماق سحيقة أو سموات بعيدة
التهبت نيران عينيك ...

أخذت نيكول تفكر: «هذا هو السؤال الحقيقي في النهاية. من الذي صنع هذه السفينة الفضائية العملاقة؟ فهذا هو أهم سؤال، فيما يتعلق بمصيرنا، من السؤال عن سبب صنعها.»

ما المطرقة؟ وما السلاسل الفولاذية؟
في أي نار ملتهبة تَكوَّن عقلك؟
ما السندان؟ أي قبضة مفزعة
تجرأت على الإمساك بشيطانه المميت؟

وعبر الطاولة كان الجنرال أوتول مفتونًا هو الآخر بإنشاد فرانشيسكا. وكان عقله يقاوم مرة أخرى الأسئلة الجوهرية نفسها التي كانت تزعجه منذ أن تقدم للاشتراك في المهمة في بادئ الأمر، فكان يتساءل: «إلهي، كيف يتكيف سكان راما أولئك في كونك؟ هل خلقتهم أولًا قبل أن تخلقنا؟ هل هم أبناء عمومتنا بصورة أو بأخرى؟ ولماذا أرسلتهم في هذا الوقت؟»

عندما أرسلت النجوم أشعتها،
وروت السماء بدموعها،

هل ابتسم عندما رأى صنع يديه؟
هل من خلق الحمل الوديع هو خالقك؟

عندما أنهت فرانشيسكا القصيدة الصغيرة سادت فترة قصيرة من الصمت، ثم دوى صوت تصفيق تلقائي. وذكرت بتهذيب أن الدكتور تاكاجيشي هو الذي قدم جميع معلومات المعالجة التصويرية، وانحنى الرائد الياباني المحبوب في خجل. ثم نهض جانوس تابوري واقفًا على مقعده، وقال: «شيج وفرانشيسكا، أعتقد أنني أتحدث بلسان الجميع عندما أهنئكما على هذا الأداء المميز والمثير للتفكير. لقد جعلني أوشك، لكن ليس تمامًا، أن أشعر بالجدية إزاء ما سنقوم به غدًا.»

قال الجنرال بورزوف بعد أن نهض على رأس الطاولة ماسكًا زجاجة الفودكا الأوكرانية التي فتحها لتوه، وتناول منها بالفعل رشفتين قويتين: «بالمناسبة، حان الآن وقت إحياء تقليد روسي قديم؛ أن نشرب نخبًا. لم أحضر إلا زجاجتين فقط من هذا الكنز الوطني، وأعتزم مشاركتكم إياهما، رفقائي وزملائي في هذه الأمسية الخاصة جدًّا.»

وضع الزجاجتين في يد جنرال أوتول، واستخدم الأمريكي بمهارةٍ آلة توزيع الشراب لوضع الفودكا في كئوس صغيرة مغطاة ثم تمريرها عبر الطاولة. أكمل القائد: «وكما تعلم إيرينا تورجينيف، هناك دائمًا دودة صغيرة في قاع كل زجاجة فودكا أوكرانية. وهناك أسطورة تقول إن من يأكل هذه الدودة سيُمنح قوًى خاصة لمدة أربع وعشرين ساعة. وضع الفريق البحري هيلمان علامة أسفل كأسين باستخدام الأشعة تحت الحمراء. وسيسمح للشخصين اللذين يشربان من الكأسين اللذين يحملان العلامة أن يتناول كلٌّ منهما إحدى الدودتين الموجودتين في زجاجة الفودكا.»

وبعد لحظة، مرَّر جانوس جهاز الكشف بالأشعة تحت الحمراء إلى نيكول وعبَّر عن اشمئزازه بقول: «يا للقرف!». ذلك بعد أن تأكد أولًا من أن كأسه لا تحتوي على أي علامة. وأردف: «أنا سعيد بالخسارة في هذه المنافسة.»

كانت كأس نيكول تحمل العلامة بالجزء السفلي. فكانت أحد المحظوظين اللذين سيتمكنان من تناول دودة أوكرانية للتحلية. فوجدت نفسها تتساءل: «هل يجب أن أقدم على هذا؟» ثم أجابت نفسَها بالإيجاب لرؤيتها النظرة الجدية التي ارتسمت على وجه قائدها. فقالت في نفسها: «حسنًا، على الأرجح لن تقتلني. وعلى الأرجح سيكون الكحول قد أبطل ضرر أي حيوان طفيلي.»

وقد كان الكأس الثاني الذي يحمل العلامة بالجزء السفلي من نصيب الجنرال بورزوف نفسه. ابتسم الجنرال ووضع إحدى الدودتين الضئيلتين في كأسه والأخرى في كأس نيكول، ورفع كأسه في اتجاه سقف السفينة.

وقال: «لنشرب جميعًا نخب نجاح المَهمة. فالأيام والأسابيع القليلة القادمة ستكون أعظم مغامرة في حياة كلٍّ منا. ففي الحقيقة، نحن الاثنا عشر نُعد سفراء من البشر إلى ثقافة غريبة. فلنعقد العزم على أن يبذل كلٌّ منا ما في وسعه لتمثيل جنسنا البشري على النحو اللائق.»

نزع الجنرال الغطاء عن كأسه، مع حرصه على ألا يتسبب في اهتزازه، ثم شرب الكأس كله في رشفة واحدة. وقد ابتلع الدودة كاملةً. كما تناولت نيكول الدودة بسرعة، قائلةً في نفسها إن الشيء الوحيد الذي تناولته وكان مذاقه أسوأ من الدودة هو الدرنة الكريهة التي تناولتها خلال البورو في ساحل العاج.

وبعد تناول المزيد من الأنخاب بدأت أنوار الغرفة تخفت. فأعلن الجنرال بورزوف بإيماءة عظيمة: «والآن، إليكم من ستراتفورد مباشرة، يفخر طاقم نيوتن بأن يقدم إليكم ريتشارد ويكفيلد ومخلوقاته الآلية النابغة.» ساد الظلام الغرفة ما عدا مترًا مربعًا إلى شمال الطاولة حيث كان الضوء مسلطًا عليه من أعلى. وكان وسط الضوء نموذجًا داخليًّا لقلعة عتيقة. وكانت إنسانة آلية، يبلغ طولها عشرين سنتيمترًا وترتدي معطفًا، تتجول داخل إحدى الغرف. وفي بداية المشهد كانت ممسكة بخطاب تقرؤه. وبعد خطوات معدودة أنزلت يديها إلى جانبها وبدأت في الحديث.

أنت سيد جلامس، وسيد كودور، وستكون ما وُعدت به.
غير أن طبيعة شخصيتك تقلقني.
فأنت أكثر رحمة وإنسانية مما ينبغي،
مما سيحول بينك وبين اختيار
أقصر الطرق إلى نيل مرامك …

قال جانوس مبتسمًا إلى نيكول: «أنا أعرف هذه السيدة. لقد قابلتها في مكان ما من قبل.»

فأجابت نيكول وهي مفتونة بدقة حركات السيدة ماكبث: «صه!» وأخذت تفكر: «إن ويكفيلد هذا عبقري. كيف يمكنه أن يصمم مثل هذه التفاصيل الفائقة الدقة ويحولها إلى هذه الأشياء الضئيلة؟» وقد ذُهلت نيكول بكمِّ التعبيرات التي ارتسمت على وجه الإنسانة الآلية.

وعندما بدأت نيكول تركز أكثر بدأت خشبة المسرح الصغيرة تسبح في خيالها. وقد نسيت للحظاتٍ أنها تشاهد مخلوقات آلية تؤدي مسرحية مصغَّرة. جاء رسول وأخبر السيدة ماكبث أن زوجها أوشك على الوصول، وأن الملك دانكان سيقضي الليلة في قلعتهما. شاهدت نيكول وجه السيدة ماكبث يتقد بتطلع طموح فور رحيل الرسول:

تعالَي إذَن أيتها الأرواح الراعية للفكر الإجرامي،
وجرِّديني هنا من أنوثتي،
واملئيني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي
بأبشع ضروب القسوة،
وأحيلي ما في عروقي إلى دم غليظ …

فكرت نيكول، وهي تطرف بعينيها لتتأكد أنهم لا يخدعونها: «يا إلهي، إنها تتغير!» وبالفعل كانت تتغير. فما إن نطقت بعبارة «جرِّديني هنا من أنوثتي» حتى بدأ شكلها يتغير. فتلاشى شكل النهد البارز في الرداء المعدني، واختفت استدارة الفخذ، وحتى نعومة الوجه اختفت. وأكمل دور السيدة ماكبث إنسانٌ آلي خنثى.

كانت نيكول مفتونة وتسبح في خيالٍ نتج عن خيالها الجامح وتأثير الكحول السريع. وكانت ملامح الوجه الجديد للإنسان الآلي تذكرها بصورة مبهَمة بشخص تعرفه. سمعت نيكول بلبلةً على يمينها، فاستدارت لتجد ريجي ويلسون يتحدث إلى فرانشيسكا بلهفة. أخذت نيكول تشطر نظرها بين فرانشيسكا والسيدة ماكبث، وقالت في نفسها: «وجدتها، إن الوجه الجديد للسيدة ماكبث يشبه فرانشيسكا.»

اجتاحت نيكول موجة من الخوف، وهو إحساس داخلي مُنذِر بوقوع مأساة؛ مما أدى إلى شعورها بالفزع. كان عقلها يحدثها: «إن شيئًا مفزعًا سيحدث.» تنفَّست بعمقٍ عدة مرات وحاولت تهدئة نفسها، لكن الإحساس الغريب الذي راودها لم يتركها. وعلى خشبة المسرح الصغيرة كانت المضيفة الكريمة ترحب بضيفها لتلك الليلة، الملك دانكان. وعلى يسار نيكول كانت فرانشيسكا تعرض على الجنرال بورزوف آخر جرعات النبيذ. فلم تستطِع نيكول أن تخفي رعبها.

فسألها جانوس: «ما الخَطب، يا نيكول؟» وكان يبدو عليها القلق.

فأجابته: «لا شيء» واستجمعت كل قُواها ونهضت واقفةً على قدميها. «لا بد أنني أكلت شيئًا ما أتعبني. سأذهب إلى غرفتي.»

فقال جانوس مازحًا: «لكنك ستُفوتين الفيلم الذي سيُعرَض بعد تناول العشاء.» افتعلت نيكول ابتسامة على وجهها. وساعدها جانوس على الوقوف على قدميها. استمعت نيكول إلى السيدة ماكبث وهي تعنف زوجها لجبنه، فانتابتها موجة أخرى من الخوف الذي ينذر بوقوع خَطب ما. فانتظرت حتى تراجعت موجة الارتفاع المفاجئ في نسبة الأدرينالين، ثم انسحبت بهدوء من المجموعة. وسارت ببطء إلى غرفتها.

الفصل السابع عشر

موت جندي

راود نيكول حلم، كانت فيه في العاشرة من عمرها، وكانت تلعب في الغابات الموجودة خلف منزلها في ضاحية شيلي مازاران بباريس. وانتابها شعور مفاجئ بأن والدتها تحتضر. ففزعت الطفلة الصغيرة. وهُرعت إلى المنزل لتخبر والدها. لكن هرة صغيرة مزمجرة اعترضت طريقها. فتوقفت نيكول. ثم سمعت صرخة. فتركت الطريق الممهد وسلكت طريق الأشجار. فخدشت الأغصان جلدها. وتبعتها الهرة. ثم دوَّت صرخة أخرى. وعندما استيقظت، كان جانوس تابوري يقف بجوارها مفزوعًا. قال جانوس: «هناك خَطبٌ ما بالجنرال بورزوف. فهو يعاني ألمًا مُبرحًا.»

قفزت نيكول من فراشها، وارتدت معطفها، وجذبت حقيبتها الطبية المحمولة، وتبعت جانوس إلى الممر، قال لها وهما يُهرعان إلى الردهة: «يبدو أنه يعاني التهاب الزائدة الدودية. لكنني لست متأكدًا.»

كانت إيرينا تورجينيف جاثيةً على ركبتيها بجانب القائد وممسكة بيده. كان الجنرال مستلقيًا على أريكة، ووجهه أبيض والعرق ينساب على حاجبه. ابتسم الجنرال بصعوبة، وقال: «ها قد أتت الدكتورة نيكول.» حاول بورزوف الجلوس معتدلًا لكن الألم اشتد به، فعاد يستلقي على ظهره. قال بهدوء: «نيكول، أشعر بألم شديد. لم أشعر بمثله طوال حياتي، حتى عندما أُصبت في الجيش.»

فسألته: «متى بدأ الألم؟» كانت نيكول قد أخرجت جهاز الفحص وشاشة الإحصاء البيولوجي لفحص جميع إحصاءاته الحيوية. وفي غضون ذلك تحركت فرانشيسكا حاملةً كاميرا الفيديو إلى اليمين خلف كتف نيكول لتسجل تشخيص الدكتورة للمرض. فأشارت نيكول إليها بحدة لتبتعد.

قال الجنرال بورزوف بصعوبة بالغة: «ربما منذ دقيقتين أو ثلاث. كنت جالسًا هنا في مقعدي أشاهد الفيلم وأضحك من كل قلبي كما أذكر، عندما شعرت بألم شديد وحاد في الجانب الأيمن السفلي. شعرت كما لو أن هناك شيئًا يحترق بداخلي.»

برمجت نيكول جهاز الفحص على البحث في البيانات المفصلة التي سجَّلها مسبار هاكاماتسو خلال الدقائق الثلاثة الأخيرة داخل جسم بورزوف. فحددت بداية الألم بسهولة من خلال معدل نبضات القلب والإفرازات الهرمونية. ثم طلبت تفريغًا كاملًا لبيانات المدة المذكورة من جميع القنوات. فقالت لزميلها: «جانوس، اذهب إلى غرفة التجهيزات وأحضر جهاز التشخيص المحمول.» وناولته البطاقة المشفرة لباب الغرفة.

قالت نيكول للجنرال: «إنك تعاني حمى خفيفة؛ مما يعني أن جسدك يقاوم عدوى مرض ما. تؤكد جميع البيانات الداخلية أنك تعاني ألمًا مبرحًا.» عاد رائد الفضاء تابوري ومعه أدوات إلكترونية صغيرة تشبه الصندوق. أخرجت نيكول مكعب بيانات صغيرًا من جهاز الفحص وأدخلته في جهاز التشخيص. وبعدما يقرب من ثلاثين ثانية أومضت الشاشة الصغيرة، وظهرت رسالة تقول: «٩٤٪ احتمال الإصابة بالتهاب الزائدة.» ضغطت نيكول على زر، فأظهرت الشاشة التشخيصات الأخرى المحتملة، مثل الفتق والتمزق العضلي الداخلي والتفاعل الدوائي. ووفقًا لجهاز التشخيص، لم تتجاوز نسبة احتمال أيٍّ من هذه الأمراض نسبة الاثنين بالمائة.

كان عقل نيكول يعمل بسرعة في حين جفل الجنرال بورزوف مرة أخرى من الألم، وحدَّثت نفسها: «لديَّ اختياران في هذه اللحظة. يمكنني أن أرسل جميع البيانات إلى كوكب الأرض لتخضع لتشخيص كامل، كما تقتضي الإجراءات ...» فنظرت إلى ساعتها وحسبت مرتين المسافة الضوئية للرحلة ذهابًا وإيابًا بالإضافة إلى الحد الأدنى لمدة مؤتمر طبي بعد اكتمال الفحص الإلكتروني. وأردفت في سرها: «وحينها يكون الأوان قد فات.»

سألها الجنرال: «ماذا يُظهر الجهاز، أيتها الطبيبة؟» وكانت عيناه تستحثها لتُنهيَ الألم بأسرع ما يمكن.

فأجابته نيكول: «على الأرجح أنت مصاب بالتهاب الزائدة.»

أجاب الجنرال بورزوف: «تبًّا!» ونظر حوله إلى الجميع. كانوا جميعًا هناك ما عدا ويلسون وتاكاجيشي اللذين لم يشاهدا معه الفيلم. وأردف: «لكنني لن أعطل تقدم المشروع. بل سنمضي قدمًا في الغارتين الأولى والثانية حتى أستردَّ صحتي.» وهزَّته وخزةٌ أخرى من الألم وتجهَّم وجهه.

قالت نيكول: «مهلًا! لم يتأكد الأمر بعد. نحتاج أولًا إلى الحصول على مزيد من البيانات.» فأعادت عملية تفريغ البيانات، لكنها في هذه المرة استخدمت الدقيقتين الإضافيتين اللتين سجلتا منذ أن وصلت إلى الردهة. وفي هذه المرة أظهر جهاز التشخيص رسالة «٩٢٪ احتمال الإصابة بالتهاب الزائدة.» وكانت نيكول على وشك فحص التشخيصات البديلة عندما شعرت بيد القائد القوية على ذراعها.

وقال لها: «إذا ما قمنا بهذا بسرعة قبل أن تزداد كمية السم في أجهزتي الحيوية، فستكون هذه عملية جراحية بسيطة للجراح الآلي، أليس كذلك؟»

فأومأت نيكول بالإيجاب.

«وإذا ما أهدرنا الوقت في انتظار تأكيد التشخيص من الأرض — آه! — فربما يعاني جسدي حينها أمرًا أشد خطورة؟»

فكرت نيكول في بادئ الأمر: «إنه يقرأ ما يدور في ذهني.» لكنها أدركت بعد ذلك أنه فقط يظهر معرفته الشاملة بلوائح نيوتن.

فسألته نيكول مبتسمة، بالرغم من تألم بوررزوف الواضح: «هل يحاول المريض أن يقدم اقتراحًا للطبيب؟»

فأجاب القائد وفي عينه لمعانٌ طفيف: «لن أكون متغطرسًا لهذا الحد.»

ألقت نيكول بنظرة أخرى على الشاشة التي كانت لا تزال تومض «٩٢٪ احتمال الإصابة بالتهاب الزائدة.» فقالت لجانوس تابوري: «هل لديك ما تضيفه؟»

فأجابها المجري الضئيل الجسم: «لم أرَ التهاب الزائدة من قبل إلا عندما كنت طالبًا في بودابست. وكانت الأعراض مطابقة تمامًا لهذه الأعراض.»

قالت نيكول: «حسنًا. اذهب وأعد روسور للعملية. أيها الفريق البحري هيلمان، هلا ساعدت الجنرال بوررزوف مع الرائد ياماناكا للوصول إلى غرفة العناية الصحية؟» ثم استدارت إلى فرانشيسكا: «أعلم أن هذا الحدث يعد خبرًا مهمًّا. وسأسمح لك بدخول غرفة العمليات بثلاثة شروط. ألا وهي: أن تعقمي يديك وذراعيك مثل سائر طاقم العمليات. وتقفي صامتة بجانب الجدار حاملة الكاميرا. وتطيعي أي أمر آمرك به.»

فأومأت فرانشيسكا: «حسنًا جدًّا، شكرًا لك.»

ظلت إيرينا تورجينيف والجنرال أوتول في الردهة بعد أن غادر بوررزوف مع هيلمان وياماناكا. قال الأمريكي بطريقته الصادقة المعهودة: «أنا على يقين من أنني أتحدث بلسان كلٍّ منا عندما أسألك عن وجود أي وسيلة يمكننا المساعدة بها.»

«سيساعدني جانوس في أثناء إجراء روسور للعملية. لكن يمكن أن يكون أيٌّ منكما موجودًا ليقدم العون في حالة الطوارئ.»

قال أوتول: «أود القيام بذلك. فلديَّ خبرة في أعمال المستشفيات اكتسبتها من خلال العمل الخيري.»

فأجابت نيكول: «حسنًا، والآن تعالَ معي كي نخضع للتنظيف.»

لم يكن روسور — الجراح الآلي المحمول الذي جُلب مع مهمة نيوتن من أجل هذا النوع من المواقف — مصمَّمًا ليكون على مستوى غُرف العمليات الكبيرة المستقلة الموجودة في المستشفيات المتطورة على كوكب الأرض من حيث الخبرة الطبية. بيد أنه معجزة تقنية بحق. فيمكن وضعه في حقيبة صغيرة ولم يكن وزنه يتعدى أربعة كيلوجرامات. ويحتاج إلى قدر قليل من الطاقة. ويمكن استخدامه فيما يزيد على مائة وضع.

أخرج جانوس روسور من الحقيبة. ولم يبدُ الجراح الإلكتروني كبير الحجم وهو في وضع التعبئة في الحقيبة. وكانت مفصلاته الرفيعة وملحقاته مرتبة بعناية بحيث يسهل تخزينه. وبعد أن اطلع جانوس على دليل استخدام روسور التقط صندوق التحكم المركزي للجراح الآلي وألصقه، كما ذُكر في الدليل، في جانب الفراش الموجود داخل غرفة العناية الصحية، حيث كان الجنرال بورزوف مستلقيًا بالفعل. وقد خف الألم بدرجة ضئيلة. وكان الجنرال المتألم يحث الجميع على الإسراع.

أدخل جانوس كلمة السر التعريفية الخاصة بالعملية. فنشر روسور آليًّا جميع أطرافه، بما في ذلك المشرط أو اليد المذهلة ذات الأصابع الأربعة، وضبطها في وضع إزالة الزائدة. ثم دخلت نيكول الغرفة، مرتديةً قفازات في يديها ومعطف الجراح الأبيض.

قالت: «هل انتهيت من فحص البرمجة؟»

فأومأ جانوس بالإيجاب.

قالت له: «سأكمل جميع فحوصات ما قبل العملية، واذهب أنت للتعقيم.» فأشارت إلى فرانشيسكا والجنرال أوتول اللذين كانا يقفان خارج الباب مباشرة، للدخول إلى الغرفة الصغيرة. قالت لبورزوف: «هل تشعر بأي تحسن؟»

فقال متذمرًا: «ليس كثيرًا.»

«لقد كان ذلك نتيجة لمسكن بسيط أعطيته إياك. أما روسور فسيعطيك مخدرًا كليًّا كأول خطوة في العملية.» أنعشت نيكول ذاكرتها بأقصى درجة عندما كانت في الغرفة ترتدي ملابسها. وكانت تعرف هذه العملية بالكامل، فقد كانت ضمن الإجراءات الجراحية

التي قاموا بها أثناء عمليات المحاكاة التجريبية. فأدخلت ملف البيانات الشخصية لبورزوف إلى روسور، وأوصلت الخطوط الإلكترونية التي سترسل معلومات فحص المريض إلى روسور أثناء عملية استئصال الزائدة الدودية، وتحققت من أن جميع البرامج قد تخطت الاختبار الذاتي. وفي الفحص الأخير ضبطت نيكول بدقة الكاميراتين الصغيرتين ذات الأبعاد الثلاثية اللتين دارتا مع اليد الجراحية.

عاد جانوس إلى الغرفة. وضغطت نيكول على زر في صندوق التحكم بالجراح الآلي، وسرعان ما طبعت نسختين من تسلسل العملية. أخذت نيكول نسخة وناولت جانوس الأخرى. فسألت، وعينها موجَّهةٌ صوب الجنرال بورزوف: «هل الجميع جاهزون؟» فأومأ قائد مهمة نيوتن برأسه. فشغلت نيكول روسور.

حقنت إحدى أيادي الجراح الآلي الأربعة المخدر في جسد المريض، وفي دقيقة كان بورزوف قد غاب عن الوعي. كانت كاميرا فرانشيسكا تسجل كل حركة في هذه العملية الجراحية المهمة (وكانت تهمس من حين إلى آخر بتعليقات في الميكروفون الشديد الحساسية)، استعانت اليد/المشرط لروسور بعينيه المزدوجة لشق الفتحات اللازمة لفصل العضو المشكوك في إصابته. لم يكن أي جراح من البشر ليكون بهذه السرعة أو الإتقان. وقد استطاع روسور طي النسيج اللازم والكشف عن الزائدة في دقيقتين، وذلك نتيجة لتزويده بمجموعة من أجهزة الاستشعار التي من شأنها فحص المئات من العوامل المتغيرة في كل ميكروثانية. وكان واردًا في برمجة التسلسل الآلي مدة فحص تصل إلى ثلاثين ثانية قبل أن يبدأ الجراح الآلي في إزالة العضو.

انحنت نيكول لفحص الزائدة المكشوفة. فلم تجدها متورمة أو ملتهبة. فقالت، وعيناها على الساعة الرقمية التي تظهر المدة المتبقية من وقت الفحص: «انظر إلى هذا بسرعة، جانوس. تبدو الزائدة سليمة تمامًا.» فانحنى جانوس من الاتجاه المعاكس لطاولة العمليات. ففكرت نيكول: «يا إلهي، سنزيل ...» أظهرت الساعة الرقمية «٠٠:٠٨»، فصاحت نيكول: «أوقفها. أوقف العملية.» وصل كلٌّ من نيكول وجانوس إلى الجراح الآلي في الوقت ذاته.

في تلك اللحظة تمايلت السفينة الفضائية نيوتن بالكامل إلى جانبها. فارتدت نيكول إلى الخلف مصطدمة بالحائط. أما جانوس فسقط للأمام وارتطم رأسه بطاولة العمليات. وسقطت أصابعه الممدودة على صندوق التحكم، ثم رُفعت من فوقه ببطء لأنه سقط على الأرض. ووقع الجنرال أوتول وفرانشيسكا ناحية الحائط البعيد. فدوَّى صوت الإنذار من

أحد مسابير هاكاماتسو المزروعة في أجسام الرواد، فعلم الموجودون أن أحدهم يعاني مشكلة جسدية خطيرة. فقامت نيكول بفحص سريع للتحقق من أن أوتول وفرانشيسكا بخير، ثم بذلت جهدًا كبيرًا لتقاوم الدوران المستمر للمركبة كي تستعيد توازنها وموقعها بجانب طاولة العمليات. واستطاعت سحب نفسها عبر الغرفة على الأرضية بجهد بالغ، باستخدام دعامات الطاولة المثبتة. وعندما أصبحت بجانب الطاولة ثبَّتَت نفسها، وهي لا تزال تمسك بالدعامات، ثم وقفت على قدميها.

تناثر الدم على نيكول عندما طلت برأسها على مستوى طاولة العمليات. فأخذت تحدق في جسد بورزوف بذهول. كان الشق الذي في جسده بالكامل غائصًا في الدماء، وكانت اليد/المشرط لروسور مدفونةً بداخله، ويبدو أنها كانت لا تزال تقوم بعملية استئصال الزائدة. كان مسبار بورزوف هو الذي يُصدِر ذلك الإنذار، مع أن نيكول أدخلت قيمًا كبيرة لإصدار إنذار الحالات الحرجة قبل العملية مباشرة.

انتابت نيكول موجةٌ من الخوف والغثيان عندما أدركت أن الإنسان الآلي لم يُلغِ مهمته الجراحية. تماسكت نيكول أمام القوة الجارفة التي تحاول دفعها نحو الحائط مرةً أخرى، واستطاعت بطريقةٍ ما أن تصل إلى صندوق التحكم وفصلت عنه الطاقة. انسحب المشرط من داخل حمام الدماء، وعاد إلى مكانه، وحاولت نيكول حينها وقف النزيف الغزير.

وبعد مرور ثلاثين ثانية تلاشت القوة المجهولة على نحو مفاجئ مثلما ظهرت على نحو مفاجئ. نهض الجنرال أوتول ليقف على قدمه، وسار حتى أصبح بجانب نيكول التي كانت يائسة. لقد أحدث المشرط كثيرًا من الأضرار. وكان القائد ينزف أمام عينيها نزيفًا سيُودي بحياته. قال أوتول وهو يتفحص الأضرار التي حلَّت بجسد صديقه: «آه، يا إلهي!» وأخذ صوت الإنذار المُلح يُدوي. ثم أخذت إنذارات الأجهزة الحيوية أيضًا تدوي حول الطاولة. أفاقت فرانشيسكا في الوقت المناسب لتسجل الثواني العشرة الأخيرة من حياة فاليري بورزوف.

مرَّت الليلة ثقيلةً على طاقم نيوتن كله. وقد قامت راما بثلاث مناورات متعاقبة في الساعتين اللتين تلتا العملية مباشرة، واستمرت كل واحدة منها، مثل المناورة الأولى، دقيقة أو دقيقتين. وقد أكد علماء كوكب الأرض في النهاية أن مجموعة المناورات أدت إلى تغيير وضع السفينة الفضائية الغريبة ومعدل دورانها ومدارها. ولم يستطِع أحد أن يعرف

بالضبط الغرضَ من مجموعة المناورات تلك؛ فلم تكن إلا مجرد «تغيرات في الاتجاه» أدت إلى تغيير ميل وخط الأوج والحضيض لمدار راما. ومع ذلك، فلم تتغير طاقة المدار بصورة كبيرة؛ كانت راما لا تزال على مسار يسمح لها بالإفلات على شكل قطع زائد بالنسبة للشمس.

صُعق كل الموجودين على متن السفينة نيوتن والموجودين على كوكب الأرض بسبب الموت المفاجئ للجنرال بورزوف. فأثنت عليه صحف جميع الدول وامتدح قرناؤه وزملاؤه إنجازاته العديدة. وقد اعتُبرت وفاته حادثة، نتيجة لتحرك راما في توقيت سيئ أثناء إجراء عملية عادية لاستئصال الزائدة الدودية. لكن خلال ثماني ساعات من موته، كان العلماء من كل مكان يطرحون أسئلة عويصة، مثل: لماذا تحركت السفينة راما في ذلك الوقت على وجه التحديد؟ لماذا فشل نظام الحماية ضد الأعطال لدى روسور في إيقاف العملية؟ لماذا لم يتمكن المسئولون الطبيون المشرفون على العملية من البشر من قطع التيار قبل فوات الأوان؟

وكانت نيكول دي جاردان تطرح على نفسها الأسئلة ذاتها. وقد استوفت المستندات اللازمة عند موت أحد الأشخاص في الفضاء، وأغلقت التابوت الفارغ الموجود في مؤخرة مخزن المؤن الضخم بالسفينة الحربية على جسمان بورزوف. وأعدت تقريرًا عن الحادثة بسرعة ورفعته، وكذلك فعل أوتول وفرانشيسكا وتابوري. وكان هناك اختلاف واحد واضح في التقارير. فلم يذكر جانوس أنه وصل إلى صندوق التحكم خلال مناورة راما. ولم تلتفت نيكول وقتها إلى أن إغفاله عن تلك المعلومة أمرٌ مهم.

كان الاجتماع عن بعدٍ الذي اقتضى عقده مع المسئولين بوكالة الفضاء العالمية قاسيًا للغاية. وتحملت نيكول عبء الإجابة عن جميع الأسئلة التافهة والمكررة. وكان عليها أن تبحث بداخلها عن مزيد من القوة الاحتياطية لتمنع نفسها من أن تستشيط غضبًا أكثر من مرة. وقد كانت نيكول تتوقع أن تلمح فرانشيسكا إلى عدم كفاءة الطاقم الطبي في الاجتماع عن بعد، لكن الصحفية الإيطالية كانت مُنصفة في تقريرها.

وبعد إجراء مقابلة شخصية مع فرانشيسكا، ناقشت نيكول فيها كيف كانت مذعورة عندما رأت جرح جسد بورزوف غائصًا في الدماء، أوَت الطبيبة إلى غرفتها لتستريح أو تنام أو لتفعل كليهما على ما يبدو، لكنها لم تُعطِ نفسها فرصة للراحة. فأخذت تستعرض مرارًا وتكرارًا الثواني الحرجة التي مرت بها العملية. فهل كان بيدها فعل أي شيء لتغيير ما حدث؟ ولماذا لم يتمكن روسور من إيقاف نفسه آليًّا؟

وكانت تؤمن بأنه لا يوجد احتمال أو يوجد احتمال ضئيل بوجود خلل في تصميم خوارزميات الحماية ضد الأعطال لدى روسو؛ فإن كانت تحتوي على أخطاء لما تخطت الاختبارات الصارمة السابقة للانطلاق. فلا بد أن يكون هناك خطأ بشري، سواء كان يتمثل في الإهمال (فهل يمكن أن تكون هي وجانوس قد نسيا — نتيجة لتعجلهما — تشغيل أحد مؤشرات الحماية ضد الأعطال؟) أو وقوع حادثة خلال الثواني التي عمَّت فيها الفوضى بعد أن وقع الاهتزاز غير المتوقع. جعلها بحثها عبثًا عن تفسير وتعبها الشديد محبطةً للغاية، فغلبها النعاس في النهاية. من وجهة نظرها، كان جزء من المعادلة واضحًا تمامًا. ثَمة شخص ما قد مات وهي المسئولة عن موته.

الفصل الثامن عشر

ما بعد التشريح

كما كان متوقعًا، كان اليوم الذي تلا موت الجنرال بورزوف مليئًا بالاضطراب. توسع تحقيق وكالة الفضاء العالمية في الواقعة، وخضع جميع الرواد إلى استجواب مطول آخر. وجرى استجواب نيكول حول مدى اتزانها في وقت العملية. كانت بعض الأسئلة مزعجة، حتى إن نيكول — التي كانت تحاول ادخار طاقتها للقيام بتحقيقها الخاص حول ملابسات الحادث — فقدت أعصابها مرتين مع المحققين.

صاحت في إحدى المرات: «انظر، لقد شرحت أربع مرات أنني تناولت كأسَي نبيذ وكأسًا من الفودكا قبل العملية بثلاث ساعات. وقد اعترفت بأنني لم أكن لأتناول أي كمية من الخمر قبل إجراء عملية جراحية «لو» أنني علمت أنني سأجري العملية، بل أقررت بأنه ربما كان ينبغي أن يبقى أحد الأطباء غير ثمل. لكن الأوان قد فات الآن. وأنا أعيد وأكرر ما ذكرت من قبل. لم يتأثر حكمي على الأشياء أو قدراتي الجسدية بأية طريقة في وقت العملية نتيجة لتناولي الخمر.»

وعندما عادت نيكول إلى غرفتها انصبَّ اهتمامها على السبب وراء استمرار الجراح الآلي في إجراء العملية، في حين كان على النظام الداخلي للحماية ضد الأعطال أن يلغي جميع الأنشطة. ووفقًا لدليل المستخدم الخاص بنظام روسور، كان يجب أن يرسل نظامَا استشعار منفصلان على الأقل رسائل وقوع خطأ إلى وحدة المعالجة بالجراح الآلي. وكان من المفترض أن يرسل برنامج مقياس التسارع إلى وحدة المعالجة ليعلمها أن الظروف البيئية كان تتخطى الحدود المقبولة بسبب القوة الجانبية المعاكسة. كما كان يتعين على الكاميرات الثلاثية الأبعاد نقل رسالة تشير إلى أن الصور الظاهرة تختلف عن الصور المتوقعة. لكن لسبب ما لم ينجح أيٌّ من نظامَي الاستشعار في وقف استمرار العملية. فماذا حدث؟

استغرقت نيكول ما يقرب من خمس ساعات حتى تتمكن من استبعاد إمكانية حدوث خطأ جسيم في نظام روسور ذاته، سواء في البرامج أو المكونات المادية. فلقد تحققت من أن البرامج المحمَّلة وقاعدة البيانات سليمة عن طريق مقارنة الشفرات مع النسخة القياسية للبرامج التي خضعت لاختبارات صارمة خلال فترة ما قبل الانطلاق. وعزلت أيضًا الصور الثلاثية الأبعاد والبيانات المسجلة عن بعد في جهاز قياس التسارع الخاصة بالثواني القليلة التي أعقبت مباشرةً تمايل السفينة الفضائية. لقد نُقلت تلك البيانات بصورة صحيحة إلى وحدة المعالجة الرئيسية، وكان من المفترض أن تؤدي إلى سلسلة من الإلغاءات لوقف العملية. لكن ذلك لم يحدث. لمَ لا؟ كان التفسير الوحيد الممكن هو أن البرامج جرى تغييرها باستخدام أمر يدوي بين وقت تحميلها وإجراء عملية استئصال الزائدة.

وجدت نيكول نفسها في ورطة لم تكن مستعدة لها. فأقصى حدود معرفتها بالبرامج وهندسة النُّظم قد أقنعتها بعدم وجود خطأ في البرامج المحملة. كان تحديد ما إذا كانت أوامر التشغيل قد غيَّرت الشفرة أو العوامل المتغيرة بعد تثبيتها في روسور، ومتى جرى ذلك التغيير، مسألة تحتاج إلى شخص قادر على قراءة لغة الآلة والتحقق من البيانات التي تصل إلى مليارات البتات التي جرى تخزينها خلال الإجراء كليًّا. توقف تحقيق نيكول حتى تجد شخصًا ما ليساعدها. فهتف صوت بداخلها: «ربما يجب أن أستسلم!» لكن صوتًا آخر هتف: «كيف يمكنك هذا حتى تتأكدي من سبب موت الجنرال بورزوف؟» كان يكمن وراء رغبة نيكول في معرفة سبب موت بورزوف توق مُفرِط إلى التأكد بالدليل القاطع من أن موته لم يكن خطأها.

انصرفت نيكول عن جهاز الكمبيوتر الخاص بها واستلقت على فراشها. وقد تذكرت وهي مستلقية هناك حالة الذهول التي انتابتها أثناء مدة الفحص التي استمرت ثلاثين ثانية عندما كانت زائدة بورزوف واضحةً وضوح الشمس. فكرت نيكول: «قطعًا لم يكن بورزوف مصابًا بالتهاب الزائدة الدودية.» ودون أي دافع معيَّن، رجعت نيكول إلى العمل على جهاز الكمبيوتر الخاص بها، وشغلت مجموعة البيانات الثانية التي كانت قد قيمتها باستخدام جهاز التشخيص الإلكتروني قبل اتخاذ قرار إجراء العملية مباشرة. فهي لم تحدق إلا في عبارة «٩٢٪ احتمال الإصابة بالتهاب الزائدة.» على الشاشة الأولى؛ لذا اتجهت إلى التشخيصات الأخرى المحتملة. وفي هذه المرة ظهر على الشاشة: «٤٪ احتمال الإصابة نتيجة للتفاعل الدوائي» باعتباره التشخيص المحتمل التالي مباشرة. استرجعت نيكول

الآن البيانات كي تُعرض على الشاشة ولكن بطريقة أخرى. لقد أمرت برنامج الإحصاء كي يحصي الأسباب المحتملة التي تؤدي إلى الإصابة بالأعراض نفسها، «مع الوضع في الاعتبار» حقيقة أنها ربما لم تكن إصابة بالزائدة الدودية.

وفي ثوانٍ معدودة كانت النتيجة تومض على الشاشة. صُعقت نيكول. فطبقًا للبيانات، إذا كانت مدخلات بيانات الإحصاء البيولوجي الخاصة بمسبار بورزوف قد حُللت بناءً على افتراض أن سبب الأعراض يستحيل أن يكون نتيجة للإصابة بالتهاب الزائدة، عندئذٍ يكون هناك احتمال بنسبة ٦٢٪ أن يكون سبب هذه الأعراض هو التفاعل الدوائي. وقبل أن تتمكن نيكول من المضي قُدمًا في مواصلة التحليل كان هناك من يطرق بابها.

قالت نيكول وهي لا تزال تواصل العمل على جهازها: «تفضل.» التفتت نيكول ورأت إيرينا تورجينيف تقف ببابها. وقفت قائدة الطائرة، السوفييتية الجنسية، صامتة للحظة.

ثم قالت بتردد: «لقد طلبوا مني أن آتي إليك.» كانت إيرينا تتعامل بحيطة مع الجميع فيما عدا أبناء وطنها تابوري وبورزوف. وأردفت: «لدينا اجتماع للطاقم في الردهة.»

حفظت نيكول ملفات البيانات المؤقتة ثم لحقت بإيرينا في الممر. ثم سألت إيرينا: «ما نوع هذا الاجتماع؟»

أجابتها إيرينا: «إنه اجتماع تنظيمي.» ولم تتفوه بأي كلمة أخرى.

وصلت المرأتان إلى الردهة حيث كان النقاش محتدًّا بين ريجي ويلسون وديفيد براون. كان الدكتور براون يقول ساخرًا: «أيعني كلامك أنك ترى أن المركبة راما «عمدت» إلى أن تقوم بتلك المناورة في تلك اللحظة على وجه التحديد؟! هل لك أن تفسر لنا جميعًا كيف لهذه المركبة المعدنية الصماء أن تعرف أنه كانت تُجرى عملية استئصال الزائدة الدودية للجنرال بورزوف في هذه اللحظة بعينها؟ وإن كان الأمر كذلك، فلعلك تشرح لي لماذا سمحت لنا هذه السفينة الحاقدة كما تزعم أن ننضم إليها ولم تفعل شيئًا لثَنينا عن مواصلة بعثتنا؟»

كان ريجي ويلسون يُحملق في أرجاء الغرفة كمن يرجو العون. وقال في إحباط شديد: «إنك لشخصٌ مغالط يا براون! ما تقوله يبدو دائمًا منطقيًّا من الناحية الشكلية فقط. لكنني لست العضو الوحيد في الطاقم الذي ارتاع من هذا التزامن. وها هي إيرينا تورجينيف. إنها الشخص الذي أوحي لي في المقام الأول بهذه الصلة.»

وعندئذٍ انتبه د. براون لوصول المرأتين. كان براون يلقي أسئلته بنبرة مسيطرة، كمن له سلطان على هذا الجمع. سأل ديفيد بروان: «أحقًّا هذا، إيرينا؟ أتشعرين مثل

ويلسون أن راما كانت تحاول أن تبعث لنا برسالة معينة بإجراء هذه المناورة في أثناء العملية الجراحية التي كانت تُجرى للجنرال؟»

وكان رائدا الفضاء إيرينا وهيرو ياماناكا هما أقل المتحدثين في غضون اجتماع الطاقم. تمتمت إيرينا في خنوع تام، وكل الأعين تحدق إليها: «لا.»

صاح ويلسون في قائدة الطائرة السوفييتية: «لكن عندما كنا نتناقش بهذا الصدد البارحة ...»

عندئذٍ قاطعه ديفيد براون بتعسف: «كفى حديثًا في ذلك الموضوع. أعتقد أنه بإجماع الآراء التي يشاركنا فيها ضباط مركز المراقبة على الأرض أن المناورة التي قامت بها راما لم تكن سوى مصادفة وليست مؤامرة.» ثم نظر إلى ريجي ويلسون الذي كان مستشيطًا غضبًا في تلك الأثناء، وقال: «والآن لدينا أمور أكثر أهمية لنناقشها. أود أن أطلب من الفريق البحري هيلمان أن يطلعنا على ما لديه من مشكلات بشأن القيادة.»

انتصب أوتو هيلمان في اللحظة المواتية وقرأ من مفكرته. قال: «طبقًا لسياسة مشروع نيوتن، في حال موت القائد الأعلى للطاقم أو عدم أهليته، يواصل الطاقم سير العمل، مكملًا مسيرته وفقًا للتوجيهات السابقة. لكن ما إن تنتهي الأنشطة «الجارية»، حتى ينتظر رواد الفضاء حتى يختار المسئولون على الأرض قائدًا أعلى جديدًا.»

عندئذٍ أقحم ديفيد براون نفسه مرةً أخرى في الحديث. وقال: «لقد بدأنا أنا والفريق البحري هيلمان مناقشة وضعنا الحالي منذ ساعة، وقد أدركنا على الفور أن ثَمة مدعاة قوية للقلق. فوكالة الفضاء العالمية منشغلة في تحقيقاتها بشأن موت الجنرال بورزوف، ولم يولوا اعتبارًا حتى الآن للتفكير في مسألة من يحل محله. وحتى إن شرعوا في ذلك، فإن ذلك قد يستغرق أسابيع عديدة إلى أن يتخذوا القرار. تذكروا أنها عين السياسة البيروقراطية التي لم تكن قادرةً قط على اختيار نائب لبورزوف، وهكذا قرروا في آخر الأمر أنه ليس في حاجة لنائب.» وتوقف براون عن الحديث بضع ثوانٍ حتى يعطي باقي أفراد الطاقم الفرصة كي يتأملوا مليًّا ما كان يقوله.

استطرد براون قائلًا: «وقد رجَّح أوتو هيلمان أنه ربما لا ينبغي لنا أن ننتظر قرار مركز المراقبة في الأرض. لقد كانت فكرته أنه ينبغي لنا أن نتدبر أمر هيكلنا الإداري، بحيث يكون مناسبًا لنا جميعًا هنا، ثم نرسله كمجرد اقتراح إلى وكالة الفضاء العالمية. ويعتقد الفريق البحري هيلمان أنهم سيقبلون به لأنه يتفادى المناقشات التي تستغرق وقتًا طويلًا.»

حينئذٍ تدخل جانوس تابوري في الحديث: «لقد عرض عليَّ كلٌّ من الفريق البحري هيلمان ود. براون هذه الفكرة، وأكدا على أهمية المضي قُدمًا في بعثتنا داخل راما. لقد حددا أيضًا الإدارة المؤقتة التي تبدو منطقية في ناظري. نظرًا لأنه ما من أحد منا يتمتع بالخبرة الواسعة التي كان يتمتع بها الجنرال بورزوف، فقد رجحا أنه ينبغي أن يكون لدينا قائدان الآن، من الممكن أن يكونا الفريق البحري هيلمان ود. براون أنفسهما. على أن يتولى هيلمان أمور الهندسة العسكرية وهندسة سفينة الفضاء، ويضطلع د. براون بقيادة مساعي استكشاف راما.»

وسأل ريتشارد ويكفيلد: «وماذا سيحدث عندما يختلفان أو تتداخل نطاقات مسئولياتهما؟»

أجابه الفريق البحري هيلمان: «عندئذٍ سوف تُطرح المسألة موضع الخلاف لتصويت الرواد كافةً.»

تدخَّل ريجي ويلسون في الحديث قائلًا: «أليس هذا لطيفًا؟» كان ويلسون لا يزال حانقًا. وكان يدون ملاحظاته على جهاز الكمبيوتر الخاص به، لكنه انتصب واقفًا كي يخاطب سائر أفراد الطاقم. وأردف قائلًا: «عجبًا! براون وهيلمان قلقان بشأن هذه المشكلة العويصة، وقد كوَّنا لتوِّهما هيكلًا قياديًّا جديدًا يُحكِمان به قبضتهما على زمام السلطة وتتوزع من خلاله المسئوليات فيما بينهما. هل أنا الوحيد هنا الذي يشتم رائحة خداع في هذا الأمر؟»

قالت فرانشيسكا ساباتيني في حدة: «مهلًا، يا ريجي.» حينئذٍ تركت كاميرتها جانبًا. وأردفت: «إن اقتراح الهيكل المؤقت يبدو منطقيًّا للغاية. ودكتور براون هو كبير العلماء. أما الفريق البحري هيلمان فقد كان صديقًا مقربًا من فاليري بورزوف على مدار سنوات. وما من أحد منا يملك القدرة على القيادة الحكيمة الشاملة لكل جوانب البعثة. فلكي توزع المهام ...»

كان من الصعب على ريجي ويلسون أن يجادل فرانشيسكا. إلا أنه قاطعها قبل أن تكمل حديثها. فقال بنبرة خافتة: «أنا لا أوافق على هذه الخطة.» ثم استطرد قائلًا: «أرى أننا ينبغي أن نختار قائدًا واحدًا. وبناءً على ما لاحظته في غضون المدة التي أمضيتها مع هذا الطاقم، هناك قائد واحد فقط يمكننا أن نتبعه جميعًا بسهولة ويسر. إنه الجنرال أوتول.» ثم لوَّح ويلسون بيديه في اتجاه رفيقه الأمريكي. وقال: «إن كانت هناك ديمقراطية فأنا أرشِّحه قائدًا أعلى جديدًا لنا.»

وبعدما أنهى ريجي حديثه وجلس، كانت هناك جلبة شديدة فيما بينهم جميعًا. حاول ديفيد براون أن يستعيد النظام. فصاح فيهم قائلًا: «أرجوكم، أرجوكم، لنناقش كل مسألة على حدة. ألسنا في حاجة لأن نقرر القيادة المناسبة لنا، وعندئذٍ نضع الوكالة أمام الأمر الواقع؟ وبمجرد أن نعالج هذه المسألة، يمكننا أن نحسم مسألة من ينبغي أن يكون القائد.»

قال ريتشارد ويكفيلد: «لم يجل بذهني قط أيٌّ من هذا قبل الاجتماع. لكن تروق لي فكرة إبعاد مركز المراقبة في الأرض عن هذه المسألة. فهم لا يعيشون معنا في بعثتنا هذه. والأهم من ذلك، هم ليسوا معنا على متن مركبة فضائية مثبتة بكيان غريب في مكان ما بداخل مدار كوكب الزهرة. ونحن من سيعاني تبعات اتخاذ قرار سيئ؛ من ثَم ينبغي أن نقرر نحن التنظيم الخاص بنا.»

وقد كان جليًّا للعيان أن الجميع، عدا ويلسون على الأرجح، قد استحسنوا فكرة تحديد الهيكل القيادي أولًا ثم تقديمه بعد ذلك إلى وكالة الفضاء العالمية. بعد مرور بضع دقائق قال أوتو هيلمان: «حسنًا! علينا الآن أن نختار قائدنا. لقد عرضنا اقتراح القيادة المؤقتة، وقد رجحنا أن نوزع مهام القيادة بيني وبين دكتور براون. ورشَّح ريجي ويلسون الجنرال مايكل أوتول ليكون القائد الأعلى. هل من اقتراحات أو مناقشات أخرى؟»

غلب الصمت على الغرفة لما يقرب من الثواني العشرة. عندئذٍ قال الجنرال أوتول: «معذرة، لكني أود أن أقدم بعض الملاحظات.» فانتبه الجميع إلى الجنرال الأمريكي. لقد كان ويلسون محقًّا، فمع أن أوتول كان معروفًا بانشغاله بالأمور الدينية (التي لم يجبر أحدًا على مشاركته إياها)، فإن كافة أفراد الطاقم كانوا يكنون له الاحترام. واصل أوتول حديثه قائلًا: «أرى أننا يجب أن نتعامل بحذر بالغ مع هذه المسألة، فلا نفقد روح الجماعة التي طالما جاهدنا كي نخلقها فيما بيننا على مدار العام المنصرم. وقد تفضي الانتخابات التنافسية في هذه المسألة إلى حدوث شقاق. علاوة على أنها ليست بكل هذه الأهمية أو الضرورة. وبغضِّ الطرف عمَّن سيكون القائد الرمزي أو القائدين، فكلٌّ منا قد تلقَّى تدريبًا كي يؤدي مجموعة معينة من الوظائف. وسوف نؤديها تحت أي ظرف من الظروف.»

كانت الرءوس تومئ بالموافقة في كل أنحاء القاعة. واسترسل الجنرال أوتول في حديثه: «أما من جانبي، فعليَّ أن أعترف أنني لا أعرف سوى أقل القليل أو ربما لا شيء

على الإطلاق عن الجوانب الداخلية لراما في هذه البعثة. فأنا لم أتلقَّ أي تدريب قط لعمل أي شيء سوى إدارة مركبتَي الفضاء نيوتن، وتقييم أمر أي تهديد عسكري محتمل، وربط الاتصالات على متن المركبة. وإنني غير مؤهل للقيام بدور القائد الأعلى.» عندئذٍ حاول ريجي ويلسون أن يقاطعه، ولكن أوتول استرسل في حديثه دون توقف. وقال: «أود أن أقترح إقرار الخطة التي عرضها هيلمان وبراون ونمضي قدمًا في مهمتنا الأولية، وهي بالتحديد استطلاع هذه السفينة الضخمة الغريبة التي جاءت إلينا من بين النجوم.»

في نهاية الاجتماع أخبر القائدان الجديدان سائر الرواد أن ثَمة جدول أعمال شاقًّا بشأن سيناريو أولى الغارات، سيكون جاهزًا للاطلاع عليه في صباح اليوم التالي. توجَّهت نيكول إلى غرفتها. وفي طريقها توقَّفت وقرعت على باب غرفة جانوس تابوري. في البداية لم يكن هناك من مجيب. ولكن عندما عاودت قرع الباب للمرة الثانية، سمعت جانوس يصيح: «من الطارق؟»

أجابته: «أنا؛ نيكول.»

فقال جانوس: «تفضلي بالدخول.»

كان جانوس مستلقيًا على ظهره على الفراش الصغير، وعلى وجهه تجهم غير معهود.

سألت نيكول جانوس: «ما الخَطب؟»

أجابها: «آه، لا شيء. إنني مصاب بصداع فحسب.»

فسألته نيكول: «وهل تناولت أي دواء؟»

أجابها: «لا. فهو ليس بهذه الشدة.» كان وجهه لا يزال عابسًا. فسألها بنبرة فاترة: «ما الخَطب؟ هل باستطاعتي أن أسدي لك أي خدمة؟»

كانت نيكول مرتبكة. وكانت تحاول أن تبلغه مرادها بحذر بالغ. فقالت: «حسنًا، كنت أطلع على تقريرك الخاص بموت فاليري ...»

عندئذٍ قاطعها جانوس بأسلوبٍ فظ: «ولمَ فعلت ذلك؟»

أجابته: «لأرى هل هناك أي اختلاف في تقاريرنا.» وكان من الواضح لها أن جانوس لا يريد أي يخوض في مناقشة هذا الموضوع. وبعد انتظار دامَ لبضع ثوانٍ تكلمت نيكول مرةً أخرى. وقالت: «آسفة، يا جانوس. أنا أفرض نفسي عليك. سآتي إليكَ في وقت آخر.»

أجابها جانوس: «لا. لا. لننتهِ من هذا الأمر الآن.»

كان يجول بخاطر نيكول وهي تصوغ سؤالها: «هذه طريقة غريبة لعرض الموضوع.» وقالت له: «جانوس، إنك لم تُشِر في تقريرك قط إلى وصولك إلى صندوق

التحكم الخاص بروسور قبل المناورة مباشرة. وأنا مُتيقنةٌ تمام اليقين أني قد رأيت أصابعك على لوحة المفاتيح عندما كنت مرتطمة بالحائط.»

توقفت نيكول عن الحديث. ولم يكن هناك انفعالات من أي نوع على وجه الرائد تابوري. لقد كان يبدو كما لو كان يفكر في شيء آخر. أجابها تابوري أخيرًا ودون اكتراث: «لا أتذكر. ربما تكونين على حق. لعل الصدمة التي تلقيتها في رأسي أفقدتني جزءًا من ذاكرتي.»

عندئذٍ قالت نيكول في نفسها بعد أن تأملت زميلها: «توقفي الآن، فلن يمكنك الحصول على أي معلومة هنا.»

الفصل التاسع عشر

طقس العبور

فجأة أجهشت جينيفيف بالبكاء. وكانت تقول: «أوه، أماه. أحبك كثيرًا، وهذا أمر مريع للغاية.»

تحركت الفتاة المراهقة في عجالة بعيدًا عن الكاميرا، وحل محلها والد نيكول. نظر بيير خارج إطار الكاميرا إلى يمينه لبضع ثوانٍ ليتأكد إن كانت حفيدته بعيدة عن مرمى السمع، وعندئذٍ حول بصره نحو الشاشة. وقال: «إن الساعات الأربعة والعشرين المنصرمة كانت قاسية للغاية عليها. أنت تعرفين كم تهيم بك حبًّا. وقد ذكرت بعض الصحف الأجنبية أنك أنت التي أفسدت العملية الجراحية. بل أورد مراسل إحدى القنوات التلفزيونية الأمريكية هذا المساء أنك كنت ثملةً أثناء إجراء الجراحة.»

توقف والد نيكول عن الحديث. وقد كانت ترتسم على وجهه أمارات التوتر أيضًا. ثم أكمل حديثه قائلًا: «نعلم أنا وجينيفيف يقينًا عدم صحة كل تلك الادعاءات. نحن نحبك بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، ونحن معكِ.»

في تلك الأثناء أظلمت الشاشة. وبدأت نيكول في تلقي مكالمتها المرئية، وقد ابتهجت في بادئ الأمر أنها تتحدث إلى عائلتها. لكن بعد البث الثاني عندما عاود والدها وابنتها الظهور على الشاشة بعد مرور عشرين دقيقة، كان من الواضح أن الأحداث التي تجري على متن نيوتن قد عكرت صفو الحياة في بوفوا أيضًا. كانت جينيفيف نفسها مضطربة بشدة لما حدث. وقد بكت مرات عديدة أثناء حديثها عن الجنرال بورزوف (فقد التقت به مرات عدة، ولطالما كان الرجل الروسي الذي كانت تعتبره بمنزلة خال لها رقيقًا للغاية معها)، وكانت تحاول أن تتمالك بشق الأنفس حتى لا تنفجر باكيةً مرة أخرى قبل نهاية المكالمة.

وكانت نيكول تحدث نفسها وهي مستلقية على فراشها: «ها قد خذلتك أنتِ أيضًا.» وفركت نيكول عينيها من فرط التعب. ورويدًا رويدًا، دون أن تشعر بمدى حالة الاكتئاب

التي أصبحت عليها، نزعت عنها ملابسها كي تنام. وبدأت تزعجها مجموعة من الصور لابنتها في المدرسة في لوين. وأخذت نيكول تنكمش رعبًا، عندما تخيلت إحدى صديقات جينيفيف تسألها عن العملية الجراحية وموت بورزوف. وبدأت نيكول تحدث نفسها: «ابنتي الغالية، يجب أن تعرفي كم أحبك. ليتني كان بمقدوري أن أجنبك هذا الألم.» لقد كانت نيكول تروم أن تمد يدها وتريح جينيفيف، وتأخذها بالقرب منها ليتشاركا حضن الأم وابنتها الذي يزيل كل كرب. لكن هذا مستحيل. فجينيفيف تبعد عنها مائة مليون كيلومتر.

استلقت نيكول على ظهرها في فراشها وأغمضت عينيها لكنها لم تستطِع أن تنام. لقد تملكها شعور عميق وشديد بالوحدة، شعور مروع حتى إنها لم تشعر بمثله قط في حياتها كلها. كانت نيكول تعي أنها تتوق إلى من يتعاطف معها، إلى كائن بشري يخبرها بأن شعورها بعدم الكفاءة ينطوي على نوع من المغالاة، وأنه لا يتفق مع الواقع. لكن هذا الكائن البشري لم يكن موجودًا على الإطلاق. فوالدها وابنتها هناك على الأرض. ومن بين كل أفراد طاقم نيوتن لم تكن تعرف أحدًا معرفة وثيقة إلا شخصين؛ أحدهما ميت الآن، والآخر يتصرف بريبة.

وكانت نيكول تحدِّث نفسها وهي مستلقية في فراشها: «لقد فشلت فشلًا شديدًا. لقد فشلت في تأدية أهم واجب في حياتي.» وعندئذٍ تذكرت نيكول مشاعرَ فشل أخرى اجتاحتها عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها فحسب. في ذلك الحين كانت نيكول تناضل من أجل الحصول على دور جان دارك في إحدى المسابقات المحلية الضخمة بمناسبة الذكرى السبعمائة والخمسين على موت الفتاة العذراء جان دارك. ولو كانت نيكول قد نجحت في هذه المنافسة لَتَمكنت من أداء دور جان دارك في سلسلة من المهرجانات تمتد عامين. وانهمكت نيكول بكل ما أُوتيت من قوة في المنافسة، تقرأ كل ما تطوله يداها من كتب عن جان دارك، وتشاهد عشرات من عروض الفيديو التي تدور حولها. وقد وصلت نيكول فعليًّا إلى القمة في كل أنواع الاختبارات التي اجتازتها خلا اختبار «الملاءمة لأداء الدور». وكان ينبغي أن تفوز، لكنها لم تفز. وقد كان والدها يواسيها بقوله إن فرنسا لن تتخذ لها أبطالًا ذوي بشرة سمراء.

قالت الطبيبة المسئولة عن بعثة نيوتن في نفسها: «لكن ذلك لا يعد فشلًا تامًّا. على أي حال، كان والدي بجانبي يواسيني.» بعد ذلك قفز إلى مخيلة نيكول مشهد جنازة والدتها. كانت في العاشرة من عمرها في ذلك الوقت، وكانت والدتها قد ذهبت إلى ساحل

العاج بمفردها في زيارة لأقاربها الأفارقة. وكانت أناوي في قرية نيدوجو عندما اجتاحها وباء خبيث يُعرف باسم «حمى هوجان». وعلى الفور لقيت والدتها حتفها.

وبعد مرور خمسة أيام أُحرق جسد أناوي باعتبارها ملكة قبائل سينوفو، وكانت نيكول تبكي أمها بينما كان أوميه ينشد أغنية حول رحلة روح أمها إلى العالم السفلي ثم إلى أرض الاستعداد، حيث ترقد المخلوقات منتظرين حتى يجري اختيارهم لحياة أخرى على الأرض. وبينما كانت ألسنة اللهب تعلو المحرقة وبدأ الثوب الملكي الذي تتسربل به والدتها يحترق، بدأ يستبد بنيكول إحساسٌ عارم بالضياع. والوحدة. لكن نيكول بدأت تذكِّر نفسها قائلة: «لكن والدي كان بجانبي في تلك الأثناء أيضًا. لقد أمسك بيدي ونحن نشاهد اختفاء أمي. لقد هوَّن علينا الأمرَ كونُنا معًا. لقد شعرت بالوحدة أكثر أثناء «احتفال البورو». كما شعرت بالخوف أكثر.»

كانت نيكول لا تزال تتذكر مزيج الهلع وقلة الحيلة اللذين غمرا جسدها الذي كان عمره آنذاك سبعة أعوام، في مطار باريس في صباح أحد أيام الربيع. عانقها والدها بمنتهى الحنان. وقال: «حبيبتي، حبيبتي نيكول. سأفتقدك كثيرًا. أتمنى أن تعودي إليَّ سالمة.»

سألته نيكول: «لكن لماذا عليَّ أن أذهب يا والدي؟ ولمَ لا تأتي معنا؟»

فمال نحوها. وقال: «أنت ذاهبة كي تصبحي جزءًا من عشيرة أمك. فكل أطفال السينوفو يذهبون إلى احتفال البورو في سن السابعة.»

عندئذٍ أجهشت نيكول بالبكاء. وقالت: «لكني لا أريد أن أذهب يا والدي. أنا فرنسية ولست أفريقية. أنا أمقت كل أولئك الناس الغريبي الأطوار ودرجة الحرارة المرتفعة والبق ...»

فوضع يديه بقوة على وجنتَيها. وقال: «عليك أن تذهبي يا نيكول. لقد اتفقتُ أنا ووالدتك على الأمر.» وبالفعل ناقشت أناوي وبيير الأمر مرارًا وتكرارًا. لقد قضيت نيكول طيلة عمرها في فرنسا. وكل ما تعرفه عن تقاليدها الأفريقية هو ما قد علمته إياها والدتها وما تعلمته من زياراتها لساحل العاج مع عائلتها التي امتدت شهرين.

ولم يكن الأمر هينًا على بيير أن يوافق على إرسال ابنته المحبوبة إلى البورو. لقد كان يعرف أنه مجرد احتفال بدائي. كما كان يعلم أيضًا أنه حجر الزاوية الذي تقوم عليه تقاليد دين السينوفو، وعليه فقد وعد أوميه في وقت زواجه من أناوي أن كل أطفالهما سوف يعودون إلى قرية نيدوجو لحضور الطور الأول على الأقل من البورو.

وكانت أكثر النواحي صعوبة على بيير بقاءه في فرنسا. لكن أناوي كانت محقة. فهو أجنبي. ولن يكون بمقدوره أن يشارك في البورو. أو أن يتفهمه. من ثَم فوجوده سوف يشتت انتباه الفتاة الصغيرة. وكان بيير يشعر بالألم يعصر قلبه وهو يقبل زوجته وفتاته الصغيرة مُقلًّا إياهما حتى متن الطائرة المتجهة إلى أبيدجان.

وكانت أناوي أيضًا متوجسةً خيفة بشأن طقس العبور الذي سوف تجتازه ابنتها الوحيدة، فتاتها الصغيرة التي توشك أن تبلغ السابعة من العمر. لقد أعدت أناوي نيكول لمثل هذا الأمر بقدر استطاعتها. وقد كانت الفتاة موهوبة لغويًّا، وقد تمكنت من أن تلمَّ بمبادئ اللغة السينوفية بمنتهى السهولة واليسر. لكن، بلا ريب، ثَمة مَخاطر بالغة تحيق بها مقارنةً بسائر الأطفال. فسائر الأطفال عاشوا وقضوا كل حياتهم في القرى وحولها. وكانوا يألفون المنطقة. ولتخفف أناوي من حدة مشكلة التأقلم مع المكان وصلت هي ونيكول إلى نيدوجو قبل الموعد المحدد بأسبوع.

وكانت الفكرة الرئيسية التي يدور حولها احتفال البورو هي أن الحياة ما هي إلا تعاقب للأطوار أو الدورات، ويجب أن تُوسم كل مرحلة انتقالية بعلامة مميزة. ويدوم كل طور لمدة سبع سنوات. وقد كان هناك ثلاثة احتفالات بالبورو في حياة كل فرد من أفراد القبائل السينوفية؛ إذ تحدث ثلاث عمليات تحول ضرورية قبل أن يصبح الطفل راشدًا في القبيلة. ومع أن كثيرًا من العادات القبلية قد تلاشت مع وصول وسائل الاتصال الحديثة والمعقدة إلى ساحل العاج في القرن الحادي والعشرين، فإن احتفال البورو ظل جزءًا لا يتجزأ من المجتمع السينوفي. وفي القرن الثاني والعشرين شهدت الممارسات القبلية انتعاشة نوعًا ما، ولا سيما بعد مرحلة «الفوضى العارمة»، التي بينت لمعظم الزعماء الأفارقة مدى خطورة التعويل الشديد على العالم الخارجي.

وكانت تداعب شفتَي أناوي ابتسامةٌ مصطنَعة عصر ذلك اليوم عندما أتى كهنة القبيلة لأخذ نيكول معهم بعيدًا إلى البورو. إذ لم ترد أن تنقل خوفها وقلقها إلى ابنتها. لكن نيكول كانت تدرك أن والدتها منزعجة. همست نيكول في أذن والدتها بالفرنسية وهي تحتضنها قبل الرحيل. فقالت: «إن يدك باردة وتتصبب عرقًا يا أمي. لا تقلقي. سأكون على ما يرام.» في الواقع، كانت نيكول — الفتاة الوحيدة ذات الوجه القمحي اللون بين عشرات الوجوه القاتمة السواد للصبايا اللاتي يتسلقن العربات — تبدو مبتهجة ومترقبة كما لو كانت متجهة في رحلة ترفيهية إلى متنزه عام أو حديقة حيوان.

وكان هناك أربع عربات، اثنتان منها تحملان الصبايا الصغيرات واثنتان مغطيتان ومبهمتان. وقد أخبرت لوتاوا، التي التقت بها منذ أربع سنوات ابنة عم نيكول وصديقتها،

بقية الفتيات أن العربتين المغطيتان تحتويان على الكهنة و«أدوات التعذيب». وساد صمت رهيب بين الفتيات قبل أن تتجرأ إحداهن وتسأل لوتاوا عما تتحدث.

استرسلت لوتاوا في نبرة جدية: «لقد رأيت كل هذا في حلم منذ ليلتين. سوف يقومون بحرق حلمات الثدي، وسوف يغرزون أشياء حادَّة في كل فتحة من أجسادنا. وإذا احتفظنا بهدوئنا ولم نبكِ، فلن نشعر بأي آلام.» وعلى مدار الساعة التالية لم تنبس أي فتاة من الفتيات الخمسة اللاتي كن يركبن العربة مع نيكول ببنت شفة إلا بشق الأنفس، بما فيهن لوتاوا.

وعند مغيب الشمس كن قد انتقلن لمسافة طويلة شرقًا، بعد محطة موجات الميكروويف النائية، إلى منطقة خاصة لا يعرفها سوى الزعماء الدينيين للقبيلة. ألقى الكهنة الستة الذين كانوا معهن بالخيام المتنقلة، وأخذوا يضرمون النيران. وبحلول الظلام قُدم المأكل والمشرب للصغيرات اللاتي كن يجلسن القرفصاء في دائرة كبيرة حول النيران. وبعد تناول العشاء بدأ الرقص الذي يرتدي فيه الراقصون زيًّا خاصًّا. كان أوميه هو الراوي للرقصات الأربعة التي كانت تمثل كل واحدة منها حيوانًا من الحيوانات التي تنتمي لهذا المكان. وكانت تُؤدى هذه الرقصات على أنغام الدف والإكسيليفون البسيط الصنع، بدأ الإيقاع يأخذ شكل القرع الرتيب دوم، دوم، دوم. وبين الفينة والفينة، كان يجري النفخ في نفير الصيد العاجي الشهير كإتمام لجزء مهم وذي مغزًى في القصة.

قبل وقت النوم مباشرة، سلم أوميه — الذي لم يزَل يرتدي القناع العظيم وغطاءً للرأس يميزه بوصفه شيخ القبيلة — كل فتاة عبوة كبيرة مصنوعة من جلد الظباء، وأخبرهن أن يمعن النظر في محتوياتها إمعانًا شديدًا. كان بداخل العبوة قارورة ماء، وبعض الفاكهة المجففة والمكسرات، وكسرتان من الخبز الذي يُخبز هناك، وأداة قطع حادَّة، وبعض الحبال، ونوعان مختلفان من الدهان، ودرنة ونبات مجهول.

قال أوميه: «كل طفلة سوف تؤخذ من هذا المخيم صباح غد. وتُترك في موضع معين لا يبعد عن هنا كثيرًا. ولن تحصل كل طفلة على أي مؤن فيما عدا تلك الموجودة في الحقيبة المصنوعة من جلد الظباء. ومن المفترض أن كل طفلة تنجو بنفسها دون الاتكال على أحد، وتعود أدراجها إلى نفس البقعة عندما تكون الشمس في كبد السماء بعد غد.

وتشتمل الحافظة على كل شيء تحتاجون إليه خلا الحكمة والشجاعة وحب الاستطلاع. وإن هذه الدرنة لشيءٌ مميز للغاية. فتناوُل جذر منتفخ سوف يخيف الطفلة، لكنه قد يعطي أيضًا قوًى خارقة وبصيرة نافذة.»

الفصل العشرون

نومًا هانئًا

تُركت الصبية الصغيرة بمفردها لما يقرب من ساعتين قبل أن تعي بحقٍّ ما كان يحدث لها. لقد ترك أوميه وأحد الكهنة الصغار نيكول بالقرب من بركة مالحة صغيرة مباشرة تكتنفها أعشاب السافانا الطويلة من جميع الجهات. وقد ذكروها بأنهما سوف يعودان إلى هذه البقعة عندما ينتصف نهار اليوم التالي. ثم تركاها وذهبا.

في البداية تصرفت نيكول كما لو كان الأمر برُمَّته مجرد لعبة. التقطت نيكول حافظتها المصنوعة من جلد الظبي وأخذت تجرد محتوياتها. لقد قسمت نيكول الطعام إلى ثلاثة أجزاء في ذهنها، مدبِّرةً ما سوف تتناوله في العشاء والإفطار ووجبة ما قبل ظهيرة اليوم التالي. ولم يكن في الحافظة طعامٌ وفير، لكن نيكول الصغيرة رأت أنه سيكون كافيًا. ومن ناحية أخرى، عندما ألقت نظرة على قارورة الماء لتحدد هل لديها ما يكفي من الماء، وجدت أنها كمية لا تُذكر. وأنه سيكون من الأفضل إذا تمكنت من العثور على نبع ماء أو مياه جارية نقية تستخدمها في حالة الطوارئ.

وكانت المهمة التالية لنيكول هي أن تعمل خريطة في ذهنها للموقع الموجودة فيه، على أن تعير انتباهًا خاصًّا لأي مَعلَم من المعالم يمكن أن يساعدها في التعرف على البركة المالحة من على بعد. كانت صبية صغيرة في غاية التنظيم، ففي ضاحية شيلي مازاران كانت نيكول كثيرًا ما تلعب بمفردها في غابة مهجورة قريبة من منزلها. وفي غرفتها بمنزلها بفرنسا، كانت تحتفظ بخرائط للغابة رسمتها بنفسها بعناية، وكانت تميز مخابئها السرية بوضع نجوم عليها ودوائر.

وعندما صادفت نيكول أربعة ظباء مخططة ترعى في هدوء تحت حرارة شمس الأصيل المعتدلة، عندئذٍ فقط أدركت أنها في عزلة تامة. وهنا ما كان منها إلا أن تبحث عن والدتها، لكي تُريها الحيوانات الجميلة التي وجدتها. «لكن أمي ليست موجودة ها هنا»،

هكذا قالت نيكول في نفسها وهي تمسح الآفاق بعينيها. وأردفت: «إنني وحدي تمامًا.» كانت آخر جملة دوَّت أصداؤها في ذهنها عندما بدأ الإحباط يدب في قلبها. وحاربت نيكول إحباطها ونظرت بعيدًا في الآفاق الفسيح لكي ترى هل يمكنها أن تجد أي أمارات تدل على وجود بشر. كانت الطيور في كل مكان وكثير من الحيوانات ترعى في الأفق على مرمى بصرها، لكن ما من أمارات على وجود أي حياة مدنية. وحينئذٍ قالت نيكول لنفسها مرة أخرى: «وحدي تمامًا»، وسرَت في جسدها رعشة خوف طفيفة.

وتذكرت أنها تروم العثور على مصدر آخر للماء فسارت باتجاه بستان أشجار كبير. ولم يكن لدى الصبية أدنى فكرة عن المسافات في غابات السافانا المفتوحة. ومع أنها كانت حريصة على أن تقف كل ثلاثين دقيقة تقريبًا كي تتأكد من أنها لا يزال بمقدورها العودة إلى حيث أتت، فإنها بُهتت عندما وجدت أن البستان البعيد لا يقترب أبدًا مهما قطعت من مسافات نحوه. لقد واصلت المسيرة. وبينما أخذت شمس الأصيل في الانزواء بدأت نيكول تشعر بالعطش والإعياء. ووقفت لتشرب بعض مائها. عندئذٍ أحاطت بنيكول ذبابات التسي تسي، وبدءوا يئزون على وجهها وهي تحاول أن تشرب. أخرجت نيكول من جعبتها الدهانين، واشتمت رائحتهما، ثم دهنت أسوأهما رائحةً على وجهها وذراعيها. وعلى ما يبدو كان اختيارها صائبًا؛ إذ وجدت الحشرات أن الرائحة كريهة فابتعدت بعيدًا.

ووصلت إلى الأشجار قبل حلول الظلام بساعة واحدة. تهللت نيكول عندما عثرت مصادفةً على واحة صغيرة وسط غابات السافانا المترامية الأطراف. وكان هناك ينبوع كبير في البستان حيث كانت المياه مندفعة من الأرض، وكان هذا الينبوع يأخذ شكل بركة مستديرة، يبلغ قطرها نحو عشرة أمتار. كان الماء الفائض عن البركة بدوره يجري خارج إحدى حوافها، فأصبح نُهيرًا صغيرًا يجري من الواحة عائدًا نحو غابات السافانا. وكانت نيكول منهَكة القوة، وتتصبب عرقًا من طول المسير. وكان الماء في الينبوع مُغريًا وجذابًا. ودُون تفكير، نزعت عنها ملابسها عدا سروالها، وقفزت في النبع لتسبح فيه.

أنعش الماء جسدها الصغير المنهَك ولطَّفه. وكانت نيكول وهي مُغمَضة العينين ورأسها تحت الماء تعوم وتعوم حتى خال لها أنها تعوم في حمام السباحة المحلي في الضاحية التي تقطنها بالقرب من باريس. وذهبت نيكول بمخيلتها إلى حمام السباحة، كما كانت ترتاده عادةً مرة أسبوعيًّا، حيث كانت تمارس الألعاب المائية مع أصدقائها. وقد أراحها تذكر مثل هذه الأمور. بعد مضي وقت طويل، انقلبت نيكول على ظهرها وأخذت تجدف بيديها وجسدها قليلًا. فتحت نيكول عينيها ونظرت إلى الأشجار من فوقها. وكانت أشعة الشمس لا تزال تلف المكان بالسحر وهي تخترق أفرع الأشجار وأوراقها.

توقَّفت نيكول البالغة من العمر سبعة أعوام حينذاك عن السباحة، ومشيت في الماء لبضع ثوانٍ، ونظرت حول حافة البركة لتبحث عن ثيابها. فلم ترها. اضطربت نيكول وأخذت تحدق بدقةٍ أكثر حول محيط البركة مرةً أخرى. بقيت نيكول لا ترى شيئًا. حاولت في ذهنها أن تعيد ترتيب المشاهد التي رأتها منذ وصولها إلى البستان، وأخيرًا تذكرت بالضبط أين وضعت ملابسها وحافظتها المصنوعة من جلد الظباء. وخرجت من الماء وتفحصت البقعة بدقة متناهية. قالت نيكول في نفسها: «قطعًا هذا هو المكان. وها قد فقدت ملابسي والحافظة.»

ولم يكن هناك شيء يمكنه أن يهدئ من روعها. وفي الحال استبد بها الهلع. واغرورقت عيناها بالدموع، وأخذت في النحيب والعويل بصوت مرتفع. وأغمضت عينيها واستمرت في البكاء، آملة أن يكون كل هذا مجرد كابوس، وأنها سوف تفيق منه في اللحظات القليلة التالية وتجد والديها. لكن عندما فتحت عينيها مرة أخرى، كان لا يزال هناك المشهد نفسه. أصبحت الصبية الصغيرة شبه العارية بمفردها في مجاهل أفريقيا دون مأكل أو مشرب أو أمل في النجاة قبل منتصف اليوم التالي. أوشك الظلام أن يحل.

وبعد عناء طويل استطاعت أخيرًا أن تتمالك نفسها وتتحكم في ذعرها ودموعها. وقررت أن تبحث عن ثيابها. وذهبت إلى المكان الذي تركت فيه الثياب من قبل، فعثرت على آثار أقدام حديثة. ولم يكن لدى نيكول أدنى فكرة عن نوع الحيوان الذي قد خلف هذه الآثار؛ لذا افترضت أنه قد يكون أحد الظباء الأليفة التي شاهدتها بعد الظهيرة في السفانا. فكرت الفتاة الصغيرة بعقلانية في نفسها وقالت: «هذا يبدو منطقيًّا.» وأردفت تقول: «فربما يكون هذا أفضل نبع مياه في المنطقة. من ثَم توقفت الظباء ها هنا، وانتابها الفضول بشأن حاجياتي. وقطعًا أرعبها صوت المياه القوي الذي كان يصدر عن سباحتي.»

وبينما أخذ الضوء ينزوي، اقتفت نيكول آثار الأقدام بطول درب ضيق عبر الأشجار. وبعد رحلة ليست طويلة وجدت الحافظة المصنوعة من جلد الظباء، أو بالأحرى ما قد تبقى من الحافظة ملقاة بجانب الطريق. كانت الحافظة ممزقة ومفتوحة تمامًا، لقد ضاع كل الطعام، وانسكب معظم الماء الذي كان في القارورة، وسقطت كل الأشياء الأخرى فيما عدا الدهان والدرنة. شربت نيكول كل الماء المتبقي في القارورة واحتفظت بها في يدها اليمنى مع الدرنة. وألقت الدهان الذي فسد. وكانت نيكول على وشك أن تواصل المسير في الدرب عندما سمعت صوتًا بين النباح والعواء. كان الصوت قريبًا جدًّا. وكان الدرب المؤدي إلى السافانا على بعد خمسين مترًا للأمام. أنعمت نيكول النظر واعتقدت أنها رأت

شيئًا يتحرك، لكنها لم تستطع أن تميز شيئًا بعينه. عندئذٍ سمعت العواء مرة أخرى، لكن الصوت كان أعلى هذه المرة. وعندئذٍ رقدت نيكول على بطنها وزحفت ببطء عبر الدرب.

وكان هناك مرتفع صغير قبل طرف البستان بنحو خمسين مترًا. ومن هذه البقعة التي منحتها أفضل رؤية، تمكنت نيكول الصغيرة من أن ترى مصدر العواء. كان هناك شبلان صغيران يلعبان بثوبها الأخضر. وكانت أمهما الساهرة في الجانب المقابل تحملق في غابات السافانا المظلمة. تجمدت نيكول من الذعر؛ إذ أدركت أنها ليست في زيارة لحديقة حيوان، بل هي هناك في العراء على بعد عشرين مترًا فقط من لبؤة أفريقية حقيقية. زحفت نيكول، وهي ترتجف من الهلع، للخلف عبر الدرب ببطء وهدوء شديدين خشية أن تلفت الانتباه لوجودها.

وعندما رجعت إلى حيث نبع الماء، قاومت الإلحاح الذي يحضها على أن تهرول مسرعة في فوضوية إلى السافانا. قالت نيكول في نفسها: «إذا هرولت، حتمًا ستراني اللبؤة.» ولكن أين ستقضي الليلة؟ قالت في سرها: «سأجد خندقًا بين الأشجار بعيدًا عن الدرب. وأرقد هناك. عندئذٍ ربما أصبح في مأمن.» وكانت لا تزال تُحكِم قبضتها على قارورة الماء والدرنة، مشت نيكول بتؤدة عبر الينبوع، وشربت وملأت قارورتها ماء. بعدئذٍ انسلَّت خفيةً إلى البستان وعثرت على خندقها. وبعد أن تيقنت من أنها تتمتع بأكبر قدر ممكن من الأمان في ظل الظروف الراهنة، وقعت الصبية المنهكة في سبات عميق.

وفجأة استيقظت بعد أن أحسَّت بحشرات البق تزحف في كل أنحاء جسدها. فبسطت يدها وحكت بطنها العارية. لقد كانت مكسوة بالنمل. صرخت نيكول، وعندئذٍ أدركت فداحة ما فعلته. وفي لمح البصر سمعت صوت اللبؤة وهي تشق طريقها في جلبة عبر الأعشاب بحثًا عن المخلوق الذي أصدر هذا الصوت. عندئذٍ ارتعدت الفتاة وأزاحت عنها النمل باستخدام عصًا. وفي ذلك الحين رأت اللبؤة تحملق فيها، كانت عيناها الشرستان تخترق أستار الظلام. كانت نيكول على حافة الانهيار. وبطريقة ما، تذكرت في رعدتها ما ذكره أوميه عن الدرنة. فوضعت الجذر المغطى بالأوساخ في فمها ومضغته بقوة. لقد كان مذاقه رديئًا للغاية. لكنها أجبرت نفسها على بلعه. وبعد لحظة وجدت نيكول نفسها مندفعة عبر الأشجار واللبؤة تطاردها. وكانت أفرع الأشجار وأوراقها تمزق وجهها وصدرها. وزلت قدماها أثناء اندفاعها ووقعت. لكنها واصلت ركضها، وعندما وصلت البركة لم تتوقف. بل خاضت في المياه، وكادت قدماها تلمس سطح الماء. فرفرفت بذراعيها. بعد أن صارا جناحين، جناحين ذوَي لون أبيض. ولم تعد تلمس الماء مطلقًا.

فقد تحولت إلى بلشون أبيض عظيم يحلق مرتفعًا نحو سماء الليل. التفتت ونظرت إلى اللبؤة المتحيرة التي تهرول أسفلها بمسافة بعيدة. وعندئذٍ ضحكت نيكول لنفسها، ثم رفرفت أكثر بأجنحتها وارتفعت فوق كل الأشجار. وكانت السافانا العظيمة تنبسط تحتها. وكانت تستطيع أن ترى على بعد مئات الكيلومترات.

وحلقت نيكول فوق البركة ذات الماء القليل الملوحة، ثم اتجهت غربًا واستطلعت مكان المخيم. واقتربت منه، وكانت صرخات طائرها تخترق هدوء الليل. وثب أوميه فجأة من نومه وشاهد الطائر المنعزل محلقًا في السماء، فنادى بصرخة طائر عالية. ليناديها: «روناتا؟» وكانت نبرة صوته تنم عن أنه يسألها. لكن نيكول لم تجبه. فقد أرادت أن تحلق لأعلى، فوق السحاب.

وعلى الجانب الآخر من السُّحب كان يسطع القمر وتتلألأ النجوم. لقد كانت تومئ إليها. وكلما حلقت أعلى وأعلى ظنت أنها تقترب من نغمات موسيقية بعيدة، لقد كانت دندنة أشبه برنين الناقوس البلوري. حاولت نيكول أن ترفرف بجناحَيها. لكنها أصبحت تتحرك بشق الأنفس؛ فقد تحولت إلى أسطح تحكم امتدت الآن لتزيد الحمل في طبقات الجو الأخف. وبدأت الصواريخ التي في المؤخرة في إطلاق النار. في تلك اللحظة، تحولت نيكول إلى مكوك فضائي فضي اللون رفيع وأملس يترك كوكب الأرض خلفه.

كانت النغمات الموسيقية ترتفع هناك في الفلك. وكانت هناك سيمفونية رائعة تتناغم تناغمًا شديدًا مع الأرض المهيبة من تحتها. وسمعت صوتًا ينادي باسمها. من أين جاء هذا الصوت؟ من قد ينادي عليها هنا في هذا الفضاء الفسيح؟ كان الصوت آتيًا من وراء القمر. لذا غيرت وجهتها واتجهت إلى الخلاء الفسيح في الفضاء وأطلقت صواريخها مرةً أخرى. تجاوزت نيكول القمر متجهة بعيدًا عن الشمس. وكانت سرعتها لا تزال تزداد باطراد شديد. وكل مدًى كان حجم الشمس يزداد صغرًا خلف نيكول. حتى أصبحت الشمس مجرد ضوء خافت إلى أن اختفت تمامًا. وكان السواد يعم كل الأرجاء. التقطت نيكول أنفاسها ونزلت إلى سطح الماء.

كانت اللبؤة تجوس جيئة وذهابًا على حافة البركة. وكانت نيكول تستطيع أن ترى بوضوح كل العضلات في منكبَيها القويين وأن تقرأ تعبيرات وجهها. قالت نيكول إلى اللبؤة في سرها: «من فضلكِ دعيني وشأني. فأنا لن أوذي أشبالك.»

ردت عليها اللبؤة: «أستطيع أن أميز رائحتك. فأشبالي كانوا يلعبون بشيء له نفس هذه الرائحة.»

استرسلت نيكول: «أنا أيضًا شبلة صغيرة. وأروم الرجوع إلى والدتي. لكني خائفة.»

أجابتها اللبؤة: «اخرجي من الماء. ودعيني أراكِ. أنا لا أصدق أنكِ من تدعينه.»

استجمعت الصبية الصغيرة كل شجاعتها، وخرجت بتؤدة من الماء وعيناها مثبتتان على اللبؤة. ظلت اللبؤة بلا حراك. وعندما أصبح مستوى سطح الماء عند خصر نيكول، فردت نيكول أذرعها على شكلِ مهد طفل صغير وأخذت تغني. لقد كانت تغني بلحن بسيط وعزب، ذلك اللحن الذي كانت تسمعه في بداية حياتها عندما كان يقبلها أحد والديها قبل نومها ويضعها في مهدها ثم يُطفئ الأنوار. أخذت الحيوانات الصغيرة تتجمع لدى سمعاها صوت امرأة ناعم تغني تهويدة برامز.

«استرخِ الآن واسترِح ... ولتنمْ نومًا هانئًا.»

ارتكزت اللبؤة على فخذها، وكشَّرت عن أنيابها تهديدًا بالانقضاض. لكن الفتاة استمرت في الغناء بنعومة، وواصلت خروجها من الماء صوبها. وعندما أصبح جسد نيكول كاملًا خارج المياه، على بعد خمسة أمتار فحسب، وثبت اللبؤة بعيدًا متجهة نحو البستان. واصلت نيكول المسير والتغني بالأغنية المهدئة التي منحتها الراحة والقوة. وفي دقائق معدودة عادت نيكول إلى حافة غابات السفانا. وبحلول وقت شروق الشمس وصلت إلى البركة حيث استلقت بين الأعشاب وغرقت سريعًا في سبات عميق. وجدها أوميه وكهنة السينوفو مستلقيةً هناك شبه عارية ولا تزال نائمة عندما كانت الشمس منتصبة في كبد السماء.

وهي تستطيع أن تتذكر الآن كل هذه الأحداث كما لو كانت البارحة. قالت نيكول في نفسها وهي مستلقية في فراشها الصغير على متن نيوتن: «مر ما يقرب من ثلاثين عامًا الآن، والدروس التي تعلمتها لم تفقد قيمتها قط.» تذكرت نيكول تلك الصبية الصغيرة البالغة من العمر سبعة أعوام التي سيقت إلى عالم غريب تمامًا وتمكنت من النجاة. فقالت في سرها: «إذَن فلماذا أرثي لحالي الآن؟ فذاك الموقف كان أكثر صعوبة وأشد وطأة.»

إن انغماس نيكول في تجربة طفولتها منحها قوة غير متوقعة. فلم تعد مهمومة ومحبطة. وعاد ذهنها يعمل بطاقة شديدة مرةً أخرى محاولًا أن يصوغ خطة تمنحها الإجابات الحرجة لما قد حدث في غضون العملية الجراحية التي أجريت لبورزوف. ونحَّت نيكول وحدتها جانبًا.

أدركت نيكول أنها يجب أن تظل موجودة على متن نيوتن في غضون الرحلة الأولى إذا أرادت أن تقوم بتحليل شامل لملابسات حادثة بورزوف كافة. وقررت أن تطرح القضية في الصباح أمام براون أو هيلمان.

وأخيرًا راحت المرأة المنهكة في النوم. وبينما كانت مَسُوقة إلى العالم المظلم الذي يفصل اليقظة عن النوم، أخذت تدندن بنغمة لنفسها. لقد كانت تهمهم بتهويدة برامز.

الفصل الحادي والعشرون

مكعب باندورا

رأت نيكول ديفيد براون جالسًا خلف مكتبه. وفرانشيسكا تميل نحوه، وهي تشير إلى شيء ما في رسم بياني كبير كان منبسطًا أمامهما. طرقت نيكول باب مكتب القائد.

قالت فرانشيسكا وهي تفتح الباب: «أهلًا بك يا نيكول. كيف يمكنني مساعدتك؟»

ردت نيكول: «أتيت لمقابلة دكتور براون. لمناقشته بشأن مهمتي.»

قالت فرانشيسكا: «تفضلي بالدخول.»

سارت نيكول بخطًا متثاقلة، وجلست على أحد المقعدين الموضوعين مقابل المكتب. وجلست فرانشيسكا على الآخر. نظرت نيكول إلى جدران المكتب. لقد تغيرت تمامًا. فصور زوجة الجنرال بورزوف وأولاده، ولوحته المفضلة التي كانت صورة طائر وحيد ذي جناحين منبسطين يحلق فوق نهر نيفا في لينينجراد، جميعها قد استبدلت برسومات بيانية ضخمة متوالية. وكان كل رسم بياني يعلوه اسم مختلف (الرحلة الأولى، الرحلة الثانية، وهلمَّ جرًّا)، وكانت تغطي لوحات الإعلانات من أحد أطراف الجدار إلى الطرف الآخر.

لقد كان مكتب الجنرال بورزوف دافئًا ويغلب عليه طابع الخصوصية. قطعًا أصبحت هذه الغرفة الآن عقيمة ومرعبة. كان الدكتور براون يعلق خلف مكتبه نسختين معدنيتين لاثنتين من أرفع الجوائز العلمية الدولية التي حصل عليها. وقد زاد أيضًا ارتفاع مقعده بحيث أصبح ينظر من عل لأي فرد آخر يجلس في الغرفة.

قالت نيكول: «لقد أتيت لأتحدث إليك في مسألة خاصة.» انتظرت نيكول بضع ثوانٍ متوقِّعة من ديفيد براون أن يطلب من فرانشيسكا أن تغادر الغرفة. لكنه لم ينطق بكلمة. وأخيرًا، طرفت بعينيها باتجاه فرانشيسكا كي توضح مخاوفها.

عندئذٍ فسَّر دكتور براون وجود فرانشيسكا قائلًا: «إنها تساعدني في مهامي الإدارية. لقد وجدت أن بصيرتها الأنثوية غالبًا ما تلتقط إشارات فاتتني تمامًا.»

مكثت نيكول صامتةً خمس عشرة ثانية أخرى. لقد كانت متأهبة للتحدث مع ديفيد براون. لكنها لم تكن متوقعة أن عليها أن تفسر كل الأمور لفرانشيسكا أيضًا. لذا، قالت في نفسها: «ربما عليَّ أن أغادر.» فقد فوجئت نيكول بتوترها من وجود فرانشيسكا هناك.

أخيرًا قالت نيكول بنبرة رسمية: «لقد قرأت مهام الرحلة الأولى، وأود أن أطلب طلبًا. إن مهامي كما هي موضحة في الجدول قليلة للغاية. ويبدو لي أن إيرينا تورجينيف سيكون لديها مهام بسيطة أيضًا في غضون الرحلة التي ستمتد ثلاثة أيام. لذا أقترح أن تكلف إيرينا بمهامي غير الطبية، وأظل أنا على متن نيوتن مع الفريق البحري هيلمان والجنرال أوتول. وسوف أتابع بعناية بالغة سيرَ البعثة، وسأُوجد على الفور عند حدوث أي مشكلة طبية خطيرة. فيما عدا ذلك يمكن لجانوس أن يتولى أمر المسئوليات البيولوجية.»

مرةً أخرى ساد الصمت الغرفة. نظر دكتور براون إلى نيكول ثم إلى فرانشيسكا. وفي آخر المطاف أجابتها فرانشيسكا قائلة: «لماذا تودِّين البقاء على متن نيوتن؟ لقد ظننت أنكِ تتلهَّفين لرؤيةِ ما بداخل راما.»

أجابتها نيكول بطريقة غامضة: «كما ذكرت من قبل، إنها مسألة شخصية بالدرجة الأولى. ما زلت مرهقة للغاية من جرَّاء محنة بورزوف، ولديَّ كثير من العمل المكتبي لأنهيه. إلى جانب أن الرحلة الأولى سهلة. لذا أود أن أستريح تمامًا وأستعد للرحلة الثانية.»

قال ديفيد براون: «إنه لطلب غريب جدًّا، لكن في ظل الظروف الحالية، أعتقد أنه يمكننا أن نفعل هذا.» ثم طرَف بعينيه مرة أخرى إلى فرانشيسكا واسترسل قائلًا: «لكن هل يمكنك أن تسدي إلينا خدمة؟ إذا كنت لا تنوين دخول راما، أفيمكنك إذَن أن تتناوبي العمل مع أوتول كضابط اتصالات بين الفينة والفينة؟ من ثَم يتسنى للفريق البحري هيلمان أن يدخل راما ...»

أجابته نيكول قبل أن ينهي كلامه: «بالطبع.»

رد عليها: «حسنًا. أعتقد أننا متفقان جميعًا. وسوف نغير بيان الرحلة الأولى. وأنت ستبقين على متن نيوتن.» بعد أن أنهى دكتور براون حديثه، لم تبرح نيكول كرسيها. فسألها وقد بدأ صبره ينفد: «أي خدمة أخرى؟»

أجابت: «وفقًا للإجراءات التي نتبعها، يعد الطبيب المسئول مذكرة اعتماد لرواد الفضاء قبل كل رحلة. أينبغي أن أقدم نسخة منها إلى الفريق البحري ...»

قاطعها دكتور براون: «أعطيني كل هذه المذكرات. فالفريق البحري هيلمان غير معني بشئون العاملين.» نظر العالم الأمريكي إلى نيكول مباشرة. واستطرد قائلًا: «لكنك

لست مضطرة لأن تعدي تقارير جديدة للرحلة الأولى. لقد قرأت كل الوثائق التي قدمتِها للجنرال بورزوف. وأرى أنها كافية تمامًا.»

لم تترك نيكول الفزع من نظرة الرجل الحادة الثاقبة يستبد بها. ففكرت في نفسها: «إذَن أنت تعرف ما قد كتبته عنك وعن ويلسون، وأنت تعتقد أنني ينبغي أن أشعر بالذنب أو بالخجل. حسنًا، أنا لا أشعر بهذا. ونظرتي لم تتغير لمجرد أنك أصبحت الآن المسئول من الناحية الظاهرية فقط.»

في تلك الليلة واصلت نيكول تحقيقاتها. وقد أظهر تحليلها المفصَّل لبيانات الإحصاء البيولوجي الخاصة بالجنرال بورزوف، أنه قد تناول جرعات غير معتادة من مادتين كيميائيتين غريبتين قبل موته مباشرة. ولم تستطِع نيكول أن تكتشف مصدرهما. هل تناول دواءً دون علمها؟ هل من الممكن أن تكون تلك المواد الكيميائية المعروفة، وهي تسبب الألم (تُستخدم هذه المواد، وفقًا للموسوعة الطبية، لاختبار حساسية الألم لدى المرضى المصابين بالتهاب الأعصاب)، صُنعت داخليًّا بطريقةٍ ما نتيجة تفاعل الحساسية؟

وماذا عن جانوس؟ لماذا لا يتذكر وصوله إلى صندوق التحكم؟ ولماذا بات قليل الكلام ومنطويًا على نفسه منذ موت بورزوف؟ بدأت نيكول بعد منتصف الليل في غرفتها تستقبل الأفكار الغزيرة المتدفقة على ذهنها. قالت في سرها: «اليوم سيدخل أفراد الطاقم إلى راما وسأمكث أنا هنا وحدي. عليَّ أن أنتظر حتى ذلك الحين لأواصل بحثي.» غير أن نيكول لم تستطِع أن تُنحي كل الشكوك المتدفقة على ذهنها جانبًا. واستطردت تقول في نفسها: «أثَمَّة علاقة بين جانوس والدواء المكتشف في جسم بورزوف؟ هل من الممكن أن يكون موته ليس مجرد حادث عرَضي بالمرة؟»

أخرجت نيكول حقيبتها الخاصة من الخزانة الصغيرة. وفتحتها بعجالة فتبعثرت محتوياتها. أمسكت نيكول بمجموعة من صور عائلتها المتناثرة فوق سريرها. ثم جمعت معظم باقي الأشياء وأرجعتها إلى حقيبتها. احتفظت نيكول في يدها بمكعب البيانات الذي كان قد منحها إياه الملك هنري في دافوس.

ترددت قبل أن تدخل المكعب. وأخيرًا أخذت نفسًا عميقًا ووضعت المكعب في قارئ البيانات الإلكتروني. وعلى الفور ظهر على الشاشة قائمة تحتوي على ثمانية عشر ملفًّا. وكان بإمكانها أن تختار أيًّا من اثني عشر ملفًّا يخصون كل فرد من رواد الفضاء، أو أيًّا من ست مجموعات وثائق حول إحصاءات الطاقم. اختارت نيكول الملف الخاص بجانوس

تابوري. كان هناك ثلاث قوائم فرعية تدور حول سيرته الذاتية: أولها قائمة بالبيانات الشخصية، ونبذة تاريخية، ثم تقييم نفسي. واستطاعت أن تستشف من أحجام الملفات المدرجة أن النبذة التاريخية تحتوي على معظم التفاصيل. فتحت نيكول ملف البيانات الشخصية أولًا كي تعتاد شكل الملفات.

لم يضف الجدول المختصر كثيرًا إلى معلوماتها. فجانوس يبلغ من العمر واحدًا وأربعين عامًا وعازب. وقبل أن يلتحق بالعمل لدى وكالة الفضاء العالمية كان يعيش بمفرده في مسكن في بودابست على بعد أربعة مبانٍ فحسب من منزل والدته التي طُلقت مرتين وتعيش بمفردها. وحصل جانوس على درجة البكالوريوس في الهندسة من جامعة المجر عام ٢١٨٣. إضافة إلى معلومات عادية مثل الطول، والوزن، وعدد الأشقاء، ويُدرج أيضًا في الجدول عدد من الأرقام مثل «تقييم الذكاء» و«معامل التكيف الاجتماعي». كان رقم تقييم الذكاء +٣,٣٧، ومعامل التكيف الاجتماعي ٦٤.

رجعت نيكول إلى القائمة الرئيسية واستدعت مسرد المصطلحات لتسترجع تعريف تقييم الذكاء ومعامل التكيف الاجتماعي. كان المفترض أن رقم تقييم الذكاء يشير إلى القياس المركب للذكاء الشامل بالاستناد إلى مقارنة بأقرانه الطلاب حول العالم. فقد حصل كافة الطلاب على مجموعة من الاختبارات القياسية الموحدة عند وصولهم إلى فترة عمرية معينة، بين الثانية عشرة والعشرين. ودائمًا ما كان يشير المؤشر إلى أس في نظام عشري للقياس. والفرد الذي كان يحصل على صفر في هذا المقياس يعني أنه متوسط الذكاء. أما الرقم +١,٠٠ فقد كان يشير إلى أن مستوى ذكاء الفرد يفوق ٩٠٪ من السكان، والرقم +٢,٠٠ يعني أن مستوى الذكاء يفوق ٩٩٪ من السكان، والرقم +٣,٠٠ يعني أن مستوى الذكاء يفوق ٩٩,٩٪ من السكان، وهلم جرًّا. أما مؤشرات تقييم الذكاء السالبة فهي تشير إلى ذكاء دون المستوى. وقد حصل جانوس على +٣,٣٧؛ مما جعله يتبوأ قمة الفئة التي تمثل ٠,١٪ من السكان.

أما رقم معامل التكيف الاجتماعي فقد كان هناك تفسير أكثر بساطة. لقد كان يقوم أيضًا على مجموعة من الاختبارات القياسية الموحدة التي يخضع لها كافة الطلاب في المرحلة العمرية ما بين الثانية عشرة والعشرين، لكن التفسير هنا كان أيسر في فهمه. فقد كانت أعلى درجة هي ١٠٠. فالشخص الذي كان يقترب من رقم ١٠٠، هو شخص بالفعل يحبه الجميع ويحترمونه، ويمكنه أن ينسجم مع أي مجموعة تقريبًا، ولا يكون محبًّا للنزاع البتة أو متقلب المزاج، ويكون جديرًا بالثقة للغاية. وثمة حاشية ملحقة بتفسير كيفية قياس معامل التكيف الاجتماعي تقر بأن الاختبارات التحريرية لا يمكنها

أن تقيس بالضبط الخصال الشخصية في كل الأحوال، وعليه ينبغي استخدام هذه الأرقام بحذر.

وكانت نيكول تذكر نفسها من وقت لآخر بأن تقارن فيما بين درجات تقييم الذكاء ومعامل التكيف الاجتماعي لسائر الرواد. بعدئذٍ دخلت على ملف النبذة التاريخية الخاص بجانوس تابوري. وعلى مدار ستين دقيقة تالية ظلت نيكول مشدوهة. فبصفتها الطبيبة المسئولة، فحصت نيكول بالطبع الملفات الرسمية للعاملين بوكالة الفضاء العالمية الخاصة بكل أفراد الطاقم. وإذا كانت بيانات جانوس تابوري الموجودة على المكعب الذي أعطاها إياه الملك هنري صائبة (وهي لا تملك أي طريقة للمعرفة على أي حال)، فإن ملفات وكالة الفضاء العالمية تكون ناقصة للأسف.

كانت نيكول تعرف من قبلُ أن جانوس اختير مرتين ليكون الطالب المثالي في كلية الهندسة بجامعة المجر، لكنها لم تكن تعلم أنه كان يرأس جمعية بودابست للطلاب الشواذ على مدار عامين. وكانت على علم بأنه التحق بأكاديمية الفضاء عام ٢١٩٢ وأنهى دراسته في ثلاث سنوات فحسب (يُعزى ذلك إلى خبرته السابقة مع المشاريع السوفييتية الهندسية الضخمة)، لكنها لم تُخبر على الإطلاق أنه تقدم مرتين من قبل للالتحاق بالأكاديمية ورُفض في المرتين. فبالرغم من إحرازه لدرجات مرتفعة للغاية تمكنه من الالتحاق، فقد أخفق مرتين في المقابلات الشخصية التي أجراها، وفي كلتا المرتين كان الجنرال فاليري بورزوف هو الذي يرأس لجنة المقابلات الشخصية. وكان جانوس ناشطًا في العديد من منظمات الشواذ حتى عام ٢١٩٠. ومنذ ذلك الحين استقال منها جميعًا ولم يعد ينضم إلى أي أنشطة للشواذ أو يشارك فيها. ولم يكن أيٌّ من هذه المعلومات مسرودًا في الملف الخاص به بالوكالة.

اندهشت نيكول كثيرًا مما علمت. ولم يكن ما أزعجها هو أن يكون جانوس شاذًّا (أو كان)، فلم يكن لدى نيكول محاباة أو تحيز عندما يتعلق الأمر بمسألة التوجه الجنسي. لكن ما أثار سخطها في المقام الأول هو احتمالية أن يكون الملف الرسمي الخاص به قد خضع عن عمد لإخفاء أي إشارات إلى الشذوذ الجنسي أو تعامله السابق مع الجنرال بورزوف.

وكانت المدخلات الأخيرة أيضًا في النبذة التاريخية مفاجئة لنيكول. فطبقًا لما جاء بالملف، إنه من المفترض أن جانوس قد وقع عقدًا مع شميت وهاجينيست، شركة النشر الألمانية الاحتكارية، في الأسبوع الأخير من ديسمبر، قُبيل الانطلاق مباشرة. وكان دوره يتمحور حول تقديم بعض «الأمور الاستشارية» المبهمة لمجموعة كبيرة

من المساعي الإعلامية في المرحلة التي تعقب عودة نيوتن، في مساندة لما يُعرَف بـ «مشروع براون–ساباتيني». وقد حصل الرائد الفضائي جانوس على أتعاب مبدئية قدرها ثلاثمائة ألف مارك ألماني عند التوقيع. وبعد مرور ثلاثة أيام دخلت والدته — التي كانت تنتظر ما يقرب من عام زراعة مخ صناعي جديد كي يبطل التلف الناجم عن مرض زهايمر — مستشفى بافارين في ميونيخ لإجراء عملية جراحية في جهازها العصبي.

أصيبت عينا نيكول بإجهاد وحرقان شديدين؛ فقد أنهت ملف دكتور ديفيد براون الشامل. وفي غضون الساعات التي كانت تدرس فيها النبذة التاريخية الخاصة به، صنعت لنفسها ملفًّا فرعيًّا خاصًّا للبنود المتضمنة في النبذة التي كانت ذات أهمية خاصة لها. وقبل أن تترك نفسها للنعاس مجددًا، أخذت نيكول تجول في هذا الملف الفرعي الخاص مرة أخرى.

في صيف عام ٢١٦١: التحق براون الذي كان آنذاك في الحادية عشرة من عمره، بمعسكر لونجهورن تبعًا لرغبة والده رغم معارضة والدته الشديدة. وكان يميز هذه المعسكرات الصيفية النموذجية التي تقع في ريف جبلي بولاية تكساس، المعدة من أجل غلمان الطبقة الأرستقراطية، توافر الألعاب الرياضية من كل نوع، مثل الرماية، والحِرف اليدوية، والتنزه سيرًا على الأقدام. وكان كل عشرة غلمان يعيشون في ثُكنة واحدة، ولم يكن براون يتمتع بأي شعبية على الإطلاق. وفي اليوم الخامس من المعسكر، أمسك به رفقاء الحجرة وهو خارج من الحمام بعد الاستحمام ودهنوا أعضاءه الجنسية باللون الأسود. رفض براون التحرك من فراشه إلى أن وصلت والدته التي قطعت مسافة نحو مائتَي ميل كي تأخذه وتعود به إلى المنزل. وبعد هذه الحادثة تجاهل الأب ابنه تمامًا.

في سبتمبر ٢١٦٦: بعد أن تخرَّج من إحدى المدارس الثانوية الخاصة بأعلى الدرجات، التحق بكلية الفيزياء بجامعة برينستون. لكنه لم يمكث في نيو جيرسي سوى ثمانية أسابيع. وأنهى دراسته الجامعية من جامعة سازرن ميثوديست وهو جالس في المنزل.

يونيو ٢١٧٣: حصل على درجة الدكتوراه في الفيزياء وعلم الفلك من جامعة هارفارد. وقال عنه ويلسون براونيل، الذي كان يشرف على رسالته، إنه: «طالب طموح ومجتهد.»

يونيو ٢١٧٥: أنهى براون بحث ما بعد الدكتوراه حول نشوء النجوم بالتعاون مع برين موريتشسون بجامعة كامبريدج.

أبريل ٢١٨٠: تزوَّج من جانيت هادسون من مدينة باسادينا بكاليفورنيا. وكانت السيدة هادسون قد تخرجت في كلية علم الفلك بجامعة ستانفورد. وقد أنجبا طفلتهما الوحيدة أنجيلا في ديسمبر ٢١٨٤.

نوفمبر ٢١٨١: رفضت لجنة التقييم بقسم دراسة علم الفلك بجامعة ستانفورد تعيينه في القسم؛ إذ اعتقد اثنان من أعضاء اللجنة أن براون قد زيف بعض البيانات العلمية في العديد من منشوراته العلمية. ولم يُبت في هذه القضية بعد.

يناير ٢١٨٤: عُين في اللجنة الاستشارية الأولى بوكالة الفضاء العالمية. وقد أعدَّ خططًا شاملة لنشر سلسة من التلسكوبات الفلكية الحديثة الكبيرة في الجانب المعتم للقمر.

مايو ٢١٨٧: رأَس براون قسم الفيزياء والفلك في جامعة سازرن ميثوديست بدالاس في تكساس.

فبراير ٢١٨٨: الشجار مع ويندل توماس، المدرس بجامعة برينستون، في الرواق خارج اجتماع الجمعية الأمريكية لتطوير العلوم الذي عُقد بشيكاجو. وكان توماس قد أصر على أن براون سرق بعض الأفكار التي كانا قد ناقشاها معًا ونشرها باسمه.

أبريل ٢١٩٠: أثار ضجة في الدوائر العلمية، ليس فقط عن طريق نشر النماذج المنقطعة النظير لعملية انفجارات السوبرنوفا، ولكن أيضًا لتنبئه بحدوث عملية انفجارات السوبرنوفا في منتصف مارس عام ٢١٩١. وقد جرى هذا البحث بالتعاون مع إيلين برنستن القادمة من نيويورك، التي كانت تعد الدكتوراه في جامعة سازرن ميثوديست. وقد أكد زملاؤها بشدة على أنها تتمتع بالفعل ببصيرة نافذة. وانطلق براون إلى عالم الشهرة، نتيجة لتنبئه الجريء والصائب.

يونيو ٢١٩٠: طلق براون زوجته التي كان منفصلًا عنها ثمانية عشر شهرًا. وقد بدأ الانفصال بعد ثلاثة أشهر من بدء إيلين برنستن دراستها العليا.

ديسمبر٢١٩٠: زواجه من الآنسة برنستن في دالاس.

مارس ٢١٩١: سطوع سوبرنوفا ٢١٩١ في السماء المظلمة كما تنبأ براون وآخرون.

يونيو ٢١٩١: توقيع براون عقد تحرير مقالات علمية مع هيئة الإذاعة الكولمبية مدته سنتان. انتقل بعدها إلى العمل بجامعة كولمبيا البريطانية عام ٢١٩٤، ثم إلى المحطة التلفزيونية «أي إن إن» في ٢١٩٧ بتزكية من وكيل أعماله.

ديسمبر ٢١٩٣: مُنح أعلى ميداليات وكالة الفضاء العالمية نظير إنجازاته العلمية البارزة.

نوفمبر ٢١٩٩: وقع عقدًا حصريًّا بملايين الماركات لعدة سنوات مع شميت وهاجينيست لـ «استغلال» تطبيقات بعثة نيوتن التجارية الممكنة كافة، بما في ذلك الكتب والفيديوهات والمواد التعليمية. وقد كوَّن فريقًا بمشاركة فرانشيسكا ساباتيني باعتبارها مديرًا آخر للمشروع، ورائدَي الفضاء هيلمان وتابوري باعتبارهما مستشارين. وقد حصل نظير التوقيع على مليونَي مارك أُودعت في حساب سري بإيطاليا.

أيقظ المنبه نيكول بعد أن راحت في سبات لما يقرب من ساعتين فحسب. وبصعوبة شديدة غادرت فراشها، وأنعشت جسدها بالاستحمام في الحوض القابل للطي. ثم تحركت بتؤدة في الممر وانعطفت نحو الردهة. كان يجتمع هناك الرواد الأربعة الجدد حول ديفيد براون في مركز التحكم في استطلاع متحمس لتفاصيل الرحلة الأولى.

كان ريتشارد ويكفيلد يقول: «حسنًا، سنركز اهتمامنا على المقاعد الفردية الطائرة الخفيفة الوزن بالقرب من درجات السلم اليمنى واليسرى، وسنعمل مصعدًا للأحمال الثقيلة يمتد من المحور إلى السهل الرئيسي. وعندئذٍ يمكننا أن نقيم مركز تحكم مؤقتًا على حافة السهل، ثم نجمع أجزاء الطوافات الثلاثة ونختبر عملها. وسنبيت هذه الليلة في مخيمات مؤقتة، ثم نقيم مخيمًا في موقع بيتا بالقرب من حافة البحر الأسطواني غدًا. وسوف نرجئ تجميع الطائرتين المروحيتين وإطلاقهما للغد، أما ناقلات الطوارئ والقوارب البخارية فلليوم الثالث.»

أجاب دكتور براون: «إنه لموجز رائع. وستذهب فرانشيسكا مع أربعتكم وأنتم تؤسسون البنية التحتية هذا الصباح. وعندما تنتهون من تثبيت المقاعد الخفيفة الوزن وتشغيلها، سوف نلحق بكم أنا والفريق البحري هيلمان بمعية دكتور تاكاجيشي والسيد ويلسون. سنبيت جميعنا بداخل راما الليلة.»

سأل جانوس تابوري إيرينا تورجينيف: «كم معك من الشُّعَل التي تستمر مضاءة لفترة طويلة؟»

أجابته إيرينا: «اثنتا عشرة. ويُفترض أنها تكفي ليوم.»

قال دكتور تاكاجيشي: «والليلة، عندما نذهب للمبيت هناك، ستكون ليلة حالكة السواد أكثر من أي ليلة شاهدتموها في حياتكم قط. فلن يكون هناك قمر أو أي نجوم أو انعكاس لأي ضوء من الأرض، فقط ظلام مُدلهم في كل الأرجاء.»

سأل ويكفيلد: «وكم ستكون درجة الحرارة؟»

أجابه العالم الياباني: «نحن لا نعلم بالضبط. وطائرات الاستطلاع الخارجية لا تحمل سوى كاميرات. لكن درجة الحرارة في المنطقة بالقرب من طرف النفق كانت هي نفسها في مركبة راما ١. وإن دل ذلك على شيء، فإنه يدل على أن درجة الحرارة ينبغي أن تكون نحو عشر درجات تحت درجة التجمد في موقع المخيم.» وانقطع تاكاجيشي عن الكلام لحظة. ثم تابع قائلًا: «وتصبح أكثر دفئًا. ونحن نوجد الآن داخل مدار كوكب الزهرة. ونتوقع سطوع الضوء في غضون ثمانية أيام أُخر أو تسعة، يعقب ذلك مباشرةً ذوبان البحر الأسطواني بدءًا من القاع.»

عندئذٍ قاطعه ديفيد براون بسخرية: «مهلًا. تتكلم وكأنك واثق تمامًا من كل ما تقوله. ولا تبدو محددًا في «كل» عباراتك، بل في بعضها فقط.»

أجاب تاكاجيشي: «لأن كل البيانات الخاصة بهذه السفينة الفضائية تشير إلى أنها تشبه مثيلتها التي كانت موجودة منذ سبعين عامًا مضت، وكل مدًى تزداد احتمالية أن تكونا متطابقتين. وحتى الآن، إذا غضضنا الطرف عن التوقيت الدقيق لمناورة التصحيح، نجد أن المركبتين متطابقتان في كل شيء.»

دنت نيكول من الجماعة. فقال جانوس بابتسامته العريضة المعهودة: «انظروا، مَن هنا! الرائدة الخامسة والأخيرة.» ولاحظ جانوس عينَي نيكول المنتفختين. فأردف قائلًا: «إن قائدنا الجديد محق. فأنت تبدين بالفعل بحاجة ماسة إلى بعض الراحة.»

قاطعه ريتشارد ويكفيلد: «أما أنا فأشعر بالإحباط؛ لأن الذي سيساعدني الآن في تجميع الطوافة هو ياماناكا بدلًا من السيدة نيكول. فعلى الأقل يمكنني أن أتجاذب مع الطبيبة أطراف الحديث. ربما عليَّ أن أتلو على نفسي أعمال شكسبير كي أبقى مستيقظًا.» ثم ضرب ياماناكا في ضلوعه مداعبًا إياه. ابتسم الطيار الياباني ابتسامة خفيفة.

قالت نيكول: «أتمنى لكم جميعًا حظًّا سعيدًا. ولكن كما تعلم، فأنا متيقنة من أن دكتور براون قد أخبرك، ما زلت أشعر بالإعياء الشديد حتى إنني لن أستطيع مساعدتك. وينبغي أن أسترد نشاطي وأتهيأ للرحلة الثانية.»

علقت فرانشيسكا ساباتيني، وقد نفد صبرها، بعدما جالت بكاميراتها في كل أرجاء الغرفة، والتقطت لقطة أخيرة قريبة لكل وجه: «حسنًا. هل أنتم مستعدون الآن؟»

قال ويكفيلد: «هيا بنا.» ثم اتجهوا صوب غرفة معادلة الضغط في مقدمة سفينة الفضاء نيوتن.

الفصل الثاني والعشرون

الفجر

اشتغل ريتشارد ويكفيلد بعجلة في الليل الذي بدأ يرخي سدوله. وكان في منتصف سلم ألفا، حيث وصلت شدة الجاذبية إلى أكثر من ربع جي بسبب القوة الطاردة المركزية الناجمة عن دوران راما السريع. وكان الضوء المنبعث من خوذته ينير النطاق القريب منه. وكان قد أوشك على الانتهاء من عمل برج أسلاك آخر.

فحص إمداد الهواء. كان قد وصل بالفعل إلى أقل من النصف. كان ينبغي أن يكونوا الآن على عمق أكبر في راما بالقرب من المكان الذي يمكنهم أن يتنفسوا فيه الهواء المحيط. غير أنهم أساءوا تقدير الوقت المطلوب منهم كي يثبتوا التلفريك الخفيف الوزن. لقد كانت فكرة تركيبه نفسها بسيطة للغاية، ولطالما مارسوها لمرات عديدة في غضون تمرينات المحاكاة. وكان الجزء الأساسي في المهمة بسيطًا نسبيًّا عندما كانوا على مقربة من درجات السلم ومنعدمي الوزن فعليًّا. لكن عند هذا المستوى كان يعد تثبيت كل برج من أبراج الأسلاك عملية مختلفة تمامًا عن مثيلاتها بسبب زيادة الجاذبية وتغيرها.

وعلى بعد ألف خطوة بالتمام فوق ويكفيلد، كان جانوس تابوري قد أنهى لف حبال التثبيت حول العوارض المعدنية التي تربط درجات السلم. وبعد مرور ما يقرب من أربع ساعات من العمل الممل والمتكرر شعر بالإعياء. لقد تذكر الجدال الذي دار مع المدير الهندسي حينما اقترح هو وريتشارد استخدام آلة مخصصة لتركيب المصاعد. قال الرجل: «إنه لإهدار للمال أن نصنع إنسانًا آليًّا خاصًّا لغرض لن يتكرر. فالإنسان الآلي لا يكون نافعًا إلا في حال استخدامه في مهام متكررة.»

نظر جانوس أسفله لكنه لم يستطِع أن يرى أبعد من البرج التالي، على بعد مائتَي وخمسين درجة لأسفل. قال جانوس لويكفيلد عبر جهاز الاتصال: «ألم يحن وقت الغداء بعد؟»

رد عليه ويكفيلد: «ربما، لكننا بعيدون جدًّا. ونحن لم نرسل ياماناكا وتورجينيف إلى سلم جاما إلا الساعة العاشرة والنصف. ووفقًا للمعدل الذي نسير به، سنكون محظوظين إذا ما انتهينا من هذا التلفريك ومن المخيمات المؤقتة اليوم. وسيتعين علينا أن نرجئ تركيب مصعد الحمولة الثقيلة وتجميع الطوافات إلى الغد.»

ومن الجانب الآخر من التجويف سمع كلاهما إيرينا: «أنا وهيرو نأكل بالفعل. فقد كنا جوعانين. لقد انتهينا من عمل حامل المقاعد والمحرك العلوي في نصف ساعة. ونحن الآن نعمل في برج الأسلاك رقم ١٢.»

قال ويكفيلد: «أحسنتما. لكن أود أن أنبهكما أنكما الآن تعملان في الجزء اليسير، أقصد حول السلالم وأعلاها. إن العمل في حال انعدام الوزن مختلف تمامًا. انتظرا حتى تتغير الجاذبية بدرجة ملحوظة من موقع لآخر وستريا.»

في تلك الأثناء تدخَّل دكتور تاكاجيشي في الحديث قائلًا: «وفقًا لجهاز تحديد المدى الذي يعمل بالليزر، يبعد الرائد ويكفيلد عني بنحو ٨٫١٣ كيلومترات بالتمام.»

أجابه ويكفيلد: «هذا لا يعني شيئًا يا بروفيسور، إلا إذا علمت مكانك.»

أجابه: «أنا أقف على الحافة خارج محطة الاتصال الخاصة بنا مباشرة، بالقرب من قاع سلالم محطة ألفا.»

قال جانوس: «هيا يا شيج، ألا تتفقون أنتم الشرقيين مع سائر أجناس العالم؟ لقد استقرت سفينة نيوتن بـ «أعلى» راما، وأنت الآن تقف بـ «أعلى» درجات السلم. فإن كنا لا نتفق هنا ولا على الأرض، فكيف يمكننا أن نأمل في أن يعبر بعضنا لبعض عن مشاعرنا العميقة؟ كيف سيمكننا أن نلعب الشطرنج معًا.»

«شكرًا لك جانوس. أنا بـ «أعلى» درجات سلم محطة ألفا. وبالمناسبة، ماذا تفعل؟ فالمدى الذي تسير به يتزايد بسرعة.»

رد عليه: «أنا أهبط السلم كي أقابل ريتشارد لتناول الغداء. فأنا لا أحبذ تناول السمك ورقاقات البطاطس بمفردي.»

قالت فرانشيسكا: «أنا أيضًا سأهبط لتناول الغداء. لقد انتهيت لتوي من تصوير عرض رائع لقوة كوريوليس، بمساعدة هيرو وإيرينا. ستكون رائعة لصفوف تعلم المبادئ الفيزياء الأساسية. سأكون هناك في غضون خمس دقائق.»

قال ويكفيلد مرةً أخرى: «أخبريني يا سيدتي، هل من الممكن أن تساعدينا في بعض العمل الجاد؟ لقد انقطعنا عن عملنا لكي نقوم ببعض الأشياء التي تساعدك في تصويرك، فربما يمكننا أن نتبادل المنفعة الآن.»

أجابته فرانشيسكا: «لديَّ الرغبة في هذا. سأساعدكم بعد تناول الغداء. لكن ما أريده الآن هو بعض الضوء. أيمكنك أن تستخدم إحدى شعلاتك، وتدعني ألتقط بعض اللقطات لك أنت وجانوس وأنتما تتنزهان فوق درجات السلم؟»

برمج ويكفيلد إحدى الشعل بحيث تشتعل اشتعالًا متأخرًا وتسلق ثمانين درجة حيث أقرب حافة. وصل تابوري إلى نفس البقعة قبل أن تتوهج الشعلة بنصف دقيقة. وعلى بعد كيلومترين لأعلى، تحركت فرانشيسكا بكاميراتها عبر السلالم الثلاثة، ثم قربت عدستها على الجسمين اللذين يجلسان القرفصاء على الحافة. ومن هذه الزاوية، بدا ريتشارد وجانوس كنَسرَين يُعششان في وكرهما أعلى جبل.

بحلول المساء كان تلفريك ألفا منتهيًا وجاهزًا للتجريب. قال ريتشارد ويكفيلد لفرانشيسكا: «بما أنك مستعدة للمساعدة، فسوف نجعلك أول عميل يجربه.» وقد كانوا يقفون وسط أقصى مدًى للجاذبية عند قاع السلالم الخلابة. فثَمة ثلاثون ألف درجة سلم ممتدة عبر ظلام السموات الصناعية فوقهم. وإلى جانبهم في السهل المركزي، كان المحرك الخفيف الوزن جدًّا، ومحطة توليد الطاقة المحمولة التي تدار ذاتيًّا، التي تُستخدم لتشغيل التلفريك، يعملان بالفعل. وكان الرواد قد نقلوا نظم التشغيل الفرعية الكهربائية والميكانيكية في قطع مفككة على ظهورهم، ولم يتجاوز تجميعها ساعة.

شرح ويكفيلد لفرانشيسكا: «المقاعد الصغيرة لا تتصل بالتلفريك دائمًا. توجد آلية في كل طرف تعمل على ربط المقاعد أو فصلها. وعلى هذا النحو، ليس بالضرورة أن يوجد عدد لا نهائي من المقاعد.»

بعد تردد شديد جلست فرانشيسكا فوق أحد المقاعد المصنوعة من البلاستيك التي كانت على شكل مجموعة من السلات المتشابهة المتدلية من تلفريك جانبي. وقالت له وهي تحملق في الظلام الحالك الذي يعلوها: «أمتيقن من أنه آمن؟»

ضحك ريتشارد وقال: «بالطبع. إنه مطابق تمامًا للنموذج الذي أعددناه في تدريبات المحاكاة. وسأجلس أنا على المقعد التالي خلفك مباشرة، فهو لا يبعد عنك سوى دقيقة واحدة، أو أربعمائة متر أسفل منك. وتستغرق الرحلة من القاع حتى القمة أربعين دقيقة. ويُقدر متوسط السرعة بأربعة وعشرين كيلومترًا لكل ساعة.»

أخذت فرانشيسكا تذكر نفسها بالتعليمات قائلة: «وليس عليَّ فعل شيء، سوى أن أبقى في مكاني وأتشبث جيدًا، وأن أشغل نظام التنفس على بعد نحو عشرين دقيقة من القمة.»

وذكَّرها ويكفيلد مبتسمًا: «ولا تنسي أن تُحكِمي تثبيت حزام الأمان. وإذا أبطأ التلفريك أو توقف بالقرب من القمة، حيث تكونين منعدمة الوزن، فإن قوتك الدافعة يمكنها أن تجعلك تُبحرين في فضاء راما»، ثم ابتسم ابتسامة عريضة. وتابع قائلًا: «ولكن، نظرًا لأن كل عربات التلفريك تدور بجانب السلالم، يمكنك في حالة الطوارئ أن تتسلقي خارج عربتك وتعودي إلى المحور على طول السلالم.»

أومأ ريتشارد برأسه، فشغل جانوس تابوري المحرك. ارتفعت فرانشيسكا عن الأرض، وعلى الفور اختفت أعلى منهم. قال ريتشارد لجانوس: «سوف أذهب لأتفقد جاما بعدما أتأكد من أنكم في مساركم. وينبغي أن يكون النظام الثاني أيسر. وإذا تعاونا معًا فينبغي أن ننتهي من العمل في موعدٍ أقصاه الساعة ١٩:٠٠.»

علَّق جانوس: «بوصولك إلى القمة سأكون قد انتهيت من تجهيز المخيم. أتعتقد أنه لا يزال من المفترض أن نمكث هنا هذه الليلة؟»

أجاب ديفيد براون من أعلى: «هذا لا يبدو معقولًا.» وكان من المقرر أن يرصد هو أو تاكاجيشي كل الاتصالات الدائرة بين الرواد طوال اليوم. وأردف يقول: «الطوافات غير جاهزة بعد. كنا نأمل أن نقوم ببعض الاستطلاعات غدًا.»

رد ويكفيلد: «إذا أنزل كل واحد منا بعض الأنظمة الفرعية، يمكننا أن نجمع أنا وجانوس طوافة الليلة قبل أن نخلد إلى النوم. أما الطوافة الثانية فمن المحتمل أن تكون قيد التشغيل قبل ظهر الغد ما لم تواجهنا أي عقبات.»

أجابه دكتور براون: «هذا سيناريو محتمل. لنَرَ حجم التقدم الذي أحرزناه، ومدى تحمل كل واحد على مدار الساعات الثلاثة القادمة.»

تسلَّق ريتشارد إلى مقعده الصغير وانتظر حتى تقوم خوارزميات التحميل الآلي الموجودة في المعالج بتوصيل مقعده بعربة التلفريك. وعندئذٍ قال لجانوس وهو يهم بالصعود: «على أي حال، شكرًا جزيلًا على مزاحك اللطيف اليوم. فلولا دعاباتك لما استطعت أن أكمل اليوم.»

ابتسم جانوس ولوَّح لصديقه. وعندما نظر ريتشارد ويكفيلد لأعلى من مقعده المتحرك، استطاع بصعوبة شديدة أن يلمح النور المنبعث من خوذة فرانشيسكا. وقال في نفسه: «إنها تعلوني بأكثر من مائة طابق تقريبًا. لكن هذا لا يمثل سوى اثنين ونصف في المائة من المسافة من هنا حتى المحور. هذا المكان ضخم.»

وضع ويكفيلد يده في جيبه وأخرج محطة الأرصاد الجوية المحمولة التي طلب منه تاكاجيشي أن يحملها معه. لقد أراد منه البروفيسور وصفًا دقيقًا لكل المعالم الجوية في

التجويف القطبي الشمالي من راما. وكان لكثافة الهواء ودرجة حرارته في مقابل المسافة الموجودة أسفل غرفة معادلة الضغط أهميةٌ خاصة لنماذج الدوران.

رصد ويكفيلد قراءات الضغط التي بدأت من ١٫٠٥ بار، أي أقل بكثير من مستوياته عند سطح الأرض، وتوالت في الانخفاض بنمط ثابت لا يزيد أو ينقص. أما درجة الحرارة فقد ظلت ثابتة عند ٨ درجات مئوية تحت الصفر. مال ريتشارد للخلف وأغمض عينيه. إنه لشعور غريب وأنت تحلق في سلة لأعلى أكثر فأكثر في الظلام. خفض ريتشارد صوت إحدى قنوات الاتصال في جهاز الاتصال الخاص به، وكانت المحادثة الوحيدة الجارية بين ياماناكا وتورجينيف اللذين لم يكن لديهما كثير ليقولاه. ثم رفع صوت السيمفونية السادسة لبيتهوفن التي كانت تُعزف في خلفية محطة أخرى.

وبينما كان ينصت إلى الموسيقى، تفاجأ ريتشارد كيف أن رؤياه التخيلية لغدران المياه والأزهار والمراعي الخضر على كوكب الأرض أثارت بداخله حنينًا شديدًا للوطن. لقد كان الأمر شبه مستحيل له أن يسبر غور التسلسل الإعجازي للأحداث الذي حمله من طفولته في ستراتفورد إلى جامعة كامبريدج ثم إلى أكاديمية الفضاء في كولورادو، ثم أخيرًا هنا في راما حيث يركب التلفريك في الظلام ليحمله عبر السلالم.

قال ريتشارد في نفسه: «لا بروسبيرو ولا أي ساحر يمكنه أن يتخيل قط مثل هذا المكان.» تذكر ريتشارد رؤيته لمسرحية «العاصفة» (ذا تيمبست) لأول مرة حينما كان صبيًّا والرعب الذي ألمَّ به من صورة عالَم قد تفوق أساطيره إدراكنا. لقد قال في سره في ذلك الوقت: «لا يوجد سحر. ولكن مفاهيم طبيعية لا يمكننا تفسيرها بعد.» ابتسم ريتشارد. ثم قال: «لم يكن بروسبيرو، بطل المسرحية، ساحرًا، وإنما مجرد عالم بائس.»

وبعد لحظة، جذب انتباه ريتشارد ويكفيلد أكثر المناظر روعة التي رآها في حياته. فبينما كان مقعده يحلق لأعلى في هدوء، بمحاذاة السلم، انبلج الفجر على راما. فعلى بعد ثلاثة كيلومترات أسفله، بعد أن شق الفجر السهل المركزي، والأودية المستقيمة الممتدة التي تجري من حافة التجويف وحتى البحر الأسطواني، انبثق الضوء فجأة. وقد صُممت شموس راما الستة الخطية الشكل، التي يسطع كل ثلاثة منها على أحد نصفَي الأسطوانة، بعناية بالغة بحيث توفر الإضاءة المناسبة في كل أنحاء العالم الغريب. وشعر ويكفيلد بالغثيان والدوار. كان معلقًا في الهواء عن طريق إحدى عربات التلفريك الخفيفة على بعد آلاف الأمتار فوق اليابسة. أغمض ويكفيلد عينيه وحاول أن يحفظ توازنه. وقال لنفسه: «لن تسقط.»

ثم سمع هيرو ياماناكا يصرخ: «آآآه.»

وقد أدرك من باقي الحديث أن هيرو قد فزع من الانبثاق المفاجئ للضوء، فزلت قدماه في منتصف درجات سلم جاما. ويبدو أنه سقط لمسافة عشرين أو ثلاثين مترًا، قبل أن يتمكن (لحسن حظه) ببراعة فائقة من أن يمسك في جزء من عوارض السلم.

سأل ديفيد براون: «هل أنت بخير؟»

أجابه ياماناكا وهو يلهث: «أعتقد ذلك.»

وبعد انتهاء المحنة القصيرة بدأ الجميع يتحدثون في الوقت نفسه. صرخ دكتور تاكاجيشي: «ما أروع هذا المشهد! إن مستويات الضوء خارقة للطبيعة. وهذا هو نفس ما يحدث قبل ذوبان البحر. إنه لأمر مختلف. إنه مختلف اختلافًا جذريًّا.»

قالت فرانشيسكا: «أعدوا لي وحدة أخرى حتى ألتقطها بمجرد وصولي إلى القمة. فقد أوشك شريطي على النفاد.»

أضاف جنرال أتول: «يا له من جمال. إنه جمال تعجز الكلمات عن وصفه.» كان يشاهد شاشة العرض هو ونيكول دي جاردان على متن نيوتن. وكانت الصور تنتقل إليهما في نفس الوقت مباشرة بواسطة كاميرا فرانشيسكا عبر محطة الإرسال عند المحور.

ولم ينبس ريتشارد ويكفيلد ببنت شفة. فقد أخذ يحدق فحسب مفتونًا بالعالم أسفل منه. لقد استطاع أن يرى جانوس تابوري بشق الأنفس وجهاز التلفريك وجزءًا من المخيم أسفل السلم. غير أن المسافة بينهما أعطته بعض الانطباعات عن أبعاد هذا العالم الغريب. وأخذ ينظر عبر مئات الكيلومترات المربعة التي تمثل مساحة السهل المركزي، فرأى الأشكال الخلابة في كل الأرجاء. إلا أنه كان هناك ملمحان بارزان، أسرا لُبه وبصره، ألا وهما البحر الأسطواني والتركيبات المدببة العملاقة في التجويف الجنوبي في مواجهته على بعد خمسين كيلومترًا.

وبعد أن بدأت عيناه تعتادان الضوء شيئًا فشيئًا، أخذ البرج الضخم الموجود في التجويف الجنوبي يبرز للعيان أكثر فأكثر. وقد أطلق عليه المكتشفون الأوائل «القرن الكبير». سأل ويكفيلد نفسه: «هل حقًّا يبلغ ارتفاعه ثمانية كيلومترات؟» وكانت الأبراج الستة الأصغر حجمًا، التي كانت تكتنف «القرن الكبير» في شكل سداسي، وتتصل جميعها به وبجدران راما عن طريق دعائم معلقة ضخمة، كانت أضخم على الإطلاق من أي شيء صنعه الإنسان على الأرض. بل إنها تبدو كالأقزام مقارنة النتوءات البارزة المجاورة التي تخرج من مركز التجويف التي يزداد امتدادها على طول المحور الدوار للأسطوانة.

وفي الطليعة، في منتصف الطريق بين المكان الذي يوجد فيه ويكفيلد بالقرب من القطب الشمالي وهذه البناية الضخمة في الجنوب، كان يطوق هذا العالمَ الأسطواني لونٌ

أبيض به بقع زرقاء صغيرة. وبدا البحر المتجمد منافيًا لتصورات العقل والمنطق وكأنه في غير موضعه. إن المنطق يقول إنه يستحيل أن يذوب أبدًا، أو إن كل المياه سوف تنساب نحو المحور المركزي. غير أن القوة الطاردة المركزية لراما كانت تحكم البحر الأسطواني بين ضفتَيه. ولم يختبر أحدٌ أن وزن الإنسان على شاطئ راما هو نفس وزنه عندما يقف بجانب أحد شواطئ المحيطات على الأرض سوى أفراد طاقم نيوتن.

وكانت المدينة الجزيرة التي تتوسط البحر الأسطواني هي نيويورك راما. ولم تسترعِ ناطحات سحابها أنظار ريتشارد في ظل أضواء المشاعل. لكن تحت أضواء شموس راما، كان ينجلي للعيان أن هذه المدينة تتمتع بمكانة بارزة. وكانت نيويورك تجتذب الأنظار من أي مكان في راما؛ فقد كانت الجزيرة البيضاوية الشكل المكتظة بالمباني هي المنطقة الوحيدة التي تختلف عن الحلقة المرتبة التي تشكل البحر الأسطواني.

اندفع دكتور تاكاجيشي بحماسةٍ عبر جهاز الاتصال قائلًا: «انظر إلى نيويورك!» وأردف قائلًا: «حتمًا هناك ما يقرب من ألف مبنًى يتجاوز ارتفاع كلٍّ منها مائتَي متر.» انقطع تاكاجيشي عن الكلام لحظة. ثم تابع قائلًا: «إنهم يقطنون هناك، أنا متيقن من ذلك. يجب أن تكون نيويورك هي هدفنا.»

بعد الانفعالات التي أعقبت انبثاق الضوء ساد المكانَ صمتٌ طويل؛ إذ أدخل كل رائد من رواد الفضاء بصورة شخصية عالمَ راما المشمس إلى وعيه. واستطاع ريتشارد لتوه أن يرى فرانشيسكا بوضوح، على بعد أربعمائة متر فحسب فوقه، بينما كان مقعده يعبر المنطقة العابرة ما بين السلالم والسلالم العمودية، ويمر بتؤدة بالقرب من المحور.

قطع ديفيد براون الصمت وقال: «لقد أجرينا أنا والفريق البحري هيلمان محادثةً سريعة لتونا، بناءً على بعض النصائح التي قدَّمها دكتور تاكاجيشي. وقد بدا لنا أنه لا يوجد داعٍ واضح لتغيير خططنا بشأن هذه الرحلة، على الأقل في الجزء الأول. إلا إذا حدث شيء آخر غير موضوع في الحسبان، عندها سوف نلجأ إلى اقتراح ويكفيلد. سوف ننتهي من عمل المقعدين، ونحمل الطوافة لأسفل لتجميعها هذا المساء، وينام الجميع في المخيم عند قاع السلم وفقًا للخطة.»

صرخ جانوس في جهاز الاتصال الخاص به: «لا تنسوني. فأنا الوحيد الذي لم يتمتع كثيرًا بالمشهد!»

حل ريتشارد ويكفيلد حزام مقعده وخطا خارجًا نحو الحافة. ونظر إلى أسفل حيث غاب السلم عن الأنظار. وقال: «حسنًا، أيها الرائد جانوس. لقد عدنا لتونا إلى محطة ألفا. متى بعثت بالإشارة فسنرفعك لتنضم إلينا.»

الفصل الثالث والعشرون

الغسق

«… عند الأخذ بعين الاعتبار الإيذاء الجسدي المستمر الذي تلقَّاه الرائد ويكفيلد من والده المصاب بالعصاب، والجروح العاطفية التي حتمًا خلَّفها زواجه وهو شاب من الممثلة البريطانية سارة تايدنجس، فإنه يُعتبر متزنًا بدرجة ملحوظة. لقد خضع بعد طلاقه الشهير لعلاج متخصص استمر عامين وانتهى قبل التحاقه بأكاديمية الفضاء بعام واحد؛ أي عام ٢١٩٢. أما إنجازاته الدراسية في الأكاديمية فلا تزال منقطعة النظير حتى يومنا هذا، فقد أكد جميع أساتذته في قسمَي الهندسة الكهربائية وعلوم الكمبيوتر أنه بحلول وقت تخرجه، كانت معرفة ويكفيلد تفوق معرفة أي عضو من أعضاء هيئة التدريس …

… باستثناء حذره فيما يتعلق بالعلاقات الحميمة (ولا سيما مع النساء، فهو على ما يبدو لم يتورط في أي علاقات عاطفية قوية منذ انفصام عروة زواجه)، لا يُظهر ويكفيلد أيًّا من السلوك المُعادي للمجتمع الذي عادةً ما يظهره أولئك الذين تعرَّضوا لانتهاكات جسدية عندما كانوا أطفالًا. ومع أن معامل التكيف الاجتماعي كان منخفضًا لديه أثناء شبابه، فقد أخذت سمة العجرفة تضمحل بالتدريج عندما وصل إلى سن النضج، وهو لا يميل الآن إلى أن يفرض ذكاءه على الآخرين. ولا يمكن التشكيك في أمانته وشخصيته. والهدف الذي يسعى إليه هو تحصيل المعرفة، لا اكتساب السلطة أو جمع المال …»

انتهت نيكول من قراءة التقييم النفسي الخاص بريتشارد ويكفيلد وفركت عينيها. كان الوقت متأخرًا جدًّا. وكانت نيكول تفحص الملفات منذ أن استقر الطاقم داخل راما ليخلد إلى النوم. ومن المفترض أن يستيقظوا ليومهم الثاني في هذا العالم الغريب في غضون أقل من ساعتين. وكانت نوبة عملها التي تمتد لستِّ ساعات كضابط اتصالات ستبدأ في أثناء ثلاثين دقيقة. أخذت نيكول تفكر: «إذن، فمن بين هذه الزمرة، لا يوجد إلا ثلاثة بعيدون عن كل الشبهات. أما أولئك الأربعة فقد فضحوا أنفسهم بالفعل بعقدهم الإعلامي

غير القانوني. أما ياماناكا وتورجينيف فهما مجهولان. ويلسون مستقر إلى حدٍّ ما ولديه جدول أعمال خاص به على كل حال. وهكذا لا يتبقى سوى أوتول وتاكاجيشي وويكفيلد.»

غسلت نيكول وجهها ويديها وجلست مرةً أخرى أمام جهاز الكمبيوتر الخاص بها. وأغلقت الملف الخاص بويكفيلد، ورجعت إلى القائمة الرئيسية لمكعب البيانات. وقد فحصت بدقةٍ إحصاءات المقارنات المتاحة، ثم ضغطت على زر العرض المزدوج لكي تظهر الإحصاءات جنبًا إلى جنب على الشاشة. وكانت مجموعة إحصاءات تقييم الذكاء لكل أفراد الطاقم تظهر في الجهة اليمنى من الشاشة مرتبة من الأعلى إلى الأدنى، وفي الجهة المقابلة عرضت نيكول مؤشرات معامل التكيف الاجتماعي لطاقم نيوتن:

تقييم الذكاء		معامل التكيف الاجتماعي	
ويكفيلد	+٥,٥٨	أوتول	٨٦
فرانشيسكا	+٤,٢٢	بورزوف	٨٤
براون	+٤,١٧	تاكاجيشي	٨٢
تاكاجيشي	+٤,٠٢	ويلسون	٧٨
تابوري	+٣,٣٧	نيكول	٧١
بورزوف	+٣,٢٨	هيلمان	٦٨
نيكول	+٣,٠٤	تابوري	٦٤
أوتول	+٢,٩٢	ياماناكا	٦٢
تورجينيف	+٢,٨٧	تورجينيف	٦٠
ياماناكا	+٢,٦٦	ويكفيلد	٥٨
ويلسون	+٢,٤٨	ساباتيني	٥٦
هيلمان	+٢,٢٤	براون	٤٩

ومع أن نيكول ألقت نظرة خاطفة على معظم المعلومات الموجودة في الملفات سابقًا، فإنها لم تقرأ كل القراءات البيانية الخاصة بكل أفراد الطاقم. وبعض المؤشرات تشاهدها الآن للمرة الأولى. ولقد ذُهلت أيَّما ذهول بتقييم الذكاء المرتفع جدًّا لفرانشيسكا ساباتيني. قالت نيكول في سرها: «يا للخسارة! كل هذه الإمكانيات تضيع في مثل هذه المهنة العادية.»

وكان مستوى الذكاء الإجمالي للطاقم لافتًا جدًّا للنظر. فكل رائد فضاء يأتي في طليعة المستوى الذي يضم ١٪ من السكان. أما نيكول فكانت في المستوى الذي يمثل نسبة «الواحد في الألف»، كما جاء ترتيبها في منتصف أفراد الطاقم الاثني عشر. أما عن تقييم ذكاء ويكفيلد فقد كان متفردًا بحق، وقد وضعه في فئة «العباقرة»؛ لم تعرف نيكول بصورة شخصية أحدًا في حياتها قط أحرز مثل هذه الدرجات المرتفعة في الاختبارات القياسية.

ومع أن تدربها في الطب النفسي قد علَّمها ألا تعول على محاولات قياس الخصال الشخصية، فإن مؤشرات معامل التكيف الاجتماعي قد أسَرَتها بالمثل. لقد وضعت نيكول بحدسها الخاص أوتول وبورزوف وتاكاجيشي على رأس القائمة. فالثلاثة يبدون واثقين بأنفسهم، ومتزنين، وذوي حساسية نحو الآخرين. غير أنها ذُهلت من معدل تكيف ويلسون الاجتماعي المرتفع. قالت نيكول في نفسها: «حتمًا كان شخصًا مختلفًا تمامًا قبل أن يرتبط عاطفيًّا بفرانشيسكا.» وتعجَّبت نيكول لبرهة من أن مؤشر معدل تكيفها الاجتماعي لم يتجاوز ٧١، وعندئذٍ تذكرت أنها كانت أكثر انطوائية وتمركزًا حول الذات عندما كانت شابة.

«إذَن، ماذا عن ويكفيلد؟» هكذا سألت نيكول نفسها إذ أدركت أنه الشخص الوحيد الذي يمكن التعويل عليه بشأن مساعدتها على فهم ماذا حدث ببرمجة روسور في أثناء عملية بورزوف. أيمكنها الوثوق به؟ وهل يمكنها أن تستعين به دون أن يفشي بعضًا من شكوكها بعيدة الاحتمال؟ ومرةً أخرى بدت لها فكرة الإقلاع عن التحقيق تمامًا فكرة جذابة. فقالت لنفسها: «نيكول، إذا اتضح أن فكرتك بشأن المؤامرة هي مجرد مضيعة للوقت ...»

بيد أن نيكول كانت مقتنعة أن هناك عددًا لا بأس به من الأسئلة يحتاج لإجابات كي تضمن استمرار تحقيقاتها. لقد عزمت على أن تتحدث إلى ويكفيلد. وبعدما تأكدت أنه يمكنها أن تضيف ملفاتها إلى مكعب بيانات الملك صممت ملفًّا جديدًا، فأصبح الملف التاسع عشر وأسمته «نيكول». لقد استدعت النظام الفرعي لمعالجة النصوص وكتبت مذكرة مختصرة:

> ٣-٣-٠٠ لقد خلصت يقينًا إلى أن قصور روسور أثناء إجراء العملية الجراحية لبورزوف يُعزى إلى أمر يدوي خارجي بعد القيام بتحميل أولي وتثبيت. سأستعين بويكفيلد.

سحبت نيكول مكعب بيانات فارغًا من الدرج المجاور لجهاز الكمبيوتر الخاص بها. ونسخت عليه مذكراتها وكل البيانات المخزنة على المكعب الذي أعطاها إياه الملك هنري. وعندما ارتدت نيكول بذلة الطيران لكي تمارس نوبة عملها، وضعت المكعب المنسوخ في جيبها.

كان النعاس قد غلب الجنرال أوتول في مركز القيادة والتحكم للمركبة الفضائية العسكرية عندما وصلت نيكول كي تمنحه قسطًا من الراحة. ومع أن شاشات العرض في المركبة العسكرية الأصغر حجمًا لم تكن أخاذة بالدرجة كما هو الحال في المركبة العلمية، فإن التصميم الخاص بدائرة التحكم الأساسية العسكرية باعتبارها مركز اتصالات كان متفوقًا للغاية، ولا سيما من وجهة النظر البشرية الهندسية. فكل نظم التحكم يمكن أن يتعامل معها رائد واحد بسهولة ويسر.

اعتذر أوتول لعدم كونه متيقظًا. وأشار إلى الشاشات الثلاثة التي تظهر ثلاثة مشاهد لمنظر واحد، وهو مشهد سائر أفراد الطاقم الذين راحوا سريعًا في سُبات عميق داخل المخيم البسيط أسفل سلم ألفا. قال أوتول: «لم يكن هناك شيء جدير بالاعتبار في غضون الساعات الخمسة المنصرمة.»

ابتسمت نيكول. وقالت: «جنرال أوتول، ليس عليك أن تعتذر لي. أعلم أنك كنت تعمل مدة أربع وعشرين ساعة تقريبًا.»

نهض الجنرال أوتول من مكانه. وأخبرها باختصار وهو يتفقد تسجيله للدخول الإلكتروني على واحدة من الشاشات الستة أمامه: «بعدما غادرتِ انتهَوا من العشاء ثم بدءوا في تجميع الطوافة الأولي. لقد أخفق برنامج الملاح الآلي في الاختبار الذاتي، غير أن ويكفيلد عثر على المشكلة — التي كانت فيروسًا برمجيًّا في أحد البرامج الفرعية التي تغيرت في أثناء عملية التسليم الأخيرة — وعالجها. أخذ تابوري الطوافة لإجراء اختبار قيادة قبل أن يستعد الطاقم للنوم. وبنهاية اليوم قدمت فرانشيسكا جزءًا صغيرًا مثيرًا لبثه إلى الأرض.» توقف أوتول لبرهة. ثم تابع: «أتريدين أن تريه؟»

أومأت نيكول بالإيجاب. أدار أوتول شاشة التلفزيون التي تقع في أقصى اليمين، وظهرت فرانشيسكا في لقطة قريبة خارج المخيم المغلق. وقد ظهر في إطار الصورة جزء من قاع السلم ومعدات التلفريك أيضًا. كانت فرانشيسكا تقول: «لقد حان وقت النوم في راما.» ونظرت لأعلى وحولها. ثم أضافت: «لقد بزغ النور في هذا العالم المذهل بغتةً منذ ما

يقرب من تسع ساعات، معلنًا لنا بصورة مفصلة الأعمالَ اليدوية المتقَنة لأقاربنا الأذكياء الذين جاءوا من وراء النجوم.» وقد توج مونتاج بعض الصور الثابتة وأفلام الفيديو القصيرة التي التقطتها طائرات الاستطلاع والبعض الآخر الذي التقطته فرانشيسكا في هذا اليوم، جولة فرانشيسكا لـ «العالم الصناعي الصغير» الذي كان أفراد الطاقم «على وشك اكتشافه». وفي نهاية الجزء المختصر ثبتت الكاميرا على فرانشيسكا.

لتقول: «لا أحد يعلم لماذا غزت هذه المركبة الفضائية الثانية مملكتنا الصغيرة عند حافة المجرة في فترة لا تتجاوز القرن الواحد. ولعل هذا الكيان العظيم ليس له أدنى تفسير حتى لو كان تفسيرًا عصيًّا على فهمنا نحن البشر. لكن ربما نجد في مكان ما، من هذا العالم المعدني الشاسع والدقيق، بعض المفاتيح التي قد تفك مغاليق الغموض الذي يكتنف المخلوقات التي صنعت هذه المركبة.» ابتسمت فرانشيسكا وانفرجت أساريرها. ثم أكملت: «وإذا ما فعلنا هذا، لعلنا عندئذٍ نكون قد خطونا خطوةً نحو فهم أنفسنا … وربما نحو فهم آلهتنا أيضًا.»

واستشفت نيكول أن الجنرال أوتول قد تأثَّر ببلاغة فرانشيسكا. وبالرغم من كره نيكول الشخصي لهذه المرأة فإنها اعترفت على مضض مجددًا أن فرانشيسكا موهوبة. قال أوتول في حماسة: «إنها تأسر مشاعري بشأن هذه المغامرة كثيرًا. ليتني بليغ فصيح مثلها.»

جلست نيكول أمام لوحة التحكم وأدخلت كود البث. واتبعت التعليمات المدرجة على الشاشة، وتفقدت كل المعدات. قالت نيكول وهي تستدير على مقعدها: «حسنًا أيها الجنرال، أعتقد أنه بمقدوري التعامل مع كل شيء من هنا.»

ظل أوتول مترددًا خلف نيكول. وقد بدا أنه يود التحدث. قال أوتول: «لقد جرى نقاش طويل بيني وبين السيدة فرانشيسكا منذ ثلاث ليالٍ مضت. نقاش في مسألة الدين. وقد أخبرتني أنها أصبحت ملحدةً قبل أن تعود أخيرًا مرة أخرى إلى الكنيسة. لقد أخبرتني أن التفكير في راما جعلها تعود كاثوليكية مرةً أخرى.»

ساد صمتٌ طويل بينهما. ولسببٍ ما خطرت ببال نيكول تلك الكنيسة التي تقع في قرية سانت إتيين دي تشيني التي ترجع إلى القرن الخامس عشر، وتبعد ثمانمائة متر جنوبًا على طريق بوفوا. وتذكرت الجلوس داخل الكنيسة مع والدها في أحد أيام الربيع الخلابة، وافتتانها بالضوء الذي ينتشر عبر الزجاج الملون للنوافذ.

سألت نيكول والدها حينذاك: «هل الله هو الذي خلق هذه الألوان؟»

أجابها والدها باقتضاب: «البعض يقول هذا.»

عندئذٍ سألته: «وماذا تقول أنت يا والدي؟»

كان الجنرال أوتول يقول بينما كانت نيكول تجبر نفسها على العودة إلى الوقت الحاضر: «يتعين عليَّ أن أعترف بأن هذه الرحلة في مجملها قد أنعشتني روحيًّا. أشعر بأنني أقرب إلى الله الآن أكثر من أي وقت مضى على الإطلاق. فهناك شيء ما عند التأمل في ضخامة الكون يجعل المرء يتواضع و...» توقف أوتول عن الحديث. وبدأ في الاعتذار: «آسف، لقد أثقلت عليك ...»

أجابته نيكول: «لا. لا، لم تفعل هذا. أجد قناعتك الدينية محفزة جدًّا.»

ابتسم. وقال لها: «أرجو ألا أكون قد أزعجتك بأي حال من الأحوال. فالديانة مسألة شخصية للغاية. لكن في بعض الأحيان يصعب عليك أن تكتمي مشاعرك، ولا سيما أنك أنت والسيدة فرانشيسكا كاثوليكيتان.»

رفع أوتول مجموعة التحكم، وتمنَّت له نيكول نومًا هانئًا. وعندما ذهب أوتول، أخرجت نيكول من جيبها مكعب البيانات المنسوخ ووضعته في قارئ بيانات المكعب. قالت نيكول لنفسها: «على الأقل بهذه الطريقة سأتمكن من الاحتفاظ بنسخة احتياطية من مصادر معلوماتي.» وجال بذهنها صورة فرانشيسكا ساباتيني وهي تنصت بانتباه إلى الجنرال أوتول وهو يتحدث بحماسة عن رأيه الخاص حول المغزى الديني من راما. وقالت في سرها: «إنك لامرأة داهية. أنت تفعلين أي شيء مهما كلَّفكِ الأمر. حتى الفجور والنفاق سهلان عليكِ.»

حدق دكتور شجيرو تاكاجيشي في صمت رهيب في البروج والمباني الكروية الشكل في نيويورك التي تبعد عنه أربعة كيلومترات. وكان بين الفينة والفينة يذهب إلى التليسكوب الذي نصبه مؤقتًا على الحافة المطلة على البحر الأسطواني ممعنًا النظر في ملمح معين من ملامح هذا المنظر الغريب.

ثم نطق أخيرًا وقال للرائدين ويكفيلد وفرانشيسكا: «لا أعتقد أن التقارير التي أعدها الطاقم الأول حول نيويورك بالغة الدقة. وإلا فستكون هذه مركبة فضائية مختلفة.» لم يجبه ويكفيلد أو فرانشيسكا. فقد كان ويكفيلد منهمكًا في المراحل الأخيرة من تجميع ناقلة الطوارئ، وكانت فرانشيسكا كعادتها مشغولة في تسجيل الأعمال التي يقوم بها ويكفيلد.

استرسل دكتور تاكاجيشي، متحدثًا إلى نفسه في المقام الأول: «إنها تبدو كما لو كان هناك ثلاثة أجزاء متطابقة من المدينة، وكل جزء منها ينقسم إلى ثلاثة أجزاء فرعية. غير أن أولئك الأجزاء التسعة غير متطابقة «تطابقًا مطلقًا». فيبدو أن هناك بعض الاختلافات الطفيفة.»

قال ويكفيلد وهو ينتصب وعلى وجهه ابتسامة تُعرِب عن شعوره بالرضا: «حسنًا، لقد أحسنت صنعًا. فلا يزال أمامنا يوم كامل قبل التاريخ المحدد. سوف أفحص في عجالةٍ كافة الوظائف الهندسية المهمة.»

نظرت فرانشيسكا في ساعتها. ثم قالت: «نحن متأخرون لما يقرب من نصف ساعة وفقًا للجدول المعدل. ألا يزال بمقدورنا أن نلقي نظرة خاطفة على نيويورك قبيل العشاء؟»

هز ويكفيلد كتفيه بلامبالاة ونظر إلى تاكاجيشي. خطَت فرانشيسكا نحو العالم الياباني. وقالت: «ما قولك، شجيرو؟ ألنا أن نأخذ جولةً سريعة عبر الجليد ونقدم للبشر على الأرض لقطة قريبة من نيويورك راما؟»

أجابها تاكاجيشي: «حتمًا. لا يمكنني الانتظار ...»

عندئذٍ قاطعهم ديفيد براون قائلًا: «يمكنك ذلك بشرط أن تعودي إلى المخيم في موعدٍ أقصاه الساعة ١٩:٣٠.» كان ديفيد براون مستقلًّا الطائرة الهليكوبتر ومعه الفريق البحري هيلمان وريجي ويلسون. واستطرد قائلًا: «ينبغي لنا أن نقوم ببعض التخطيط الجدي الليلة. وقد نحتاج لأن نراجع توزيع مهام الغد.»

قال ويكفيلد: «حسنًا، إذا تغاضينا عن أمر نظام عمل البكرات الآن، ولم يكن لدينا أدنى مشكلة في حمل ناقل الطوارئ إلى أسفل، فسنكون قادرين على عبور البحر في غضون عشر دقائق في الاتجاه الواحد. وهذا سيعطينا متسعًا من الوقت للرجوع إلى المعسكر.»

قال براون: «لقد درسنا باستفاضة كثيرًا من معالم نصف الأسطوانة الشمالي في أثناء فترة ما بعد الظهيرة. ولا يوجد أي كائن في أي مكان. وتبدو المدن وكأنها صور طبق الأصل بعضها من بعض. ولا يوجد أي شيء جدير بالذكر في كل أرجاء السهل المركزي. أنا شخصيًّا أعتقد أنه قد ينبغي لنا أن نقوم بحملتنا الاستطلاعية على الجنوب الغامض غدًا.»

صاح تاكاجيشي: «نيويورك. بل ينبغي أن يكون هدفنا غدًا هو استطلاع مفصَّل ودقيق لنيويورك.» لم يجب براون. انسحب تاكاجيشي نحو حافة الجرف، ونظر إلى

خمسين مترًا من الجليد أسفله. على شماله كانت توجد درجات السلم الضيقة غير الجذابة تعترض الجرف وتتدلى في درجات قصيرة. سأل تاكاجيشي: «ما وزن ناقلة الطوارئ؟»

أجابه ويكفيلد: «ليست ثقيلة بالدرجة. ولكنها ضخمة. أمتأكد من أنك لا تريد الانتظار حتى أثبت البكرات؟ يمكننا تأجيل ذلك للغد.»

قاطعته فرانشيسكا: «يمكنني المساعدة في حملها. فإذا لم نتمكن من رؤية نيويورك على الأقل، فلن نكون قادرين على إعطاء معلومات دقيقة في اجتماع التخطيط هذه الليلة.»

رد ريتشارد ويكفيلد وهو يهز رأسه لفرانشيسكا في مزاح: «حسنًا. إنني في خدمة الصحافة. سأتقدم أنا أولًا؛ من ثَم سيقع معظم الحمل على عاتقي. وتكون فرانشيسكا في المنتصف ودكتور تاكاجيشي في القمة. واحترزوا من ألواح التزلج. فهي حادَّة من عند الحواف.»

ولم يكن المنحدر المتجه نحو سطح البحر الأسطواني خطيرًا. قالت فرانشيسكا وهم يستعدون لعبور الجليد: «يا إلهي، إنه سهل للغاية. لمَ الحاجة إلى البكرات إذن؟»

«لأننا قد نحمل في بعض الأوقات شيئًا آخر أو، لا قدر الله، قد نحتاج لأن نحمي أنفسنا أثناء الصعود أو الهبوط.»

جلس كلٌّ من ويكفيلد وتاكاجيشي أمام ناقلة الطوارئ. وكانت فرانشيسكا بالخلف ومعها كاميراتها. وكلما اقتربوا من نيويورك ازدادت حيوية تاكاجيشي ونشاطه. وقال تاكاجيشي عندما أصبح ناقل الطوارئ على بعد خمسمائة متر من الشاطئ المقابل: «انظروا إلى ذاك المكان. أيُخالجكم أدنى شك في أن هذه هي عاصمة راما؟»

وبينما وصل ثلاثتهم الشاطئ، انبسط أمام أعينهم المشهد الخلاب للمدينة الغريبة تاركًا إياهم مشدوهين من هول المشهد. فقد كان كل شيء يتعلق بتركيبها المعقد يعكس النظام والخلق الهادف الذي قامت به الكائنات الذكية؛ وحتى مجموعة الرواد الأوائل الذين جاءوا منذ سبعين سنة مضت، وجدوها خالية من الحياة مثل باقي أجزاء راما. هل كانت هذه المجموعة الضخمة التي انكسرت إلى تسعة أجزاء هي بحقٍّ مجرد آلة معقدة تعقيدًا شديدًا كما رجح الرواد الأوائل، أو هل الجزيرة الطويلة الضيقة (التي يبلغ طولها عشرة كيلومترات وعرضها ثلاثة كيلومترات) هي بالفعل المدينة التي اختفى قاطنوها منذ زمن طويل؟

لقد وضعوا ناقل الطوارئ على حافة البحر المتجمد وساروا عبر درب حتى عثروا على سلالم تقود إلى أسوار الجدران التي تحيط بالمدينة. قفز تاكاجيشي المتحمس نحو

عشرين مترًا أمام ويكفيلد وفرانشيسكا. وبينما هم يرتقون السلالم، بدأ ينكشف أمامهم المزيد والمزيد من تفاصيل المدينة.

على الفور افتتن ريتشارد بالأشكال الهندسية للمباني. وعلاوةً على ناطحات السحاب المألوفة الطول المتفرقة، كان هناك أجسام كروية ومستطيلات ثلاثية الأبعاد متفرقة وحتى أشكال متعددة السطوح غير منتظمة. وقطعًا كانت مرتبة وفقًا لنمط معين. وجال بخاطر ويكفيلد وهو يُنعم النظر في التركيبات الخلابة والمعقدة: «نعم، هناك المجسم ذو الاثني عشر سطحًا، والمجسم الخماسي ...»

فجأةً اعترض تأمُّلَه الهندسي انقطاعُ كافة الأنوار، وغرق باطن راما كله في ظلام حالك.

الفصل الرابع والعشرون

أصوات في الظلام

في أول الأمر لم يتمكن تاكاجيشي البتة من رؤية أي شيء. لقد بدا الأمر وكأنه أصيب بغتةً بالعمى. لقد طرف بعينيه مرتين ووقف بلا حراك في الظلام المُدلهم. وتحوَّل الصمت المؤقت في أجهزة الاتصال إلى ضوضاء تنم عن الفزع؛ إذ بدأ كل الرواد في التحدث في الوقت ذاته. وحاول تاكاجيشي، الذي كان يقاوم هلعه المتزايد، بهدوء أن يتذكر آخر مشهد رآه لحظة انقطاع الأضواء.

لقد كان يقف على الجدار المطل على نيويورك، على بعد متر من الحافة الخطرة. وفي اللحظة الأخيرة كان ينظر بعيدًا نحو اليسار، وقد لمح لتوه سلالم منحدرة نحو المدينة على بعد ما يقرب من مائتَي متر. وفي تلك اللحظة غاب المشهد عن النظر …

وسمع ويكفيلد ينادي عليه: «تاكاجيشي، هل أنت بخير؟»

التفت تاكاجيشي ليجيب سائله وقد لاحظ أن ركبتيه أصبحتا مرتخيتين. وفي هذا الظلام الدامس فقد الاتجاه الذي كان يسلكه. ما عدد الدرجات التي استدارها؟ هل كان يقف أمام المدينة مباشرة؟ ومرةً أخرى استرجع المشهد الأخير الذي كان أمام عينيه. إن الجدار المرتفع كان يعلو أرضية المدينة بنحو عشرين أو ثلاثين مترًا. من ثَم ستكون السقطة من فوقه مميتة.

أجاب تاكاجيشي في حيرة: «أنا هنا، لكني قريب جدًّا من الحافة.» ثم سقط على أربعته. وكان المعدن شديد البرودة على يديه.

أجابته فرانشيسكا: «نحن قادمون. أحاول أن أعثر على الضوء في كاميرا الفيديو خاصتي.»

خفَّض تاكاجيشي الصوت في جهاز اتصاله واستمع إلى صوت رفقائه. وبعد ثوانٍ قلائل رأى ضوءًا قادمًا من بعيد. ولم يستطِع أن يميز هيئة رفيقَيه إلا بالكاد.

سألت فرانشيسكا: «أين أنت يا شجيرو؟» وكان الضوء المنبعث من كاميرتها يُنير فقط المنطقة التي تحيط بها مباشرة.

أجابها وهو يلوح بيديه قبل أن يدرك أنهما لا يستطيعان رؤيته. قال: «هنا فوق. هنا فوق.»

صرخ ديفيد براون عبر نظام الاتصال: «الزموا الهدوء التام، حتى يتسنى لكل فرد أن يبلغ بموقفه.» انقطعت المحادثات بعد ثوانٍ قليلة. ثم تابع: «فرانشيسكا، ما الذي يحدث هناك بأسفل؟»

«نحن نرتقي السلالم فوق الجدار التي تقع في جانب نيويورك، ديفيد، ما يقرب من مائة متر من المكان الذي وضعنا فيه ناقل الطوارئ. وكان دكتور تاكاجيشي يتقدمنا، وهو على القمة بالفعل. ونحن لدينا مصدر للضوء في كاميرتي. وذاهبون للقائه.»

قال دكتور براون بعد ذلك: «جانوس، أين أنت بالطوافة الثانية؟»

أجابه: «أنا على بعد مسافة نحو ثلاثة كيلومترات من المخيم. والمصابيح الأمامية تعمل جيدًا. يمكننا العودة في غضون عشر دقائق تقريبًا.»

رد عليه: «عد إلى هناك وأدِرْ لوحة تحكم الملاحة. ونحن سنبقى في وضع الطيران جوًّا إلى أن تتحقق أن «نظام توجيه العودة» يعمل من جانبك ... فرانشيسكا كُونِي حذرة، لكن حاولي أن تعودي إلى المعسكر بأقصى سرعة ممكنة. وأبلغيني بالوضع كل دقيقتين أو نحو ذلك.»

قالت: «حسنًا يا ديفيد.» ثم أطفأت جهاز الاتصال ونادت على تاكاجيشي مرةً أخرى. ومع أنه لم يكن يبعد سوى ثلاثين مترًا، فقد استغرق الأمر من فرانشيسكا وريتشارد ما يزيد عن الدقيقة للعثور عليه في الظلام.

شعر تاكاجيشي بالراحة للالتقاء برفيقيه مرةً أخرى. لقد جلسا بجانبه على الجدار واستمعوا إلى الثرثرة مرة أخرى في جهاز الاتصال. تحقق كلٌّ من أوتول ونيكول من أنه لم يكن هناك أي تغييرات ملحوظة بداخل راما وقت انقطاع الضوء. ولم تنذر المحطات الستة العلمية التي جرى نشرها بالفعل في المركبة الفضائية الدخيلة بحدوث أي اختلالات مهمة. فلم تتغير كلٌّ من درجة الحرارة، وسرعة الريح واتجاهها، والقراءات المتعلقة بقياس الزلازل، والقياسات الطيفية في المجال المحيط.

قال ويكفيلد: «إذَن، ذهب الضوء. أعترف بأن هذا كان مريعًا، ولكنه ليس بالمأساة. ربما ...»

وفجأةً قال تاكاجيشي: «صه.» ثم نزل وأطفأ جهاز اتصاله وجهاز ويكفيلد وقال: «أتسمعون هذه الضوضاء؟»

لقد كان الصمت المفاجئ لويكفيلد مزعجًا تقريبًا كما كان الظلام الدامس منذ دقائق قليلة. فأجاب بهمس بعد الإنصات لعدة لحظات: «لا. لكن أذني ليست مرهفة ...»

«صه!» قالتها هذه المرة فرانشيسكا. وأردفت: «أتقصد ذلك الصوت العالي الآتي من بعيد ويبدو كصوت احتكاك؟»

أجابها تاكاجيشي بهمس لكن بحماسة: «نعم.» وأردف قائلًا: «إنه يبدو وكأن شيئًا ما يحتك بسطح معدني. إنه يبدو كصوت شيء يتحرك.»

أنصت ويكفيلد مرة أخرى. ربما يسمع شيئًا ما، أو ربما خال له أنه سمع شيئًا. فقال للآخرين بصوت عالٍ: «هيا، لنعُدْ إلى ناقلة الطوارئ.»

وبينما كان ويكفيلد يهم بالوقوف قال تاكاجيشي: «انتظر.» وأردف: «يبدو أن الصوت ينقطع ما إن تتحدث.» ثم مال ناحية فرانشيسكا وقال بهدوء: «أطفئي الضوء. لنمكث هنا في الظلام ونرَ إذا كان بإمكاننا سماعه مرة أخرى.»

جلس ويكفيلد إلى جانب زميليه. وبانطفاء الكاميرا، كان الظلام الحالك يغمر المكان تمامًا. وكان الصوت الوحيد الذي يسمعونه هو صوت أنفاسهم. وانتظروا دقيقة كاملة، فلم يسمعوا شيئًا. ولما كان ويكفيلد على وشك أن يُصرَّ على الرحيل، سمع صوتًا قادمًا من ناحية نيويورك. لقد كان أشبه بصوت احتكاك فرش بسطح معدني، لكن كان هناك أيضًا ضوضاء عالية التردد مدمجة بين الأصوات الأخرى، كما لو كان صوتًا رفيعًا يغني بسرعة، وهو ما كان يميز صوت الاحتكاك الثابت تقريبًا. وقطعًا كان الصوت مرتفعًا. ومخيفًا. وعندئذٍ اقشعر بدن ويكفيلد.

همس تاكاجيشي لفرانشيسكا: «هل بحوزتك مسجل للصوت؟» توقف صوت الاحتكاك عندما تكلم تاكاجيشي. وانتظر ثلاثتهم خمس عشرة ثانية أخرى.

عندئذٍ سمعوا ديفيد براون يقول بصوت مرتفع على قناة الطوارئ: «يا رفاق، يا رفاق.» وأردف: «هل الجميع بخير؟ لقد تأخَّرتم في إبلاغي بالوضع عندكم.»

ردت فرانشيسكا: «نعم يا ديفيد. نحن لا نزال هنا. لقد سمعنا صوتًا غير مألوف آتيًا من ناحية نيويورك.»

أجابها: «هذا ليس وقتًا للعبث. نحن لدينا أزمة خطيرة هنا. فكل خططنا الجديدة افترضت أن راما ستكون مضاءةً طوال الوقت، وينبغي أن نعيد تنظيم الصفوف.»

أجابه ويكفيلد: «حسنًا. سنغادر الجدار الآن. وإذا سار كل شيء على ما يرام، فسنعود إلى المخيم في مدة لا تتجاوز الساعة.»

لم يكن دكتور شجيرو تاكاجيشي يرغب في ترك نيويورك قبل حل لغز الصوت الغريب. لكنه كان يعي تمامًا أن هذا ليس الوقت المناسب لشنِّ غارة علمية على المدينة. وبينما تزلج ناقل الطوارئ على البحر الأسطواني المتجمد، ابتسم العالم الياباني في نفسه. لقد كان سعيدًا. عرف أنه استمع إلى صوت جديد، صوت مختلف بلا ريب عن أيٍّ من الأصوات التي أشار إليها فريق راما الأول. كانت بداية واعدة.

كان الرائدان تابوري وويكفيلد آخر الرواد نزولًا من التلفريك بجانب محطة ألفا. «لقد كان تاكاجيشي ساخطًا للغاية على دكتور براون، أليس كذلك؟» قالها ويكفيلد إلى جانوس في حين كان يساعد الرجل المجري الصغير في النزول من على مقعده. وتزلقا المنحدر المؤدي إلى المعدية معًا.

رد جانوس: «لم أشاهده غاضبًا هكذا قط. شيج عالم محترف وهو فخور للغاية بمعرفته براما. وتجاهل دكتور براون الضوضاء التي سمعتموها بمثل هذه الطريقة الفظة، يوحي بعدم احترام تاكاجيشي. لذا أنا لا ألوم شيج على سخطه.»

صعد الرجلان على متن المعدية وأدارا وحدة النقل. تراجع ظلام راما الدامس خلفهما، واسترخى الاثنان في الممر المنير المؤدي إلى نيوتن.

قال ريتشارد: «لقد كان صوتًا غريبًا جدًّا. وأرعدني للغاية. لا أدري ما إذا كان صوتًا جديدًا، أم إن نورتون وفريقه قد سمعوه منذ سبعين سنةً مضت. لكن ما أعلمه هو أنه قد أصابتني نوبة اهتياج عصبي جمة عندما كنت هناك على الجدار.

حتى فرانشيسكا غضبت من براون في بادئ الأمر، فقد أرادت أن تُجري الحوار الرئيسي مع شيج من أجل تقريرها الليلي. لكن براون ثبَّط عزيمتها؛ فقد أقنعها تمامًا أن الأصوات الغريبة ليست بالأخبار المثيرة. ولحسن الحظ كان لديها ما يكفي لترويه حول مسألة انقطاع الضوء.»

هبط الرجلان من المعدية ووصلا إلى غرفة معادلة الضغط. قال جانوس: «آه، إني منهك القوى. يا لهما من يومين طويلين وعصيبين.»

وافقه ريتشارد في الرأي: «بلى. وكنا نظن أننا سوف نقضي الليلتين التاليتين في المخيم. ولكننا بدلًا من ذلك عدنا إلى هنا. تُرى ما المفاجآت التي تنتظرنا غدًا.»

ابتسم جانوس لصديقه. وقال: «أتعلم ما المضحك في كل هذا؟» ولم ينتظر حتى يجيبه ويكفيلد. وتابع قوله: «يعتقد براون أنه هو بالفعل المضطلع بشئون هذه البعثة. أرأيت رد فعله عندما اقترح تاكاجيشي أن نستطلع نيويورك في الظلام؟ لعل براون يعتقد أن قرار العودة إلى نيوتن وعدم المضي قدمًا في الرحلة الأولى كان «قراره»».

نظر ريتشارد إلى جانوس وارتسمت على شفتيه ابتسامة دهشة. فاسترسل جانوس: «بالطبع لم يكن قراره. إنه قرار راما، فراما هي التي اتخذت لنا القرار بالرحيل. وراما هي التي سوف تقرر ما سنفعله بعد ذلك.»

الفصل الخامس والعشرون

صديقة في ضيق

كان يحلم بأنه يستلقي على فراش ياباني في حانة يابانية ترجع إلى القرن السابع عشر. وكانت الحجرة كبيرة للغاية، تَسَع في مجملها تِسع سجَّادات. وكان عن يساره في الفناء في الجهة المقابلة للستارة المفتوحة حديقة رائعة صغيرة ذات أشجار صغيرة وينابيع مزينة. وكان ينتظر قدوم امرأة شابة.

«تاكاجيشي، هل أنت مستيقظ؟»

تقلب وأمسك بجهاز الاتصال. ورد بصوت ينمُّ عن ترنحه: «مرحبًا. من المتكلم؟»

رد المتحدث: «نيكول دي جاردان. أعتذر عن الاتصال مبكرًا هكذا، لكني بحاجة إلى أن أراك. إنها مسألة حرجة.»

رد عليها: «امنحيني ثلاث دقائق.»

بعد مرور ثلاث دقائق بالضبط، كان الباب يدق. حيَّته نيكول ودخلت الغرفة. وكانت تحمل معها مكعب بيانات. قالت وهي تشير إلى جهاز الكمبيوتر الخاص به: «هل تمانع؟» أومأ لها تاكاجيشي بالنفي.

قالت نيكول بجدية وهي تشير إلى بعض الومضات الضوئية على الشاشة: «لقد أُصبتَ باضطراباتٍ ست مرات متفرقة البارحة؛ مرتان حدث فيهما انحراف شديد في بيانات قلبك.» ثم نظرت إليه. واسترسلت قائلة: «هل أنت متأكد أنك أنت وطبيبك قدمتما لي سجلاتك الطبية الكاملة؟»

أومأ تاكاجيشي بالإيجاب.

تابعت نيكول: «إذَن، ثَمة مدعاة لمخاوفي. ترجح الاضطرابات التي حدثت البارحة أن عدم انتظام الضغط الانبساطي المزمن لديك قد ازداد سوءًا. لعله حدث ثَقبٌ جديد في الصمام. أو ربما أدى طول فترات انعدام الوزن إلى ...»

قاطعها تاكاجيشي بابتسامة رقيقة: «أو ربما تأثرت بشدة حتى إن فرط إفراز الأدرينالين جعل المشكلة تتفاقم.»

حدقت نيكول في العالم الياباني. وأردفت: «هذا أمرٌ وارد يا دكتور تاكاجيشي. فإحدى المرتين التي حدث فيهما الانحراف الشديد تلت انقطاع الضوء مباشرة. أخمن أن هذا حدث لدى سماعك لأصواتك الغريبة.»

رد عليها: «والآخر حدث مصادفة، ربما في أثناء مجادلتي مع دكتور براون في المخيم، أليس كذلك؟ إن كان الأمر كذلك، فإن هذا يؤيد فرضيتي.»

لمست الرائدة نيكول عدة مفاتيح في لوحة التحكم، ودخل برنامجها على نظام فرعي. وتفحصت البيانات التي تظهر على جانبَي الشاشة المنقسمة. وقالت: «بلى، يبدو كلامك صحيحًا. فقد حدث الانحراف الثاني قبل بدء مغادرتنا لراما بعشرين دقيقة. وهو ما يقارب وقت انتهاء الاجتماع.» تحركت نيكول بعيدًا عن الشاشة. ثم قالت: «لكن لا يمكنني غض الطرف عن السلوك الغريب لقلبك لمجرد أنك كنت في حالة إثارة.»

حدَّق كلٌّ منهما في الآخر عدة ثوانٍ طويلة. ثم قال تاكاجيشي بهدوء: «إلامَ ترمين يا دكتورة؟ أتنوين حبسي في مكاني في نيوتن؟ الآن، في أكثر اللحظات الحاسمة في حياتي المهنية؟!»

أجابته نيكول صراحة: «أنا أفكر في ذلك. صحتك عندي أهم من مسيرتك المهنية. لقد فقدت أحد أفراد الطاقم بالفعل. ولست متيقنة من أنني سأستطيع أن أغفر لنفسي إذا ما فقدت فردًا آخر.»

رأت نيكول نظرات الاستعطاف وهي ترتسم على وجه زميلها. فقالت: «أعلم أهمية غارات راما لك. لكني أحاول أن أجد مبررًا كي أتغاضى عن بيانات البارحة.» جلست نيكول عند الطرف الأقصى من الفراش، ونظرت بعيدًا وقالت: «لكن بصفتي طبيبة ولست رائدة فضاء في نيوتن، فالأمر يُعتبر شاقًّا للغاية.»

شعرت نيكول بتاكاجيشي وهو يدنو منها ويُربت على كتفها برفق. قال تاكاجيشي: «أعرف كم كانت الأيام القلائل الماضية عسيرة عليك. لكن الخطأ لم يكن خطأك. جميعنا يعي جيدًا أن موت الجنرال بورزوف كان أمرًا محتومًا.»

لمست نيكول التقدير والمودة في نظرة تاكاجيشي. فشكرته بعينيها، واستطرد تاكاجيشي: «أقدر أيَّما تقدير ما فعلته من أجلي قُبيل الإقلاع. إذا شعرت أنك مضطرة أن تحجمي أنشطتي الآن فلن أعترض.»

وَثَبت نيكول من مكانها وقالت: «سحقًا، إن الأمر ليس بهذه البساطة. لقد دأبت لما يقرب من ساعة على فحص بيانات أداء قلبك في غضون الليل. انظر إلى هذا. إن الرسم البياني لأداء قلبك على مدى الساعات العشرة الماضية يفيد أنك طبيعي جدًّا. وليس هناك أي أثر لأي انحرافات. كما أنه لم يكن هناك أي انحرافات على مدار أسابيع. فيما عدا البارحة. ما الخَطب يا شيج؟ ألديك قلب سيئ؟ أم إن قلبك غريب فحسب؟»

ابتسم تاكاجيشي. وقال: «أخبرتني زوجتي في إحدى المرات أن لديَّ قلبًا غريبًا. لكنني أعتقد أنها كانت تشير إلى شيء مختلف اختلافًا تامًّا.»

شغلت نيكول جهاز الفحص وعرضت البيانات، كلٌّ في وقته الحقيقي. وقالت: «هاك البيانات مجددًا»، ثم هزَّت نيكول رأسها مُعبرةً عن عدم تصديقها، وتابعت: «تشير البيانات إلى قلبٍ مكتمل الصحة. وما من اختصاصيٍّ قلب في العالم يمكنه أن يختلف مع تشخيصي.» ثم تحركت نحو الباب.

سألها تاكاجيشي: «إذن، ما هو الحكم النهائي، يا دكتورة؟»

أجابته: «لم أقرر بعد. يمكنك المساعدة. إذا جعلت نفسك تُصاب بنوبة أخرى على مدار الساعات القلائل القادمة، فسوف تسهل عليَّ الحكم.» ثم لوحت بيديها للرحيل. وقالت: «أراك على الإفطار.»

بينما كانت نيكول تتجه إلى أسفل نحو القاعة تاركةً غرفة تاكاجيشي، كان ريتشارد ويكفيلد خارجًا من غرفته. قررت نيكول دون تفكير أن تتحدث إليه بشأن برمجيات روسور.

قال ريتشارد عندما اقترب منها: «صباح الخير أيتها الأميرة.» وأردف: «ما الذي أيقظك في هذه الساعة؟ آمل أن يكون شيئًا مثيرًا.»

ردت نيكول عليه بنفس نبرة الصوت الهزلية: «في الحقيقة، كنت آتية للتحدث إليك.» توقف ريتشارد لينصت إليها، فقالت له: «أتسمح لي بدقيقة من وقتك؟»

أجابها بابتسامة عريضة: «سأمنحك دقيقتين أيتها السيدة الدكتورة. لكن ليس أكثر. فضعي في اعتبارك أنني جوعان. وإذا لم آكل بسرعة عندما أكون جوعانًا فأنا أتحول إلى وحش كاسر.» ضحكت نيكول. قال لها بنبرة مرحة: «ما الخَطب؟»

فسألته: «هل يمكننا الدخول إلى غرفتك؟»

أجابها وهو يلتفت حوله ويتسلل بسرعة نحو الباب: «كنت متيقنًا من ذلك. كنت متيقنًا منه.» وتابع قوله: «أخيرًا سيحدث الأمر كما في أحلامي. ستعلن لي امرأة جميلة وذكية عن مشاعرها الجياشة ...»

لم تستطِع نيكول أن تكتم ضحكها. وقاطعته وهي لا تزال تبتسم: «ويكفيلد، أنت حالة ميئوس منها. ألا تكون جادًّا قط؟ لديَّ بعض الأعمال لأناقشها معك.»

أجاب ريتشارد وهو يتظاهر بالأسف: «تبًّا.» وتابع قائلًا: «أعمال. في هذه الحالة سأقلص الوقت إلى دقيقتين. فأنا أخبرتك بهذا من البداية. فالأعمال تجعلني أتضوَّر جوعًا أيضًا ... وتجعلني أغضب.»

فتح ريتشارد ويكفيلد باب غرفته وانتظر حتى تدخل نيكول. قدم لها المقعد الموجود أمام جهاز الكمبيوتر وجلس وراءها على الفراش. فاستدارت لتعطيه وجهها. وعلى الرف الذي يعلو فراشه كان هناك اثنا عشر تمثالًا صغيرًا مشابهًا لأولئك اللائي شاهدتهم من قبل في غرفة تابوري وفي المأدبة التي دعا إليها بورزوف.

قال ريتشارد ملاحظًا فضولها: «دعيني أُرِك بعضًا من مجموعة وحوشي. لقد التقيتِ من قبل بالسيد والسيدة ماكبث، وباك وبوتوم. أما هذا الزوج المتناغم فهما تيبلت ومركاتيو من مسرحية «روميو وجوليت». وإلى جانب منهما يقف إياجو وعطيل يرافقهما الأمير هال وفولستاف والسيدة الرائعة كويكلي. أما هذا الأخير من جهة اليمين فهو صديقي الحميم الشاعر العظيم شكسبير، أو الشاعر اختصارًا».

وبينما كانت نيكول منهمكة في المشاهدة، أدار ريتشارد محولًا بالقرب من رأس فراشه، فنزل الشاعر من على سلم من الرف إلى السرير. وبحذر أبحر الإنسان الآلي الذي يبلغ ارتفاعه عشرين سنتيمترًا بين ثنايا أغطية الفراش وجاء إلى نيكول ليحييها.

قال الشاعر: «وما اسمك سيدتي الجميلة؟»

أجابته: «نيكول دي جاردان.»

رد الإنسان الآلي فورًا: «يبدو أنه اسم فرنسي. لكنك لا تبدين فرنسية. أو على الأقل لست من فالوا.» وأخذ الإنسان الآلي يحملق فيها. ثم قال لها: «أنت أقرب لأن تكوني ابنة عطيل وديدمونة.»

شُدِهَت نيكول مما رأت. فسألته: «كيف تفعل هذا؟»

قال ريتشارد بإشارة من يديه: «سأشرح لك فيما بعد.» ثم سألها: «هل تفضلين قصيدة معينة لشكسبير؟ إن كان كذلك، فقولي بيتًا منها أو أخبري الشاعر برقمها.»

تذكرت نيكول بيت شعر يقول: «كم من الإصباحات العديدة الكاملة البهاء ...»

حينئذٍ أضاف الكائن الآلي: «... رأيتها،»

تُضفي جمالها على قمم الجبال بالنظرة الآسرة،
تقبل بوجهها الذهبي على السهول الخضراء،
تطلي الجداول الشاحبة بالكيمياء السماوية ...

كان الإنسان الآلي الصغير يتلو القصيدة وهو يحرك رأسه وذراعيه، وتعلو وجهه كثير من التعبيرات الموحية. ومرة أخرى انبهرت نيكول بالإبداع الذي ينعم به ريتشارد ويكفيلد. وتذكرت نيكول أربعة أبيات شعر رئيسية من السونيت من أيام الجامعة فدندنت بها مع الشاعر:

هكذا أشرقت شمسي ذات صباح باكر،
بكل جلال النصر فوق جبيني،
لكن، وا أسفاه، فلم تكن لي سوى ساعة
ثم حجبها الآن عني قناع السحب ...

بعدما أنهى الإنسان الآلي المقطع الشعري الأخير المكون من بيتين، وجدت نيكول التي تأثرت بمعظم الكلمات التي كانت قد نسيتها، وجدت نفسها تصفق. ثم سألته: «وهل يمكنه أن يتلو كل السونيتات؟»

أومأ ريتشارد بالإيجاب. وقال: «إضافة إلى الكثير والكثير من المقاطع المسرحية الشعرية. لكن هذا ليس أبرز ما يميزه. فحفظ مقاطع من أعمال شكسبير لا يتطلب سوى سعة تخزين كبيرة. لكن الشاعر إنسان آلي غاية في الذكاء. ويمكنه أن يجري حوارًا أفضل من ...»

توقف ريتشارد عن الحديث في منتصف الجملة. ثم قال: «آسف يا نيكول. لقد استحوذت على الوقت كله. لقد قلتِ إن لديك بعض الأعمال لتناقشيها.»

غمزت نيكول بعينيها وقالت: «لقد استنفدت دقيقتَيَّ بالفعل. أمُتيقِّن أنك لن تموت جوعًا إذا أخذت خمس دقائق أخرى من وقتك؟»

لخصت نيكول في عجالة ما توصلت إليه في تحقيقاتها بشأن الخلل الوظيفي في برمجيات روسور، بما في ذلك استنتاجها أن خوارزميات الحماية ضد الأعطال قد تعطلت بأوامر يدوية. وأشارت أن هذا هو أقصى ما توصلت إليه في تحليلها ولا يمكنها الذهاب أبعد من ذلك. لذا، ترجو بعض المساعدة منه. غير أنها لم تخبره بشكوكها.

قال بابتسامة: «الأمر سهل للغاية. كل ما عليَّ فعله هو أن أجد مكانًا في الذاكرة حيث عُدلت الأوامر وخُزنت. قد لا يستغرق هذا بعض الوقت، مع أخذ سعة التخزين بعين الاعتبار، غير أن هذه الذاكرات تُصمم عامة وفقًا لأساليب تركيب منطقية. ومع ذلك، فأنا لا أفهم لمَ تقومين بكل هذه التحريات. لماذا لا تسألين جانوس والآخرين ببساطة عما إذا كانوا قد أدخلوا أي أوامر؟»

ردت نيكول: «هنا تكمن المشكلة.» وأردفت: «فلا أحد يتذكر إعطاء أي أوامر لروسور بعد التحميل والتثبيت النهائيين. وعندما ارتطم رأس جانوس أثناء المناورة ظننت أن أصابعه سقطت على صندوق التحكم. لكنه لا يتذكر هذا وأنا غير متيقنة.»

قطب ريتشارد جبينه. وقال: «من المستبعد تمامًا أن يكون جانوس قد بدل نظام الحماية ضد الأعطال بأمر عشوائي. فهذا يعني أن التصميم بأكمله تصميم أخرق.» وأخذ يفكر للحظة. ثم تابع: «حسنًا، ليس هناك حاجة للتخمين. الآن، قد أثرتِ فضولي. لسوف أنظر في المسألة حالما يكون لديَّ ...»

«أصغوا لي يا رفاق. أصغوا إليَّ.» قطع صوت أوتو هيلمان في جهاز الاتصال حديثهما. كان هيلمان يقول: «ليأتِ الجميع على الفور إلى مركز التحكم العلمي لاجتماع. ثَمة تطور جديد. فقد عادت الأنوار الآن داخل راما مرةً أخرى.»

فتح ريتشارد الباب وتبع نيكول في الممر. قالت نيكول: «أشكرك على مساعدتك. أنا أقدر لك ذلك تمام التقدير.»

أجابها ريتشارد بابتسامة عريضة: «اشكريني بعدما أفعل شيئًا.» وأردف قائلًا: «فأنا معروف بحنث الوعود. والآن، في رأيك ماذا يعني هذا التلاعب بالأضواء؟»

الفصل السادس والعشرون

الرحلة الثانية

بسط ديفيد براون لوحة ورقية عريضة على الطاولة التي تتوسط مركز التحكم. وقد قسمتها فرانشيسكا إلى أجزاء تمثل ساعات، وكانت منهمكة آنذاك في تدوين كل ما يمليه عليها براون. كان دكتور براون يقول لجانوس تابوري وريتشارد ويكفيلد: «إن البرمجيات الملعونة لتخطيط البعثة غير مرنة حتى تكون نافعة في موقف مثل هذا. فهي لا تجدي إلا عندما يُساير تتابع الأنشطة المخطط لها إحدى الاستراتيجيات المُعدَّة قبل الإقلاع.»

خطا جانوس باتجاه إحدى الشاشات. واسترسل دكتور براون قائلًا: «لعلك تكون قادرًا على استخدامها أفضل مني، لكنني وجدت هذا الصباح أنه من الأيسر جدًّا أن نعتمد على القلم والورقة.» استدعى جانوس برمجيات تسلسل البعثة، وبدأ يُدخل بعض البيانات.

اعترضه ريتشارد ويكفيلد قائلًا: «انتظر لحظة.» توقف جانوس عن الكتابة على لوحة المفاتيح والتفت كي يصغي إلى زميله. قال ريتشارد: «لقد أنجزنا كل شيء دون جدوى. لسنا في حاجة لتخطيط كل الأمور الخاصة بالرحلة التالية الآن. على أي حال، نحن نعرف أن أول مهمة أساسية يتعين علينا القيام بها هي إتمام البنية التحتية. وهذا سوف يستغرق عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة أخرى. أما عن باقي أنشطة الرحلة فيمكن التخطيط لها بالتوازي.»

أضافت فرانشيسكا: «ريتشارد محق.» ثم تابعت: «نحن نحاول القيام بكل شيء على جناح السرعة. لنرسل الرواد المبتدئين إلى راما لإنهاء التركيبات. وبينما هم هناك، نقوم نحن بإعداد تفاصيل الرحلة.»

رد دكتور براون: «هذا لا يبدو عمليًّا. إن خريجي الأكاديمية وحدهم يعرفون طول المدة التي تستغرقها الأنشطة الهندسية المتنوعة. ولا يمكننا تصميم جدول زمني صحيح دونهم.»

عندئذٍ قال جانوس تابوري: «إذن، سيمكث أحدنا معك هنا.» ثم ابتسم ابتسامة عريضة. وتابع قائلًا: «ويمكننا أن نستغل هيلمان أو أوتول بالداخل، باعتبارهما عمالة إضافية. ولا ينبغي أن يعوقنا ذلك كثيرًا.»

وفي غضون نصف ساعة وصلوا إلى قرار بإجماع الآراء. ستبقى نيكول على متن نيوتن مرة أخرى، على الأقل حتى إتمام البنية التحتية، وسوف تمثل الرواد المبتدئين في عملية تخطيط البعثة، أما الفريق البحري هيلمان فسوف يذهب إلى راما مع الرواد الأربعة المحترفين. ومن المفترَض أن ينتهوا من مهام البنية التحتية الثلاثة المتبقية، وهي: تجميع بقية المركبات، ونشر اثنتي عشرة محطة مراقبة متنقلة في نصف الأسطوانة الشمالي، ثم أخيرًا إنشاء مخيم بيتا/معقد الاتصالات على الجانب الشمالي من البحر الأسطواني.

كان ريتشارد ويكفيلد منهمكًا في مراجعة تفاصيل المهام الفرعية كافة مع فريقه الصغير عندما وثب ريجي ويلسون، الذي كان صامتًا تمامًا طوال فترة الصباح بأكملها، بغتة من على مقعده. وصاح قائلًا: «هذا هراء. لا يمكنني أن أصدق كل هذا الهراء الذي أسمعه.»

توقف ريتشارد عن مراجعته. وصمت فجأةً كلٌّ من براون وتاكاجيشي اللذين كانا قد بدآ بالفعل مناقشة تصميم الرحلة. واتجهت كل الأنظار إلى ريجي ويلسون.

قال ويلسون: «لقد مات هنا رجل منذ أربعة أيام. بل قتله على الأرجح الشخص أو الشيء الذي يدير هذه السفينة الضخمة. ومع ذلك ذهبنا داخلها لاستطلاعها. ثم تُضاء الأضواء فجأة وتنقطع فجأة.» نظر ويلسون في كل أنحاء الغرفة إلى باقي الطاقم. وكانت هناك نظرة وحشية في عينيه. وكانت جبهته تتصبب عرقًا. ثم تابع: «وماذا فعلنا جميعنا؟ هه؟ وماذا كان رد فعلنا تجاه هذا التحذير الذي بعثته إلينا مخلوقات غريبة تفوقنا بكثير؟ جلسنا بهدوء وأخذنا نخطط لباقي حملات استطلاعاتنا لمركبتهم. ألم يفهم أحدكم قط؟! إنهم لا يريدوننا أن نكون هناك. بل يريدوننا أن «نرحل» ونعود أدراجنا إلى الأرض.»

قُوبلت ثورة ويلسون بصمت غير مريح. وأخيرًا قام الجنرال أوتول واقترب من ريجي ويلسون. وقال بهدوء: «ريجي، كلنا مستاءون لموت الجنرال بورزوف. لكن لا أحد منا يرى أي ارتباط ...»

قاطعه ويلسون: «إذن أنت رجل أعمى، أنت أعمى. لقد كنت موجودًا في تلك الهليكوبتر الملعونة عندما انطفأت الأنوار. في دقيقة واحدة كانت الأنوار ساطعة وكأننا في نهار صيفي مشمس، وفجأة، في الدقيقة التالية أصبحت ظلمة حالكة. لقد كان الأمر غريبًا، يا رجل. لقد أطفأ أحدهم «كل» الأنوار. وفي هذه المناقشة لم أسمع أحدًا قط يسأل «لماذا» انطفأت الأنوار. ماذا دهاكم؟ هل أنتم أذكياء بالقدر الذي يجعلكم لا تخشون شيئًا؟»

أخذ ويلسون يتحدث بصخب لعدة دقائق. وكان يكرر الموضوع نفسه. لقد خطط سكان راما لموت بورزوف، وكانوا يبعثون بتحذيراتهم عن طريق تشغيل الأنوار وإطفائها، وسيكون هناك المزيد من الكوارث إن أصر الطاقم على المضي قدمًا في استطلاعاته.

وقف الجنرال أوتول بجانب ريجي في أثناء الحديث بأكمله. وأجرى دكتور براون وفرانشيسكا ونيكول حديثًا جانبيًّا سريعًا، وعندئذٍ دنَت نيكول من ويلسون. وقالت بطريقة ودية، مُقاطِعةً خطبته اللاذعة: «ريجي، لماذا لا تأتين معي أنت والجنرال أوتول؟ يمكننا أن نكمل هذا الحديث دون أن نعطل باقي أفراد الطاقم.»

نظر إليها بريبة. وقال: «أذهب معك أنتِ يا دكتورة؟ لماذا ينبغي لي أن آتي معك؟ فأنت لم تذهبي إلى هناك. ولم تشاهدي بما يكفي لتعرفي أي شيء.» تحرك ويلسون واقترب من ويكفيلد ووقف أمامه. وقال: «أنت كنت هناك يا ريتشارد. لقد رأيت ذلك المكان، وتعرف نوعية الذكاء والقوة المطلوبين كي تصنع مركبة فضائية بهذا الحجم ثم تطلقها في رحلة بين النجوم. نحن نكرة بالنسبة لهم يا رجل. نحن أقل من النمل. ليس أمامنا فرصة.»

أجاب ريتشارد ويكفيلد بهدوء بعد لحظة تردد: «أتفق معك، يا ريجي.» وأردف: «على الأقل فيما يتعلق بقدراتنا مقارنة بقدراتهم الهائلة. بيد أنه ليس لدينا دليل واحد على أنهم عدوانيون. أو حتى ما إذا كانوا يبالون باستطلاعنا أو عدمه لمركبتهم. بل على العكس تمامًا، إن حقيقة كوننا لا نزال أحياءً ...»

فجأة صاحت إيرينا تورجينيف: «انظروا. انظروا إلى الشاشة.» كان هنالك صورة مستقلة ثابتة على الشاشة العملاقة الموجودة في مركز التحكم. ملأت صورة لمخلوق أشبه بالسرطان الشاشة بأكملها. وقد كان له جسم مسطح قصير، وطوله يعادل عرضه مرتين. وكان ثقله يرتكز على ستة أرجل ثلاثية المفاصل. وكان يمتد أمام الجسم مخلبان أشبه بالمقصات، وصفٌّ كامل من الأذرع التي تشبه للوهلة الأولى بدرجة مذهلة أذرعًا بشرية

بالغة الصغر بالقرب من فتحات في الدرع القرني. وبالمعاينة من كثبٍ أكثر، كانت الأذرع مستودَعًا فعليًّا للأدوات المعدنية؛ إنها كماشات ومسابير ومبارد وشيء يشبه الحفار.

وكانت عيناه، إذا كانت هذه عيونًا حقيقية، مجوفة بعمق داخل غطاء واقٍ، ومرفوعة، مثل منظار الأفق، فوق قمة الصدفة. وكانت مقلة العين نفسها من الكريستال أو الهلام ذات لون أزرق زاهٍ وتخلو تمامًا من التعبيرات.

وكان يتضح من الكلمات المكتوبة بجانب الصورة أن إحدى طائرات الاستطلاع الخارجية الطويلة المدى قد التقطت الصورة منذ لحظات فحسب، في بقعة تبعد تقريبًا نحو خمسة كيلومترات جنوب البحر الأسطواني. وقد التُقطت الصورة باستخدام عدسات تلسكوبية تغطي منطقة تبلغ نحو ستة أمتار مربعة.

قال جانوس تابوري: «إذن، لدينا صحبة في راما.» حملق باقي أفراد الطاقم في الشاشة في ذهول.

أجمع باقي أفراد الطاقم فيما بعدُ أن صورة السرطان الآلي الموجودة على الشاشة العملاقة ما كانت لتبدو مرعبة لولا ظهورها في هذه اللحظة بعينها. فمع أن سلوك ريجي كان سلوكًا شاذًّا بلا ريب فإن أقواله كانت تحوي منطقًا يكفي أن يُذكر كلًّا منهم بالمخاطر التي تكتنف بعثتهم. ولم يخلُ أحد أفراد الطاقم من الخوف تمامًا. إذا تقابل كلٌّ منهم، في لحظة خاصة، مع الحقيقة المزعجة التي تقر بأن سكان راما الخارقين للطبيعة قد لا يكونون مسالمين.

لكنهم كانوا يحاولون معظم الوقت أن يُنحوا مخاوفهم جانبًا. فالمخاوف جزء من مهنتهم. فقد قبل رواد نيوتن — شأنهم في ذلك شأن رواد فضاء المكوك الفضائي السابق في أمريكا، الذين كانوا يعلمون أن المركبة قد تتحطم أو تنفجر بين لحظة وأخرى — أنه قد يكون هناك بعض المخاطر التي لا يمكن السيطرة عليها تقترن ببعثتهم. وقد حدا إنكار المجموعة الإيجابي لهذه المخاوف أن تتحاشى مناقشة الأمور المزعجة، وأن تركز معظم الوقت على أكثر البنود طواعية (ومن ثَم القابلة للتحكم فيها)، مثل ترتيب أحداث اليوم التالي.

وقد أطلقت ثورة ريجي وتزامنها مع ظهور السرطان الآلي على الشاشة موجة من المناقشات الجماعية الجادَّة لم يُشهد مثلها منذ بدء المشروع. رجع أوتول إلى موقعه في المراقبة أولًا. لقد انبهر بسكان راما ولم يَهَبْهم. ولقد رأى الله أنه من المناسب أن يكون

ضمن أفراد هذه البعثة، وإذا كان هذا اختيار الله، فيمكنه أن يقرر أن هذه المغامرة غير العادية سوف تكون نهاية أوتول. وعلى أي حال، أيًّا كان ما سيحدث، فإنه سيكون مشيئة الله.

أما ريتشارد ويكفيلد فقد أعرب بوضوح عن وجهة نظره التي كان يشاركه فيها العديد من أفراد الطاقم. إذ كان ينظر إلى المشروع بأكمله على أنه رحلة استكشافية مثيرة للتحدي، وكذلك مقياس لمدى القدرة الفردية على التحمل. أما الأشياء التي يكتنفها الغموض والشك فقد وُجدت للتيقن منها، علاوة على أنها تولد إثارة مثلما تولد الخطر. أما عن مدى الإثارة الناتجة عن الاكتشاف الجديد، إلى جانب الأهمية البارزة المحتملة لهذه المواجهة مع الكائنات الفضائية، فإنه يفوق كثيرًا مدى المخاطر. ولم يكن لدى ريتشارد أي مشكلة بشأن هذه البعثة. لقد كان يرى أنها تعظيم لحياته، وإذا تُوفي قبل نهاية المشروع، فالأمر لا يزال يستحق كل هذا العناء. وسيكون قد أنجز شيئًا ذا مغزًى في غضون مدة وجوده الوجيزة على الأرض.

أصغت نيكول بانتباه إلى المناقشة. ولم تقل هي نفسها الكثير، غير أنها كانت تجد آراءها الخاصة تتبلور كلما تابعت تدفق الحوار. وقد استمتعت بمشاهدة ردود الأفعال اللفظية وغير اللفظية للرواد الآخرين. كان ينجلي بوضوحٍ اتفاق شجيرو تاكاجيشي مع آراء ويكفيلد. إذ كان يومئ برأسه بهمة وحماسة طوال الوقت الذي كان يتحدث فيه ريتشارد عن إثارة المشاركة في مثل هذا العمل الرائع. أما ريجي ويلسون، الذي خنع، وخجل غالبًا من نفسه بسبب خطبته اللاذعة السابقة، فلم يتفوه بالكثير. فهو لم يكن يعلق إلا عندما يُسأل سؤالًا مباشرًا. أما الفريق البحري هيلمان، فقد بدا منزعجًا من البداية وحتى النهاية. واقتصرت كل مشاركته على تذكير الجميع بانقضاء الوقت.

والمثير أن دكتور ديفيد براون لم يضف الكثير إلى المناقشة الفلسفية. لقد ذكر العديد من التعليقات القصيرة، وقد بدا مرة أو مرتين أنه مشرف على الخوض في تفسير طويل ومسهب. ولكنه لم يفعلها قط. ولم تُعلن معتقداته الحقيقية حول طبيعة راما.

أما فرانشيسكا ساباتيني فقد بدت في البداية أنها تقوم بدور الوسيط أو المُحاور، تسأل أسئلة إيضاحية وتحفظ الحوار متوازنًا. بيد أنها قدمت بالقرب من نهاية الحوار العديد من التعليقات الشخصية الصريحة. وكانت وجهة نظرها الفلسفية حول بعثة نيوتن تختلف اختلافًا جذريًّا عن تلك التي لأوتول وويكفيلد.

فقد قالت بعد أن قدم ريتشارد إطراءً طويلًا حول مباهج المعرفة: «أعتقد أنكم تُعقِّدون الأمور وتجعلونها أكثر عقلانية.» وتابعت: «لم يكن هناك أي داعٍ بأن أقوم ببحث

عميق في النفس قبل التقديم للعمل رائدًا للفضاء بنيوتن. لقد تعاملت مع المسألة بنفس الطريقة التي أتخذ بها كل قراراتي المهمة. لقد أجريت مفاضلة بين المخاطر والمنافع. ورأيت أن المنافع التي ستعود عليَّ — بأخذ كل العوامل بعين الاعتبار بما في ذلك الشهرة والمكانة الاجتماعية والمال وحتى المغامرة — تستحق المخاطرة. وأنا أختلف مع ريتشارد تمامًا في أحد الجوانب. فإذا مت في هذه البعثة فلن أكون سعيدة على الإطلاق بالطبع. فمن وجهة نظري، معظم المنافع التي ستعود عليَّ من هذا المشروع مُرجأة، ولن أستطيع الاستفادة منها ما لم أعد إلى الأرض.»

أثارت تعليقات فرانشيسكا فضول نيكول. ورغبت في أن تسأل الصحفية الإيطالية أسئلةً أخرى، غير أن نيكول رأت أن الوقت والمكان غير مناسبَين. وبعد انتهاء الاجتماع، كانت لا تزال مشغولة بما قالته فرانشيسكا. قالت نيكول لنفسها: «هل الحياة بهذه البساطة من وجهة نظرها؟ وهل يُقيِّم كل شيء على ضوء المخاطر والمنافع؟» لقد تذكرت خلو فرانشيسكا من المشاعر عندما رشفت دواء الإجهاض. سألت نيكول نفسها: «ولكن ماذا عن المبادئ أو القيم؟ أو حتى المشاعر؟» وعندما كان الاجتماع على وشك الانتهاء، أقرَّت نيكول في نفسها أن فرانشيسكا لا تزال لغزًا محيرًا.

راقبت نيكول دكتور تاكاجيشي بعناية. لقد كان يتصرف بطريقةٍ أفضل اليوم. وكان يقول ويداه تلوح برزمة أوراق سُمكُها أربع بوصات: «دكتور براون، لقد أحضرت نسخة مطبوعة من «استراتيجية الغارات» كي تذكرنا بالمبادئ الأساسية الخاصة بتصميم الرحلة، ثمرة ما يزيد عن عام من التخطيط المتأني للبعثة. هل أقرأ لكم من الملخص؟»

أجابه دكتور ديفيد براون: «لا أعتقد أنك في حاجة للقيام بذلك. فكلنا لدينا دراية تامة …»

حينئذٍ قاطعه الجنرال أوتول قائلًا: «أنا لست على دراية تامة.» وأردف: «أود أن أستمع لهذا. فقد طلب مني الفريق البحري هيلمان أن أعير انتباهًا شديدًا، وأن أوجز له ما يحدث.»

أومأ دكتور براون لتاكاجيشي بالمضي قدمًا. كان العالم الياباني الضئيل البنية يستعير ورقة من حافظة الأوراق الخاصة ببراون. ومع أنه كان قد علم أن ديفيد براون كان يفضل بشكل شخصي السعيَ وراء السرطان الآلي في الرحلة الثانية، فإنه كان لا يزال يحاول إقناع الرواد الآخرين أن النشاط الذي ينبغي أن يولوه الأولوية الأولى هو شن غارة علمية على مدينة نيويورك.

استأذن ريجي ويلسون من الاجتماع ساعة مبكرًا وقصد غرفته للراحة. أما باقي أفراد الطاقم الخمسة الآخرين الموجودين على متن نيوتن فقد أمضوا معظم المساء يجاهدون للوصول إلى اتفاق بشأن الأنشطة المقرر القيام بها في الرحلة الثانية، لكن جهودهم ذهبت سدًى. فلما كان العالمان براون وتاكاجيشي مختلفين اختلافًا جذريًّا في آرائهم حول ما ينبغي فعله، استحال الوصول إلى قرار بإجماع الآراء. في تلك الأثناء، كانت الشاشة العملاقة من ورائهم تبين مشاهد متقطعة للرواد المبتدئين بصحبة الفريق البحري هليمان وهم يعملون داخل راما. وكانت الصورة الحالية تبين تابوري وتورجينيف وهما في المخيم المجاور للبحر الأسطواني. وقد انتهيا لتوهما من تجميع المركب البخاري، وكانا يتفقدان أنظمته الفرعية الكهربائية.

كان تاكاجيشي يقرأ: «... إن تسلسل الغارات قد صُمِّم بعناية كي يتواءم مع «سياسات البعثة ووثيقة الأولويات» رقم ISA-NT-0014. وكان الهدف الرئيسي للرحلة الأولى هو تأسيس البنية التحتية الهندسية، وفحص الأجزاء الداخلية ظاهريًّا على الأقل. والأمر الذي ينبغي أن نوليه اهتمامًا خاصًّا هو تحديد أي ملمح من ملامح المركبة راما ٢ قد يختلف بأي شكل من الأشكال عن المركبة راما ١.

وقد صُممت الرحلة رقم ٢ لإتمام إعداد خرائط لراما من الداخل، مع التركيز بدرجة خاصة على المناطق التي لم تُكتشف منذ سبعين سنة، ومجموعات المباني التي يُطلق عليها مدنًا أو أي اختلافات داخلية جرى تحديدها في الرحلة الأولى. وفي الرحلة الثانية يجري «تجنب» أي مناوشات مع الكائنات الآلية، مع أن ظهور أنواع مختلفة من المخلوقات الآلية وتحديد مواقعها سوف يكون جزءًا من عملية وضع الخرائط.

يُرجأ أي تعامل مع الكائنات الآلية إلى الرحلة الثالثة. ولن تجري أي محاولات للتعامل معها إلا بعد القيام بالمراقبة الدقيقة و«المطولة» ...»

قاطعه دكتور ديفيد براون قائلًا: «كفى يا دكتور تاكاجيشي.» وأردف: «فكلنا على دراية بلب الموضوع. للأسف، وُضعت هذه الوثائق العقيمة قبل الإقلاع بعدة أشهر. والموقف الذي نُجابهه الآن لم يكن متوقعًا البتة. نحن الذين رأينا الأنوار وهي تُضاء وتنطفئ. ونحن الذين عيَّنا موقع قطيع مكوَّن من ستة سرطانات آلية خلف الحافة الجنوبية للبحر الأسطواني ونقتفي أثرهم.»

رد عليه العالم الياباني باحترام: «لا أوافقك الرأي.» ثم تابع حديثه: «لقد قلت بنفسك إن انقطاع الضوء غير المتوقع لا يظهر اختلافًا جوهريًّا بين المركبتين. لذا نحن

لا نواجه راما مجهولة لنا. من ثَم أؤكد على ضرورة تنفيذ الغارات وفقًا للخطط الأصلية للبعثة.»

«إذَن أنت تفضل تخصيص الرحلة الثانية بأكملها لإعداد الخرائط، بما في ذلك، أو من المحتمل، إجراء استطلاع مفصل لنيويورك، أليس كذلك؟» كان هذا سؤال الجنرال أوتول.

أجابه: «بالضبط يا جنرال أوتول. حتى وإن افترضنا أن «الأصوات الغريبة» التي سمعتها بنفسي ومعي الرائد ويكفيلد والرائدة فرانشيسكا لا تمثل اختلافًا رسميًّا، فإن المسح الدقيق لنيويورك هو بوضوح أحد الأنشطة التي لها الصدارة في الأولوية. وإنه لأمر حيوي أن نُتمَّه في هذه الرحلة. وقد ارتفعت درجة الحرارة فعليًّا في السهل المركزي لتصل إلى خمس درجات مئوية تحت الصفر. إن راما تأخذنا نحو الشمس أكثر فأكثر. إن المركبة الفضائية تسخن من الخارج إلى الداخل. وأتوقع أن البحر الأسطواني سوف يبدأ في الذوبان من القاع في غضون ثلاثة أيام أخرى أو أربعة ...»

قاطعه دكتور براون مجددًا قائلًا: «لم أقل قط إن نيويورك ليست هدفًا مشروعًا للاستطلاع؛ لكنني أكدت من البداية على أن المخلوقات الآلية هي الكنز العلمي الحقيقي لهذه الرحلة. انظروا إلى هذه المخلوقات المذهلة.» قال هذا مشيرًا إلى الشاشة المركزية حيث يُعرض فيلم للسرطانات الستة الآلية وهي تتحرك بتؤدة عبر منطقة هادئة في نصف الأسطوانة الجنوبي. ثم تابع حديثه: «وقد لا يكون لدينا فرصة أخرى لنقتنصها. إن طائرات الاستطلاع الخارجية قد انتهت تقريبًا من استكشاف نصف الأسطوانة بأكمله، ولم يتبين وجود أي كائنات آلية أخرى.»

نظر سائر أفراد الطاقم بما فيهم تاكاجيشي إلى الشاشة باهتمام شديد. اقترب سرب المخلوقات الغريبة الذي يأخذ شكل المثلث وقائد يفوقهما قليلًا في الحجم في المقدمة، من كومة غير منظمة من معدن رخو. وكان السرطان القائد يتحرك مباشرةً نحو هذا الحائل، وتوقف لعدة ثوانٍ، وعندئذٍ استخدم مخالبه كي يقطع عناصر الكومة إلى قطع أصغر. حمل السرطانان الموجودان في الصف الثاني شظايا المعدن ووضعاها فوق ظهور الأعضاء الثلاثة الباقية في التشكيل. وزادت كميات هذه المادة الجديدة من حجم الكومات الصغيرة الموجودة بالفعل من قبل فوق أصداف السرطانات الثلاثة الآلية الموجودة بالصف الخلفي.

قالت فرانشيسكا: «حتمًا، هؤلاء هم طاقم نظافة راما.» فضحك الجميع.

ثم استرسل ديفيد براون: «لكن يمكنكم أن تروا لماذا أريد التحرك سريعًا. فهذا الفيلم القصير الذي شاهدتموه للتو في طريقه لشبكات التلفزيون على الأرض. ما يزيد عن مليار

من إخواننا من الرجال والنساء سوف يشاهدونه اليوم بنفس المزيج من الخوف والافتتان اللذين شعرتم بهما أنتم لتوِّكم. تخيَّلوا نوع المعامل التي يمكن أن ننشئها لفحص مثل هذه المخلوقات. تخيلوا ما الذي يمكن أن نتعلمه ...»

عندئذٍ قاطعه الجنرال أوتول. وسأله: «ما الذي يجعلك تعتقد أنك ستُمسك بأحدها؟ إنها تبدو مرعبة للغاية.»

أجابه: «مع أن هذه الكائنات تبدو ذات أجساد وخلايا حية، فنحن متيقنون من أنها كائنات آلية بالفعل. وعليه، شاع استخدام مصطلح «الكائنات الآلية البيولوجية» في غضون البعثة الأولى لراما وبعدها. وبناءً على كافة تقارير نورتون وطاقم رواد فضاء مركبة راما ١، صُمم كل مخلوق من هذه المخلوقات الآلية كي يؤدي وظيفة واحدة فحسب. وهي لا تتمتع بالذكاء كما نعلم. وينبغي لنا أن نكون قادرين على أن نخدعها ... ونأسرها.»

ظهرت لقطة قريبة مركزة على المخالب الأشبه بالمقصات على الشاشة العملاقة. وكان من الواضح أنها حادة جدًّا. فقال الجنرال أوتول: «لا أعلم. أنا أميل لأن أتبع اقتراح دكتور تاكاجيشي بأن نراقبها لوقت كافٍ قبل أن نحاول الإمساك بأحدها.»

قالت فرانشيسكا: «أنا لا أتفق معك. فمن منطلق كوني صحفية، ما من قصة إخبارية أهم من محاولة الإمساك بأحد تلك الأشياء. سوف يشاهد الناس على الأرض ذلك. وقد لا تتكرر هذه الفرصة مرةً أخرى.» ثم توقفت لبرهة. وواصلت قائلة: «إن وكالة الفضاء العالمية تضغط علينا لإرسال بعض الأخبار المبهجة. إن حادثة بورزوف لم تستطِع أن تقنع تمامًا القائمين على تكاليف البعثة أن الأموال التي ينفقونها على هذه البعثة تنفق في مكانها الصحيح.»

«لمَ لا يمكننا أن نقوم بكلتا المهمتين في نفس الرحلة؟» طرح الجنرال أوتول هذا السؤال. وأردف: «يمكن لأحد الفرق الفرعية استطلاع نيويورك والآخر يذهب للإمساك بسرطان.»

ردت نيكول: «مستحيل.» ثم تابعت: «إذا كان الهدف من هذه الرحلة هو اقتناص مخلوق آلي، عندئذٍ تُخصص كل الموارد لهذا الغرض. تذكر أننا مقيدون بعدد الرواد وبالوقت.»

رد ديفيد براون وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة: «مع الأسف.» وعقَّب قائلًا: «لا يمكننا أن نتخذ هذا القرار كلجنة. وبما أنه لم يتسنَّ لنا الوصول إلى اتفاق تام، يتعين عليَّ أن أختار ... وعليه يكون الغرض من الرحلة التالية هو اقتناص سرطان آلي.

وسأفترض جدلًا أن الفريق البحري هيلمان سوف يتفق معي في الرأي. فإن لم يتفق معي، فسنطرح القضية للتصويت عندئذٍ.»

انفضَّ الاجتماع بالتدريج. أراد دكتور تاكاجيشي أن يطرح مسألة مهمة أخرى للنقاش؛ إذ أراد أن يوضح أن معظم أنواع الكائنات الآلية التي شاهدها مستكشفو مركبة راما ١، لم تكن قد تجسدت حتى «بعد» ذوبان البحر الأسطواني. لكن لم يرد أحد أن يسمع المزيد. إذ كانوا جميعًا منهكين.

دنَت نيكول من تاكاجيشي وأدارت خفيةً شاشة الإحصاء البيولوجي خاصتها. وكان ملف التحذيرات فارغًا. قالت باسمةً: «ملفك ناصع البياض.»

نظر تاكاجيشي إليها نظرةً جادَّة. وقال في كمد: «قرارنا خاطئ. كان من المفترض أن نكون ذاهبين إلى نيويورك.»

الفصل السابع والعشرون

اقتناص كائن آلي

قال الفريق البحري هيلمان لفرانشيسكا: «انتبهي جيدًا. فأنت تثيرين أعصابي وأنت تنحنين هكذا.»

كانت السيدة فرانشيسكا قد لفَّت كاحلَيها أسفل مقاعد الهليكوبتر، وكانت مستلقية آنئذٍ بعيدًا عن مستوى الباب. وكانت تمسك بيدها اليمنى كاميرا فيديو صغيرة. وعلى بعد ثلاثة أو أربعة أمتار أسفل منها كانت السرطانات الستة الآلية يتهادون بطريقة منظمة، ومن الواضح أنهم لا يشعرون بأزيز الآلة فوق رءوسهم. وكانوا لا يزالون يتخذون نفس تشكيل الكتيبة العسكرية، مرتبين بنفس ترتيب الصفوف الثلاثة الأولى لقارورات لعبة البولينج.

صرخت فرانشيسكا في هيرو ياماناكا قائلةً: «تحرك باتجاه البحر.» وأردفت: «إنهم ذاهبون إلى الحافة وسوف يعودون مرة أخرى.»

مالت الهليكوبتر بشدة على جانبها الأيسر، وحلَّقت فوق جانب الجرف الذي يبلغ ارتفاعه خمسمائة متر، ويفصل النصف الجنوبي لراما عن البحر الأسطواني. كانت الضفة هنا أعلى عشر مرات من مثيلتها الشمالية. انبهر ديفيد براون حينما شاهد البحر المتجمد على بعد نصف كيلومتر أسفل منه.

ثم قال: «هذا تصرفٌ سخيف، يا فرانشيسكا.» ثم سألها: «ما الذي تأملين إنجازه؟ إن الكاميرا الذاتية في مقدمة الهليكوبتر سوف تلتقط القدر الكافي من الصور.»

ردت عليه: «إن هذه الكاميرا مصمَّمة للتكبير خاصة. إضافة إلى أن بعض التغيرات الطفيفة في الشكل تجعل الصور أكثر واقعية.» استدار ياماناكا للخلف باتجاه الضفة. كانت الكائنات الآلية الآن على بعد قرابة الثلاثين مترًا أمامهما مباشرة. اقترب السرطان القائد نحو متر من الحافة، توقف جزءًا من الثانية ثم استدار فجأةً يمينًا. واستدار بسرعة

مرةً أخرى تسعين درجة يمينًا، حيث أنهى مهمته وأصبح وضعه في الاتجاه المقابل تمامًا. تبعت السرطانات الخمسة الآلية الأخرى قائدها، مُتممةً أدوراها صفًّا تلو الآخر بدقة عسكرية متناهية.

قالت فرانشيسكا في سعادة وهي تسحب نفسها إلى داخل الطائرة: «لقد تمكنت منها هذه المرة. فالوجه كامل ويملأ الصورة. وأعتقد أنني قد تمكنت من التقاط حركة بسيطة في عيون القائد الزرقاء قبل أن يستدير مباشرة.»

كانت الكائنات الآلية تسير بتؤدة في تلك الأثناء بعيدًا عن الجرف بسرعتها المعتادة بمعدل عشرة كيلومترات في الساعة. وتترك أثناء تحركها آثارًا طفيفة لخطواتها في التربة الطينية. وتتحرك عبر درب مُوازٍ للمكان الذي قامت فيه بعملها الأخير باتجاه البحر. وكانت المنطقة بأسرها تبدو من أعلى مثل حدائق الضواحي التي تكون مشذَّبة الحشائش في جزء منها فحسب؛ فقد كانت الأرض في أحد الأركان منسقة ومنظمة، في حين أن المناطق التي لم تُغطِّها الكائنات الآلية بعد، كانت التربة تخلو من أي نظام.

قالت فرانشيسكا بطريقة فيها إغراء وهي تقترب من ديفيد براون وتلف ذراعها حول عنقه: «إنه لأمرٌ مضجر. ربما يمكننا أن نسلي أنفسنا بشيء آخر.»

تجاهل براون مداعبة فرانشيسكا الرقيقة لرقبته. وقال: «سوف نراقبهم مرة أخرى. يبدو أن نمط آليتهم غاية في البساطة.» وكان يبدو على براون أنه مستغرق في تفقد بعض الأمور في ذهنه. وأخيرًا تحدث في جهاز الاتصال قائلًا: «ما رأيك يا دكتور تاكاجيشي؟ أثَمَّة شيء آخر ينبغي أن نفعله في هذا الوقت؟»

بالرجوع إلى مركز المراقبة العلمي على متن نيوتن، كان دكتور تاكاجيشي يتابع تقدم الكائنات الآلية على الشاشة. فردَّ عليه قائلًا: «إذا اكتشفنا المزيد عن قدراتهم الحسية، فهذا سيفيدنا جدًّا، قبل محاولة صيد أحدهم. فحتى الآن لم يستجيبوا للضوضاء أو للمثيرات البصرية البعيدة. في حقيقة الأمر، يبدو بوضوح أنهم لم يشعروا حتى بجودنا. وأنا متأكد من أنك تتفق معي في أننا لم نحصل بعدُ على القدر الكافي من البيانات التي توصلنا لاستنتاجات قاطعة. فإذا استطعنا أن نعرضهم لمجال كامل من الترددات المغناطيسية الكهربائية وقسنا مدى استجابتهم، عندئذٍ قد يكون لدينا فكرة أفضل ...»

قاطعه دكتور براون قائلًا: «لكن هذا قد يستغرق أيامًا.» واستطرد: «وبالاستناد إلى التحليل الأخير، لا يزال بمقدورنا أن نقتنص الفرصة. ولا يمكنني أن أتخيل ما الجديد الذي يمكن أن نعلمه عن هذه الكائنات ويمكنه أن يغير خططنا بطريقة جذرية.»

قال تاكاجيشي: «إذا اكتشفنا المزيد عنهم أولًا، عندئذٍ سيمكننا أن نبتكر طرقًا أفضل وأكثر أمانًا لاصطيادهم. وقد نعلم أمرًا يثنينا عن فعل هذا بالمرة ...»

وجاءه رد ديفيد براون الفظ: «هذا أمر مستبعَد تمامًا.» وأخبره أنه على قدر اهتمامه بهذا الأمر فإن النقاش بخصوص هذه المسألة قد انتهى. ثم صاح: «مرحبًا، تابوري. كيف يسير العمل في الأكواخ؟»

أجابه الرجل المجري: «لقد انتهينا تقريبًا.» وأردف: «أمامنا ثلاثون دقيقة أخرى على الأكثر. وسنستعد للنوم.»

قاطعته فرانشيسكا قائلة: «الغداء أولًا. لا يمكنكم النوم ومعدتكم فارغة.»

قال تابوري بلهجة مازحة: «ما الذي طهيتِ لنا يا جميلة؟»

أجابت: «أوسو باكو، على طريقة راما.»

قال دكتور براون: «كفى.» وتوقف عن الحديث لثانيتين. ثم استرسل: «أوتول، أيمكنك أن تتولى كافة أمور نيوتن وحدك؟ هل يمكنك ذلك على الأقل على مدار الاثنتي عشرة ساعة المقبلة؟»

وجاء رده: «بالتأكيد.»

فقال له: «إذَن، أرسل باقي أفراد الطاقم. وعندما نتقابل جميعنا في المخيم الجديد سيكون جاهزًا للمبيت فيه. وسوف نتناول الغداء ونحظى بقيلولة. وعندئذٍ سوف نخطط لاصطياد الكائن الآلي.»

أسفل الهليكوبتر، كانت المخلوقات الستة الشبيهة بالسرطانات لا تزال تسير في خطواتها الثابتة عبر الأرض القاحلة. وكان الأربعة البشريون يراقبونهم وهم يعملون عند حافة بارزة حيث تغيرت الأرض من مكان مليء بالأتربة والحصى إلى شبكة أسلاك دقيقة. وما إن وطئت الكائنات الآلية الممر الضيق الذي يفصل الجزأين، حتى استدارات في الاتجاه المقابل. وعندئذٍ رجعوا صوب البحر على طول الخط الموازي المجاور لمسارهم السابق. أمال ياماناكا الطائرة على جانبها، وزود ارتفاعه، ثم اتجه إلى مخيم بيتا الذي يبعد عشرة كيلومترات عن البحر الأسطواني.

كانت نيكول تقول في نفسها: «إنهم جميعًا محقون. فرؤيتهم على الشاشة لا شيء، مقارنة برؤيتهم في الحقيقة.» كانت تهبط عبر التلفريك إلى راما. كانت نيكول لم تتجاوز منتصف الطريق بعد، وكان يحيط بها من كل الجهات مناظر خلابة. وقد تذكرت شعورًا مشابهًا مرَّت به عندما كانت تقف بهضبة تونتو في جراند كانيون ناشيونال بارك. قالت نيكول

في نفسها: «لكن تلك الهضبة من صنع الطبيعة، واستغرقت ما يزيد عن مليار سنة حتى تصل لشكلها الحالي. لكن راما قد بناها فعليًّا شخص ما. أو شيء ما.»

تباطأت سرعة التلفريك للحظة. ليركب شجيرو تاكاجيشي على بعد كيلومتر أسفل منها. لم تتمكن نيكول من رؤيته، بيد أنها سمعته يتحدث إلى ريتشارد ويكفيلد في جهاز الاتصال. وسمعت ريجي ويلسون يصرخ قائلًا: «أسرع.» وأردف: «فأنا لا أحبذ أن أكون معلقًا في الهواء هكذا.» لكن نيكول استمتعت بكونها معلقة هناك في التلفريك. فالمشهد الخلاب حولها كان ساكنًا، لكن إلى حين، وأصبح بوسعها أن تتأمل، كما تريد، أي منظر تراه مثيرًا للغاية.

وبعدما توقف التلفريك مرةً أخرى لإنزال ويلسون، وصلت نيكول أخيرًا قاع تلفريك محطة ألفا وحدها. لقد استمتعت بالمشاهدة وسُبِيَ لُبُّها؛ إذ ازدادت الرؤية وضوحًا فجأة على مدى ثلاثمائة المتر الأخيرة. فما كان يحيط بها من صور غير منظمة وغير واضحة قد تحول إلى طوافة وثلاثة أشخاص وبعض المعدات ومخيم محيط صغير. وبعد ثوانٍ قليلة أخرى استطاعت أن تميز أولئك الأشخاص. واسترجعت الماضي في لقطة سريعة كانت تركب فيها تلفريكًا آخر، لكن هذه المرة في سويسرا قبل شهرين مضيا. فقد خطر ببالها صورةٌ خاطفة للملك هنري. وقد حل محلها صورة لوجه ريتشارد الباسم أسفلها مباشرة. لقد كان يعطيها التعليمات لأفضل طريقة للنزول من المقعد.

قال لها: «إنه لا يقف وقوفًا تامًّا، لكنه سوف يقلل كثيرًا من سرعته. فُكِّي حزام الأمان ثم اقفزي على الأرض وأنت تمشين، كما لو كنت تنزلين من ممشًى متحرك.»

أمسك ريتشارد بها بإحكام من وسطها ورفعها عن الرصيف. وكان كلٌّ من تاكاجيشي وويلسون بالفعل على المقعد الخلفي للطوافة. قال ويكفيلد: «مرحبًا بكم في راما.»

ثم استرسل قائلًا في جهاز الاتصال: «حسنًا، تابوري. جميعنا هنا، ونحن مستعدون للذهاب. وقد شغلنا نظام الاستماع فقط.»

حثَّه جانوس: «أسرع. نحن نقاوم لكيلا نأكل غداءك ... بالمناسبة ريتشارد، أيمكنك إحضار صندوق المعدات «سي» معك؟ نحن نتحدث بشأن شباك وأقفاص، وقد أحتاج تشكيلة كبيرة من المعدات.»

رد عليه ويكفيلد: «عُلم.» ثم سار بتؤدة نحو المخيم ودخل الكوخ الكبير. ثم خرج منه حاملًا صندوقًا معدنيًّا طويلًا ومستطيل الشكل، وكان من الواضح أنه ثقيل جدًّا. فقال في جهاز الإرسال: «تبًّا لك تابوري. ماذا في هذا الصندوق؟»

سمعوا جميعًا صوت ضحكة في جهاز الاتصال. رد عليه تابوري: «لديك كل ما يحتمل أن تحتاجه كي تصطاد سرطانًا آليًّا، بل أكثر من ذلك.»

أطفأ ويكفيلد جهاز الإرسال وركب الطوافة. وبدأ يقودها بعيدًا عن السلم باتجاه البحر الأسطواني. قال ريجي ويلسون بتأفف: «إن فكرة اقتناص الكائن الآلي هي أغبى فكرة لعينة سمعتها على الإطلاق. سيتأذى أحدهم.»

ساد الهدوء الطوافة لما يقرب من دقيقة. وكان الرواد يرون بالكاد على مرمى البصر عن يمينهم مدينة لندن راما. سأل ويلسون سؤالًا لم يوجهه إلى أحد بعينه: «حسنًا، ما شعورك إذا كنت أحد أفراد الفريق الثاني؟»

بعد برهة من الصمت المربك التفت دكتور تاكاجيشي كي يخاطبه. وقال بلطف: «معذرة يا سيد ويلسون، أتخاطبني أنا؟»

رد ويلسون وهو يومئ برأسه إلى أعلى وأسفل: «بالطبع أقصدك أنت.» وبعد فترة توقف قصيرة استأنف ويلسون حديثه: «ألم يخبرك أحدٌ قط أنك العالم رقم «٢» في هذه البعثة؟ أعتقد لا. لكن هذا ليس بمفاجأة لي. فأنا لم أعلم قط وأنا على الأرض أنني الصحفي رقم ٢.»

قالت نيكول قبل أن يقاطعها ويلسون: «ريجي، لا أعتقد ...»

مال ويلسون للأمام في الطوافة وقال: «أما أنت يا دكتورة، فلعلك العضو الوحيد في الفريق الثالث. لقد سمعت مصادفةً قائدَينا الأجلَّاء هيلمان وبراون يتحدثان عنك. وهما يفضلان تركك على متن نيوتن على الدوام. لكن نظرًا لأننا قد نكون في حاجة لمهاراتك ...»

نهره ريتشارد ويكفيلد: «كفاك.» كانت هناك نبرة تهديد في صوته. وأردف: «كُف عن هذه الوقاحة.» مرَّت لحظات توتر عدة قبل أن يواصل ويكفيلد حديثه مرة أخرى. قال بنبرة تحمل قدرًا أكبر من الود: «بالمناسبة يا ويلسون، على ما أذكر، أنت عاشق للسباق. أتود أن تقود هذه العربة؟»

كان اقتراح ويكفيلد في محله. وبعد دقائق معدودة كان ريجي ويلسون يجلس على مقعد القيادة إلى جانب ويكفيلد يقهقهان بشدة؛ إذ كان يدور بالطوافة بسرعة عالية في دائرة ضيقة. وكان الرائدان نيكول وتاكاجيشي يرتجَّان في المقعد الخلفي.

وكانت نيكول تراقب ويلسون من كثب. وجال بخاطرها: «ها هو غريب الأطوار مرة أخرى. لقد حدث هذا على الأقل ثلاث مرات على مدار اليومين الأخيرين.» حاولت نيكول أن تتذكر آخر مرة أجرت فيها فحصًا شاملًا لويلسون. قالت نيكول لنفسها: «لم أجرِ له

فحصًا منذ اليوم التالي لموت بورزوف. لقد تفقدت الرواد مرتين في غضون الفترة الفاصلة ... تبًّا، لقد جعلني انشغالي بحادثة بورزوف مهملة.» وعزمت نيكول في نفسها على أن تفحص الجميع في أقرب فرصة حالما يصلون مخيم بيتا.

وما إن اعتدل ويلسون واتخذ طريقه أخيرًا إلى المخيم، حتى قال ريتشارد ويكفيلد: «بالمناسبة يا أستاذي العزيز، لديَّ سؤال.» استدار وأصبح في مواجهة العالم الياباني. وأردف: «هل توصلت إلى شيء بشأن «الأصوات الغريبة» التي سمعناها معًا ذاك اليوم؟ أم إن دكتور براون قد أقنعك بأنها مجرد خيالات من نسج خيالنا جميعًا؟»

هز دكتور تاكاجيشي رأسه. وقال: «لقد أخبرتك آنذاك أنه صوت جديد.» ثم أخذ يُحدق بعيدًا في الفضاء عبر الحقول الميكانيكية التي لا يُعرَف سبب وجودها في السهل المركزي. وقال: «هذه راما مختلفة. أنا متأكد من ذلك. إن مربعات رقعة الشطرنج في الجهة الجنوبية قد صُمِّمَت تبعًا لنمط جديد تمامًا ولم تعد ممتدة بطول شاطئ البحر الأسطواني. والأنوار تضيء الآن قبل ذوبان البحر. وتنطفئ فجأةً دون أن تخفت لعدة ساعات كما أورد مكتشفو مركبة راما ١، أما عن السرطانات الآلية فهي تظهر الآن في مجموعات وليس كأفراد.» صمت برهة وهو لا يزال يجول بعينيه في الحقول. ثم استرسل: «يقول دكتور براون إن كل هذه الاختلافات تافهة، لكني أراها مهمة.» ثم قال بنبرة هادئة: «من الممكن أن يكون دكتور براون مخطئًا.»

قال ويلسون بنبرة لاذعة: «ومن الممكن أيضًا أن يكون شخصًا سفيهًا بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.» ثم قاد الطوافة بأقصى سرعة لها. وقال: «مخيم بيتا، ها قد وصلنا.»

الفصل الثامن والعشرون

الاستقراء

انتهت نيكول من تناول غدائها الذي كان عبارة عن لحم بط وبروكلي وبطاطس مهروسة. أما باقي الرواد فكانوا لا يزالون يأكلون، وساد المائدةَ الطويلةَ هدوءٌ مؤقت. وفي الركن بالمدخل، كانت هناك شاشة ترصد موقع السرطانات الآلية. ولم يتغير نمطهم في الأداء بعد. وكانت الصورة الموجودة على شاشة الرادار التي تظهر السرطانات، تتحرك في اتجاه واحد لمدة تزيد قليلًا عن عشر دقائق ثم ترجع ذاتيًّا إلى موضع البداية مرة أخرى.

سأل ريتشارد ويكفيلد: «ماذا يفعلون بعدما ينتهون من هذه البقعة؟» نظر إلى خارطة إلكترونية للمنطقة ملصقة على لوحة إعلانات مؤقتة.

أجابته فرانشيسكا من الطرف الآخر للطاولة: «في المرة الأخيرة، سلكوا أحد هذه الممرات الموجودة بين أقسام رقعة الشطرنج حتى وصلوا إلى حفرة.» وأردفت: «ثم ألقوا نفايتهم فيها. ولم يلتقطوا أي شيء من هذه البقعة الجديدة، أما ماذا سيفعلون بعدما ينتهون من عملهم، فلا أحد يعلم.»

سأل ريتشارد: «أيوقن الجميع أن السرطانات الآلية هي في الحقيقة رجال تجميع النفاية؟»

قال ديفيد براون: «الدليل بيِّن للغاية. لقد كان يُعتقد أيضًا أن السرطان الآلي الذي كان يسير بمفرده وقابله جيمي بارك داخل مركبة راما الأولى مجمع نفاية.»

تدخَّل شجيرو تاكاجيشي في الحديث بعد صمت طويل: «نحن نداهن أنفسنا.» ثم انتهى من مضغ قضمته الأخيرة وابتلعها. وقال: «إن دكتور براون هو الذي قال بنفسه إنه من المستبعد أننا كبشر يمكننا أن نسبر غور راما. إن حديثنا هذا يذكرني بذلك المثل الهندوسي القديم حول الرجال العمي الذين تحسسوا الفيل. لقد وصفه كل واحد على حدة

بطريقة مختلفة عن الآخر؛ إذ لم يلمس كل واحد منهم سوى جزء صغير من الحيوان. ولم يكن أيٌّ منهم على حق.»

عندئذٍ تساءل جانوس تابوري: «ألا تعتقد أن السرطانات تعمل في قسم الصرف الصحي في راما؟»

رد عليه تاكاجيشي: «لم أقل ذلك. أنا أرى فقط أنها عجرفة من جانبنا أن نستنتج بهذه السرعة أن المخلوقات الستة ليس لديها أي أغراض أخرى سوى التخلص من النفاية. إن بياناتنا المتعلقة بالمراقبة، للأسف، غير كافية.»

رد عليه دكتور براون بحدة: «أحيانًا يكون من الضروري أن نستقرئ بل أن نتكهن بالاستناد إلى أدنى قدر من البيانات. أنت تعرف بنفسك أن العلم الحديث يقوم على أكبر قدر من الاحتمالية وليس اليقينية.»

قاطعهم جانوس بابتسامة قائلًا: «قبل أن نخوض في نقاش خاص بالعلم ومناهج بحثه، لديَّ اقتراح رياضي لكما.» ثم وقف في مكانه. وقال: «في الواقع هي فكرة ريتشارد في الأصل، وأنا صغتها في صورة لعبة. وهذه اللعبة تتعلق بالأضواء.»

احتسى جانوس رشفة سريعة من الماء من كوبه. وقال بنبرة رسمية: «بما أننا وصلنا هنا أولًا إلى أرض راما، كان هناك ثلاث مراحل انتقالية في حالة الإضاءة.»

أطلق ويكفيلد صيحة استهجان: «سحقًا. سحقًا»؛ فضحك جانوس.

استرسل المجري الضئيل الحجم بطريقته الارتجالية قائلًا: «حسنًا، يا رجال، ما الخَطب مع الأضواء؟ لقد أضاءت فجأة، ثم انطفأت، ثم أضاءت الآن ثانية. ماذا سيحدث في المستقبل؟ أقترح أن نُجري رهانًا وكل فرد يدفع مثلًا عشرين مارك. وكلٌّ منا سيتنبأ بسلوك الأضواء خلال الوقت المتبقي من البعثة، وسيفوز صاحب أقرب توقع بالمبلغ المراهن به.»

تساءل ريجي ويلسون بنبرة ناعسة: «ومن الذي سيحدد الفائز؟» لقد تثاءب مرات عديدة في غضون الساعة السابقة من شدة النعاس. وأردف: «مع أن هناك زمرة منتقاة من العقول المتميزة ملتفة حول هذه الطاولة، فإنني لا يخال لي أن أحدًا استطاع أن يميز راما بعد. اعتقادي الشخصي أن الأضواء لن تتبع أي نمط بعينه. سوف تظل تضيء وتنطفئ في أوقات عشوائية حتى نظل نُخمن طوال الوقت.»

أجابه جانوس: «دَوِّن هذا وأرسله عبر المودم إلى الجنرال أوتول. لقد اتفقنا أنا وريتشارد على أنه سوف يقدم حكمًا سديدًا. وبانتهاء البعثة سوف يقارن التكهنات بالواقع وسوف يفوز أحدنا بعشاء شهي لفردَين.»

دفع دكتور براون بكرسيه للخلف بعيدًا عن الطاولة. ثم سأل: «هل انتهيت من لعبتك يا تابوري؟» ثم أضاف دون أن ينتظر رده: «إن كان كذلك، فربما يمكننا أن نتخلص من فوضى الغداء هذه، ونواصل خطة العمل المدرَجة بجدولنا.»

قال جانوس: «أهلًا، أيها القائد. أنا أحاول أن أخفف من حدة التوتر فحسب. الجميع مشدودون ...»

خرج براون من الكوخ قبل أن يكمل الرائد تابوري جملته.

سأل ريتشارد فرانشيسكا: «ما الذي يزعجه؟»

أجابته فرانشيسكا: «أظن أنه قلق إزاء موضوع الاقتناص. لقد كان متعكر المزاج منذ الصباح. لعله يشعر بثقل المسئولية الواقعة على عاتقه.»

قال ويلسون: «أو لعله مجرد شخص حقير.» ثم نهض من مكانه. وقال: «سأذهب لأغفو قليلًا.»

وبينما كان ويلسون يهم بمغادرة الكوخ الكبير، تذكرت نيكول أنها تريد إجراء فحص الإحصاء البيولوجي للجميع قبل القيام بعملية الصيد والاقتناص. لقد كانت مهمة غاية في السهولة واليسر. فكل ما عليها فعله هو تشغيل شاشتها والوقوف بالقرب من كل رائد لما يقرب من خمس وأربعين ثانية ثم قراءة البيانات المهمة على الشاشة. وإن لم يكن هناك مدخلات في ملفات التحذير، تسير العملية بأكملها بطريقة سلسة. وفي هذا الفحص الخاص، كان الجميع يخلون من أي اضطرابات بما فيهم تاكاجيشي. قالت نيكول لزميلها الياباني بهدوء شديد: «الأمور تسير على ما يرام.»

خرجت نيكول بحثًا عن ديفيد براون وريجي ويلسون. كان كوخ دكتور براون في أقصى المخيم. كان كوخه، مثل باقي السكنات الفردية، يشبه قبعة رفيعة وطويلة منكسة على الأرض. وكانت كل الأكواخ تتلون باللون الأبيض الضارب للصفرة، ويبلغ طولها نحو مترين ونصف، وقاعدة مستديرة يبلغ قطرها أقل من المترين. وقد صنعت بحيث تكون خفيفة الوزن جدًّا، من مواد مرنة تتمتع بخاصيتَي الطي والتخزين السهلين وقوة تحمُّل عالية. لاحظت نيكول أن هذه الأكواخ تشبه الخيام المخروطية المصنوعة من جلود الحيوانات التي كان يسكن فيها سكان أمريكا الأصليون من الهنود.

كان ديفيد براون في كوخه يجلس القرفصاء على الأرض أمام شاشة كمبيوتر محمول. وكان على الشاشة نص من الفصل الذي يدور حول الكائنات الآلية من «أطلس راما» الذي أعده تاكاجيشي. قالت نيكول وهي تُطل برأسها من الباب: «معذرة يا دكتور براون.»

أجاب دون أي محاولة لإخفاء انزعاجه بسبب مقاطعتها له: «نعم، ما الأمر؟»

قالت نيكول: «عليَّ أن أتفقَّد بيانات إحصائك البيولوجي. فأنت لم تخضع للفحص منذ قُبيل الرحلة الأولى.»

رمقها براون بنظرة ساخطة. لم تتراجع نيكول عن موقفها. رفع الرجل الأمريكي كتفيه بلا مبالاة، متبرمًا، ثم التفت نحو الشاشة. جثت نيكول بجانبه ثم أدارت جهاز الفحص.

واقترحت عليه نيكول حين رأته يتململ في وقفته على نحو غير مريح: «ثَمة بعض الكراسي التي تُطوى بأعلى في كوخ المؤن.» بيد أنه تجاهل اقتراحها. ووجدت نيكول نفسها تتساءل: «لماذا يتعامل معي بهذه الطريقة الوقحة؟ هل بسبب التقرير الذي أعددته حوله وحول ويلسون؟» أجابت نيكول على نفسها: «لا، ولكن لأنني لم أذعن له كما يشاء.»

بدأت البيانات تظهر على شاشة نيكول. وأخذت نيكول تضغط بحذر على عدة مفاتيح للمدخلات مما سمح بظهور ملخص للبيانات التحذيرية. ثم قالت بنبرة تخلو من أي عاطفة: «لقد كان ضغط دمك مرتفعًا جدًّا على فترات متقطعة على مدار الاثنتَين والسبعين ساعةً الأخيرة، بما في ذلك اليوم بأكمله تقريبًا. وهذا النمط بالأخص يصاحبه إجهاد.»

توقف دكتور براون عن القراءة عن الكائنات الآلية والتفت ليواجه الطبيبة المسئولة. نظر إلى البيانات الظاهرة على الشاشة دون أن يعي أيًّا منها. قالت نيكول وهي تشير إلى الشاشة: «يبين هذا الرسم البياني مدى ما مررت به من اضطرابات وفتراته. ولا يمثل أحدها على حدة خطورة في حد ذاته. لكن النمط الإجمالي هو ما يثير القلق.»

همهم قائلًا: «لقد كنت تحت ضغط.» وكان ديفيد براون يلاحظ نيكول وهي تستدعي بيانات أخرى تدعم إفاداتها الأصلية. وكان العديد من ملفات التحذير الخاصة ببراون ممتلئة عن آخرها.

استمرت الأضواء تومض على الشاشة. فسألها: «ما هو أسوأ سيناريو متوقع؟»

حدقت نيكول في مريضها. وقالت: «يمكن أن تصاب بسكتة دماغية تُفضي إلى الشلل أو الموت. هذا إذا استمر هذا الوضع أو ساء.»

سألها: «ماذا ينبغي أن أفعل؟»

أجابته نيكول: «قبل كل شيء، عليك أن تبدأ بالحصول على قسط أكبر من النوم. تبين حالة الأيض الخاصة بك أن إجمالي عدد ساعات النوم التي حصلت عليها منذ موت

الجنرال بورزوف هي إحدى عشرة ساعة فحسب من الراحة المتواصلة. لمَ لم تخبرني بأنك تعاني اضطرابات في النوم؟»

«لقد اعتقدت أنه مجرد انفعال. حتى إنني تجرَّعت حبة منوِّمة في إحدى الليالي ولم يكن لها أدنى تأثير.»

تجهَّم وجه نيكول. ثم قالت: «لا أتذكر أني أعطيتك أي حبات منوِّمة.»

ابتسم دكتور براون. وقال: «تبًّا، لقد نسيت أن أبلغك. لقد كنت أتحدَّث إلى فرانشيسكا ساباتيني بخصوص معاناتي من الأرق في إحدى الليالي، فقدمت إليَّ حبة. وأخذتها دون تفكير.»

سألت نيكول: «متى كان هذا؟» غيَّرت نيكول العرض الظاهر على شاشتها مرة أخرى واستدعت مزيدًا من البيانات من وحدة التخزين المؤقتة.

قال دكتور براون بعد تردد: «لست متأكدًا. أعتقد أنه ...»

قالت نيكول: «ها هي. يمكنني أن أرى هذا في التحليل الكيميائي. كان هذا في الثالث من مارس، الليلة التالية لموت بورزوف. يوم اختيارك أنت وهيلمان قائدين مشاركين. ويمكنني أن أستشف من هذا الانحراف المفاجئ في بيانات المطياف أنك قد تناولت حبة واحدة من عقار مدفيل.»

«هل استدللت على «ذلك» من بيانات إحصائي البيولوجي؟»

قالت نيكول مبتسمة: «ليس تمامًا. فالتفسير وحده غير كافٍ. إن الأمر مثلما ذكرت أنت في وقت الغداء، أحيانًا ما يتطلب الأمر أن نستقرئ ... ونتكهَّن.»

تلاقت أعينهما للحظة. تساءلت نيكول في نفسها في حين كانت تحاول أن تفسر نظرة عينيه: «أيمكن أن يكون هذا خوفًا؟» أشاح دكتور براون بنظره بعيدًا. ثم قال بطريقة قاسية: «أشكرك يا دكتورة نيكول على تقريرك حول ضغط دمي. سأحاول أن أسترخي وأنال قسطًا وافيًا من النوم. وأعتذر من عدم إخبارك بشأن الحبة المنومة.» ثم أشار لها أن تنصرف بيديه.

بدا أن نيكول سوف تُعرِب عن أنها لم تنتهِ من حديثها بعد لكنها منعت نفسها. قالت نيكول لنفسها وهي تسير باتجاه كوخ ويلسون: «لن يأخذ بنصيحتي على أي حال. كما أن ضغط دمه ليس في حالة حرجة بلا أدنى شك.» وأخذت تفكر بشأن الدقيقتين الأخيرتين من حديثهما اللذين شابهما التوتر بعدما أذهلته بتحديدها الصائب لنوع الحبة المنومة. وقالت في نفسها: «ثَمة شيء مغلوط هنا. ما الذي فاتني؟»

وكانت تسمع غطيط ريجي ويلسون قبل وصولها لباب كوخه. وبعد مناقشة قصيرة مع نفسها، قررت نيكول أن تفحصه بعد استيقاظه. اتجهت نيكول إلى كوخها، وغفت سريعًا. وبينما هي نائمة اخترق صوت وأيقظها من أحلامها. قال الصوت: «نيكول. نيكول دي جاردان. أنا فرانشيسكا. أود التحدث إليكِ.» وأيقظها.

استيقظت نيكول بتؤدة على فراشها. كانت فرانشيسكا قد دخلت الكوخ بالفعل. وعلا وجْهَ المرأة الإيطالية أرقُّ ابتسامة لها، تلك الابتسامة التي كانت تعرف نيكول جيدًا أنها تختلقها عند التصوير.

قالت فرانشيسكا عندما دنت من الفراش: «كنت أتحدث مع ديفيد من دقائق قلائل وأخبرني بشأن الحديث الذي دار بينكما بعد الغداء.» وبينما كانت نيكول تتثاءب وتتدلى قدمها نحو الأرض، واصلت فرانشيسكا حديثها. قالت: «بالطبع، كان يساورني قلقٌ شديد بشأن ضغط دمه — لا تقلقي، لقد اتفقنا أنا وهو بالفعل على ألا أنشر هذا — لكن ما أزعجني حقًّا هو ما ذكرني ديفيد به، ألا وهو أننا لم نخبرك البتة بشأن الحبة المنومة. أشعر بالحرج الشديد. كان يجدر بنا أن نخبرك في الحال.»

كانت فرانشيسكا تتحدث إلى نيكول بسرعة كبيرة. كانت نيكول من لحظات قليلة مستغرقة في سبات عميق تحلم ببوفوا، والآن، دون أي مقدمات، وجدت نفسها تُنصت إلى اعتراف عقيم من الرائدة الإيطالية.

سألتها نيكول بحدة: «أيمكنك أن تنتظري دقيقة حتى أفيق؟» ثم مالت ناحية فرانشيسكا ناحية الرف الذي يُستعمل كطاولة لتتناول كوبًا من الماء. وتجرعته بتؤدة.

قالت نيكول: «هل لي أن أفهم الآن؟ أتوقظينني من نومي كي تخبريني بأنك قد أعطيت دكتور براون حبة منومة، وهو شيء أعلمه بالفعل؟»

ابتسمت فرانشيسكا وقالت: «بلى. أقصد أن هذا جزء مما جئت لأخبرك به. لكن أدركت أنني قد نسيت أن أخبرك بشأن ريجي أيضًا.»

هزَّت نيكول رأسها. وقالت: «أنا لا أتابع حديثك، يا فرانشيسكا. أتتحدثين عن ريجي ويلسون الآن؟»

ترددت فرانشيسكا لحظة. ثم قالت: «بلى. ألم تفحصيه بجهاز الفحص بعد الغداء مباشرة؟»

هزَّت نيكول رأسها نافيةً مرةً أخرى. وأجابتها: «لا، لقد كان نائمًا بالفعل.» ثم نظرت في ساعتها. وأردفت: «لقد كنت أنوي أن أفحصه قبل بدء الاجتماع. ربما بعد ساعة من الآن.»

ارتبكت فرانشيسكا. ثم قالت: «حسنًا، عندما أخبرني ديفيد أن حبة المدفيل قد ظهرت في بيانات إحصائه البيولوجي، ظننت أن …» توقفت فرانشيسكا عن الكلام في منتصف الجملة. وبدا وكأنها تجمع أفكارها. انتظرت نيكول بصبر.

وأخيرًا أردفت فرانشيسكا قائلة: «بدأ ريجي يشكو من ألم في رأسه من فترة تزيد عن الأسبوع بعدما انضمَّت مركبتا نيوتن للالتقاء براما. ونظرًا لأننا صديقان حميمان، وهو لديه علم بمعرفتي بالأدوية — فأنت تعرفين أنني أستقي هذه المعلومات من عملي في البرامج الوثائقية — فقد طلب مني إن كان بإمكاني أن أعطي له شيئًا للصداع. لقد رفضت في البداية، لكن في آخر الأمر، بعد إلحاح مستمر، أعطيته عقار نيوبيترول.»

تجهمت نيكول. وقالت: «إن هذا عقار قوي للغاية بالنسبة لصداع بسيط. لا يزال هناك بعض الأطباء الذين يرون أنه لا ينبغي وصفه إلا عند الضرورة القصوى …»

أجابت فرانشيسكا: «لقد أخبرته كل هذا. لكنه صعب المراس جدًّا. أنت لا تعرفين ريجي. أحيانًا لا يمكنك إقناعه مطلقًا.»

سألتها نيكول: «ما الكمية التي أعطيتها له؟»

أجابتها فرانشيسكا: «ثماني حبات؛ أي نحو مائتَي مليجرام في المجمل.»

مالت نيكول والتقطت كمبيوتر الجيب الخاص بها الموضوع في طرف الطاولة. وقالت: «لا عجب إذن أنه كان يتصرف بمثل هذه الطريقة الغريبة.» ودخلت نيكول على قاعدة البيانات الطبية الخاصة بها، وقرأت البيانات المختصرة المدرَجة عن النيوبيترول. وعلقت: «لا يوجد الكثير بشأنه هنا. سوف أطلب من أوتول أن ينقل إليَّ البيان الكامل عنه من الموسوعة الطبية. لكن على ما أذكر، ألم يكن هناك جدال بشأن بقاء النيوبيترول في النظام لأسابيع؟»

ردت فرانشيسكا: «لا أذكر.» ثم نظرت إلى الشاشة في يد نيكول وقرأت النص المكتوب سريعًا. كانت نيكول منزعجة. وشرعت في أن تعنف فرانشيسكا لكنها عدلت عن ذلك في اللحظة الأخيرة. وقالت في نفسها: «إذَن أنت أعطيت عقاقير لكلٍّ من ديفيد وريجي.» ثم جال بخاطر نيكول ذكريات صور مبهَمة لفرانشيسكا وهي تقدم لفاليري بورزوف كأس خمر قبل موته بعدة ساعات. عندئذٍ سرَت قشعريرة غريبة في بدن نيكول. أيمكن أن يكون حدسها صائبًا؟

استدارت نيكول ورمقت فرانشيسكا بنظرة فاترة. ثم قالت: «الآن أنت تعترفين بأنك لعبت دور الطبيب والصيدلي لكلٍّ من ديفيد وريجي، هل هناك شيء آخر تودين إخباري إياه؟»

سألتها فرانشيسكا: «ماذا تقصدين؟»

ردت نيكول: «هل أعطيتِ أدوية لأي أحد آخر من أفراد الطاقم؟»

شعرت نيكول بتسارع نبضات قلبها إذ شحب وجه فرانشيسكا شحوبًا طفيفًا وترددت قبل الرد.

ثم جاء ردها: «لا. لا، بالطبع لا.»

الفصل التاسع والعشرون

الاقتناص

أنزلت الهليكوبتر الطوافة ببطء شديد إلى الأرض. سأل جانوس تابوري عبر جهاز الاتصال: «كم مقدار البعد؟»

أجابه ريتشارد ويكفيلد من أسفل: «نحو عشرة أمتار.» وقد كان يقف في بقعة تبعد نحو مائة متر جنوب حافة البحر الأسطواني. وكان فوقه الطوافة مدلاة في طرفَي سلكين طويلين. ثم قال له: «انتبه حتى تنزلها برفق، ثَمة بعض الإلكترونيات الحساسة في هيكلها.»

وكان هيرو ياماناكا يقود الهليكوبتر عند أقل ارتفاع يسمح به نظام التحكم، بينما كان جانوس يمد الأسلاك إلكترونيًّا عدة سنتيمترات قليلة في كل مرة. صاح ويكفيلد: «ثمة احتكاك في العجلات الخلفية. أنزل العجلات الأمامية لمسافة متر آخر.»

انطلقت فرانشيسكا ساباتيني بأقصى سرعتها إلى جانب الطوافة لتسجيل اللحظة التاريخية للمس الطوافة أرض النصف الجنوبي من أسطوانة راما. وعلى بعد خمسين مترًا من الحافة، في الجزء المُتاخم للكوخ الذي كان يُستخدم كمركز مؤقت للقيادة، كان باقي الرواد يجهزون لبدء عملية الاقتناص. كانت إيرينا تورجينيف تتفقد تثبيت السلك الذي سيُستخدم كشرَكٍ في الهليكوبتر الثانية. وعلى بعد أمتار قلائل من الكوخ، كان ديفيد براون يتحدث بمفرده عبر جهاز اللاسلكي إلى الفريق البحري هيلمان الذي كان آنذاك في مخيم بيتا. وكان الرجلان يستعرضان معًا تفاصيل خطة الاقتناص. أما ويلسون وتاكاجيشي ونيكول فقد كانوا يتابعون ما وصلت إليه عملية إنزال الطوافة.

وكان ريجي ويلسون يقول لرفيقيه: «الآن قد عرفنا من هو الزعيم الفعلي لهذه الكتيبة.» قال هذا وهو يشير إلى دكتور براون. ثم استطرد قائلًا: «إن هذا الاقتناص الملعون أشبه بعملية عسكرية أكثر من أي شيء آخر فعلناه، حتى عالمنا الكبير يضطلع

ببعض المهام والضابط العظيم يدير أجهزة الاتصال.» بصق ويلسون على الأرض. ثم قال: «يا إلهي، ألدينا ما يكفي من معدات هنا؟ طائرتا هليكوبتر، وطوافة، وثلاثة أنواع مختلفة من الأقفاص، ناهيك عن الصناديق الكبيرة والكثيرة المملوءة بالمعدات الكهربائية والميكانيكية. إن السرطانات الشقية تلك لن تجد لها مفرًّا.»

وضع دكتور تاكاجيشي منظار الليزر على عينيه. وسرعان ما وجد ضالته. فعلى بعد نصف كيلومتر نحو المشرق، كانت تقف السرطانات الآلية مرة أخرى بالقرب من حافة الجرف. ولم يتغير أي شيء في حركتها. قال تاكاجيشي بهدوء: «نحتاج كل المعدات، فنحن غير متيقنين تمامًا من شيء بعينه. لا أحد يعرف بحق ما قد يحدث.»

ضحك ويلسون وقال: «ليت الأنوار تنطفئ.»

تدخَّل ديفيد براون في الحديث بفظاظة وهو متجه لينضم إلى ثلاثتهم: «نحن متأهبون لذلك الأمر.» وأردف: «إن الأصداف التي تغطي السرطانات مصبوغة بمادة فلورية خفيفة، ونحن لدينا وفرة من الشعل. وبينما كنتم تتأففون من طول اجتماعنا الأخير، كنا ننتهي نحن من خطط الطوارئ.» ثم حدق في ابن وطنه بفظاظة. قال: «أتعلم يا ويلسون، يمكنك أن تحاول ...»

عندئذٍ قاطعه صوت أوتو هيلمان. كان يقول: «انتبهوا لي جيدًا. لديَّ أخبار. أخبار مهمة. لقد تسلمت لتوي إفادة من أوتول تفيد بأن قناة آي إن إن سوف تبث عملية الاقتناص «على الهواء مباشرة»، بعد عشرين دقيقة من الآن.»

رد عليه براون: «حسنًا. ينبغي أن نستعد حتى ذلك الحين. أرى ويكفيلد يتجه بالطوافة في هذا الاتجاه.» ثم نظر في ساعته. وقال: «وينبغي أن تكون السرطانات عائدة مرة أخرى في غضون ثوانٍ قلائل. بالمناسبة يا أوتو، هل لا تزال تعارض فكرتي باصطياد السرطان القائد؟»

أجابه: «بلى يا ديفيد، أعارضك. أرى أنها مخاطرة نحن في غنًى عنها. فالقليل الذي نعرفه يرجح أن السرطان القائد يتمتع بمعظم القدرات. لمَ المخاطرة؟ أي كائن آلي سيكون كنزًا عظيمًا لنرجع به إلى الأرض، ولا سيما إذا كان لا يزال يؤدي وظائفه. يمكننا أن نهتم بشأن القائد بعدما نضمن الحصول على أحدهم بالفعل.»

أجابه: «إذن، أظن أنني خسرت التصويت هذه المرة. فدكتور تاكاجيشي وتابوري يتفقان معك. والجنرال أوتول أيضًا. سننتقل إلى الخطة البديلة. سيكون السرطان المستهدف هو السرطان رقم أربعة، السرطان الخلفي ناحية اليمين عند اقترابنا من الخلف.»

وصلت الطوافة التي تحمل ويكفيلد وفرانشيسكا إلى منطقة الكوخ في نفس الوقت تقريبًا الذي وصلت فيه الهليكوبتر. قال دكتور براون لتابوري وياماناكا وهما يهبطان من الطائرة: «أحسنتما يا رجال.» ثم أردف: «استرِح قليلًا يا جانوس. ثم اذهب وتحقق ما إذا كانت تورجينيف والسلك الذي سيُستخدم شَرَكًا جاهزين. أريدك في الهواء في غضون خمس دقائق.»

التفت براون للآخرين وقال: «حسنًا، وإليكم ما سيحدث. ويلسون وتاكاجيشي ونيكول يذهبون في الطوافة مع ويكفيلد. وأنتِ يا فرانشيسكا تأتين معي في الهليكوبتر الثانية مع هيرو.»

تقدمت نيكول نحو الطوافة، لكن فرانشيسكا اعترضت طريقها. قالت: «هل سبق لك أن استخدمتِ واحدة من هذه؟» قالت الصحفية الإيطالية هذا وهي تشير إلى كاميرا فيديو في يدها بحجم الكتاب الصغير.

أجابتها نيكول وهي تتأمل في الكاميرا بيد فرانشيسكا: «أجل، مرة واحدة قبل إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة مضت. كنت أسجل إحدى العمليات الجراحية في المخ التي كان يجريها دكتور ديلون. أعتقد ...»

قاطعتها فرانشيسكا قائلةً: «اسمعي، قد أحتاج إلى بعض المساعدة. آسفة إنني لم أعرض الأمر عليك من قبل، لكنني لم أكن أعرف ... على أي حال، أحتاج لكاميرا أخرى على الأرض، وخاصةً أننا سنكون على الهواء مباشرةً الآن على قناة آي إن إن. لا أطلب منك تحقيق معجزات. أنت الشخص الوحيد الذي ...»

أجابتها نيكول: «ماذا عن ريجي؟ فهو صحفي أيضًا.»

ردت فرانشيسكا في عجالة: «إن ريجي لا يُجدي نفعًا.» عندئذٍ نادى عليها دكتور براون لكي تأتي إلى الهليكوبتر. فقالت: «هل تفعلين هذا يا نيكول؟ من فضلك؟ أم أطلب هذا من أي شخص آخر؟»

وجال بخاطر نيكول سريعًا: «لمَ لا؟ ليس لديَّ عمل آخر لأقوم به إلا في الحالات الحرجة.» فأجابتها: «بالطبع.»

صرخت فرانشيسكا وهي تعطي لنيكول الكاميرا وتركض نحو الهليكوبتر: «شكرًا جزيلًا.»

قال ريجي ويلسون عندما اقتربت نيكول من الطوافة وبيدها الكاميرا: «حسنًا، حسنًا جدًّا.» وأردف: «أرى أن الصحفية رقم ١ قد جندت طبيبة الطاقم. أرجو أن تكوني قد طلبت أي أجر.»

ردت عليه نيكول: «اهدأ يا ريجي. ليس لديَّ مشكلة في أن أساعد الآخرين عندما لا يكون لديَّ مهام معينة أقوم بها.»

أدار ويكفيلد الطوافة ثم اتجه شرقًا حيث السرطانات الآلية. وقد أُنشئ مركز القيادة عمدًا في المنطقة التي «نظفتها» السرطانات بالفعل. وقد جعلت اليابسة الممهدة الطوافة تسير بسهولة ويسر. وأصبحوا على بعد مائة متر من السرطانات في فترة لا تتجاوز ثلاث دقائق. وكانت طائرتا الهليكوبتر تعلو فوق رءوس السرطانات، مطوقتين إياها.

سألت نيكول فرانشيسكا عبر جهاز الإرسال الموجود في الطوافة: «ما الذي تريدينني أن أفعله بالضبط؟»

أجابتها فرانشيسكا: «حاولي أن تتحركي بمحاذاة السرطانات. ربما يمكنك الركض بجانبها على الأقل لفترة من الوقت. وأكثر اللحظات حسمًا هي تلك اللحظة التي يحاول عندها جانوس تقريب الشرَك.»

قال تابوري بعد ثوانٍ قليلة: «كلنا مستعدون هنا، أعطِ الأمر فحسب.»

سأل براون فرانشيسكا: «هل نحن على الهواء الآن؟» أومأت برأسها بالإيجاب. فقال لجانوس: «حسنًا، انطلق.»

وكان يتدلى من إحدى طائرتَي الهليكوبتر سلكٌ سميك في طرفه ما يشبه السلة المقلوبة. وأخذ ويكفيلد يشرح لنيكول ما سيحدث: «سيحاول جانوس أن يركز الشرك على السرطان الهدف، وسيجعل الجوانب تمسك مباشرة بجوانب الصدفة. عندئذٍ سيكثف الضغط ويسحب الكائن الآلي عن الأرض. ثم سنضع السرطان في قفص لدى عودتنا إلى مخيم بيتا.»

سمعت نيكول فرانشيسكا تقول: «لنرَ ما شكلها من عندك من أسفل.» وكانت الطوافة في تلك الأثناء بجانب الكائنات الآلية مباشرة. ترجَّلت نيكول من الطوافة وسارت بتؤدة إلى جانبها. لقد كانت مرعوبة في البداية. فهي لم تتوقع أن تكون بهذا الحجم أو بهذا المظهر الغريب. لقد ذكرها لمعانها المعدني بالواجهة الكئيبة لكثير من المباني الجديدة في باريس. وبينما كانت تسير على الأرض، كانت السرطانات لا تبعد عنها سوى مترين. ولم يتعسر عليها التقاط الصور المناسبة بسبب خاصيتَي التقريب والتأطير الآليَّتين الموجودتين في الكاميرا.

حذَّرها دكتور تاكاجيشي: «لا تظهري أمامهم.» ولم يكن بحاجة إلى أن يقلق. فنيكول لم تنسَ ما فعلوه بتلك الكومة المعدنية.

دوى صوت فرانشيسكا في جهاز استقبال الطوافة وهي تقول: «إن صورك رائعة بحق.» وأردفت: «لكن حاولي يا نيكون أن تسرعي باتجاه السرطان القائد ثم تراجعي للوراء قليلًا قليلًا؛ كي تفسحي مجالًا للكاميرا لتتحرك من جانب إلى جانب لتلتقط كل الرُّتَب.» انتظرت فرانشيسكا حتى تحركت نيكول أمام السرطانات ثم استرسلت قائلة: «واو! إن هذا لرائع. الآن أعرف لمَ أحضرنا معنا بطلة أوليمبية.»

أخفق جانوس في استخدام الشرَك في المحاولتين الأوليين. لكنه أصاب بشدة عندما أنزله في المحاولة الثالثة على السرطان الخلفي رقم أربعة. وانتشرت حواف الشبكة أو السلة على أغلب أنحاء الصدفة. بدأت نيكول تتصبب عرقًا. لقد كانت تجري أربع دقائق بالفعل. قالت لها فرانشيسكا من الهليكوبتر: «من الآن فصاعدًا، ركزي على السرطان الهدف فقط. اقتربي منه قدر ما تجرئين.»

اقتربت نيكول من أقرب سرطان لها مسافة متر. كادت قدماها أن تنزلق فسرَت في بدنها قُشعريرة. وقالت نيكول في نفسها: «لو كنت قد سقطت في طريقها، لكانت قد قطعتني إربًا إربًا.» وثبتت نيكول الكاميرا على السرطان الخلفي الأيمن حيث كان جانوس يضيق الخناق عليه باستخدام الأسلاك.

صرخ جانوس: «الآن!» وعندئذٍ أخذ الشرك المحتجز فيه السرطان في الارتفاع عن الأرض. حدث كل شيء بعد ذلك على جناح السرعة. فقد استخدم السرطان الهدف مخالبه الأشبه بالمقص ليقطع أحد الخيوط المعدنية في الشرك. أما السرطانات الخمسة الأخرى فقد توقفت تمامًا عن الحركة لفترة وجيزة، ربما لمدة ثانية كاملة، ثم هجمت جميعًا فورًا على الشرك بمخالبها. وفي غضون خمس ثوانٍ كانت الشبكة المعدنية ممزقة وأصبح السرطان حرًّا.

شُدِهَت نيكول مما رأت. ومع أن نبضات قلبها زادت بطريقة عنيفة، فقد واصلت التصوير. جلس السرطان القائد على الأرض وحاقت به السرطانات الخمسة في دائرة ضيقة جدًّا. ووضع كل سرطان أحد مخالبه على السرطان القائد في المنتصف والآخر على السرطان عن يمينه. ثم انفضَّ هذا التشكيل في مدة لا تتجاوز خمس ثوانٍ. تشابكت السرطانات ووقفت في مكانها بلا حراك.

كانت فرانشيسكا هي أول من اخترق جدار الصمت. فصرخت في عجب: «قطعًا أمر لا يصدقه عقل. لقد بثثنا لتونا الرعب في نفوس كل البشر على الأرض.»

شعرت نيكول بريتشارد ويكفيلد إلى جانبها. سألها: «هل أنتِ بخير؟»

أجابته: «أعتقد ذلك.» كانت لا تزال ترتجف. ثم حدق كلاهما في السرطانات الآلية. كانت ساكنة تمامًا.

قال ريجي ويلسون من الطوافة: «إنهم يتداولون فيما بينهم. والنتيجة الآن ٧ للسرطانات وصفر للبشر.»

قال أوتو: «بما أنك مقتنع تمام الاقتناع أنه ليست هناك أي مخاطر، فسوف أوافق على المضي قُدمًا. لكن عليَّ أن أقر بأنني شخصيًّا لا أشعر بالارتياح بشأن القيام بمحاولة أخرى. لقد اتضح تمام الوضوح أن هذه المخلوقات يتواصل بعضها مع بعض. ولا أعتقد أنها ترغب في أن يقتنصها أحد.»

أجابه دكتور براون: «أوتو، أوتو. إن هذه الطريقة مجرد تعديل لما حاولنا القيام به في المرة الأولى. سيلتصق خطاف السلك بصدفة السرطان ثم يلف أسلاكه الرفيعة بإحكام حول الدرع القرني بأكمله. أما عن بقية السرطانات فلن تتمكن من استخدام مخالبها. إذ لن يكون هناك أي متسع بين السلك والصدفة.»

قال دكتور تاكاجيشي عبر جهاز اللاسلكي للفريق البحري هيلمان، وكانت هناك نبرة قلقة واضحة في صوته: «الفريق البحري هيلمان، معك دكتور تاكاجيشي. ينبغي أن أبلغ بصفةٍ رسميةٍ اعتراضي الشديد والقاطع على المضي قدمًا في عملية الاقتناص. لقد رأينا بالفعل كم كانت معرفتنا عن هذه المخلوقات محدودة للغاية. وكما ذكر ويكفيلد فإن محاولتنا للإيقاع بأحدها قد أثار فيها بوضوحٍ الغريزة الأساسية للدفاع عن النفس. وليس لدينا أدنى فكرة على الإطلاق عما سيكون رد فعلها في المرة القادمة.»

عندئذٍ قاطعه ديفيد براون قبل أن يستطيع هيلمان أن ينبس ببنت شفة: «نحن جميعنا نعي هذا يا دكتور تاكاجيشي.» وأردف: «لكن هناك بعض العوامل التي خففت من حدة الموقف وأزالت كل الالتباسات. أولًا، كما أشارت فرانشيسكا، إذا تتبعنا الكائنات الآلية في الحال، فإن الأرض بأسرها ستتابعنا مرة أخرى. لقد سمعت ما قاله جين كلود ريفوار منذ عشرين دقيقة؛ إننا قد تفوقنا على الجميع في مجال الاكتشافات الفضائية منذ عهد رواد الفضاء السوفييتيين والأمريكيين الأوائل في القرن العشرين. ثانيًا، نحن جاهزون لإتمام عملية الاقتناص الآن. فإذا أقلعنا عن المحاولة وأعدنا كل معداتنا إلى مخيم بيتا، فإننا سنكون قد أهدرنا قدرًا هائلًا من الوقت والجهد. وأخيرًا، ليس هناك خطر واضح. لمَ لا تكفُّ عن القيام بمثل هذه التكهنات المنذرة بالكوارث؟ كل ما هنالك أن الكائنات الآلية قد دافعت عن نفسها.»

حاول الباحث الياباني البارز أن يقوم بمناشدة عقلانية أخيرة فقال: «بروفيسور براون، أرجوك انظر حولك.» ثم أردف: «حاول أن تتخيل القدرات التي تتمتع بها المخلوقات التي صنعت هذه المركبة المذهلة. حاول أن تقدر مدى احتمالية، وأكرر مرة أخرى، فقط مدى احتمالية أن ما نحاول القيام به ربما يُنظر إليه على أنه عمل عدائي، ثم نُقلت هذه النظرة بطريقة ما للعقل الذي يدير هذه السفينة أيًّا ما كان. ونتيجة لذلك، ولأننا ممثلون للجنس البشري، فإننا لن ندين أنفسنا فحسب، بل الأمر الأشد ضراوة أننا سندين أيضًا كل إخواننا من البشر ...»

تهكم ديفيد براون: «هراء.» ثم تساءل: «كيف يجرؤ أحد على أن يتهمني بالتفكير المتهور ...؟» ضحك من كل قلبه. واستطرد: «إنه لأمر سخيف. تجزم الدلائل أن مركبة راما هذه لديها نفس غرض ووظيفة المركبة السابقة، وهي غافلة تمامًا عن وجودنا. وحقيقة أن فصيلة واحدة فحسب من الكائنات الآلية تحتشد معًا عندما تتعرض للتهديد، ليس لها أهمية تُذكر على الإطلاق.» ثم حملق في الآخرين من حوله. وتابع قائلًا: «كفى كلامًا في هذا الموضوع يا أوتو. وإذا لم يكن لديك مانع، فإننا سنذهب لاقتناص كائن آلي.»

سادت فترة تردد قصيرة عبر البحر الأسطواني. ثم سمع الرواد رد الفريق البحري هيلمان بالإيجاب. يقول: «انطلق يا ديفيد. لكن لا تقم بأي محاولات نحن في غنًى عنها.»

سأل هيرو ياماناكا دكتور تاكاجيشي حينما كان براون وتابوري وويكفيلد يراجعون تكتيكات عملية الاقتناص الجديدة قائلًا: «أتعتقد أننا في خطرٍ مُحدق بالفعل؟» قال الطيار الياباني هذا وهو يحملق بعيدًا في الفضاء الفسيح في البنايات العملاقة الموجودة في التجويف الجنوبي، مفكرًا في خطورة موقفهم، ولعلها المرة الأولى التي يفكر فيها في هذا الأمر.

أجابه الرجل الذي ينتمي إلى وطنه نفسه: «ربما لا، لكنه من الجنون أن نقوم بمثل هذه ...»

قاطعه ريجي ويلسون قائلًا: «كلمة جنون هي الكلمة المناسبة تمامًا لوصف هذا الموقف. أنا وأنت نعتبر جبهة المعارضة الوحيدة الصريحة للمضي قدمًا في هذه الحماقة. لكن اعتراضنا بدا وكأنه بلاهة بل جبن أيضًا. أنا شخصيًّا، أتمنى لو أن أحد هذه الأشياء الملعونة تدعو المبجل الدكتور براون إلى مبارزة. أو لعله من الأفضل أن تنزل عليه صاعقة نارية من إحدى الأبراج القائمة هناك.»

أشار ويلسون إلى القرون العظيمة التي كان ينظر إليها ياماناكا من قبل. عندئذٍ تغيَّر صوته إذ كانت به نبرة تنم عن الخوف. وقال: «إن الأمر يفوق إدراكنا. أنا أشعر بهذا

في الأجواء المحيطة. لقد حذَّرتنا قوًى لا يستطيع أحدنا إدراكها من الخطر الذي يكتنفنا. لكننا نتجاهل هذه التحذيرات.»

ابتعدت نيكول عن زملائها وحملقت في اجتماع التخطيط النشط الذي ينعقد على بعد خمسة عشر مترًا منها فحسب. وقطعًا كان المهندسان ويكفيلد وتابوري يستمتعان بالتحدي الذي يجابههما بشأن خداع الكائنات الآلية. تساءلت نيكول عما إذا كان من الممكن أن تكون راما قد أرسلت لهم بالفعل نوعًا من التحذير. ثم قالت لنفسها: «هراء.» مكررةً نفس التعبير الذي استخدمه ديفيد براون. لقد ارتعدت بطريقة لاإرادية حينما تذكرت الثواني العديدة عندما كان السرطان الآلي يهشم الشَّرَك المعدني. لكنها قالت لنفسها: «إنني أغالي في الأمر. وكذلك ويلسون. ليس هناك مدعاة للخوف.»

لكن عندما استدارت ونظرت مرة أخرى عبر المنظار كي تتأمل تشكيل السرطانات الذي لا يبعد عنها سوى نصف كيلومتر، سرى بداخلها شعور واضح بالخوف الذي لا يمكن تهدئته. فالسرطانات الستة لا تزال بلا حراك لما يقرب من ساعتين، ولا تزال محاصرة في إطار ترتيبها الأصلي. سألت نيكول نفسها عدة مرات: «ما الذي يدور بداخلك يا راما بحق؟» أما السؤال التالي الذي سألته لنفسها لاحقًا فقد أصابها بالهلع. فهي لم تتفوه بمثله من قبل. إذ سألت: «كم واحدًا منا سيتمكن من العودة إلى الأرض ليروي قصتك؟»

رغبت فرانشيسكا في أن تكون على الأرض إلى جانب السرطانات في محاولة الاقتناص الثانية. ومثل المرة السابقة، كان كلٌّ من تورجينيف وتابوري على متن الطائرة الهليكوبتر الأولى وبحوزتهما أهم المعدات. وكان براون وياماناكا وويكفيلد على متن الطائرة الأخرى. ودعا دكتور براون ويكفيلد كي يُسدي إليه النصائح المباشرة، وبالطبع أقنعت فرانشيسكا ريتشارد بأن يلتقط بعض الصور من الهواء كي تكمل بها الصور التلقائية التي تصدر عن نظام الطائرة.

قاد ريجي ويلسون رواد الفضاء الأرضيين إلى موقع السرطانات على متن الطوافة. قال ريجي فور وصولهم إلى موقع السرطانات الفضائية: «لديَّ مهمة رائعة هنا لأنجزها. مهمة السائق.» ثم مد بصره نحو سقف راما البعيد. وقال: «أتسمعون ذلك، يا شباب؟ أنا فذٌّ. بإمكاني أن أقوم بمهام كثيرة.» ثم نظر إلى فرانشيسكا التي تجلس إلى جانبه. وقال: «بالمناسبة يا سيدة فرانشيسكا، ألم تعتزمي تقديم الشكر لنيكول من أجل العمل

المذهل الذي قامت به؟ إن اللقطات المثيرة التي التقطتها على الأرض بجانب السرطانات هي التي جذبت انتباه الجمهور في البث الأخير.»

كانت فرانشيسكا منهمِكة في تفقد كافة معدات الفيديو التي معها، وقد تجاهلت تعليق ريجي في البداية. لكن عندما واصل سخريته، ردت عليه دون أن ترفع نظرها إليه قائلة: «هل لي أن أذكِّر السيد ويلسون أنني لست في حاجة إلى نصيحته غير المرغوب فيها بشأن كيفية إدارة أعمالي؟»

أخذ ويلسون يتأمل ويقول لنفسه بصوت عالٍ وهو يهز رأسه: «في وقتٍ ما كانت الأشياء مختلفة تمامًا.» ثم نظر إلى فرانشيسكا. ولم تكن هناك أي إشارة على أنها تعيره الانتباه أو حتى تصغي إليه. فرفع صوته وأكمل قائلًا: «كانت الأشياء مختلفة في الماضي عندما كنت لا أزال أومن بالحب. قبلما أعرف عن الخيانة. أو الطموح وأنانيته.»

هز ريجي عجلة الطوافة بعنف نحو اليسار، ثم أوقفها على بعد ما يقرب من أربعين مترًا غرب البقعة حيث السرطانات. قفزت فرانشيسكا من الطوافة دون أن تنبس ببنت شفة.

وفي غضون ثلاث ثوانٍ كانت تتكلم مع ديفيد براون وريتشارد ويكفيلد عبر جهاز اللاسلكي بشأن تغطية عملية الاقتناص بالفيديو. وشكر دكتور تاكاجيشي الدمث الأخلاق ريجي ويلسون على قيادته للطوافة.

صرخ تابوري من أعلى: «نحن قادمون.» وقد تمكن من أن يضع الوصلة المتدلية في موضعها الصحيح من ثاني محاولة. وكانت الوصلة كرة مستديرة وثقيلة يبلغ قطرها نحو عشرين سنتيمترًا، وبها اثنا عشر ثقبًا أو فجوة صغيرة في سطحها. وقد أُسقطت بتؤدة في مركز صدفة أحد السرطانات الواقعة في الجزء الخارجي من التشكيل. وبعد ذلك أمر جانوس — الذي كان ينقل وابلًا من الأوامر من الطائرة إلى المعالج في الوصلة — بنشر السلوك المعدنية المتكتلة المطوية بداخل الكرة. لم تَهج السرطانات عندما التفت الأسلاك حول السرطان الهدف.

صرخ جانوس في ريتشارد ويكفيلد الذي كان على متن الطائرة الأخرى: «ماذا ترى أيها المفتش؟»

تفقد ريتشارد الجهاز الغريب. وكان السلك السميك موصلًا بدعامة حلقية الشكل في خلفية الطائرة. وعلى بعد خمسة عشر مترًا لأسفل، استقرت الكرة المعدنية على ظهر السرطان الهدف، وكان السلك الرفيع يمتد من داخل الكرة لأعلى وأسفل الدرع القرني.

رد عليه ريتشارد قائلًا: «تبدو الأمور على ما يرام. لكن بقي الآن سؤال واحد فقط. هل الهليكوبتر أقوى من قبضتها الجماعية؟»

أمر ديفيد براون إيرينا تورجينيف بأن ترفع الفريسة. فزادت ببطءٍ سرعة الشفرات وحاولت أن ترفعها. اختفى الجزء المتدلي الصغير، لكن السرطانات تحركت بشق الأنفس. قال ريتشارد: «إما أن يكونوا غاية في الثقل، وإما أنهم يتشبثون بالأرض بطريقة ما. اضربيهم ضربة قاصمة.»

رفعت الرجة الفجائية التي حدثت في السلك التشكيل السرطاني بأكمله لحظة للأعلى. دفعت الطائرة الهليكوبتر بشدة فتدلت منها كتلة السرطانات على بعد مترين أو ثلاثة فوق الأرض. وتهاوى أولًا السرطانان غير الممسكين بالسرطان الهدف على كومة جامدة بعد لحظات من عملية الرفع. أما السرطانات الثلاثة الأخرى فقد ظلت وقتًا أطول، لمدة عشر ثوانٍ كاملة قبل أن ينزعوا مخالبهم من على رفيقهم ويتهاووا على الأرض لأسفل. وعمَّت هتافات الابتهاج والتهنئة في كل الأرجاء، إذ حلقت الهليكوبتر إلى أعلى في السماء.

كانت فرانشيسكا تصور تسلسل عملية الاقتناص على بعدٍ يقرب من عشرة أمتار. وبعدما ترك آخر ثلاثة سرطانات بما فيهم القائد قبضتهم من على السرطان الهدف وتهاووا على أرضية راما، مالت وراء الطائرة الهليكوبتر التي اتجهت بفريستها نحو البحر الأسطواني كي تكمل عملية التصوير. واستغرق الأمر نحو ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ حتى أدركت أن الجميع كانوا يصرخون فيها.

لم يتهشَّم السرطان القائد ولا الآخران عندما ارتطموا بالأرض. ومع أنهم قد تعرَّضوا لأذًى طفيف فإنهم كانوا نشطين، وفي غضون ثوانٍ من عملية السقوط كانوا سائرين على أقدامهم. وبينما كانت فرانشيسكا تصور رحيل الهليكوبتر، شعر السرطان القائد بوجودها واتجه نحوها. وتبعه السرطانان الآخران.

كانوا على بعد أربعة أمتار فحسب حينما أدركت أخيرًا فرانشيسكا، التي كانت منهمكة في التصوير، أنها هي الفريسة الآن. فاستدارت وبدأت تعدو. صاح ريتشارد في جهاز اللاسلكي: «اركضي على الجانبين، فهم يجرون في خطوط مستقيمة.»

ركضت فرانشيسكا في خطوط متعرجة، لكن السرطانات واصلت السعي وراءها. وقد مكنها إفراز الأدرينالين الناتج عن الخوف من إطالة المسافة التي تفصل بينها وبين السرطانات إلى عشرة أمتار. لكن ما إن بدأت تشعر بالتعب حتى تمكنت السرطانات التي لا تكل ولا تعيا من الاقتراب منها. زلت قدماها وكادت أن تسقط. وعندما استعادت فرانشيسكا توازنها، كان السرطان القائد يبعد عنها بمسافة لا تزيد عن ثلاثة أمتار.

وما إن اتضح أن السرطانات تطارد فرانشيسكا حتى أسرع ريجي ويلسون نحو الطوافة. وما إن تولى زمام المركبة حتى انطلق نحوها بأقصى سرعة. وكان قصده الأساسي هو أن يلتقطها ويأخذها بعيدًا عن السرطانات المنقضَّة عليها. غير أنهم كانوا قريبين منها للغاية؛ لذا قرر ريجي أن يصدم السرطانات الثلاثة من الجانب. وحدث اصطدام معدن بمعدن عندما نطحت المركبة المعدنية السرطانات. لقد نجحت خطة ريجي. فقد أطاحت قوة الدفع الناجمة عن الاصطدام بريجي والسرطانات معًا لعدة أمتار إلى جانب الطريق. وانتهى الخطر الذي كان يهدد فرانشيسكا.

لكن السرطانات لم تخر قواها. على العكس تمامًا. فمع أن أحد السرطانات الأتباع قد فقد أحد رجليه، وأُصيب السرطان القائد بخلل بسيط في المخلب، ففي غضون ثوانٍ كان ثلاثتهم قيد العمل وسط الحطام. فبدءوا يقطعون الطوافة إلى شرائح صغيرة بمخالبهم، وعندئذٍ استخدموا مجموعة مسابيرهم ومباردهم المخيفة كي يمزقوا الشرائح الصغيرة إلى قطع أصغر.

تعجب ريجي لحظة من تأثير الطوافة على الكائنات الآلية. لقد كانت السرطانات الفضائية أثقل مما توقع، وكان الخراب الذي حل بطوافته عظيمًا جدًّا. وما إن أدرك أن السرطانات لا تزال في حالة نشطة حتى شرع في القفز خارج الطوافة. لكنه لم يستطِع. لقد انحشرت رجلاه تحت لوحة القيادة المحطمة.

ولم يدم هلعه الشديد سوى عشر ثوانٍ. ولم يكن باستطاعة أحد أن يفعل أي شيء حيال الأمر. ودوت صرخات ويلسون المروعة في كل أرجاء فضاء راما الفسيح؛ إذ قطَّعته السرطانات إربًا إربًا، تمامًا كما لو كان جزءًا من الطوافة. وقد أُنجزت المهمة بسرعة وعلى نحو منهجي. وصورت كلٌّ من فرانشيسكا والكاميرا الآلية في الهليكوبتر اللحظات الأخيرة من حياته. وقد بُثَّت الصور إلى الأرض على الهواء مباشرة.

الفصل الثلاثون

ما بعد التشريح الثاني

جلست نيكول هادئة في كوخها بمخيم بيتا. ولم تستطِع أن تمحو من ذاكرتها الصورة المرعبة لوجه ريجي ويلسون الذي كان يتلوى في هلع عندما كان يُقطع إربًا إربًا. حاولت نيكول أن ترغم نفسها على التفكير في شيء آخر. وتساءلت في سرها: «وماذا بعد؟ ما الذي سيلمُّ بالبعثة الآن؟»

وبالخارج حل الظلام مرة أخرى براما. فقد انطفأت الأنوار على حين غِرة قبل ثلاث ساعات، بعد فترة إضاءة دامت ما يقل عن يوم راما السابق بأربع وثلاثين ثانية. وكان يُفترض أن انقطاع الأضواء سوف يثير كثيرًا من المناقشات والتخمينات. لكن أحدًا لم يأبه. ولم يُرِد أحد من الرواد أن يتحدث عن شيء. فقد كانت للذكرى المأساوية لمصرع ويلسون وطأة شديدة على الجميع.

وأُرجئ اجتماع الطاقم المعتاد بعد العشاء حتى صباح اليوم التالي لأن ديفيد براون والفريق البحري هيلمان كانا في اجتماع مطول مع مسئولي وكالة الفضاء الدولية في الأرض. ولم تشترك نيكول في أيٍّ من الحوارات، لكنه لم يكن من العسير عليها أن تتخيل مضامينها. وقد أدركت نيكول أن ثمة احتمالًا كبيرًا لإلغاء المَهمة الآن. فربما تعالت صيحات العامة طلبًا لهذا. فعلى أي حال، لقد شاهدوا جميعًا واحدًا من أبشع المشاهد …

وتخيلت نيكول جينفيف وهي جالسة أمام شاشة التلفزيون في بوفوا، وتشاهد الرائد ويلسون والكائنات الآلية تقطعه على نحو منظم. ارتعدت نيكول. ثم وبخت نفسها لانشغالها بشئونها الخاصة فحسب. وقالت في سرها: «لا بد أن الرعب الحقيقي هناك في لوس أنجلوس.»

وكانت نيكول قد التقت بعائلة ويلسون مرتين في غضون الحفلات الأولى التي تلت عملية انتقاء أعضاء الطاقم مباشرة. كانت نيكول تتذكر الصبي على وجه الخصوص. كان

اسمه راندي. كان يبلغ من العمر سبع أو ثماني سنوات، ذا عينين نجلاوين ووجع وسيم. وكان يحب ممارسة الرياضة. وقد أحضر لنيكول أحد مقتنياته الثمينة وهي برنامج من أوليمبياد عام ٢١٨٤ في حالة شبه ممتازة، ثم طلب من نيكول أن توقع في الصفحة التي تبرز القفزة الثلاثية للنساء. مسحت نيكول على شعر الصبي مداعبةً إياه بينما كان يشكرها بابتسامة عريضة.

كان من الصعب للغاية عليها تخيل صورة راندي ويلسون وهو يشاهد والده يموت على شاشة التلفزيون. تحجرت بعض قطرات الدمع في جانبَي عينيها. وقالت لنفسها: «إن هذه السنة لكابوس لك أيها الصبي المسكين. إنها تقلبات الحياة. ففي البداية فرح وسعادة باختيار والدك رائد فضاء. ثم كل تفاهات فرانشيسكا والطلاق، والآن هذه المأساة المروعة.»

اعترت نيكول حالةٌ من الاكتئاب، وكان عقلها لا يزال في حالة نشطة لا يريد أن ينام. وقررت أنها بحاجة إلى صحبة. فاتجهت نحو الكوخ المتاخم وقرعت بابه برفق.

جاءها صوت من الداخل يقول: «من بالخارج؟»

فردَّت عليه قائلةً: «تاكاجيشي-سان. أنا نيكول. هل تأذن لي بالدخول؟»

سار تاكاجيشي نحو الباب وفتحه. وقال: «مفاجأة غير متوقَّعة. هل هذه الزيارة رسمية؟»

أجابته نيكول وهي تدخل: «لا. إنها غير رسمية بالمرة. لم أستطِع أن أنام، ورأيت أن ...»

قاطعها بابتسامة ودودة: «على الرحب والسعة دائمًا. أنتِ لست في حاجة لتبرري مجيئك.» ثم نظر إليها بضع ثوانٍ. وقال: «إنني منزعج أيَّما انزعاج مما حدث بعد ظهيرة اليوم. وأشعر بالمسئولية. ولا أعتقد أنني قمت بما يكفي لمنع ...»

ردت نيكول: «كن واقعيًّا شجيرو. ولا تكن سخيفًا. لا لوم عليك. فعلى الأقل أنت الوحيد الذي عارَض الأمر. أنا الطبيبة ومع ذلك لم أنبس ببنت شفة.»

تجولت عينا نيكول بلا هدف في أرجاء كوخ تاكاجيشي. رأت نيكول تمثالًا أبيض يثير الانتباه وبه علامات سوداء إلى جانب فراشه، على قطعة صغيرة من القماش على الأرضية. سارت نحوه وانحنت على ركبتيها وسألته: «ما هذا؟»

ارتبك دكتور تاكاجيشي قليلًا. وجاء إلى جانب نيكول والتقط الرجل الشرقي الصغير والبدين. وأمسكه بين إصبعيه السبابة والإبهام. وأجاب: «إنه تمثال صغير ورثته عن عائلة زوجتي. وهو مصنوع من العاج.»

ثم أعطى نيكول إياه. وقال: «إنه ملك الآلهة. وقد كان بصحبة هذا التمثال، تمثال آخر لملكة ممتلئة البدن بالمثل موضوع على الطاولة بجانب فراش زوجتي في كيوتو. وفي الماضي قبلما تعاني الفيلة خطر الانقراض، كان الكثيرون يصنعون من أنيابها تماثيل مثل هذه. وكان لعائلة زوجتي مجموعة فخمة منها.»

أنعمت نيكول النظر في الرجل الصغير في يدها. لقد كان تداعب شفتيه ابتسامةٌ عذبة صافية. وتخيلت نيكول ماتشيكو تاكاجيشي الجميلة هناك في اليابان، ولثوانٍ معدودة حسدتهما على قوة رابطة زواجهما. إذ جال في خاطرها: «إن هذه الرابطة تجعل التعامل مع أحداث مثل حادثة موت ويلسون أكثر يسرًا.»

قال دكتور تاكاجيشي: «أتودين الجلوس؟» جلست نيكول على صندوق بجانب الفراش وتحدثا عشرين دقيقة. وقد قضيا معظم الوقت يقص أحدهما على الآخر ذكريات عن عائلته. وقد أشارا إلى كارثة بعد الظهيرة مرات عديدة بطريقة غير مباشرة، بيد أنهما تحاشيا تمامًا الخوض في تفاصيل راما وبعثة نيوتن. فقد كانا بحاجة إلى صور من حياته اليومية على الأرض تبعث الراحة في نفسه.

قال دكتور تاكاجيشي بعدما فرغ من احتساء كوب الشاي ووضعه على الطاولة الصغيرة بجانب كوب نيكول: «والآن، لديَّ طلب غريب منك يا دكتورة نيكول. هل من الممكن أن تذهبي إلى كوخك وتُحضري جهاز إحصائك البيولوجي؟ أود أن أخضع للفحص.»

همَّت نيكول بالضحك، غير أنها لاحظت أمارات الجدية على وجه زميلها. وعندما عادت بجهازها بعد بضع دقائق، أخبرها دكتور تاكاجيشي عن سبب طلبه. فقال: «لقد شعرت بعد ظهيرة اليوم بألم حاد جدًّا في صدري مرتين. كان هذا في غمرة الانفعال. بعدما اصطدم ويلسون بالسرطانات، أدركت أن ...» ولم يكمل جملته. فقد أومأت نيكول برأسها وشغلت جهاز الفحص.

ولم ينبسا ببنت شفة على مدار الثلاثة الدقائق الثلاثة التالية. تفقدت نيكول كل بيانات التحذير والرسومات البيانية الظاهرة على الشاشة الخاصة بأداء قلبه، وكانت تهز رأسها بانتظام. وعندما فرغت من فحصها ابتسمت لصديقها ابتسامة عريضة. وعلقت: «لقد أُصبت بنوبة قلبية خفيفة، ربما نوبتين في وقت متقارب جدًّا. وقد أصبحت ضربات قلبك غير منتظمة منذ ذلك الحين.» وقد استشفَّت من وجهه أنه كان متوقعًا ذلك الخبر. فقالت: «يؤسفني ذلك. بحوزتي بعض الأدوية التي يمكنني إعطاؤك إياها، لكنها ليست

سوى بدائل مؤقتة. علينا أن نعود إلى مركبة نيوتن على الفور حتى يتسنى لنا أن نعالج هذه المشكلة كما ينبغي.»

ابتسم ابتسامة شاحبة وقال: «حسنًا، إن كانت تكهناتنا صحيحة، فإن الضوء سيعود إلى راما مرة أخرى في غضون اثنتي عشرة ساعة تقريبًا. وأعتقد أنه سيتسنى لنا العودة عندئذٍ.»

أجابته: «ربما. سوف أتحدث إلى براون وهيلمان بهذا الصدد على التو. وأظن أنني أنا وأنت سوف نرحل أولًا في الصباح.»

اقترب منها وأمسك بيديها. وقال: «أشكرك يا نيكول.»

استدارت نيكول. وللمرة الثانية في غضون ساعة اغرورقت عيناها بالدموع. ثم غادرت كوخ تاكاجيشي واتجهت إلى طرف المخيم للتحدث إلى ديفيد براون.

سمعت نيكول صوت ريتشارد ويكفيلد في الظلام يقول لها: «آه، إنه أنتِ. اعتقدت يقينًا أنك كنت نائمة. لديَّ بعض الأخبار لكِ.»

قالت نيكول عندما اتضحت ملامح ريتشارد الممسك بالمصباح الضوئي في الظلام: «أهلًا ريتشارد.»

أجابها: «لم أستطِع النوم. فثَمة كثير من الصور المروِّعة التي لا تبرح ذهني. لذا قررت أن أحاول حل مشكلتك.» ثم ابتسم. واستطرد قائلًا: «إنها أيسر مما تخيلت. هل من الممكن أن تتفضلي إلى كوخي للإيضاح؟»

كانت نيكول مشوَّشة. كانت مشغولة بما كانت تنوي أن تقوله لبراون وهيلمان بشأن تاكاجيشي. سألها ريتشارد: «ألا تتذكرين؟ المشكلة في برمجيات روسور والأوامر اليدوية.»

فسألته: «أكنت تحاول العمل على هذا الأمر؟ وهنا في هذا المكان؟»

أجابها: «بالطبع. كل ما كان عليَّ فعله هو أن أجعل أوتول ينقل لي كل البيانات التي أحتاجها. هيا، دعيني أريكِ.»

قررت نيكول أن ترجئ مقابلة دكتور براون لدقائق أخرى. سارت إلى جانب ريتشارد. ثم قرع ريتشارد باب الكوخ الآخر الذي سارا إليه. وصاح: «هاي تابوري، أتستطيع أن تخمن ما عندي؟ لقد عثرت على طبيبة جميلة تتجول في الظلام. أتريد أن تنضم إلينا؟»

قال ريتشارد لنيكول: «لقد شرحت بعض الأمور له أولًا. لقد كان كوخك مظلمًا واعتقدت أنكِ نائمة.»

خرج جانوس من باب كوخه بعد أقل من دقيقة ورحَّب بنيكول بابتسامة. ثم قال: «حسنًا يا ويكفيلد، لكن لا تدعنا نطيل. فقد استغرقت في النوم بعد معاناة.»

وهناك في مؤخرة كوخ ويكفيلد، راح المهندس البريطاني يروي باستمتاع واضح ماذا حدث للجراح الآلي عندما تعرضت نيوتن لتلك الهزات العنيفة غير المتوقعة. فقال: «كنت محقَّة يا نيكول؛ بالفعل أُدخلت أوامر يدوية إلى روسور. وهذه الأوامر هي التي تسببت فعليًّا في غلق نظام خوارزميات الحماية ضد الأعطال المعتادة. لكن لم يجرِ إدخال أيٍّ منها حتى في غضون مناورة راما.»

ابتسم ويكفيلد ثم استرسل وهو يلاحظ نيكول بعناية ليتأكد أنها تتابع شرحه. أردف: «يبدو أنه عندما سقطت أصابع جانوس على صندوق التحكم، أنه أعطى ثلاثة أوامر. على الأقل هذا ما اعتقده روسور، فقد وصلته رسالة تفيد أن هناك ثلاثة أوامر يدوية في مصفوفاته. وبالطبع كانت كلها بيانات عديمة النفع. لكن لم يكن لدى روسور المقدرة على تمييز ذلك.

ربما يمكنكِ الآن أن تتفهمي بعضًا من الكوابيس التي تعذب مصممي برمجيات الأنظمة. فما من أحد يمكنه أن يتوقع كل الاحتمالات الممكن حدوثها. فالمصممون وضعوا حماية ضد أمر «واحد» عديم النفع غير مقصود — على سبيل المثال، أن يلمس أحدهم صندوق التحكم في أثناء إجراء العملية — ولكن لم يؤمِّنوا ضد «العديد» من الأوامر الخاطئة. فتصميم النظام الشامل ينظر إلى الأوامر اليدوية على أنها حالة طوارئ في المقام الأول. من ثَم حظيت الأوامر اليدوية بالأولوية الكبرى في الإيقاف المؤقت لتنفيذ الأوامر الخاصة ببرمجيات روسور وكان يجري معالجتها في التو؛ بيد أن التصميم وضع في اعتباره أنه قد يوجد أمر يدوي واحد «خاطئ»، وأن لديه القدرة على رفضه والانتقال إلى الإيقاف المؤقت لتنفيذ الأوامر التي تليها في الأولوية، والتي تضمنت الحماية ضد الأعطال.»

قالت نيكول: «عذرًا. لقد فقدت التركيز. فكيف يمكن للتصميم أن يُبنى بحيث يتجاهل أمرًا واحدًا خاطئًا، وليس العديد من الأوامر الخاطئة؟ لقد اعتقدت أن هذا المعالج البسيط يعمل في تسلسل.»

استدار ريتشارد نحو جهاز الكمبيوتر المحمول، وانطلاقًا من بعض الملاحظات، استدعى على الشاشة مجموعة من الأرقام المرتبة في صفوف وأعمدة. ثم قال:

«ها هي العمليات، أمر تلو الآخر، نفذتها برمجيات روسور بعدما حدثت أوامر يدوية في مصفوفاته.»

علق جانوس قائلًا: «إنها تتكرر كل سبع عمليات.»

أجابه ريتشارد: «بالضبط. لقد حاول روسور ثلاث مرات أن يعالج الأمر اليدوي الأول، لكن كل محاولاته باءت بالفشل فانتقل إلى الأمر التالي. وقد عملت البرمجيات بالضبط تبعًا للطريقة التي صُممت بها ...»

عندئذٍ سأله تابوري: «لكن لماذا رجع إلى الأمر الأول بعدها مباشرة؟»

أجابه: «لأن مصممي البرمجيات لم يأخذوا بعين الاعتبار على الإطلاق احتمالية أن تكون الأوامر اليدوية الخاطئة «متعددة». أو على الأقل لم يتحسبوا لمثل هذه الظروف قط. فالسؤال الداخلي الذي تطرحه البرمجيات بعد الانتهاء من معالجة كل أمر هو هل لا يزال هناك أمر يدوي آخر في الذاكرة المؤقتة أم لا. فإذا «لم» يوجد أمر يدوي فالبرمجيات ترفض الأمر الأول عندئذٍ وتصبح حرة للانتقال لمعالجة عطل آخر. أما إذا «وُجد» أمر يدوي فإن البرمجيات تُخبَر بأن تخزن الأمر المرفوض وتعالج الأمر التالي. والآن إذا كان هناك أمران مرفوضان في صف فإن البرمجيات «تفترض» أن عتاد معالج الأوامر معطل فتستبدله بمجموعة عتاد احتياطية، ثم تحاول مجددًا أن تعالج نفس الأوامر اليدوية. وبإمكانكما أن تفهما الاستنتاج هكذا، افترضا أن ...»

أصغت نيكول لعدة ثوانٍ بينما كان ريتشارد وجانوس يتحدثان حول النظم الاحتياطية، والأوامر المختزنة في الذاكرة المؤقتة، وتراكيب المصفوفات. لقد تلقَّت نيكول اليسير من التدريبات على كلٍّ من نظام الحماية ضد الأعطال وإدارة البرامج الاحتياطية، غير أنها لم تستطِع متابعة الحديث. فقاطعته أخيرًا: «لحظة من فضلك، لقد فقدت التركيز مرة أخرى. تذكر أنني لست مهندسة. ألا يستطيع أحدكما أن يلخص لي الأمر بلغة مبسطة؟»

اعتذر لها ويكفيلد. وقال: «آسف نيكول. أتعرفين ما نظام البرمجيات القائم على الإيقاف المؤقت لتنفيذ الأوامر حسب الأولويات؟» أومأت برأسها بالإيجاب. فسألها أيضًا: «وهل تألفين الطريقة التي تُدار بها الأولويات في مثل هذا النظام؟ حسنًا. إذَن التفسير بسيط. إن الإيقاف المؤقت لتنفيذ الأوامر الخاصة بنظام الحماية ضد الأعطال، الذي يقوم على مقياس التسارع وتصوير البيانات، يتمتع بأولوية أقل من تلك التي للأوامر اليدوية التي أدخلها جانوس سهوًا وهو يسقط. فأصبح النظام مغلقًا في حلقة البرمجيات في

محاولة لمعالجة الأوامر الخاطئة، ولم تُتَح له الفرصة على الإطلاق كي يلتفت إلى إشارات العطل من النُّظم الفرعية للمستقبلات. لهذا السبب استمر المشرط في عملية القطع.»

شعرت نيكول بالإحباط لسبب غير واضح. لقد كان الشرح واضحًا على نحو وافٍ، وهي لم ترد بالطبع أن يُظهر التحليل تورُّط جانوس أو أي فرد آخر من أفراد الطاقم. لكن الأمر كان في غاية البساطة. ولم يكن يستحق منها كل ذلك العناء والوقت.

جلست نيكول على الفراش في كوخ ويكفيلد. وقالت: «هذا كثير بالنسبة إلى لغزي الغامض.»

جلس جانوس إلى جانبها. وقال لها: «ابتهجي يا نيكول. إنها أخبار سارَّة. على الأقل نحن متيقنون الآن من أننا لم نخطئ في ضبط الجهاز من البداية. ثمة تفسير منطقي لما حدث.»

أجابته بتهكم: «رائع.» وأردفت: «لكن الجنرال بورزوف لا يزال ميتًا. والآن ريجي ويلسون أيضًا.» فكرت نيكول في الطريقة الشاذة التي كان يتصرف بها الصحفي الأمريكي خلال الأيام العديدة الماضية، وتذكرت أيضًا حوارها السابق مع فرانشيسكا. وقالت بتلقائية: «بالمناسبة، هل سمع أحد منكم قط الجنرال بورزوف يشكو من صداع أو أي اضطرابات؟ ولا سيما في يوم إقامة المأدبة؟»

هز ويكفيلد رأسه نافيًا. وقال جانوس: «لا. لكن لمَ تسألين؟»

أجابته: «حسنًا، لقد سألت جهاز التشخيص، بناءً على بيانات الفحص البيولوجي الخاصة ببورزوف، عن الأسباب المحتملة للأعراض التي أصابته، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه «لم» يكن مصابًا بالزائدة الدودية. وكان أكثر الأسباب ترجيحًا هو التفاعل الدوائي. وكانت نسبة الاحتمال اثنين وستين بالمائة. وظننت أنه ربما تأثر بتفاعل عكسي لنوع معين من الأدوية.»

«حقًّا؟» قالها جانوس، وقد أُثير فضوله. ثم تساءل: «لمَ لم تقولي أي شيء عن هذا الأمر من قبل؟»

أجابته نيكول: «مرات عدة، كنت أنوي ... لكنني ظننت أنك غير مهتم. أتتذكر حينما عرجت عليك في غرفتك على متن نيوتن في اليوم التالي لموت الجنرال بورزوف؟ كان ذلك بعد اجتماع الطاقم مباشرة. وقد استنتجت من الطريقة التي كنت تتعامل بها معي، أنك لا تريد الخوض في تفاصيل ذلك الموضوع مرة أخرى ...»

هز جانوس رأسه وقال: «يا إلهي. إن البشر لا يعرفون كيف يتواصلون جيدًا معًا. لقد كنت مصابًا بصداع ليس غير. بالطبع لم أقصد أن أترك لديك انطباعًا بأنني عازف عن التحدث بشأن موت فاليري.»

ردت عليه نيكول وهي تنهض بضجر من على الفراش: «بمناسبة التحدث عن التواصل، عليَّ أن أذهب لأرى دكتور براون والفريق البحري هيلمان قبل أن أخلد إلى النوم.» ثم نظرت إلى ويكفيلد. وقالت: «أشكرك على مساعدتك ريتشارد. ليتني أستطيع أن أقول إنني أصبحت بحال أفضل الآن.»

سارت نيكول إلى جانب جانوس. وقالت: «آسفة يا صديقي. كان ينبغي لي أن أشركك في كل التحقيقات بأكملها. ربما لم أفعل هذا لأن الأمور قد سارت على جناح السرعة ...»

أجابها جانوس بابتسامة: «كل شيء على ما يرام. لا عليك. هيا سوف أرافقك حتى أصل إلى كوخي.»

سمعت نيكول الحوار الدائر بصوت عالٍ قبل أن تقرع باب الكوخ. لقد كان يتجادل كلٌّ من ديفيد براون وأوتو هيلمان وفرانشيسكا ساباتيني حول كيفية الرد على آخر التوجيهات الآتية من الأرض.

كانت فرانشيسكا تقول: «إنهم يغالون. وجميعهم سيدركون الواقع حالما يكون لديهم الوقت الكافي لإمعان النظر في الأمر. فهذه ليست أول بعثة تتكبَّد خسائر في الأرواح. فرِحلات استكشاف الفضاء الأمريكية لم تُلغَ حين قُتلت رائدة الفضاء كريستا ماك أوليف وطاقمها إثر تحطم مكوك الفضاء تشالنجر.»

اعترض الفريق البحري هيلمان قائلًا: «لكنهم قد «أمرونا» بالعودة إلى نيوتن في أسرع وقت ممكن.»

قالت فرانشيسكا: «إذن سوف نتحدث إليهم مرة أخرى بالغد ونفسر لهم لماذا نريد أن نمسح نيويورك أولًا. فقد ذكر تاكاجيشي أن البحر سوف يبدأ في الذوبان في غضون يوم أو يومين، وسنُضطر إلى الرحيل على أي حال. علاوة على أن ويكفيلد وتاكاجيشي وأنا سمعنا بالفعل صوتًا ما في تلك الليلة، حتى إذا لم يصدقنا ديفيد.»

شرع أخيرًا دكتور براون في الرد عليهما فقال: «لا أعلم يا فرانشيسكا،» لكنه توقف حينما سمع نيكول تقرع الباب. فسأل بحدة: «من الطارق؟»

أجابته: «الرائدة نيكول، لديَّ معلومة طبية غاية في الأهمية ...»

قاطعها براون في عجالة: «نيكول، نحن مشغولون للغاية. ألا يمكنك أن ترجئيها حتى الصباح؟»

قالت نيكول في نفسها: «حسنًا، يمكنني الانتظار حتى الصباح.» ولم تكن متحمسة للرد على سؤال دكتور براون بشأن حالة قلب تاكاجيشي على أي حال. ثم قالت بصوت مرتفع، وهي تضحك في سرها: «عُلم.»

وفي غضون ثوانٍ كانت نيكول تسمع المحادثة تدور مجددًا وراء ظهرها. وسارت بتؤدة عائدةً إلى كوخها. قالت في نفسها وهي تزحف إلى فراشها: «ينبغي أن يكون الغد يومًا أفضل.»

الفصل الحادي والثلاثون

معجزة أورفيتو

قال ديفيد براون عندما همَّ الفريق البحري الألماني بمغادرة كوخه: «ليلة هانئة، يا أوتو.»

«أراك في الصباح.» قالها دكتور براون وأخذ يتثاءب ويتمدد. ثم نظر إلى ساعته. سيبقى على ظهور الضوء مرةً أخرى ما يزيد قليلًا عن ثماني ساعات.

خلع بذلة الطيران ثم احتسى كوبًا من الماء. وكان قد استلقى على فراشه لتوه حينما دخلت فرانشيسكا كوخه. قالت: «ديفيد، لدينا مزيد من المشكلات.» ثم دنت منه وقبَّلته قبلة صغيرة. وقالت: «لقد كنت أتحدث مع جانوس. وعرفت أن نيكول تُساورها الشكوك بأن بورزوف قد أُعطي دواءً ما.»

صاح قائلًا: «ماااااااذا؟» ثم انتفض براون على فراشه. وأردف: «كيف تمكنت من هذا؟ يستحيل ...»

قاطعته قائلة: «يبدو أن هناك بعض الأدلة في بيانات إحصائه البيولوجي، وقد تمكنت ببراعة من اكتشافها. لقد ذكرت هذا لجانوس الليلة.»

قال: «ألم يبدو عليكِ أي تأثر حينما قال لك هذا؟ أقصد، يجب علينا أن ...»

أجابته فرانشيسكا: «بالطبع لم أبالِ أمامه. على أي حال، جانوس لن يرتاب في أي شيء البتة ولا حتى بعد ألف عام. فهو ساذج تمامًا. على الأقل عندما يتعلق الأمر بأمور كهذه.»

قال ديفيد براون: «اللعنة على تلك المرأة. وعلى جهاز إحصائها البيولوجي.» ثم فرك وجهه بيديه. وقال: «يا له من يوم. في أوله يحاول ويلسون الأخرق أن يقوم بدور البطل، والآن هذه المصيبة ... لقد أخبرتك أنه كان ينبغي تدمير كل البيانات من العملية. لقد كان من اليسير جدًّا أن نمحو الملفات المركزية. عندئذٍ كان سيستحيل ...»

ردت فرانشيسكا: «لا تنسَ أنه كان سيظل بحوزتها سجلات بيانات إحصائه البيولوجي. وهذا هو المكان الذي يوجد فيه الدليل الأساسي. عندئذٍ عليك أن تصبح عبقريًّا بمعني الكلمة بأن تأخذ البيانات من ملف العملية نفسها وتستنتج منها أي شيء.» جلست فرانشيسكا وضمت رأس دكتور براون إلى صدرها. واسترسلت: «أفدح أخطائنا لم يكن إخفاقنا في تدمير الملفات. فهذا كان سيثير الشكوك في وكالة الفضاء. وإنما تمثل الخطأ الفادح في أننا استخففنا بنيكول دي جاردان.»

أبعد دكتور براون رأسه عن حضنها ونهض. وقال: «اللعنة يا فرانشيسكا، إنها غلطتك. ما كان عليَّ أن أدعك تقودينني إلى هذا. لقد علمت حينذاك ...»

قاطعته فرانشيسكا بحدة: «علمت حينذاك يا دكتور ديفيد براون أنك ممنوع من الانضمام إلى الرحلة الأولى إلى راما. علمت حينذاك أن الملايين التي ستحصل عليها في المستقبل باعتبارك البطل والقائد المميز في هذه البعثة ستكون عُرضة للخطر إذا مكثت على متن نيوتن.» توقف براون عن ذرع المكان جيئة وذهابًا، ووقف في مواجهة فرانشيسكا. استرسلت فرانشيسكا ولكن بطريقة أكثر لينًا: «علمت حينذاك أنني أيضًا لي مصلحة مشتركة من ذهابك إلى الرحلة. وإنه يمكن الاعتماد عليَّ كي أعضدك.»

أمسكت فرانشيسكا يديه وجذبته نحو الفراش. وقالت: «اجلس، يا ديفيد. لقد أسهبنا في الحديث حول هذا الموضوع. نحن لم نقتل الجنرال بورزوف. نحن ببساطة أعطيناه دواءً يخلق لازمة أعراض الزائدة الدودية. لقد اتخذنا القرار معًا. ولو لم تقم راما بتلك المناورة ولم يحدث خلل وظيفي في الجراح الآلي، لنجحت خطتنا نجاحًا تامًّا. فكان بورزوف سيُمضي ذاك اليوم على متن نيوتن للتعافي من الزائدة ونقود أنا وأنت عملية استكشاف راما هنا.»

أفلت ديفيد براون يدها وبدأ يعتصر يديه. ثم قال: «أشعر ... أشعر بالنجاسة الشديدة، لم أفعل في حياتي شيئًا مثل هذا قط. أقصد، سواء فعلنا ذلك عن عمد أم لا، فنحن متورطان إلى حد ما في موت بورزوف. وربما في موت ويلسون أيضًا. وقد نُحاكَم جرَّاء ذلك.» وكان يهز رأسه مرة أخرى. وكانت أمارات البؤس تبدو على وجهه. وأردف: «من المفترض أنني عالم، ماذا دهاني؟ كيف تورطت في كل هذه الأشياء؟»

قالت فرانشيسكا بقسوة: «لا حاجة لي باستقامتك وطُهرك. ولا تحاول أن تخدع نفسك. ألست أنت ذاك الرجل الذي سرق أهم اكتشاف فلكي في هذا العقد من إحدى طالبات الدراسات العليا؟ ثم تزوجت منها كي تضمن سكوتها للأبد، أليس كذلك؟ لقد تخليت عن استقامتك منذ زمان طويل جدًّا.»

رد عليها دكتور براون بمكابرة: «هذا ظلم. كنت أمينًا معظم حياتي. باستثناء ...»

انتصبت فرانشيسكا واقفة وكانت هي التي تذرع المكان جيئة وذهابًا هذه المرة. قاطعته: «باستثناء عندما كان الأمر يعني الكثير بالنسبة لك ويستحق العناء. يا له من هراء! أنتم أيها الرجال منافقون ملعونون. فأنتم تحتفظون بصورة نبيلة عن أنفسكم عن طريق تبريرات مذهلة. ولا تعترفون لأنفسكم البتة بمن أنتم بحق ولا بما تريدون بالفعل. معظم النساء أكثر أمانة منكم. فنحن نعترف بطموحاتنا ورغباتنا، وحتى أكثرها دناءة وخسة. نحن نُقر بنقاط ضعفنا. ونواجه أنفسنا كما هي بالفعل، وليس كما نرغب أن نكون.»

رجعت فرانشيسكا مرة أخرى إلى الفراش وأمسكت بيد ديفيد مرة أخرى. وقالت بحماسة: «ألا ترى يا عزيزي؟ أنا وأنت متوحدان روحيًّا، وتوحدنا هذا يقوم على أقوى رابطة على الإطلاق؛ تبادل المنفعة الذاتية. فكلانا يسير مدفوعًا بنفس الهدف؛ السلطة والشهرة.»

فرد عليها: «إنه لأمر مروِّع.»

أجابته: «لكنها الحقيقة. حتى لو كنت لا تريد أن تقر بها لنفسك. عزيزي ديفيد، ألا يمكنك أن ترى أن افتقارك للحسم ينبع من إخفاقك في أن تعترف بطبيعتك الحقيقية؟ انظر إليَّ. أنا أعرف بالضبط ما أريده ولا أرتبك البتة بشأن ما أنوي فعله. ومن ثَم أتصرف بطريقة تلقائية.»

جلس الفيزيائي الأمريكي في هدوء إلى جانب فرانشيسكا لمدة طويلة. ثم أخيرًا استدار ووضع رأسه على كتفها. وقال وهو يتنهد: «في البداية بورزوف والآن ويلسون. أشعر أنني مستنزف ومنهك. ليت شيئًا من كل هذا لم يحدث.» قالت له وهي تمسح بيدها على رأسه: «لا مفر الآن يا ديفيد. لقد قطعنا شوطًا كبيرًا. والجائزة الكبرى الآن في متناول أيدينا.»

مدت فرانشيسكا يدها ونزعت عنه قميصه. وقالت بلطف: «لقد كان يومًا طويلًا وشاقًّا. لنحاول أن ننساه.» أغمض ديفيد براون عينيه بينما أخذت هي تداعب وجهه وصدره.

مالت فرانشيسكا عليه ولثمت شفتيه برفق. وبعد ثوانٍ قلائل توقفت فجأة. وقالت وهي تخلع ملابسها ببطء: «أتعلم، ما دمنا متورطين معًا في هذا الأمر، فلسوف يستمد أحدُنا القوة من الآخر.» ثم وقفت أمام ديفيد مجبِرةً إياه أن يفتح عينيه.

قال في لهفة: «أسرعي، فأنا فعليًّا ...»

ردت فرانشيسكا ببطء وهي تخلع ملابسها الداخلية: «لا تقلق كثيرًا بهذا الشأن، فأنت لم تعانِ أي صعاب معي.» ابتسمت فرانشيسكا مرة أخرى وهي تدفع بركبتيه بعيدًا إحداهما عن الأخرى، وتضغط وجهه في نهدَيها. قالت وهي تضع يدها الأخرى برفق على بنطاله القصير: «تذكر أنا لست إيلين.»

تفرَّست فرانشيسكا في ديفيد براون وهو نائم بجانبها. وقد حلَّت ابتسامةٌ صافية كتلك التي لصبي صغير محل الإجهاد والقلق اللذين كانا يهيمنان على وجهه قبل بضع دقائق فحسب. قالت فرانشيسكا في نفسها: «الرجال أمرهم سهل للغاية. فالجماع أفضل مسكن لألمهم. ليت الأمر كان بهذه السهولة لنا.»

انسلت برفق من الفراش وارتدت ملابسها. كانت فرانشيسكا حريصة على ألا تزعج صديقها النائم. وقالت لنفسها وهي تنتهي من ارتداء ملابسها: «لكننا لا يزال لدينا مشكلة حقيقية، ويجب أن نتعامل معها بسرعة. وهذه المشكلة أكثر صعوبة لأننا نتعامل مع امرأة.»

سارت فرانشيسكا خارج كوخها في ظلام راما. كانت هناك أضواء قليلة بالقرب من مخزن المؤن في الطرف الآخر من المخيم، ولكن فيما عدا مخيم بيتا كان الظلام يخيم على كل الأرجاء. وكان الجميع نائمين. أدارت كشافها الضوئي الصغير، وسارت جنوبًا باتجاه البحر الأسطواني.

تساءلت في سرها وهي سائرة: «ماذا تريدين بالتحديد يا سيدة نيكول دي جاردان؟ وما نقطة ضعفك، النقطة التي تجعلني أنال منك؟» وأخذت فرانشيسكا تقلب لبضع دقائق ما في جعبتها من أفكار عن نيكول، في محاولة أن تجد أي نقيصة في شخصيتها يمكن استغلالها. قالت في نفسها: «بالطبع ليس المال. ولا ممارسة الجنس، على الأقل معي.» ثم ضحكت تلقائيًّا. وأردفت: «وبالطبع، ليس مع ديفيد أيضًا. فكرهك له بيِّن.»

«وماذا عن الابتزاز؟» قالتها فرانشيسكا في نفسها وهي تقترب من ضفاف البحر الأسطواني. لقد تذكرت رد فعل نيكول العنيف تجاه سؤالها عن والد جينفيف. فقالت: «إذن ربما يُجدي معها الابتزاز، لو كنت فقط أعلم إجابة هذا السؤال ... لكنني لا أعرف.»

تحيرت فرانشيسكا لفترة وجيزة. ولم تستطع أن تصل إلى شيء تفضح به نيكول دي جاردان. وفي ذلك الوقت، كانت الأضواء البازغة من المخيم وراءها مرئية بالكاد. أطفأت فرانشيسكا كشافها الضوئي وجلست بحذر شديد كي تدلي قدمها من على حافة الجرف.

وقد أثار تدلي قدمها فوق ثلج البحر الأسطواني في ذهنها مجموعة من الذكريات المثيرة للشجن من طفولتها في أورفيتو. ففي سن الحادية عشرة قررت فرانشيسكا الناضجة قبل الأوان أن تبدأ في تدخين السجائر على الرغم من وابل التحذيرات الصحية الذي كان يطلق عليها من كل جانب. فكانت تشق طريقها كل يوم بعد المدرسة عبر التل إلى السهل أسفل المدينة وتجلس على ضفة جدول الماء المفضل لديها. وهناك كانت تدخن في صمت، كنوع من التمرد الفردي. وفي هذه الأمسيات الهادئة، كانت تعيش في عالم خيالي من القلاع والأمراء، على بعد ملايين الكيلومترات من والدتها وزوج والدتها.

أثارت ذكريات فترة المراهقة رغبةً عارمة داخل فرانشيسكا للتدخين. لقد تناولت حبات النيكوتين طيلة البعثة، لكن هذه الحبات لم تشبع سوى إدمانها الجسدي فحسب. سخرت فرانشيسكا من نفسها ومدت يدها إلى أحد الجيوب السرية في بذلة الطيران التي ترتديها. لقد خبأت فرانشيسكا ثلاث سيجارات في غلاف معد خاصة لتحتفظ بحالتها جيدة. لقد قالت لنفسها قبل مغادرة الأرض سآخذ السجائر معي «تحسبًا لحدوث أي طوارئ» ...

إن تدخين السجائر بداخل مركبة فضائية قائمة خارج الأرض لهو أمرٌ أشد ضراوة من التدخين في عمر الحادية عشرة. أرادت فرانشيسكا أن تصيح بصوت عالٍ مُعرِبةً عن سعادتها عندما ألقت برأسها للخلف وزفرت الدخان في هواء راما. لقد جعلها هذا التصرف تشعر بالحرية وأنها بلا قيود. وبطريقة أو بأخرى كان التهديد الذي تمثله نيكول دي جاردان لها لا يبدو خطيرًا بالدرجة.

وبينما كانت تدخن، تذكرت فرانشيسكا الوحدة الموحشة التي كانت تملأ كيان الصبية التي كانت تنسل عبر منحدرات أورفيتو القديمة. وتذكرت أيضًا السر المروع الذي كتمته في قلبها أبد الدهر. لم تخبر فرانشيسكا أحدًا قط بشأن زوج أمها، وقطعًا لم تخبر والدتها أيضًا، وقلما فكرت في الأمر بعد ذلك. لكن بينما كانت جالسة على ضفاف البحر الأسطواني، بدا أن مآسي طفولتها قد تجلت أمامها بكل وضوح.

بعدما غرقت في تفاصيل حياتها قبل ثماني عشرة سنة، قالت في نفسها: «لقد بدأ الأمر بعد عيد ميلادي الحادي عشر مباشرة. ولم يكن لديَّ أدنى فكرة في البداية عما يريد مني هذا الوغد.» ثم أخذت نفسًا عميقًا آخر من السيجارة. واسترسلت في ذكرياتها: «حتى بعدما بدأ يجلب لي الهدايا بلا مبرر.»

كان يعمل مديرًا لمدرستها الجديدة. وعندما خضعت للمجموعة الأولى من اختبارات القَبول، أحرزت أعلى الدرجات في تاريخ أورفيتو. فقد تخطت جميع المقاييس، لتكون

بذلك الطفلة المعجزة. وحتى ذلك الحين لم يكن يلتفت إليها مطلقًا. وكان قد تزوج من والدتها منذ ثمانية عشر شهرًا وأنجبا توءمًا بعدها مباشرة تقريبًا. وأضحت فرانشيسكا مصدرًا للإزعاج، وعبئًا ماديًّا آخر، وأصبح وجودها لا يعني شيئًا اللهم سوى جزء من ممتلكات والدتها.

قالت فرانشيسكا لنفسها: «وأخذ يحسن معاملتي على غير المعتاد على مدار عدة أشهر. ثم ذهبت والدتي لزيارة الخالة كارلو لبضعة أيام.» وعندئذٍ توالت الذكريات المُرة سريعًا كوابلٍ من المطر على ذهنها. لقد تذكرت رائحة الخمر المنبعثة من أنفاس زوج والدتها، وعرقه الذي يبلل جسدها، ودموعها بعدما يغادر غرفتها.

استمر هذا الكابوس ما يزيد عن عام. كان يرغمها على ذلك كلما غابت والدتها عن المنزل. وفي إحدى الليالي، وبينما كان يرتدي ملابسه موجهًا نظره في الاتجاه الآخر، ضربته فرانشيسكا على مؤخرة رأسه بمضرب كرة البيسبول المصنوع من الألومنيوم. سقط زوج والدتها على الأرض غارقًا في دمائه وفاقدًا للوعي. سحبته إلى غرفة المعيشة وتركته هناك.

تذكرت فرانشيسكا وهي تطفئ سيجارتها في تراب راما: «ولم يلمسني مرة أخرى قط.» واسترسلت في حديثها مع نفسها: «وصرنا غريبين يعيشان في المنزل نفسه. ومنذ ذلك الحين، أصبحت أقضي معظم وقتي مع روبرتو وأصدقائه. وقد كنت أنتظر حتى تحين الفرصة فحسب. وكنت مستعدة عند ظهور كارلو.»

وفي صيف عام ٢١٨٤، ناهزت فرانشيسكا الرابعة عشرة من عمرها. وقد أمضت معظم وقتها في ذلك الصيف في التسكع حول الميدان الرئيسي في أورفيتو. وكان ابن عمها روبرتو الأكبر منها سنًّا قد أنهى لتوه دراسته ليصبح مرشدًا سياحيًّا للكاتدرائية الموجودة بالميدان. كانت الكاتدرائية القديمة أكبر مكان لجذب السياح، وقد بُنيت على مراحل بدايةً من القرن الرابع عشر. وكانت الكنيسة تحفة فنية ومعمارية رائعة. وكان يُشاد في كل الأرجاء باللوحات الجصية التي أبدعها الفنان لوكا سينوريلي في مصلى سان بريزيو داخلها باعتبارها خير مثال على الرسومات الخيالية في القرن الخامس عشر الموجودة خارج متحف الفاتيكان.

ولأن يصير أحدهم المرشد الرسمي للكاتدرائية، فهذا يُعتبر إنجازًا كبيرًا ولا سيما في عمر التاسعة عشر. لذا كانت فرانشيسكا فخورة للغاية بروبرتو. وكانت تصحبه في بعض الأوقات في جولاته السياحية، لكن في حال إذا وافقت مسبقًا على ألا تضعه في مواقف محرجة بنكاتها.

وبعد ظهر أحد أيام شهر أغسطس، وبالتحديد بعد الغداء مباشرة، وقفت إحدى السيارات الليموزين البراقة بساحة الكاتدرائية، وطلب السائق من مكتب الإرشاد السياحي مرشدًا سياحيًّا. ولم يكن السيد الموجود بالسيارة قد حجز مسبقًا، وكان روبرتو هو المرشد الوحيد المتاح في تلك الأثناء. كانت فرانشيسكا تراقب الموقف بفضول شديد، إذ رأت رجلًا قصير القامة، ووسيمًا، في أواخر الثلاثينيات من عمره أو أوائل الأربعينيات ينزل من المقعد الخلفي للسيارة، وقدم نفسه لروبرتو. وكان دخول السيارات إلى شمال أورفيتو محظورًا إلا بتصريح خاص على مدار قرابة المائة عام، من ثَم علمت فرانشيسكا أن هذا الرجل بلا جدال شخصٌ غير عادي.

وكما جرت العادة، بدأ روبرتو جولته بالتحدث عن النقوش التي نحتها الفنان لورنزو ميتاني على البوابات الخارجية للكنيسة. ووقفت فرانشيسكا التي لا يزال يتملكها الفضول بعيدًا عنهما تدخن في هدوء، بينما كان ابن عمها روبرتو يشرح المغزى من الرسومات الشيطانية الغريبة عند قاعدة أحد الأعمدة. قال روبرتو وهو يشير إلى مجموعة من الشخصيات التي صورها دانتي في أشعاره: «وهذه إحدى أقدم الصور التي تمثل الجحيم. فقد كانت رؤية أناس القرن الرابع عشر للجحيم تنطوي على تفسير حرفي بحت للإنجيل.»

قاطعته فرانشيسكا على حين غِرة وهي تلقي بسيجارتها على الطريق المعبَّد بالحجارة وتتجه نحو روبرتو والرجل الوسيم الغريب. قائلة: «هاه! إنها أيضًا رؤية ذكورية جدًّا للجحيم. لاحظ هنا أن معظم الشياطين ذوو نهود، ومعظم الخطايا المصورة هي خطايا جنسية. فالرجال لديهم دائمًا معتقد بأنهم خُلقوا كاملين، والنساء هن اللائي علمن إياهم الخطيئة.»

ذُهل الغريب من مظهر هذه المراهقة الهيفاء التي تزفر الدخان من فمها. وعلى الفور لاحظ جمالها الطبيعي، وكان من الواضح أنها غاية في الذكاء. فسأل من تكون؟

أجابه روبرتو المرتبك للغاية بسبب مقاطعتها: «هذه ابنة عمي فرانشيسكا.»

قال الرجل وهو يمد يده: «كارلو بيانكي.» وكانت يده رطبة، ونظرت فرانشيسكا إلى وجهه فتبيَّنت اهتمامه. شعرت بضربات قلبها تدق بشدة. وقالت بخجل: «إذا أصغيت إلى روبرتو، فإن كل ما ستحصل عليه هو جولة رسمية فقط. فهو يهمل الجزء الممتع.»

فقال لها: «وأنت، آنسة ...»

قالت له: «فرانشيسكا.»

فقال لها: «نعم فرانشيسكا، هل لديك جولة من صنعكِ أنتِ؟»

منحته فرانشيسكا أجمل ابتساماتها. وأردفت: «أنا كثيرة الاطلاع. وأعرف عن كل الفنانين الذين ساهموا بفنونهم في هذه الكاتدرائية، ولا سيما الرسام لوكا سينوريلي.» توقفت عن الحديث لحظة. ثم استطردت قائلة: «أتعلم أن مايكل أنجلو قد وفد إلى هنا كي يدرس الصور العارية التي رسمها سينوريلي قبل أن يرسم سقف كنيسة سيستينا؟»

ضحك كارلو بشدة وقال: «لا، لم أكن أعرف.» لقد افتتن بها بالفعل. واستطرد قائلًا: «لكنني أعرف الآن. تعالَي. رافقينا. يمكنكِ أن تضيفي المزيد إلى أقوال ابن عمك روبرتو.»

أُعجبت فرانشيسكا اليافعة بالطريقة التي يرمقها بها. لقد بدا وكأنه يمدحها كما لو كانت لوحة رائعة، أو عقدًا مرصعًا بالجواهر، ولم تفوت عيناه أي شيء وهي تجول بوقاحة في كل أنحاء جسدها. وقد شجعتها ضحكته المريحة في المضي قدمًا. وبمرور الوقت ازدادت تعليقات فرانشيسكا وقاحة وبذاءة.

«أترى تلك الفتاة المسكينة على ظهر الشيطان؟» تساءلت بينما كانوا يتفرسون في العبقرية المذهلة في اللوحة الجصية لسينوريلي بداخل كنيسة سان بيرزيو. وأردفت: «إنها تبدو وكأنها تحتضن الشيطان من الخلف، أليس كذلك؟ أتعلم من هذه الفتاة؟ إن وجهها وجسدها العاري هما صورة عشيقة سينوريلي. وقد كان يستعبدها يومًا تلو الآخر، فسئمت منه وقررت أن تعبث مع دوق أو اثنين أيضًا. وبالفعل استشاط لوكا غضبًا. فثبتها في مكانها. لقد حكم عليها أن تمتطي ظهر الشيطان إلى الأبد.»

وعندما فرغ كارلو من الضحك، سأل فرانشيسكا إن كانت ترى أن العقاب الذي نزل بالمرأة عادلًا. ردت الفتاة ذات الأربعة عشرة ربيعًا قائلة: «بالطبع لا، إنه ليس إلا مثالًا آخر على النزعة الذكورية السائدة في القرن الخامس عشر. فالرجال بمقدورهم ممارسة الجنس مع أي شخص يريدونه ويُطلق عليهم مكتملي الرجولة، لكن إن حاولت امرأة أن تشبع احتياجها ...»

انتهرها روبرتو قائلًا: «فرانشيسكا!» وأردف: «حقًّا. لقد تماديتِ. والدتك سوف تقتلك إن سمعت ما تقولين ...»

فردت عليه: «لا شأن لوالدتي بهذا الآن. أنا أتحدث عن ازدواج المعايير الذي لا يزال قائمًا حتى يومنا هذا. انظر ...»

وكاد كارلو بيانكي ألا يصدق حظه السعيد. كان كارلو مصمم الأزياء الثري الذي ينتمي إلى ميلانو، وذاع صيته دوليًّا وهو في الثلاثينيات من عمره، وما حدث أنه قرر

عشوائيًّا أن يستأجر سيارة لتُقِلَّه إلى روما بدلًا من استخدام القطار السريع كعادته. ولطالما أخبرته أخته مونيكا عن جمال الكاتدرائية الثانية في أورفيتو. لذا قرر في اللحظة الأخيرة أن يعرج عليها. والآن. يا لها من لحظة. كانت الفتاة مثل اللقمة السائغة.

وعندما انتهت الجولة دعا فرانشيسكا للعشاء. ولكن عندما وصلوا إلى مدخل أفخر مطعم في أورفيتو، تراجعت السيدة الصغيرة. تفهَّم كارلو الوضع. فأخذها إلى متجر وابتاع لها ثوبًا جديدًا باهظ الثمن مع الحذاء والحلي المناسبين له. شُدِهَ كارلو من شدة جمالها. رغم أنها في سن الرابعة عشرة فحسب!

لم تحتسِ فرانشيسكا خمرًا جيدة مثل هذه قط. لقد كانت ترتشفها كما لو كانت ترتشف الماء. وكانت كل الأطباق شهية حتى إنها كانت تصرخ من لذة الطعام. افتتن كارلو بفتاته الصغيرة. وقد أُعجب بطريقتها في جعل السيجارة تتدلى من زاوية شفتيها. لقد كانت بريئة للغاية، وخرقاء تمامًا.

عندما انتهى العشاء كان الظلام قد حل. سارت فرانشيسكا معه للعودة إلى الليموزين التي تقف أمام الكاتدرائية. وبينما كانا يسيران في درب ضيق، مالت فرانشيسكا عليه وعضت أذنيه بطريقةٍ لعوب. فجذبها نحوه بطريقة تلقائية وكُوفئ بقبلة ساخنة. وكانت الإثارة قد غمرته وتمكنت منه.

شعرت فرانشيسكا بهذا أيضًا. ولم تتردد لحظة عندما اقترح كارلو أن يذهبا في جولة بالسيارة. وعندما وصلت الليموزين ضواحي أورفيتو، جلست على فخذيه بالمقعد الخلفي. وبعد مرور ثلاثين دقيقة كانا قد مارسا الجنس مرتين، ولم يستطع كارلو أن يحتمل فكرة مفارقة هذه الفتاة الرائعة. فسألها إن كانت تود أن ترافقه إلى روما.

ردت بابتسامة: «هيا بنا.»

أخذت فرانشيسكا تتذكر: «وذهبنا إلى روما ومنها إلى كابري. وقضينا أسبوعًا في باريس. وفي ميلانو جعلني أمكث عند مونيكا ولويدجي. ليحافظ بذلك على المظهر العام. لطالما يقلق الرجال بشأن المظهر العام.»

انقطع سيل ذكرياتها الطويلة عندما ظنت أنها قد سمعت وقع أقدام آتية من بعيد. فوقفت بحذر بالغ في الظلام وأنصتت. وقد كان عسيرًا عليها أن تسمع صوتًا أعلى من صوت أنفاسها. وعندئذٍ سمعت الصوت مجددًا وقد كان قادمًا من ناحية اليسار. وقد استطاعت أذنها أن تميز أن الصوت لشيء يمشي على الجليد. وقد غمرها الخوف بوابل من

الصور لكائنات غريبة تهاجم مخيمهم قادمة من ناحية الجليد. أنصتت بعناية شديدة مرة أخرى، ولم تسمع شيئًا.

استدارت فرانشيسكا صوب المخيم. وقالت لنفسها: «لقد أحببتك يا كارلو. إذا كنت قد أحببت أي رجل قط. فقد أحببتك أنت، حتى بعدما بدأت تجعل أصحابك يشاركونك جسدي.» وقد طفا على السطح ألم مطمور منذ فترة طويلة لكن فرانشيسكا كبحته بغضب. وقالت: «حتى بدأت تضربني. هذا دمر كل شيء. لقد أثبت أنك وغد حقيقي.»

وعن عمد نحَّت فرانشيسكا كل ذكرياتها جانبًا. وأخذت تحدث نفسها عندما وصلت إلى الكوخ. قائلة: «أين كنا الآن؟ آه نعم. كنا نناقش مشكلة نيكول دي جاردان. ما حجم المعلومات الذي تعرفه بحق؟ وماذا نحن فاعلون إزاء ذلك؟»

الفصل الثاني والثلاثون

مستكشف نيويورك

استيقظ دكتور تاكاجيشي من سباته العميق على صوت منبه ساعة يده الصغير جدًّا. ظل مرتبكًا لبضع ثوانٍ لا يدري أين هو. فجلس على فراشه ثم فرك عينيه. وأخيرًا تذكر أنه داخل راما، وأنه قد ضبط هذا المنبه كي يوقظه بعد خمس ساعات من النوم.

ارتدى ملابسه في الظلام. وعندما انتهى التقط حقيبة كبيرة ثم تحسسها من الداخل لبضع ثوانٍ. وعندما شعر بالرضا عن محتويات الحقيبة وضع حزام الحقيبة على كتفه واتجه صوب باب كوخه. وحدق دكتور تاكاجيشي فيما حوله بحذر. لكنه لم يرَ أي ضوء منبعث من أيٍّ من الأكواخ الأخرى. أخذ نفسًا عميقًا ثم مشى على أطراف أصابعه خارجًا من الباب.

غادر الخبير العالمي البارز المتخصص في راما المخيم متجهًا صوب البحر الأسطواني. وعندما وصل إلى الشاطئ انحدر بتؤدة نحو السطح المتجمد على الدرجات المحفورة في الجرف الذي يبلغ ارتفاعه خمسين مترًا. جلس تاكاجيشي على درجة السلم السفلى التي تحجبها قاعدة الجرف. وأخرج بعض حافظات النعل الخاصة من حقيبته ولصقها في نعل حذائه. وقبل أن يمشي العالم على الجليد ضبط جهاز الملاح الشخصي ليتسنى له الاحتفاظ باتجاه ثابت متى غادر الشاطئ.

عندما أصبح على بعد ما يقرب من مائتَي متر من الشاطئ، وضع يده في جيبه كي يخرج شاشة جهاز رصد حالة الطقس المحمولة. سقطت الشاشة على الجليد محدثة صوت طقطقة ضعيفًا في هذه الليلة الهادئة. وبعد ثوانٍ قليلة التقطها. وقد أخبرته الشاشة أن درجة الحرارة درجتان مئويتان تحت الصفر، وأن ثمة رياحًا خفيفة تهب عبر الجليد بسرعة ثمانية كيلومترات في الساعة.

أخذ تاكاجيشي نفسًا عميقًا وذُهل عندما شم رائحة غريبة وإن كانت مألوفة في الوقت نفسه. ومن شدة حيرته، استنشق الهواء مجددًا، معيرًا انتباهه هذه المرة للرائحة. لا يمكن أن يختلط الأمر على المرء في هذه الرائحة، لقد كانت رائحة سجائر! وبسرعة أطفأ كشافه الضوئي ووقف بلا حراك على الجليد. بدأ ذهنه يعمل بسرعة وبكل طاقته بحثًا عن تفسير. فرانشيسكا ساباتيني هي الرائدة الوحيدة التي تدخن. هل تبعته بطريقة ما عندما غادر المخيم؟ هل شاهدت ضوء كشافه عندما تفقد شاشة جهاز رصد حالة الطقس؟

أنصت تاكاجيشي ليسمع أي صوت، لكنه لم يسمع شيئًا في ليل راما. ظل ينتظر. وعندما تلاشت رائحة السجائر بعد بضع دقائق، واصل دكتور تاكاجيشي رحلته المضنية عبر الجليد متوقفًا كل أربع خطوات أو خمس حتى يتأكد من أن أحدًا لا يقتفي أثره. وفي آخر الأمر أقنع نفسه أن فرانشيسكا لا تلاحقه. بيد أن تاكاجيشي الحذر لم يضئ مصباحه ثانية إلا بعدما سار مسافة تتجاوز الكيلومتر، وأصبح قلقًا من أنه ربما يكون قد انحرف عن مساره.

وقد استغرق الأمر منه خمسًا وأربعين دقيقة حتى يصل إلى الضفة المقابلة للبحر وإلى مدينة الجزيرة نيويورك. وعندما ابتعد العالم الياباني مائة متر عن الشاطئ، أخرج مصباحًا أكبر من حقيبته وأضاء شعاعه القوي. اقشعر بدنه عندما شاهد الظلال المخيفة لناطحات السحاب. أخيرًا وصل إلى هناك! وأخيرًا سوف يستطيع أن ينشد الإجابة على الأسئلة التي طالما حيرته طوال عمره دون التقيد بجدول أعمال تعسفي خاص بشخص ما.

كان دكتور تاكاجيشي يعرف بالضبط المكان الذي يريد أن يذهب إليه في نيويورك. وانقسم كل قسم من الأقسام المستديرة الثلاثة لمدينة راما إلى ثلاثة أجزاء فرعية ذات زوايا وكأنها شطيرة مقسمة إلى شرائح. ويوجد في مركز كل قسم من الأقسام الثلاثة الرئيسية مكان مركزي أو ميدان تتراصُّ حوله باقي المباني والشوارع. وعندما كان تاكاجيشي لا يزال صبيًّا في كيوتو، وبعدما قرأ كل ما طالته يداه عن بعثة راما ١ كان يسأل نفسه عن شعور المرء عندما يقف وسط أحد هذه الميادين الغريبة ويحدق لأعلى في المباني التي شيدتها كائنات من نجم آخر.

شعر تاكاجيشي بيقين بأنه بدراسة نيويورك لا يمكن فهم أسرار راما فحسب، بل شعر أيضًا أنها على الأرجح تحوي ساحاتها الثلاثة مفاتيح لفهم الأهداف الغامضة لتلك المركبة التي تدور بين النجوم.

لقد كانت خارطة نيويورك التي رسمها مكتشفو مركبة راما ١ محفورة في ذهن تاكاجيشي تمامًا مثل خارطة كيوتو التي وُلد وترعرع فيها. لكن البعثة الأولى لم تحظَ بمتسَع من الوقت حتى يتسنى لها مسح نيويورك. فمن بين الوحدات الوظيفية التسعة، لم تُعمل خرائط تفصيلية إلا لوحدة واحدة فحسب، فالرواد الأوائل افترضوا ببساطة، بناءً على عدد من الملاحظات المحدودة، أن باقي الوحدات الأخرى تتطابق معها.

وبينما حملته خطوته الخفيفة إلى أغوار السكون المنذر بالسوء لأحد أجزاء المنطقة المركزية، بدأت تظهر بعض الفروق الدقيقة بين هذا الجزء بعينه من راما وبين الجزء الذي درسه طاقم نورتون (فقد مسحوا جزءًا متاخمًا). فتصميم الشوارع الرئيسية في الوحدتين كان متطابقًا؛ بيد أنه عندما اقترب دكتور تاكاجيشي من الميدان وجد أن تصميم الشوارع الصغيرة يختلف اختلافًا طفيفًا عن ذلك الذي أورده المكتشفون الأوائل. وقد أرغمته شخصية العالم التي بداخله على التوقف بين الفينة والفينة وتدوين كافة الاختلافات على كمبيوتر الجيب.

ثم دخل إلى المنطقة التي تحيط بالميدان مباشرة حيث تمتد الشوارع في دوائر متحدة المركز. وقد قطع ثلاثة طرق ووجد نفسه يقف قبالة مبنًى ثُماني الأسطح ضخم يبلغ ارتفاعه نحو مائة متر وذي واجهة مكسوَّة بالمرايا. انعكس شعاع كشافه القوي على سطحه ثم صار ينتقل حوله من مبنًى إلى آخر. سار دكتور تاكاجيشي بتؤدة حول المبنى الضخم بحثًا عن مدخل لكنه لم يعثر على شيء.

وفي الجهة المقابلة للبناية ذات الأوجه الثمانية، وفي وسط الميدان، كان هناك مساحة واسعة مستديرة خالية من المباني المرتفعة. تعمَّد تاكاجيشي أن يدور حول محيط الدائرة بأكمله، متفحصًا المباني المحيطة أثناء سيره. ولم يتسنَّ له تكوين أي أفكار جديدة حول الغرض من إنشاء هذه البنايات. وعندما كان يستدير إلى الداخل على مسافات منتظمة كي يمسح منطقة الميدان نفسها، لم يرَ أي شيء مثير للدهشة أو جدير بالملاحظة. بيد أنه أدخل إلى جهاز الكمبيوتر الخاص به موقع العديد من الصناديق المعدنية القصيرة التي يصعب على المرء وصفها والتي تقسم الميدان إلى أجزاء.

وعندما أصبح مرة أخرى قبالة المبنى ذي الأوجه الثمانية، أخرج من حقيبته شريحة رفيعة سداسية الأسطح مغطاة على نحو مكثف بالأجهزة الإلكترونية. وضع الجهاز العلمي في الميدان على بعد ثلاثة أمتار أو أربعة من المبنى الثماني الأوجه، ثم أمضى عشر دقائق يتحقق فيها من أن كل الأدوات العلمية تعمل كما ينبغي باستخدام جهاز الإرسال

والاستقبال. وعندما انتهى العالم الياباني من فحص المعدات، ترك في عجالةٍ منطقة الميدان ثم سار باتجاه البحر الأسطواني.

كان تاكاجيشي في منتصف الطريق الثاني متحد المركز عندما ترامى إلى سمعه صوت فرقعة مدوٍّ لم يستمر طويلًا قادم من خلفه من الميدان. تلفت حوله دون أن يتحرك. وبعد بضع ثوانٍ قلائل أخرى سمع صوتًا مختلفًا. كان هذا الصوت الأخير هو نفس ذلك الصوت الذي سمعه تاكاجيشي في الرحلة الأولى؛ صوت احتكاك فرش معدنية مدمجًا بصوت غناء عالي التردد. أضاء تاكاجيشي كشافه في اتجاه الميدان. فتوقف الصوت. أطفأ الكشاف ووقف بهدوء في منتصف الطريق.

بعد مرور بضع دقائق عاد صوت احتكاك الفرش مرة أخرى. تحرك تاكاجيشي خلسةً عبر الطريقين وسار حول المبنى الثماني الأوجه باتجاه الضوضاء. وعندما أوشك على بلوغ الميدان قطع تركيزَه صوتُ إنذار صدر من حقيبته. أطفأ تاكاجيشي الإنذار الذي كان يشير إلى أن الأجهزة العلمية التي كان لتوه قد وضعها في الميدان تعطلت عن العمل، وعمَّ نيويورك صمتٌ رهيب. مرة أخرى انتظر دكتور تاكاجيشي، لكن الصوت لم يتكرر هذه المرة.

أخذ تاكاجيشي نفسًا عميقًا كي يهدئ من روعه واستجمع شجاعته. وبطريقةٍ ما تغلب فضوله على خوفه ورجع إلى الميدان المقابل للمجسم الثماني الأسطح ليستطلع ما قد حدث لمعداته العلمية. وكانت أولى المفاجآت هي أن مجموعة أجهزته السداسية الأسطح قد اختفت من البقعة التي تركها فيها. أين ذهبت؟ مَن أو ما الشيء الذي يمكن أن يأخذها؟

أيقن تاكاجيشي أنه مشرف على اكتشاف علمي بالغ الأهمية. وقد كان مرتاعًا أيضًا. وكان يحارب رغبة عارمة داخله تحثه على أن يولي الأدبار، فسلط ضوء مصباحه الكبير في كل أنحاء الميدان أملًا في إيجاد تعليل لاختفاء محطة الرصد العلمية الخاصة به. عكس شعاع ضوء مصباحه وجود قطعة معدن صغيرة على بعد مسافة تتراوح بين ثلاثين وأربعين مترًا بالقرب من وسط الميدان. علم تاكاجيشي على الفور أن الانعكاس يأتي من مجموعة معداته. فأسرع باتجاهها.

انحنى على ركبتيه وتفحص الأجهزة الإلكترونية. لم يكن هناك تلف واضح. أخرج جهاز الاستقبال والإرسال الذي بحوزته حتى يبدأ في عملية فحص نظامية لكافة الأدوات العلمية، وعندئذٍ لاحظ شيئًا يشبه الحبل ويبلغ قطره نحو خمسة عشر سنتيمترًا عند حافة شعاع الضوء الخارج من مصباحه الذي يضيء نطاق مجموعة الأجهزة العلمية.

التقط دكتور تاكاجيشي مصباحه واتجه نحو هذا الشيء. لقد كان مخططًا باللونين الأسود والذهبي وممتدًا لمسافة اثني عشر مترًا أو نحو ذلك، ومختفيًا وراء كوخ معدني غريب يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار. تحسس تاكاجيشي الحبل السميك. لقد كان أملس وعلى أعلاه زغب. وعندما حاول أن يقلبه ليتحسس أسفله بدأ الشيء يتحرك. فألقاه تاكاجيشي على الفور وشاهده وهو يزحف كالحية ببطء بعيدًا عنه متجهًا نحو الكوخ. كانت حركته مصحوبة بصوت احتكاك فرش بسطح معدني.

وكان دكتور تاكاجيشي يسمع صوت خفقان قلبه. ومرة أخرى قاوَم الفكرة التي تحضه على الفكاك. لقد تذكر تأملاته وقت الفجر عندما كان طالبًا في الكلية في حديقة معلمه الذي كان يلقنه تعاليم مذهب زن البوذي. لم يخف. وأمر قدميه أن تمشيا باتجاه الكوخ.

اختفى الحبل المخطط باللونين الأسود والذهبي. وعمَّ الصمت في الميدان. اقترب تاكاجيشي من الكوخ مسلطًا ضوء مصباحه على الأرض عند آخر بقعة شُوهد عندها الحبل السميك. سار نحو الركن وسلط الضوء على الكوخ. ولم تُصدق عيناه ما رأته. كان قد رأى كتلة من المجسَّات الملونة باللونين الأسود والذهبي تتلوى تحت أشعة الضوء.

وفجأةً انفجر في أذنيه طنينٌ عالي التردد. تراجع دكتور تاكاجيشي وصُعق مما رأى. وجحظت عيناه. ولم يقوَ على الصراخ عندما اشتدت الضوضاء واقتربت ثلاثة من المجسات لتلمسه. انخلع فؤاده، وعندما سقط فريسة بين قبضة المخلوق الغريب كان قد مات بالفعل.

الفصل الثالث والثلاثون

شخص مفقود

«أيها الفريق البحري هيلمان؟»

«نعم، جنرال أوتول.»

«هل أنت بمفردك؟»

أجاب هيلمان: «بالطبع، لقد استيقظت منذ دقائق قلائل. اجتماعي مع دكتور براون بعد ساعة. لماذا تتصل بي في مثل هذا الوقت المبكر؟»

قال أوتول: «لقد تسلمت وأنت نائم رسالة سرية للغاية مشفرة من مقر القيادة العسكرية بمجلس الحكومات. إنها بشأن الثالوث. إنهم يريدون تقريرًا بالوضع الحالي.»

فقال هيلمان: «ماذا تعني يا جنرال؟»

سأل أوتول: «هل هذا الخط آمن أيها الفريق البحري؟ هل أطفأت المسجل الآلي؟»

أجابه: «سأفعل الآن.»

قال أوتول: «لقد سألوا سؤالين. هل مات بورزوف دون أن يخبر أحدًا بشفرة «آر كيو» الخاصة به؟ هل علم أي شخص آخر من أفراد الطاقم بشأن الثالوث؟»

أجاب هيلمان: «أنت تعرف الإجابة على كلا السؤالين.»

قال أوتول: «أردت أن أتحقق فحسب من أنك لم تخبر دكتور براون. لقد أصروا أن أتحقق منك أولًا قبل أن أشفر إجابتي. ما رأيك في كل هذا؟»

قال هيلمان: «لا أعرف يا مايكل. لعل أحدهم على كوكب الأرض صار مستاءً. فربما أرعبهم موت ويلسون.»

قال أوتول: «وأرعبني أنا أيضًا، بلا ريب. لكن ليس بالدرجة التي تجعلني أفكر في الثالوث. إنني أتساءل هل عرفوا شيئًا لم نعرفه نحن؟»

رد هيلمان: «حسنًا، أظن أننا سوف نكتشف ذلك سريعًا بما يكفي. مسئولو وكالة الفضاء كافةً لا يزالون مُصرين على أننا ينبغي أن نُخْلي راما عند أول فرصة. إنهم حتى لا يرحبون بقرارنا بشأن منح أفراد الطاقم راحةً بضع ساعات. لا أعتقد أنهم سوف يعدلون عن رأيهم هذه المرة.»

قال أوتول: «هل تتذكر أيها الفريق البحري تلك المناقشة القائمة على الافتراضات التي أجريناها مع الجنرال بورزوف في أثناء الرحلة، حول الظروف التي بموجبها سوف نفعِّل الثالوث؟»

أجابه: «أتذكرها بصعوبة. لكن لمَ تسأل؟»

رد قائلًا: «ألا تزال تختلف معه بشأن إصراره على معرفة لماذا اقتضى الأمر اللجوء إلى الثالوث؟ لقد ذكرت في تلك الأثناء أنه إذا شعر طاقم المراقبة بالأرض أن ثمة خطرًا جسيمًا وشيك الحدوث، فإنك شخصيًّا لست في حاجة لأن تفهم الداعي إلى ذلك.»

«عذرًا يا جنرال، أنا لا أستطيع متابعة حديثك. لمَ تسألني هذه الأسئلة؟»

«أود أن تسمح لي يا أوتو هيلمان بأن أبعث مع الإجابة التي سأشفرها إلى القيادة العسكرية بمجلس الحكومات استفسارًا عن سبب سؤالهم عن الثالوث في هذا الوقت بالتحديد. فإن كنا في خطر فلنا الحق أن نعرف ذلك.»

«يمكنك أن تستفسر عما تريد يا مايكل، لكنني متيقن أن سؤالهم هذا ليس إلا عملًا روتينيًّا.»

استيقظ جانوس تابوري والظلام لا يزال يكتنف راما. وقد أعد في ذهنه وهو يرتدي بذلة الطيران قائمةً بالمهام المطلوبة لنقل السرطان الآلي إلى مركبة نيوتن. فإذا تأكد أمر الرحيل عن راما، فسيرحلون بعد طلوع الفجر مباشرة. راجع جانوس إجراءات الإخلاء الرسمية المخزنة على كمبيوتر الجيب ثم حدَّثها عن طريق إضافة المهام الجديدة المتعلقة بالسرطان.

نظر إلى ساعة يده. وأدرك أنه لم يتبقَّ سوى خمس عشرة دقيقة على طلوع الفجر، مفترضًا بالطبع أن الطور النهاري لراما منتظم. ضحك جانوس في نفسه. فقد فاجأتهم راما بالكثير حقًّا؛ لذا لم يكن رجوع الضوء في ميعاده أمرًا مؤكدًا. ولكن إذا حدث وبزغ الضوء في ميعاده، فإن جانوس أراد عندئذٍ مشاهدة «شروق الشمس» في راما. وسوف يتناول إفطاره بعد الفجر.

وعلى بعد مائة متر من كوخه كان السرطان الآلي المحبوس في القفص يقف بلا حراك، كما كان منذ أن عُزل عن رفقائه في اليوم السابق. سلط جانوس مصباحه على القفص المحكم الشفاف وتفحص ما إذا كانت هناك أي أمارات تشير إلى أن السرطان قد تحرك في غضون الليل. وبعدما تحقق من أن السرطان لم يغير وضعه، سار بعيدًا عن مخيم بيتا باتجاه البحر.

وبينما كان ينتظر بزوغ الضوء، وجد نفسه يفكر بشأن نهاية الحوار الذي دار بينه وبين نيكول الليلة الماضية. ثَمة شيء يدعو للقلق بشأن اكتشافها الارتجالي عن السبب المحتمل للألم الذي أصاب الجنرال بورزوف في الليلة التي لقي فيها حتفه. تذكر جانوس جيدًا أن الزائدة الدودية كانت سليمة تمامًا؛ قطعًا كان التشخيص المبدئي خاطئًا. لكن لماذا لم تصرح له نيكول بأمر التشخيص الدوائي البديل؟ ولا سيما إذا كانت تُجري تحقيقًا في هذه القضية ...

خلص جانوس في النهاية إلى الاستنتاج الذي لا مفر منه، ألا وهو أن الدكتورة نيكول إما أنها قد فقدت الثقة بقدراته، وإما أنها بطريقةٍ ما خامرها شك في أنه هو نفسه من دس الدواء للجنرال بورزوف دون الرجوع إليها. فكَّر جانوس أنه مهما كان الأمر فعليه معرفةُ فيمَ كانت تفكر. وبعدها خطرت بباله فكرةٌ غريبة نبعت من إحساسه بالذنب. تأمل الفكرة قائلًا في سره: «أليس من المحتمل أن تكون نيكول قد علمت بطريقة ما بشأن مشروع شميت وهاجينست وارتابت في أربعتهم؟»

وللمرة الأولى تساءل جانوس في نفسه إذا كان من المحتمل أن يكون الألم الذي حل بفاليري بورزوف لم يكن ألمًا طبيعيًّا. وتذكر الاجتماع الفوضوي الذي عقده أربعتهم بعد ساعتين من معرفة ديفيد براون أنه سوف يُترك على متن نيوتن في غضون الرحلة الأولى. وكان ديفيد براون المحبط يقول للفريق البحري هيلمان: «يجب عليك أن تتحدث إليه يا أوتو. يجب أن تقنعه بأن يَعدِل عن رأيه.»

عندئذٍ أقر أوتو هيلمان أنه من المستبعَد أن يغيِّر الجنرال بورزوف المهام الموزَّعة على العاملين بناءً على طلبه. رد دكتور براون بسخط: «في تلك الحالة، لن نرى الحوافز المنصوص عليها في العقد مطلقًا.»

ظلت فرانشيسكا ساباتيني صامتةً طوال الاجتماع، وبدا أنها لا تعبأ بالأمر. وبينما كان جانوس يهم بالرحيل سمع مصادفةً دكتور براون يوبخها. كان يقول لها: «ولمَ أنت هادئة هكذا؟ لن تكون خسارتك أقل من خسارتنا جميعًا. ألديك خطة أخرى لست على دراية بها؟»

لمح جانوس فرانشيسكا تبتسم ابتسامةً خاطفة لم تستغرق سوى جزء من الثانية. لكنه قال لنفسه حينذاك إنها تبدو واثقة بصورة غريبة. والآن وبينما رائد الفضاء تابوري ينتظر بزوغ الضوء في راما عاودت هذه الابتسامة لتطارده. فمع دراية فرانشيسكا الكبيرة بالأدوية، من المرجَّح جدًّا أن يكون بمقدورها أن تعطي الجنرال بورزوف شيئًا يسبب لازمة أعراض الزائدة الدودية. لكن هل تُراها فعلت مثل هذا الشيء ... بمنتهى الخداع السافر فقط حتى تعزز من قيمة المشروع الإعلامي الذي سيعقب البعثة؟

وفي تلك اللحظة غمر الضوء راما مجددًا. وكالمعتاد كان المشهد ممتعًا للنظر. التفت جانوس حوله بتؤدة، محدقًا في كل الأرجاء ومنعمًا النظر في تجويفَي البناية الضخمة. والآن والأضواء ساطعة، عزم جانوس على أن يتحدث إلى فرانشيسكا عندما تتاح له أول فرصة.

كان من الغريب أن إيرينا تورجينيف هي التي سألت ذاك السؤال. وكان الرواد قد انتهَوا من إفطارهم تقريبًا. وفي الحقيقة، كان دكتور براون والفريق البحري هيلمان قد غادرا الطاولة كي يجريا مؤتمرًا هاتفيًّا ممتدًّا مع إدارة وكالة الفضاء. سألت إيرينا بعفوية: «أين دكتور تاكاجيشي؟» وأردفت: «فهو آخر فرد من أفراد الطاقم أتوقع أن يتأخر مهما كان السبب.»

أجابها جانوس تابوري وهو يدفع مقعده القابل للطي بعيدًا عن الطاولة: «حتمًا، غلبه النوم حتى إنه لم يشعر بصوت المنبه.» وأردف: «سأذهب لأطمئن عليه.»

عاد جانوس بعد دقيقة مرتبكًا. وقال وهو يهز كتفيه: «ليس موجودًا. أعتقد أنه ذهب للتنزه سيرًا على قدميه.»

على الفور ارتعدت نيكول دي جاردان. وهبَّت من مكانها قبل أن تنتهي من تناول إفطارها. وقالت وهي لا تستطيع أن تداري مخاوفها: «علينا أن نذهب ونبحث عنه؛ وإلا فلن يكون مستعدًّا عندما نهمُّ بالرحيل.»

لاحظ الرواد الآخرون كافةً اضطراب نيكول. فقال ويكفيلد بعدم اكتراث: «ما الذي يحدث هنا؟» وتابع حديثه: «أليس الأمر ببساطةٍ أن أحد علمائنا ذهب للتنزه سيرًا على قدميه بمفرده في الصباح، وطبيبة الطاقم هلعت لذلك؟» ثم أدار ويكفيلد جهاز الإرسال والاستقبال خاصته وقال: «مرحبًا دكتور تاكاجيشي أينما كنت. معك ويكفيلد. من فضلك أخبرنا أنك بخير تمامًا حتى يمكننا أن نكمل تناول إفطارنا.»

ساد صمت طويل. فقد كان يعرف كل أفراد الطاقم أن حمل جهاز الاتصال أمرٌ إجباري لا خيار فيه مطلقًا. فيمكن للفرد أن يختار إطفاء خاصية الإرسال، لكن عليه أن يبقي خاصية الاستقبال تعمل تحت أي ظرف من الظروف وفي كل الأحوال.

قالت نيكول بعد ذلك عبر جهاز الاتصال بنبرة مُلحة: «تاكاجيشي-سان.» ثم تساءلت: «هل أنت بخير؟ من فضلك أجبني.» وفي غضون فترة الصمت الممتد تفاقم اضطرابها. فثَمة مكروه ألمَّ بصديقها.

قال ديفيد براون في سخط: «لقد شرحت لك ذلك مرتين يا دكتور ماكسويل. إن رحيل جزء من الطاقم غير منطقي بالمرة. فأفضل الطرق للبحث عن دكتور تاكاجيشي هي استخدام الطاقم بأكمله. وما إن نعثر عليه حتى نُخلي راما بأقصى سرعة. وللإجابة عن سؤالك الأخير؛ لا، هذه ليست خدعة من جانب الطاقم كي يتجنب الإذعان لأمر الإخلاء.»

ثم التفت إلى الفريق البحري هيلمان وأعطاه الميكروفون. ودمدم قائلًا: «اللعنة، تحدث أنت يا أوتو مع هذا البيروقراطي الأخرق. إنه يعتقد أنه بمقدوره أن يقود هذه البعثة أفضل منا، حتى وإن كان كذلك، فهو بعيد عنا بمائة مليون كيلومتر.»

«دكتور ماكسويل، معك الفريق البحري هيلمان. أنا أتفق تمامًا مع دكتور براون. على أي حال، لا يمكننا أن نُسهب في النقاش في ظل تأخرنا هذا. سوف ننفذ خطتنا. سيَمكث الرائد تابوري معي هنا في مخيم بيتا، وسوف نحزم كل المعدات الثقيلة بما فيها الكائن الآلي. وسوف أنظم عملية البحث بنفسي. وسيعبر براون وفرانشيسكا ونيكول الجليد إلى نيويورك، أكثر الأماكن المرجح أن يذهب إليها البروفيسور، إذا كان قد ذهب بإرادته. وسيبحث عنه ويكفيلد وتورجينيف وياماناكا باستخدام الطائرتين الهليكوبتر.»

توقف عن الحديث لحظة. ثم استرسل: «وأنت لست في حاجة لأن تتعجل الإجابة عن هذه الرسالة. فالبحث سيكون قد بدأ بالفعل قبل أن تصل رسالتك التالية.»

وهناك في كوخها كانت نيكول تحزم معداتها الطبية بعناية. وقد عنَّفت نفسها على أنها لم تضع في حسبانها أن تاكاجيشي قد يحاول أن يزور نيويورك مرة أخيرة. قالت نيكول في نفسها: «ها قد اقترفتِ خطأً آخر. وأقل ما يمكن أن تفعليه هو أن تتأكدي من أنكِ مستعدة عندما تعثرين عليه.»

كانت تحفظ عن ظهرِ قلبٍ إجراءاتِ حزم الأمتعة الشخصية. لكنها مع ذلك قد أخذت أقل القليل من المؤن الخاصة بها من طعام وماء حتى تضمن أنها أخذت كل ما قد

يحتاج إليه تاكاجيشي الذي قد يكون جريحًا أو مريضًا. وانتاب نيكول مشاعر مختلطة بشأن رفيقيها العالم الياباني في عملية البحث عنه، لكن لم يخطر ببالها قط أن خروجهم في مجموعة واحدة قد يكون مخططًا له عن عمد. وكان الجميع يعلم عن افتتان تاكاجيشي بنيويورك. وفي ظل الظروف الراهنة لم يكن غريبًا أن يرافقها براون وفرانشيسكا إلى منطقة البحث الأساسية.

وقبل أن تغادر نيكول الكوخ مباشرة، رأت ريتشارد ويكفيلد عند بابها. استأذن ويكفيلد: «هل لي أن أدخل؟»

أجابته: «بالطبع.»

سار بريبة غير معهودة كما لو كان مرتبكًا أو يشعر بالخجل. «ما الأمر؟» هكذا سألته نيكول بعد برهة من الصمت المحرج.

ابتسم. وقال بارتباك: «حسنًا، لقد جالت بخاطري منذ بضع دقائق فكرةٌ تبدو جيدة. والآن تتملكني هذه الفكرة بقوة كما لو كنت أحمق – ربما تكون فكرة طفولية.» لاحظت نيكول أنه ممسك بشيء ما في يده اليمنى. تابع ويكفيلد: «لقد أحضرت لك شيئًا ما. أعتقد أنها قد تكون تميمة للحظ السعيد. رأيت أنك ربما تصطحبينها معك إلى نيويورك.»

كشف الرائد ويكفيلد عما في يديه. أدركت نيكول أنه تمثال الأمير هال. استأنف ويكفيلد حديثه: «يمكنك أن تقولي ما تشائين عن البسالة والفطنة وما إلى ذلك، لكن في بعض الأحيان يتطلب الأمر قليلًا من الحظ.»

تأثرت نيكول في أعماقها بهذا الصنيع على نحو غير متوقع. وأخذت التمثال الصغير من ويكفيلد وأنعمت النظر بإعجاب في تفاصيله المعقدة. وسألته بابتسامة عذبة: «هل الأمير يتمتع ببعض الخصال الخاصة التي ينبغي أن أعرفها عنه؟»

انفرجت أسارير ريتشارد وأجابها: «بلى. إنه يهوى قضاء بعض الأمسيات الطيبة في الحانات مع الفرسان السمان وغيرهم من الشخصيات البذيئة. أو الدوقات الخونة في المعارك، أو بعض الإيرلات، أو أميرة فرنسية جميلة.»

احمرت وجنتا نيكول قليلًا. وسألت: «إذا كنت وحدي ووددت أن يسليني الأمير، فماذا أفعل؟»

دنا ريتشارد من نيكول وأراها لوحة مفاتيح دقيقة للغاية فوق ردف الأمير هال مباشرة. وقال ريتشارد وهو يعطيها عصًا صغيرة جدًّا في حجم الدبوس: «سوف ينفذ

الكثير من الأوامر. فجرِّبي أن تضغطي على حرف «ك» للكلام أو حرف «ت» للتشغيل، إن أردت أن يريكِ الأشياء التي يقوم بها.»

وضعت نيكول الأمير الصغير والعصا في جيب بذلة الطيران. وقالت: «أشكرك يا ريتشارد. هذا لطيف للغاية.»

ارتبك ريتشارد. وقال: «حسنًا، أتعلمين، هذا ليس بالأمر المهم. كل ما هنالك أنه قد انهال علينا فيض من الحظ العاثر، وأنا أعتقد، أقصد أنه قد ...»

قاطعته نيكول قائلة: «أشكرك يا ريتشارد مرة أخرى. أقدر اهتمامك.» ثم خرجا معًا من كوخها.

الفصل الرابع والثلاثون

رفقاء غريبو الأطوار

كان دكتور ديفيد براون عالمًا نظريًّا، من ذلك النوع من العلماء الذي لا يفضل الآلات ولا يثق بها. دارت معظم أبحاثه المنشورة عن مواضيع نظرية لأنه مقت شكلية العلم التجريبي وتفاصيله. فقد كان على العلماء التجريبيين التعامل مع تطوير واستخدام آلات دقيقة للقياس والتحليل والتحكم، بل الأشد من ذلك، التعامل مع المهندسين. وكان دكتور براون ينظر إلى كل المهندسين على أنهم ليسوا أكثر من نجارين وسباكين مبجَّلين أكثر من اللازم. والسبب الوحيد لتحمله وجودهم هو أن بعضهم سيكون ضروريًّا إذا جرى إثبات نظرياته عن طريق البيانات العملية.

وعندما سألت نيكول دكتور براون بتلقائيةٍ بعض الأسئلة البسيطة عن آلية عمل ناقل الطوارئ، لم تستطع فرانشيسكا أن تمنع نفسها من إطلاق ضحكة صاخبة. وردَّت الصحفية الإيطالية: «ليس لديه أدنى فكرة على الإطلاق، وهو لا يعبأ بهذا. أتصدقين أن هذا الرجل لا يعرف حتى كيف يقود عربة كهربائية؟ لقد رأيته يحدق أكثر من ثلاثين دقيقة في إنسان آلي يعمل كآلة لإعداد الطعام، محاولًا دون طائل أن يكتشف كيف يستخدمه. ومن شأنه أن يتضور جوعًا إن لم يتدخل أحدهم ليعينه.»

ردت نيكول في حين كانت المرأتان تصعدان إلى المقعد الأمامي في ناقل الطوارئ: «هيا يا فرانشيسكا، فدكتور براون ليس بهذا السوء. في النهاية يمكنه أن يستخدم كل أجهزة الكمبيوتر وأجهزة الاتصالات الخاصة بأفراد الطاقم، بالإضافة إلى نظام معالجة الصور على متن نيوتن. لذا أنت حتمًا تُغالين في كلامك.»

كان سير الحديث لطيفًا وبريئًا. جلس دكتور ديفيد براون على المقعد الخلفي وتنفس الصعداء. ثم قال: «بالطبع، أنتما امرأتان بارعتان، ولديكما شيء أكثر أهمية لتتجادلا

حوله. وإن لم يكن لديكما، يمكنكما أن تشرحا لي لماذا رحل عالم ياباني غريب الأطوار من مخيمنا في منتصف الليل.»

أجابته فرانشيسكا: «طبقًا لما ورد عن مساعد ماكسويل، هذا الدنيء الحقير الذي يُدعى ميلز، يعتقد الكثيرون على الأرض أن سكان راما قد خطفوا الدكتور الياباني الفاضل.»

رد عليها: «بربك، يا فرانشيسكا. كوني جادَّة. لماذا قرر دكتور تاكاجيشي أن يتسلل بمفرده؟»

قالت نيكول بهدوء: «علمت أنه ضاق ذرعًا بعملية الاستطلاع المقررة. أنت تعلم مدى إيمانه الشديد بأهمية نيويورك. وبعد حادثة ويلسون ... كان يعلم علم اليقين أنه سيصدر أمر بالإخلاء. وعندما نعود إلى داخل راما مرة أخرى، «إذا عدنا من حال الأصل»، قد يكون البحر الأسطواني قد ذاب، وعندئذٍ سيصبح الوصول إلى نيويورك أكثر صعوبة.»

وكانت أمانة نيكول الفطرية تحثها على إخبار براون وفرانشيسكا بشأن مشكلات القلب التي يعانيها تاكاجيشي. لكن حدسها أخبرها ألا تثق برفيقيها. وعندئذٍ قال دكتور براون: «إنه لا ينتمي إلى ذلك النوع من البشر المتسرعين في تصرفاتهم. لعله قد رأى أو سمع شيئًا ما جذبه إلى هناك.»

قالت فرانشيسكا مقترحة: «لعله أُصيب بصداع أو انتابه أرق لسبب ما. لقد اعتاد ريجي ويلسون أن يجوس ليلًا عندما يُصاب بالصداع.»

انحنى ديفيد براون للأمام وقال لنيكول: «بالمناسبة، لقد أخبرتني فرانشيسكا أنك تعتقدين أن حالة الاضطراب التي أُصيب بها ويلسون قد استفحلت بسبب حبات الصداع التي كان يتناولها. بلا ريب، أنت تعرفين أدويتك. لقد شُدِهت بشدة من مدى السرعة التي تعرفت بها على حبات المنوم التي تجرعتها.»

أضافت فرانشيسكا بعد برهة من الصمت: «بمناسبة التحدث عن الأدوية، لقد ذكر جانوس تابوري شيئًا ما عن الحديث الذي دار بينكما حول موت بورزوف. ولعلي لم أفهمه فهمًا صحيحًا، لكن أظن أنه قال إنك تظنين أن هناك احتمالًا لحدوث تفاعل دوائي.»

وكانوا يجلسون في ناقل الطوارئ الذي يسير بثبات عبر الجليد. وكانت المحادثة تدور بنبرة هادئة، وبدا الحديث حديثًا غير رسمي. ولم يكن هناك سبب واضح لإثارة الشكوك. وقالت نيكول لنفسها في حين كانت تشكل ردود أفعالها طبقًا لتعليقات فرانشيسكا: «غير

أن التعليقين الأخيرين يبدوان تلقائيين للغاية. غالبًا تمرنت على أدائهما من قبل.» والتفتت لتنظر إلى ديفيد براون. كانت تعلم أن فرانشيسكا يمكنها التصنع بلا عناء، لكنها كانت متيقنة من أنها ستستطيع أن تستشفَّ من تعبيرات وجه دكتور براون ما إذا كانا قد تدربا على أسئلتهما تلك أم لا. ووجدته اضطرب قليلًا وهي تنظر إليه دون أن يطرف لها جفن.

أجابت نيكول بهدوء: «لقد دار حديث بيني وبين الرائد تابوري حول الجنرال بورزوف، وبدأنا نتكهن ما الذي يمكن أن يكون قد سبَّب له الألم. فالزائدة كانت سليمة تمامًا، من ثَم حتمًا كان هناك شيء آخر تسبب في الألم الحاد الذي ألمَّ به. وفي سياق حديثنا، ذكرت لجانوس أن ثَمة تفاعلًا دوائيًّا مضادًّا ينبغي أخذه بعين الاعتبار باعتباره أحد الأسباب المحتملة. ولم يكن هذا بيانًا صريحًا جدًّا.»

انفرجت أسارير دكتور براون وعلى الفور غيَّر دفة الحديث. بيد أن إفادة نيكول لم تُرضِ فرانشيسكا. استغرقت نيكول في التفكير لتقول في سرها: «ما لم أكن مخطئة، سيدتنا الصحفية لديها مزيد من الأسئلة. لكنها لن تطرحها الآن.» ثم أخذت تراقب فرانشيسكا، ولاحظت أن السيدة الإيطالية لا تعير انتباهًا لحديث دكتور براون الممل في المقعد الخلفي. فبينما كان يناقش رد فعل الناس على الأرض بشأن مصرع ويلسون، كانت فرانشيسكا مستغرقة في التفكير. وسادت لحظة من الصمت بعدما أنهى تعليقه. حملقت نيكول حولها في الأميال الممتدة من الجليد، والأجراف الرائعة على جوانب البحر الأسطواني، وناطحات سحاب نيويورك أمامها. لقد كانت راما عالَمًا رائعًا بحق. وانتاب نيكول إحساس مؤلم بالذنب بسبب عدم ثقتها في فرانشيسكا ودكتور براون وتحفظها منهما. قالت نيكول لنفسها: «إنه لمن المخزي أن نعجز نحن البشر عن السير في الاتجاه نفسه. حتى وإن كنَّا نواجه اللانهاية.»

فجأةً قطعت فرانشيسكا الصمت قائلة: «لا يمكنني أن أتخيل كيف نجحتِ في هذا.» والتفتت لتتحدث إلى نيكول. فقالت: «حتى بعد كل هذا الوقت، ولا حتى فيديوهات الصحف الصفراء لديها تفسير منطقي. ولا يحتاج الأمر لشخص عبقري ليكتشف متى حدث الأمر.»

لم يكن دكتور براون يتابع الحديث مطلقًا. فتساءل: «عمَّ تتحدثين؟»

أجابت فرانشيسكا: «طبيبتنا الشهيرة.» وأردفت: «ألا ترى أنه من المذهل أنه بعد مرور كل هذا الوقت لا تزال هوية والد ابنتها مجهولة للعامة؟»

أجابتها نيكول على الفور باللغة الإيطالية: «سنيورة فرانشيسكا، كما أخبرتك من قبل أن هذا الموضوع ليس من شأنك. ولن أحتمل هذا النوع من التطفل على شئوني الخاصة ...»

قاطعتها فرانشيسكا في عجالة وباللغة الإيطالية أيضًا: «وددت فقط أن أذكركِ يا نيكول بأن لديكِ بعض الأسرار قد لا ترغبين أن يطلع عليها أحد.»

حدَّق ديفيد براون في المرأتين بذهول. لم يعِ أي كلمة في الحوار الأخير وارتبك من التوتر البيِّن. قالت فرانشيسكا بنبرة متغطرسة: «إذن يا ديفيد، كنت تخبرنا عن الحال على كوكب الأرض. أتعتقد أنه سيصدر أمر برجوعنا إلى الديار؟ أم إننا سوف نوقف هذه الرحلة فقط؟»

أجابها بعد فترة من الارتباك: «لقد دُعي المجلس التنفيذي لمجلس الحكومات لعقد جلسة خاصة في وقت لاحق هذا الأسبوع.» وأردف: «يخمن دكتور ماكسويل أننا سوف نُبلغ بإنهاء المشروع.»

علقت فرانشيسكا قائلة: «إن هذا لرد فعل نمطي مغالًى فيه لمجموعة من المسئولين في الحكومة لطالما ظل هدفهم الأول خفض المخاطر إلى الحد الأدنى. إنها أول مرة في التاريخ يقوم مجموعة من البشر مجهزون تجهيزًا كافيًا باستطلاع الجزء الداخلي لمركبة بناها عقل مختلف. ومع ذلك واصل السياسيون على الأرض التصرف وكأن شيئًا لم يكن. إنهم عاجزون عن الرؤية. يا له من أمر مذهل.»

لم تصغِ نيكول دي جاردان إلى بقية حوار فرانشيسكا مع دكتور براون. كان ذهنها لا يزال غارقًا في حديثهما السابق. قالت نيكول لنفسها: «هي حتمًا تعتقد أن لديَّ دليلًا حول الأدوية التي تعاطاها بورزوف. ليس هناك تعليل آخر لتهديدها هذا.»

وعندما وصلوا إلى حافة الجليد قضت فرانشيسكا عشر دقائق في ضبط الكاميرا الآلية ومعدات الصوت، لالتقاط مقاطع فيديو متتالية تعرض ثلاثتهم وهم يستعدون للبحث عن زميلهم المفقود في المدينة الغريبة. أما شكوى نيكول لدكتور براون بشأن الوقت الذي يذهب سدًى فقد ضُرب بها عُرض الحائط. بيد أنها أعربت بوضوح عن ضجرها برفض المشاركة في مقاطع الفيديو. وبينما كانت فرانشيسكا تنهي تجهيزاتها، ارتقت نيكول السلالم المجاورة وأمعنت النظر في ناطحات سحاب المدينة. وكانت تسمع وراءها وأسفلها فرانشيسكا وهي تستحضر المأساة الحالية أمام ملايين المشاهدين على الأرض.

كانت فرانشيسكا تقول: «أقف هنا بضواحي مدينة الجزيرة الغامضة نيويورك. وبالقرب من هذه البقعة تمامًا، سمعنا أنا ودكتور تاكاجيشي والرائد ويكفيلد بعض

الأصوات الغريبة في وقت سابق هذا الأسبوع. وتساورنا الشكوك في أن نيويورك هي الوجهة التي قصدها البروفيسور عندما رحل من مخيم بيتا الليلة الماضية لعمل استطلاع فردي غير مصرَّح به ...

ماذا ألمَّ بالبروفيسور؟ ولماذا لا يرد عندما يجري الاتصال به؟ وقد شاهدنا البارحة مأساة مريعة عندما خاطر الصحفي ريجي ويلسون بحياته من أجل إنقاذي فعلق بداخل الطوافة، ولم يستطع أن ينجو من مخالب السرطانات الآلية الحادة. هل حل بخبير راما مصير مماثل؟ هل صمم أولئك الفضائيون، الذين بنوا هذه المركبة المذهلة منذ دهور مضت، شَرَكًا معقدًا للإيقاع بأي زوار يجهلون المكان وتدميرهم في آخر الأمر؟ نحن غير متيقنين من هذا. لكننا ...»

ومن موقعها المميز بأعلى الجدار الذي يتيح لها رؤية أفضل، حاولت نيكول أن تتجاهل فرانشيسكا وتتخيل أي مسار يمكن أن يسلكه دكتور تاكاجيشي. واستعانت في ذلك بالخرائط المخزنة على جهاز كمبيوتر الجيب الخاص بها. واختتمت حديثها لنفسها بقول: «من الممكن أن يكون قد ذهب باتجاه المركز الهندسي للمدينة. لقد كان متيقنًا من أنه ثَمة مغزًى وراء التصميم الهندسي للمدينة.»

الفصل الخامس والثلاثون

إلى التجويف

ساروا في متاهة الشوارع المذهلة عشرين دقيقة فحسب، وأوشكوا على أن يضلوا لولا أجهزة الملاحة الشخصية الخاصة بهم. لم يكن لديهم خطة متكاملة للبحث. لقد تجولوا في الشوارع جيئة وذهابًا بطريقة شبه عشوائية. وكان الفريق البحري هيلمان يتصل بدكتور براون كل ثلاث دقائق أو أربع، وكان على فريق البحث أن يبحث في الموقع الذي تكون فيه قوة الإشارات مناسبة.

قالت نيكول عندما سمعوا مرة أخرى صوت أوتو هيلمان الذي كان يصل كالهمس عبر جهاز الاتصال: «إن كنا سنسير بهذا المعدل فإن بحثنا سيدوم للأبد، دكتور براون لمَ لا تمكث في بقعة واحدة؟ وعندئذٍ نقوم أنا وفرانشيسكا ...»

عندئذٍ سمعوا صوت أتو الذي جاء بوضوحٍ هذه المرة، عندما تحرك ديفيد براون نحو الفضاء الذي يتوسط مبنيين مرتفعين: «انتبهوا لي.» وأردف متسائلًا: «ألم تسمع ما قلته لك في بثي الأخير؟»

رد عليه دكتور براون: «مع الأسف، لا أوتو.» وعقَّب قائلًا: «من فضلك أعد مرة أخرى.»

أجابه: «لقد غطى ياماناكا وويكفيلد وتورجينيف الثلث المنخفض من نصف الأسطوانة الجنوبي. ولم تكن هناك أي أمارات على وجود تاكاجيشي. ومن المستبعد أن يكون قد ذهب إلى أبعد من ذلك شمالًا، ما لم يكن قد ذهب إلى إحدى المدن. وفي تلك الحالة كنا سنرى آثار أقدامه في مكان ما. إذن من المرجح أنكم تتبعون المسار الصحيح.»

«وفي الوقت نفسه، لدينا أخبار مهمة. لقد أخذ السرطان المأسور في التحرك منذ ما يقرب من دقيقتين. إنه يحاول الهرب، لكن حتى الآن لم تفلح أدواته إلا بثني القفص بشق الأنفس. ويبذل تابوري الآن جهدًا محمومًا لبناء قفص أكبر وأقوى ليحيط بالجهاز

كليًّا. وقد أمرت ياماناكا بالعودة بطائرته إلى مخيم بيتا كي يساعد تابوري. وينبغي أن يكون هنا في غضون دقيقة ... انتظر ... ثَمة نداء عاجل آتي من ويكفيلد ... سأستقبل اتصاله.»

كانت لُكْنة ريتشارد ويكفيلد البريطانية واضحة، مع أن الرواد الثلاثة بنيويورك كانوا يسمعونه بشق الأنفس. لقد صرخ ردًّا على سؤال الفريق البحري هيلمان قائلًا: «عناكب.» وأردف: «هل تتذكر العناكب الآلية التي قامت لورا إيرنست بتشريحها؟ إننا نرى ستة منها خلف الجرف الجنوبي مباشرة. وجميعها تحيط بالكوخ المؤقت الذي بنيناه. ويبدو أن شيئًا ما قد أصلح السرطانين اللذين ماتا؛ لأن إخوة السرطان الأسير يسيرون بتؤدة نحو القطب الجنوبي ...»

صاحت فرانشيسكا ساباتيني في جهاز اللاسلكي: «صور! هل تلتقط صورًا؟»

أجاب ويكفيلد: «ماذا؟ آسف، لم أتابعك.»

وهنا وضح له الفريق البحري هيلمان: «تود فرانشيسكا أن تعرف ما إذا كنت تلتقط صورًا.»

قال ريتشارد ويكفيلد: «بالطبع، يا محبوبتي.» وتابع حديثه قائلًا: «كلٌّ من نظام التصوير الآلي في الطائرة والكاميرا اليدوية التي أعطيتِني إياها هذا الصباح يعملان بلا انقطاع. والعناكب الآلية مذهلة للغاية. لم أشاهد أي شيء يتحرك بهذه السرعة قط ... بالمناسبة، هل هناك أي دلائل بشأن البرفيسور الياباني؟»

صرخ ديفيد براون من نيويورك: «ليس بعد.» وأردف: «إن الأمور تسير ببطء في هذه المتاهة. أشعر وكأنني أبحث عن إبرة في كومة من القش.»

أعاد الفريق البحري هيلمان ذكر الوضع الحالي لعملية البحث عن الشخص المفقود على كلٍّ من ويكفيلد وتورجينيف في الهليكوبتر. ثم قال ريتشارد إنهما عائدان إلى مخيم بيتا للتزود بالوقود. سأل هيلمان: «وماذا عنك يا ديفيد؟» ثم تابع حديثه: «ألا ترى في ضوء كل ما يحدث، بما في ذلك الحاجة لإخبار هؤلاء الأوغاد على الأرض، أنه ينبغي أن تعود إلى مخيم بيتا بنفسك؟ ويمكن أن تواصل كلٌّ من الرائدة فرانشيسكا والرائدة نيكول عملية البحث عن دكتور تاكاجيشي. وإذا اقتضى الأمر فيمكننا أن نرسل شخصًا آخر ليحل محلك عندما تُقِلُّك الهليكوبتر.»

أجابه: «لا أعرف يا أوتو، أنا لم ...» عندئذٍ أطفأت فرانشيسكا خاصية البث في جهاز ديفيد براون اللاسلكي أثناء رده على هيلمان. فرمقها بنظرة ساخطة سرعان ما تحولت إلى نظرة هادئة.

قالت بنبرة صارمة: «نحن في حاجة للتحدث بشأن هذا. أخبره بأنك ستعاود الاتصال به بعد دقيقتين.»

شُدِهت نيكول من الحوار الدائر بين فرانشيسكا ساباتيني وديفيد براون. لم يكن أيٌّ منهما يكترث البتة للمصير الذي حل بدكتور تاكاجيشي. لقد أصرَّت فرانشيسكا على العودة إلى مخيم بيتا فورًا لتغطية «كل» الأحداث العاجلة هناك. وكان دكتور براون قلقًا لأنه كان بعيدًا عن الأحداث «الرئيسية» للبعثة.

وكان كلاهما يحاول أن يبرهن أن سبب عودته هو الأكثر أهمية. وماذا إن رجعا إلى نيويورك؟ لا، فإنهما بهذا سوف يتركان الرائدة نيكول بمفردها. لعلها سوف ترحل معهما ثم يعاودان بدء عملية البحث عن دكتور تاكاجيشي مرة أخرى حينما تهدأ الأمور في غضون بضع ساعات ...

وأخيرًا انفجرت نيكول. وصرخت فيهما على حين غِرة: «لم أشاهد في حياتي قط مثل هذه الأنانية ...» لم تستطع نيكول أن تجد وصفًا أقل وطأة من الأنانية. مضت نيكول في صراخها: «إن أحد زملائنا مفقود وهو قطعًا في حاجة إلى مساعدتنا. قد يكون مجروحًا أو لعله يحتضر، وكل ما تستطيعان فعله هو الجدال حول مصالحكما الدنيئة. إنه لأمرٌ مقزز بحق.»

توقفت نيكول لحظة لتلتقط أنفاسها. ثم استطردت وهي لا تزال ثائرة: «دعوني أخبركما شيئًا واحدًا. أنا لن أعود إلى مخيم بيتا الآن. أنا لا آبه إذا أمرتني بذلك. سأمكث هنا حتى أنتهي من البحث. على الأقل، لديَّ أولوياتي المباشرة. أعرف أن حياة إنسان أهم من صورة أو مكانة أو حتى مشروع إعلامي دنيء.»

طرف ديفيد براون بعينيه مرتين، وكأنه صُفع على وجهه. في حين ابتسمت فرانشيسكا. وقالت: «حسنًا، حسنًا. إذن الطبيبة المتوحدة تعرف أكثر مما سمحنا لها أن تعرفه.» نظرت إلى ديفيد براون ثم رجعت إلى نيكول. وقالت: «هل يمكنك أن تتركينا لحظة، يا عزيزتي؟ لدينا بعض الأمور القليلة التي نود مناقشتها على انفراد.»

تحركت فرانشيسكا ودكتور براون إلى جانب قاعدة إحدى ناطحات السحاب، على بعد ما يقرب من عشرين مترًا من نيكول وبدأ الاثنان حوارًا ساخنًا. استدارت نيكول نحو الاتجاه المعاكس. لقد استاءت من نفسها بسبب فقدانها لأعصابها. وقد توترت للغاية بسبب إفصاحها عن معرفتها بأمر عقدهما مع شميت وهاجينست. وجال بخاطرها: «سوف يفترضان أن جانوس هو من أخبرني إذ إننا صديقان حميمان.»

رجعت فرانشيسكا لتنضم إلى نيكول في حين اتصل دكتور براون بالفريق البحري هيلمان عبر جهاز اللاسلكي. وقالت فرانشيسكا لنيكول: «يستدعي ديفيد الهليكوبتر كي تقابله بجانب ناقل الطوارئ. لقد أكد لي أنه يستطيع أن يشق طريقه حتى هناك. وسوف أمكث هنا معكِ للبحث عن تاكاجيشي. على الأقل بهذه الطريقة سوف يمكنني أن أصور نيويورك.»

كان تصريح فرانشيسكا يخلو تمامًا من أي مشاعر. ولم تستطع نيكول أن تستشف حالتها المزاجية. أضافت فرانشيسكا: «ثمة شيء آخر. لقد وعدت ديفيد بأننا سوف ننتهي من بحثنا ونكون مستعدين للعودة إلى المخيم في غضون أربع ساعات أو أقل.»

لم تتحدث المرأتان في غضون أول ساعة من بحثهما إلا نادرًا. ولم يكن لدى فرانشيسكا مشكلة في أن تترك اختيار الدرب الذي ستسلكانه لنيكول. وكل خمس عشرة دقيقة كانتا تتوقفان للاتصال بالمخيم للحصول على معلومات محدثة بشأن تحديد موضعهما الحالي. أخبرهما ريتشارد ويكفيلد عندما توقفتا لتناول الغداء: «أنتما الآن تبعدان عن ناقلة الطوارئ نحو كيلومترين جنوبًا وأربعة كيلومترات شرقًا.» وكان قد أُوكل إلى ريتشارد مهمة تتبع سيرهما. قال ريتشارد: «أنتما الآن شرق الساحة المركزية مباشرة.»

لقد ذهبتا أولًا إلى الساحة المركزية لأن نيكول اعتقدت أن تاكاجيشي اتجه إلى هناك. فوجدتا ساحة مفتوحة مستديرة بها العديد من البنايات المنخفضة، لكن ما من أمارات تقوداهما إلى زميليهما. وبعد ذلك عرجتا على الساحتين الأخريين، وتفقدتا بعناية جزأين من الأجزاء المركزية المقسمة على شكل الشطيرة. فلم تعثرا على أي شيء. وأقرَّت نيكول بأن كل أفكارها قد استُنفدَت.

قالت فرانشيسكا عندما همت بتناول غدائها: «يا له من مكان مذهل للغاية.» كانتا تجلسان على صندوق مربع من المعدن يبلغ ارتفاعه مترًا. وأردفت: «إن الصور التي التقطها له تعبر بالكاد عنه. فكل شيء هادئ للغاية وشاهق للغاية وغريب ... للغاية.»

ردت نيكول: «لا يمكن وصف بعض من هذه المباني دون صورك. والمجسم العديد الأسطح أحدُ الأمثلة على ذلك. ثمة مجسم في كل جزء، إلى جانب أكبرها الذي عادة ما يكون حول الساحة. تُرى ما المغزى وراءها، إن كان هناك مغزًى من الأصل؟ ولماذا توجد في تلك الأماكن بعينها؟»

ظل التوتر العاطفي المضمر في نفس المرأتين مكبوتًا داخلهما. تحدثتا قليلًا عما شاهدتاه في خلال رحلتهما عبر نيويورك. كان أكثر ما جذب نظر فرانشيسكا هو مكانًا

مظللًا ضخمًا يصل بين ناطحتَي سحاب شاهقتَي الارتفاع في الوحدة المركزية. تساءلت نيكول بفتور: «في رأيك، ما المغزى من هذا الشيء الشبيه بالشبكة؟ إنه حتمًا يحتوي على عشرين ألف حلقة، وحتمًا يبلغ ارتفاعه خمسين مترًا.»

أجابتها نيكول وهي تلوح بيدها: «أعتقد أنه لأمر سخيف أن نحاول فهم أيٍّ من هذه.» انتهت نيكول من تناول غدائها ونظرت إلى رفيقتها. ثم قالت: «هل أنتِ جاهزة للمواصلة؟»

أجابتها فرانشيسكا بعزم: «ليس تمامًا.» ثم نظفت بقايا طعامها ووضعتها في كيس النُّفاية ببذلة طيرانها. ثم قالت لنيكول: «لدينا أنا وأنت بعض المسائل التي لم ننتهِ منها بعد.»

نظرت إليها نيكول متحيرة. قالت فرانشيسكا بلطف مصطنع: «أرى أنه حان وقت نزع الأقنعة ومواجهة إحدانا للأخرى صراحة. إن كنت ترتابين في أنني قد أعطيت لفاليري بورزوف بعض الأدوية في يوم موته، فلِمَ لمْ تسأليني مباشرة؟»

حملقت نيكول في خصمتها لبضع ثوانٍ. ثم سألتها أخيرًا: «وهل فعلتِ؟»

ردت فرانشيسكا بتحفظ: «وهل تظنين أنني فعلت هذا؟ وإن كان ذلك حدث، فلمَ سأفعله؟»

قالت نيكول بعد برهة: «أنت تلعبين اللعبة نفسها ولكن على مستوًى آخر منها. أنتِ لا ترغبين في أن تعترفي بأي شيء. أنتِ لا تحاولين إلا اكتشاف كم المعلومات التي لديَّ. لكني لست في حاجة إلى اعتراف منك. العلم والتكنولوجيا يؤيداني. وفي النهاية ستظهر الحقيقة.»

قالت فرانشيسكا بلا مبالاة: «أشك في ذلك.» قفزت من على الصندوق. وتابعت: «لطالما تراوغ الحقيقة من يبحثون عنها.» ثم ابتسمت. وقالت: «والآن لنذهب للبحث عن البروفيسور.»

على الجانب الغربي من الساحة المركزية وجدت المرأتان بناية أخرى فريدة. كانت تبدو من بعيد مخزنًا ضخمًا. وبلا ريب كان يبلغ ارتفاع قمة سقفها الأسود أربعين مترًا فوق الأرض، ويبلغ طولها أكثر من مائة متر. وكانت هناك سمتان بارزتان تميزان هذا المخزن. أولهما هو أن طرفَي المخزن كانا مفتوحين. وثانيهما أن كل الجدران والأسقف كانت شفافة من «الداخل» مع أنه لا يمكن اختراقهما بالنظر من الخارج. وتناوبت كلتاهما

الأدوار لإثبات أن هذا ليس خداعًا بصريًّا. فالمرء بداخل المخزن يستطيع أن يرى في كل الاتجاهات فيما عدا أسفله. في حقيقة الأمر، كانت ناطحات السحاب العاكسة المتاخمة متراصَّة بدقة؛ من ثَم كانت كل الشوارع القريبة مرئية من داخل البناية.

قالت فرانشيسكا وهي تصور نيكول وهي تقف إلى جوار الجانب الآخر من الجدار: «مذهل.»

قالت نيكول وهي تقترب من المنعطف: «لقد أخبرني دكتور تاكاجيشي أنه من المستحيل أن يعتقد المرء أن نيويورك بلا مغزًى. وماذا عن باقي راما؟ فربما لا مغزى وراءها. لكن يستحيل أن يقضي أحد كل هذا الوقت ويبذل كل هذا المجهود بلا سبب معين.»

قالت فرانشيسكا: «أنت تبدين متدينة تقريبًا.»

حملقت نيكول بهدوء في رفيقتها الإيطالية. وقالت لنفسها: «هي تحاول الآن أن تتعمد مضايقتي. إنها لا تعبأ بحق بما أفكر. وربما لا تعبأ أيضًا بتفكير أي أحد البتة.»

قالت فرانشيسكا بعد برهة من الصمت: «مهلًا. انظري إلى هذا.» وكانت فرانشيسكا قد خطت خطوات معدودة إلى داخل المخزن وكانت تشير إلى الأرض. دنت نيكول بالقرب منها. وكان هناك أمام فرانشيسكا تجويف ضيق على شكل مستطيل محفور في الأرض. وكان يبلغ طوله نحو خمسة أمتار وعرضه مترًا ونصفًا، وقد كان عميقًا للغاية، فقد يصل عمقه إلى ثمانية أمتار. وكان معظم القاع مظلمًا. وكانت جدرانه تسير في خطوط مستقيمة لأعلى ولأسفل، دون أي آثار لانبعاجات.

قالت فرانشيسكا: «ثمة واحد آخر هناك، وآخر هناك ...»

كان إجمالي عدد التجويفات تسعة، وجميعها مصمَّمة بنفس الطريقة بالضبط ومنتشرة في أنحاء النصف الجنوبي للمخزن. أما في النصف الشمالي، فقد كان هناك تسع كرات صغيرة معلقة على السطح في ترتيب شديد الدقة من حيث الأبعاد. ووجدت نيكول نفسها تتوق إلى مُفسِّر من نوع ما؛ مرشد يقودها في تفسير المغزى من وراء كل هذه الأشياء أو الهدف منها. لقد بدأت تشعر بأنها مشوشة الفكر.

وكانتا قد قطعتا بالفعل المخزن بطوله تقريبًا عندما سمعتا صوت إشارة طوارئ ضعيفًا قادمًا من جهاز لاسلكي كل واحدة منهما. صاحت نيكول بصوت عالٍ وهي تندفع بعجالة من أحد الطرفين المفتوحين للبناية: «قطعًا عثروا على دكتور تاكاجيشي.» وما إن خرجت من تحت سقف المخزن حتى كاد صوت إشارة الطوارئ يمزق طبلة أذنها. فردَّت عبر جهاز اللاسلكي: «حسنًا. حسنًا. يمكننا سماعك؟ ما الذي يحدث؟»

سمعت ريتشارد ويكفيلد يقول: «نحاول الاتصال بكما منذ ما يزيد عن دقيقتين. أين كنتما بحق الجحيم؟ لقد استخدمت إشارة الطوارئ لأنها أقوى فحسب.»

ردَّت فرانشيسكا من خلف نيكول: «لقد كنا بداخل المخزن المذهل. إنه أشبه بعالم سريالي، ذات مرايا أحادية الانعكاس وانعكاسات غريبة ...»

قاطعها ريتشارد قائلًا: «عظيم، لكن ليس هناك وقت للمسامرة. عليكما أيتها السيدتان أن تسيرا في الحال نحو أقرب بقعة من البحر الأسطواني. ستأتي الهليكوبتر لتُقلَّكما في غضون عشر دقائق. وسوف نأتي إلى نيويورك نفسها إذا كان هناك مكان للهبوط.»

«لماذا؟» سألته نيكول. وأردفت: «لمَ هذه العجلة المباغتة؟»

«أيمكنكما أن تريا القطب الجنوبي من مكانكما؟»

«لا. فثَمة كثير من المباني الشاهقة تعترض رؤيتنا.»

«ثَمة شيء غريب يحدث حول القرون الصغيرة. حيث تقفز أقواس ضخمة من البرق من برج إلى آخر. إنه مشهد مثير للغاية. وكلنا يشعر أن ثمة شيئًا غير عادي يوشك أن يحدث.» تردد ريتشارد لحظة. ثم تابع قائلًا: «عليكما أن تتركا نيويورك في التو واللحظة.»

أجابته نيكول: «حسنًا. نحن في طريقنا.»

ثم أطفأت جهاز اللاسلكي والتفتت إلى فرانشيسكا. وقالت: «ألاحظتِ كم ارتفع صوت إشارة الطوارئ ما إن خرجنا من المخزن؟» أخذت نيكول تفكر لبضع لحظات. ثم قالت: «إن المادة في جدران هذا المبنى وسقفه قطعًا تحجب إشارات الإرسال.» انفرجت أسارير وجهها. وتابعت: «هذا يفسر ما حدث لتاكاجيشي ... قطعًا هو موجود بداخل مخزن أو شيء أشبه بهذا.»

لم تكن فرانشيسكا تتابع حبل أفكار نيكول. «وماذا في ذلك؟» قالتها وهي تلتقط صورة أخيرة شاملة الرؤية للمخزن بكاميرا الفيديو. وأردفت: «هذا لا يهم الآن. علينا أن نُهرع كي نلحق بالطائرة.»

واصلت نيكول في حماسة: «لعله في أحد هذه التجاويف. بالتأكيد. لعل الأمر كذلك؛ كان يستكشف في الظلام. ثم سقط في ...» قطعت حديثها ثم قالت لفرانشيسكا: «انتظري هنا. سأعود بعد دقيقة واحدة فحسب.»

اندفعت نيكول مسرعة إلى داخل المخزن، وانحنت بجانب أحد التجاويف. تشبثت نيكول بأحد جوانبه بإحدى يديها، وسلطت مصباحها الضوئي على قاعه. كان يوجد شيء

هناك! انتظرت بضع لحظات حتى تستطيع عيناها أن تركز. كان هناك كومة من مادة ما. ثم هرولت إلى التجويف التالي. صاحت: «دكتور تاكاجيشي.» وهتفت باللغة اليابانية: «أأنت هنا يا شيج؟»

صاحت فرانشيسكا في نيكول من عند طرف المخزن: «هيا! دعينا نذهب. لقد كان ريتشارد جادًّا للغاية.»

عندما وصلت نيكول إلى التجويف الرابع، جعلت الظلال رؤية القاع عسرة للغاية حتى مع وجود الضوء الخارج من مصباحها. وكادت أن تميز بعض الأشياء، ولكن ما عسى أن تكون هذه الأشياء؟ ثم استلقت على بطنها وزحفت قليلًا نحو التجويف من زاوية مختلفة كي تحاول أن تتأكد من أن هذه الكتلة غير الواضحة المعالم ليست جسد صاحبها.

أخذت الأضواء في راما تنطفئ وتضيء. أما بداخل المخزن فقد كانت المؤثرات البصرية مفزعة. بل مشوشة للغاية. نظرت نيكول أعلى منها كي ترى ماذا يحدث ففقدت توازنها. انزلق معظم جسدها إلى داخل التجويف. فضغطت يديها على الحائط المقابلة بداخل التجويف كي تسند جسدها وهي تصرخ قائلة: «فرانشيسكا. فرانشيسكا، انجديني.»

انتظرت نيكول لما يقرب من دقيقة حتى خلصت إلى أن الرائدة فرانشيسكا حتمًا قد تركت منطقة المخزن. أخذَت ذراعاها تفقدان القدرة على التحمل بسرعة. ولم يكن يستند بأمان على أرضية المخزن سوى قدميها وأطراف ساقيها. وكانت رأسها بجانب أحد جدران التجويف على بعد ما يقرب من ثمانين سنتيمترًا أسفل مستوى أرضية المخزن. أما باقي جسدها فقد كان معلقًا في الهواء، ولا يمنعه من السقوط سوى ضغط يديها الشديد على الحائط.

واصَل الضوء انقطاعه ومجيئه على فترات زمنية قصيرة. رفعت نيكول رأسها لترى هل بإمكانها أن تصل إلى قمة التجويف باستخدام أحد ذراعيها، وأن تحتفظ بوضعها آمنًا بمعاونة ذراعها الأخرى. لكن وضعها كان ميئوسًا منه. فقد كانت رأسها على عمق بعيد داخل التجويف. وانتظرت بضع ثوانٍ أخرى، لكن كلما حل التعب بذراعيها استفحل يأسها. أخيرًا قامت نيكول بمحاولة أخرى كي ترتفع بجسدها لأعلى، ولكي تمسك بحافة التجويف في حركة واحدة. وكادت أن تنجح. غير أن ذراعيها لم تستطيعا أن توقفا قوة دفعها لأسفل عندما سقطت. ولحقت قدماها بجسدها إلى داخل التجويف وارتطم رأسها بالجدران. وسقطت نيكول إلى قاع التجويف فاقدة الوعي.

الفصل السادس والثلاثون

مسار الاصطدام

فزعت فرانشيسكا أيضًا عندما بدأت أضواء راما تومض على حين غِرة. وعندئذٍ انتابتها رغبة في أن تجري بالداخل تحت سقف المخزن. وحينما أصبحت هناك شعرت بعض الشيء بأنها محمية بقدر أكبر. كان يجول بخاطرها السؤال التالي: «ماذا سيحدث الآن؟» في حين أرغمتها الأضواء المنعكسة من المباني المتاخمة على أن تغمض عينيها حتى لا يتسبب لها ذلك في الدوار.

وعندما سمعت فرانشيسكا صرخة استغاثة نيكول، هُرعت لتنجد زميلتها الرائدة. بيد أنها تعثرت في إحدى الكرات الموجودة، وارتطمت ركبتها وهي تسقط. وعندما نهضت وجدت فرانشيسكا من خلال الضوء المتقطع أن وضع نيكول خطير للغاية تمامًا. فلم يكن يظهر من جسد نيكول سوى نعل حذائها. وقفت فرانشيسكا بلا حراك وانتظرت. كان ذهنها في حالة سباق محمومة بالفعل. وقد استرجعت صورة شبه كاملة للتجويف، بما في ذلك تقدير دقيق لعمقه. وقالت فرانشيسكا في نفسها: «إذا سقطت فإنها ستُجرح، وربما تموت.» تذكرت فرانشيسكا أن الجدران كانت ملساء. وتابعت في سرها: «لن يمكنها أن تتسلقها.»

صبغت الأضواء الوامضة المشهد بصبغة مخيفة. وشاهدت فرانشيسكا جسد نيكول وهو يرتفع خارج التجويف تقريبًا، ويداها تزحف كي تمسك بحافة التجويف. وفي وميض الضوء التالي، تغيرت زاوية الحذاء بالنسبة للتجويف ثم اختفت فجأة. ولم تسمع فرانشيسكا أي صرخات.

ولو لم تسيطر فرانشيسكا على نفسها، لهُرعت نحو التجويف وألقت نظرة. لكنها قالت لنفسها وهي لا تزال تقف بين الكرات الصغيرة: «لا. لا يجب أن أنظر. فإذا كانت لا تزال واعية بالصدفة، فإنها قد تراني. وعندئذٍ لن يكون لديَّ أي خيارات.»

كانت فرانشيسكا تفكر بالفعل في الاحتمالات التي يطرحها سقوط نيكول. لقد كانت متيقنة بناءً على الحديث الذي دار بينهما مسبقًا أن نيكول عزمت على أن تبذل قصارى جهدها كي تثبت أن بورزوف قد تناول يوم وفاته دواءً محفزًا للألم. وربما تتمكن نيكول من أن تحدد مركب الدواء بالتحديد، وعندئذٍ بما أنه غير شائع، فإنها سوف تُعزي شراءه إلى فرانشيسكا. لقد كان هذا السيناريو مستبعدًا وربما غير محتمل الوقوع. لكنه قد يحدث.

تذكرت فرانشيسكا استغلالها للتصاريح الخاصة الممنوحة لها في شراء الديميثيلديكسل، بالإضافة إلى مجموعة من المواد الأخرى، من صيدلية أحد المستشفيات في كوبنهاجن منذ سنتين. وحينذاك كان هناك ترجيح أن تناول الدواء بجرعات صغيرة جدًّا قد يسبب شعورًا طفيفًا بالنشوة لدى الأفراد الذين يعانون توترًا شديدًا. وفي العام التالي، وردت في إحدى المقالات المنشورة بدورية سويدية مغمورة متخصصة بالصحة النفسية معلومات تفيد أن الجرعات الزائدة من الديميثيلديكسل تتسبب في ألمٍ حادٍّ يحفز التهاب الزائدة الدودية.

وبينما كانت فرانشيسكا تهرول بعيدًا عن المخزن في الاتجاه الشمالي درَس ذهنها العبقري كل الاحتمالات في عجالة. وكانت تمارس مقايضتها المعتادة في حساب المخاطر التي ستتكبدها في مقابل المكاسب التي ستعود عليها. والقضية الأولى التي كانت تجابهها، بعد أن تركت نيكول الآن في التجويف، هي إذا كانت ستقول الحقيقة بشأن سقوط نيكول أم لا. فسيسأل أحدهم: لمَ تركتها هناك؟ لمَ لمْ تتصلي بنا وتخبرينا أنها سقطت وتقفي مكانك حتى تصل النجدة؟

قالت في سرها: «سأقول إنني كنت مرتبكة وخائفة وكانت الأضواء تومض. وريتشارد يبدو قلقًا للغاية بشأن مغادرتنا. لذا اعتقدت أنه سيكون أيسر لنا جميعًا أن نتحدث في الهليكوبتر.» تُرى هل سيصدقون هذا؟ يمكن ولكن بصعوبة بالغة. ومع ذلك فإنه من السهل أيضًا أن تكون فرانشيسكا صريحة. قالت فرانشيسكا لنفسها وهي تعبر المجسم الثماني الأسطح بالقرب من الساحة المركزية: «إذن لا يزال أمامي خيار الحقيقة الجزئية.» أدركت فرانشيسكا أنها تسير مبتعدةً نحو الشرق، فتحققت من جهاز المِلاحة الذي تحمله ثم غيَّرت اتجاهها. واصلت أضواء راما وميضها.

قالت فرانشيسكا لنفسها: «وما الخيارات الأخرى المتاحة أمامي؟ لقد تحدث إلينا ويكفيلد من خارج المخزن مباشرة. لذا هو يعلم أين كنا. وحتمًا ستعثر عليها فرقة بحث.»

«إلا إذا ...» أخذت فرانشيسكا تفكر مرة أخرى في الاحتمالات الواردة بأن نيكول ربما تزج باسمها في آخر الأمر في عملية دس الدواء للجنرال بورزوف. وحتمًا سوف تفضي الفضيحة إلى تحقيقات واسعة، ومن المحتمل أن تنتهي بتوجيه تهمة جنائية لها. وفي كل الأحوال، سوف تتلطخ سمعة فرانشيسكا، وبالتأكيد سيتعرض مستقبلها المهني باعتبارها صحفية لفضيحة كبرى.

لكن من ناحية أخرى عندما تختفي نيكول من المشهد، لن يكون هناك احتمال في أن يعرف أحد أن فرانشيسكا قد دسَّت الدواء للجنرال بورزوف. الشخص الوحيد الذي يعرف هذه الحقائق هو ديفيد براون، وهو شريك في المؤامرة. علاوةً على أن خسارته ستكون أعظم من خسارتها.

قالت نيكول في نفسها: «إذن القضية الآن هي ما إذا كان بمقدوري أن أختلق قصة مقنعة تقلل من فرص العثور على نيكول أم لا، وفي الوقت نفسه لا تورطني في الأمر إذا عُثر عليها. إنها مهمة شاقة.»

كانت فرانشيسكا تقترب من البحر الأسطواني. وقد أخبرها جهاز الملاحة أنها لا تبعد سوى ستمائة متر عنه. قالت فرانشيسكا لنفسها بعد أمعنت التفكير في موقفها: «اللعنة، ليس لديَّ بالفعل اختيار يجعلني في أمان تام. سيتعين عليَّ أن أختار أحد الخيارات. فثَمة مجازفة كبيرة في كلتا الحالتين.»

توقفت فرانشيسكا عن التحرك شمالًا وأخذت تجوس جيئة وذهابًا بين ناطحتَي سحاب. وبينما كانت تسير بدأت الأرض تهتز تحت قدميها. وكان كل شيء يهتز من حولها. سقطت على ركبتيها كي تثبت نفسها. وسمعت صوت جانوس تابوري الذي جاء ضعيفًا للغاية عبر جهاز اللاسلكي. يقول: «لا تنزعجوا، الأمور تسير على ما يُرام. يبدو الأمر وكأن مركبتنا تخضع لمناورة. حتمًا هذا ما تنطوي عليه كل التحذيرات ... بالمناسبة يا نيكول، أين أنتِ وفرانشيسكا؟ هيرو وريتشارد على وشك الإقلاع بالهليكوبتر.»

أجابته فرانشيسكا: «أنا قريبة من البحر، ربما على بعد دقيقتين. لقد ذهبت نيكول لتتحقق من شيء ما.»

أجاب جانوس: «عُلم، هل تسمعينني، يا نيكول؟ هل تتابعينني، أيتها الرائدة نيكول؟»

ساد الصمت على الطرف الآخر من جهاز اللاسلكي.

قاطعته فرانشيسكا: «كما تعلم يا جانوس، الاتصال جيد في بعض المناطق وليس في جميعها هنا. نيكول تعلم أين ستقابل الهليكوبتر. إنها ستصل سريعًا، أنا متأكدة من ذلك.» توقفت للحظة. ثم أردفت: «انتباه، أين الباقون؟ هل الجميع بخير؟»

أجابها: «براون وهيلمان على اتصال بالأرض. أفراد إدارة وكالة الفضاء سينفجرون فيهم غيظًا الآن. فقد كانوا يطلبون بالفعل أن نغادر راما قبل أن تبدأ هذه المناورة.»

قال ريتشارد ويكفيلد: «لقد صعدنا على متن الطائرة لتونا. سنكون هناك في غضون دقائق معدودة.»

عندما انتهى ريتشارد من الكلام قالت فرانشيسكا لنفسها: «قُضي الأمر. لقد اخترت الآن.» وفجأةً غمرتها البهجة. وعلى الفور بدأت تتدرب على القصة التي سترويها. فقالت: «كنا بالقرب من المجسم الثماني الأسطح الضخم في الساحة المركزية عندما اكتشفت نيكول دربًا جانبيًّا عن يميننا لم نلحظه من قبل. وكان الشارع المؤدي إلى هذا الدرب ضيقًا للغاية، فعلقت نيكول أنه من المحتمل ألا يستطع الإرسال اختراق هذه المنطقة. وكنت أنا متعبة — فقد كنا نسير بسرعة كبيرة. فطلبت مني أن أتجه إلى الهليكوبتر ...»

قاطعها ريتشارد ويكفيلد: «ألم تريها مرة أخرى؟» هزَّت فرانشيسكا رأسها. وقد كان ريتشارد يقف إلى جانبها على الجليد. وكان الجليد يهتز تحتهما لأن المناورة الطويلة استمرت. وعادت الأضواء مرة أخرى. لقد توقف الوميض عندما بدأت المناورة.

كان الطيار ياماناكا يجلس في كابينة طائرته. ونظر ريتشارد إلى ساعته. ثم قال: «لقد مر تقريبًا خمس دقائق على هبوطنا هنا. حتمًا ألمَّ بها شيء ما.» ثم نظر حوله. وتابع قوله: «لعلها تأتي من مكان آخر.»

صعد ريتشارد وفرانشيسكا على متن الطائرة ثم أقلع ياماناكا. وقاموا بمناورة لأعلى ولأسفل عبر ساحل الجزيرة، وداروا مرتين حول ناقل الطوارئ. أمر ويكفيلد ياماناكا: «اتجه صوب نيويورك. لعلنا نتمكن من العثور عليها.»

وكان من المستحيل عمليًّا أن تُرى أرض المدينة من الطائرة. إذ كان على الهليكوبتر أن تحلق فوق أكثر المباني ارتفاعًا. وكانت الشوارع ضيقة للغاية والظلال تتلاعب بالأعين. ولوهلة اعتقد ريتشارد أنه رأى شيئًا ما يتحرك بين المباني، لكن اتضح أنه ليس إلا خداعًا بصريًّا.

«حسنًا يا نيكول، أين أنتِ؟»

دوَّى صوت دكتور ديفيد براون الجهور في الهليكوبتر قائلًا: «ويكفيلد، أريد أن يرجع ثلاثتكم إلى بيتا على الفور. ينبغي أن نجتمع الآن.» بُهت ريتشارد عندما علم أن هذا هو دكتور براون. كان جانوس هو من يشرف على اتصالاتهم منذ أن غادر بيتا.

رد ريتشارد: «لمَ العجلة يا سيدي؟» وأردف: «فنحن لم نلتقِ بعدُ بنيكول دي جاردان كما هو مقرَّر. هي حتمًا ستأتي من نيويورك في أي دقيقة.»

أجابه: «سأوافيك بالتفاصيل عندما تصل هنا. لدينا بعض القرارات الصعبة التي يجب أن نتخذها. وأنا واثق من أن نيكول سوف تتصل عندما تصل إلى الشاطئ.»

لم يستغرقوا وقتًا طويلًا في عبور البحر المتجمد. وهبط ياماناكا بجانب مخيم بيتا على الأرض الآخذة في الاهتزاز، وهبط الرواد الثلاثة من الطائرة. وكان بانتظارهم الرواد الأربعة الباقون.

قال ريتشارد باسمًا عندما اقترب من الآخرين: «يا لها من مناورة طويلة للغاية. أرجو أن يكون سكان راما على دراية بما هم فاعلون.»

قال دكتور براون وهو مهموم: «على الأرجح يدرون. على الأقل هذا ما يعتقده الناس على الأرض.» ثم أمعن النظر في ساعته. وقال: «طبقًا لقسم الملاحة في نظام التحكم الخاص بالبعثة، نتوقع أن تدوم هذه المناورة نحو تسع عشرة دقيقة أخرى تقريبًا، بضع ثوانٍ بالزيادة أو النقصان.»

«كيف يعرفون ذلك؟» تساءل ويكفيلد. وتابع تساؤلاته: هل هبط سكان راما على الأرض وسلموا تقريرًا بخطة ملاحة في حين نقوم نحن هنا بعملية الاستكشاف؟»

لم يضحك أحد. قال جانوس بنبرة جادَّة غير معهودة فيه: «إذا استمرت المركبة على هذا المنوال وبمعدل التسارع هذا، ستدخل في غضون تسع عشرة دقيقة أخرى في مسار اصطدام.»

سألت فرانشيسكا: «اصطدام مع ماذا؟»

أجرى ريتشارد ويكفيلد بعض الحسابات سريعًا في ذهنه. ثم خمن: «اصطدام مع الأرض؟» فأومأ جانوس برأسه.

صرخت فرانشيسكا: «يا إلهي!»

قال ديفيد براون: «بالضبط. لقد بات أمن الأرض يرتبط بهذه البعثة. إن المجلس التنفيذي لمجلس الحكومات يجتمع في هذه اللحظة كي يدرس كل الاحتمالات. وقد أُمرنا بلغة شديدة اللهجة بوجوب ترك راما حالما تنتهي المناورة. وعلينا ألا نأخذ شيئًا معنا سوى السرطان الآلي وأمتعتنا الخاصة. نحن ...»

سأل ويكفيلد: «وماذا عن تاكاجيشي؟ ونيكول؟»

«سوف نترك ناقل الطوارئ في مكانه، إلى جانب إحدى الطوافات هنا في مخيم بيتا. وكلاهما يسهل تشغيله. وسوف نظل على اتصال عن طريق جهاز اللاسلكي من نيوتن.» حملق دكتور براون في ريتشارد مباشرة. ثم قال بنبرة جادة: «إن كانت هذه المركبة في مسار الاصطدام مع الأرض بالفعل، فلن تعود حياتنا كأفرادٍ ذاتَ أهمية. إن مسار التاريخ بأكمله على وشك أن يتغير.»

أجابه: «وماذا إن كان مهندسو الملاحة مخطئين؟ ماذا لو أن راما قد قامت بمناورة تتقاطع لحظيًّا فحسب مع مسار الاصطدام لكوكب الأرض؟ من الممكن أن يكون ...»

رد عليه: «إن هذا مستبعد تمامًا. هل تتذكر مجموعة المناورات القصيرة التي حدثت لدى موت بورزوف؟ لقد غيرت اتجاه مدار راما، حتى إن الأرض يمكن أن تصطدم بها من جرَّاء إحدى المناورات الطويلة في الوقت المناسب بعينه. لقد اكتشف المهندسون على الأرض هذا منذ ست وثلاثين ساعة مضت. وقد اتصلوا بأوتول قبل فجر اليوم كي يخبروه عن توقع حدوث المناورة. ولم أشأ أن أخبر أحدًا عندما كان الجميع بالخارج يبحثون عن تاكاجيشي.»

علَّق جانوس: «هذا يفسر السبب وراء تلهف الجميع لإخلاء راما.»

استرسل دكتور براون: «هذا ليس كل شيء. فثمة شعور مغاير تمامًا لديهم على الأرض نحو راما وسكانها. إن إدارة وكالة الفضاء الدولية وزعماء العالم في المجلس التنفيذي لمجلس الحكومات مقتنعون أن راما عدو لا يمكن ترويضه.»

ثم توقف لبضع ثوانٍ كما لو كان يعيد تقييم موقفه الشخصي.

استطرد قائلًا: «أنا نفسي أرى أنهم يتفاعلون عاطفيًّا مع الموقف، لكنني لا يمكنني أن أقنعهم بالرأي المغاير. فأنا شخصيًّا لا أرى أي أمارات على العدوانية، كل ما هنالك هو عدم اكتراث واستخفاف بكائن أدنى منهم كثيرًا. لكن حادثة موت ويلسون التي أُذيعت على شاشة التلفزيون تركت آثارها المدمرة في النفوس. إن العامة ليس بمقدورهم أن يكونوا هنا بجانبنا، أو أن يدركوا عظمة هذا المكان. كل ما في وسعهم هو أن يتفاعلوا بشدة مع الرعب ...»

عندئذٍ قاطعته فرانشيسكا قائلة: «إن كنت لا تعتقد أن سكان راما لديهم مقاصد عدوانية، فبِمَ تفسر هذه المناورة إذَن؟ لا يمكن أن تكون مصادفة. لقد قرروا أو بالأحرى قرر هذا الشيء لسبب ما الاتجاه إلى الأرض. ولا عجب أن الناس على كوكب الأرض يعانون

من الصدمة. تذكر أن مركبة راما ١ لم تُشعر زائريها بوجودها على الإطلاق. أما هذه المناورة فهي رد فعل مغاير للغاية. فسكان راما يخبروننا بأنهم يعرفون ...»

قاطعها ريتشارد قائلًا: «مهلًا. مهلًا. أرى أننا نقفز للاستنتاجات بسرعة بالغة إلى حد ما. لا يزال أمامنا اثنتا عشرة دقيقة قبل أن نبدأ في دق ناقوس الخطر.»

قالت فرانشيسكا بعد أن تذكرت أنها مراسلة صحفية وبدأت تشغل كاميراتها: «حسنًا، أيها الرائد ويكفيلد، سأسجل معك الآن، في وجهة نظرك، ما الذي يحدث عندما تبلغ هذه المناورة أوجها في المسار الذي يصطدم بالأرض؟»

عندما تحدث ريتشارد في النهاية كان جادًّا للغاية. رد بنبرة استعراضية قائلًا: «يا أهل الأرض، إذا غيرت راما بالفعل مسارها كي تزور كوكبنا، فليس بالضرورة أن يكون هذا تصرفًا عدوانيًّا. أؤكد لكم أنه لم يشهد أحدنا على الإطلاق، وأكرر «على الإطلاق» ما يشير إلى أن هذه الكائنات التي صنعت هذه المركبة الفضائية ترغب في أن تسبب لنا أي أذًى. قطعًا كان موت الرائد ويلسون أمرًا مزعجًا، لكن يُرجح أن يكون هذا الفعل استجابة استثنائية صدرت عن مجموعة معينة من الكائنات الآلية أكثر من كونه جزءًا من مخطط شرير.

وأرى هذه المركبة الفضائية العظيمة كآلة واحدة، شبه متكاملة في تعقيدها. وهي ذكية بدرجة مذهلة ومبرمجة كي تعيش لفترات طويلة. وهي ليست عدوًّا ولا صديقًا. فلعلها صُممت فحسب كي تتعقب أثر أي أقمار صناعية قادمة وتحسب أين ظهرت المركبة الفضائية الزائرة. وعليه، من الممكن أن يكون تغير مسار راما كي تحلق بالقرب من الأرض ليس سوى استجابة نمطية لمناوشة بدأتها كائنات تطلق هي الأخرى مركبات في الفضاء. وقد تكون آتية ببساطة كي تكتشف المزيد عنا.»

قال جانوس تابوري بابتسامة عريضة: «رائع.» وأردف: «هذه فلسفة مقبولة بالكاد.»

ضحك ويكفيلد ضحكة متوترة.

قالت فرانشيسكا وهي تغير اتجاه الكاميرا: «أيتها الرائدة تورجينيف، أتتفقين مع زميلك فيما قاله؟ بعد موت الجنرال بورزوف مباشرة أعربت صراحة عن بعض مخاوفك من احتمال وجود «قوة أعلى»، أي سكان راما، قد يكون لها يد في حادثة وفاته. ما شعورك الآن؟»

حدقت الطيارة السوفييتية المتحفظة بطبيعتها في الكاميرا بعينيها الحزينتين. وقالت: «أعتقد أن الرائد ويكفيلد هو مهندس متقد الذكاء. بيد أنه لم يُجب على الأسئلة الصعبة.

ألا وهي: لمَ قامت راما بالمناورة في غضون العملية الجراحية التي كانت تُجرى للجنرال بورزوف؟ لمَ قطعت الكائنات الآلية ويلسون إربًا إربًا؟ أين البروفيسور تاكاجيشي؟»

توقفت إيرينا تورجينيف لحظة كي تضبط انفعالاتها. ثم أكملت: «ولن نجد نيكول دي جاردان. لعل راما تكون لا شيء سوى آلة فقط، لكننا نحن الرواد قد رأينا بالفعل مدى خطورتها. وإذا كانت تتجه نحو الأرض، أشعر بالقلق على عائلتي وأصدقائي وعلى البشرية بأسرها. وما من طريقة للتنبؤ بما قد تفعله. ونحن لا حيلة لنا كي نمنعها.»

وبعد مضي بضع دقائق، حملت فرانشيسكا ساباتيني معدات كاميرا الفيديو الذاتية للخارج إلى جانب البحر المتجمد كي تصور آخر مشهد. وحرصت فرانشيسكا أن تشغل الكاميرا قبل الوقت المتوقع على انتهاء المناورة بخمس عشرة ثانية. وقالت بأفضل نبرات صوتها تأثيرًا بصفتها مراسلة تلفزيونية: «والصورة التي تشاهدونها الآن تهتز لأعلى ولأسفل؛ نظرًا لأن الأرض تهتز بلا انقطاع من تحت أقدامنا هنا في راما منذ أن بدأت المناورة منذ سبع وأربعين دقيقة. ووفقًا لما ورد عن مهندسي الملاحة، ستتوقف المناورة في غضون اللحظات التالية إذا ما غيرت راما مسار الاصطدام مع الأرض. وبالطبع تستند حساباتهم على بعض الافتراضات حول مقاصد راما ...»

توقفت فرانشيسكا في منتصف الجملة وأخذت نفسًا عميقًا. وقالت: «لم تعد الأرض تهتز. انتهت المناورة. وراما الآن في مسار الاصطدام مع الأرض.»

الفصل السابع والثلاثون

وحيدة في مكان مهجور

أول ما استيقظت نيكول كانت مترنحة، وعانت صعوبة بالغة في التركيز أو التفكير. كانت تشعر بآلام مبرحة في رأسها وظهرها ورجليها. لم تدرك ما قد حل بها. واستطاعت بشق الأنفس أن تعثر على قارورة الماء الخاصة بها وأخذت منها رشفة. قالت نيكول لنفسها وهي تغوص مرة أخرى في النوم: «حتمًا أُصبت بارتجاج في المخ.»

وعندما استيقظت ثانية كان المكان حالك السواد. لكن لم يعد ذهنها مشوشًا هذه المرة. لقد أدركت أين كانت. لقد تذكرت البحث عن تاكاجيشي والانزلاق في التجويف. وتذكرت أيضًا نداءها لفرانشيسكا والسقطة المؤلمة والمروعة. وعلى الفور نزعت جهاز الاتصال من حزام بذلتها.

قالت وهي تنتصب بتؤدة: «مرحبًا، فريق نيوتن. معكم الرائدة نيكول. حسنًا، أنا متوعكة، قد تكون هذه الكلمة المناسبة لوصف حالتي. لقد سقطت في حفرة وصُدمت بشدة. فرانشيسكا ساباتيني تعرف أين أنا ...»

توقفت نيكول عن نجواها وانتظرت. لم يأتِها ردٌّ عبر جهاز الاستقبال. ضخمت نيكول قوة الصوت، لكنها لم تنجح إلا في التقاط بعض الإشارات المشوشة الغريبة. وجال بخاطرها: «لقد حلَّ الظلام بالفعل، وكان الضوء موجودًا منذ ساعتين فحسب على الأكثر ...» علمت نيكول أن فترة الضوء داخل راما قد استمرت لما يقرب من ثلاثين ساعة. هل كانت فاقدة الوعي طيلة هذه المدة؟ أم إن راما فعلت شيئًا غير متوقع مجددًا؟ نظرت في ساعة يدها، التي بينت لها الوقت المنقضي منذ بداية الرحلة الثانية، وأجرت بعض الحسابات بسرعة. ثم قالت: «لقد مكثت هنا اثنتين وثلاثين ساعة. لِمَ لمْ يأتِ أحدهم؟»

تذكرت نيكول الدقائق الأخيرة التي سبقت سقوطها. لقد تحدثا إلى ويكفيلد، ثم اندفعت هي لتتفقد التجاويف. لقد كان ريتشارد يتتبع خط سيرهما عندما كانا في هذا المكان المفتوح من اتجاهين، وفرانشيسكا تعلم بالضبط ...

هل وقع مكروه لكل أفراد الطاقم؟ وإن لم يكن كذلك، فلمَ لمْ يعثر عليها أحد؟ ابتسمت نيكول لنفسها وهي تقاوم الهلع الذي بدأ يتسلل إلى قلبها. وبررت ذلك: «بالطبع وجدوني لكنني كنت فاقدة الوعي؛ لذا قرروا ...» رن صوت آخر في ذهنها ليخبرها أنها تفكر بطريقة غير منطقية. فتحت أي ظرف من الظروف، كانت ستُنقذ من التجويف إذا كانوا قد عثروا عليها.

ارتعدت فرائص نيكول لا إراديًّا بسبب الهلع الذي اجتاحها عندما فكرت لبرهة أنه من المحتمل ألا يُعثر عليها لـ «الأبد». فأجبرت نفسها على أن تغير المواضيع التي تفكر فيها، وأخذت في تقييم الضرر البدني الذي لحق بها أثناء سقوطها. فأخذت تمرر أصابعها بحذر على كل أجزاء جمجمتها. كان هناك العديد من الكدمات، بما فيها كدمة كبيرة في مؤخرة رأسها. فخمنت: «حتمًا هذه الكدمة هي المسئولة عن حدوث الارتجاج.» لكن لم يكن هناك أي كسور في الجمجمة، أما النزيف القليل فقد توقف منذ بضع ساعات.

وتفحصت ذراعيها ورجليها ثم ظهرها. كان هناك رضوض وكدمات في كل أنحاء جسدها، ولكنها نجت بأعجوبة من أي كسور في العظام. أما الألم الحاد الذي ينتابها تحت عنقها مباشرة على فترات متقطعة، فكان يشير إما إلى حدوث تهشم جزئي في واحدة من فقرات عمودها الفقري، وإما أن بعض الأعصاب منضغطة بشدة. فيما عدا ذلك ستتعافى. وكان لاكتشاف أن جسدها قد نجا، وتقريبًا لم يُمس، أثره في رفع معنوياتها مؤقتًا.

بعدها تفقدت نيكول مكانها الجديد. لقد سقطت في وسط تجويف مستطيل الشكل عميق ولكن ضيق. كانت المسافة بين طرفَيه ست خطوات طولًا وخطوة ونصفًا عرضًا. وباستخدام مصباحها الضوئي وذراعها قدرت أن عمق التجويف يبلغ نحو ثمانية أمتار ونصف.

ولم يكن في التجويف سوى مجموعة مختلطة من القطع المعدنية الصغيرة، تتراوح أطوالها ما بين خمسة وخمسة عشر سنتيمترًا، مكومة عند أحد أطرافه. فحصتها نيكول بعناية باستخدام الضوء المنبعث من مصباحها. إجمالي عددها يزيد عن المائة، من اثني عشر نوعًا مختلفًا تقريبًا. وبعضها طويل ومستقيم، وبعضها الآخر مُنحنٍ، وقليل منها مَفصِلي، ذكرتها هذه الكومة بالنفاية الصناعية لأحد مصانع الفولاذ الحديثة.

كانت جدران التجويف مستقيمة تمامًا. وبدا ملمس المادة المصنوع منها الجدران لنيكول كخليط من المعدن والصخر. وكانت باردة، بل شديدة البرودة. ولم يكن هناك أي اعوجاج أو ثنايا يمكن استخدامها كموطئ للقدم، أو أي شيء من مثل هذا يمكن أن يوطد

عزيمتها على تسلق الحائط. فحاولت أن تكسر في الحائط أو تكشط سطحه باستخدام أدواتها الطبية. لكنها عجزت عن إحداث أي علامة.

وبعد أن وهنت عزيمتها بسبب الإنشاء المحكم لجدران التجويف، رجعت نحو كومة المعادن كي ترى هل هناك طريقة يمكن أن تجمع بها سلمًا أو سقالة، كدعامة ترفعها إلى النقطة التي تتمكن عندها من التسلق للخارج باستخدام قوتها الخاصة. لكن الكومة لم تكن مشجعة. فقد كانت قطع المعادن صغيرة للغاية ورفيعة. وبحسبة عقلية بسيطة استنتجت أنه لا توجد كتلة كافية لحمل وزنها.

ازدادت نيكول إحباطًا عندما تناولت وجبة خفيفة. تذكرت أنها قد أحضرت قليلًا من الطعام والشراب لأنها أرادت أن تحمل مزيدًا من المؤن الطبية لتاكاجيشي. حتى وإن قننت استخدامها من الماء والطعام، فإن الماء لن يكفي سوى يوم واحد، والطعام لن يكفي لفترة تتجاوز الست والثلاثين ساعة.

أضاءت مصباحها الضوئي إلى أعلى مباشرة. فارتد شعاع الضوء من سقف المخزن. وبالتفكير في المخزن، تذكرت مرة أخرى الأحداث التي سبقت سقوطها. لقد تذكرت نيكول تضخم إشارة الطوارئ، ما إن خرجت من المبنى. فقالت لنفسها في يأس: «حسنًا. من المرجح أن هذا المخزن منطقة عازلة لإشارات اللاسلكي من الداخل. إذن لا عجب في أن أحدًا لم يسمعني.»

استغرقت نيكول في سُبات لما لم تجد شيئًا آخر تفعله. وبعد مرور ثماني ساعات، استيقظت مع بدء أحد الأحلام المفزعة. كانت تجلس مع والدها وابنتها في أحد المطاعم الريفية بفرنسا. كان يومًا ربيعيًّا رائعًا؛ رأت الزهور في الحديقة المتاخمة للمطعم. وعندما جاء النادل وضع أمام جينيفيف طبقًا به لحم حلزون مغطًّى بالأعشاب والزبد. وأعطى بيير طبقًا كبيرًا به دجاج مطهو في مرق فطر عيش الغراب والنبيذ. ابتسم النادل ثم غادر. وقبل أن يغادر مال على نيكول بتؤدة وأخبرها أنه لا يوجد شيء «لها» …

لم تتضور نيكول جوعًا من قبل. وحتى في أثناء احتفال البورو بعدما استولت الأشبال على طعامها، لم تشعر نيكول بالجوع الشديد. وقالت نيكول لنفسها قبل أن تنام إنها سوف تقنن استخدام الطعام المتبقي بحوزتها، لكن هذا كان قبل أن تقهرها آلام الجوع. والآن اندفعت نيكول إلى عبوات الطعام بيدين مرتجفتين، وكادت أن تلتهم كل الطعام المتبقي لولا أنها منعت نفسها. ولفت الكم الضئيل المتبقي ووضعته في أحد

جيوبها، ثم دفنت وجهها بين يديها. ولأول مرة منذ سقوطها تركت نيكول نفسها تجهش في البكاء.

وقد أقرَّت أيضًا أن التضور جوعًا حتى الموت هو بحقٍّ طريقة مروعة للموت. وحاولت نيكول أن تتخيل حالها، إذا ما هزلت من شدة الجوع ثم ماتت في النهاية. هل ستحدث هذه العملية بالتدريج، كل مرحلة متعاقبة أكثر فظاعة من المرحلة التي قبلها؟ عندئذٍ قالت نيكول بصوت مرتفع عندما خابت كل آمالها: «إذن ليحدث ذلك في أسرع وقت.» وكانت ساعة يدها الرقمية تتوهج في الظلام، وتُحصي الدقائق الأخيرة الثمينة من حياتها.

مرت عدة ساعات. وازدادت نيكول هزالًا ويأسًا. وجلست مطأطأة الرأس في ركن بارد من التجويف. كما لو كانت مشرفة على أن تستسلم تمامًا وتقبل حتمية موتها، حينئذٍ جاء صوت مغاير من داخلها، صوت قاطع ومتفائل يرفض أن يتركها تستسلم. أخبرها هذا الصوت أن «أي» لحظة من لحظات الحياة ثمينة للغاية ورائعة، وأن تمتع الإنسان بوعيه فقط لهو معجزة مبهرة من معجزات الوجود. أخذت نيكول نفسًا بطيئًا وعميقًا ثم فتحت عينيها. وقالت: «إن كان عليَّ أن أموت هنا، على الأقل لأفعل هذا بحماسة.» وعزمت على أن تقضي الوقت الباقي، أيًّا كان مقداره، وهي تركز تفكيرها في اللحظات البارزة في سنوات حياتها الستة والثلاثين.

احتفظت نيكول بأمل ضئيل في النجاة. لكنها لطالما كانت امرأة عملية؛ لذا أخبرها المنطق أن المتبقي من عمرها قد يُحسب بالساعات على الأرجح. وفي غضون رحلتها المتأنية عبر ذكرياتها النفيسة، أجهشت نيكول في البكاء مرات عديدة دون أن تمنع نفسها، كانت دموعها حينًا هي دموع فرحة بسبب الماضي الذي استعادته إلى ذهنها، وحينًا آخر دموع فرحة وحزن في آن واحد؛ إذ كانت تعلم وهي تعيش كل ذكرى من جديد أنه ربما تكون هذه هي آخر زيارة لهذا الجزء بعينه من بنك ذكرياتها.

ولم يكن هناك نمط معين تتبعه في جولتها عبر دروب الحياة التي عاشتها. فهي لم تصنف ذكرياتها أو تَقِسها أو تُضاهِ بين تجاربها. فما حدث هو أنها عاشت من جديد ذكرياتها التي تواردت على ذهنها، وعمل وعيها المتزايد على تغيير وإثراء كل حدث قديم.

شغلت والدة نيكول مكانة خاصة في ذاكرتها. نظرًا لأنها توفيت عندما كانت في العاشرة من عمرها فحسب، نسبت إلى والدتها جميع الخصال المنسوبة لملكة أو إلهة. وكانت أناوي تياسو امرأة أفريقية شديدة السواد تتمتع بجمال فائق وبهاء ملكي ومكانة

غير عادية. وكانت كل الصور التي تحتفظ بها نيكول في مخيلتها عنها يغمرها ضوء متوهج ومبهج.

وتذكرت والدتها في غرفة المعيشة بمنزلهم بشيلي-مازران، وهي تشير لها كي تأتي وتجلس على حجرها. وكانت أناوي تقرأ لابنتها كل ليلة كتابًا قبيل نومها. وكانت معظم هذه الكتب تحكي قصصًا خيالية عن أمراء وقلاع وأناس سعداء رائعين يقهرون كل الصعاب. كان صوت والدتها عذبًا ورقيقًا. وكانت تغني لها التهويدات وهي تدخل في النوم رويدًا رويدًا.

وكانت أيام الآحاد أيامًا مميزةً في طفولتها. ففي الربيع تذهبان إلى الحديقة وتلعبان في حقول العشب الفسيحة. وكانت والدتها تعلمها الركض. ولم ترَ الصبية الصغيرة في حياتها شيئًا يضاهي جمال والدتها وهي تركض برشاقة عبر المروج الخضراء؛ إذ كانت في شبابها من النساء المصنفات دوليًّا في العدو.

وبلا ريب، تذكرت نيكول جيدًا تفاصيل رحلتها كافةً مع أناوي إلى ساحل العاج لحضور احتفالات البورو. كانت والدتها تؤازرها في الليالي التي سبقت طقس العبور في نيدوجو. وفي غضون هذه الليالي الطويلة المرعبة، تصارعت نيكول الصغيرة مع مخاوفها كافة. وفي كل يوم كانت والدتها تجيب بهدوء وحلم عن أسئلتها، كما كانت تذكرها أن فتيات كثيرات جدًّا قد اجتزن هذا الطقس الانتقالي دون التعرض لصعوبة تُذكَر.

وكانت أكثر ذكرى محبَّبة إلى نفس نيكول في الرحلة هي ذكرى ما حدث في غرفة الفندق في أبيدجان، في الليلة التي سبقت عودتهما إلى باريس. فلم تخض الاثنتان في مناقشة تفاصيل أي شيء يخص البورو سوى نذر يسير من الوقت خلال الثلاثين ساعة المنقضية منذ أن أنهت هي وبقية الصبايا المراسم. فلم تكن أناوي قد أثنت بعد على اجتيازها للبورو. وكان أوميه وشيوخ القرية أخبروا نيكول بأنها كانت مميزة، لكن بالنسبة لصبية في السابعة من عمرها، لم يكن ثناء أمها يعادله في أهميته أي ثناء آخر. واستجمعت نيكول شجاعتها قبيل وقت العشاء مباشرة.

تساءلت الفتاة الصغيرة بنبرة مترددة: «هل أبليت بلاءً حسنًا، يا والدتي؟ أعني في البورو.»

أجهشت أناوي في البكاء. وكررت جملة ابنتها: «هل أبليت بلاءً حسنًا؟ هل أبليت بلاءً حسنًا؟» ثم طوقت ابنتها بذراعيها الرشيقتين ورفعتها من الأرض. وحملتها فوق مستوى رأسها وقالت: «حبيبتي. أنا فخورة بك جدًّا حتى إنني لا أستطيع أن أصدق نفسي.» قفزت نيكول بين ذراعَي أمها وتعانقتا وضحكتا وبكتا لمدة خمس عشرة دقيقة.

استلقت نيكول على ظهرها في قاع التجويف، وكانت دموع الذكريات تنهمر على خديها وتصل إلى أذنيها. ولمدة ساعة تقريبًا كانت تفكر في ابنتها، بدءًا من يوم مولدها ومرورًا بكل الأحداث الرئيسية في حياة جينيفيف. وتذكرت نيكول العطلة التي قضتها معها في أمريكا قبل ثلاثة أعوام عندما كانت جينيفيف في الحادية عشرة من عمرها. كم كانتا قريبتين خلال هذه الرحلة، ولا سيما في اليوم الذي تنزهتا معًا على قدميهما في طريق ساوز كيباب في الجراند كانيون.

وكانت نيكول وجينيفيف تقفان عند كل علامة إرشادية في هذا الطريق، متأملتين آثار مليارَي عام على كوكب الأرض. وقد تناولتا الغداء على سطح صخرة شاطئية مطلة على الصحراء المتيبسة لهضبة تونتو. وفي هذه الليلة بسطت الأم وابنتها الفراشين اللذين سينامان عليهما جنبًا إلى جنب بجوار نهر كولورادو العظيم مباشرة. وطوال الليل تبادلتا أطراف الحديث وتشاركتا الأحلام وأمسكتا إحداهما بيد الأخرى.

غاصت نيكول في ذكرياتها أكثر، فبدأت تتذكر والدها، وقالت في نفسها: «لولا أنت ما كنت سأذهب إلى تلك الرحلة. أنت من كان يعلم أن هذا هو الوقت المناسب للذهاب.» كان والد نيكول هو حجر الزاوية في حياتها. لقد كان بيير دي جاردان بالنسبة لها الصديق، والشخص الذي تعترف له بأسرارها كافة، والصحبة الفكرية، وأكثر معضديها المتقدين حماسة. لقد كان حاضرًا وقت ولادتها، وحاضرًا أيضًا في كل اللحظات المهمة في حياتها. وكان هو أكثر من تتوق إلي وجوده وهي ترقد في قاع التجويف داخل راما. وهو من اختارته كي يكون آخر من تتحدث معه قبل أن تموت.

لم تختفِ من ذاكرتها أي ذكرى لها مع والدها، ولم تحتَجْ، مثل باقي الذكريات الأخرى، لأن تعصر ذهنها كي تتذكرها. كانت نيكول تحتفظ في ذهنها بفيلم دقيق يصور كل أحداث حياتها مع بيير. ومع أن السعادة كانت سمتها فإنها لم تخلُ أيضًا من الأحزان. فعلى سبيل المثال، تذكرت بوضوح وهما في غابات السافانا التي لا تبعد كثيرًا عن نيدوجو، أحدهما يمسك يدَي الآخر في هدوء وهما يبكيان، بينما كانت ألسنة النيران التي تلتهم جسد أناوي ترتفع وسط عباب ظلام أفريقيا. وما زالت أيضًا تستطيع أن تشعر بذراعيه وهما يحيطان بجسدها، في حين كانت تتشنج بشدة من فرط البكاء عقب فشلها، وهي في الخامسة عشر من عمرها في الفوز بالمسابقة التي أُجريت على مستوى فرنسا بأسرها لأداء دور جان دارك.

وقد عاشا معًا في بوفوا، كرفيقين من المستبعَد أن يمكثا معًا لمدة طويلة، بعد مرور عام على موت والدتها حتى أنهت عامها الثالث من الدراسة بجامعة تور. وقد عاشا حياة

سعيدة بكل ما تحملها الكلمة من معانٍ. فبعدما تعود بدراجتها من المدرسة كانت تجول عبر الغابات حول الفيلا التي يقطنان فيها. وكان بيير يجلس في مكتبه يكتب رواياته. وفي المساء تدق مارجريت الجرس وتدعوهما لتناول العشاء؛ إذ ينتهي يوم عملها عندئذٍ وتركب دراجتها عائدة إلى زوجها وأطفالها في لوين.

وفي أثناء فصول الصيف، كانت نيكول تسافر مع والدها في رحلة يطوفان فيها كل أنحاء أوروبا، حيث تزور مدن العصور الوسطى والقلاع التي كانت مسرح الأحداث الرئيسي لرواياته التاريخية. وقد عرفت نيكول عن إليانور دي أكيتان وزوجها الملك هنري بلانتاجينت أكثر مما عرفت حول زعماء السياسة النشطاء في فرنسا وغرب أوروبا. وعندما حاز بيير جائزة ماري رينو للأدب القصصي التاريخي عام ٢١٨١، ذهبت معه لباريس لتسلم الجائزة. جلست نيكول في الصف الأول في القاعة الكبيرة، مرتديةً تنورة بيضاء وبلوزة أنيقة كان بيير قد ساعدها في اختياريهما، ثم استمعت إلى المتحدث وهو يُثني على مناقب والدها.

ولا تزال نيكول تستطيع أن تتلو عن ظهر قلب أجزاءً من خطاب قبول والدها للجائزة. قال والدها بالقرب من نهاية خطابه: «وكثيرًا ما أُسأل، هل نلت أي قدر من الحكمة وأود أن أشارك به أجيال المستقبل.» فنظر عندئذٍ لنيكول مباشرة وهي جالسة بين الجمهور. وقال: «إلى ابنتي الغالية نيكول، وإلى كل شباب العالم بأسره، أقدم نصيحة واحدة بسيطة متبصرة. لقد اكتشفت في حياتي شيئين لا يُقدَّران بثمن، وهما التعلم والحب. ولا شيء سواهما، لا الشهرة، ولا السلطة، ولا الإنجاز لمجرد الإنجاز، يتمتع بقيمتهما الدائمة. لأنه عندما تنتهي حياتك، تستطيع أن تقول «لقد تعلمت»، «ولقد أحببت»، عندئذٍ يمكنك أن تقول أيضًا «لقد كنت سعيدًا».»

قالت نيكول والدموع الغزيرة تنهمر على خدها: «لقد كنت سعيدة، بسببك أنت في المقام الأول. أنت لم تخذلني قط. حتى في أصعب لحظات حياتي.» واتجهت ذاكرتها بعد ذلك إلى صيف عام ٢١٨٤، عندما تسارع إيقاع حياتها بهذا المعدل المذهل، حتى إنها فقدت القدرة على التحكم في توجيه دفة حياتها. ففي فترة لم تتجاوز ستة أسابيع فازت نيكول بميدالية أوليمبية ذهبية وأقامت علاقة قصيرة وحارَّة مع أمير ويلز، ورجعت إلى فرنسا لتخبر أباها أنها حامل.

واستطاعت نيكول أن تتذكر الأحداث الرئيسية في هذه الفترة كما لو كانت قد حدثت البارحة. فلم تجتَزْ نيكول بكم مشاعر في حياتها يمكن أن يُضاهى بالبهجة والسعادة

اللتين عايشتهما عندما كانت واقفة على منصة الفوز في لوس أنجلوس، والميدالية الذهبية تطوق عنقها، وهتاف تشجيع مائة ألف إنسان يدوي في أذنيها. لقد كانت أسعد لحظات حياتها. ولمدة أسبوع تقريبًا، كانت نجمة الإعلام العالمي. تصدرت أخبارها الصفحة الأولى في جميع الصحف، وسُلطت عليها الأضواء في كل المحطات الرياضية الرئيسية.

وبعد آخر مقابلة أُجريت معها في الاستوديو التلفزيوني المتاخم للاستاد الذي تجري فيه الألعاب الأوليمبية، جاء شاب إنجليزي ذو ابتسامة ساحرة وقدم نفسه على أنه دارين هيجينز وأعطاها بطاقة. تحوي هذه البطاقة دعوة مكتوبة بخط اليد للعشاء مع أمير ويلز نفسه، الرجل الذي سوف يصبح فيما بعدُ ملك بريطانيا العظمى هنري السادس.

أخذت نيكول تتذكر، إذ نسيت، إلى حين، وضعها المأسوي الحالي في راما وقالت: «كان العشاء كالسحر.» وأردفت: «كان الأمير بهيَّ الطلعة. وكان اليومان التاليان رائعين بدرجة مذهلة.» لكن بعد مرور تسع وثلاثين ساعة، عندما استيقظت في غرفة نوم هنري في ويستوود، انتهت قصتها الخيالية فجأة. فأميرها الذي كان لطيفًا وحنونًا للغاية، قد تحوَّل الآن إلى شخص متجهم الوجه وحاد المزاج. ولما حاولت نيكول الساذجة أن تفهم دون طائلٍ ما الخَطب، اتضح لها بالتدريج أن القصة الخيالية قد انتهت. تذكرت نيكول: «لم أكن إلا عشيقة؛ لأني كنت موضوع الساعة حينذاك فقط. لم أكن مناسبة لأي علاقة دائمة.»

ولم تستطِع نيكول أن تنسى آخر كلمات نطق بها الأمير في لوس أنجلوس. لقد كان يطوف حولها وهي تحزم أمتعتها في عجالة. ولم يستطِع أن يفهم لمَ هي ثائرة للغاية هكذا. رفضت نيكول أن تجيب أيًّا من أسئلته وقاومت محاولاته ليحضنها. فسألها أخيرًا بعدما بدا عليه الإحباط. ماذا كنت تتوقعين؟ أكنت تتوقعين أننا سنبدأ حياة سعيدة ونعيش هانئين للأبد؟ أفيقي يا نيكول، هذا هو الواقع الذي نعيشه. عليك أن تعرفي أن الشعب الإنجليزي لن يقبل البتة أن تكون ملكتهم امرأة من أصول زنجية.»

فرَّت نيكول قبل أن يرى هنري دموعها. ثم قالت نيكول لنفسها في قاع التجويف براما: «وهكذا يا عزيزتي جينيفيف، رجعت من لوس أنجلوس بكنزين جديدين. كانت لديَّ ميدالية ذهبية، وطفلة رائعة في أحشائي.» ثم قفز ذهنها بعد ذلك بسرعة إلى الأسابيع المليئة بالقلق والإحباط التي عقبت ذلك، ولحظات العزلة عندما استجمعت أخيرًا كل قُواها كي تتحدث إلى والدها.

قالت نيكول مترددةً لبيير في صباح أحد أيام شهر سبتمبر في غرفة المعيشة في فيلتهما في بوفوا: «أنا ... أنا لا أعلم ماذا أفعل. أعلم أنني خذلتك بشدة — وخذلت نفسي — لكن أودُّ أن أسألك إذا كان من المناسب. أعني إذا أردت، أفيمكنني أن أمكث هنا وأحاول ...»

قاطعها والدها قائلًا: «بالطبع، يا نيكول.» وقد كان يبكي بهدوء. وكان هذا الوقت الوحيد الذي شاهدته فيه نيكول يبكي منذ وفاة والدتها. واسترسل بيير: «سوف نفعل ما هو مناسب أيًّا كان»، قال هذا وهو يجذبها لحضنه.

قالت نيكول لنفسها: «كنت محظوظة للغاية. فقد كان متسامحًا للغاية. ولم يشعرني بجرمي قط. ولم يسأل عن أي شيء. وعندما أخبرته أن هنري هو والد الطفلة، وأنني لا أريد أن يعرف أحد على الإطلاق ولا سيما هنري أو الطفلة، وعدني بأنه سيكتم السر. وقد فعل.»

وفجأةً بزغ الضوء على راما، فوقفت نيكول كي تفحص سجنها في ظل الأوضاع الجديدة. وكان مركز التجويف هو المكان الوحيد المكتمل الإضاءة، أما طرفاه فقد كانا مظلمين. وكانت نيكول تشعر بالبهجة والتفاؤل بالرغم من وضعها الحالي.

رفعت نيكول عينيها إلى سقف المخزن ومن خلاله إلى سماء راما التي يعجز المرء عن وصفها. فكرت نيكول في ساعاتها الأخيرة القليلة، فانتابها باعث مفاجئ. إن نيكول لم تصلِّ طيلة عشرين عامًا، فانحنت على ركبتيها وسط بقعة الضوء المكتملة وسط التجويف. وصلَّت قائلة: «يا إلهي، أعرف أني تأخرت في هذا جدًّا، لكن أشكرك على والدي، ووالدتي وابنتي. وعلى كل معجزات الحياة.» ثم حدقت نيكول في السقف. وابتسمت وتلألأت عيناها. ثم أردفت: «والآن يا إلهي يمكنني أن أطلب منك العون.»

الفصل الثامن والثلاثون

الزائران

أخذ الإنسان الآلي الصغير يسير بخُطًا واسعة في بقعة الضوء، ثم استل سيفه من غمده. وصل الجيش الإنجليزي إلى هارفلير. ثم بدأ يقول:

مرة أخرى، لنقتحم الثغرة، أيها الأصدقاء الأعزاء،
مرة أخرى أو نسدها بأجساد قتلانا من الإنجليز.
لا شيء أليق بالإنسان في وقت السلم والدعة
من أن يلتزم الهدوء والتواضع والمهادنة؛
ولكن إذا ما دوى نفير الحرب في آذاننا
فلنحذُ حذو النمر ونُحاكِه فيما يصنع ...

مضى هنري الخامس، الملك الجديد لإنجلترا، قُدمًا في شحذ همة جنوده الخياليين. كانت نيكول تبتسم وهي تنصت له. وقد قضت ما يقرب من ساعة في متابعة الأمير هال الذي أعطاه لها ويكفيلد بداية من فجوره إبان شبابه، ومرورًا بساحات المعارك التي كان يحارب فيها ضد هوتسبار وغيره من المتمردين، ووصولًا إلى عرش إنجلترا. ولم تقرأ نيكول المسرحيات الثلاثة الخاصة بهنري سوى مرة واحدة، وكان ذلك منذ سنوات عديدة، غير أنها كانت على دراية تامة بهذه الحقبة التاريخية بسبب إعجابها الدائم بجان دارك.

قالت نيكول بصوت مرتفع للإنسان الآلي الصغير حينما مالت إلى جانبه كي تدخل عصا ريتشارد في مفتاح إيقاف التشغيل: «لقد قادك شكسبير إلى شيء ما كنته قط. لقد كنت محاربًا، ولا جدال في هذا بحق. لكنك كنت أيضًا غازيًا بلا شعور وقاسي القلب. لقد جعلت نورماندي تنزف تحت نيرك الثقيل. لقد قضيت تقريبًا على الحياة في فرنسا.»

سخرت نيكول من نفسها بانفعال. وحدثت نفسها: «لكني هنا، أتحدث إلى أمير طوله عشرون سنتيمترًا، مصنوع من الخزف، وفاقد الحس والإدراك.» وقد تذكرت مشاعر يأسها منذ ساعة بعدما حاولت مرة أخرى أن تجد مخرجًا لها. وقد تأكدت حقيقة أن الوقت ينفد منها عندما ارتشفت جرعة الماء قبل الأخيرة من قارورتها. وبالرجوع إلى التفكير في الأمير هال مرة أخرى، قالت في نفسها: «حسنًا، على الأقل هذا أفضل من الرثاء لنفسي.»

قالت نيكول: «وماذا تستطيع أن تفعل أيضًا، أميري الصغير؟». وتابعت تساؤلاتها: «ماذا سيحدث إذا أدخلت هذا الدبوس في المفتاح المعلم بحرف «ح»؟»

بدأ الإنسان الآلي في العمل، وخطا بضع خطوات، وأخيرًا اقترب من قدمها اليسرى. وبعد صمت طويل، تحدث الأمير هال، ولم يتحدث هذه المرة بصوت الممثل القوي الذي استخدمه في غضون قراءته السابقة، وإنما تحدث بلكنة ويكفيلد البريطانية. وقال: «يشير حرف ح إلى الحديث، يا صديقتي، ولديَّ قدر لا بأس به من التعليمات البرمجية. لكنني لن أتحدث حتى تقولي أنتِ شيئًا أولًا.»

ضحكت نيكول. ثم قالت بعد لحظة تفكير: «حسنًا، يا أمير هال، حدثني عن جان دارك.»

تردد الإنسان الآلي وتجهم. ثم قال: «لقد كانت ساحرة يا سيدتي العزيزة، وقد أُعدمت حرقًا بشدها إلى وتد في رون بعد موتي بعشر سنوات. وفي غضون فترة حكمي، أخضعت جيوشي منطقة شمال فرنسا. فقامت الساحرة الفرنسية، التي كانت تزعم أنها مرسَلة من قِبل الله ...»

توقفت نيكول عن الإصغاء للأمير هال ورفعت رأسها لأعلى حيث عبر ظل فوق منهما. فاعتقدت أنها رأت شيئًا ما يطير فوق سطح المخزن. فأخذ قلبها يخفق بشدة. وصاحت بأعلى صوتها: «هنا، أنا هنا.» واصل الأمير هال حديثه بنبرة رتيبة عن الجزء الذي يدور حول كيف أثر نجاح جان دارك عليه؛ إذ أفضى هذا النجاح مع الأسف إلى رجوع المناطق التي كان قد استولى عليها إلى مملكة فرنسا. قالت نيكول وهي تضغط بالعصا مرة أخرى على زر إيقاف تشغيل الأمير هال: «يا لك من إنجليزي. إنجليزي بمعنى الكلمة.»

بعد بضع لحظات، كبر حجم الظل الذي يخيم على التجويف، مما عتَّم قاع التجويف تمامًا. نظرت نيكول إلى أعلى وكاد قلبها أن ينخلع. فإذا بمخلوق عملاق مثل الطائر يرف فوق التجويف، مرفرفًا بأجنحته الممتدة. ارتدَّت نيكول للوراء وصرخت صرخة لا إرادية. أدخل المخلوق عنقه إلى التجويف وغمغم ببعض الأصوات. كانت الأصوات التي أصدرها

خشنة لكن بها نغمة موسيقية طفيفة. وشُلت حركة نيكول. وعاود هذا الشيء الغمغمة بنفس الأصوات تقريبًا ثم حاول، دون طائل لأن أجنحته كانت كبيرة للغاية، أن ينزل نفسه إلى التجويف الضيق.

وفي غضون هذه الفترة القصيرة، بعدما حلَّ الخوف الطبيعي محل نوبة الرعب، أنعمت نيكول النظر في الكائن المُحلِّق الغريب والعملاق. كان وجهه — باستثناء عينيه الرقراقتين الغائرتين الزرقاوين اللذين يحيط بهما حلقة بنية اللون — يذكرها بحيوان الزاحف المجنح المنقرض الذي شاهدته في متحف التاريخ الطبيعي بفرنسا. وكان منقاره طويلًا جدًّا ومعقوفًا. وفمه بلا أسنان، ويوجد بمخلب من مخلبيه المتسقين مع جسمه أربع أصابع حادة.

خمنت نيكول أن كتلة الطائر تبلغ نحو مائة كيلوجرام. وكان كل جسمه، خلا وجهه ومنقاره وأطراف أجنحته ومخالبه، مغطًّى بمادة سوداء كثيفة تشبه القطيفة. وعندما تبين للطائر أنه ليس بمقدوره أن يهبط إلى قاع التجويف، غمغم بنغمتين حادتين وتراجع لأعلى ثم اختفى.

لم تحرك نيكول ساكنًا في غضون الدقيقة الأولى لرحيل المخلوق. ثم جلست وحاولت أن تستجمع أفكارها. وكان الأدرينالين الذي أفرزه جسدها نتيجة خوفها لا يزال يتدفق. وحاولت أن تفكر بعقلانية فيما رأت. وكانت أولى الأفكار التي تبادرت إلى ذهنها تقول إن هذا الشيء هو مخلوق آلي، شأنه شأن باقي المخلوقات المتحركة التي شُوهدت من قبل في راما. فقالت في نفسها: «إذا كان هذا مخلوقًا آليًّا فإنه متطور للغاية.» فقد استرجعت في ذهنها صورة المخلوقات الآلية الأخرى التي شاهدتها من قبل؛ السرطانات الآلية في النصف الجنوبي للأسطوانة، والمجموعة الكبيرة المتنوعة من المخلوقات التي صورتها بعثة راما ١. ولذا لم تستطع نيكول أن تقنع نفسها أن الطائر هو مخلوق آلي. ثمة شيء غريب يتعلق بعينيه …

سمعت نيكول أجنحة ترفرف من بعيد، فانتفض جسدها. انكمشت نيكول في الركن الذي تخيم عليه الظلال في اللحظة التي حجب فيها جسم ضخمٌ الضوء مرة أخرى عن التجويف. في الواقع، لم يكن جسمًا واحدًا بل جسمان. لقد عاد الطائر الأول وبصحبته طائر آخر، وكان الطائر الآخر أكبر بدرجة ملحوظة. أقحم الطائر الجديد رقبته لأسفل وحدق في نيكول بعينيه الزرقاوين وهو يحلق فوق التجويف. صدر عن الطائر الجديد صوت أعلى، وكانت النغمة الموسيقية في صوته أقل من تلك التي للطائر الآخر، ثم رفع

رقبته ونظر إلى رفيقه. وبينما أخذ الطائران يثرثران معًا جيئة وذهابًا لاحظت نيكول أن الطائر الجديد مُغشًّى بطبقة لامعة تشبه المشمع، وفيما عدا ذلك، إضافة إلى حجمه، هو متطابق في كل الجوانب مع الزائر الأول. أخيرًا ارتفع الزوج الغريب وهبطا على جانب التجويف وهما لا يزالان يثرثران. وأخذا ينظران لنيكول بهدوء لما يقرب من دقيقة أو اثنتين. وبعد محادثة قصيرة غادرا.

أُنهكت نيكول بعد نوبة الخوف التي اجتازتها. وفي غضون دقائق من رحيل زائريها الطائرين، تكومت نيكول حول نفسها ونامت في أحد أركان التجويف. وغرقت في سبات عميق لبضع ساعات. ثم استيقظت على جلبة شديدة، صوت فرقعة يدوي في كل أرجاء المخزن، كما لو كان صوت طلق ناري. استيقظت نيكول بسرعة، لكنها لم تسمع المزيد من الأصوات غير المفهومة. وذكَّرها جسدها بأنها جائعة وظمآنة. فأخرجت ما تبقى من طعامها. وسألت نفسها بسأم: «أينبغي لي أن أقسمه إلى وجبتين صغيرتين؟ أم ينبغي أن أتناوله كله الآن وأتقبل ما سيحدث أيًّا كان؟»

تنهدت نيكول بعمق، وقررت أن تستنفد كل طعامها ومائها في آخر وجبة لها. وكانت تعتقد أن كلًّا من الماء والطعام معًا سوف يقويانها حتى يمكنها أن تنسى مشكلة الطعام مؤقتًا. لكنها كانت مخطئة. وبينما كانت ترتشف آخر رشفة من قارورة الماء توالت على ذهنها، كوابلٍ من الرصاص، مجموعة من الصور لزجاجات مياه الينابيع التي كانت توضع أمامها وأمام أسرتها على المائدة في بوفوا.

وعندما انتهت نيكول من تناول وجبتها كان هناك صوت آخر لفرقعة مدوية آتٍ من بعيد. توقفت نيكول لتنصت إلى الصوت، لكن الصوت غاب مرة أخرى. وهيمن على ذهنها أفكار لإيجاد مخرج من حبسها، وكانت جميعها تدور حول الاستعانة بالطائرين بطريقة ما ليعيناها على الخروج من التجويف. وكانت مستاءة من نفسها لأنها لم تحاول التواصل معهما عندما سنحت الفرصة. ضحكت نيكول لنفسها. ثم قالت: «حتمًا، لكانا عزما على التهامي. لكن من قال إن الموت جوعًا أفضل للمرء من أن يؤكل حيًّا.»

كانت نيكول متيقنة أن الطائرين سيعودان. وربما عزز وضعها اليائس يقينها. ومع ذلك بدأت نيكول في التخطيط لما ستفعله عندما يرجعان. فتخيلت نفسها تقول: «مرحبًا.» وسوف تقف وكفُّ يدها ممدود، وتمشي بكل عزمها حتى مركز التجويف، تحت الطائر المرفرف مباشرة. وعندئذٍ تستخدم نيكول مجموعة خاصة من الإيماءات لتعبر لهما

عن المأزق الذي تمر به؛ إذ ستشير أولًا وبطريقة متكررة إلى نفسها، وعندئذٍ سيوحي التجويف لهما بأنها لا تستطيع الخروج منه؛ وبالإشارة إلى كلٍّ من الطائرين وسقف المخزن سيعرفان أنها تطلب النجدة منهما.

لكن أعاد صوتان حادان مرتفعان نيكول إلى أرض الواقع. وبعد برهة من الصمت سمعت صوت فرقعة آخر. بحثت نيكول في الفصل الخاص بـ «البيئة» في «أطلس راما الإلكتروني»، ثم ضحكت على نفسها لأنها لم تدرك في الحال ما كان يحدث. لقد كان هذا الدوي المرتفع لتحطم الجليد بسبب ذوبان البحر الأسطواني من القاع. فقد كانت راما لا تزال بداخل مدار كوكب الزهرة (ومع ذلك، لم يكن في معلومها أن المناورة الأخيرة وضعت راما على المسار الذي يتزايد الآن بعده عن الشمس مرة أخرى)، وأن المدخلات الشمسية جعلت درجة الحرارة داخل راما منذ قليل فوق درجة تجمد الماء.

وحذر «الأطلس» من هبوب عواصف هوائية وأعاصير عاتية بسبب الاضطرابات الحرارية الحادثة في الجو عقب ذوبان البحر. سارت نيكول حتى منتصف التجويف. وصرخت: «هيا أيها الطائران، أو أيًّا ما تكونان. هيا أخرجاني الآن ودعاني أحظى بفرصة للهرب.»

لكن الطائرين لم يعودا. ظلت نيكول مستيقظة في أحد أركان التجويف مدة عشر ساعات، وكانت تُصاب بالهزال تدريجيًّا بينما وصلت أصوات الفرقعة المدوية إلى أقصى حد لها ثم تلاشت بالتدريج. وهبت الريح. كنسمات في البداية، ثم تحولت إلى عاصفة عاتية في الوقت الذي توقفت فيها أصوات الفرقعة الصادرة عن تحطم الجليد. وتمكن الإحباط الشديد من نيكول. وعندما أوشكت أن تغوص في سبات عميق مرة أخرى، جال في خاطرها أنها من المحتمل ألا تستيقظ ثانيةً أكثر من مرة واحدة أو مرتين.

اجتاحت الرياح نيويورك إذ نشط الإعصار بقوة لساعات. تكومت نيكول حول نفسها كالجثة الهامدة في الركن. كانت تنصت إلى زفيف الريح، وتذكرت الجلوس في شاليه التزلج أثناء إحدى العواصف الثلجية العنيفة في كلورادو. وحاولت أن تتذكر متعة التزلج لكنها لم تستطِع. فقد وهنت أيضًا قدرتها على التخيل بفعل جوعها وإعيائها. مكثت نيكول بلا حراك وذهنها مجرد من الأفكار، عدا التساؤل بين الفينة والفينة عما سيكون شعور المرء عند الموت.

لم تستطِع أن تتذكر آخر مرة غرقت فيها في النوم ولا حتى آخر مرة استيقظت فيها. باتت هزيلة للغاية. أخبرها عقلها أن ثمة شيئًا ما قد قفز إلى حفرتها. وعمَّ الظلام مرة أخرى. زحفت نيكول من طرف التجويف حيث كانت جالسة إلى الطرف الآخر حيث كومة المعادن. ولم تُدر مصباحها الضوئي. وارتطمت بشيء ما ففزعت، ثم بدأت تتحسسه بيديها. كان حجم هذا الشيء كبيرًا، أكبر من كرة السلة. وأملس من الخارج وبيضاوي الشكل.

صارت نيكول أكثر انتباهًا. ثم عثرت على مصباحها الضوئي في بذلتها وسلطت الضوء على الشيء. كان لونه أبيض ضاربًا إلى الصفرة ويشبه البيضة. فتفحصته بدقة. وعندما ضغطت عليه بشدة، خرج منه شيء ما. فتساءل ذهنها: «أيمكن أن أتناوله؟» وكان جوعها مستفحلًا حتى إنها لا تأبه لما قد يحل بها من جرَّاء ذلك.

تناولت نيكول سكينها وتمكنت من شقه بصعوبة. وبحماسة قطعت كسرة منها ووضعتها في فمها. كان لا طعم لها. فلفظته نيكول من فمها وأجهشت في البكاء. ثم ركلت الشيء بغضب فانقلب. فظنت نيكول أنها سمعت صوتًا ما. هُرعت نيكول إليه وضغطت عليه بشدة وقلبته مرة أخرى. وقالت لنفسها: «نعم، نعم. إنه كصوت انسكاب الماء.»

وأخذت تقطع بتؤدةٍ الطبقة الخارجية. وبعد بضع دقائق أخرجت معداتها الطبية، وبدأت تعمل في الشيء بمشرطها القوي. وأيًّا كان هذا الشيء، فإنه كان مكونًا من ثلاث طبقات منفصلة وبارزة. وكانت الطبقة الخارجية خشنة مثل جلد كرة القدم، ويصعب التعامل معها نسبيًّا. أما الطبقة الثانية فهي مركب أزرق داكن ورقيق ورطب وله قوام الشمام. وبالداخل في المركز كمية كبيرة من سائل أخضر اللون. وأدخلت نيكول التي كانت ترتجف من فرط لهفتها، يدها عاقفةً إياها كالملعقة في الشق ودفعت السائل نحو فمها. كان له مذاق دوائي غريب، لكنه كان منعشًا. ارتشفت نيكول في عجالة رشفتين، وعندئذٍ أوقفتها المعرفة المكتسبة خلال السنوات التي قضتها في الممارسة الطبية.

فقاومت رغبتها في احتساء المزيد، وأدخلت مسبار مقياس الطيف الكتلي في السائل كي تحلل مكوناته الكيميائية. وقد كانت تتصرف بعجالة حتى إنها أخطأت في العينة الأولى ثم أعادت الكَرة. وعندما ظهرت نتائج التحليل على الشاشة المعيارية الصغيرة التي يمكن تثبيتها بأيٍّ من أجهزتها، أخذت نيكول في البكاء من شدة الفرح. إذ لم يكن السائل سامًّا. بل على العكس، كان غنيًّا بالبروتين والمعادن التي هي من نفس نوع المركبات الكيميائية التي يمكن لجسدها معالجتها.

صرخت نيكول بصوت مرتفع: «حسنًا، حسنًا!» ثم نهضت في عجالة فأوشكت على الإصابة بالدوار. والآن وبعد أن اطمأنت إلى هذا الشيء جلست على ركبتيها وبدأت تستمتع بوليمتها. احتست نيكول السائل والتهمت من اللحم الرطب إلى أن أصابتها التخمة. ثم غرقت في سبات عميق، سبات مشبع.

عندما استيقظت نيكول، كان همها الأول هو أن تحدد كمية «شمام المن» كما أطلقت عليه، المتاحة لها. لقد كانت نيكول شرهة في الماضي، وكانت تفطن إلى ذلك، لكن هذا كان في الماضي. وكل ما كانت تحتاج لفعله الآن هو أن تدخر شمام المن، حتى تتمكن بطريقة ما أن تطلب النجدة من الطائرين.

قدرت نيكول وزن الشمام بحذر. كان يبلغ إجمالي وزنه بأكمله تقريبًا عشرة كيلوجرامات، لكن تبقى منه ما يزيد بقليل عن ثمانية كيلوجرامات. وقدرت نيكول الجزء الخارجي غير القابل للأكل بنحو كيلوجرامين تقريبًا، فيتبقى لها نحو ستة كيلوجرامات من الغذاء موزَّعة تقريبًا بالتساوي بين السائل واللحم الأزرق الداكن. وأخذت تفكر: «لنرَ، ثلاثة كيلوجرامات سائل يمكننا أن ...»

حينئذٍ قطع حبل أفكارها بزوغ الضوء مرة أخرى. فقالت لنفسها وهي تنظر في ساعة يدها: «أجل، في الوقت المحدد، عند نفس الانحرافات الزمانية.» ثم نظرت إلى الشيء الأشبه بالبيضة لأول مرة تحت الضوء الساطع. ثم أدركت الأمر في الحال. قالت نيكول وهي تحرك أصابعها على الخطوط البنية المتمعجة على سطح البيضة ذات اللون الأبيض الضارب للصفرة: «يا إلهي.» وأردفت قائلة: «كدت أنسى.» ثم مدت يدها في بذلتها وأخرجت الحجر المصقول الذي أعطاها لها أوميه عشية السنة الجديدة في روما. حدقت نيكول في الحجر ثم حملقت في كل أجزاء الشيء البيضاوي وهي في التجويف. وقالت نيكول مرة أخرى: «يا إلهي.»

ثم وضعت الحجر في جيبها وأخرجت القارورة الصغيرة الخضراء، وسمعت صوت جدها العظيم وهو يقول مرة أخرى: «روناتا، ستعرفين الوقت الذي يجب أن تشربي فيه منها.» جلست نيكول في الركن وتجرعت القارورة كلها في رشفة واحدة.

الفصل التاسع والثلاثون

مياه الحكمة

على الفور غشي بصرها. فأغمضت عينيها ثانيةً.

وعندما فتحتهما مرة أخرى غمرتهما ألوان ساطعة تتدفق في صورة أشكال هندسية كما لو كانت نيكول تتحرك بسرعة كبيرة. وفي مركز رؤيتها كان هناك على مسافة بعيدة نقطة سوداء بزغت من خلفية تنتصف مجموعة رائعة يتبادل فيها ظهور الأشكال الحمراء والصفراء. ركزت نيكول على النقطة السوداء التي بدأت تتضخم شيئا فشيئًا. فاندفعت النقطة نحوها وتمددت حتى ملأت مجال رؤيتها. رأت نيكول رجلًا، رجلًا كبيرًا وأسود البشرة يجري عبر غابات السافانا الأفريقية في ليلٍ سماؤه متألقة ومرصَّعة بالنجوم. رأت وجهه بوضوح في حين كان يتجه كي يتسلق جبلًا من الصخور. بدا الرجل مثل أوميه، لكن من المثير للدهشة أنه بدا مثل والدتها أيضًا.

انطلق متسلقًا الجبل الصخري بخفة ورشاقة مذهلين. وعلى قمة الجبل وقف كالشبح، باسطًا ذراعيه ومحدقًا في السماء نحو الهلال المعلق في الأفق. سمعت نيكول صوت محرك إطلاق صاروخ ثم التفتت إلى يسارها. فرأت سفينة فضائية صغيرة تهبط على سطح القمر. وخرج منها رجلان في بذلة رواد الفضاء وبدآ في هبوط السلم. ثم سمعت نيل آرمسترونج يقول: «إن هذه مجرد خطوة صغيرة لشخص، وقفزة عملاقة للبشرية.»

وانضم بز ألدرين إلى آرمسترونج على سطح القمر وأشارا بعيدًا عن يمينهما. لقد كانا يحدقان في الرجل الهرِم الأسود الذي يقف على سفح قمري متاخم. ابتسم الرجل. كانت أسنانه ناصعة البياض.

لاح وجهه في مجال رؤية نيكول وصار أكثر وضوحًا مما سبق؛ إذ بدأ يتلاشى منظر سطح القمر من خلفه. ثم بدأ يغني بهدوء بلغة السينوفو، لكن في بادئ الأمر لم تستطع نيكول أن تفهم ما كان يقوله. وفجأة بدأت تدرك أنه يتحدث «إليها»، وأنها تفهم كل

كلمة ينطق بها. قال: «أنا أحد أسلافك منذ زمن سحيق. وعندما كنت صبيًّا انصرفت لأتأمل الليلة التي هبط فيها أناس على القمر. ولأني كنت ظمآن، احتسيت حتى الثمالة من مياه بحيرة الحكمة. فحلقت أولًا للقمر حيث تحدثت إلى رواد الفضاء، ثم إلى عوالم أخرى. والتقيت بالعظماء الذين أخبروني أن أروي قصة مينوي للنجوم.»

وبينما كانت نيكول تنظر إليه بدأت رأسه تتضخم. وتحولت أسنانه إلى أسنان وحشية طويلة، وأخذت عيناه تضرب إلى الصفرة. ثم تحول إلى نمر وأطبق على عنقها. صرخت نيكول إذ كانت تشعر بأنيابه على عنقها بالفعل. فأخذت تحتضر. بيد أن قبضة النمر ارتخت من على عنقها؛ إذ طُعن طعنةً غائرة بسهم في جنبه. سمعت نيكول صوت جلبة، فنظرت إلى أعلى. كانت والدتها، التي تتسربل برداء أحمر متدلٍّ وتمسك بقوس ذهبي، تركض بخفة نحو مركبة مطلية بالذهب تجرها الخيول معلقة في منتصف الهواء. فصرخت نيكول: «أماه، انتظريني.»

استدارت والدتها. وقالت: «لقد ضُللتِ. عليك أن تكوني أكثر حذرًا. لا أستطيع أن أنقذك سوى ثلاث مرات. احترسي مما لا ترينه لكنك تعلمين بوجوده.» ثم صعدت أناوي إلى المركبة وأمسكت الزمام. وقالت: «لا يجب أن تموتي. أنا أحبك يا نيكول.» ثم حلقت الخيول الحمراء ذات الأجنحة لأعلى وأعلى حتى اختفت عن ناظرَي نيكول.

عادت الأشكال الملونة تتراءى لنيكول. وسمعت الآن صوت موسيقى، كان الصوت بعيدًا جدًّا في البداية ثم أخذ في الاقتراب. إنه صوت اصطناعي كصوت أجراس من الكريستال. صوت سماوي جميل لا يُنسى. وكان هناك صوت تصفيق حاد. كانت نيكول تجلس في الصف الأول في حفلة موسيقية بمعية والدها. ويقف على خشبة المسرح رجل شرقي ينساب شعره على الأرض، وعيناه تحدقان في نشوة وطرب، ووقف إلى جانب ثلاث آلات موسيقية غريبة الشكل. وكان الصوت يحاصر نيكول من جميع الجهات. وأثار رغبتها في البكاء.

قال والدها: «هيا. علينا أن نرحل.» وبينما كانت نيكول تنظر إلى والدها تحول إلى عصفور. وابتسم لها. رفرفت نيكول بجناحَي عصفورها وأصبحا كلاهما في الهواء معًا تاركين الحفلة الموسيقية وراءهما. وتلاشى صوت الموسيقى. واندفع الهواء خلالهما. استطاعت نيكول أن ترى وادي اللوار المحبب إلى نفسها، ولمحة من فيلتهما في بوفوا. وكانت مسرورة لذهابهما إلى المنزل. لكن والدها العصفور هبط في شينون جنوب وادي اللوار. وهبط العصفوران على شجرة تقع في الأراضي المحيطة بالقلعة.

وأسفل منهما، كان يقف في هواء شهر ديسمبر المنعش، هنري بلانتاجينت وإليانور دي أكيتان يتجادلان حول خلافة عرش إنجلترا. كانت إليانور تتمشى تحت الشجرة وشاهدت العصفورين. فقالت: «هاي! مرحبًا يا نيكول، لم أكن أعرف أنكما هناك»، شبَّت الملكة إليانور إليهما ثم مسدَت بلطف على باطن العصفور. اقشعر بدن نيكول من رقة لمستها. قالت الملكة لنيكول: «تذكري يا نيكول، القدر أكثر أهمية من الحب أيًّا كان نوعه. يمكنك أن تتحملي أي شيء، إن كنت متيقنة من قدرك.»

اشتمَّت نيكول رائحة نيران، وشعرت بأن ثَمة حاجة إليهما في مكان آخر. فحلقتا هي ووالدها، حيث استدارا شمالًا باتجاه نورماندي. فازدادت رائحة النيران قوة. لقد سمعا صوت أحدهم يصرخ طلبًا للنجدة، فرفرفا بقوة.

وفي رون، وجهت فتاة بسيطة ذات عينين مشرقتين بصرها نحوهما عندما وصلا. وقد التهمت النيران المشتعلة تحتها قدميها، فكانت رائحة الجسد المحترق التي اشتماها أولًا في الهواء لقدميها المحترقين. وأغمضت الفتاة عينيها للصلاة؛ إذ كان هناك كاهن يصلي لها واضعًا الصليب على رأسها. قالت الفتاة والدموع تنهمر من عينيها على وجنتيها: «مبارك الرب.»

صرخت نيكول بينما كانت تهبط هي ووالدها في الميدان الذي يعج بالناس: «سوف ننقذك يا جان.» حضنتهما جان عندما حلا رباطها من الوتد. اندلعت النيران حولهم، ثم صار كل شيء مظلمًا من حولهم. وفي اللحظة التالية كانت نيكول تحلق مرة أخرى، لكن هذه المرة كانت في هيئة طائر البلشون العظيم. كانت بمفردها داخل راما تحلق عاليًا فوق مدينة نيويورك. ثم مالت جانبًا كي تتحاشى أحد الطائرين، الذي نظر إليها مذهولًا.

استطاعت نيكول أن ترى كل شيء في نيويورك بالتفصيل الممل. كان الأمر كما لو كان لديها عيون متعددة الطيف ذات عدسات طويلة المدى. إذ كان يمكنها أن تلحظ في آن واحد الحركةَ في أربعة أماكن مختلفة. وكان هناك بالقرب من المخزن مخلوق آلي على شكل حشرة أم أربع وأربعين يزحف بخُطًا متثاقلة نحو الطرف الجنوبي من المبنى. وعلى مقربة من كلٍّ من الساحات المركزية الثلاثة، كانت الحرارة تنبعث من أماكن تحت الأرض، مما كان يسبب أشكالًا ملونة في رؤية نيكول تحت الحمراء. دارت نيكول لأسفل نحو المخزن وهبطت بأمان داخل تجويفها.

الفصل الأربعون

دعوة فضائية

قالت نيكول لنفسها: «عليَّ أن أستعد للإنقاذ.» كانت قد انتهت من ملء قارورتها من السائل الأخضر الموجود بقلب شمام المن. وبعد أن قسمت ثمرة الشمام الرطب بعناية ووضعت أجزاءه في عبوات الطعام القديمة جلست في ركنها المعتاد.

«يا للعجب!» قالتها لنفسها وهي تستعيد رحلتها الذهنية الجامحة التي قامت بها بعد أن تجرعت محتويات القارورة. وأردفت: «ما الذي يعنيه كل هذا بحق السماء؟» واسترجعت نيكول الرؤية التي رأتها أثناء احتفال البورو وهي طفلة، والحوار المقتضب الذي دار بينها وبين أوميه حول هذه الرؤية بعد مرور ثلاث سنوات عندما عادت إلى نيدوجو لحضور جنازة والدتها.

سألها أوميه في أحد الأمسيات عندما كانا بمفرديهما: «أين ذهبت روناتا؟».

وأدركت نيكول على الفور عمَّ يسأل. فأجابته: «إنني تحولت إلى طائر أبيض كبير. وحلقت خلف القمر والشمس إلى حيث الفضاء الفسيح.»

قال أوميه: «نعم، لقد اعتقد أوميه ذلك أيضًا.»

وعندئذٍ سألت شخصية العالمة بداخل نيكول البالغة شخصيتها السابقة عندما كانت في العاشرة من عمرها: «ولمَ لمْ تسأليه حينذاك عما حدث لكِ؟ عندئذٍ ربما كان سيبدو بعض من هذا معقولًا.» لكن بطريقة ما، أدركت نيكول أن الرؤية لا تخضع للتحليل، وأنها موجودة في عالم لا تستطيع العمليات الاستنتاجية التي منحت العلم كل هذه القوة أن تسبر غوره. وعوضًا عن ذلك، فكرت نيكول في والدتها، وفي بهائها وهي متسربلة بردائها الأحمر الطويل المتدلي. لقد أنقذتها أناوي من النمر. قالت نيكول في نفسها: «أشكرك يا أمي.» وتمنَّت نيكول لو كان بمقدورها أن تتحدث مع والدتها لمدة أطول.

سمعت نيكول صوتًا غريبًا، كما لو كان صوت عشرات من الرُّضَّع يزحفون وهم حفاة الأقدام على أرضية من المشمع، كان الصوت قادمًا باتجاهها بالفعل. ولم يكن لدى نيكول متسع من الوقت كي تتعجب. فبعد لحظات كان رأس أم أربع وأربعين الآلي بقرونه الاستشعارية يطل من حافة التجويف الذي تجلس بداخله نيكول، ودون أن تهدئ من خطواتها بأي حال، نزلت مباشرة على الجدار في الجهة المقابلة لنيكول.

وكان إجمالي طول المخلوق الآلي أربعة أمتار. وقد نزلت لأسفل الجدار دون عناء؛ إذ وضعت كلًّا من أرجلها الستين على سطح الجدار مباشرة، وكانت تحتفظ بوضعها عن طريق الشفط من نوع أو آخر. ارتدت نيكول حقيبة ظهرها وتحيَّنت الفرصة. ولم تكن مذهولة بـ «الدرجة» من منظر الحشرة الآلية. وعقب ما رأته في رؤيتها، صارت متيقنة أن إنقاذها بطريقة ما بات وشيكًا.

كانت أم أربع وأربعين الآلية تتكون من خمس عشرة شريحة متصلة بمفاصل، تحوي كلٌّ منها أربعة أرجل ورأسًا أشبه برأس الحشرة، بها مجموعة من المجسات الغريبة، اثنان منها طويلان ورفيعان ويشبهان الهوائي. ويبدو أن كومة المعادن المختلطة الموضوعة في الطرف الآخر من التجويف، هي قطع غيارها. وبينما وقفت نيكول تراقبها استبدلت الحشرة الآلية ثلاثة من أرجلها، ودرعًا قرنيًّا بإحدى الشرائح، ونتوءَين على جانب رأسها. ولم تستغرق هذه العملية بأكملها أكثر من خمس دقائق. وعندما انتهت الحشرة بدأت تتسلق الجدار مرة أخرى.

قفزت نيكول على ظهر أم أربع وأربعين الآلية، عندما كان ثلاثة أرباع جسمها متجهًا إلى أعلى. وكان الثقل الجديد المفاجئ كبيرًا للغاية. ففقد المخلوق الآلي قبضته وسقط هو ونيكول في التجويف مرة أخرى. وفي غضون لحظات حاولت أن تتسلق الجدار مرة أخرى. انتظرت نيكول هذه المرة حتى يكون جسد أم أربع وأربعين بأكمله على الجدار، أملًا في أن تساعد قوة باقي الشرائح على حملها. لكن كان هذا دون طائل. فسقط كلٌّ من المخلوق الآلي ونيكول على الكومة.

أُصيبت إحدى أرجل الحشرة الأمامية إصابةً بالغة خلال السقطة الثانية؛ لذا قامت بعمل الإصلاحات اللازمة قبل محاولتها تسلق الجدار للمرة الثالثة. في تلك الأثناء أخرجت نيكول أكثر الخيوط الجراحية متانةً من حقيبتها الطبية وربطت طرف حبل طويل من ثماني عقد حول الأجزاء الثلاثة بظهر المخلوق الآلي. وقامت نيكول بعمل حلقة في الطرف الآخر من الحبل. وبعدها ارتدت قفازًا لتحمي يديها، ثم صنعت حزامًا للوسط حتى لا ينقطع الحبل، ثم ربطت الحلقة حول وسطها.

قالت نيكول في نفسها بعدما تخيلت كل العواقب التي قد تترتب على خطتها: «قد يكون هذا مدمرًا. إذا لم يثبت الحبل فسأسقط. وربما لا يحالفني الحظ في هذه المرة الثانية.»

زحفت أم أربع وأربعين في طريقها لأعلى الجدار كالمرة السابقة. وبعدما خطت بضع خطوات قليلة وصار جسمها بأكمله على الجدار، شعرت بثقل نيكول من أسفل. بيد أنها لم تسقط هذه المرة. وتمكنت الحشرة المكافحة من أن تواصل زحفها في طريقها لأعلى بتؤدة. احتفظت نيكول بوضعها عموديًّا على السطح كما لو كانت تتسلق صخرة، وأمسكت حبل الخيوط الجراحية بكلتا يديها.

وكانت نيكول تبعد نحو أربعين سنتيمترًا وراء آخر شريحة من أم أربع وأربعين وهما يتسلقان الحائط. وعندما وصل رأس الحشرة إلى قمة التجويف، كان جسد نيكول تقريبًا في منتصف المسافة للخارج. وأثناء مغادرة جسم الحشرة التجويف واصلت نيكول تسلقها بتؤدة وثبات شريحةً تلو الأخرى. غير أنه بعد بضع دقائق تباطأ تقدم نيكول على نحو ملحوظ، إلى أن توقفت تمامًا عندما تراجع عدد شرائح الحشرة المتبقية على الحائط إلى أربع شرائح. وكانت نيكول يمكنها تقريبًا أن تلمس آخر شريحة من هذه الشرائح الأربعة للحشرة إذا مدت ذراعها لأعلى. ولم يتبقَّ على الجدار من طول الحشرة سوى متر واحد تقريبًا، لكن يبدو أنها علقت. فقد كانت نيكول حملًا ثقيلًا جدًّا على المفاصل التي تربط بين الشرائح الخلفية.

ودارت سيناريوهات محبطة في ذهن نيكول وهي متدلية على ارتفاع يزيد عن ستة أمتار فوق أرضية التجويف. قالت نيكول في نفسها بتهكم وهي مسحوبة بإحكام في الحبل ورجلاها مثبتتان بإحكام على الجدار: «هذا عظيم. ثمة ثلاث عواقب متوقعة، وجميعها سيئة. إما أن ينقطع الحبل. وإما أن تسقط الحشرة. أو أظل أنا هنا معلقة للأبد.»

ووضعت نيكول نصب عينيها الاحتمالات الثلاثة. وكان التصور الوحيد ذات الاحتمالية المعقولة للنجاة — والذي لا يزال محفوفًا بالمخاطر — هو أن تتسلق الحبل حتى تصل إلى الشريحة الأخيرة، وعندئذٍ تستخدم جسد الحشرة أو أرجلها بطريقة ما كدعامات كي تشق طريقها لقمة التجويف.

نظرت نيكول لأسفل وتذكرت سقطتها الأولى. فقالت: «لسوف أنتظر أولًا لمدة قصيرة كي أرى إن كانت هذه الآلة ستتحرك مرة أخرى.» ومرت دقيقة. ثم مرت دقيقة أخرى.

تنفست نيكول نفسًا عميقًا. ثم مدت يديها لأعلى على الحبل وشدت نفسها نحو الجدار. ثم عاودت الكرة بيدها الأخرى. صارت نيكول الآن خلف الشريحة الأخيرة مباشرة. شبَّت نيكول وأحكمت القبض على أحد الأرجل، لكن ما إن حاولت أن تلقي بأي ثقل على الرجل حتى انفصلت الرجل بعيدًا عن الجدار.

وقالت لنفسها بعد لحظة من الهلع: «هذه الخطة غير مجدية.» ثم عاودت الاحتفاظ بتوازنها مرة أخرى وراء الحشرة مباشرة. وفحصت جسم الحشرة بعناية بالغة مرة أخرى. فوجدت أن الدرع القرني بكل شريحة مكون من أجزاء متشابكة. فقالت لنفسها: «لعله يمكن الإمساك بأحد هذه الأجنحة المترفرفة ...» أجْرت نيكول محاولتين أُوليَين كي تصعد على ظهر الحشرة. وفكرت: «لقد كانت قوة الشفط هي التي استُنفدت. والآن وبعد أن أصبح معظم جسم الحشرة في مستوى الأرض أعلى التجويف. ينبغي أن تكون قادرة على حملي.»

وقد أدركت نيكول أنه فور أن تكون على ظهر الحشرة، لن يعود هناك أي مصدر للحماية من السقوط. ولكي تجرب فكرتها، جذبت نفسها إلى أعلى الحبل وأمسكت بجناح الدرع القرني. واستطاعت أن تحكم قبضتها عليه. وعندئذٍ كانت المشكلة الوحيدة هي هل سيتحمل الجناح وزنها أم لا. حاولت نيكول أن تقيم مدى قوة تحمله وهي تمسك بالحبل في يدها الأخرى كنوع من الأمان. وحتى الآن سار كل شيء على ما يرام.

تشبثت نيكول بالجناح الموجود في الشريحة الخلفية، ثم دفعت نفسها لأعلى بحذر. ثم تركت الحبل. ولفت أرجلها حول جسم الحشرة، وأخذت تتسلق جسمها حتى وصلت إلى الجناح التالي. عندئذٍ سقطت أرجل الشريحة الأخيرة، لكن الحشرة لم تتحرك بأي حال من الأحوال.

عاودت نيكول هذه العملية مرتين ثانيتين، منتقلة من شريحة إلى أخرى. وصلت نيكول إلى القمة تقريبًا. وعندما كانت على وشك القيام بآخر خطواتها، فزعت قليلًا عندما انزلقت الحشرة لبضعة سنتيمترات داخل التجويف. تماسكت نيكول وهي تلهث، وانتظرت حتى استعادت الحشرة توازنها ثم زحفت حتى الشريحة الأولى التي كانت بمستوى الأرض. وبينما كانت تزحف بدأت الحشرة في التحرك مجددًا، عندئذٍ انقلبت نيكول على الجنب واستلقت على ظهرها على الأرض. وصرخت: «حمدًا لله.»

حدقت نيكول وهي واقفة على الجدار الذي يكتنف نيويورك في مياه البحر الأسطواني المتدفقة، استغربت نيكول لمَ لمْ يكن هناك أي استجابة لاتصالاتها لطلب الإغاثة. إن

الاختبار الذاتي لبيان الحالة في جهازها الخاص بالإرسال والاستقبال يشير إلى أنه يعمل جيدًا، وقد حاولت بالفعل ثلاث مرات متتالية أن تتصل بباقي أفراد الطاقم دون طائل. كانت نيكول تعي جيدًا أن أجهزة الاتصال متاحة للرواد. وكان الإخفاق في استقبال أي إجابة يعني أن أيًّا من أفراد الطاقم لا يوجد في نطاق ستة كيلومترات أو ثمانية من موقعها في الوقت الحالي، «و» أن محطة بيتا ليست قيد العمل. فكرت نيكول: «لو كانت بيتا قيد العمل، لكانوا قادرين على التحدث إليَّ من أي مكان، حتى على متن نيوتن.»

أخبرت نيكول نفسها أن أفراد الطاقم بلا ريب على متن سفينتهم يستعدون لإجراء رحلة أخرى، وأن محطة اتصالات بيتا ربما تعطلت بسبب الإعصار. بيد أن ما أزعجها بحق هو أنه قد مر خمس وأربعون ساعة على بداية ذوبان البحر الأسطواني وأكثر من تسعين ساعة على سقوطها في التجويف. فلمَ لا يبحث عنها أحدهم؟

تفحصت نيكول السماء بدقة بحثًا عن أي أمارات للهليكوبتر. وكما كان متوقعًا احتوى الغلاف الجوي على سحب. فذوبان البحر الأسطواني غير بصورة جذرية أنماطَ الطقس في راما. فارتفعت درجة الحرارة بدرجة ملحوظة. نظرت نيكول في الترمومتر وتأكدت من تقديراتها؛ فقد كانت درجة الحرارة في تلك الأثناء أربع درجات فوق نقطة التجمد.

ورجعت نيكول مرة أخرى للتفكير بشأن مكان رفقائها فعلَّلَت ذلك قائلة: «الموقف الأكثر ترجيحًا هو أنهم سيعودون قريبًا.» وأردفت: «عليَّ أن أمكث بالقرب من الجدار؛ ومن ثَم يسهل عليهم رؤيتي.» ولم تُضيع نيكول كثيرًا من الوقت في التفكير بشأن سيناريوهات أخرى هناك احتمالية قليلة لحدوثها. فكرت فقط ولفترة قصيرة في احتمال تعرض أفراد الطاقم لكارثة مروعة، وأنه لا يوجد أحد للبحث عنها. لكنها قالت لنفسها: «حتى وإن كان الأمر كذلك، فعليَّ أن أنتهج المنوال نفسه. فسوف يأتون عاجلًا أو آجلًا.»

ولكي تشغل وقتها أخذت عينة من ماء البحر واختبرتها. فوجدت بها قدرًا ضئيلًا للغاية من السموم العضوية كتلك التي وجدها رواد بعثة راما ١. ففكرت: «لعلهم جاهدوا وماتوا بينما كنت في التجويف. على أي حال، جميعهم ذهب الآن.» ونبهت نيكول نفسها أنه في حالة أي طوارئ، قد يتطلب الأمر سباحة ماهرة كي تعبر البحر دون الاستعانة بقارب. غير أنها تذكرت صور القروش الآلية وغيرها من المخلوقات البحرية التي ذكرها نورتن وطاقمه، فعدلت قليلًا عن تقييمها.

سارت نيكول على طول المتاريس لعدة ساعات. وبينما كانت تجلس في سكينة تتناول غداءها من شمام المن (وتفكر في طرق ترشيد المتبقي من الشمام، في حال لم يجرِ إنقاذها

في غضون اثنتين وسبعين ساعة أخرى)، سمعت صوتًا خُيِّل لها أنه صرخة قادمة من نيويورك. فظنت على الفور أنه دكتور تاكاجيشي.

حاولت نيكول استخدام جهاز اللاسلكي مرة أخرى. لم يأتِها رد. وتفحصت السماء مجددًا بحثًا عن أي أمارات للهليكوبتر. وكانت لا تزال تتناقش مع نفسها فيما إذا كانت ستغض الطرف عن نقطة المراقبة الموجودة على الجدار أم لا عندما سمعت صرخة ثانية. ولكن هذه المرة كان يمكنها تمييز موقع الصرخة بدرجة أفضل. وحددت موقع أقرب سلم وسارت جنوبًا نحو مركز نيويورك.

ولم تكن نيكول قد أجْرت بعدُ تحديثًا لخريطة نيويورك المخزنة على الكمبيوتر الخاص بها. وبعد أن عبرت الشوارع الحلقية الشكل القريبة من الميدان المركزي، توقفت بالقرب من المجسم الثماني الأسطح وأدخلت كل اكتشافاتها الجديدة بما في ذلك المخزن ذو التجاويف وأي شيء آخر استطاعت أن تتذكره. وبعد لحظة، بينما كانت نيكول مأخوذة بجمال البناية الثمانية الأسطح الغريبة، سمعت صرخة ثالثة. لكن الصوت هذه المرة كان أقرب ما يكون إلى صرخة ذعر. لو كان هذا تاكاجيشي لكان حتمًا قد صدر عنه صوت مميز.

وسارت بتؤدة عبر الساحة المفتوحة، في محاولة للاقتراب من الصوت الذي كان لا يزال يدوي في ذهنها. وما إن وصلت نيكول إلى المباني في الجانب المقابل حتى سمعت صرخة الذعر تدوي مرة أخرى. وهذه المرة سمعت أيضًا ردًّا. واستطاعت أن تميز الأصوات. لقد كانت تبدو كصوت الطائرين اللذين زاراها حينما كانت في التجويف. صارت نيكول أكثر حذرًا. وسارت باتجاه الصوت. وبدا أنه قادم من المنطقة التي تحيط بالشبكة التي كانت قد انبهرت بها فرانشيسكا ساباتيني للغاية من قبل.

وفي أقل من دقيقتين، كانت نيكول تقف بين ناطحتَي سحاب كبيرتين تتصلان إحداهما بالأخرى عن طريق شبكة سميكة ترتفع مسافة خمسين مترًا في الهواء. وعلى ارتفاع ما يقرب من عشرين مترًا فوق الأرض، كان الطائر المغطى بطبقة القطيفة يناضل للخروج من الشرَك. لقد وقعت مخالب الطائر وأجنحته في حبال الشبكة اللزجة. وصرخ مرة أخرى عندما رأى نيكول. أما الطائر الآخر رفيقه الأكبر حجامًا الذي كان في تلك الأثناء يحلق بالقرب من قمة المباني، فقد اندفع لأسفل باتجاهها.

انكمشت نيكول مقابل واجهة أحد المباني عندما اقترب الطائر منها. وكلم نيكول بلغة غير مفهومة كما لو كان يوبخها، لكنه لم يمسها. عندئذٍ قال الطائر المغطى بطبقة

القطيفة شيئًا ما، وبعد حوار قصير انسحب الطائر المغطى بطبقة المشمع إلى حافة قريبة على مسافة عشرين مترًا تقريبًا.

بعد أن هدأت نيكول من رَوعها (وثبتت إحدى عينيها على الطائر الكبير في موقعه)، سارت نحو الشبكة وتفحصتها. ولم يكن لديها هي وفرانشيسكا متسع من الوقت كي يفحصا الشبكة من قبل عندما كانا يبحثان عن تاكاجيشي؛ من ثَم كانت هذه هي المرة الأولى التي سنحت فيها الفرصة لنيكول كي تفحصها من كثب بطريقة مفصلة. كانت الشبكة مصنوعة من مادة كتلك التي تُصنع منها الحبال، ويبلغ سمكها نحو أربعة سنتيمترات، وكانت لدنة إلى حد ما. وكان هناك آلاف من نقاط التقاطع في الشبكة، بكل واحدة منها عقدة. وكان يشوب العقد قدر ضئيل من اللزوجة، ولكن ليس بالدرجة التي يمكن أن تفكر معها نيكول أن هذه الشبكة هي نوع من شباك العناكب التي تصطاد المخلوقات الطائرة.

وبينما كانت تمعن النظر في قاع الشبكة حلَّق الطائر الحر فوق رأسها وهبط بالقرب من رفيقه الواقع في الشرَك. وبعد أن احتاط الطائر الحر بشدة حتى لا يقع هو الآخر في الشرك، أخذ يهز الخيوط الفردية بمخالبه. وأخذ يشد الحبال أيضًا ويلويها بصعوبة. وعقب ذلك، خطا الطائر ذو طبقة المشمع بحذر بالغ إلى حيث رفيقه معلق، وقام بمحاولة فاشلة كي يقطع الشبكة أو يفك الحلقات التي تربط الطائر الآخر. وعندما باءت محاولاته بالفشل، خطا الطائر الضخم للخلف وحملق في نيكول.

«ماذا عساه أن يفعل؟» تساءلت نيكول في سرها. وأردفت: «أنا متيقنة من أنه يود أن يخبرني شيئًا ما ...» وعندما وجد الطائر أن نيكول لم تحرك ساكنًا، أعاد بمثابرةٍ الاستعراض بأكمله. في هذه المرة اعتقدت نيكول أن المخلوق الغريب يحاول أن يخبرها أنه لا يستطيع أن يحرر صديقه. ابتسمت نيكول ولوحت بيدها. عندئذٍ قامت وهي لا تزال واقفة عند قاع الشبكة، بربط القليل من الحبال القريبة منها معًا. وعندما فكتها بعد ذلك، صرخ الطائران بصوت واحد صرخة تعبر عن استحسانهما. أعادت نيكول الكرة مرتين ثم أشارت بيدها إلى نفسها أولًا ثم إلى المخلوق المغطى بطبقة القطيفة الواقع في الشرك فوق منها.

وكان علو صوتهما يوحي بالاضطراب في الحديث، وأحيانًا ما كانا يتحدثان بنبرة موسيقية ثم عاد الطائر الأكبر إلى موقعه عند الحافة. حدقت نيكول لأعلى في الطائر المغطى بطبقة القطيفة. كان الشرك مُمسكًا بثلاث مناطق مختلفة في جسده، وقد أدى نضاله للتخلص من الشرك في كلٍّ من هذه الأماكن إلى التصاقه بشدة بالحبال اللدنة.

خمنت نيكول أن الطائر حتمًا قد وقع في الشرك في غضون العاصفة الهوجاء التي عصفت الليلة الماضية وقصفت به إلى أحضان الشبكة. ولعل الحبال تداخلت نتيجة قوة الدفع الناجمة عن ارتطامه بها، وعندما انحلت الحبال وعادت فجأة إلى وضعها الطبيعي، كان الطائر الهائل الحجم قد وقع في شرك الشبكة. لم يكن من العسير تسلق الشبكة، فقد كانت مثبتة بقوة بين المبنيين، وكانت الحبال نفسها ثقيلة بما يكفي حتى إن نيكول لم تهتز كثيرًا. لكن ارتفاع عشرين مترًا فوق مستوى الأرض هو ارتفاع كبير؛ إذ يفوق ارتفاع بناية مكونة من ستة طوابق عادية؛ لذا أعادت نيكول التفكير في الأمر عندما وصلت أخيرًا إلى حيث ارتفاع الطائر الممسك في الشرك.

كانت نيكول تلهث بسبب المجهود الذي بذلته في التسلق. وارتخت بحذر بالغ أعلى الطائر كي تتأكد من أنها لم تسئ فهم أي شيء في لغة تواصلهما الغريبة. وتابعها الطائر الغريب بثبات بعينيه الزرقاوين الضخمتين.

كان أحد أجنحة الطائر مقيدًا في الشرك بإحكام بالقرب جدًّا من رأسه. حاولت نيكول أن تحرر الجناح، فربطت أولًا حبال الشبكة حول كاحليها كي تضمن عدم سقوطها. وكانت تقوم بذلك ببطء. وفي لحظة ما استنشقت نيكول نفسًا من أنفاس المخلوق القوية. قالت نيكول لنفسها: «أنا أعرف هذه الرائحة.» وعلى الفور ربطت نيكول ما بين هذه الرائحة ورائحة شمام المن الذي أكلته من قبل. فكرت نيكول قائلة: «إذن أنت تأكل من نفس الشيء؟ لكن من أين يأتي هذا الشيء؟» وتمنت لو كان بمقدورها التحدث إلى هذه المخلوقات الرائعة والغريبة.

عانت نيكول في فك العقدة الأولى. إذ إنها كانت محكمة للغاية. وكانت تخشى من أن تؤذي جناح المخلوق إذا سحبته بقوة. فمدت يدها في حقيبتها وأخرجت مشرطها القوي.

وفي التو واللحظة كان الطائر الآخر فوق منها، يثرثر بجلبة ويصرخ فيها ويرعبها حتى الموت. ولم يدعها تواصل عملها، إلى أن تحركت نيكول بعيدًا عن الشرك، وأوضحت للطائر رفيقه كيف يمكن للمشرط أن يقطع حبال الشبكة.

وبالطبع عجَّل استخدام المشرط من انتهاء عملية التحرير. وحلَّق الطائر المغطى بطبقة القطيفة في الهواء، وصدحت صرخاته الموسيقية التي تعبر عن سعادته في كل أرجاء المنطقة. وشاركه رفيقه فرحته عن طريق إطلاق صرخاته الخاصة ولعب كلاهما معًا، تمامًا مثل طائرين متحابين في الهواء فوق الشبكة. واختفيا بعدها بلحظة وهبطت نيكول من فوق الشبكة بتؤدة. سعدت نيكول بنفسها. وكانت مستعدة الآن للرجوع إلى

الجدار وانتظار النجدة التي كانت متيقنة من أنها على الأبواب. وسارت نحو الشمال وهي تغني أغنية شعبية من أغاني إقليم اللوار تذكرتها من أيام صباها.

وبعد بضع دقائق، كان لدى نيكول صحبة أخرى. أو بكلمات أدق أصبح لديها مرشد. فكان كلما انعطفت نحو الطريق الخطأ أحدث الطائر المغطى بطبقة القطيفة الذي كان يحلق فوق رأسها جلبةً عظيمة. ولا تتوقف هذه الجلبة إلى أن تتحرك نيكول في الاتجاه الصحيح. فسألت نيكول نفسها: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

وفي منطقة الميدان التي لم تكن تبعد سوى أربعين مترًا فحسب من البناية الثمانية الأسطح، هبط الطائر على أرض معدنية متوارية عن الأنظار تمامًا. ونقر بمخالبه عدة مرات ثم رفرف فوق هذه البقعة. فتحرك غطاء من نوع ما، واختفى المخلوق تحت سطح الميدان. وحلق لأعلى مرتين وقال شيئًا ما لنيكول؛ وعندئذٍ هبط تحت السطح مرة أخرى.

فهمت نيكول الرسالة التي يريد أن يوصلها إليها. وقالت لنفسها: «أعتقد أنني دُعيت لمقابلة العائلة. لنأمل فقط ألا أكون أنا وجبة العشاء.»

الفصل الحادي والأربعون

الصديق الحق

لم يكن لدى نيكول أي توقعات. ولم تكن خائفة عندما سارت ونظرت في الحفرة الموجودة في الأرض. وكان الشعور الوحيد المسيطر عليها آنذاك هو حب الاستطلاع. وخالجتها للحظاتٍ مخاوفُ من أن الفريق القادم لإنقاذها قد يأتي وهي تحت الأرض، لكنها أقنعت نفسها بأنهم سيعودون فيما بعد.

كان الغطاء المستطيل الشكل ضخمًا، إذ يبلغ طوله نحو عشرة أمتار وعرضه ستة أمتار. وعندما رأى الطائر أن نيكول تتبعه حلَّق إلى أسفل داخل الحفرة وانتظر على الصخرة الثالثة. جلست نيكول على الأرض إلى جانب الفتحة وأمعنت النظر في عمقها. رأت نيكول بعض الأضواء القريبة، وكان الكثير منها يومض من مسافة بعيدة تحتها. ولم تستطع أن تقدر بالضبط عمق انحدار الممر الهابط، لكن من الواضح أنه كان يتجاوز العشرين أو الثلاثين مترًا.

لم يكن التسلق لأسفل سهلًا على الأجناس التي لا تطير. كان الممر الرأسي عبارة عن حفرة كبيرة بالأساس، ذات سلسلة من الصخور العريضة على جوانبها. وكان لكل الصخور نفس الحجم بالضبط، نحو خمسة أمتار طولًا ومتر واحد عرضًا، وكان يفصل بعضها عن بعض متران تقريبًا لأسفل. لذا كان يجب على نيكول أن تحتاط للغاية.

أما الشيء الذي بدا كضوء في الممر الرأسي فقد كان ينبعث من الفتحات الموجهة نحو الميدان ومن بعض الفوانيس المعلقة على الجدران كل أربع صخور بطول المنحدر. ويحيط بالفوانيس أغطية شفافة رقيقة للغاية تشبه الورق. وكل فانوس بداخله لهب صغير مع بعض السائل، وافترضت نيكول أنه وقود.

وكان صديق نيكول ذو الطبقة القطيفة يراقبها بصبر على طول المنحدر، فكان يبقى دائمًا على بعد ثلاث صخور تحتها. وتملك نيكول شعور بأنها إذا حدث وانزلقت فإن

الطائر سوف يلتقطها في الهواء، لكنها لم ترد أن تختبر هذه الفرضية. وكان ذهنها يعمل بسرعة، وقررت نيكول في ذلك الحين أن هذه المخلوقات ليست قطعًا كائنات آلية. وهو ما كان يعني أنها تنتمي إلى جنس فضائي من نوع ما. فكرت نيكول: «لكن يستحيل أن يكون هؤلاء هم سكان راما. فمستوى تطورهم التكنولوجي لا يتناسب بالمرة والمستوى المذهل للمركبة الفضائية راما.»

تذكرت نيكول من واقع دراستها لمناهج التاريخ أن شعب المايا الفقير والمتخلف الذي عثر عليه الغزاة الإسبان في المكسيك. ورأى الإسبان أنه من المستحيل أن يكون أسلاف هؤلاء الأناس المتخلفين الضعفاء هم الذين بنوا هذه المعابد الدينية الضخمة. تساءلت نيكول في سرها: «فهل من المعقول أن يحدث هذا هنا أيضًا؟ هل من الممكن أن تكون هذه الطيور الغريبة هي كل ما تبقى من الأجناس السامية التي أنشأت هذه المركبة؟»

وعلى بعد ما يقرب من عشرين مترًا أسفل السطح، سمعت نيكول صوتًا يبدو كصوت المياه الجارية. وارتفع الصوت حينما هبطت على الصخرة التي كانت بالفعل امتدادًا لنفق أفقي اتجاهه عكس اتجاه سيرها. وعبر الممر الرأسي استطاعت نيكول أن ترى رواقًا مشابهًا ومظلمًا يسير في الاتجاه المعاكس، وموازيًا أيضًا للسطح أعلى الحفرة.

وكالمعتاد، كان الطائر مرشدها يقف على بعد ثلاث صخور أسفل منها. أشارت نيكول إلى أسفل في اتجاه النفق خلفها. طار المخلوق بالقرب منها وأخذ يرفرف بانتظام فوق كلٍّ من الصخرتين أسفل نيكول مباشرة، موضحًا لها تمامًا أنه من المتوقع أن تنزل.

لم ترد نيكول أن تستسلم بهذه السهولة. فأخرجت قارورتها ومثلت حركة شرب الماء. ثم أشارت للخلف باتجاه النفق المظلم. ورفرف الطائر، الذي بدا عليه أنه كان يدرس القرار، وطار في الظلام فوق رأس نيكول. وبعد مرور أربعين ثانية، رأت نيكول ضوءًا يبزغ من بعيد، وأخذ الضوء يزداد توهجًا حتى دنا منها. فقد أحضر الطائر شعلة كبيرة في أحد مخالبه.

تبعت نيكول الطائر ما يقرب من خمسة عشر مترًا. ووصلا إلى غرفة على الجانب الأيسر من النفق تحوي خزانًا كبيرًا مملوءًا بالماء. وكان الماء العذب يصل إلى الخزان عن طريق ماسورة مغروسة في الحائط. أخرجت نيكول مقياس الكتلة الطيفي وأجرت تحليلًا للسائل. كان هذا السائل ماءً نقيًّا؛ فلم يكن فيه أي مواد كيميائية أكثر من نسبة واحد في المليون. وحرصًا منها على اتباع السلوك الحميد، عقفت نيكول يديها وشربت من شلال الماء. كان لذيذ المذاق على نحو لا يُصدَّق.

وبعدما انتهت من احتساء الماء، واصلت النزول في النفق بنفس الاتجاه. انتاب الطائرَ حالةٌ من الاهتياج، وأخذ يحلق لأعلى ولأسفل ويغمغم بلا انقطاع، حتى عكست نيكول اتجاه هبوطها، ولاحظت أن مستوى الضوء المحيط بها انخفض بشدة. وعندما نظرت نيكول فوقها، وجدت الفتحة المشرفة على الميدان في نيويورك مغلقة الآن. فقالت في نفسها: «أرجو ألا يعني هذا أنني سأظل هنا للأبد.»

بعدما قطعا مسافة عشرين مترًا أخرى أسفل السطح، كان هناك نفقان آخران مظلمان أفقيان ومتعامدان على الممر الرئيسي. وعند هذا المستوى الثاني قاد الطائر المكسو بطبقة القطيفة، الذي لم يزل ممسكًا بالشعلة، نيكول أسفل أحد النفقين الأفقيين لمسافة ما يقرب من مائتَي متر. فتبعته إلى غرفة كبيرة ومستديرة ذات سقف مرتفع. استخدم الطائر شعلته لإضاءة العديد من الفوانيس الموجودة بكل أنحاء جدران الغرفة. ثم اختفى. وغاب لما يقرب من ساعة. تحلت نيكول بالصبر قدر استطاعتها، فأخذت أولًا تنعم النظر في كل أرجاء الغرفة المظلمة التي كانت أشبه بالكهف أو المغارة. ولم يكن هناك أي زخارف. وأخيرًا بدأت نيكول تركز كيف يمكنها أن تخبر الطائرين أنها مستعدة للرحيل.

وعندما عاد أخيرًا صديقها ذو طبقة القطيفة، أحضر معه أربعة رفاق. سمعتها نيكول وهي ترفرف بأجنحتها في الرواق وتغمغم على نحو متقطع. هلَّ أولًا الطائر رفيق صديقها (الذين افترضت نيكول أنه أليف إلى حد ما) واثنان من المخلوقات المغطاة بطبقة من المشمع. وهبطوا جميعًا، ثم اقتربوا للغاية من نيكول بطريقة ساذجة كي يتفرسوا فيها. وبعدما جلسوا في الجانب المقابل من الغرفة، حضر مخلوق مغطًّى بطبقة من القطيفة لونها بني وليس أسود. وكان يحمل شمامةَ منٍّ صغيرة الحجم بين مخالبه.

وُضعت الشمامة أمام نيكول. وشاهدتها جميع الطيور في حالة من الترقب. قطعت نيكول ثُمن الشمامة بالضبط بمشرطها، والتقطته كي تحتسي رشفة صغيرة من السائل الأخضر الموجود في المنتصف، ثم حملت باقي الشمامة إلى مضيفيها. فصاحت الطيور وهي تمرر الشمامة فيما بينها، تعبيرًا عن إعجابها بدقتها في قطع الشمامة.

شاهدت نيكول الطيور وهي تأكل. لقد تشاركت الشمامة فيما بينها، وفي وقت لا يُذكر كانت قد قُسمت بينها. وكان من المدهش أن الطائرين ذا طبقة القطيفة كانا بارعين ومنمقين في تناول الطعام بمخالبهما؛ إذ أحدثا أقل قدر ممكن من الفوضى ولم يتركا أي فضلات على الإطلاق. أما الطيور الأكبر فقد كانت أكثر حماقة، فطريقتها في تناول

الطعام ذكَّرتها بالحيوانات على كوكب الأرض. ومثل نيكول لم يتناول أيٌّ من الطيور طبقة القشرة الخارجية لشمامة المن.

وعندما انتهت الوجبة احتشدت الطيور، التي لم تتفوه قط في غضون تناول الطعام، في دائرة لبضع ثوانٍ. وتفرق بعضها عن بعض عندما غمغم الطائر ذو طبقة القطيفة البنية بشيءٍ بدا لنيكول كأغنية. وبعد ذلك اقترب كل واحد منها تلو الآخر من نيكول لإلقاء نظرة فاحصة أخرى ثم اختفت خارج الباب.

جلست نيكول في هدوء وتساءلت عما قد يحدث عقب ذلك. تركت الطيور الأنوار مضاءة في غرفة الطعام (أو قاعة المأدبة، أو أيًّا ما كانت)، لكن الممر بالخارج كان حالك السواد. لقد قصدوا بوضوح أن تمكث حيث كانت، على الأقل في الوقت الحالي. وكان قد مر وقت طويل منذ أن نالت نيكول قسطًا من النوم، وكانت قد شبعت تمامًا بعد تناول الوجبة. فقالت لنفسها وهي تستلقي على الأرض بعد مناجاة قصيرة مع نفسها: «حسنًا، ربما أنتعش لو غفوت قليلًا.»

سمعت في حلمها شخصًا ينادي اسمها، لكن الصوت كان بعيدًا جدًّا. وكان عليها أن تبذل قصارى جهدها كي تسمعه. نهضت نيكول مفزوعةً من نومها وحاولت أن تتذكر أين هي. أنصتت جيدًا لكنها لم تسمع أي شيء. وعندما نظرت في ساعتها، علمت أنها غرقت في سبات عميق لأربع ساعات. وفكرت نيكول: «من الأفضل أن أرحل من هنا. سيحل الظلام سريعًا ولا أريد أن أفقد فرصتي في أن ينقذني أحد.»

خرجت نيكول إلى الرواق، وأشعلت مصباحها الصغير. ووصلت إلى الممر الرأسي في أقل من دقيقة. وعلى الفور بدأت في تسلق الصخور. وسمعت نيكول فوقها جلبة غريبة، مباشرة أسفل المكان الذي كانت قد توقفت فيه قبلًا في غضون نزولها كي تحتسي رشفة ماء. ووقفت كي تلتقط أنفاسها. ومالت قليلًا نحو الحفرة المفتوحة وسلطت الضوء عليها باتجاه الصوت. فوجدت شيئًا يتحرك جيئة وذهابًا في جزء من المستوى الأول الناتئ من الممر العمودي.

تسلقت نيكول الصخور بحذر حتى وصلت إلى الصخرة التي تقع أسفل الشيء الذي ظهر منذ قليل وانحنت تحته. وأيًّا ما كان هذا الشيء، فقد كان يغطي كل سنتيمتر مربع في الصخرة المقابلة لمدخل النفق مرة كل خمس ثوانٍ. لم تكن هناك طريقة لتحاشي المرور بهذه الصخرة، ولم يكن محتملًا أن تثب لأعلى وتتسلق الصخرة التالية في أقل من خمس ثوانٍ.

تحركت نيكول إلى أحد أطراف الصخرة وأرهفت السمع للصوت الآتي من فوقها. وعندما استدار هذا الشيء وذهب في الاتجاه الآخر رفعت رأسها فوق الصخرة الموجودة عند المستوى التالي. فوجدت هذا الشيء يتحرك بخُطًا واسعة ويبدو من الخلف مثل دبابة مدرعة. ولم يكن في مقدروها إلا أن تلقي نظرة خاطفة؛ ذلك لأن النصف العلوي من الدبابة كان يدور بسرعة في الطرف الآخر حتى يستعد لأن يعكس اتجاهه.

قالت نيكول لنفسها وهي واقفة على الصخرة بالأسفل: «ثمة شيء واحد أكيد. وهو أن هذه الدبابة تحرس المكان.» وتساءلت نيكول عما إذا كانت لديها أي مجسات — فهي لم تصدر أي ردود أفعال تشير إلى أنها شعرت بوجود نيكول — لكنها قررت ألا تقدم على اكتشاف ذلك. وقالت في سرها: «ليس من المرجح أن يكون هذا الشيء حارسًا إذا لم يستطع على الأقل أن يوقف أحد المتطفلين.»

هبطت نيكول الصخور بهدوء إلى مستوى غرفة الطعام. لقد كانت محبطة إحباطًا جمًّا من نفسها بسبب مجيئها إلى وكر الطيور. لا تستطيع بعدُ أن تصدق أن الطيور قد أسرتها. فالمخلوق لم يدعها لزيارته إلا بعد أن أنقذت حياته، أليس كذلك؟

وكانت نيكول متحيرة أيضًا من أمر الدبابة الحارسة. فوجودها مربك ويتنافى تمامًا مع قدر التطور التكنولوجي الخاص بكل الأشياء في وكر الطيور. ما الغرض من وجودها؟ ومن أين أتت؟ واستغرقت نيكول في التفكير قائلة: «بات الأمر مثيرًا للفضول أكثر فأكثر.»

وعندما عادت نيكول إلى المستوى تحت الأرضي الثاني، نظرت حولها كي ترى هل هناك أي طريق يمكن أن يؤدي بها إلى خارج الوكر. كان هناك مجموعة مماثلة من الصخور على الجانب المقابل من الممر الرأسي. إذا تمكنت أن تقفز إليها، فعندئذٍ ربما …

وقبل أن تأخذ نيكول هذه الخطة مأخذ الجد، كان عليها أن تستنتج أولًا ما إذا كان هناك أيضًا دبابة أو حارس مماثل يحرس الممر الأفقي في المستوى الأول. وكان لا يمكنها أن تستشف ذلك من مكانها؛ لذا أخذت تدمدم موبخة نفسها على غبائها، وتسلقت الصخور الموجودة بجانبها حتى تحصل على أفضل رؤية للمر. كانت محظوظة. فالصخرة المقابلة للنفق المقابل كانت فارغة.

حينئذٍ عادت إلى المستوى تحت الأرضي الثاني مرة أخرى؛ إذ كانت منهكة من التسلق. وحدقت عبر الممر في الأضواء الآتية من الهاوية التي أسفلها. وبالطبع ستموت إذا سقطت هناك. وكانت نيكول بارعة جدًّا في تقدير المسافات؛ لذا قدرت المسافة من طرف امتداد الصخرة أمام النفق إلى طرف الصخرة في الجانب المقابل بنحو أربعة أمتار. قالت نيكول وهي غارقة في التفكير: «أربعة أمتار، أو أربعة أمتار ونصف على الأكثر. مع تقدير بعض

الفراغ عند كلٍّ من الطرفين؛ لذا أحتاج إلى أن أقفز لارتفاع خمسة أمتار كي أتبين ذلك. مع الأخذ بعين الاعتبار أنني أرتدي بذلة طيران وأحمل حقيبة ظهر.»

تذكرت نيكول إحدى أمسيات أيام الآحاد في بوفوا قبل أربع سنوات، عندما كانت جينيفيف في العاشرة من عمرها، وكانا يشاهدان معًا فعاليات أوليمبياد عام ٢١٩٦ على شاشة التلفزيون. فسألت الفتاة الصغيرة أمها، وهي تحاول جاهدةً أن تتخيل أمها كبطلة أوليمبية: «أيزال بمقدورك أن تقفزي لمسافة طويلة يا أماه؟»

وكان بيير قد أقنعها أن تصطحب جينيفيف إلى الملعب المتاخم للمدرسة الثانوية في لوين. وكان الوقت الذي تستغرقه طويلًا في القفز الثلاثي، وبعد مرور ثلاثين دقيقة من التمرن والممارسة، تمكنت نيكول من القفز لارتفاع ستة أمتار ونصف. لم يُثر هذا الأمر الإعجاب في نفس جينيفيف. قالت جينيفيف وهما يركبان دراجاتهما في طريق عودتهما للمنزل عبر المنطقة الريفية الخضراء: «أماه، تستطيع أخت دانييل الكبيرة أن تقفز إلى نفس الارتفاع تقريبًا وهي ليست سوى طالبة جامعية.»

وأثارت ذكرى جينيفيف شجنًا عميقًا في نفس نيكول. لقد تاقت إلى أن تسمع صوت ابنتها، أو تساعدها في تصفيف شعرها، أو التنزه معها في القارب في البركة الصغيرة الخاصة بهم بجانب وادي بريزم. فكرت نيكول: «نحن لا نقدر قيمة الوقت الذي لدينا حق قدره، إلا عندما لم يعودوا موجودين معنا.»

شرعت نيكول في الرجوع إلى أسفل النفق حيث تركها الطيور. ولم تحاول أن تقفز. فقد كان الأمر خطيرًا للغاية، فإذا انزلقت ...

تجمدت نيكول في مكانها في اللحظة التي سمعت فيها نداءً ضعيفًا قادمًا من بعيد: «نيكول دي جاردان، أين أنت بحق الجحيم؟» أكان يخيل لها؟ لكنها سمعت الصوت مجددًا: «نيكول.» قطعًا كان هذا صوت ريتشارد ويكفيلد. فركضت عائدة إلى الممر الرأسي وكانت على وشك أن تصرخ. لكنها فكرت في عجالة: «لا، فإن هذا سوف يوقظها. ولن يستغرق الأمر مني أكثر من خمس دقائق. يمكنني أن أقفز ...»

كان الأدرينالين يُفرز عند نيكول بمعدلات مذهلة. وحددت خطواتها، ووثبت لأعلى عبر الهوة ذات الفراغ الفسيح الذي يجب أن تتجنبه. ثم تسلقت الصخور بسرعة مذهلة. وعندما اقتربت من القمة سمعت ويكفيلد يناديها مجددًا.

صرخت نيكول: «أنا هنا يا ريتشارد. أسفل منك مباشرة. تحت سطح أرضية الميدان.»

وصلت نيكول إلى صخرة القمة وبدأت تدفع الغطاء. لكنه لم يتزحزح. صرخت بينما كان ريتشارد المرتبك يذرع المكان بالقرب منها: «تبًّا. اقترب من هنا، حيث تسمع صوتي، اطرق الأرض.»

بدأ ريتشارد يطرق بشدة على الغطاء. وكانا يصرخان أحدهما في الآخر. وصوتهما يصم الآذان. سمعت نيكول صوت رفرفة أجنحة أسفل منها. وعندما ظهرت الطيور في الممر بدأت تصرخ وتغمغم.

صرخت نيكول فيها عندما اقتربت منها: «أغيثوني.» ثم أشارت بيدها إلى الغطاء. وقالت: «صديقي هناك بالخارج.»

استمر ريتشارد يضرب الأرض بعنف. ولم يقترب منها سوى الطائرين اللذين كانا قد وجداها في التجويف في البداية. وحاما حولها يرفرفان بأجنحتهما ويغمغمان مع الطيور الخمسة الأخرى التي كانت في مستوًى أسفل منهم. وكان من الواضح أن ثمة جدالًا دائرًا بين هذه المخلوقات؛ لأن الطائر ذا طبقة القطيفة السوداء مد عنقه لأسفل مرتين نحو رفاقه وصاح بصرخات مخيفة.

انفتح الغطاء فجأة. وكان على ريتشارد أن يزحف حتى لا يقع في الحفرة. وعندما نظر لأسفل في الحفرة رأى نيكول وطائرين عملاقين طار أحدهما عن يمنيه عندما تسلقت نيكول خارج الحفرة. تعجب ريتشارد قائلًا: «ما هذا بحق الجحيم!» وكانت عيناه تتبعان رفرفة الطائر.

غمرت الفرحة نيكول. وركضت إلى أحضان ويكفيلد. «ريتشارد، آه يا ريتشارد. سعدت جدًّا برؤيتك.»

ابتسم لها ثم احتضنها ثانية. وقال: «لو كنت أعرف أنك ستسعدين هكذا لجئت قبل ذلك.»

الفصل الثاني والأربعون

مكتشفان

قالت نيكول: «دعني أفهم ما تقوله. أتود أن تخبرني أنك «بمفردك»؟ وأنه ليس لدينا أي وسيلة لعبور البحر الأسطواني؟»

أومأ ريتشارد بالإيجاب. كان الأمر يفوق قدرة نيكول على الاستيعاب. فمنذ خمس دقائق فحسب كانت تطير فرحًا. ظنت أن كربها زال أخيرًا. وتخيلت أنها ستعود إلى كوكب الأرض وترى والدها وابنتها مجددًا. والآن هو يخبرها …

سارت بسرعة مبتعدة واتكأت برأسها على أحد المباني المحيطة بالميدان. وسالت دموعها على وجنتيها، تنفيسًا عن خيبة أملها. وتبعها ريتشارد من بعيد.

قال ريتشارد: «آسف.»

ردت عليه بعدما استعادت اتزانها: «إنها ليست غلطتك يا ريتشارد. كل ما هنالك، أنه لم يخطر ببالي قط أنني قد أقابل أحد أفراد الطاقم مرة أخرى، «ومع ذلك» لا أنجو أيضًا …» ثم توقفت عن الحديث. في رأيها، لم يكن من العدل أن تجعل ريتشارد يعاني معها. فسارت إليه وابتسمت له ابتسامة مصطنعة.

قالت نيكول: «أنا عادةً لا أكون عاطفية هكذا. وقد قاطعت قصتك في منتصفها.» ثم توقفت لحظة عن الحديث كي تمسح دموعها. واستطردت: «كنت تخبرني عن القروش الآلية التي كانت تطارد الزورق البخاري. وإنك رأيتهم أولًا عندما كنت في عُرض البحر، أليس كذلك؟»

رد ريتشارد: «تقريبًا.» قهرته خيبة أملها. وحاول أن يضحك ضحكة عصبية. وقال: «أتتذكرين، بعد أحد تدريبات المحاكاة، عندما انتقدتنا لجنة التقييم بسبب عدم قيامنا بإرسال نموذج للزورق البخاري للماء بلا قائد أولًا، لمجرد التأكد أنه لا يوجد شيء غريب في التصميم الجديد من شأنه أن يعكر صفو «الاتزان البيئي» بطريقة ما؟ حسنًا، لقد خال

لي حينذاك أن اقتراحهم كان سخيفًا. لكني غير متيقن من هذا الآن. ونادرًا ما ضايقت هذه القروش الآلية مركبتَي نيوتن، لكنها كانت منزعجة بشدة من السرعة العالية لزورقي البخاري.»

جلس ريتشارد ونيكول معًا على أحد الصناديق المعدنية الرمادية اللون التي كانت مبعثرة في كل أنحاء منطقة الميدان. واسترسل ريتشارد: «وتمكنت من أن أراوغها ذات مرة، ولكنني كنت محظوظًا للغاية. وعندما لم يكن أمامي أي خيار آخر قفزت من الزورق وسبحت في الماء. ولحسن حظي أنهم كانوا يطاردون الزورق في المقام الأول. ولم أرَ أيًّا منها قط حينما كنت أسبح حتى أصبحت على بعد مائة متر فحسب من الشاطئ.»

سألته نيكول: «وكم أمضيت من الوقت حتى الآن بداخل راما؟»

أجابها: «نحو سبع عشرة ساعة. فقد تركت نيوتن بعد طلوع الفجر بساعتين. وأمضيت الكثير من الوقت العصيب في محاولة إصلاح محطة الاتصالات في مخيم بيتا. لكن كان هذا ضربًا من المستحيل.»

تحسست نيكول بذلة طيرانه. وقالت: «خلا شعرك، ما كان يمكنني قط أن أعرف أنك كنت مبللًا.»

ضحك ريتشارد. وقال: «أواه، إنها معجزات هندسة الأنسجة. أتُصدقي أن البذلة جفت تقريبًا فور تغير درجة حرارتي؟ وحينها وجدت صعوبة حتى في إقناع نفسي أنني قد أمضيت هذه العشرين دقيقة سابحًا في الماء البارد.» ثم نظر إلى رفيقته. كانت تتحرر من توترها العصبي ببطء شديد. وقال: «لكني مندهش منك أيتها الرائدة نيكول. فأنتِ حتى لم تسأليني أهم سؤال. كيف عرفت مكانكِ؟»

وكانت نيكول قد أخرجت شاشتها وبدأت في قياس الإحصاء البيولوجي لريتشارد. وكان كل شيء في المدى المسموح به بالرغم من عملية السباحة المضنية التي قام بها منذ قليل. وقد تأخرت في فهم سؤاله فقالت أخيرًا وهي تقطب حاجبيها: «أكنت تعلم أين كنتُ؟ لقد خال لي أنك فقط كنت تجول في المكان بلا هدف …»

قال ريتشارد: «بربكِ، يا سيدتي. إن نيويورك صغيرة لكنها ليست صغيرة «إلى هذه الدرجة». فداخل هذه الجدران خمسة وعشرون كيلومترًا مربعًا. ولا يمكن التعويل تمامًا على إشارات جهاز اللاسلكي هنا.» ثم ابتسم ابتسامة واسعة. واسترسل: «وإذا وقفت وناديت اسمك في كل متر مربع، إذن فعليَّ أن أنادي باسمك خمسة وعشرين مليون مرة. وإذا ناديت مرة كل عشر ثوانٍ — تاركًا لنفسي بعض الوقت كي أنتظر الاستجابة منكِ

ثم أنتقل إلى المتر المربع التالي — فسأنادي بمعدل ست مرات في الدقيقة الواحدة. ومن ثَم سيستغرق هذا أربعة ملايين دقيقة، أي ما يزيد قليلًا عن ستين ألف ساعة، أو ألفين وخمسمائة يوم على الأرض ...»

قاطعته نيكول: «حسنًا. حسنًا.» وأخيرًا ضحكت. ثم أردفت: «خبرني كيف عرفت مكاني.»

انتصب ريتشارد. وقال بطريقة درامية وهو يمد أصابعه نحو جيب بذلة نيكول الموجود إلى جانب صدرها: «أتسمحي لي؟»

فأجابته نيكول: «أظن لا مانع. مع أنني لا يمكنني أن أتخيل ما ...»

وضع ريتشارد يده في جيبها وأخرج الأمير هال. وقال: «هو من قادني إليك.» ثم قال: «أنت رجل صالح، أيها الأمير، لكنني ظننت لفترة أنك قد خذلتني.»

لم يكن لدى نيكول أدنى فكرة عما يتحدث ريتشارد. فشرح لها الأمر قائلًا: «يحتوي كلٌّ من الأمير هال وفالستاف على جهازين إرشاديين ملاحيين متطابقين. وهما يبثان خمس عشرة ذبذبة قوية في الثانية الواحدة. ومع تثبيت فالستاف في كوخي بمخيم بيتا، بالإضافة إلى جهاز إرسال واستقبال مماثل فوق مخيم ألفا، تمكنت من تتبعك عن طريق حساب الاتجاهات وتحديدها. من ثَم استطعت أن أحدد مكانك بدقة، على الأقل بالإحداثيين الأول والثاني. إن خوارزميات تتبُّع الأثر البسيطة خاصتي لم تكن مصمَّمة للرِّحلات الاستكشافية في عمق الإحداثي الثالث.»

ابتسمت نيكول مرة أخرى وقالت: «هل هذا هو ما يطلقه المهندسون على زيارتي لوكر الطيور؟ رحلة استكشافية في عمق الإحداثي الثالث.»

رد عليها: «إنها إحدى الطرق لوصفها.»

هزت نيكول رأسها. وقالت: «لا أستطيع أن أفهمك، يا ويكفيلد. إن كنت تعلم بحق طوال هذا الوقت أين أنا، فلمَ انتظرت كل هذا بحق الجحيم ...»

أجابها: «لأننا فقدناك، أو ظننا أننا فقدناك، قبل أن نجدك ... بعد أن عدت كي أستعيد فالستاف.»

أجابته: «هل صرت معتوهة في غضون الأسبوع السابق، أم إن هذا تفسير ملتوٍ ومحير للغاية؟»

جاء دور ريتشارد ليضحك. وقال: «ربما ينبغي لي أن أحاول ترتيب إجابتي أكثر من ذلك.» وتوقف ريتشارد كي يتذكر الأحداث بالترتيب الصحيح. ثم استهل حديثه

قائلًا: «كنت متوترًا بحق في شهر يونيو الماضي عندما قررت هيئة الإدارة الهندسية عدم استخدام أجهزة الإرشاد الملاحي كأجهزة احتياطية لتحديد مواقع الأشخاص. تجادلت معهم دون طائل بشأن أنه قد تحدث مواقف حرجة أو ظروف غير متوقعة يمكن أن تكون فيها نسبة الإشارة إلى التشويش في الاتصال العادي أقل من الحد الأدنى. من ثَم جهزت ثلاثًا من الأناس الآلية الخاصة بي تحسبًا لوقوع …»

كانت نيكول تتفرس في وجه ريتشارد ويكفيلد وهو يتحدث. لقد نسيت أنه شخص مذهل ومسلٍّ. وكانت متيقنة من أنها إذا سألته الأسئلة المناسبة فإنه يمكنه أن يتحدث في موضوع سؤالها لمدة ساعة كاملة.

كان ريتشارد يقول: «… ثم فقد فالستاف الإشارة. ولم أكن موجودًا بنفسي في تلك الأثناء، فقد كنت أستعد كي آتي مع هيرو ياماناكا لاصطحابك أنتِ وفرانشيسكا في الطائرة الهليكوبتر؛ لكن فالستاف يحتوي على مسجل صغير ويسجل كل البيانات. ولمَّا لم تأتي أعدت تشغيل البيانات الموجودة على المسجل ووجدت أن الإشارة اختفت فجأة.

ولم تعد الإشارة إلا لفترة وجيزة، عندما كنا نتحدث في جهاز اللاسلكي بعدها بدقائق قلائل، لكن بعد محادثتنا الأخيرة ببضع ثوانٍ اختفت الإشارة بلا رجعة. وأشار التوقيع أنه قد يكون هناك خلل في الجهاز. فاعتقدت أن الأمير هال قد حدث له خلل وظيفي. وعندما قالت فرانشيسكا إنكِ كنتِ بمعيتها حتى وصلتما الميدان، عندئذٍ تأكدت أن الأمير هال …»

لم تكن نيكول مصغية بانتباه لريتشارد إلى أن ذكر اسم فرانشيسكا. قاطعته نيكول وهي ترفع يدها: «انتظر.» ثم سألته: «ماذا قالت لك؟»

أجابها: «إنكما تركتما المخزن معًا، وإنكِ سرتِ لمسافة بضع دقائق بعيدًا عنها بحثًا عن تاكاجيشي …»

قالت نيكول: «هذا هراء.»

سألها ريتشارد: «ماذا تقصدين؟»

أجابته: «هذا كذب. كذب وافتراء بَيِّن. لقد سقطت في التجويف الذي أخبرتك عنه عندما كانت فرانشيسكا لا تزال هناك، أو على الأقل بعدما تركتني بفترة لا تتجاوز الدقيقة. ولم ترَني مجددًا.»

استغرق ريتشارد في التفكير لحظات. ثم قال: «هذا يفسر لمَ لمْ يستطِع فالستاف العثور عليك. لقد كنتِ في المخزن طوال الوقت حيث حُجبت الإشارة.» أصابت الحيرة ريتشارد. واسترسل قائلًا: «لكن لمَ تختلق فرانشيسكا مثل هذه القصة؟»

قالت نيكول في نفسها: «هذا ما وددت أن أعرفه. قطعًا هي التي سممت بورزوف عن قصد. وإلا فلمَ تعمدت ...»

وكان ريتشارد يقول: «هل كان هناك شيء بينكما؟ لطالما خال لي أنني أشتم رائحة ...»

قاطعته نيكول: «ربما بعض الغيرة التي تتملك كلينا. فشتَّان الفارق بيني وبين فرانشيسكا.»

ضحك ريتشارد وقال: «أنتِ محقَّة تمامًا. لقد قضيت معظم السنة أعبِّر بالإيماءات والإشارات عن أنك امرأة ذكية ومثيرة وجذابة. ولم أتلقَّ منكِ أي شيء سوى استجابات لبقة جامدة ودمثة. وعلى نقيض ذلك تمامًا، إذا حدث ولمحت فرانشيسكا أحدهم يطرف بعينيه تجاهها، تمايلت في كل اتجاه.»

ردت نيكول وهي مسرورة إلى حدٍّ ما أن ريتشارد أخيرًا قد عبَّر صراحة عن اهتمامه بها كامرأة: «ثمة فروق أخرى أكثر جوهرية.»

توقف حديثهما لحظة. ثم حدقت نيكول في ساعة يدها. واستطردت: «لكنني لا أود أن أقضي مزيدًا من الوقت في التحدث عن فرانشيسكا ساباتيني. فالظلام سيحل في غضون ساعة، وعلينا أن نخطط للهروب من هذه الجزيرة. ولدينا أيضًا مشكلات خاصة بالمؤن والإمدادات لنناقشها، مثل الطعام والماء وبنود أخرى لا يمكن ذكرها جعلت الحبس في تجويف صغير مثيرًا للاشمئزاز إلى حد ما.»

قال ريتشارد: «لقد أحضرت خيمة قابلة للطي لعلنا نحتاجها.»

ردت نيكول: «عظيم. سأتذكر هذا عندما يهطل المطر.» ثم مدت نيكول يدها تلقائيًّا في حقيبة ظهرها ووضعتها على بعض شمام المن، لكنها لم تخرجه. ثم قالت لريتشارد: «بالمناسبة، هل أحضرت أي طعام «بشري»؟»

عندما استعدا للنوم أدت الخيمة الغرض. وقد قررا أن ينصباها على جانب الميدان المركزي. وشعرت نيكول بالأمان لقربها من الطيور. فلقد كانت ودودة معها إلى حد ما، وقد تساعدها إذا حدث أمر طارئ. علاوةً على أنها المصدر الوحيد للطعام المعروف. فالمتوافر من الطعام والشراب لا يكاد يكفي نيكول وريتشارد أكثر من يومين من أيام راما.

ولم تعترض نيكول على اقتراح ريتشارد بالتشارك في الخيمة. فقد عرض عليها بلباقة أن ينام بالخارج، وقال: «إذا كان هذا سيريحك أكثر»، لكن الخيمة كانت كبيرة

بما يكفي لأن تسع حصيرتَي نومٍ ما دام ليست هناك مفروشات أخرى. وباستلقائها على بعد قرابة نصف متر منه أصبح الحديث بينهما يسيرًا للغاية. وروت نيكول بالتفصيل ما حدث لها في غضون الساعات التي قضتها بمفردها، مع حذف الجزء الخاص بالقارورة والرؤية فقط. فهذا أمر شخصي جدًّا لا يُفترض مشاركته. وانبهر ريتشارد للغاية بالقصة بأكملها ولا سيما بالطيور.

قال وهو يسند رأسه على كوعه: «حاولي أن تستنتجي كيف وصلت هذه الطيور إلى هنا. من كلامك، فيما عدا أمر الدبابة الحارسة — التي أتفق معك تمامًا في أنها الشيء الوحيد الشاذ بالنسبة لها — هي ليست أكثر تطورًا من رجل ما قبل التاريخ. ومن حماقة أن تفشي سرها.»

واسترسل وهو يخفي حماسته بالكاد: «لا يمكنك أن تستبعدي تمامًا أنها كائنات آلية. قد لا تكون مؤثرة من الناحية البيولوجية، لكن من ناحية الذكاء الصناعي، فإنها تُعتبر أحدث ما توصلت إليه التكنولوجيا.» ونهض على حصيرة نومه. وقال: «فكري فقط فيما يعنيه ذلك في كلتا الحالتين. علينا أن نجد إجابة لكل هذه الأسئلة. أنت خبيرة لغوية، وربما يمكنك أن تتعلمي أن تتحدثي معها.»

كانت نيكول مستمتعة بالحديث. وسألته: «هل خطر ببالك يا ريتشارد أن كل هذه الأحاديث ستصير أحاديث نظرية ما لم يُهرع أحد قط لإنقاذنا؟»

ضحك ريتشارد وقال: «مرتان.» ثم استلقى على الفراش مرة أخرى. وتابع حديثه: «لقد تحدث إليَّ هذا الملعون هيلمان على انفرادٍ مرتين، قبلما أعود إلى داخل راما مباشرة وأخبرني أنني «أنتهك كل الإجراءات» برجوعي إلى هنا. ووعدني أنه لن يأتي لإنقاذي تحت أي ظرف من الظروف.»

سألته نيكول: «إذن، لمَ عدت؟»

قال بتؤدة: «أنا غير متيقن تمامًا. أعلم أنني أردت أن أصطحب فالستاف وأرى ما إذا كان استقبل بالمصادفة أي إشارات من جهاز الإرشاد الملاحي خاصتك. لكن أعتقد أن ثمة أسبابًا أخرى. فقد صارت البعثة سياسية أكثر من كونها علمية. إذ بات من الواضح لي أن البيروقراطيين على كوكب الأرض عزموا على إلغاء البعثة لـ «دواعٍ أمنية»، ولم ينوِ أفراد الطاقم الرجوع إلى راما. وقد علمت أن المناقشات السياسية سوف تستمر ليوم آخر أو يومين.» توقف ريتشارد لحظة. ثم واصل قائلًا: «وودت أن ألقي نظرة أخيرة على أروع المناظر التي شاهدتها في حياتي على الإطلاق.»

هدأت نيكول لحظة. ثم قالت برفق: «واضح أنك لم تكن خائفًا لأنك لم تظهر أي أمارات للخوف حتى الآن. ألم تزعجك قط فكرة أنك قد تُترك لتموت على متن راما؟»

أجابها ريتشارد: «أزعجتني قليلًا. لكن الموت في موقف مثير أفضل كثيرًا من العيش في موقف ممل.» ثم أسند رأسه على كوعه مرة أخرى. وتابع حديثه: «لقد تطلعت إلى هذه البعثة ثلاث سنوات. اعتقدت منذ البداية أنني أحظى بفرصة جيدة للاختيار. فباستثناء كائناتي الآلية وشكسبير، لا يوجد شيء في حياتي سوى عملي. وليس لدي عائلة أو أصدقاء كي أفكر فيهم ...»

وبدأ صوته يخفت بالتدريج. قائلًا: «وأنا خائف من الرجوع للأرض قدر خوفي من الموت. على الأقل ريتشارد ويكفيلد رائد الفضاء على متن نيوتن لديه غرض محدد واضح.» وهمَّ أن يقول شيئًا آخر لكنه منع نفسه. استلقى ريتشارد على ظهره وأغمض عينيه.

الفصل الثالث والأربعون

سيكولوجية الحياة خارج الأرض

قال ريتشارد بابتهاجٍ فور أن فتحت نيكول عينيها: «ثمة سبب آخر لعدم استسلامي ونسيت أن أذكره البارحة.»

كانت نيكول معتادة أن تستيقظ ببطء شديد. كانت هذه عادتها حتى في مرحلة الطفولة. لقد كانت تحب أن تتلذذ بالجزء الأخير من الحالة التي انتابتها أثناء أحلامها قبل أن تعود لمواجهة الواقع الأليم. وفي بيتها، كانت جينيفيف وبيير يعلمان جيدًا أنهما لا ينبغي أن يتحدثا معها في أي أمر مهم إلا بعد أن تحتسي قهوة الصباح. تجاهلت نيكول ريتشارد، الذي كان يسلط مصباحه الصغير على المسافة بينهما.

قال ريتشارد: «إن هذه المركبة الفضائية متجهة الآن صوب الأرض. وحتى لو غادرتها نيوتن، قد يكون هناك مركبة فضائية بشرية أخرى هنا عاجلًا أو آجلًا.»

«ماذا؟» قالتها نيكول وهي تهب من مكانها وتفرك عينيها.

رد ريتشارد: «في خِضم الإثارة التي عايشتها الليلة البارحة أغفلت ذكر إحدى النقاط المهمة. لقد وضعت المناورة — أعتقد أن هذا فاتَكِ لأنك كنتِ فاقدة الوعي في تلك الأثناء في قاع التجويف — راما على مسار الاصطدام مع الأرض. مما جعل الإخلاء ضرورة حتمية.»

لاحظ ريتشارد أن نيكول تحدق فيه كما لو كان مخبولًا. فأخذ يوضح كلامه أكثر: «لا تزال المركبة الفضائية تدور في مدارات على شكل قطع زائد حول الشمس، لكنها تندفع بأقصى سرعتها نحو كوكب الأرض. ولسوف نتصادم في غضون ثلاثة وعشرين يومًا.»

قالت نيكول وهي تتوق بشدة لذاك القدح المنعش من القهوة: «ريتشارد، لا أحب المزاح في الصباح الباكر. إن كنت استهلكت طاقتك في اختلاق ...»

قاطعها ريتشارد: «لا، لا. أنا في غاية الجدية. إنها الحقيقة. صَدِّقيني.»

أخرجت نيكول ميزان الحرارة الصغير الذي تحمله ونظرت فيه. ثم قالت: «إذن أخبرني أيها المهندس العبقري، لماذا لا تزال درجة الحرارة تتجه نحو الارتفاع هنا؟ إذا كنا نبتعد الآن عن الشمس، أما كان ينبغي أن تصبح آخذة في الهبوط الآن؟»

هز ريتشارد رأسه. ثم قال: «أنتِ أذكى من هذا يا نيكول. إن الحرارة المنطلقة من الشمس على السطح الخارجي لراما تنتشر ببطء شديد عبر الطبقة الخارجية ثم تنفذ إلى السطح الداخلي. فمن الواضح أن التوصيل الحراري منخفض للغاية. ولا أتوقع أن تصل درجة الحرارة إلى أعلى معدلاتها على مدار أسبوعين آخرين على الأقل.»

كانت نيكول تتذكر من معلوماتها الأساسية في الديناميكا الحرارية ما يكفي لأن تدرك أن ما يقوله منطقي. كان الوقت مبكرًا في الصباح حتى يحدث الانتشار الحراري. قاومت نيكول فكرة أن راما في طريقها الآن نحو الأرض، وطلبت من ريتشارد أن يحضر لها جرعة ماء. وتساءلت في سرها: «ما الذي يحدث هنا؟ ولمَ تتجه راما الآن نحو كوكبنا؟»

وحتمًا كان ريتشارد يقرأ أفكارها. فقال: «قطعًا سمعت بالمناقشات السخيفة التي دارت بشأن لماذا غيرت راما مسارها وما الذي يُحتمل أن تفعله. فقد عُقد مؤتمر هاتفي لمدة سبع ساعات حول الموضوع.»

قهقه ريتشارد. واسترسل: «هناك موظف لدى وكالة الفضاء الدولية، كندي الجنسية على ما أظن، متخصص في سيكولوجية الحياة خارج الأرض. أتصدقين ذلك؟ وقد شارك هذا المعتوه بالفعل في المؤتمر الهاتفي وعرض تفسيره الخاص للدوافع وراء المناورة التي قامت بها راما.» وهز ريتشارد رأسه بقوة. واستأنف حديثه: «جميع الحكومات البيروقراطية متشابهة. فجميعهم يستنزفون الحياة من المبدعين بحق ويخلقون منهم موظفين بلا عقول يجلسون وراء المكاتب.»

سألته نيكول بعد برهة من الصمت: «وما النتيجة النهائية للمؤتمر الهاتفي؟»

أجابها: «خمن معظم العقلاء أن راما سوف تدور في مدار حول الأرض وتُجري عمليات رصد مستترة عن بعد. لكنهم كانوا الأقلية. فكلٌّ من العقل الرشيد والمنطق كانا في إجازة، في رأيي. وحتى ديفيد براون — الذي بدا لي أنه تصرف بطريقة شاذة جدًّا عندما رجعنا إلى نيوتن — أعترف أن ثمة احتمالًا كبيرًا يقول إن راما سوف تقوم بعمل عدواني. وقد أوضح موقفه بذكر أنها قد «لا» تقوم في الواقع بعمل عدواني، لكن محاولتها لمعرفة المزيد حول كوكب الأرض قد تفضي إلى عواقب يمكن أن «نعتبرها» أنها أفعال عدوانية.»

انتصب ريتشارد الثائر. وأكمل حديثه: «هل سبق لك أن سمعت في حياتكِ قط مثل هذه اللغة غير المفهومة؟ ولا سيما أن دكتور براون يُعد أحد أكثر المتحدثين ترابطًا

وتناغمًا. وقد طرح المجلس الاستشاري لوكالة الفضاء موضوعَ أيٍّ من السيناريوهات المعروضة على الساحة محبَّذ لديهم للتصويت. أتعتقدين أن هذه الزمرة من المفوضين ردوا ببساطة هكذا: «أنا مؤمن بالاختيار أ. الخاص بالاصطدام المباشر بما فيه من دمار ناتج وتغيير في الحالة المناخية»، أو رد آخر: «أنا أحبذ الاختيار ج. فيما يخص مدار الأرض، والنوايا القتالية»؟ كلا البتة! كل واحد منهم كان عليه أن يلقي محاضرة فريدة من نوعها. لقد قضى دكتور ألكسندر الغريب الأطوار، الذي كان قد سألك كل الأسئلة عقب اجتماع الإحصاء البيولوجي المفتوح الذي عُقد في نوفمبر، وحده خمس عشرة دقيقة يشرح كيف أن وجود راما قد أحدث خللًا في ميثاق وكالة الفضاء الدولية. كما لو أن أحدهم كان مكترثًا بالأمر!» جلس ريتشارد مرة أخرى ووضع يديه على وجنتيه. ثم قال: «وكان الأمر برمته غير معقول.»

أصبحت نيكول الآن منتبهة تمامًا. قالت وهي تعتدل في جلستها على حصيرة النوم: «افترض، بناءً على توترك الجلي للعيان، أنك تخالف رأي الأغلبية.»

أومأ ريتشارد برأسه. وقال: «ما يقرب من ثلاثة أرباع المجموعة الكبيرة التي شاركت في المؤتمر الهاتفي — بما فيهم كل رواد نيوتن بالإضافة إلى معظم كبار العلماء والمديرين التنفيذيين بوكالة الفضاء — كانوا مقتنعين بأن مناورة راما كانت على الأرجح مضرة بالأرض بشدة. وقد ركز جميعهم تقريبًا على القضية نفسها. ولما كانت مركبة راما ١ قد تجاهلت بوضوح وجودنا تمامًا، لذا ناقشوا حقيقة أن تغيير مركبة راما ٢ لمسارها كي تلتقي بالأرض توضح أن هذه المركبة الفضائية تعمل في ظل مبادئ مختلفة. وبالطبع أتفق معهم في هذا الاستنتاج. لكن ما لا أستطيع فهمه هو لماذا يفترض الجميع بالضرورة أن أفعال راما هي أفعال عدائية. إنني أميل إلى الاعتقاد في أن المخلوقات الفضائية قد دفعها الفضول أو حتى الرغبة في أن تساعدنا بطريقة ما.»

توقف المهندس البريطاني لحظة كي يفكر مليًّا ثم قال: «تقول فرانشيسكا إن التصويت على الأرض يشير إلى أن أغلبية ساحقة من عوام الناس، ما يعادل تقريبًا ٩٠٪ في رأيها، انتابتهم حالة من الهلع لدنو راما. وهم يستصرخون الساسة كي يفعلوا أي شيء.»

أزاح ريتشارد ستار الخيمة وسار بالخارج نحو الساحة المظلمة. وسلط مصباحه بلا هدف على البناية الثمانية الأسطح. ثم قال: «وفي اجتماع لاحق عُقد بعدها بثماني عشرة ساعة، صدر قرار بعدم ذهاب أفراد طاقم نيوتن إلى داخل راما مرة أخرى. ومن

الناحية الفنية، أنا لم أنتهك هذا الأمر؛ لأنني غادرت نيوتن قبل الإعلان الرسمي عن هذا القرار. لكنه كان من الواضح أن الأمر سيصدر.»

قالت نيكول بينما كانت تسير نحو الميدان خلفه: «وبينما يناقش قادة كوكب الأرض ماذا يفعلون حيال مركبة فضائية في حجم الكويكب تتجه نحوهم مباشرة، أنا وأنت لدينا مشكلة يمكن حلها بسهولة. يجب علينا أن نعبر البحر الأسطواني.» ثم ابتسمت ابتسامة شاحبة. واستطردت: «أيمكننا أن نقوم ببعض الاستطلاعات ونحن نتحدث؟»

سلط ريتشارد مصباحه الضوئي على قاع التجويف. وكان يمكن تمييز شمام المن بوضوح، لكن القطع المستقلة في كومة المعادن المختلطة كان من الصعب تمييزها. قال ريتشارد: «إذن، هذه هي قطع غيار أم أربع وأربعين الآلية، أليس كذلك؟»

أومأت نيكول بالإيجاب. كانا جاثيين بعضهم إلى جوار بعض عند حافة التجويف. قالت نيكول: «حتى في ضوء النهار تكون أطراف التجويف معتمة. لقد كنت في حاجة إلى التأكد من أنني لم أكن أنظر إلى جسم تاكاجيشي.»

قال ريتشارد: «أحب أن أرى أم أربع وأربعين آلية وهي تصلح نفسها.» ثم نهض وسار نحو جدران المخزن. وطرق عليها. واسترسل: «وسيحب علماء المواد هذا الشيء. تُحجب موجات الاتصال اللاسلكي العادية في كلا الاتجاهين، علاوة على أنه لا يمكنك الرؤية من الخارج. في حين أن الجدران شفافة إذا كنت تنظرين من داخل المخزن إلى خارجه.» ثم استدار نحو نيكول. واسترسل قائلًا: «أحضري مشرطك إلى هنا. لنرَ هل بإمكاننا أن نحصل على قطعة منها.»

كانت نيكول تحاول أن تقرر هل ينبغي أن يهبط أحدهما إلى التجويف كي يجلب شمام المن. لن يكون الأمر عسيرًا بافتراض أن خيوط الجراحة سوف تصمد. وأخيرًا أخرجت مشرطها وسارت بجانب ريتشارد.

قالت: «إنني لست واثقة من أننا ينبغي أن نفعل هذا.» وترددت نيكول قبل أن تضع المشرط على جدار المخزن وتابعت قائلة: «أولًا، من الممكن أن يتلف المشرط. وقد نحتاجه فيما بعد. ثانيًا، قد يعتبر هذا تخريبًا متعمدًا.»

كرر ريتشارد كلمتها بصيغة استفهامية: «تخريب متعمد؟» ثم رمق نيكول بنظرة استعجاب. وقال: «يا له من مفهوم بشري التمركز.» ثم هز كتفيه تعبيرًا عن عدم الاكتراث واتجه نحو أحد أطراف المخزن. وأردف: «لا عليك، لعلك محقة بشأن المشرط.»

أدخل ريتشارد بعض البيانات في جهاز كمبيوتر الجيب الخاص به، وكان ينعم النظر في الشاشة الصغيرة عندما اقتربت نيكول منه. ثم قال: «أنتِ وفرانشيسكا كنتما تقفان هنا تقريبًا، أليس كذلك؟» ردت عليه نيكول بالإيجاب. فتابع قائلًا: «عندئذٍ رجعتِ إلى المخزن كي تنظري في أحد التجاويف، أليس كذلك؟»

ردت نيكول: «لقد تطرَّقنا إلى هذا الموضوع من قبل. لمَ تسأل مرة أخرى؟»

قال: «أعتقد أن فرانشيسكا قد رأتك وأنتِ تسقطين في أحد التجاويف، ثم ضللتنا عن عمد بالقصة التي اختلقتها حول ذهابك للبحث عن البروفيسور الياباني. فهي لم ترد أن يعثر عليكِ أحد.»

حدقت نيكول في ريتشارد في الظلام. ثم ردت بتؤدة: «أتفق معك. لكن لمَ تعتقد هذا؟»

أجابها: «إنه التفسير الوحيد الذي يبدو منطقيًّا. لقد حدث صدام غريب بيننا قبل أن أعود إلى داخل راما مباشرة. لقد حضرت إلى غرفتي متذرعةً برغبتها في إجراء حوار معي، ربما لكي تعرف لما كنت عائدًا إلى راما. وعندما ذكرت أمر فالستاف وجهاز إرشادك الملاحي، أطفأت الكاميرا. وعندئذٍ أصبحت مفعمة بالحيوية وسألتني كثيرًا من الأسئلة الفنية المفصلة. وقبل أن تهمَّ بالرحيل أخبرتني أنها مقتنعة تمامًا أنه ما كان ينبغي أن يدخل أحد منا راما في المقام الأول. واعتقدت أنها كانت تنوي أن تتوسل إليَّ كي لا أعود إلى راما.»

استرسل ريتشارد بعدما انقطع عن الحديث برهة: «أستطيع أن أدرك الآن أنها لم تكن راغبة في أن أكتشف أنها حاولت تركك في هذا التجويف المهجور. لكن ما لا أستطيع أن أعرفه هو سبب تركها لك هناك في المقام الأول.»

قالت نيكول بعد لحظة من التفكير: «أتتذكر الليلة التي فسرت لي فيها لمَ أخفق نظام الحماية ضد الأعطال في روسور؟ في نفس الليلة سألتك أنت وجانوس إذا كان أيٌّ منكما قد شاهد الجنرال بورزوف ...»

قضت نيكول ما يقرب من خمس عشرة دقيقة وهما يسيران في طريق العودة باتجاه الساحة المركزية إلى خيمتهما، تشرح لريتشارد فرضيتها بالكامل بشأن المؤامرة. وأخبرته بشأن العقد الإعلامي، والأدوية التي أعطتها فرانشيسكا لكلٍّ من ديفيد براون وريجي ويلسون، وتفاعل نيكول مع كل الرؤساء. غير أنها لم تخبره بشأن مكعب البيانات. ووافقها ريتشارد الرأي في أن الدليل قوي للغاية.

سألها ريتشارد: «إذن أنتِ تعتقدين أنها تركتك هناك في التجويف خشية أن تفضحيها باعتبارها متآمرة؟»

أومأت نيكول برأسها بالإيجاب.

أطلق ريتشارد صفارة. وقال: «كل شيء واضحٌ الآن. لقد كان جليًّا لي أن فرانشيسكا هي التي تدير كل شيء عندما رجعنا إلى نيوتن. وكلٌّ من براون وهيلمان يتلقيان الأوامر منها.» ثم وضع ريتشارد ذراعه حول نيكول. وقال: «لم أرد أن تكون هذه المرأة عدوتي. فمن الواضح أنها ليس لديه أي وازع أخلاقي على الإطلاق.»

الفصل الرابع والأربعون

وَكرٌ آخر

كان لدى ريتشارد ونيكول مخاوف أهم من فرانشيسكا. فعندما عادا إلى الساحة المركزية، وجدا أن خيمتهما اختفت. ولم ينجم قرعهما المتكرر على غطاء وكر الطيور عن أي استجابة. وعندئذٍ اتضح لكليهما خطورة موقفيهما.

صار ريتشارد كئيبًا وقليل الكلام على نحو متزايد. واعتذر لنيكول شارحًا لها أن الانعزال عن الناس عندما يشعر بعدم الأمان من إحدى صفاته الشخصية. وأخذ يلهو على جهاز الكمبيوتر الخاص به بضع ساعات، لا يتوقف إلا بين الفينة والفينة كي يسأل نيكول أسئلة حول جغرافيا نيويورك.

استلقت نيكول على حصيرة النوم خاصتها وأخذت تفكر في السباحة عبر البحر الأسطواني. لم تكن نيكول سباحة ماهرة على نحو استثنائي. ففي أثناء فترة التدريب، كانت تستغرق نحو خمس عشرة دقيقة كي تسبح كيلومترًا واحدًا، وكان هذا في حمام سباحة هادئ. أما لكي تعبر البحر الأسطواني، فسيكون عليها أن تسبح خمسة كيلومترات عبر الماء البارد الذي يعج بالأمواج المتلاطمة. وقد يرافقها في رحلتها مخلوقاتٌ أليفة مثل القروش الآلية.

قطع حبلَ أفكارها رجلٌ بدين ومرحٌ طوله عشرون سنتيمترًا. سألها فالستاف: «هل ترغبين في احتساء شيء ما، سيدتي الجميلة؟» انقلبت نيكول وأنعمت النظر في الإنسان الآلي من كثب. رفع فالستاف كوبًا كبيرًا به سائل وتجرعه، وقد أراق بعضًا منه على لحيته. مسح فالستاف لحيته بكمه ثم تجشَّأ. قال فالستاف بلكنة بريطانية رصينة وهو يخفض يده إلى جانبه: «وإن لم ترغبي في احتساء شيء، فعندئذٍ ربما يمكن لسير جون أن يعلمك بعض الأمور في الفراش.» وبلا ريب، كان الوجه الصغير ينظر إليها نظرة شهوانية. كان وقحًا، لكنه مُسلٍّ للغاية.

ضحكت نيكول. وبالمثل ضحك فالستاف. فقال لها الإنسان الآلي: «أنا نفسي لست بارعًا فقط، لكن سبب هذه البراعة يكمن في رجال آخرين.»

قالت نيكول لريتشارد الذي كان يتابعهما على بعد بضعة أمتار: «أتعرف يا ريتشارد، إذا سئمت من كونك رائد فضاء، يمكنك أن تربح الملايين من وراء صنع ألعاب الأطفال.»

اقترب ريتشارد والتقط فالستاف. وشكر نيكول على إطرائها. ثم قال بجدية شديدة: «في رأيي، لدينا ثلاثة خيارات. إما أن نعبر البحر الأسطواني سباحةً، وإما أن نستكشف نيويورك لنرى هل بإمكاننا تجميع مواد كافية لصنع قارب أو ما شابه، وإما أن ننتظر هنا حتى يأتي أحد. وفي كل الأحوال لست مستبشرًا خيرًا بشأن فرصنا في النجاة.»

قالت نيكول: «إذن، ماذا تقترح؟»

أجابت: «أقترح حلًّا وسطًا. عندما يطلع النهار نبحث المناطق الرئيسية في المدينة بعناية، ولا سيما حول الساحات الثلاثة، ونرى هل بإمكاننا العثور على أي شيء يمكن استخدامه لصنع قارب. سوف نخصص لعملية الاستطلاع يومًا واحدًا أو يومين من أيام راما. وإذا لم نجد ما يصلح لهذا الغرض نعبر البحر سباحة. فأنا لا أعتقد البتة أننا سنرى فريق إنقاذ على الإطلاق.»

أجابته نيكول: «يروقني هذا. لكن ثَمة شيئًا واحدًا أريد أن أفعله أولًا. نحن لا نملك كثيرًا من الطعام. ولكي نُهون من الأمر أرى أنه من الأفضل أن نسحب شمام المن أولًا، قبلما نقوم بمزيد من الاستكشاف. وبهذه الطريقة يمكننا أن نجنب أنفسنا أي مفاجآت.»

اتفق ريتشارد معها على أن توفير الإمدادات من الطعام قد يكون إجراءً مبدئيًّا حكيمًا. لكنه لم يُحبِّذ فكرة استخدام الخيوط الجراحية مرة أخرى. فقال لنيكول: «كنت محظوظة في نواحٍ متعددة. ليس فقط لأن الخيط لم ينقطع، بل أيضًا لأنه لم ينخلع من حزام الوسط الذي صنعته. ومع ذلك فإنه اخترق قفازك تمامًا في مكانين، وأوشك على اختراق حزام الوسط.»

سألته نيكول: «هل لديك فكرة أخرى؟»

أجابها: «المادة المصنوع منها الشباك هي الخيار الأمثل. ستكون ملائمة تمامًا، ما لم تواجهنا أي مصاعب في الحصول عليها. عندئذٍ سيمكنني أن أنزل في التجويف وأجنبك المصاعب ...»

قاطعته نيكول: «خطأ.» ثم ابتسمت. وتابعت: «مع بالغ احترامي، يا ريتشارد، هذا ليس وقت أي أعمال ذكورية بطولية. استخدام الشبكة فكرة رائعة. لكنك ثقيل الوزن

للغاية. وإذا وقع مكروه، فلن أكون قادرة على إخراجك.» ربَّتت نيكول على كتفه. وواصلت حديثها: «أرجو ألا يجرح هذا شعورك، لكنني الأكثر لياقة بدنية.»

تظاهر ريتشارد بأن كبرياءه قد جُرح. فقال: «لكن أين ذهبت الأعراف والتقاليد؟ فالرجل دائمًا هو من يضطلع بالأعمال الخاصة بالقوة البدنية والرشاقة. ألا تتذكرين أفلام الكرتون التي شاهدتها في طفولتك؟»

ضحكت نيكول من قلبها. وقالت بهدوء: «نعم يا عزيزي. لكنك لست بوباي. وأنا لست أوليف أويل.»

هز ريتشارد رأسه بشدة قائلًا: «لست واثقًا من أنني يمكنني قبول هذا. أن أكتشف في عمر الرابعة والثلاثين أنني لست بوباي ... يا لها من ضربة قاصمة لصورتي الذاتية.» عانق ريتشارد نيكول برفق. ثم تابع: «ما رأيك في هذا؟ أما ينبغي أن نحاول الخلود إلى النوم قليلًا قبل أن ينجلي النهار؟»

لم يستطع كلاهما أن يخلد إلى النوم. لقد استلقيا متجاورين كل واحد على حصيرة نومه في الساحة المفتوحة، وكلاهما استغرق في أفكاره الخاصة. سمعت نيكول صوت جسد ريتشارد وهو يتحرك. فهمست: «هل أنت مستيقظ أيضًا؟»

أجابها: «بلى. لقد فعلت الكثير حتى أنام، حتى لجئت إلى عدِّ شخصيات شكسبير، بلا جدوى. لقد وصلت حتى الآن لما يزيد عن مائة شخصية.»

اتكأت نيكول على ساعدها وواجهت رفيقها. وقالت: «أخبرني يا ريتشارد، ما سبب انشغالك الشديد بشكسبير؟ أعلم أنك ترعرت في ستراتفورد، لكن يشقُّ عليَّ أن أتخيل كيف يمكن لمهندس مثلك يعشق أجهزة الكمبيوتر والحسابات والآلات، أن يصبح مغرمًا بكاتب مسرحي.»

أجابها ريتشارد بعد لحظات معدودة: «أخبرني المعالج الخاص أن هذا نوع من «الهروب القهري من الواقع». لما كنت لا أحب العالم الواقعي أو الناس الذين يعيشون فيه اختلقت عالمًا آخر. لولا ذلك ما قمت بعمل هذه الشخصيات من الأصل. كل ما هنالك أني قدمت عالمًا رائعًا ابتدعه بالفعل شخص عبقري.»

استرسل ريتشارد بعد لحظة: «كنت أهيم حبًّا وعشقًا بشكسبير. عندما كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري، كنت أقف بتلك الحديقة الممتدة على نهر الأفون — التي تقع بجانب جميع المسارح، وتضم تماثيل لهاملت وفالستاف وليدي ماكبث والأمير هال —

وأُمضي ساعات المساء أختلق قصصًا إضافية حول شخصياتي المفضلة. هكذا كنت أرجئ رجوعي إلى المنزل لأقصى وقت ممكن. لقد كنت أفزع من التواجد مع والدي ... لم أعرف قط ما قد يفعله ...»

قاطع ريتشارد نفسه فجأة: «لكنكِ قد لا ترغبين في سماع هذا، كل شخص لديه ذكريات من أوجاع الطفولة. ينبغي أن نتحدث في موضوع آخر.»

فاجأته نيكول بردٍّ فاجأها هي نفسها أيضًا، إذ قالت: «ينبغي أن نتحدث في أي شيء نشعر به مهما كان.» ثم أضافت بنبرة رقيقة: «وهو شيء قلما أفعله أنا ذاتي.»

استدار ريتشارد ونظر باتجاهها. مد ريتشارد يديه ببطء. فاحتضنت برفق أصابعه بين أصابعها. قال ريتشارد: «عمل والدي بهيئة السكك الحديدية البريطانية. كان ماهرًا للغاية، لكنه كان أخرق فيما يخص العلاقات الاجتماعية، وقد عثر على الوظيفة التي تناسبه بعدما أنهى بشق الأنفس دراستَه في جامعة ساسكس. وقتها، كانت الأوقات لا تزال عصيبة. فالاقتصاد كان قد أخذ لتوه في التعافي من الفوضى العارمة ...

وعندما أخبرته والدتي أنها حامل بحثَ عن وظيفة آمنة ومضمونة. ولطالما كان يحرز نقاطًا عالية في اختبارات القبول. وكانت الحكومة قد أجبرت كل الشركات الاحتكارية للنقل المحلي، بما فيها السكك الحديدية، على تعيين موظفين في مناصب بناءً على النتائج الموضوعية للاختبارات. ومن ثَم، أصبح والدي مدير العمليات في ستراتفورد.

مقت والدي الوظيفة. فقد كانت مملة ورتيبة، وليس بها تحدٍّ من أي نوع لرجل حاصل على مرتبة الشرف. وأخبرتني والدتي أنني عندما كنت صغيرًا جدًّا، تقدم والدي لوظائف أخرى، لكن يبدو أنه دائمًا ما كان يفسد الأمر في أثناء المقابلة الشخصية. ولكن بعد حين، عندما صرت أكبر، لم يحاول قط أن يقبل على ذلك مرة أخرى. فجلس في المنزل ليندب حظه. ثم أدمن احتساء الخمر. وأحال حياةَ من حوله إلى شقاء.»

ساد بينهما صمت طويل. إذ كان ريتشارد يُمضي وقتًا عصيبًا يصارع أشباح طفولته. ضغطت نيكول على يديه وقالت: «آسفة.»

تلعثم ريتشارد قليلًا وهو يقول: «لم أكن إلا طفلًا صغيرًا يتمتع بأحاسيس مرهفة من حب للحياة وانبهار بها. وكنت أعود إلى البيت متحمسًا بسبب شيء جديد قد تعلمته، أو شيء قد حدث في المدرسة، فأخبر والدي فيقابل هذا بطريقة فظة.

وحدث في إحدى المرات عندما كنت في الثامنة من عمري، أنني عدت من المدرسة بعد الظهيرة، وناقشته في أمر ما. كان هذا يوم عطلته، وكان يعاقر الخمر كعادته. ووالدتي

بالخارج في المتجر. ولا أتذكر الموضوع بالضبط الآن، لكني أتذكر أنني كنت أخبره أنه مخطئ بشأن بعض الحقائق التافهة. وعندما مضيت قدمًا في مناقشته، صفعني فجأة على أنفي بكل ما أُوتي من قوة. سقطت بجانب الجدار والدماء تسيل من أنفي المكسور. ومنذ ذلك الحين وحتى بلغت الرابعة عشرة من عمري شعرت أنني بمقدوري أن أحمي نفسي، وأنا لن أدخل هذا المنزل قط حينما يكون هناك، إلا إذا تأكدت أن والدتي بالمنزل.»

حاولت نيكول أن تتخيل رجلًا بالغًا يلكم طفلًا في الثامنة من عمره. فتعجبت في سرها: «أي نوع من البشر هذا الذي يستطيع أن يكسر أنف ابنه؟»

وكان ريتشارد يقول: «لطالما كنت خجولًا للغاية، وقد أقنعت نفسي أنني ورثت عن والدي حماقته الاجتماعية؛ من ثَم لم يكن لديَّ كثير من الأصدقاء من نفس عمري. بيد أنني لا أزال أتوق إلى التفاعل مع البشر.» نظر ريتشارد إلى نيكول وتوقف عن الكلام كي يتذكر شيئًا ما. ثم استرسل: «وجعلت من شخصيات شكسبير أصدقاء لي. كنت أقرأ مسرحياته كل مساء في الحديقة وأغوص في عالمه الخيالي. حتى إنني كنت أحفظ مشاهد بأكملها عن ظهر قلب. وبعدها وأنا في طريق عودتي للمنزل كنت أتحدث مع روميو أو أريل أو جاك.»

ولم يكن من العسير على نيكول أن تتخيل باقي قصة ريتشارد. فجال بخاطرها: «أستطيع أن أتخيل صورتك وأنت مُراهق منطوٍ على ذاتك. ولا تشعر بالراحة ومكبوت عاطفيًّا. وقد منحك هوَسُك بشكسبير متنفَّسًا للهروب من أوجاعك. وكانت كل المسارح قريبة من منزلك. فتمكنت من أن ترى أصدقاءك أحياءً على خشبة المسرح.»

مالت نيكول لا إراديًّا وقبَّلت ريتشارد على وجنته. وقالت: «أشكرك على ثقتك فيَّ.»

حالما سطع ضوء النهار ذهب ريتشارد ونيكول إلى الشبكة. وصُعقت نيكول عندما وجدت أن القطع الذي أحدثته في الشبكة عندما حررت الطائر قد أُصلح كله. وكانت الشبكة تبدو وكأنها جديدة. علَّق ريتشارد: «من الواضح أن مخلوقًا آليًّا مختصًّا بالإصلاحات كان هنا بالفعل»، لم يعد متأثرًا بما يحدث بعد كل الأمور العجيبة التي شاهدها فعليًّا.

وقاما بتقطيع العديد من الحبال الطويلة من الشبكة ثم اتجها إلى المخزن. وفي الطريق أخذ ريتشارد يختبر مدى مرونة مادة الحبل. فوجد أنه يتمدد بنسبة خمسة عشر بالمائة تقريبًا من طوله ثم يعود ذاتيًّا مرة أخرى إلى طوله الأصلي، وإن كانت هذه العودة تحدث ببطء في بعض الأحيان. ووجد أن الوقت المستغرق في عملية العودة إلى الطول

الأصلي يتفاوت بدرجة كبيرة تبعًا لمقدار الطول الذي تمددت إليه القطعة. وكان ريتشارد قد بدأ بالفعل في فحص التركيب الداخلي للحبل عندما وصلا إلى المخزن.

لم تُضِع نيكول أي لحظة. إذ ربطت أحد طرفَي الحبل المأخوذ من الشبكة حول شيء قصير وسميك خارج المخزن، وأخذت تتسلق الجدار لأسفل بداخل التجويف. وكان دور ريتشارد يقتصر على التحقق من عدم حدوث أي أشياء معاكسة، وأن يتواجد للمساعدة إذا وقع أي نوع من الطوارئ. وفي قاع التجويف ارتجفت نيكول لحظة عندما تذكرت كم كانت تشعر بالضعف والوهن قبل أيام قلائل فحسب. لكنها سرعان ما حولت انتباهها للمهمة التي هي بصددها، فاستخدمت مجموعة من مسابيرها الطبية كمقبض وأدخلته بعمق في شمام المن، ثم ثبتت الطرف الآخر من المقبض في حقيبة ظهرها. وكان صعودها نشيطًا وهادئًا.

ابتسمت لريتشارد وهي تعطيه الشمامة كي يحملها وقالت: «حسنًا. ينبغي الآن أن نواصل العمل طبقًا للخطة الأصلية، أليس كذلك؟»

رد ريتشارد: «عُلم. والآن ضمنا عشر وجبات تالية.»

صححته نيكول قوله بابتسامة: «بل تسعًا. فقد أجريت تعديلًا طفيفًا في التقدير بعد أن شاهدتك تأكل أمامي مرتين.»

غادر ريتشارد ونيكول المخزن في عجالة باتجاه الساحة الغربية. وقد ذرعا المنطقة المفتوحة جيئة وذهابًا، ونقبا في الدروب الضيقة القريبة، بيد أنهما لم يعثرا على أي شيء من شأنه أن يساعدهما في بناء قارب. وأثناء عملية البحث صادف ريتشارد أم أربع وأربعين آلية إذ دخلت الساحة ثم تحركت على نحو قطري. فعل ريتشارد كل ما في وسعه، بما في ذلك الاستلقاء أمامها وضربها على رأسها بحقيبة ظهره، كي يحثها على التوقف. ولم يفلح في ذلك. وكانت نيكول تضحك عليه عندما عاد محبطًا إلى جانبها.

تأفف ريتشارد: «هذه الحشرة معدومة النفع تمامًا. لماذا هي موجودة بحق الجحيم؟ إنها لا تحمل أي شيء. وليس لديها أي قرون استشعار يمكن أن أراها. كل ما تفعله هو أنها تطوف بخفة ومرح.»

عندئذٍ ذكَّرته نيكول بأحد اقتباساته المفضلة: «لا يمكن التمييز بين تكنولوجيا الأجناس المتقدمة القائمة خارج كوكب الأرض وبين السحر.»

رد عليها وهو مضجر منها قليلًا لسخريتها منه: «لكن أم أربع وأربعين اللعينة تلك ليست سحرًا، إنها لعينة غبية!»

استفسرت نيكول قائلة: «وماذا كنت ستفعل معها إن توقفت؟»

أجابها: «يا إلهي، بالطبع كنت سأفحصها. ما رأيك في هذا؟»

ردت عليه: «رأيي أنه من الأفضل أن نوفر طاقاتنا لأمور أخرى. لا أعتقد أن أم أربع وأربعين آلية سوف تساعدنا على الخروج من هذه الجزيرة.»

رد ريتشارد بنبرة فظة قليلًا: «حسنًا، يبدو لي أن كل ما نحن بصدده حيال هذه المسألة غير صحيح. وإننا لن نجد أي شيء على السطح. فالكائنات الآلية غالبًا ما تنظف كل شيء بانتظام. ينبغي أن نبحث عن حفرة أخرى في الأرض، مثل وكر الطيور. يمكننا أن نستخدم الرادار المتعدد الطيف كي نحدد أي مناطق لا تكون فيها الأرض عبارة عن التربة.»

واستغرق الأمر منهما وقتًا طويلًا حتى يجدا حفرة ثانية، مع أنها لم تكن تبعد أكثر من مائتَي متر من مركز الساحة الغربية. في البداية كان ريتشارد ونيكول محدودين للغاية في بحثهما. ومع ذلك بعد مرور ساعة، أقنعا أنفسهما أخيرًا أن التربة تحت سطح منطقة الساحة مُصمَتة. ثم وسَّعا نطاق بحثهما ليشمل الشوارع الصغيرة والممرات المجاورة المتفرعة من الطرق المركزية. وفي إحدى الممرات المسدودة ذات المباني الشاهقة الارتفاع والثلاثية الجوانب، وجدا غطاءً آخر في وسط الطريق. ولم يكن الغطاء مستترًا عن النظر بأي شكل من الأشكال. وكان هذا الغطاء بنفس حجم غطاء وكر الطيور، الذي كان على شكل مستطيل طوله عشرة أمتار وعرضه ستة أمتار.

الفصل الخامس والأربعون

نيكي

«أتعتقد أن غطاء وكر الطيور يُفتح بالطريقة نفسها؟» سألت نيكول ريتشارد بعدما بحث بعناية بالغة في الضواحي وعثر على لوحة مسطحة على أحد المباني، والتي بدت أنها في غير موضعها بلا شك. وقد أدى الضغط بقوة على اللوحة إلى فتح الغطاء.

أجابها: «ربما. سيكون علينا أن نعود ونتحقق من ذلك.»

قالت نيكول: «إذن هذه الأماكن ليست آمنة تمامًا.»

رجع كلاهما إلى الشارع حيث الغطاء الثاني وجثيا على ركبتيهما لينظرا داخل الحفرة. كان هناك ممر عريض وشديد الانحدار ينحدر من جانبيهما ويختفي في الظلام أسفلهما. ولم يتمكنا من رؤية أي شيء على عمق أبعد عشرة أمتار فقط داخل الحفرة.

علَّق ريتشارد: «إنها تبدو كإحدى الباحات القديمة لوقوف السيارات. كان ذلك في الماضي، عندما كان الجميع يمتلكون السيارات.»

ضغط ريتشارد بقدميه على الممر. وقال: «إنه يبدو كالخرسانة.»

أخذت نيكول تراقب رفيقها وهو ينزل الممر ببطء. وعندما أصبح رأس ريتشارد أسفل مستوى سطح الأرض، التفت وتحدث إليها. إذ سألها: «ألن تأتي؟» ثم أضاء مصباحه الضوئي وسلَّطه على بسطة درج صغيرة أخرى على بعد بضعة أمتار قليلة لأسفل.

قالت نيكول من أعلى: «ريتشارد. أعتقد أننا ينبغي أن نناقش ذلك. لا أود أن أعلق في ...»

تعجب ريتشارد: «يا للهول!» فما إن وطئ ريتشارد برجله بسطة الدرج الأولى، حتى أضاءت بعض الأنوار آليًّا من حوله الجزء التالي من المنحدر. ثم صرخ: «الممر يستدير

ويعود للخلف ثم يواصل طريقه لأسفل. والمناظر كما هي لا تتغير.» ثم استدار واختفى من مجال رؤية نيكول.

صرخت نيكول بشيء من السخط: «ريتشارد، هلا توقفت لحظة من فضلك؟ ينبغي أن نتحدث عما سنفعله.»

وبعد بضع ثوانٍ ظهر وجه ريتشارد الباسم مرة أخرى. وناقش الرائدان الخيارات المتاحة. وأصرَّت نيكول على رغبتها في أن تظل بالخارج في نيويورك، حتى وإن كان ريتشارد سيمضي قدمًا في اكتشافاته. على الأقل بهذه الطريقة، لن يُحبسا داخل الحفرة.

وبينما كانت نيكول تتحدث، كان ريتشارد يقف على بسطة الدرج الأولى ويمسح بنظره المنطقة المحيطة به. كانت الجدران مصنوعة من نفس المادة التي وجدتها نيكول في وكر الطيور. وكانت هناك مصابيح فلورسنتية صغيرة، لا تختلف كثيرًا عن المصابيح الفلورسنتية التي توجد على كوكب الأرض، على طول الجدران لتضيء الممر.

صاح ريتشارد في منتصف حوارهما: «هلا ابتعدتِ لحظةً من فضلك؟»

في البداية رجعت نيكول المتحيرة بعيدًا عن المدخل المؤدي إلى الحفرة المستطيلة الشكل. وسمعت ريتشارد يصرخ: «ابتعدي أكثر.» سارت نيكول ووقفت مقابل أحد المباني المحيطة.

صاحت نيكول: «هل هذه المسافة كافية؟» وما إن فرغت من الصراخ حتى بدأ غطاء الحفرة ينغلق. ركضت نيكول نحوها وحاولت أن توقف حركة الغطاء، لكنه كان ثقيلًا للغاية. وعندما اختفت الحفرة أسفلها أخذت تصرخ قائلة: «ريتشارد.»

أخذت نيكول تضرب الغطاء بشدة وتذكرت مشاعر الإحباط التي انتابتها عندما كانت محبوسة في وكر الطيور. على الفور ركضت إلى المبنى وضغطت على اللوحة المسطحة المثبتة. فلم يحدث شيء. وانتظرت دقيقة تقريبًا. توترت نيكول. وهرولت إلى الشارع مرةً أخرى تنادي على رفيقها.

رد عليها ريتشارد مما بعث الطمأنينة في نفسها: «أنا بخير هنا، تحت الغطاء. لقد وجدت لوحة أخرى بالقرب من بسطة الدرج الأولى وضغطت عليها. أعتقد أنها هي المسئولة عن فتح الغطاء أو غلقه، لكنها ربما تحتاج لفترة زمنية كي تعمل. أعطيني بضع دقائق. ولا تحاولي أن تفتحي الغطاء. ولا تقفي بالقرب منه.»

ابتعدت نيكول وانتظرت. كان ريتشارد محقًّا. فبعد مرور بضع دقائق انفتح الغطاء، وظهر ريتشارد مرة أخرى بابتسامة عريضة تداعب شفتيه. وقال: «انظري، قلت لكِ لا داعي للقلق ... والآن ماذا سنتناول في الغداء؟»

وبينما كانا يهبطان الممر، سمعت نيكول صوت الماء الجاري المألوف. وفي غرفة صغيرة تبعد نحو عشرين مترًا خلف بسطة الدرج، وجدا ماسورة وخزانًا مطابقين لهذين الموجودين في وكر الطيور. ملأ ريتشارد ونيكول قاورورتيهما بالماء العذب اللذيذ.

أما خارج الغرفة، فلم يكن هناك أنفاق أفقية في الاتجاهين، ولكن ممر منحدر آخر، ينحدر خمسة أمتار تحت سطح الأرض. بدأ شعاع الضوء الخارج من مصباح ريتشارد يزحف ببطء عبر الجدران المظلمة بالقرب من غرفة الماء. قال ريتشارد وهو يشير إلى اختلاف طفيف للغاية في مادة البناء: «انظري هنا نيكول. لاحظي أنها تتقوس إلى الجانب الآخر.»

تتبعت نيكول الشعاع الخارج من مصباحه وهو يرسم قوسًا مستديرًا طويلًا على الجدار. وقالت: «يبدو كما لو أن البناء تم على مرحلتين على الأقل.»

رد عليها: «بالضبط. لعله كان هنا أيضًا أنفاق أفقية، على الأقل في البداية، ثم سُدت فيما بعد.» صمت ريتشارد ونيكول وهما يواصلان الهبوط. وكانت المنحدرات المتطابقة تتحرك جيئة وذهابًا. وكلما لمس ريتشارد ونيكول بسطة درج جديدة، كان المنحدر التالي يُضاء تلقائيًّا.

وصارا على بعد خمسين مترًا تحت سطح الأرض، عندما انكشف السقف فوقهما وانتهت المنحدرات بكهف كبير. وكان يبلغ قطر أرضية الكهف المستديرة نحو خمسة وعشرين مترًا. وكان هناك أربعة أنفاق مظلمة يبلغ ارتفاع كلٍّ منها خمسة أمتار، وتبعد بعضها عن بعض بمسافات متساوية، نحو تسعين درجة حول الدائرة التي تبدأ من الكهف.

قال ريتشارد متحيرًا: «النفق الأول أم الثاني أم الثالث أم الرابع.»

قالت نيكول: «سأسلك النفق الرابع.» واتجهت صوبه. وعندما أصبحت على بعد بضعة أمتار من المدخل، أُضيئت أنوار الجزء القريب من النفق.

جاء دور ريتشارد ليتردد. وأخذ يحدق بحذر في النفق، ثم أدخل في عجالةٍ بعض المدخلات إلى جهاز الكمبيوتر الخاص به. وقال: «هل يبدو لك أن هذا النفق ينحني بعض الشيء ناحية اليمين؟ انظري، هناك عند نهاية الأضواء، ألا ترين؟»

أومأت نيكول برأسها. ثم نظرت من فوق كتف ريتشارد كي ترى ماذا يفعل. فقال ردًّا على فضولها: «إنني أعد خريطة. كان البطل الإغريقي ثيسيوس لديه خيط وهانسل وجريتل كان لديهما الخبز. ونحن لدينا ما هو أفضل مما كان لديهما. أليست أجهزة الكمبيوتر رائعة؟»

ابتسمت نيكول. وقالت وهما يسيران في الجزء التالي من النفق: «إذن ما تخمينك للأمر؟ هل سنقابل الوحش مينوتور الذي قتله ثيسيوس أم سنجد منزلًا مصنوعًا من خبز الزنجبيل وبه ساحرة شريرة مثل هانسل وجريتل؟»

قالت نيكول لنفسها: «ينبغي أن يحالفنا الحظ.» إذ كانت مخاوفها تزداد باطراد كلما تغلغلا أكثر فأكثر داخل النفق. تذكرت لحظة الهلع الرهيبة تلك في التجويف عندما رأت الطائر لأول مرة يرفرف فوقها وهو يمد منقاره ومخالبه باتجاهها. واقشعر بدنها بشدة. وقالت في نفسها: «ها هي مرة أخرى، تلك المشاعر التي تنبئني أن ثمة شيئًا مريعًا على وشك الحدوث.»

توقفت نيكول. وقالت: «يا ريتشارد، أنا لا أحبذ ذلك. ينبغي أن نعود أدراجنا ...»

سمعا الضوضاء في الوقت نفسه. قطعًا كان الصوت قادمًا من «خلفهما»، على مقربة من الكهف المستدير الذي تركاه لتوهما. لقد بدا الصوت كصوت احتكاك فرش صلبة بسطح معدني.

التصق ريتشارد ونيكول بعضهما ببعض. ثم همس ريتشارد: «هذا هو نفس الصوت الذي سمعته في أول ليلة في راما، عندما كنا على الجدار في نيويورك.»

وخلفهما انعطف النفق قليلًا نحو اليسار. وعندما نظرا إلى الخلف في ذلك الاتجاه، كانت الأنوار مطفأة على مرمى بصرهما. لكن عندما سمعا الصوت للمرة الثانية، بدأت تُضاء بعض الأنوار من مسافة بعيدة على نحو شبه متزامن؛ مما يدل على أن شيئًا ما يقترب من مدخل نفقهما.

انطلقت نيكول كالصاروخ. كان عليها أن تقطع المائتَي متر التالية في ثلاثين ثانية، رغم ارتدائها بذلة الطيران وحملها حقيبة الظهر. لكنها توقفت وانتظرت ريتشارد. ولم يسمعا الصوت مجددًا ولم تُضَأ أنوار أخرى في المناطق النائية من النفق.

عندما وصل ريتشارد أخيرًا قالت له: «آسفة. لقد تملكني الذعر. أعتقد أنني طال عليَّ الأمد في أرض العجائب الغريبة هذه.»

أجاب ريتشارد بعبوس واستنكار: «يا إلهي. لم أرَ أحدًا في حياتي البتة يركض بهذه السرعة.» ثم بدل العبوس إلى ابتسامة على وجهه. وأردف: «لا تأسفي يا نيكي. لقد فزعت بشدة أيضًا. لكنني تجمدت في مكاني.»

استمرت نيكول تلهث وحملقت في ريتشارد. وسألته بشيء من العدوانية: «بماذا دعوتني؟»

رد ريتشارد: «نيكي. ظننت أنه حان الوقت لي كي أدعوك بالاسم الذي يحلو لي. ألا يروق لكِ؟»

لم تنبس نيكول ببنت شفة عشر ثوانٍ كاملة. لقد قطع عقلها مسافة ملايين الكيلومترات، وعاد بالزمن للوراء قبل خمس عشرة سنة، في جناح أحد الفنادق بلوس أنجلوس، حينما اهتز جسدها من اللذة مرة تلو الأخرى. وبعدها ببضع دقائق قال لها الأمير: «كان هذا رائعًا يا نيكي، مذهل بحق.» وقد أخبرت هنري في هذه الليلة منذ خمس عشرة سنة ألا يدعوها باسم نيكي، فإنه يبدو كاسم لفتاة استعراض ممتلئة الجسم أو لفتاة عاهرة.

وكان ريتشارد يفرقع أصابعه أمام وجهها. قال: «مرحبًا، مرحبًا. إلى أين ذهبتِ؟»

ابتسمت نيكول. وردت عليه: «بالطبع يا ريتشارد. نيكي اسم رقيق ... ما دمت لا تستخدمه طوال الوقت.»

وواصلا السير معًا بتؤدة عبر النفق. وسألها ريتشارد: «إذن، فيما كنت تفكرين؟»

قالت نيكول في نفسها: «كنت أفكر في شيء لا يمكنني أن أخبرك به مطلقًا. لأن كل واحد منا نتاج التجارِب التي عايشها في الحياة. وما من أحد يملك صفحة بيضاء سوى الأطفال الصغار. أما بقيَّتنا فيجب أن يتعايش إلى الأبد مع كل شيء صرنا إليه.» ثم حركت ذراعها بخفة على ذراع ريتشارد. واسترسلت تقول في سرها: «ويجب أن يتمتع بحسن الإدراك لكي يعرف التوقيت الذي يحتفظ فيه بأسراره لنفسه.»

بدا النفق وكأنه لا نهاية له. وأوشك ريتشارد ونيكول على أن ينعطفا عندما وصلا إلى حجرة جانبية عن يمينيهما. وبلا تردد سارا داخلها. وعلى الفور أُضيئت الأنوار. وبداخل الحجرة، وعلى الجدار الكبير الموجود عن يساريهما كان يوجد خمسة وعشرون شيئًا مسطحًا ومستطيل الشكل، مرتبة في خمسة صفوف وخمسة أعمدة. أما الجدار المقابل فقد كان خاليًا. وفي غضون لحظات من دخولهما، سمع رائدا الفضاء صوتًا حادًّا عالي التردد قادمًا من السقف. فتوترا قليلًا، لكنهما هدآ مرة أخرى إذ استمر الصوت دون حدوث أي مفاجآت جديدة.

أمسك أحدهما بيد الآخر ثم سارا إلى آخر الحجرة الطويلة الضيقة. وكانت الأشياء المُعلقة على الجدار صورًا فوتوغرافية، يمكن إدراك أن معظمها قد الْتُقِطَ في مكان ما داخل راما. فالمبنى الثماني الأسطح الهائل الواقع بالقرب من الساحة المركزية كان مصورًا في

العديد منها. أما باقي الصور فقد كانت موزعة ما بين مشاهد لمباني نيويورك ولقطات متسعة الزاوية لمناظر شاملة حول الأجزاء الداخلية لراما.

وقد أسرت ثلاث من الصور لب ريتشارد بشدة. لقد كانت تصور زوارق إيروديناميكية مصقولة ومنحنية تشق طريقها عبر البحر الأسطواني، وفي إحدى الصور، كانت هناك موجة عنيفة على وشك أن تحطم قمة زورق كبير. قال ريتشارد لنيكول بحماسة: «هذا ما نريد. إذا تمكنا من العثور على واحد منها، فستنتهي محنتنا.»

استمر الصوت الحاد القادم من فوقهما، مع حدوث تغيير طفيف في حدته. وكانت هناك بقعة ضوئية تتحرك من صورة لأخرى في اللحظات التي يحدث فيها انقطاع للصوت. واستنتج ريتشارد ونيكول بسهولة أنهما كانا في جولة سياحية في متحف، لكنهما لم يكونا متأكدين من أي شيء آخر. جلست نيكول مقابل جدار جانبي وقالت: «إن كل هذه الأمور تزعجني، أشعر أنني لا أملك السيطرة على شيء.»

جلس ريتشارد بجانبها. وأومأ برأسه قائلًا: «وأنا كذلك. لقد وصلت إلى نيويورك للتو. ولذا، أستطيع أن أتخيل ما قد يسببه لكِ كل هذا.»

وساد الصمت بينهما للحظة. قالت نيكول في محاولة للتعبير عن الشعور بقلة الحيلة الذي انتابتها: «أتعرف ما هو أكثر شيء يزعجني؟ ما يزعجني هو عدم استيعابي أو تقديري لجهلي. فقبل أن أشارك في هذه الرحلة، ظننت أنني أعرف الأبعاد العامة للعلاقة بين معرفتي الخاصة ومعرفة البشرية. لكن ما صعقني في هذه البعثة هو كم يكون «الإطار الكامل» للمعرفة البشرية ضئيلًا للغاية مقارنة بـ «ما يمكن» معرفته. فَكِّر معي فحسب؛ إن إجمالي كل شيء تعرفه البشرية أو عرفته قط قد لا يزيد عن كونه كسرة متناهية الصغر في موسوعة جالاكتيكا ...»

قاطعها ريتشارد بحماسة: «وهو أمر مرعب ومثير في الوقت نفسه ... في بعض الأحيان عندما أكون في متجر بيع الكتب أو في مكتبة، أتعجب من كم الأشياء التي لا أعرفها. وعندئذٍ تتملكني رغبة عارمة في أن أقرأ جميع الكتب، كتاب تلو الآخر. تخيلي ما سيكون شعورك وأنتِ في مكتبة «الواقع»، تلك المكتبة التي تجتمع فيها المعرفة عن كل أجناس الكون ... الفكرة نفسها تجعلني مشوَّش الذهن.»

التفتت نيكول نحوه وضربته على رجله. وقالت مازحةً كي تغير الحالة المزاجية السائدة: «حسنًا يا ريتشارد، الآن وبعد أن تأكدنا مرة أخرى كم نحن شديدا الغباء، ما خطتنا؟ أظن أننا قد قطعنا بالفعل ما يقرب من كيلومتر واحد في هذا النفق. إلى أين سنذهب من هنا؟»

رد عليها: «أقترح أن نسير خمس عشرة دقيقة أخرى بنفس الاتجاه. يمكنني القول، من واقع خبرتي، إن الأنفاق دائمًا تقود إلى مكان ما. وإذا لم نجد أي شيء فسنعود أدراجنا.»

ساعد ريتشارد نيكول في النهوض من مكانها وعانقها عناقًا رقيقًا. وقال لها وهو يغمز بعينيه: «حسنًا، يا نيكي، أمامنا نصف فرسخ.»

قطبت نيكول جبينها وهزت رأسها. وقالت وهي تمد يدها ناحية ريتشارد: «يكفي مرتين في يوم واحد.»

الفصل السادس والأربعون

جانب الشجاعة الجميل

امتدت الهوة المستديرة السحيقة أسفلهما في الظلام. ولم يكن مضاءً منها سوى الأمتار الخمسة العلوية. وكان يخرج من الجدران قضبان معدنية يبلغ طول كلٍّ منها مترًا تقريبًا، وكل قضيب يبعد عن القضيب المجاور نفس المسافة.

دمدم ريتشارد في سره: «قطعًا هذا هو المكان الذي تقود إليه الأنفاق.» وكانت لديه بعض الصعوبة في الجمع بين هذه الحفرة الأسطوانية الهائلة بجدرانها ذات القضبان وبين مفهومه الشامل لراما. لقد دار هو ونيكول حول حواف الحفرة مرتين. بل عادا أيضًا بضع مئات من الأمتار، حيث اجتازا في النفق المجاور، مستدلين من انحناءاته الطفيفة نحو اليمين أنه على الأرجح يتفرع عن نفس الكهف مثل النفق الذي سارا فيه من قبل.

قال ريتشارد أخيرًا وهو يهز كتفيه: «حسنًا، ها نحن قد وصلنا»، ثم وضع قدمه اليمنى على أحد القضبان ليختبر مدى قدرته على تحمل وزنه. ووجده صلبًا. ثم حرك قدمه اليسرى لقضيب آخر أسفل وهبط لمستوًى آخر برجله اليمنى. قال وهو يحدق لأعلى باتجاه نيكول: «إن المسافة بينهما مضبوطة تمامًا. لن يشقَّ علينا تسلقها.»

قالت نيكول من عند حافة الحفرة: «ريتشارد ويكفيلد، هل تحاول أن تقنعني أنك تنوي أن تهبط إلى هذه الهوة السحيقة؟ وإنك تتوقع مني أن أتبعك؟»

رد عليها: «أنا لا أتوقع منكِ شيئًا. لكنني لا أستطيع أن أرى الجدوى من التراجع الآن. فما البديل المتاح أمامنا؟ هل سنعود عبر النفق إلى المنحدر ثم نخرج؟ لأجل ماذا؟ لنرَ هل قد عثر أحدهم علينا بعد؟ لقد رأيتِ صور الزوارق. ربما توجد هذه الزوارق هنا في هذا القاع. أو ربما يوجد نهر سري يجري تحت الأرض يفضي إلى البحر الأسطواني.»

قالت نيكول عندما شرعت في الهبوط بتؤدة، وكان تقدم ريتشارد قد أشعل صفًّا آخر من الأضواء أسفل منهما: «ربما»، وتابعت: «إن أحد تلك الأشياء التي أصدرت الأصوات الغريبة بانتظارنا أسفل في القاع.»

قال ريتشارد: «سأعرف ذلك.» وأردف: «مرحبًا، يا من هناك بالأسفل. نحن اثنان من البشر وفي طريقنا لأسفل.» ثم لوح بيديه ما جعله يفقد توازنه لحظة.

قالت نيكول وهي تهبط إلى جانبه: «لا تكن متباهيًا.» ثم وقفت لتلتقط أنفاسها ونظرت حولها. وكانت قدماها ترتكزان على قضيبين، ويداها تمسكان بآخرين. وقالت في نفسها: «قطعًا أنا مجنونة، انظري إلى هذا المكان. من السهل أن أتخيل مائة طريقة للموت ميتة شنيعة هنا.» نزل ريتشارد مسافة قضيبين آخرين، فاستطردت في نفسها: «وانظري إليه، ألديه مناعة من الخوف؟ أم هو شخص متهور فقط؟ إنه يبدو كأنه مستمتع بكل هذا.»

أضاء الصف الثالث من الأضواء شبكة موجودة على الجدار المقابل أسفلهما. لقد كان معلقًا بين كل القضبان، وكانت تبدو من بعيد في الإضاءة الخافتة وكأنها نسخة مصغرة على نحو مذهل من الشبكة التي تربط ناطحتَي السحاب في نيويورك. هُرع ريتشارد حول الأسطوانة كي يفحص الشبكة. وصرخ في نيكول: «أسرعي إلى هنا. أعتقد أنها نفس المادة الملعونة.»

كانت الشبكة مثبتة بإحكام في الجدار ببراغي صغيرة. ومع إصرار ريتشارد اضطرت نيكول أن تقطع قطعة منها وتعطيها له. فشدها ووجد أنها تعود إلى وضعها مرة أخرى. وفحص تركيبها الداخلي. وقال: «إنها نفس الشيء.» وعقد ما بين حاجبيه. وقال متسائلًا: «لكن ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟»

وقفت نيكول إلى جانبه وسلطت مصباحها بلا هدف على الهوة السحيقة الموجودة أسفلهما. وكانت على وشك أن تقترح أن يتسلقا إلى الخارج ويتجها إلى مكان أكثر ألفة، عندما اعتقدت أنها رأت انعكاسًا لضوء المصباح يرتدُّ من الأرضية من مسافة نحو عشرين مترًا لأسفل. قالت لريتشارد: «أود أن أقترح عليك شيئًا، سأهبط أنا بضعة أمتار في حين تفحص أنت حبل الشبكة. وعندئذٍ قد نقترب من قاع بئر القضبان الغريب هذا، أو أيًّا كان هذا الشيء. وإذا لم نقترب، فعندئذٍ سنغادر هذا المكان.»

رد عليها ريتشارد وهو شارد الذهن: «حسنًا.» فقد كان منهمكًا بالفعل في فحص حبل الشبكة باستخدام المجهر الذي أخرجه من حقيبة ظهره.

نزلت نيكول برشاقة على الأرض. ثم صرخت في ريتشارد: «أظن أنه من الأفضل أن تنزل. فثمة نفقان آخران؛ أحدهما كبير والآخر صغير. بالإضافة إلى حفرة أخرى في الوسط ...» على الفور كان ريتشارد إلى جانبها. فقد هبط فور أن رأى الرصيف السفلي يُضاء.

كان ريتشارد ونيكول يقفان في تلك الأثناء على حافةٍ عرضها ثلاثة أمتار عند قاع الأسطوانة المليئة بالقضبان. وكانت هذه الحافة تشكل حلقة تحيط بحفرة أخرى أصغر ويخرج من جدرانها قضبان أيضًا. وعن يمينيهما ويساريهما، أنفاق مظلمة مقوسة محفورة في الصخر أو المعدن الذي كان مادة البناء الأساسية في هذا العالم الممتد تحت الأرض. وكان ارتفاع النفق الموجود عن يساريهما نحو خمسة أو ستة أمتار، أما النفق الصغير على الجانب المقابل الذي كان بزاوية ١٨٠ درجة حول الحلقة، فقد كان ارتفاعه نصف متر فحسب.

وكان يخرج من كلا النفقين قضيبان صغيران متوازيان مصنوعان من مادة مجهولة مثبتان في الأرضية، ويتخللان نصف عرض الحافة حتى الحلقة. ويتقارب القضيبان جدًّا عند النفق الصغير، ويتباعدان جدًّا عند النفق الكبير. وكان ريتشارد جاثيًا على ركبتيه يتفحص القضيبين أمام النفق الكبير عندما سمع صوتًا كقصف الرعد قادمًا من بعيد. فقال لنيكول وهما يتقهقران للوراء بصورة غريزية: «انصتي.»

ازداد الصوت ثم تحول إلى أزيز، كما لو كان شيئًا يتحرك بسرعة عبر الهواء. وعلى مسافة سحيقة في عمق النفق الذي كان مستقيمًا كالسهم، استطاع ريتشارد ونيكول أن يشاهدا الأنواء وهي تُضاء. فتوترا. ولم يكونا بحاجة للانتظار طويلًا حتى يحصلا على تفسير لما يحدث. فقد تراءت للنظر عربة تشبه عربة مترو الأنفاق المندفع سريعًا، وانطلقت نحوهما ثم توقفت فجأة بحافتها الأمامية على الأرض فوق أبعد امتداد للقضيبين.

ارتد ريتشارد ونيكول للوراء بينما كانت العربة تندفع باتجاههما. فأصبحا قريبًا بشدة من حافة الحلقة. ووقفا صامتين بضع ثوانٍ يحدقان في الشكل الديناميكي الهوائي المندفع أمامهما، فنظرا أحدهما إلى الآخر وضحكا في الوقت ذاته. قالت نيكول بانفعال: «حسنًا، لقد فهمت. لقد عبرنا إلى بعد جديد. في هذا البعد، من الصعب قليلًا العثور على محطة مترو ... هذا منافٍ للعقل تمامًا. لقد هبطنا عبر برميل مملوء قضبانًا، وانتهى بنا الحال في محطة مترو ... أنا لا أعرف ما رأيك يا ريتشارد، لكنني اكتفيت. سوف أتناول قليلًا من الطيور «الطبيعية» وشمام المن، أي يوم في الأسبوع ...»

سار ريتشارد إلى جانب العربة. انفتح باب في جانب العربة واستطاعا أن يريا الجزء الداخلي المُضاء. لم يكن هناك أي مقاعد، لكن بعض القضبان الأسطوانية الرفيعة التي تبعد بعضها عن بعض في نمط عشوائي، وطولها ثلاثة أمتار هي المسافة بين السقف والأرضية. قال ريتشارد وهو يطل برأسه داخل الباب، ولا تزال قدماه على الحافة الناتئة بالخارج: «لا يمكنها أن تمتد أكثر من ذلك. وليس هناك مكان للجلوس.»

اقتربت نيكول كي تتفقد بنفسها. وقالت: «لعله ليس عندهم أناس كبار في السن أو ذوو احتياجات خاصة، وجميع المتاجر قريبة من المنازل.» ضحكت نيكول، في حين مال ريتشارد أكثر داخل العربة حتى يتسنى له رؤية أفضل للسقف والجدران. فقالت له نيكول: «لا تفكر في أي أفكار جنونية. إذا فكرت في أن نصعد على متن العربة فسيكون هذا جنونًا بحق. إلا إذا استنفدنا ما لدينا من طعام وكان هذا ملاذنا الأخير.»

رد ريتشارد: «أظن أنكِ محقَّة.» لكنه قطعًا كان محبطًا وهو ينسحب من عربة الترام. لكنه اندفع: «يا لها من فكرة مذهلة ...» ثم أوقف نفسه قبل أن يُكمِل جملته. وأخذ يحدق عبر الرصيف في الجانب المقابل من الحافة الناتئة. فقد كانت هناك في منتصف المدخل المضاء آنذاك والمؤدي إلى النفق الصغير، عربة مماثلة حجمها عُشر حجم العربة المجاورة له، كانت منطلقة عبر الأرضية. تبعت نيكول نظرات ريتشارد.

قالت نيكول: «حتمًا هذا هو الطريق المؤدي إلى أرض الأقزام. فالعمالقة يهبطون إلى أرض أخرى، والمخلوقات ذات الأحجام الطبيعية يستقلون هذا المترو. هذا كل ما في الأمر.»

سار ريتشارد في عجالة حول الحلقة. ثم صرخ بصوت عالٍ: «هذا رائع»، ونزع عنه حقيبة ظهره ووضعها على الحافة بجانبه. ثم أخذ يفتش في أحد الجيوب الكبيرة.

سألته نيكول: «ماذا تفعل؟»

أخرج ريتشارد تمثالين صغيرين من حقيبته وأراها إياهما. وكرر قوله بحماسة واضحة: «هذا رائع.» ثم أردف: «يمكننا أن نرسل الأمير هال وفالستاف. أحتاج بضع دقائق فحسب حتى أبرمجهما.»

وكان ريتشارد قد بسط بالفعل حاسب الجيب على الحافة إلى جانب الأناسي الآليين، ومضى في العمل بهمة دون توقف. جلست نيكول وأسندت ظهرها إلى الجدار بين قضيبين. حدقت في ريتشارد. وأخذت تسترجع الساعات التي أمضياها معًا، وقالت لنفسها بإعجاب: «إنه من نوع نادر بحق. ومن الواضح أنه عبقري. ويكاد يخلو من المكر والخسة. ولا يزال يحتفظ بداخله بفضول الأطفال بشكل ما.»

شعرت نيكول بغتةً بالإعياء الشديد. وابتسمت لنفسها وهي تراقب ريتشارد. لقد كان منكبًّا على العمل. أغمضت نيكول عينيها لحظة.

كان ريتشارد يقول: «أعتذر لأني استغرقت وقتًا طويلًا. لقد حرصت على التفكير في أشياء جديدة كي أضيفها، واحتاجت أن أعيد ترتيب الوَصلات ...»

فاقت نيكول من غفوتها ببطء شديد. وقالت وهي تتثاءب: «كم أمضينا من الوقت هنا؟»

أجابها بنبرة خجلة: «لقد تجاوزنا الساعة بقليل. لكن كل شيء جاهز. أنا متأهب كي أضع الغلامين في المترو.»

حدقت نيكول حولها ثم علقت قائلة: «إن العربتين لا تزالان هنا.»

رد عليها: «أعتقد أنهما يعملان مثل كل الأضواء. أراهن أنهما سوف يظلان في المحطة ما دمنا على الرصيف.»

انتصبت نيكول ومددت جسدها. قال ريتشارد: «وإليك الخطة. أنا أمسك بجهاز التحكم في الإرسال والاستقبال. ولدى كلٍّ من هال والسير جون أجهزةُ استشعار صوتية ومرئية وأشعة تحت الحمراء ستُمدنا بالبيانات بلا انقطاع. يمكننا أن نختار أي قناة لنرصدها على الكمبيوتر ونرسل أوامر جديدة حسب الحاجة.»

سألته نيكول متذكرةً تجربتها داخل المخزن: «لكن أستخترق الإشارات الجدران؟»

أجابها: «يمكن ذلك، ما دامت الإشارات لا تنتقل عبر جزء كبير من المادة. إن النظام مصمم بطريقة معقدة للغاية على ضوء نسبة الإشارة إلى معدل التشويش كي يتلاءم مع ظروف ضعف الإشارة ... علاوة على أن المترو الكبير جاء إلينا في خط مستقيم. وأرجو أن يكون المترو الصغير مشابهًا له.»

وضع ريتشارد بحذر بالغ الإنسانين الآليين على الحافة وأمرهما بالسير نحو المترو. وما إن اقتربا حتى انفتحت الأبواب على الجانبين. قال فالستاف وهو يصعد على متن العربة: «أنقل تحياتي إلى السيدة كويكلي. لقد كانت فتاة حمقاء لكن طيبة.»

نظرت نيكول إلى ريتشارد في حيرة. فضحك ريتشارد قائلًا: «أنا لم أمسح كل برمجتهما السابقة. لذا من المحتمل أن يلقيا بعض التعليقات السخيفة العشوائية بين الفينة والفينة.»

وقف الإنسانان الآليان في عربة المترو لدقيقة أو دقيقتين. تفقد ريتشارد في عجالةٍ أجهزة الاستشعار لديهما وضبط المعايير على الشاشة مرة أخرى. وأخيرًا أُغلقت أبواب المترو، وانتظرت العربة عشر ثوانٍ أخرى ثم انطلقت عبر النفق.

أمر ريتشارد فالستاف أن يتجه نحو المقدمة، لكن لم يكن هناك الكثير ليُرى خارج النافذة. وكانت جولة طويلة وسريعة بدرجة مذهلة. قدَّر ريتشارد أن المترو الصغير سافر بضعة كيلومترات قبل أن يهدئ من سرعته أخيرًا ليتوقف.

توقف ريتشارد قبل أن يعطي الأوامر للإنسانين الآليين بترك المترو؛ فقد أراد أن يتأكد أولًا أنهما لن ينزلا في محطة في منتصف الطريق. لكن لم يكن هناك ما يستدعي القلق؛ فالمجموعة الأولى الكاملة من بيانات التصوير الآتية من فالستاف والأمير هال قد أوضحت أن المترو وصل بالفعل إلى إحدى المحطات.

انتظر ريتشارد قبل أن يأمر الإنسانين الآليين بمغادرة المترو. أراد أن يتأكد من أنهما لن ينزلا بمحطة في منتصف الطريق. ومع ذلك، لم يكن هناك داعي للقلق؛ إذ أظهرت المجموعة الأولى الكاملة من بيانات تصوير الأمير هال وفالستاف أن عربة المترو قد وصلت بالفعل إلى نهاية الخط.

سار الإنسانان الآليان حول الرصيف المسطح بجانب العربة وصورا كثيرًا من الأشياء المحيطة بهما. كان يوجد بمحطة الترام الكثير من القناطر والأعمدة، لكن كان هناك بشكل أساسي حجرةٌ ملحقة طويلة. وقدر ريتشارد من الصورة أن ارتفاع السقف يبلغ نحو مترين. وأمر هال وفالستاف أن يدخلا في دهليز طويل يميل نحو اليسار، عموديًّا على مسار المترو.

وانتهى الدهليز أمام نفق آخر يكاد يصل ارتفاعه خمسة سنتيمترات. وبينما كان الإنسانان الآليان يتفحصان الأرضية وقد عثرا على قضيبين صغيرين يمتدان حتى أقدامهما تقريبًا، وصل إلى المحطة مترو صغير الحجم للغاية. ولما كانت أبوابه مفتوحة وداخله مضاء، استطاع ريتشارد ونيكول أن يشاهدا أن عربة المترو الجديد مطابقة لعربتَي المترو السابقتين باستثناء الحجم.

كان الرائدان يجلسان معًا على ركبتيهما على الحافة، وكلاهما ينظر بحماسة متقدة في شاشة الكمبيوتر الصغيرة. وأمر ريتشارد فالستاف بأن يلتقط صورة للأمير هال وهو يقف إلى جانب المترو الصغير. قال ريتشارد لنيكول بعد إمعان النظر في الصورة: «إن طول العربة نفسها أقل من سنتيمترين. من الذي سيركب فيها؟ لعلها مخصصة للنمل؟»

هزت نيكول رأسها ولم تتفوه بشيء. ساورها شعور الحيرة مجددًا. وأخذت تفكر أيضًا في هذه اللحظة في ردود فعلها الأولية تجاه راما. قالت نيكول لنفسها وهي تسترجع مشاعر الذعر التي انتابتها عندما وقع بصرها لأول مرة على ذلك المشهد البانورامي: «لم أتصور قط، ولا حتى في أكثر خيالاتي جموحًا، أنه سيكون هناك الكثير من الألغاز الجديدة. إن المكتشفين الأوائل لم يعرفوا سوى القليل ...»

قطعت نيكول حبل أفكارها ونادت عليه: «ريتشارد.»

كان ريتشارد قد أمر الإنسانين الآليين أن يعودا أدراجهما عبر الدهليز ثم رفع بصره لأعلى بعيدًا عن الشاشة. وقال: «نعم؟»

سألته نيكول: «كم يبلغ سُمك القشرة الخارجية لراما؟»

أجابها باستغرابٍ بعض الشيء: «أظن، نحو أربعمائة متر إجمالًا.» ثم استطرد: «لكن هذا عند أحد الأطراف. وليس لدينا طريقة محددة لمعرفة سمك القشرة في أي مكان آخر. وقد أورد نورتن وطاقمه أن عمق البحر الأسطواني يتفاوت بدرجات كبيرة؛ إذ يصل إلى أربعين مترًا في بعض المناطق، وفي البعض الآخر إلى مائة وخمسين مترًا. مما يوحي لي بأن سُمك القشرة قد يصل إلى بضع مئات من الأمتار على الأقل.»

ألقى ريتشارد نظرةً خاطفة على الشاشة. وكان الأمير هال وفالستاف قد وصلا تقريبًا إلى المحطة، إلى المكان الذي نزلا فيه من الترام. فأرسل لهما أمرًا بالتوقف ثم التفت إلى نيكول وقال: «لمَ تسألين؟ ليس من طبعك أن تسألي مثل هذه الأسئلة العديمة الجدوى.»

ردت نيكول: «يبدو أنه يوجد هنا بالأسفل عالم بأكمله لم يُكتشف بعد. إن هذا سيستغرق حياة إنسان بأكملها ...»

قاطعها ريتشارد ضاحكًا: «ليس لدينا كل هذا الوقت. على الأقل ليس مدة حياة الإنسان العادية ... لكن بالرجوع إلى سؤالك بخصوص سُمك القشرة، تذكري أن مستوى أرضية نصف الأسطوانة الجنوبي بأكمله يعلو النصف الشمالي بأربعمائة وخمسين مترًا. وعليه، ما لم يكن هناك بعض الانحرافات الكبيرة في البنية — وبالطبع نحن لم نرَ أي انحرافات من الخارج — فإن السُّمك ينبغي أن يكون فعليًّا أكبر في النصف الجنوبي.»

انتظر ريتشارد حتى تقول نيكول شيئًا آخر. وعندما ظلت صامتة بضع ثوانٍ، التفت لشاشته مرة أخرى وتابع عملية الاستكشاف التي ينوب فيها عنه إنسانان آليان.

وكان هناك سبب وجيه لسؤال نيكول بشأن سُمك القشرة. لقد كان لديها صورة في ذهنها لم تستطع أن تتخلص منها؛ كانت نيكول تتخيل الوصول إلى نهاية أحد هذه

الأنفاق الطويلة وعندما تفتح أحد الأبواب تصاب بالعمى عندئذٍ حينما يفاجئها ضوء الشمس المباشر. وجال بخاطر نيكول: «ألن يكون هذا رائعًا؛ أن تكون مخلوقًا ذكيًّا يعيش في هذه المتاهة ذات الإضاءة الباهتة والأنفاق، وبعد ذلك، تتعثر مصادفةً بشيء يغير للأبد مفهومك عن الكون بأكمله؟ كيف ستتمكن من العودة ...»

وكان ريتشارد يسأل في ذلك الحين: «والآن ما هذا بحق؟» أوقفت نيكول ذهنها الشارد وركَّزت في الشاشة. لقد دخل كلٌّ من فالستاف والأمير هال غرفة كبيرة في الطرف المقابل من محطة المترو، وكانا يقفان أمام كتلة من الشباك الرخوة التي تشبه الإسفَنج. وأظهرت صورة الأشعة تحت الحمراء للمشهد، جسمًا كرويًّا متداخلًا على شكل عش داخل الشبكة، وكانت الحرارة تنبعث من هذا الجسم. وبناءً على اقتراح من نيكول، أمر ريتشارد الإنسانين الآليين أن يدورا حول هذا الشيء ويفحصا باقي هذا المكان الجديد.

كانت الغرفة ضخمة. تمتد في الفضاء مسافةً أبعد من مدى دقة صورة معدات الفيديو التي يحملها الإنسانان الآليان. وكان يبلغ ارتفاع السقف نحو عشرين مترًا، وتصل المسافة بين الجانبين إلى ما يزيد عن خمسين مترًا. وكان هناك كثير من الأشياء الكروية الشكل المشابهة، موضوعة داخل الكتل الإسفنجية ومبعثرة في أنحاء الغرفة بعيدًا. وكانت هناك شبكة ممتدة تقريبًا بطول الغرفة معلقة على ارتفاع خمسة أمتار فوق الأرض وتتدلى من السقف المرتفع في المقدمة. وهناك شبكة أخرى تكاد أن تُرى على مسافة مائة متر تقريبًا خلف الشبكة الأولى.

ناقش ريتشارد ونيكول ما الذي ينبغي أن يفعله الإنسانان الآليان عقب ذلك. ولم يكن هناك مخارج أخرى سواء من المترو أو من الغرفة الكبيرة. وفي صورة بانورامية لكل أنحاء الغرفة، لم يظهر شيء لافت للأنظار سوى الكرات في كتلها الإسفنجية الخارجية، أرادت نيكول أن يرجع الإنسانان الآليان وأن يتركا الوكر برُمَّته. لكنَّ فضول ريتشارد جعله راغبًا في إجراء بحث سريع على الأقل لأحد الأشياء الكروية الشكل.

وتمكن الإنسانان الآليان بصعوبة من تسلق الشبكة كي يصلا إلى الكرات في منتصفها. وكانت الحرارة المنبعثة من الكرات تزداد كلما اقتربا منها. وكان من الواضح أن من أحد أغراض وجود الكتل الإسفنجية الخارجية التي تكتنف الكرات هو امتصاص الحرارة. وعندما وصلا الإنسانان الآليان إلى الكرات، أومضت شاشتهما الداخلية مُنذرةً بأن الحرارة الخارجية قد تجاوزت معدلات الأمان.

هب ريتشارد على الفور. ومع استمرار توجيهه للإنسانين الآليين، حدد أن الكرات غير قابلة بالفعل للاختراق، وغالبًا ما تكون مصنوعة من سبيكة معدنية سميكة وذات

سطح شديد الصلابة. قرع فالستاف بذراعه بضع مرات فوق الكرة، فكان الصوت الناجم عن ذلك القرع يتلاشى سريعًا، مما يشير إلى أن الكرة كانت ممتلئة، ربما بمادة سائلة. وكان الإنسانان الآليان يشقان طريقهما خارج الشبكة الإسفنجية عندما التقطت أنظمتهما الصوتية صوت احتكاك فرش بسطح معدني.

حاول ريتشارد أن يعجل من هروبهما. واستطاع هال أن يزيد من سرعته، غير أن فالستاف، الذي ارتفعت جدًّا درجة حرارة أنظمته الفرعية في أثناء اقترابه من الكرة، منعه منطق المعالج الداخلي من الإسراع في الحركة. واستمر صوت الفرش في الارتفاع.

وتحولت شاشة الكمبيوتر الموجودة على الحافة بين الرائدين إلى شاشة مجزأة. فقد اقترب الأمير هال من حافة الكتلة الإسفنجية، وداس الأرض ثم اتجه إلى المترو دون أن ينتظر رفيقه. بينما استمر فالستاف في التسلق ببطء عبر الشبكة. وتمتم وهو يعبر ببطء فوق حاجز آخر: «إنه لعمل شاقٌّ لرجل ثمل.»

انقطع فجأةً صوت الاحتكاك بسطح معدني، وسجلت كاميرا فالستاف صورة لشيء طويل ضامر مخطط باللونين الأسود والذهبي. وبعد مرور بضع ثوانٍ اتشح إطار الكاميرا بسواد كالح، وبدأ يصدر صوت إنذار يقول: «خلل في التعليمات البرمجية وشيك الحدوث.» واستطاع أن يرى كلٌّ من ريتشارد ونيكول لمحةً خاطفة أخرى لفالستاف، وكانت الصورة تبين ما يمكن أن يكون عينين ضخمتين، اتضحت في لقطة قريبة كخليط جيلاتيني أسود به مسحة زرقاء. وفجأةً انقطع أي إرسال من الإنسان الآلي بما في ذلك الاتصال عن بعد عند الطوارئ.

في تلك الأثناء دخل هال المترو الذي ينتظره. وفي غضون بضع ثوانٍ سبقت انطلاق المترو من المحطة سُمع مرة أخرى صوت الاحتكاك المُنذر بالسوء. لكن المترو غادر المحطة على كل حال، والإنسان الآلي بداخله، وأخذ المترو في الانطلاق مسرعًا عبر النفق نحو الرائدين. وتنفس كلٌّ من ريتشارد ونيكول الصعداء.

ولم تمر سوى ثانية أخرى حتى التقط الجهاز السمعي للأمير هال صوت كسر زجاج. أمر ريتشارد الإنسان الآلي أن يلتفت باتجاه الصوت، فصورت كاميرا الأمير هال رجلًا مخططة باللونين الأسود والذهبي معلقة في الهواء وحدها. وقد كسرت هذه الرجل النافذة وكانت تتحرك بلا رادع نحو الإنسان الآلي. وأدرك كلٌّ من ريتشارد ونيكول ما كان يحدث في اللحظة نفسها. فقد كان الشيء يركب فوق المترو! وفي طريقه إليهما!

وفي لمح البصر كانت نيكول تتسلق القضبان. أما ريتشارد فقد أهدر بضع ثوانٍ قيمة في التقاط شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص به ووضع كل معداته في حقيبة الظهر. وقد

سمع بينما كان يتسلق القضبان وهو في منتصف طريقه إلى أعلى صوت إنذار صادر من الأمير هال، يقول «خلل في التعليمات البرمجية وشيك الحدوث.» التفت ريتشارد لينظر عندما كان المترو مندفعًا في النفق أسفله.

وما شاهده بعد ذلك جعل الدم يهرب من عروقه. كان هناك أعلى عربة المترو مخلوق أسود كبير، وكان مركز جسده، إن كان هذا جسدًا بحق، مسطحًا فوق سقف المترو. وكانت أرجله المخططة تمتد في كل الاتجاهات. واخترقت أربع منها نوافذ المترو وانتزعت الإنسان الآلي. وبسرعة ترك هذا الشيء عربة المترو ولف أحد أرجله الثمانية حول القضبان السفلية. ولم يشاهد ريتشارد المزيد. وتسلق باقي الأسطوانة وبدأ يعدو عبر النفق بأعلى متعقبًا نيكول التي كانت تسبقه بمسافة كبيرة.

وبينما كان ريتشارد يركض لاحظ أن النفق كان ينحني قليلًا نحو اليمين. وذكر نفسه أنه حتى لو لم يكن هذا هو نفس النفق الذي اجتازاه من قبل، فإنه ينبغي أن يقودهما أيضًا إلى المنحدرات. وبعد بضع مئات من الأمتار، توقف ريتشارد كي يستمع إلى صوت متعقبه. فلم يسمع شيئًا. التقط ريتشارد نفسًا عميقًا وأعقبه بآخر، ثم أخذ في العدو مرة أخرى عندما اخترقَت أذنيه صرخة حادة رهيبة آتية من أمامه. لقد كانت نيكول. فقال لنفسه وهو مندفع للأمام كي يعثر عليها: «تبًّا.»

الفصل السابع والأربعون

المصفوفة المتوالية

قالت نيكول لريتشارد: «لم أشاهد قط طوال حياتي شيئًا أرعبني مثل هذا.» جلس رائدا الفضاء يستندان بظهريهما مقابل الجزي السفلي من إحدى ناطحات السحاب المحيطة بالساحة الغربية. وكانا لا يزالان يلهثان بشدة، إذ أُنهكا بشدة من هروبهما الجنوني. وارتشفت نيكول رشفة كبيرة من الماء.

تابعت نيكول: «كنت قد بدأت أشعر لتوي بالاسترخاء. وكنت أستطيع أن أسمعك تتحرك خلفي، وليس شيء سواك. لذا عزمت على أن أقف بالمتحف وأن أنتظرك حتى تلحق بي. ولم يخطر ببالي قط أننا في النفق «الآخر».

لقد كان هذا واضحًا بالطبع، لأن الفتحة كانت في الاتجاه الخطأ. غير أنني لم أكن أفكر تفكيرًا منطقيًّا في هذه اللحظة ... على كل حال، خطوت إلى داخل الغرفة، فأُضيئت الأنوار، فإذا به هناك، لا يبعد أكثر من ثلاثة أمتار أمامي. وظننت أن قلبي قد توقف تمامًا ...»

وتذكر ريتشارد نيكول وهي تقع بين ذراعيه في النفق وتتشنج بضع ثوانٍ. وتقول بصوت متقطع ومتهدج: «إنه تاكاجيشي ... محنط مثل أيل أو نمر ... في الفتحة التي على اليمين.» وبعد أن استعادت نيكول اتزانها، رجعا كلاهما معًا إلى داخل النفق. وبداخل الفتحة، عندما وقف ريتشارد مقابل المدخل مباشرة، صُعق من رؤية رائد فضاء طاقم نيوتن، شجيرو تاكاجيشي. كان يرتدي بذلة الطيران، وتمامًا في نفس الحال التي كان عليها آخر مرة شاهداه فيها في مخيم بيتا. وكان على وجهه ابتسامة صافية وذراعاه إلى جانبه.

صاح ريتشارد وهو يطرف بعينيه مرتين: «ما هذا بحق الجحيم؟» لكن فضوله تغلب على رعبه. في حين جالت نيكول ببصرها بعيدًا. غير أنها كانت قد شاهدت بالفعل هذا المنظر من قبل؛ إذ كان تاكاجيشي المحنط يبدو في نظرها كأنه حي.

ووقفا في الغرفة الكبيرة لمدة دقيقة فحسب. وقد كان للتحنيط الفضائي عظيم الأثر أيضًا على طائر مكسور الجناح، كان متدليًا من السقف إلى جانب تاكاجيشي. وفي مقابل الجدار وخلف العالم الياباني، كانت توجد خيمة ريتشارد ونيكول التي كانت قد اختفت في اليوم السابق. وكانت اللوحة الإلكترونية السداسية المختفية من محطة نيوتن العلمية المتنقلة ملقاة على الأرض إلى جانب قدم تاكاجيشي، وعلى مقربة من نموذج لبلدوزر آلي بالحجم الطبيعي. وكانت نسخ طبق الأصل من مخلوقات آلية أخرى مبعثرة في أرجاء الغرفة.

وكان ريتشارد قد بدأ في فحص الباقة المتنوعة من المخلوقات الآلية عندما سمعا عن بعد صوت الاحتكاك المألوف يأتي من ورائهما في النفق. فلم يضيعا المزيد من الوقت. ولم يعطل رحلةَ هروبهما عبر أسفل النفق وأعلى المنحدر سوى توقفهما لفترة وجيزة عند حوض الماء للتزود بالماء العذب.

وكانت نيكول تقول لريتشارد: «لقد كان دكتور تاكاجيشي رجلًا دمث الخلق مرهف الحس، ويعشق عمله. لقد زرته قبيل الإقلاع مباشرة في اليابان، وقد أخبرني أنه لطالما كان يتطلع طوال حياته إلى استكشاف مركبة راما ٢.»

رد ريتشارد متجهمًا: «إنه لمن المخزي أن يموت مثل هذه الميتة الشنيعة. أظن أن كائن الأوكتوسبايدر أو أحد أصدقائه، حتمًا قد جرَّه لأسفل هنا في زيارة مباشرة إلى متحف تحنيط الحيوانات. وبالطبع لم يستغرق الأمر منهم الكثير حتى يضعوه في نافذة العرض.»

قالت نيكول: «تعلم أنا لا أظن أنهم قتلوه. قد أكون ساذجة للغاية، غير أنني لا أرى أي دلائل في ... في تمثاله تشير إلى وقوع جريمة قتل.»

جاوبها ريتشارد بنبرة ساخرة: «أتعتقدين أنهم أخافوه حتى الموت؟»

ردت نيكول بثبات: «بلى. على الأقل هذا وارد.» وقضت نيكول خمس دقائق تالية تشرح له حالة قلب تاكاجيشي.

رد ريتشارد بعدما أصغى باهتمام لإفصاحها عن سره: «لقد خيبتِ آمالي فيكِ، يا نيكول. لقد خُدعت فيكِ. واعتقدت أنكِ السيدة المنضبطة التي لا تخطئ، وتلتزم بالمبادئ على طول الطريق. ولم أظن قط أنكِ من الممكن أن تتصرفي من تلقاء نفسكِ. ناهيك عن أنكِ قد انقدتِ وراء مشاعرك.»

ردت نيكول: «لم يكن واضحًا أيهما أنفع في هذه اللحظة. ولو كنت قد التزمت بالمبادئ بدقة، لكان تاكاجيشي حيًّا ويعيش مع عائلته في كيوتو.»

قاطعها ريتشارد: «ولكان فاتته تجربة عمره الفريدة هذه ... مما يستدعي إلى ذهني سؤال مثير، أيتها الطبيبة العزيزة. بالطبع أنتِ مدركة أن احتمالات هروبنا ضعيفة. ومن المحتمل أن يموت كلانا دون أن نرى وجه إنسان آخر البتة. فما شعورك حيال ذلك؟ وما دمنا وصلنا إلى تلك المسألة، أخبريني ماذا يمثل موتكِ أو موت أي إنسان في مفهومك العام للأشياء؟»

نظرت نيكول إلى ريتشارد. وذُهلت من نبرة سؤاله. وحاولت بلا جدوى أن تقرأ تعبيرات وجهه. ثم أجابته بهدوء: «أنا لا أخشى الموت، إن كان هذا ما ترمي إليه بالفعل. بصفتي طبيبة دُفعت إلى التفكير في مسألة الموت كثيرًا. وبالطبع، منذ أن تُوفيت والدتي حينما كنت في سن صغيرة جدًّا، أُجبرت كطفلة على أن أحمل في ذهني منظورًا حول الموضوع.»

توقفت نيكول عن الحديث لحظة. ثم استرسلت قائلة: «أما أنا، فأعلم أنني أفضل البقاء حية حتى تكبر جينيفيف وأصبح جدة لأولادها. لكن كوني حية فقط، ليس بالشيء ذي الأهمية القصوى. فالحياة يجب أن تكون مميزة من نوعها حتى تكون جديرة بأن نعيشها. ولكي نحظى بحياة مميزة علينا أن نتعرض لقليل من المخاطر ... لا يمكنني التركيز فيما أقول، أليس كذلك؟»

ابتسم ريتشارد. وقال: «لا. لكني أريد أن أعرف موقفك العام. لقد ذكرتِ الكلمة المفتاحية. مميزة ...» ثم سألها على حين غِرة: «هل سبق لكِ وأن فكرتِ في الانتحار؟»

أجابت نيكول وهي تهز رأسها: «لا. مطلقًا. يوجد دائمًا الكثير الذي أعيش لأجله.» وجال بخاطرها: «حتمًا هناك سبب وراء سؤاله.» ثم قالت له بعد برهة من الصمت: «وماذا عنك؟ هل فكرت في الانتحار في غضون أي فترة من فترات الألم التي كنت تجتازها مع والدك؟»

أجابها: «لا، وهو أمر غريب بما يكفي. لم يفقدني ضرب والدي المستمر متعة الحياة. لقد كان هناك الكثير لأتعلمه. وكنت أعلم أنني سأتخلص منه يومًا ما وأكون حرًّا طليقًا في آخر الأمر.» توقف ريتشارد عن الحديث لفترة طويلة قبل أن يتابع حديثه. ثم قال: «لكن ثمة فترة واحدة في حياتي فكرت في غضونها جديًّا في الانتحار. لقد كان ألمي وغضبي عظيمين حتى ظننت أنه ليس بمقدوري تحملهما.»

التزم ريتشارد الصمت، وحبس أفكاره. انتظرت نيكول بصبر. وأخيرًا وضعت ذراعها على ذراعه برفق. وقالت في هدوء: «حسنًا يا صديقي، يمكنك أن تخبرني عن هذا يومًا

ما. لم يعتد كلانا أن يشارك الآخر بأسراره العميقة. ربما سنتعلم ذلك في حينه. سأخبرك أنا أولًا لمَ أومن بأننا لن نموت ولما أعتقد أننا ينبغي أن نذهب للبحث في المنطقة المحيطة بالساحة الشرقية بعد ذلك.»

لم تخبر نيكول أي شخص حتى والدها عن «رحلتها» أثناء احتفال البورو. وقبل انتهائها من سرد قصتها لريتشارد، لم تخبره بما حدث لها في البورو وهي صبية في السابعة من عمرها فحسب، بل أخبرته أيضًا بشأن زيارة أوميه لها في روما، ونبوءات السينوفو عن «المرأة التي بلا رفيق» التي ستنتشر ذريتها «بين النجوم»، وتفاصيل الرؤية التي شاهدتها بعد تجرعها القارورة في قاع التجويف.

عقدت الدهشة لسان ريتشارد. فقد كانت مجموعة القصص بأكملها غريبة على ذهنه المتخصص بالرياضيات حتى إنه لم يعرف كيف يتفاعل مع ما سمعه. ثم حملق في نيكول في ذهول ورهبة. وأخيرًا، بعدما شعر بالخجل من صمته، بدأ في التحدث: «لا أعلم ما الذي ينبغي أن يُقال ...»

وضعت نيكول أصابعها على شفتيه. وقالت: «أنت لست في حاجة إلى قول أي شيء. أستطيع أن أقرأ ردود أفعالك من ملامحك. يمكننا التحدث بهذا الصدد غدًا، بعدما تأخذ وقتك في التفكير بشأن ما أخبرتك به.»

تثاءبت نيكول ونظرت في ساعة يدها. ثم أخرجت حصيرة النوم من حقيبة ظهرها وبسطتها على الأرض. وقالت لريتشارد: «أنا منهكة، ما من شيء يحفز الشعور بالإرهاق الفوري مثل الخوف. أراك بعد أربع ساعات.»

قال ريتشارد متعجلًا: «قضينا الآن ساعة ونصفًا في البحث. انظري إلى هذه الخريطة. لا يوجد مكان في الخمسمائة متر الخاصة بمركز الساحة لم نذرعه مرتين على الأقل.»

ردت نيكول: «إذن، ثمة خطأ نرتكبه. لقد كان هناك «ثلاثة» مصادر للحرارة في مجال رؤيتي.» قطب ريتشارد ما بين حاجبيه. فاسترسلت نيكول: «أو لنفكر بطريقة عقلانية، إن كنت تفضل ذلك. لماذا يوجد ثلاث ساحات ووكران فقط تحت الأرض؟ لقد قلت بنفسك إن سكان راما يتبعون دائمًا نمطًا عقلانيًّا.»

وقد كانا يقفان أمام مجسم ذي اثني عشر سطحًا مقابل الساحة الشرقية. وكان ريتشارد يهمهم لنفسه: «وها هو شيء آخر، ما الغرض من كل هذه السطوح الكثيرة؟ يوجد مجسم في كل قطاع، ويوجد الثلاثة الأكبر حجمًا في الساحات ...» ثم قال بينما كان ينتقل بعينيه من أحد سطوح المجسم إلى ناطحة السحاب المقابلة: «انتظري لحظة.»

عندئذٍ أدار رأسه سريعًا في أنحاء الساحة. وقال: «أيُعقل هذا؟» ثم رد على نفسه قائلًا: «لا. هذا مستحيل.»

رأى ريتشارد نيكول تحملق فيه. فقال بحماسة: «لديَّ فكرة. قد تكون مستبعدة تمامًا ... هل تتذكرين دكتور باردوليني ومصفوفاته المتوالية؟ مع سمكتَي الدولفين؟ ... ماذا إذا كان سكان راما أيضًا لديهم نمط هنا في نيويورك به بعض الاختلافات الطفيفة التي تتغير من ساحة إلى أخرى ومن قطاع إلى آخر؟ ... مهلًا، الأمر ليس أكثر جنونًا من رؤياكِ.»

في تلك الأثناء، كان ريتشارد جاثيًا بالفعل على ركبتيه في الأرض يمل على الخرائط التي لديه عن نيويورك. سأل ريتشارد نيكول بعد بضع دقائق: «هل يمكنني أن أستعين بحاسبك أيضًا؟ فهذا سوف يسرع من العملية.»

ولمدة أربع ساعات جلس ريتشارد إلى جانب جهازي الكمبيوتر يهمهم لنفسه ويحاول أن يحل لغز نيويورك. وشرح لنيكول عندما أخذ استراحة قصيرة لتناول العشاء بعد إلحاح شديد منها، أنه لا يمكن تحديد موقع الوكر الثالث إلا إذا استطاع أن يفهم فهمًا تامًّا العلاقات الهندسية بين المجسمات المتعددة السطوح، والساحات الثلاثة، وكل ناطحات السحاب المقابلة مباشرة للأوجه الرئيسية للمجسمات المتعددة السطوح في كلٍّ من القطاعات التسعة. وقبل حلول الظلام بساعتين، اندفع مسرعًا نحو قسم مجاور كي يحصل على المزيد من البيانات التي لم تُسجل بعد على خرائط حاسبيهما.

وحتى بعد حلول الظلام، لم يحصل على أي قسط من الراحة. في حين غرقت نيكول في سبات عميق في الجزء الأول من الليل الذي يمتد إلى خمس عشرة ساعة. وبعدما استيقظت بعد مرور خمس ساعات، كان ريتشارد لا يزال يتفاني في العمل على مشروعه حتى إنه لم يسمع نيكول وهي تتنحنح. ونهضت نيكول بهدوء ووضعت يديها على كتفيه. وقالت برفق: «عليك أن تحظى ببعض النوم يا ريتشارد.»

رد عليها: «لقد أوشكت على الانتهاء.» وعندما التفت إليها، وجدت عينيه منتفختين. ثم قال لها: «لن أستغرق أكثر من ساعة.»

رجعت نيكول إلى حصيرة النوم خاصتها. وعندما أيقظها ريتشارد فيما بعد، كان لا يزال متحمسًا. قال لها باسمًا: «تخيلي، هناك ثلاثة حلول ممكنة، وكلٌّ منها يتفق مع كل الأنماط.» ثم أخذ يذرع المكان جيئة وذهابًا لمدة دقيقة ثم قال متوسلًا: «أيمكننا أن نذهب لنرى الآن؟ لا أعتقد أنني سأستطيع النوم حتى أكتشف الأمر.»

ولم يكن مكان أيٍّ من المواقع الثلاثة التي رجحها ريتشارد، فيما يتعلق بموقع الوكر الثالث، قريبًا من الساحة. فقد كان الاحتمال الأول لموقع الوكر يبعد مسافة تتجاوز الكيلومتر، عند حافة نيويورك المقابلة للنصف الشمالي من الأسطوانة. ولم يعثر هو ونيكول على أي شيء هناك. فسارا لمدة خمس عشرة دقيقة أخرى في الظلام إلى حيث الموقع المحتمل الثاني، وهي بقعة قريبة جدًّا من الركن الجنوبي الشرق للمدينة. سار ريتشارد ونيكول عبر الشارع المرجح ووجدا الغطاء عند نفس البقعة التي توقعها ريتشارد. صرخ ريتشارد وهو يبسط حصيرة نومه بجانب الغطاء قائلًا: «حمدًا لله. فلْتَحيَ الرياضيات.»

قالت نيكول في نفسها: «بل ليَحيَ أوميه.» لم تعد نيكول تشعر بالنعاس، غير أنها لم تكن متلهفة لاستطلاع أي مناطق جديدة في الظلام. وسألت نفسها بعد أن عادا إلى المخيم وهي مستلقية يقظة على حصيرتها: «أيهما يأتي أولًا: البديهة أم الرياضيات؟ أنستخدم النماذج كي تساعدنا في العثور على الحقيقة؟ أم نعلم الحقيقة أولًا، وعلى أساسها نستخدم الرياضيات لتفسيرها؟»

استيقظا كلاهما عند طلوع النهار. قال ريتشارد لنيكول: «إن النهار يزداد قصرًا بعض الشيء. لكن إجمالي وقت النهار ووقت الليل يظل ثابتًا عند ست وأربعين ساعة وأربع دقائق وأربع عشرة ثانية.»

سألته نيكول وهي تطوي حصيرة نومها كي تضعها في غطائها الواقي: «كم نستغرق من الوقت كي نصل إلى الأرض؟»

أجابها بعد الاستعانة بجهاز الكمبيوتر الخاص به: «حسب أيام الأرض سنستغرق عشرين يومًا وثلاث ساعات. هل أنتِ مستعدة لمغامرة أخرى؟»

أومأت برأسها بالإيجاب. وقالت: «أظن أنك تعرف أيضًا أين نجد لوحة فتح هذا الغطاء؟»

رد عليها بلا تردد قائلًا: «لا. لكني متأكد من أنه لن يصعب العثور عليها. وبعدما نجدها سيكون مدخل الوكر غاية في السهولة؛ لأننا لدينا نموذج متكامل.»

وبعد مرور عشر دقائق، كان ريتشارد يضغط على لوحة معدنية، انفتح بعدها الغطاء الثالث. وكان الهبوط إلى هذه الحفرة الثالثة عبر درجات سلم عريضة يفصل بينها بسطة سلم على مسافات. أمسك ريتشارد بيد نيكول، وهما يهبطان السلالم. وقد

استخدما مصباحيهما الخاصَّين كي يتحسسا طريقهما في الظلام؛ إذ لم تكن هناك أنوار تضيء أثناء نزولهما.

وكانت غرفة المياه في نفس المكان كما هو الحال في الوكرين الآخرين الموجودين تحت الأرض. ولم يكن هناك أي أصوات في الأنفاق الأفقية التي تخرج من المهبط الرئيسي في كلا المستويين الرئيسيين. قال ريتشارد: «لا أعتقد أن أحدًا يعيش هنا.»

أجابته نيكول: «على الأقل ليس بعد.»

الفصل الثامن والأربعون

مرحبًا بسكان الأرض

ارتبك ريتشارد. فقد وجد في الغرفة الأولى، التي تقع على الجانب في قمة أحد الأنفاق الأفقية، مجموعة من الأدوات الغريبة التي تمكن من حل شفرتها في أقل من ساعة. وهو الآن يعرف كيف يضبط الأضواء ودرجة الحرارة في كل ركن من أركان الوكر الواقع تحت الأرض. لكن إن كان الأمر بهذه السهولة، وكل الأوكار قد أُنشئت بطريقة متشابهة، فلمَ لا تستخدم الطيور الأنوار المتاحة؟ سأل ريتشارد نيكول وهما يتناولان إفطارهما عن تفاصيل وكر الطيور.

قالت نيكول وهي تتناول قضمة من شمام المن: «أنت تغفل أمورًا أكثر أهمية. الطيور في حد ذاتها ليست بهذه الأهمية. السؤال الأهم هو أين سكان راما؟ ولمَ وضعوا هذه الحفر تحت مدينة نيويورك في المقام الأول؟»

أجابها ريتشارد: «ربما أولئك جميعًا هم سكان راما. المخلوقات الآلية، والطيور، وكائنات الأوكتوسبايدر، ربما أتوا جميعًا من الكوكب نفسه. وكانت في البداية عائلة واحدة سعيدة. لكن مع مرور السنين وتعاقب الأجيال، تطورت أجناس مختلفة بطرق مختلفة. وأُنشئت أوكار الطيور المستقلة و...»

قاطعته نيكول: «هناك الكثير من المشكلات في هذا التصور. أولها أن المخلوقات الآلية هم قطعًا آلات. والطيور قد يكونون أو لا يكونون آلات. أما كائنات الأوكتوسبايدر فهي بالطبع ليست آلات، على الرغم من أن المستوى التقني الذي تمكن من خلق مثل هذه المركبة في المقام الأول ربما قد وصل في الذكاء الاصطناعي إلى أبعد مما يمكننا أن نتخيل. فحدسي يقول لي إنها كائنات عضوية.»

رد عليها: «نحن البشر لا نستطيع البتة أن نميز بين مخلوق حي وآلة بارعة خلقتها أجناس متقدمة تقدمًا شديدًا.»

ردت عليه: «أتفق معك في هذا. لكننا لا يمكننا أن نحل هذا الخلاف بأنفسنا. علاوة على أنه يوجد سؤال آخر أود أن أناقشه معك.»

أجابها: «وما هو؟»

أجابته: «أكانت الطيور وكائنات الأوكتوسبايدر وهذه المناطق الواقعة تحت الأرض موجودة في مركبة راما ١ أيضًا؟ وإن كان الأمر كذلك، فكيف أغفل طاقم نورتن ذِكر كل هذا بالمرة؟ وإن لم يكن، فلمَ يوجدون في هذه المركبة ولم يوجدوا في المركبة الأولى أيضًا؟»

صمت ريتشارد بضع ثوانٍ. ثم قال أخيرًا: «أعلم إلى ماذا ترمين. لطالما كان الافتراض الأساسي يقر بأن راما قد ابتكرتها كائنات مجهولة جاءوا من منطقة أخرى في المجرة منذ ملايين السنين، وهي غير متورطة بالمرة في أيٍّ مما واجهته في غضون رحلتها أو كانوا راغبة فيه. وإن كانت مركبات راما قد ابتُكرت منذ زمن سحيق، فلماذا هناك مركبتان من المرجح أنهما قد أُنشئا في نفس الوقت، لكنهما مختلفتان مثل هذه الاختلافات الجوهرية؟»

أجابته نيكول: «لقد بدأت أعتقد أن زميلنا من كيوتو كان محقًّا. لعل «هناك» نمطًا متبعًا ذا مغزًى وراء كل هذا. إنني على يقين بأن طاقم نورتون أجرى مسحًا شاملًا ودقيقًا، وأن كل الاختلافات بين مركبتَي راما ١ و٢ هي اختلافات حقيقية بالفعل. لكن، ما إن نقر بأن المركبتين مختلفتان، حتى يكون أمامنا معضلة أصعب. «لماذا» هما مختلفتان؟»

بعدما انتهى ريتشارد من تناول الطعام، بدأ يخطو في تلك الأثناء في نفق مضاء إضاءة خافتة. قال ريتشارد: «لقد أجريت مناقشة مشابهة لهذه تمامًا قبل اتخاذ قرار إلغاء البعثة. فقد كانت القضية الرئيسية التي جرى تناولها في المؤتمر الهاتفي هي لماذا قرر سكان راما تغيير مسارهم كي يقابلوا الأرض؟ ونظرًا لأن المركبة الأولى لم تفعل هذا، فقد اعتُبر هذا دليلًا قويًّا على أن مركبة راما ٢ مختلفة. ولم يكن المشاركون في الاجتماع على دراية بأمر الطيور أو كائنات الأوكتوسبايدر.»

علقت نيكول بعد فترة صمت وجيزة: «كان الجنرال بورزوف سيُحب الطيور. لقد كان يرى أن الطيران أعظم متعة في العالم.» ثم ضحكت نيكول. واسترسلت: «لقد أخبرني ذات مرة أن أمنيته السرية في الحياة هي أن يكون تناسخ الأرواح حقيقة وتعود روحه في صورة طائر.»

قال ريتشارد وهو يتوقف لحظة عن السير: «كان رجلًا بارعًا. لا أعتقد أننا قد أوفينا كل مواهبه حق قدرها.»

وبينما كانت نيكول تُرجع جزءًا من شمام المن إلى حقيبة ظهرها وتستعد لمواصلة عملية الاستكشاف ابتسمت لصديقها الذي كان يتحرك. وقالت: «هل لي أن أسالك سؤالًا آخر يا ريتشارد؟»

أومأ ريتشارد برأسه.

«أتعتقد أننا قد تقابلنا مع أيٍّ من سكان راما بعد؟ أعني بهذه المخلوقات التي صنعت هذه المركبة. أو أيٍّ من سلالاتهم.»

هز ريتشارد رأسه بشدة. وقال: «بالطبع لا. ربما قابلنا بعضًا من ابتكاراتهم. أو حتى أجناس أخرى من الكوكب نفسه. غير أننا لم نقابل الشخصيات الرئيسية بعد.»

عثر ريتشارد ونيكول على الغرفة البيضاء على الجانب الأيسر من النفق الأفقي في المستوى الثاني تحت سطح الأرض. وحتى ذلك الحين كان يغلب طابع الملل على عملية الاستكشاف. وكان ريتشارد ونيكول قد انحدرا عبر العديد من الأنفاق، وقد أنعما النظر في كل غرفة فارغة تلو الأخرى. وقد عثرا في أماكن منفصلة على أربع مجموعات من الأدوات المستخدمة في ضبط الأضواء ودرجات الحرارة. وحتى وصولهما إلى الغرفة البيضاء، لم يكونا قد شاهدا شيئًا آخر يثير الاهتمام.

ذُهل كلٌّ من ريتشارد ونيكول عندما دخلا غرفة جدرانها مدهونة بدهان ناصع البياض. وبصرف النظر عن الدهان، كانت الغرفة لافتة للأنظار لأن أحد أركانها كان يعج ببعض الأشياء التي اتضح أنها أشياء مألوفة جدًّا عند فحصها من كثب. فقد كان هناك مشط وفرشاة، وإصبع شفاه فارغ، والعديد من العملات، ومجموعة مفاتيح، وشيء يبدو مثل جهاز اللاسلكي القديم الطراز. وفي كومة أخرى، كان يوجد خاتم وساعة يد، وأنبوبة معجون أسنان، ومبرد أظافر ولوحة مفاتيح صغيرة حروفها باللغة اللاتينية. ذُهل ريتشارد ونيكول. قالت نيكول وهي تلوح بيدها: «حسنًا أيها العبقري. فَسِّر لي كل هذا إن استطعت.»

التقط ريتشارد أنبوبة معجون الأسنان وفتح الغطاء وضغط عليها. فخرجت منها مادة بيضاء. وضع ريتشارد إصبعه علي المادة ثم وضع إصبعه في فمه. ثم تأفف وهو يبصق المعجون قائلًا: «إف. أحضري مطياف الكتلة خاصتك هنا.»

وبينما كانت نيكول تتفحص معجون الأسنان باستخدام أدواتها الطبية الحديثة، كان ريتشارد يلتقط سائر الأشياء الأخرى. لقد بهرته ساعة اليد على وجه الخصوص،

إذ كانت لا تزال تحتفظ بالتوقيت السليم، بالثانية، رغم أنها لا تحمل علامة تجارية على الإطلاق. سأل ريتشارد نيكول: «هل سبق لكِ أن زرتِ المتحف الفضائي في فلوريدا؟»

أجابته وهي غير منتبهة له: «لا.»

فقال لها: «إنهم يعرضون الأشياء العامة التي جمعها طاقم بعثة راما ١. وهذه الساعة تبدو تمامًا مثل تلك التي في العرض، أنا أتذكرها جيدًا لأنني ابتعت واحدة مماثلة من متجر البيع بالمتحف.»

سارت نيكول والحيرة تبدو على وجهها. ثم قالت: «هذا الشيء ليس معجون أسنان يا ريتشارد. ولا أعلم ما هذا الشيء. إن الأطياف الخارجة منه مذهلة، وبها وفرة من الجزيئات فائقة الكثافة.»

وعلى مدار بضع دقائق، أخذ الرائدان يفحصان بدقة مجموعة الأدوات الغريبة، في محاولة لإيجاد رابط منطقي لاكتشافهما الأخير. قال ريتشارد وهو يحاول أن يُشغل جهاز اللاسلكي دون طائل: «ثمة شيء واحد مؤكد، وهو أن هذه الأشياء ذات صلة ببشر بلا أدنى شك. ثمة الكثير من هذه الأشياء، فلا يجدر أن نقول إنها ليست إلا مصادفة.»

سألته نيكول: «لكن كيف وصلت هذه الأشياء إلى هنا؟» وكانت نيكول تحاول أن تصفف شعرها بالفرشاة، غير أن شعيرات الفرشاة كانت ناعمة جدًّا على شعرها. وعندما تفحصتها بدقة أكثر قالت: «هذه ليست فرشاة حقيقية. إنها «تبدو» كفرشاة، وملمسها كـ «ملمس» الفرشاة، لكنها غير صالحة للاستخدام.»

انحنت نيكول والتقطت مبرد الأظافر. وقالت: «وهذا لا يمكن أن يستخدم لبرد أظافر إنسان.» اقترب ريتشارد لينظر عما تتحدث. فقد كان لا يزال يناضل مع جهاز اللاسلكي. فألقى به في اشمئزاز وأخذ المبرد الذي أعطته نيكول إياه.

قال ريتشارد وهو يوجه المبرد إلى طرف أطول أظافره: «إذن هذه الأشياء تبدو خاصة بالإنسان لكنها ليست كذلك؟» ولم يحدث أي تغيير في ظفره. فأعاد المبرد إلى نيكول وقال في إحباط: «ما الذي يحدث هنا؟»

قالت نيكول بعد ثوانٍ محدودة: «أتذكر رواية خيال علمي قرأتها عندما كنت في الجامعة، علمت فيها المخلوقات الفضائية عن الكائنات البشرية من خلال برامجنا التلفزيونية القديمة فحسب. وعندما تقابلوا معنا في آخر الأمر، قدموا علب بقول وصابون وأشياء أخرى كانت المخلوقات الفضائية قد رأتها في الإعلانات التلفزيونية. وكانت العلب مصممة بشكل جيد، لكن المحتويات كانت إما غير موجودة أو غير صالحة بالمرة.»

لم يكن ريتشارد يصغي باهتمام لما تقوله نيكول. إذ كان يعبث بالمفاتيح ويفحص مجموعة الأشياء الموجودة بالغرفة. ثم قال، وكان يتحدث إلى نفسه في المقام الأول: «والآن، ما الشيء المشترك بين كل هذه الأشياء؟»

وتوصل كلٌّ منهما إلى الإجابة نفسها بعد مرور بضع ثوانٍ. قال كلٌّ من ريتشارد ونيكول في آن واحد: «كل هذه الأشياء جلبها أفراد طاقم نورتن معهم.»

قال ريتشارد: «إذن، ثمة نوع من التواصل بين مركبتَي راما ١ وراما ٢.»

أجابته نيكول: «وقد وُضعت هذه الأشياء هنا عن قصد؛ كي يُعلمونا أن الزيارة الأولى إلى راما قد لُوحظت ورُصدت.»

أجابها: «إن العناكب الآلية التي تفقدت مخيمات طاقم نورتن والمعدات، حتمًا كانت تحتوي على أجهزة استشعار مزودة بكاميرات.»

ردت عليه: «وكل هذه الأشياء قُلدت من الصور التي بُثت من مركبة راما ١ إلى مركبة راما ٢.»

وبعد تعليق نيكول الأخير التزم كلاهما الصمت، غارقًا في تفكيره الخاص. تساءل: «لكن لمَ يريدوننا أن نعلم كل هذا؟ وما الذي يُفترض أن نفعله الآن؟» نهض ريتشارد وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. وفجأة انفجر في الضحك. ثم استرسل: «ألن يكون الأمر مذهلًا إذا ما اتضح في آخر الأمر أن ديفيد براون كان محقًّا، وأن سكان راما لا يأبهون على الإطلاق بأي شيء يجدونه، لكنهم برمجوا مركباتهم الفضائية على «التظاهر» بالاكتراث بكل الزوار؟ وقد استطاعوا أن يداهنوا كل الأجناس التي قابلوها أيًّا كان نوعها من خلال عمل الإصلاحات الملائمة ومحاكاة أشياء بسيطة. يا لها من سخرية كبيرة. ولأن كل الأجناس غير المكتملة النضج، غالبًا ما تكون أنانية على نحو ميئوس منه، فإن زوار مركبة راما سوف ينشغلون تمامًا بمحاولة فهم الرسالة الزائفة ...»

قاطعته نيكول: «أعتقد أنك بدأت تنساق بحماسة. كل ما نعرفه حتى هذه اللحظة هو أنه فيما يبدو أن هذه المركبة قد استقبلت صورًا من مركبة راما الأولى، وأن هذه النسخ الصغيرة من الأشياء المألوفة لنا التي كان يحملها أفراد طاقم نيوتن قد وُضعت لنا هنا في هذه الحجرة كي نعثر عليها.»

تساءل ريتشارد وهو يلتقط لوحة المفاتيح: «أود أن أعرف هل لوحة المفاتيح غير صالحة للاستخدام مثل سائر الأشياء.» ثم كتب كلمة «راما» بالمفاتيح. فلم يحدث شيء. ثم كتب كلمة «نيكول». فلم يحدث شيء أيضًا.

قالت نيكول بابتسامة واسعة: «ألا تتذكر كيف كانت تعمل النماذج القديمة؟» ثم أخذت لوحة المفاتيح منه. وقالت: «إن كل مفتاح له مفتاح تشغيل منفصل.» وضغطت على الزر الذي لم يكن مكتوبًا عليه شيء الموجود في أعلى الزاوية اليمنى من لوحة المفاتيح. فانفتح جزء من الجدار المقابل، كاشفًا النقاب عن مساحة مربعة سوداء كبيرة يبلغ طول كل جانب منها نحو متر.

كانت لوحة المفاتيح الصغيرة مصممة طبقًا لنظام اللوحات التي كانت موصلة بأجهزة الكمبيوتر المحمولة في بعثة راما الأولى. وكانت تتكون من أربعة صفوف وكل صف به اثنا عشر رمزًا، بالإضافة إلى زر تشغيل إضافي أعلى الزاوية اليمنى. وكان هناك ستة وعشرون حرفًا لاتينيًّا، وعشرة أرقام باللغة العربية، وأربعة مدخلات حسابية مكتوبة على أربعين مفتاحًا من المفاتيح المنفصلة. أما الثمانية مفاتيح الأخرى فقد كان مرسومًا على سطحها نقاط وأشكال هندسية، وكما كان يمكن ضبطها على الأوضاع لـ «أعلى» ولـ «أسفل». وعلى الفور أدرك كلٌّ من ريتشارد ونيكول أن هذه المفاتيح الخاصة تمثل التحكم الحقيقي في نظام راما. وقد اكتشفوا أيضًا عن طريق التجربة والخطأ أن نتيجة الضغط على أي مفتاح من مفاتيح العمليات الفردية هي دالة لضبط أيٍّ من المفاتيح السبع «الأخرى». ومن ثَم، الضغط على أي زر معين من أزرار الأوامر يمكنه أن ينتج نحو ١٢٨ نتيجة مختلفة. فيكون إجمالي العمليات التي يقدمها النظام هو ١٠٢٤ عملية منفصلة باستخدام لوحة المفاتيح.

وكانت عملية إعداد قاموس بهذه الأوامر عملية شاقة بحق. وتطوع ريتشارد للقيام بالمهمة. وبدأ ريتشارد يطور المبادئ الأساسية للغة كي يترجم الأوامر الخاصة للوحة المفاتيح باستخدام حاسبيهما لتسجيل الملاحظات. وكان الهدف المبدئي هدفًا بسيطًا، ألا وهو القدرة على استخدام الكمبيوتر الخاص بسكان راما مثل أحد أجهزة الكمبيوتر الخاصة بهم. وبمجرد أن يتم تطوير الترجمة، فإن أي مدخلات إلى أجهزة كمبيوتر نيوتن المحمولة سوف تحتوي، كجزء من مخرجاتها، على ما سينتجه الضغط على مجموعة الأزرار الرئيسية على لوحة مفاتيح راما بحيث تظهر استجابة مشابهة على الشاشة السوداء المربعة.

وبالرغم من ذكاء ريتشارد المتقد وخبرته في مجال الكمبيوتر، فقد كانت المهمة شاقة للغاية. ولم تكن أيضًا بالمهمة التي يسهل أن يشترك في عملها اثنان معًا. وبناء على اقتراح

ريتشارد، تسلقت نيكول خارج الوكر مرتين في غضون اليوم الأول لوجودهما في الغرفة البيضاء. وفي خلال المرتين قامت نيكول بالسير طويلًا حول مدينة نيويورك، وكانت ترمق بنظرها السماء من حين لآخر أملًا في العثور على طائرة هليكوبتر. وذهبت نيكول في جولتها الثانية إلى المخزن حيث وقعت في التجويف. وقد مرت بالفعل الكثير من الأحداث حتى إن خبرتها المرعبة في قاع التجويف بدت وكأنها حدث قديم.

وكثيرًا ما كان يجول بخاطرها بورزوف وويلسون وتاكاجيشي. لقد كان كل رواد الفضاء يعلمون عندما غادروا كوكب الأرض أن ثمة بعض المخاوف التي تحيط بالبعثة. لقد تلقَّوا التدريبات للتحكم في الأمور الحرجة التي قد تطرأ على المركبة، والتعامل مع المشكلات التي قد تجابهها سفينتهم، والتي قد تعرض حياتهم للخطر ... لكن لم يتوقع أحد منهم أنه من الممكن أن تحل أي فواجع بالبعثة. وقالت نيكول في نفسها: «لو متنا أنا وريتشارد هنا في نيويورك، فعندئذٍ سيكون نصف الطاقم تقريبًا قد مات. وستكون هذه أعظم كارثة منذ أن بدأنا البعثات الاستطلاعية.»

كانت نيكول واقفة خارج المخزن، عند نفس البقعة تقريبًا التي تحدثت عندها هي وفرانشيسكا إلى ريتشارد في جهاز الاتصال آخر مرة. قالت نيكول في نفسها: «إذن، لمَ كذبتِ يا فرانشيسكا؟ هل اعتقدتِ بطريقة ما أن اختفائي سوف يزيل كل الشكوك؟»

وفي صباح اليوم الأخير بمخيم بيتا، قبل أن تشرع نيكول والآخرون في البحث عن تاكاجيشي، نقلت كل الملاحظات الموجودة على الكمبيوتر المحمول في راما عبر نظام شبكة المعلومات إلى الكمبيوتر في غرفتها على متن نيوتن. وفي تلك الأثناء، كانت نيكول قد نقلت البيانات كي تتيح لنفسها المزيد من مساحة الذاكرة فربما تكون في حاجة إليها في جهاز الكمبيوتر المتنقل الخاص بها. وقالت نيكول في نفسها: «لكن كل الأدلة موجودة وسيجدها أي رجل مباحث دقيق في عمله إن بحث عنها. سيجد البيانات الخاصة بالأدوية، وضغط الدم الخاص بديفيد. وأيضًا الحل الذي توصل إليه ريتشارد بخصوص الخلل الوظيفي الذي حدث في روسور.»

وفي أثناء المرتين التي سارت نيكول فيهما في نيويورك، شاهدت العديد من حشرات أم أربع وأربعين الآلية، بل شاهدت في إحدى المرتين بلدوزر على مرمى بصرها. ولم تشاهد أيًّا من الطيور، وكذلك لم تشاهد أو تسمع أيًّا من كائنات الأوكتوسبايدر. وقالت في نفسها وهي في طريق عودتها لتناول العشاء مع ريتشارد: «لعلهم لا يظهرون إلا عندما يحل الليل.»

الفصل التاسع والأربعون

تواصل

قالت نيكول: «لقد نفد الطعام تقريبًا.» وعبَّآ ما تبقى بحوزتهما من شمام المن في حقيبة ظهر ريتشارد.

أجابها ريتشارد: «أعلم ذلك. ولديَّ خطة لكِ كي تحصلي على المزيد منه.»

سألته نيكول: «لي أنا؟ ولمَ أكون أنا المضطلعة بالأمر؟»

أجابها: «حسنًا، أولًا، الأمر لا يحتاج سوى شخص واحد. وبالعمل على المخططات البيانية الموجودة على الكمبيوتر الخاص براما، راودتني الفكرة. ثانيًا، ليس لديَّ متسع من الوقت. أعتقد أنني على مشارف اختراق نظام التشغيل. هناك ما يقرب من مائتَي أمر لا يمكنني تفسيرها ما لم يسمحوا لي بدخول مستوًى آخر، مستوًى أعلى بشكل أو آخر من الهيكل الهرمي.»

فسَّر ريتشارد لنيكول أثناء تناولها العشاء أنه قد عرف الآن كيف يستخدم كمبيوتر راما كأحد أجهزة الكمبيوتر الموجودة على الأرض. فقد استطاع أن يخزن البيانات ويسترجعها، وأن يجري الحسابات الرياضية، ويصمم المخططات البيانية، بل استطاع أيضًا أن يبتكر لغات جديدة. قال ريتشارد: «غير أنني لم أبدأ في الاستفادة من إمكاناته بعد. يجب أن أقضي الليلة والغد في اكتشاف المزيد من أسراره. لم يعد لدينا متسع من الوقت.»

وقد كانت خطته للحصول على الطعام بسيطة على نحو خادع حقًّا. وبعد انقضاء ليل راما الطويل (الذي لم يستطع ريتشارد أن ينام فيه أكثر من ثلاث ساعات)، سارت نيكول باتجاه الساحة المركزية كي تنفذ الخطة. فقد اقترح ريتشارد عليها، بناءً على تحليله للمصفوفات المتوالية، ثلاثة مواقع يمكن أن تجد فيها اللوحة الخاصة بفتح غطاء وكر الطيور. وقد كان واثقًا جدًّا من تحليله حتى إنه لم يناقش معها ما الذي ينبغي أن

تفعله إن لم تجد اللوحة. وكان ريتشارد على حق. وعثرت نيكول على اللوحة بسهولة. ثم فتحت الغطاء وصاحت في الممر الرأسي. ولم يأتها رد.

أضاءت نيكول مصباحها الضوئي في الظلام أسفل منها. وكانت الدبابة الحارسة تمارس مهامها، وتذرع المكان جيئة وذهابًا أمام النفق الأفقي الذي يقود إلى غرفة المياه. صرخت نيكول مرة أخرى. ليتها كان بمقدورها أن تتجنب هذه الدبابة، إنها لم ترغب في أن تهبط الصخرة الأولى. ومع أن ريتشارد أكد لها أنه سوف يأتي لإنقاذها إذا ما تأخرت في المجيء، لم يرق لنيكول فكرة أن تحاصرها الطيور مرة أخرى.

أكان هذا الذي سمعته صوت ثرثرة آتيًا من بعيد؟ هكذا فكرت نيكول. أخذت نيكول إحدى العملات التي كانت قد عثرت عليها في الغرفة البيضاء وألقت بها في الممر الرأسي. فتحركت بعيدًا ثم ارتطمت بإحدى الصخور بالقرب من المستوى الرئيسي الثاني. في هذه المرة ارتفع صوت الثرثرة. وطار أحد الطيور لأعلى باتجاه شعاع الضوء الخارج من مصباحها فوق رأس الدبابة الحارسة. وبعد مضي بضع ثوانٍ بدأ الغطاء في الانغلاق وكان على نيكول أن تتحرك بعيدًا عنه.

وقد ناقشت هذا الاحتمال مع ريتشارد. انتظرت نيكول بضع دقائق ثم ضغطت على اللوحة مرة أخرى. وعندما صرخت للمرة الثانية في عمق وكر الطيور، جاءها رد فوري. حلَّق هذه المرة الطائرُ صديقها ذو طبقة القطيفة السوداء على بعد خمسة أمتار من السطح وصرخ فيها. وكان واضحًا لنيكول أنه قد أمرها بالرحيل. ولكن قبل أن يستدير الطائر، أخرجت نيكول شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص بها وشغلت أحد البرامج المخزنة عليه. فظهر على الشاشة اثنان من شمام المن في رسم بياني. وكما شاهد الطائر، أخذ المن يتلون على الشاشة ثم ظهرت شريحة دقيقة يظهر فيها النسيج واللون بداخل إحدى الشمامتين.

حلَّق الطائر المغطى بطبقة القطيفة السوداء بالقرب من الفتحة للحصول على رؤية أفضل. ثم استدار وصرخ عائدًا للظلام بأسفل. وفي غضون ثوانٍ ظهر طائر ثانٍ مألوف، من المرجَّح أنه رفيق الطائر المغطى بطبقة القطيفة السوداء، ورفرف ثم هبط على الصخرة الأولى تحت الأرض. كررت نيكول العرض. تحدث الطائران، ثم غاصا في باطن الوكر.

مرت دقائق. ثم سمعت نيكول ثرثرة متقطعة آتية من عمق الممر. وأخيرًا عاد صديقاها، وكلٌّ منهما يحمل شمامة صغيرة من شمام المن بين مخالبه. ثم هبطا في الساحة بالقرب من الفتحة. سارت نيكول نحو الشمام، غير أن الطائرين استمرا في إحكام مخالبهما على الشمام. وما تلا ذلك (كما افترضته نيكول) كان محاضرة طويلة.

لقد أخذ الطائران يثرثران بكلام غير واضح حينًا على حدة وحينا معًا، وكانا معظم الوقت ينظران لنيكول ثم ينقران على الشمام. وبعد مرور خمس عشرة دقيقة، وإذ بدا أنهما قد اقتنعا بأنهما أوصلا رسالتهما لنيكول، رفرفا وحلقا فوق الساحة ثم اختفيا داخل وكرهما.

قالت نيكول في نفسها وهي عائدة باتجاه الساحة الشرقية: «أعتقد أنهما كانا يحاولان إخباري أن موارد الشمام محدودة.» وكان المن ثقيلًا للغاية. فقد كانت تضع واحدة في كل حقيبة من حقائب الظهر التي كانت قد أفرغتهما من محتوياتهما هذا الصباح قبل مغادرة الغرفة البيضاء. ثم قالت في نفسها: «أو ربما كانا يودان إخباري بأنني لا ينبغي أن أزعجهما في المستقبل. أيًّا كان الأمر، فلن يرحبا بنا مرة أخرى.»

ظنت نيكول أن ريتشارد سيكون مسرورًا لدى عودتها إلى الغرفة البيضاء. لقد كان مسرورًا بالفعل، لكن ليس من أجلها أو من أجل شمام المن. وكانت هناك ابتسامة عريضة على وجهه، وكان يخفي إحدى يديه خلف ظهره. وقال بينما كانت نيكول تفرغ الحقائب: «انتظري حتى أريك ما لديَّ.» ثم أخرج يده واضعًا إياها أمامه وفتحها. كانت يده تحتوي على كرة سوداء قطرها نحو عشرة سنتيمترات.

قال ريتشارد: «أنا بعيدٌ كل البعد عن اكتشاف كل المنطق، أو كم المعلومات التي يمكن الحصول عليها. غير أنني قد أنشأت مبدأً أساسيًّا. يمكننا أن نطلب «أشياء» ونحصل عليها باستخدام الكمبيوتر.»

سألته نيكول، وهي لا تزال غير متيقنة لمَ هو متحمس هكذا بسبب كرة سوداء صغيرة: «ماذا تقصد؟»

أجابها وهو يعطيها الكرة مرة أخرى: «لقد صنعوا هذه لي. ألم تفهمي بعد؟ هم يملكون مصنعًا هنا في مكان ما ويمكنهم أن يصنعوا أشياء لنا.»

ردت عليه نيكول: «إذن، «لعلهم»، أيًّا كانت هويتهم، يستطيعون أن يصنعوا لنا بعض الطعام.» كانت نيكول مضجرة بعض الشيء من أن ريتشارد لم يهنئها أو يشكرها على إحضارها الشمام. فقالت: «إن الطيور غير مرحبين بإعطائنا شمامًا مرة أخرى.»

أجابها ريتشارد: «لن تكون هناك أي مشكلة. فإن أدركْنا المدى الكامل لعملية الطلب، فربما نقدر أن نطلب سمكًا ورقائق بطاطس ولحمًا، وأي شيء نريده، ما دام بمقدورنا أن نذكر ما نريده بمصطلحات علمية واضحة.»

حملقت نيكول في صديقها. وقد بدا ريتشارد في هذه اللحظة، بشعره الأشعث وذقنه غير الحليق وعينيه المنتفختين وابتسامته الهائجة، مثل هارب من مستشفى المجانين.

قالت له: «ريتشارد، هلا تمهلت قليلًا؟ إذا كنت قد عثرت على «مصباح علاء الدين»، هل يمكنك أن تمضي لحظة على الأقل في شرح ذلك لي؟»

قال ريتشارد: «انظري إلى الشاشة.» وباستخدام لوحة المفاتيح رسم دائرة ثم مسحها ورسم مربعًا. وفي أقل من دقيقة رسم بعناية مكعبًا ثلاثي الأبعاد. وعندما انتهى من الرسم وضع مفاتيح التشغيل الثمانية على إعدادات محددة سلفًا ثم ضغط على المفتاح ذي المؤشر المستطيل الصغير. وظهرت على الشاشة السوداء مجموعة من الرموز الغريبة. قال ريتشارد: «لا تقلقي، نحن لسنا في حاجة لفهم التفاصيل. إنهم يسألون عن تفاصيل أبعاد المكعب.» بعدئذٍ أدخل ريتشارد مجموعة من المدخلات باستخدام مفاتيح الأرقام العادية. ثم التفت إلى نيكول وقال: «الآن، إن كنت قد أجريت العملية بشكل صحيح، فسنحصل على مكعب مصنوع من نفس مادة هذه الكرة في غضون عشر دقائق تقريبًا.»

تناول ريتشارد ونيكول بعضًا من شمام المن الجديد في غضون فترة انتظارهما. وكان مذاقه مثل الباقين. قالت لنفسها: «إن اللحم مع البطاطس سيكونان رائعين بشدة.» وإذ بالجدار يرتفع فجأةً مسافة نصف متر فوق الأرض ويظهر مكعب أسود في الفجوة.

قال ريتشارد عندما اتجهت نيكول لتتفحصه: «انتظري دقيقة، لا تلمسيها الآن.» ثم سلط مصباحه على الظلام الموجود خلف المكعب وقال: «انظري هنا! ثمة أنفاق واسعة خلف هذه الجدران، وهي حتمًا تقود إلى مصانع متطورة للغاية حتى إننا ليس بمقدورنا أن نسبر أغوارها. تخيلي! حتى إنهم يمكنهم أن يصنعوا أشياء بالطلب.»

بدأت نيكول تعي لمَ كان ريتشارد مبتهجًا. استرسل ريتشارد: «والآن لدينا القدرة على التحكم بمصيرنا بعض الشيء، إذا استطعت أن أخترق الشفرة بسرعة كافية فسنكون قادرين على طلب الطعام، وربما نحصل ما نحتاجه أيضًا لبناء قارب.»

مزحت نيكول: «أتمنى أن يكون دون محرك مرتفع الصوت.»

وافقها ريتشارد القول: «لن يكون هناك محرك.» ثم انتهى من تناول الشمام ورجع للعمل على لوحة المفاتيح.

بدأ القلق يستبد بنيكول. لقد نجح ريتشارد في تحقيق طفرة معرفية واحدة فقط في غضون يوم كامل بتوقيت راما. وبعد أن ظل مستيقظًا لمدة ٣٨ ساعة من العمل المتواثل (فقد أخذ قسطًا من النوم لمدة ثماني ساعات فقط خلال اليوم بأكمله) كان كل ما يتفاخر به هو مادة واحدة جديدة. وقد تمكن من عمل أشياء «خفيفة» سوداء مثل الكرة الأولى، التي كانت كثافتها النسبية قريبة من كثافة خشب البلسا، أو أشياء «ثقيلة» سوداء

كثافتها مشابهة لكثافة خشب السنديان أو الصنوبر. كان عمله يستنزفه. ولم يستطِع أو لم يرغب في أن يشارك نيكول العبء الذي تحمله.

قالت نيكول في نفسها وهي تصعد السلالم كي تذهب للتمشية كعادتها وقت بزوغ الفجر: «ماذا لو أن اكتشافه الأول كان حظًّا تعِسًا وحسب؟ أو ماذا إذا كان النظام لا يستطيع أن يصنع أي شيء سوى نوعين من الأشياء السوداء؟» ولم تستطع أن تمنع نفسها من القلق بشأن الوقت الضائع. إذ لم يتبقَّ سوى ستة عشر يومًا آخرين على التقاء راما بكوكب الأرض. وما من أمارات تشير إلى قدوم فريق إنقاذ. وكانت تراودها في أعماقها فكرة أنه من المحتمل أن تكون هي وريتشارد قد تُرك تمامًا.

حاولت نيكول أن تتحدث إلى ريتشارد بشأن الخطط أثناء الأمسية السابقة، غير أنه كان مُنهَك القوى. فلم يرد بأي رد عندما ذكرت نيكول له أنها قلقة للغاية. وفيما بعد، عندما أوجزت بعنايةٍ كل الخيارات المتاحة أمامهما وسألته عن رأيه بشأن ما الذي يتعين عليهما القيام به، وجدته قد غرق في سبات عميق. وبعدما استيقظت نيكول من قيلولتها القصيرة، وجدته يعمل مرة أخرى بالفعل على الكمبيوتر ورفض أن تقاطعه سواء بالإفطار أو بالحديث. وتعثرت نيكول في مجموعة الأشياء المتزايدة باطراد الموضوعة على الأرض وهي تغادر الغرفة البيضاء لممارسة تمارين الصباح.

شعرت نيكول بوحدة موحشة. فقد مرت الخمسون ساعة الأخيرة، التي قضت معظمها وحدها، ببطء شديد. وكان متنفسها الوحيد هو الاستمتاع بالقراءة، فقد كانت تحتفظ بنصوص خمسة كتب مخزنة على جهاز الكمبيوتر الخاص بها. وكان إحداها موسوعتها الطبية، لكن الكتب الأربعة الباقية كانت كتبًا ترفيهية. قالت في نفسها وهي جالسة على الجدار المحيط بنيويورك: «أراهن أن كل ذاكرة التخزين المتاحة لريتشارد مكتظة بأعمال شكسبير.» وأخذت تحدق في البحر الأسطواني. وفي الفضاء الفسيح كادت أن ترى عبر الضباب والسحب من خلال منظارها التجويف الشمالي الذي دخلوا من خلاله راما لأول مرة.

وكان بحوزتها أيضًا اثنتان من روايات والدها مخزنتان في جهاز الكمبيوتر الخاص بها. وكانت الرواية المفضلة لدى نيكول هي «ملكة لكل العصور»، وهي تدور حول السنوات المبكرة من عمر إليانور دي أكيتان، بداية من فترة مراهقتها وهي في بلاط الدوقية في بواتييه. وكان الخط السردي للرواية يتناول حياة إليانور خلال فترة زواجها من لويس كابيه ملك فرنسا وحملتهم الصليبية للأراضي المقدسة، ومناشدتها الشخصية

الفريدة من نوعها للبابا إيوجين لطلب بطلان الزواج. وانتهت القصة بطلاق إليانور من لويس وخطبتها إلى الشاب هنري بلانتاجينت المتقد الحماسة.

وكانت الرواية الثانية لبيير دي جاردان الموجودة على ذاكرة تخزين كمبيوتر نيكول هي الرائعة الأدبية المشهورة عالميًّا «أنا ريتشارد قلب الأسد»، وهي مزيج من سيرة ذاتية ومناجاة مع النفس، تدور أحداثها في غضون أسبوعين من أسابيع الشتاء في أواخر القرن الثاني عشر. وفي أحداث الرواية، ينزل ريتشارد وجنوده، الذين كانوا قد شرعوا في حملة صليبية أخرى، بالقرب من ميسينا تحت حماية ملك صقلية النورماندي، في تلك الأثناء، يكون هناك الملك المحارب الشهير والشاذ جنسيًّا ابن إليانور دي أكيتان وهنري بلانتاجينت، الذي ينعش ذاكرته بالأحداث الشخصية الكبرى والتاريخية في حياته في لحظة من لحظات من كشف الذات.

تذكرت نيكول مناقشة طويلة دارت بينها وبين جينيفيف بعدما قرأت ابنتها هذه الرواية الصيف الماضي. انبهرت المراهقة الصغيرة بالرواية، وأذهلت والدتها بطرح أسئلة ذكية للغاية. وجعلت أفكار جينيفيف تلك نيكول تتساءل عما تفعله في هذه اللحظة في بوفوا. قالت نيكول في نفسها: «لقد أخبروك أنني اختفيت. ماذا يطلق العسكريون على هذا؟ في عداد المفقودين؟»

رأت نيكول بعين مخيلتها ابنتها وهي راكبة دراجتها عائدة للمنزل من المدرسة كل يوم. لتسأل جدها وهي تعبر من باب الفيلا: «أي أخبار؟» ولن يفعل بيير شيئًا سوى أن يهز رأسه في حزن.

قالت نيكول في نفسها: «لقد مر الآن أسبوعان على آخر مرة شوهدت فيها رسميًّا. هل لا يزال لديك أمل يا ابنتي العزيزة؟» وكانت تجتاح نيكول المعذبة رغبة عارمة في التحدث إلى جينيفيف. ففي لحظة انفصال عن الواقع، لم تقبل نيكول حقيقة أنه يفصلها عن ابنتها ملايين الكيلومترات وما من طريقة للاتصال بها. نهضت نيكول للعودة إلى الغرفة البيضاء، وهي تفكر في التشويش العارض الذي انتابها بشأن إمكانية الاتصال بجينيفيف من هناك.

وبعدما رجعت نيكول إلى رشدها بعد بضع ثوانٍ، تعجبت من مدى السهولة التي خدعها بها ذهنها. هزت نيكول رأسها، ثم مكثت على الجدار المطل على البحر الأسطواني. وظلت في مكانها على الجدار ما يقرب من ساعتين مطلقةً العنان لذهنها ليتجول بحرية بين موضوعات متنوعة. وعندما كانت تستعد للعودة إلى الغرفة البيضاء ركز ذهنها على ريتشارد ويكفيلد. قالت نيكول لنفسها: «لقد أرهقتك يا صديقي البريطاني. كنت صريحة

معك أكثر مما فعلت مع أي شخص بعد هنري. لكني محظوظة لأن أكون هنا بصحبة شخص شديد الثقة بالناس على نحو يفوقني أنا شخصيًّا.»

شعرت نيكول بحزن غير مبرر وهي تنزل السلالم إلى المستوى الثاني وتستدير إلى حيث النفق الأفقي. لكن حزنها تحول إلى ذهول عندما دخلت الغرفة البيضاء. لقد قفز ريتشارد من مقعده الأسود الصغير واستقبلها بعناق. لقد حلق شعره وصففه. بل قلَّم أظافره. ووُضع على الطاولة السوداء الموجودة في منتصف الغرفة شمام المن مقسمة بدقة. وُضعت قطعة واحدة في كل طبق من الطبقين الأسودين الموضوعين أمام المقعدين.

سحب ريتشارد مقعدها وأشار إليها بالجلوس. ثم استدار حول الطاولة وجلس على مقعده. مد يده عبر الطاولة وأمسك بيدي نيكول. وقال بصدق شديد: «أود أن أعتذر لأنني كنت فظًّا معكِ. لقد تصرفت بطريقة سيئة على مدار الأيام القلائل الأخيرة.»

ثم استرسل ريتشارد وهو متردد وابتسامة متوترة تداعب شفتيه: «لقد فكرت في آلاف الأشياء لأقولها لك في غضون هذه الساعات التي كنت أنتظرك خلالها، لكني لا أستطيع أن أتذكرها كلها ... لكن ما أعرفه هو أنني أردت أن أشرح لكِ كيف كان الأمير هال وفالستاف مهمين لي. لقد كانا أصدقائي الحميمين ... ولم يكن من السهل عليَّ أن أتقبل موتهما. ولا يزال حزني عظيمًا ...»

ارتشف ريتشارد رشفة ماء وابتلعها. ثم قال: «لكني آسف قبل كل شيء لأنني لم أخبركِ كم أنتِ إنسانة مذهلة. أنتِ ذكية وجذابة وبارعة ومرهفة الحس؛ كل شيء سبق لي وأن حلمت أن أجده في امرأة. وعلى الرغم من الوضع الذي نحن فيه، فقد خشيت أن أخبرك حقيقة شعوري. أعتقد أن الخوف من الرفض قد تغلغل في أعماقي بشدة.»

انهمرت الدموع من عينَي ريتشارد وانسابت على وجنتيه. وكان يرتجف قليلًا. وأدركت نيكول كم كان هذا مُضنيًا له. جذبت نيكول يديه إلى وجنتيها. وقالت: «وأنا أيضًا أرى أنك شخص مميز.»

الفصل الخمسون

ينبوع أمل لا ينضب

واصل ريتشارد العمل على حاسب راما، لكنه أصبح لا يعمل سوى فترات قصيرة، وأشرك نيكول في العمل كلما أمكن.

كان يتمشيان معًا ويتحدثان وكأنهما صديقان قديمان. وقد سلى ريتشارد نيكول عن طريق تمثيل مشاهد كاملة من مسرحيات شكسبير. وكان الرجل يتمتع بذاكرة مذهلة. وحاول أن يلعب كلا الدورين في مشهد الحب من مسرحية روميو وجوليت، ولكن كانت نيكول تنفجر ضحكًا كلما غير نبرة صوته ليلعب الدور النسائي.

وقد تحدثا في إحدى الليالي ما يزيد عن الساعة حول أوميه، وقبيلة سينوفو، ورؤى نيكول. قال ريتشارد في محاولة لإشباع فضوله: «أنت تعلمين أنه من الصعب عليَّ تقبل الحقيقة المادية لبعض من هذه القصص. ومع ذلك فأنا أقر أنهم مذهلون بشدة.» وبعد ذلك أظهر ريتشارد اهتمامًا شديدًا بتحليل الرموز المتضمنة في رؤاها. وكان من الواضح أنه لمس في نيكول ميلها إلى العالم الغيبي كعنصر آخر من عناصر شخصيتها الثرية.

استكان الاثنان في حضن ثم مارسا الجنس. وتم الجماع بطريقة رقيقة ومتأنية، وفوجئ الاثنان بالراحة والإشباع اللذين حققاهما. وبعد عدة ليالٍ، كانت نيكول مستلقية ورأسها على صدر ريتشارد، وكانت تغفو قليلًا ثم تستيقظ. وكان ريتشارد غارقًا في التفكير. ثم قال وهو يدفعها برفق كي تستيقظ: «منذ عدة أيام، قبل أن تصبح علاقتنا على هذا القدر من الحميمية، أخبرتك أنني فكرت في الانتحار ذات مرة. وفي تلك الأثناء خشيت أن أخبرك بالقصة. هل ترغبين في سماعها الآن؟»

فتحت نيكول عينيها. وتقلبت ووضعت ذقنها على بطنه. وقالت: «بلى.» ثم اقتربت منه وقبلت عينيه قبل أن يبدأ في سرد قصته.

استهل ريتشارد قصته: «أعتقد أنكِ تعرفين أنني كنت متزوجًا من سارة تايدنجس، عندما كنا صغارًا جدًّا. وذلك أيضًا قبل أن يذيع صيتها. في سنة تعاقدها الأولى مع شركة رويال شكسبير، وكانت الشركة حينذاك تقدم مسرحيات «روميو وجوليت» و«كما تشاء» و«سيمبلين» في ستراتفورد. ولعبت سارة دور روزاليند وجوليت وكانت بارعة في كليهما.

كانت في الثامنة عشر من عمرها حينذاك، وقد تخرجت من المدرسة لتوها. ووقعتُ في غرامها في أول ليلة رأيتها وهي تؤدي دور جوليت. وكنت أرسل إليها الورود في غرفة ملابسها في كل أمسية، وأنفق معظم مدخراتي على رؤية كل العروض. وخرجنا معًا للعشاء مرتين، تقدمت بعدهما للزواج منها. وكان قبولها يرجع إلى عنصر المفاجأة أكثر منه إلى الحب.

التحقت بجامعة كامبريدج بعد انتهاء الصيف لإجراء بحث. وعشنا في شقة متواضعة، وكانت تذهب هي إلى مسرح في لندن. وكنت أرافقها إلى هناك قدر ما أستطيع، لكن بعد مضي عدة أشهر كانت دراستي تستغرق مني الكثير من الوقت.»

توقف ريتشارد عن الحديث وحملق في نيكول. ظلت بلا حراك. كانت متكئة قبالته وعلى وجهها ابتسامة حب. ثم قالت بلطف: «أكمل.»

قال ريتشارد: «كانت سارة تعشق روح المغامرة. فكانت تتوق إلى الإثارة والتغيير. وكانت الحياة الروتينية المملة تثير غضبها أيما إثارة. فعلى سبيل المثال، كانت تشعر بالضجر الجم من شراء طلبات المنزل. لقد كان مزعجًا لها أن تشغل الكمبيوتر وتقرر ما ستطلبه. وكانت تجد أيضًا في أي جدول مواعيد تقييدًا لحريتها.

كان يجب تغيير الأوضاع الجنسية كل مرة أو تصاحبنا موسيقى مختلفة، وإلا عدَّت ما نفعله مملًّا. ولمدة طويلة كنت أبتكر بالقدر الكافي لإرضائها. وقد توليت أيضًا المهام الروتينية كي أعفيها من الأعمال المنزلية الشاقة. لكن لم يكن هناك الكثير من الساعات الكافية لكل هذا في اليوم. وفي النهاية، على الرغم من قدراتي الهائلة، بدأت دراستي تتداعى لأنني كنت أبذل كل جهدي في جعل الحياة مثيرة من أجلها.

بعد مرور عام على زواجنا أرادت سارة أن تؤجر شقة في لندن حتى لا تقطع مسافة طويلة كل ليلة بعد العرض. وقد كانت تقضي بالفعل ليلتين كل أسبوع في لندن، ظاهريًّا مع إحدى صديقاتها الممثلات. لكن حياتها المهنية كانت تزدهر وكان لدينا مال وفير، فلمَ سأقول لا؟

ولم يمر الكثير من الوقت حتى راجت الشائعات في كل الأنحاء عن سلوكها. وقررت أن أتجاهلها، خشية ألا تنكرها إذا ما سألتها. وحدث في إحدى الليالي، بينما كنت أستعد

لأحد الامتحانات، تلقيت مكالمة هاتفية من امرأة. كانت غاية في الأدب، على الرغم من أنها كانت منفعلة بكل وضوح. أخبرتني أنها كانت زوجة الممثل هيو سينكلير، وأن السيد سينكلير — الذي كان في تلك الأثناء يلعب دور البطولة مع سارة في الدراما الأمريكية «في أي طقس» — يقيم علاقة جنسية مع زوجتي. قالت لي: «في حقيقة الأمر هو موجود الآن في هذه اللحظة في شقة زوجتك.» أجهشت السيدة سينكلير في البكاء ثم أغلقت الهاتف.»

مدت نيكول يديها بلطف وأخذت تلاطف وجنة ريتشارد بيديها. قال ريتشارد وهو يتذكر في أسًى: «شعرت في هذه اللحظة وكأن صدري قد انفجر. استشطت غضبًا وأصبحت مفزوعًا وثائرًا كالمجنون. ذهبت إلى المحطة واستقللت القطار إلى لندن. وعندما أنزلني التاكسي أمام شقة سارة هُرعت إلى الباب.

لم أقرع الباب. واندفعت بسرعة على السلم ووجدت كليهما مستلقيًا عريانًا في الفراش. أخذت سارة وقذفتها بقوة في الجدار، ولا أزال أتذكر صوت رأسها وهي ترتطم بالمرايا. ثم انقضضت عليه في غيظ، وأخذت ألكم وجهه بلا توقف، حتى صار كتلة من الدم. كان هذا مريعًا ...»

انقطع ريتشارد عن الحديث وأخذ يبكي في صمت. وضعت نيكول يديها حول صدره المضطرب. وقالت: «حبيبي، حبيبي.»

بكى ريتشارد: «كنت همجيًا. كنت أسوأ حالًا مما كان عليه أبي في أي وقت مضى. كنت على وشك أن أقتلهما، لولا تدخل الجيران القاطنين في الشقة المجاورة.»

لم ينبس أحدهما ببنت شفة على مدار بضع دقائق. وعندما استرسل ريتشارد مرة أخرى كان صوته كسيرًا، لا يكاد يكون مسموعًا.

تابع ريتشارد حديثه: «وفي اليوم التالي، بعدما جرَّمت الشرطة ومراسلو الصحف الصفراء سارة، وددت أن أقتل نفسي. وكنت سأفعل هذا لو كنت أمتلك مسدسًا. وكنت أفكر في البدائل الرهيبة — مثل تناول الحبوب، أو تقطيع شراييني بموس حاد، أو القفز من فوق كوبري — عندما اتصل بي طالب يدرس معي ليسألني عن سؤال مفصل حول النسبية. وبعد مرور خمس عشرة دقيقة من التفكير في السيد آينشتاين، لم يعد الانتحار خيارًا مُجديًا. وبالطبع بات الطلاق هو الحل. وفضلت حياة العزوبية. وأصبح الموت خيارًا مستبعدًا. وما كنت قط لأنهي قصة حبي للفيزياء قبل الأوان.» وبدأ صوت ريتشارد يخفت تدريجيًّا.

مسحت نيكول دموعها ووضعت راحتيها في راحتيه. ومالت بجسدها العاري على جسد ريتشارد وقبلته وقالت: «أحبك.»

أشار صوت منبه نيكول إلى طلوع نهار جديد على راما. وبعدما حسبت حسابًا سريعًا في ذهنها قالت: «مرت عشرة أيام أُخرى. من الأفضل أن نتحدث حديثًا جديًّا الآن.»

أيقظ المنبه ريتشارد أيضًا. التفت ريتشارد وابتسم لشريكة فراشه. قالت نيكول: «حبيبي، لقد حان الوقت ...»

قاطعها ريتشارد مكملًا شطر البيت الشهير من قصيدة «الفظ والنجار»: «قال حيوان الفظ، هيا لنتحدث بشأن أمور كثيرة.»

قالت نيكول: «هيا، كن جادًّا. علينا أن نقرر ماذا سنفعل. من الواضح جدًّا أنه ما من بارقة أمل في إنقاذنا.»

قال ريتشارد: «أتفق معكِ.» ثم اقترب من حصيرة نيكول كي يلتقط قميصه. وقال: «لطالما خشيت هذه اللحظة لأيام عديدة. لكن أعتقد أننا قد وصلنا أخيرًا إلى النقطة التي ينبغي أن نفكر عندها في أمر السباحة.»

سألته: «ألا تعتقد أن هناك أي فرصة لصنع قارب من الشيء الأسود الذي لدينا؟»

أجابها: «لا. فنحن لدينا مادة خفيفة للغاية وأخرى ثقيلة للغاية. لو كان لدينا بعض المسامير، لربما استطعنا أن نصنع مزيجًا منهما صالحًا للإبحار، لكن دون أي أشرعة، لا يزال علينا أن نجدف ... لذا أفضل حل هو أن نسبح.»

نهض ريتشارد وسار إلى المربع الأسود بالجدار. وقال: «إن خططي الخيالية لم تَؤُلْ إلى نجاح، أليس كذلك؟» ثم أخذ ينقر بخفة على المربع. وقال: «كنت أنوي أن أنتج لحمًا وبطاطس وقاربًا أيضًا.

«إن أفضل الخطط التي وضعتها الفئران والبشر قد آلت إلى فشل.»

«كما قال الشاعر الاسكتلندي روبرت برنز، يا له من شاعر غريب. لا أدري ما الذي كان يجعل الناس تُعجب به.»

انتهت نيكول من ارتداء ملابسها وبدأت تمارس بعض تمارين إطالة العضلات. قالت نيكول: «يا للهول، إنني لست في كامل لياقتي البدنية. لم أمارس أي أنشطة بدنية شاقة لعدة أيام.» ثم ابتسمت لريتشارد الذي كان ينظر إليها خجلًا. وقالت: ««هذا» لا يُحسب تمرينًا.»

أجابها ريتشارد بابتسامة واسعة: «يكاد يكون هذا هو التمرين الوحيد الذي أحببته. كنت أكرهه في الأكاديمية عندما كنا نمارس التدريبات البدنية في أوقات الإجازات الأسبوعية.»

وضع ريتشارد قطعًا صغيرة من شمام المن على الطاولة السوداء ثم قال بنبرة تخلو من أي انفعالات: «يبقى لنا ثلاث وجبات أخرى غير هذه الوجبة. أظن أننا سنسبح قبل أن يحل الظلام مرة أخرى.»

سألته نيكول قائلة: «ألا تريد أن تذهب هذا الصباح؟»

أجابها: «لا. لمَ لا تذهبين أنتِ وتلقين نظرة فاحصة على الشاطئ وتنتقين بقعة؟ لقد رأيت شيئًا أربكني بشدة على جهاز الكمبيوتر الليلة الماضية. إن هذا الشيء لن يقدم لنا طعامًا أو قاربًا، لكن يبدو كما لو أنني أخيرًا سأقتحم نوعًا آخر من البنية.»

بعد تناول الإفطار، قبلت نيكول ريتشارد قبل صعودها فوق سطح الأرض. ولم يستغرق أمر تفقد الشاطئ منها كثيرًا. ولم يكن هناك بالفعل أسباب وجيهة يجعلها تفضل بقعة يسبحان من عندها على الأخرى. وقد أحبطت نيكول من الحقيقة القاتمة المتعلقة بعملية السباحة الوشيكة. وقالت في نفسها: «ثمة احتمالات كبيرة في أننا أنا وريتشارد لن نكون على قيد الحياة بحلول ظلام ليلة جديدة على راما.»

وحاولت نيكول أن تتخيل ما سيكون عليه الأمر عندما يأكلهما قرش آلي. هل ستكون ميتة سريعة؟ أم سنكون واعين عندما تؤكل أرجلنا أولًا؟ ارتعدت نيكول من مجرد الفكرة. ثم قالت في نفسها: «ربما علينا أن نحاول الحصول على شمامة أخرى ...» لكنها كانت تعلم أن هذا غير مجدي. إذ ينبغي لهما أن يسبحا عاجلًا أو آجلًا.

أدارت نيكول ظهرها للبحر. قالت في نفسها؛ إذ كانت غير راغبة في التفكير ثانية في ورطتهما: «على الأقل كانت الأيام القلائل الأخيرة ممتعة. وقد كان ريتشارد رفيقًا بارعًا. رفيق في كل شيء.» وقد تركت نفسها للمتعة الخاطفة بأن تركت نفسها تسترجع المتعة التي عاشاها معًا. فابتسمت ثم شرعت تسير عائدة إلى الوكر.

سألت نيكول ريتشارد عندما ظهرت صورة أخرى على المربع الأسود: «لكن ما هذا؟»

أجابها ريتشارد: «لست متيقنًا تمامًا. كل ما أعرفه هو أنني دخلت إلى قائمة طويلة من نوع أو آخر. أتتذكرين بالتحديد تعريف الأمر الذي ينتج عنه ظهور الرموز المخططة التي تشبه اللغة السنكريتية؟ لقد كنت أتصفح الكلام المبهم، وأخيرًا لاحظت نمطًا متبعًا فيه. فوقفت في بداية النمط وغيرت موضع المفاتيح الثلاثة الأخيرة، ثم ضغطت مرة أخرى على زر النقطة المزدوجة. وفجأة ظهرت صورة على الشاشة. وفي كل مرة كنت أضغط فيها على زر كانت الشاشة تتغير.»

سألته نيكول: «لكن كيف عرفت أنك تنظر إلى مخرجات جهاز استشعار؟»

عندئذٍ أدخل ريتشارد أمرًا، فحدث تغيير في الصورة. وقال: «لقد شاهدت مصادفة شيئًا أعرفه. انظري إلى هذا على سبيل المثال. ألا يمكن أن تكون هذه سلالم مخيم بيتا كما تصورها الكاميرا الموجودة في منتصف السهل المركزي؟»

أمعنت نيكول النظر في الصورة. وقالت: «ربما، لكن لا يمكنك أن تجزم بذلك يقينًا.»

أدخل ريتشارد أمرًا إلى الشاشة كي تتغير مرة أخرى. وكانت الصور الثلاثة التالية غير واضحة. أما الصورة الرابعة فقد بينت صورة علامة تتضاءل حتى تصبح نقطة في قمة الإطار. قال ريتشارد: «وألا يمكن أن يكون هذا قرنًا من القرون الصغيرة كما شُوهد من أحد أجهزة الاستشعار بالقرب من قمة القرن الكبير؟»

وبصرف النظر عن كم المحاولات التي قامت بها نيكول، فإنها لم تستطع أن تتخيل كيف يمكن أن يكون المنظر من قمة البرج العملاق بمركز التجويف الجنوبي. استمر ريتشارد يقلب في الصور. وكانت هناك صورة واحدة تقريبًا، من بين كل خمس صور، ذات رؤية واضحة جزئيًّا. قال ريتشارد لنفسه: «حتمًا يوجد في مكان ما في هذا النظام بعض خوارزميات تحسين جودة الصور. وإذا عثرت عليها فسيمكنني أن أوضح كل الصور.»

أدركت نيكول أن ريتشارد كان على وشك أن يبدأ جلسة عمل طويلة أخرى. سارت نيكول نحوه ووضعت ذراعها حول رقبته. وقالت: «هل يمكنني أن أقاطعك قليلًا أولًا؟» ثم اقتربت وقبلته في فمه.

رد عليها ريتشارد وهو يلقي بلوحة الكمبيوتر على الأرض: «أعتقد ذلك. ربما من الأفضل لي أن أصفي ذهني.»

كانت نيكول مستغرقة في حلم جميل. عادت إلى قواعدها بفيلتها في بوفوا. وكان ريتشارد جالسًا إلى جانبها على الأريكة الموجودة في غرفة المعيشة ممسكًا بيدها. ووالدها وابنتها يجلسان قبالتهما على المقاعد.

وقطع حلمَها صوتُ ريتشارد بنبرة ملحة. وعندما فتحت نيكول عينيها كان حبيبها واقفًا بجانبها، وكان صوته يصدح بحماسة. قال ريتشارد وهو يمد يده لها كي يجذبها إلى أعلى: «انتظري حتى ترَي هذا يا حبيبتي. إنه لأمر رائع! لا يزال هناك شخص ما.»

نفضت نيكول الحلم عن ذهنها ونظرت في المربع الأسود حيث كان ريتشارد يشير. قال ريتشارد وهو يتقافز لأعلى وأسفل: «أيمكنك أن تصدقي هذا؟». واستطرد: «لا يوجد شك حول هذا. المركبة العسكرية لا تزال راسية.»

عندئذٍ أدركت نيكول أنها تنظر إلى صورة من خارج راما. طرفت نيكول بعينيها ثم أنصتت إلى تفسير ريتشارد المسهب والمشتت. قال ريتشارد: «ما إن اكتشفت شفرات تحسين جودة الصور، حتى أصبحت كل الإطارات تقريبًا واضحة. وحتما هذه المجموعة من الصور التي أريتك إياها من قبل، هي المخرجات المؤقتة لمئات من أجهزة الاستشعار التصويرية. وأظن أنني قد اكتشفت كيفية الوصول لقاعدة بيانات جهاز الاستشعار الآخر أيضًا.»

كان ريتشارد مبتهجًا. وأحاط نيكول بذراعيه ورفعها من على الأرض. وحضنها وقبلها وتقافز فرحًا في جميع أرجاء الحجرة كالمجنون.

وأخيرًا عندما هدأ قليلًا، قضت نيكول ما يقرب من دقيقة كاملة في فحص الصورة المعروضة على المربع الأسود. قطعًا كانت صورة مركبة نيوتن العسكرية، وكانت تستطيع أن تستدل على علاماتها المميزة. قالت نيكول لريتشارد: «إذن، المركبة العلمية عادت إلى الأرض.»

أجابها ريتشارد: «بلى، كما توقعت. كنت خائفًا من أن يذهبا، وبعدما نسبح في البحر نجد أنفسنا ما زلنا محبوسين، لكن هذه المرة في سجن أكبر.»

كانت نفس المخاوف تساور نيكول أيضًا. ابتسمت لريتشارد. وقالت: «إن الأمر بسيط نسبيًّا إذن، أليس كذلك؟ نسبح عبر البحر الأسطواني ونسير إلى حيث التلفريك. ويكون أحدهم بانتظارنا عند القمة.»

بدأت نيكول في حزم أمتعتها. في تلك الأثناء استمر ريتشارد في استعراض صور جديدة على الشاشة بسرعة. سألته نيكول بلطف: «ماذا تفعل يا حبيبي الآن؟ لقد ظننت أننا ذاهبان للسباحة.»

أجابها ريتشارد: «لم أتفقد كل قائمة جهاز الاستشعار منذ أن عثرت على شفرات تحسين جودة الصور. أريد التأكد فحسب من أننا لم يفتنا أي شيء مهم. لن يستغرق الأمر سوى ساعة أخرى تقريبًا.»

توقفت نيكول عن حزم الأمتعة وجلست أمام الشاشة إلى جانب ريتشارد. كانت الصور شائقة بحق. كان بعضها يعرض لقطات خارجية، لكن معظمها كانت صورًا لمناطق مختلفة داخل راما، بما في ذلك أوكار الطيور تحت الأرض. ومن إحدى الصور المميزة كانت صورة مُلتقطة من قمة الغرفة الكبيرة للكرات الساخنة في شباكها الإسفنجية المنبسطة على الأرض تحت الشباك المعلقة. تفرس ريتشارد ونيكول في الصورة لحظات

على أمل أن يشاهدا كائنات الأوكتوسبايدر المخططة باللونين الأسود والذهبي، غير أنهما لم يكتشفا أي تحرك.

وكانا قريبين من نهاية القائمة عندما نزلت صورة الثلث السفلي من سلالم محطة ألفا عليهما كالصاعقة. كان في الصورة أربعة رجال في بذل فضائية ينزلون السلالم. شاهد ريتشارد ونيكول هؤلاء الأشخاص يهبطون لمدة خمس ثوانٍ، فطفرا من شدة الفرح. قال ريتشارد وهو يرفرف بذراعه في الهواء: «إنهم قادمون! سوف ينقذوننا!»

الفصل الحادي والخمسون

حزام للهروب

بدأ صبر ريتشارد ونيكول ينفد. لقد كان يقف هو ونيكول على جدران نيويورك ما ينيف على الساعة، يمسحان السماء بأعينهما بحثًا عن أي أمارات تشير إلى مجيء طائرة هليكوبتر. دمدم ريتشارد: «أين هم بحق الجحيم؟ لا تستغرق المسافة من قاع سلالم ألفا حتى مخيم بيتا سوى خمس عشرة دقيقة بالطوافة.»

ردت نيكول في محاولة لرفع معنوياته: «ربما يبحثون في مكان آخر.»

أجابها: «يا له من أمر سخيف! بالطبع سوف يذهبون إلى مخيم بيتا أولًا، وحتى وإن لم يستطيعوا أن يصلحوا نظام الاتصالات، فعلى الأقل سوف يجدون رسالتي الأخيرة. لقد ذكرت أنني سأركب أحد القوارب البخارية إلى نيويورك.»

أجابته: «لعلهم يعتقدون أنه لا توجد بقعة تهبط فيها الطائرة في المدينة. أو لعلهم هم أنفسهم قادمون في قارب.»

قال ريتشارد: «دون أن يعرفوا أولًا هل بإمكانهم تحديد موقعنا من الطائرة؟ هذا أمر مستبعد.» حول ريتشارد عينيه إلى البحر وبحث عن مركب شراعي. ثم صاح مقتبسًا مقولة شكسبير من مسرحية ريتشارد الثالث بتصرف: «قارب. قارب. أتخلى عن مملكتي مقابل قارب.»

ضحكت نيكول، لكن ريتشارد ابتسم بصعوبة. وقال بغيظ: «يستطيع رجلان أن يجمعا القارب الشراعي من كوخ المؤن بمخيم بيتا في أقل من ثلاثين دقيقة. اللعنة، ما الذي يعوقهم؟»

وقام ريتشارد في خِضم إحباطه بتشغيل خاصية البث في جهاز الاتصال. وقال: «أنصتوا إليَّ يا رجال. إن كنتم بأي مكان بالقرب من البحر الأسطواني، فحددوا هويتكم. ثم أسرعوا إلى هنا. نحن نقف على الجدار وقد سئمنا الانتظار.»

ولم يكن هناك من مجيب. جلست نيكول على الجدار.

سألها ريتشارد: «ماذا تفعلين؟»

ردت عليه: «أعتقد أنك قلق بما فيه الكفاية لكلينا. وقد تعبت من الوقوف والتلويح بذراعي.» ثم حدقت عبر البحر الأسطواني. وقالت في إحباط: «لو كنا فقط نستطيع أن نطير، لكان الأمر أسهل كثيرًا.»

أمال ريتشارد رأسه للجانب ونظر إليها. وقال بعد بضع ثوانٍ: «يا لها من فكرة رائعة. لماذا لم تجُل بخاطرنا من قبل؟» جلس ريتشارد على الفور وبدأ في إجراء بعض الحسابات على جهاز الكمبيوتر الخاص به. وهمهم لنفسه قول يوليس قيصر من مسرحية شكسبير بنفس الاسم: «إن الجبناء ليموتون مرارًا قبل آجالهم، أما الشجعان فلا يذوقون الموت إلا مرة واحدة.»

شاهدت نيكول صديقها ينقر بهمة على لوحة المفاتيح. وسألته وهي تحدق في شاشة الكمبيوتر من فوق كتفه: «ماذا تفعل، يا عزيزي؟»

صرخ ريتشارد بعدما أنهى حساباته: «ثلاثة! ثلاثة يجب أن تكون كافية.» نظر ريتشارد إلى نيكول المتحيرة وسألها: «أتريدين أن تسمعي أشنع الخطط على الإطلاق في تاريخ عالم الفضاء؟»

أجابت نيكول بابتسامة تملؤها الريبة: «لمَ لا؟»

رد عليها: «سوف نصنع لأنفسنا أحزمة من المادة المصنوع منها الشباك، وتطير بنا الطيور عبر البحر الأسطواني.»

حدقت نيكول في ريتشارد لبضع ثوانٍ. ثم قالت في شك: «على افتراض أننا يمكن أن نصنع الأحزمة، كيف سنخبر الطيور بأن تقوم بدورها؟»

أجابها ريتشارد: «سوف نقنعها أن هذا في مصلحتها. أو نهددها بطريقة ما ... لا أعرف يمكنكِ أن تتولي أنتِ هذا الأمر.»

كانت نيكول مرتابة. استرسل ريتشارد وهو يمسك يدها ويهبط من على الجدار: «على أي حال، هذا أفضل من المكوث هنا بانتظار الهليكوبتر أو القارب.»

بعد مضي خمس ساعات لم تكن هناك أي أمارات تشير إلى قدوم فريق إنقاذ. وعندما انتهيا من صنع الحزام، ترك ريتشارد نيكول على الجدار وعاد إلى الغرفة البيضاء لتفقد الأمر عبر جهاز الاستشعار مرة أخرى. وعاد بخبر أنه يظن أنه رأى الأشكال البشرية على مقربة من مخيم بيتا، لكن درجة دقة الصورة على هذا الإطار الدقيق بالتحديد كانت

ضعيفة للغاية. وكما اتفقا معًا، كانت نيكول تنادي عبر جهاز الاتصال كل نصف ساعة. ولكن لم يكن هناك مجيب.

قالت نيكول لريتشارد وهو يبرمج بعض الرسومات البيانية على الحاسب: «ريتشارد، لماذا تعتقد أن فريق الإنقاذ كان يستخدم السلالم؟»

رد عليها: «ومن يدري؟ ربما التلفريك معطل وليس معهم مهندسون.»

قالت نيكول متأملة: «إن هذا يبدو غريبًا من وجهة نظري.» ثم أردفت في سرها: «ثمة شيء يزعجني في هذا، لكنني لا أجرؤ على مجاهرة ريتشارد به حتى يمكنني تفسيره أولًا. هو لا يؤمن بالحدس.» حدقت نيكول في ساعتها. ثم تابعت حديثها إلى نفسها: «إنه لشيء جيد أننا وفرنا بعض الشمام. إذا لم يظهر فريق الإنقاذ، ولم تنجح هذه الخطة المتهورة، فإننا لن نسبح قبل طلوع النهار التالي.»

قال ريتشارد بنبرة حاسمة: «لقد انتهيت من التصميم المبدئي.» ثم لوح بيديه لنيكول لتنضم إليه. ثم قال وهو يشير إلى الشاشة التي بيديه: «إذا وافقتِ على هذا الرسم المكون من خطوط، فعندئذٍ سوف أكمل باقي تفاصيل الرسومات.»

وفي الصورة ثلاثة طيور كبيرة، وحبل ملفوف حول جسم كل واحد منها، تطير على هيئة سرب عبر البحر. ويتدلى منها رسمة لبشريين مربوطين فيها بثلاثة حبال ويجلسان على أحزمة واهية. قالت نيكول: «يبدو جيدًا لي»، وهي لا تحبذ التفكير ولو لدقيقة واحدة في أن هذا الأمر سيحدث فعليًّا.

قالت نيكول وهي تضغط على اللوحة للمرة الثانية كي تفتح وكر الطيور: «لا أصدق أننا مقدمان على فعل هذا.»

وقد نجم عن محاولتهما الأولى لتجديد التواصل مع الطيور جفاء متوقع. في هذه المرة الثانية كان ريتشارد هو من صرخ في وكر الطيور. صرخ ريتشارد بأقوى صوت لديه: «أنصتي لي أيتها الطيور، أحتاج إلى أن أتحدث معك «الآن». اصعدي إلى هنا في الحال.» وكان على نيكول أن تكتم ضحكتها.

بدأ ريتشارد يُسقط بعضًا من الأشياء السوداء في الوكر. قال ريتشارد بابتسامة واسعة: «انظري، كنت أعلم أن هذه الأشياء الملعونة سوف تصلح لغرض ما.» أخيرًا سمعت الطيور حركة في قاع الممر الرأسي. صعد الطائران أنفسهما اللذان شاهداهما مرارًا وتَكرارًا من قبل إلى أعلى الوكر وبدآ يصرخان بشدة في ريتشارد ونيكول. ولم ينظرا

حتى إلى شاشة الكمبيوتر عندما وجهها ريتشارد باتجاههما. وعندما فرغ الطائران من الصراخ حلقا فوق الدبابة الحارسة، وانغلق الغطاء مرة أخرى.

قالت نيكول عندما طلب منها ريتشارد أن تفتح الغطاء للمرة الثالثة: «لا جدوى من هذا يا ريتشارد. حتى صديقانا انقلبا علينا.» توقفت نيكول عن الحديث قبل أن تضغط على اللوحة. ثم قالت: «ماذا سنفعل إذا هاجَمانا؟»

أجاب ريتشارد وهو يشير لنيكول كي تفتح الغطاء: «لن يُهاجِمانا. لكن تحسبًا، أريدك أن تبقي فوق هناك. وسوف أتعامل أنا مع صديقيكِ الطائرين.»

وما إن انفتح الغطاء للمرة الثالثة حتى كانت هناك ثرثرة في الوكر. بدأ ريتشارد في الحال يصرخ فيهما ويقذف بالأشياء السوداء أسفل الممر. فأصاب أحدها الدبابة الحارسة مما أحدث انفجارًا صغيرًا أشبه بطلق ناري.

صعد الطائران المألوفان إلى الفتحة وصرخا في ريتشارد. وكان خلفهما مباشرة ثلاثة أو أربعة من رفاقهما. ووصل الصراخ إلى أوجه. لم يتراجع ريتشارد. بل استمر يصرخ ويشير إلى شاشة الكمبيوتر. وأخيرًا، نجح في إثارة انتباهها.

شاهدت مجموعة الطيور الوصف المرسوم الذي يصور الرحلة عبر البحر. عندئذٍ أمسك ريتشارد بأحد الأحزمة في يده اليسرى وبدأ يشغل العرض الموجود على شاشته مرة أخرى. تلا ذلك حوار محموم بين الطيور. بيد أن ريتشارد شعر في آخر الأمر أنه قد خسر المعركة. وبينما طار الطائران الآخران فوق الدبابة الحارسة، هبط ريتشارد إلى الصخرة الأولى في الوكر. صرخ ريتشارد بأعلى صوته: «انتظرا.»

اندفع للأمام الطائر المرافق للطائر ذي الطبقة القطيفة السوداء، وكان منقاره الذي يثير الرعب لا يبعد عن وجه ريتشارد أكثر من متر. وكانت الضوضاء الناجمة عن كل الصراخ والثرثرة عظيمة حتى إنها تصم الآذان. وكان ريتشارد مثابرًا. فعلى الرغم من اعتراض الطائر له، هبط إلى الصخرة الثانية. والآن لن يكون بمقدوره الهروب إذا ما بدأ الغطاء ينغلق مرة أخرى.

رفع ريتشارد الحزام مرة أخرى وأشار إلى الشاشة. وجاء الرد على هيئة جوقة من الصرخات. بعدئذٍ سمع ريتشارد صوتًا يعلو صراخ الطيور، صوتًا أشبه بصوت إنذار الحرائق في المدارس أو المستشفيات. على الفور هدأت كل الطيور. سكنت كل الطيور في هدوء على الصخور ثم حملقوا لأسفل في الدبابة الحارسة.

كان الوكر هادئًا على خلاف العادة. بعد بضع ثوانٍ، سمع ريتشارد صوت رفرفة أجنحة وبعدها بثوانٍ معدودة ظهر طائر جديد في الممر العمودي. وأخذ يرتفع بتؤدة إلى

مستوى ريتشارد حتى صار قبالته. وكان يغطي جسمَ الطائر طبقةٌ قطيفة رمادية وهو ذو عينين رماديتَي اللون. وحول عنقه حلقتان سميكتان لونهما أحمر قانٍ.

أخذ المخلوق يتفرس في ريتشارد ثم هبط على الصخرة المقابلة عبر الممر. وعلى الفور انطلق الطائر الذي كان يوجد أولًا في هذه البقعة بعيدًا مفسحًا الطريق. وعندما تحدث الطائر ذو طبقة القطيفة الرمادية، كان صوته رقيقًا وواضحًا للغاية. بعدما أنهى الطائر حديثه حلق الطائر ذو طبقة القطيفة السوداء لأعلى إلى جانبه، ومن الواضح أنه أخذ يوضح سبب الاضطراب. وأخذ الطائران يحدقان في ريتشارد مرات عديدة. وفي المرة الأخيرة ظن ريتشارد أنه ربما يكون هز رءوسها هو بمنزلة إشارة له كي يتحدث، فأخذ يعرض مرة أخرى الرحلة الممثلة بالرسومات ورفع الحزام بيديه. فطار الطائر ذو الحلقات الحمراء إلى جانب ريتشارد لإلقاء نظرة من كثب.

تحرك الطائر حركة فجائية أرعبت ريتشارد حتى إنه كاد يقع من على الصخرة. وكتم كل صرخات الطيور كلمات قليلة من القائد الرمادي، الذي جلس هادئًا مدة دقيقة كما لو كان يفكر مليًّا في الأمر. أخيرًا أومأ الطائر القائد لريتشارد بأحد مخالبه، ثم فرد أجنحته العملاقة، وحلَّق خارج الفتحة إلى حيث ضوء النهار.

ظل ريتشارد بلا حراك مدة بضع ثوانٍ. حلَّق المخلوق الضخم لأعلى في السماء فوق الوكر وحالًا تبعه الطائران المألوفان. بعدها ببضع ثوانٍ ظهر رأس نيكول من الفتحة. وسألت ريتشارد: «هل ستأتي؟ لا أعلم كيف فعلتها، لكن الأمر يبدو كما لو أن أصدقاءنا مستعدون.»

الفصل الثاني والخمسون

رحلة رقم ٣٠٢

ربط ريتشارد الحزام بإحكام حول خصر نيكول ومؤخرتها. وقال لها: «سوف تتدلى قدماكِ، وفي البداية عندما تتمدد حبال الشباك سيبدو الأمر لكِ كما لو كنتِ تسقطين.»

سألته نيكول: «ماذا لو لمست الماء؟»

أجابها: «عليك أن تثقي في قدرة الطيور على التحليق عاليًا حتى إن هذا لن يحدث. أظن أنهم يتمتعون بذكاء كافٍ ولا سيما الطائر ذو الحلقات الحمراء.»

سألته نيكول وهي تعدل من وضع حزامها حتى يكون أكثر راحة لها: «أتعتقد أن هذا هو الملك؟»

أجابها ريتشارد: «ربما يكون مثيلهم. لقد أوضح من البداية أنه ينوي أن يطير في منتصف السرب.»

سار ريتشارد عبر المنحدر الشاهق الانحدار إلى الجدار حاملًا كل حبال الأحزمة بيديه. وكانت الطيور جالسة معًا في سكون تحملق في البحر. وقد أذعنت له وهو يربط الأحزمة حول منتصف جسدها، خلف الأجنحة مباشرة. ثم شاهدت شاشة الكمبيوتر؛ إذ عرض عليها مرة أخرى الرسومات التي توضح عملية الإقلاع. وكان من المفترض أن تنطلق الطيور معًا، وأن يسحبوا بتؤدةٍ حبال الحزام المربوطة فوق رأس نيكول مباشرة، ثم يرفعوها قبل أن يحلقوا شمالًا عبر البحر الأسطواني.

تأكد ريتشارد أن العُقد آمنة ثم رجع إلى جانب نيكول عند قاع المنحدر. وكانت نيكول على بعد خمسة أمتار فحسب من الماء. قال ريتشارد: «إذا حدث ولم تعد الطيور لالتقاطي، لا تنتظري للأبد. ما إن تجدي فريق الإنقاذ، فاركبي القارب الشراعي وتعالي. سأكون هناك بأسفل في الغرفة البيضاء.» أخذ ريتشارد نفسًا عميقًا. وقال: «أتمنى أن تكوني بخير يا حبيبتي.» ثم أضاف: «تذكري دائمًا أنني أحبكِ.»

أدركت نيكول من ضربات قلبها التي كانت تدق بعنف أن لحظة الإقلاع قد حانت أخيرًا. قبلت ريتشارد ببطء في شفته. وتمتمت قائلة: «وأنا أحبك.»

وعندما انفصلا عن العناق، لوح ريتشارد للطيور على الجدار. فارتفع الطائر ذو طبقة القطيفة الرمادية في الهواء بحذر، تبعه بعدها مباشرة رفيقاه. وحلقوا في سرب صغير فوق نيكول مباشرة. شعرت نيكول بالحبال الثلاثة تُشد بإحكام على جسدها وفي لمح البصر ارتفعت في الهواء.

بعد ثوانٍ، بعدما بدأ الحبل المطاطي في التمدد، شعرت نيكول أنها تتهاوى إلى الأرض مرة أخرى. حلقت الطيور لأعلى، عبر الماء، شعرت نيكول وكأنها لعبة اليويو، فهي ترتد لأعلى ولأسفل كلما تمدد الحبل ثم انكمش، ناهيك عن الرجفة التي كان تصيبها كلما حلقت الطيور فجأة إلى ارتفاع أعلى.

كانت رحلة طيران غاية في الإثارة. وكادت تلمس الماء في إحدى المرات وهي لا تزال قرب الشاطئ. وارتاعت قليلًا حينها، لكن الطيور رفعتها بسرعة قبل أن يبتل من جسدها شيء غير قدميها. وكان عندما يكتمل تمدد الحبل تصبح الرحلة سلسلة للغاية. جلست نيكول في حزامها، وكانت تحكم قبضتها على حبلين من الحبال الثلاثة، وقدماها متدليتان على ارتفاع ثمانية أمتار من قمة الأمواج تقريبًا.

أما منتصف البحر فقد كان ساكنًا للغاية. ونحو منتصف المسافة شاهدت نيكول جسمين ضخمين ولونهما أسود يسبحان تحتها بمحاذاة المسار الذي تحلق فيه. وكانت متيقنة أنهما قرشان آليان. وقد تبينت أيضًا اثنين أو ثلاثة كائنات أخرى في الماء، بما فيها شيء طويل ورفيع يشبه ثعبان الماء ارتفع عاليًا من البحر وأخذ يتتبعها في رحلتها. قالت نيكول في نفسها وهي تمسح البحر بعينيها: «حمدًا لله، أنا سعيدة قطعًا لأنني لم أسبح في البحر.»

وكانت عملية الهبوط سهلة. وكانت تخشى ألا تدرك الطيور أن ثمة جرفًا صخريًّا شاهقًا ارتفاعه خمسون مترًا في الجهة المقابلة من البحر. وما كان عليها لتقلق. فحينما بلغت الطيور يابسة نصف الأسطوانة الشمالي، زادت الطيور من ارتفاعها ببطء. أُنزلت نيكول بحذر شديد على ارتفاع نحو عشرة أمتار من الحافة.

هبطت الطيور الضخمة على مقربة. تخلصت نيكول من حزامها وسارت نحو الطيور. وشكرتها شكرًا جزيلًا وحاولت أن تربت على رءوسها، لكنها ارتجفت من لمستها. استراحت الطيور لبضع دقائق ثم، بناءً على إشارة من قائدهما، حلقت في طريق العودة عبر البحر إلى نيويورك.

شُدِهَت نيكول من شدة المشاعر التي تملكتها. حتى إنها انحنت وقبلت الأرض. وعندئذٍ فقط أدركت أنها لم تتوقع قط أن تخرج سالمة من نيويورك. وللحظة، قبل أن تبدأ في البحث عن فريق الإنقاذ باستخدام منظارها، استرجعت كل شيء قد حدث معها منذ عبورها المشئوم بناقل الطوارئ. قالت نيكول لنفسها: «لقد كان عمرًا آخر قبل نيويورك. الآن كل شيء قد تغير.»

فك ريتشارد الحزام من الطائر القائد وألقاه على الأرض. أصبحت كل الطيور حرة الآن. مد المخلوق ذو طبقة القطيفة الرمادية عنقه ليرى هل انتهى ريتشارد. وكان لون الحلقات الأحمر القاني أكثر وضوحًا في ضوء النهار المباشر. تساءل ريتشارد عن الحلقات وإلى ما ترمز، فقد كان يعلم أن ثمة احتمالًا كبيرًا ألا يرى هذه المخلوقات الغريبة الرائعة مرة أخرى.

اقتربت نيكول من ريتشارد وحضنته بقوة عندما هبط. حدقت الطيور فيهما بجرأة، مما يشير إلى فضولها. فكرت نيكول قائلة: «حتمًا هي أيضًا تتعجب منا.» وتخيل عالم اللغويات الموجود بداخلها كيف يكون الأمر فعليًّا عند التحدث لأجناس فضائية، وعندما يبدأ المرء في فهم كيف يعمل عقل مختلف اختلافًا كليًّا ...

سأل ريتشارد: «أتساءل كيف سنودعهم ونشكرهم.»

أجابته نيكول: «لا أعلم، لكن الأمر سيكون لطيفًا ...»

انقطعت نيكول عن الحديث كي تشاهد الطائر القائد. لقد دعا المخلوقين الآخرين أن يقتربا منه ثم وقفت ثلاثتها في مقابل ريتشارد ونيكول. وبناءً على إشارة منه، بسطت جميعها أجنحتها عن آخرها، وشكلت معًا دائرة. ثم لفت في دائرة كاملة وبعدها رجعت في خط مستقيم مقابل البشريين.

قالت نيكول لريتشارد: «هيا. يمكننا أن نقوم بذلك.»

وقفت نيكول وريتشارد جنبًا إلى جنب وأذرعهما ممتدة في مقابل أصدقائهما الطيور. عندئذٍ وضعت نيكول يديها على كتف ريتشارد وقادته في لفة دائرية. وقد تعثر ريتشارد الذي لم يكن رشيقًا للغاية غير أنه تمكن من إتمام الحركة. وخال لنيكول أن الطائر القائد كان باسمًا عندما وقفت هي وريتشارد في خط مستقيم.

أقلعت الطيور الثلاثة بعد ثوانٍ. وحلقت لأعلى وأعلى في السماء، حتى أصبحت على مرمى بصر نيكول. عندئذٍ مالت نحو الجنوب عبر البحر عائدة إلى وكرها.

همست نيكول بعدما رحلت الطيور: «حظًّا سعيدًا.»

لم يكن فريق الإنقاذ على مقربة من مخيم بيتا. في واقع الأمر، لم يرَ ريتشارد ونيكول أي أمارات على وجودهم على مدار مسيرة ثلاثين دقيقة بالطوافة على طول شاطئ البحر الأسطواني. تأفَّف ريتشارد: «هؤلاء الرجال أغبياء بحق. لقد كانت رسالتي في مكان ظاهر بمخيم بيتا. أيُعقَل أنهم لم يصلوا إلى هنا بعد؟»

ردت نيكول: «لا يزال هناك أقل من ثلاث ساعات على حلول الظلام. ربما عادوا إلى نيوتن بالفعل.»

قال ريتشارد: «إذن، تبًّا لهم. لنأكل القليل من الشمام ثم نتجه إلى التلفريك.»

سألته نيكول بعد بضع دقائق وهما يتناولان الطعام: «أترى أننا ينبغي أن نوفر أي شيء من الشمام؟» رمقها ريتشارد بنظرة متحيرة. فأردفت: «تحسبًا.»

أجابها ريتشارد: «تحسبًا لماذا؟ حتى وإن لم نعثر على فريق الإنقاذ الأخرق، وتحتم علينا صعود كل درجات السلم بأنفسنا، فإننا سنبقى بالخارج على درجات السلم حتى بعد حلول الظلام مباشرة. تذكري أننا سنصبح منعدمي الوزن مرة أخرى على قمة السلالم.»

ابتسمت نيكول. وقالت: «أظن أنني شديدة الحيطة بالفطرة.» ثم وضعت العديد من قطع الشمام في حقيبة ظهرها.

وكانا قد قطعا ثلاثة أرباع الطريق إلى التلفريك وسلالم محطة ألفا عندما عثرا على البشر الأربعة ببذل الفضاء. لقد بدا أنهم يغادرون مجمع المباني الذي جرى تصميمه ليكون مدينة باريس راما. وكانوا يسيرون في الاتجاه المقابل للطوافة.

تعجب ريتشارد: «لقد أخبرتك أن هؤلاء الرجال حمقى. هم لا يتمتعون بالبديهة حتى ينزعوا عنهم بذلاتهم الفضائية. حتمًا هم فريق خاص، أُرسل في مركبة نيوتن الاحتياطية للعثور علينا واستعادتنا.»

قاد ريتشارد الطوافة عبر السهل المركزي باتجاه البشريين. أخذ كلٌّ من ريتشارد ونيكول في الصياح عندما أصبحا على بعد مائة متر منهم؛ غير أن رجال الفضاء واصلوا سيرهم البطيء نحو الغرب. رجحت نيكول قائلة: «لعلهم لا يستطيعون سماعنا. فهم لا يزالون يرتدون خوذاتهم وأجهزة الاتصال.»

قاد ريتشارد المحبط الطوافة حتى أصبح على بعد خمسة أمتار من الطابور الذي يسيرون فيه، ثم أوقف الطوافة وقفز في عجالة. وركض بسرعة نحو القائد وهو يصرخ طوال الطريق: «يا أيها الرجال. نحن هنا، خلفكم. كل ما عليكم فعله هو أن تستديروا ...»

تجمد ريتشارد فجأة في مكانه وهو يحدق في الوجه الخالي من التعبيرات للرجل الموجود في الطليعة. لقد تحقق ريتشارد من وجهه. يا إلهي، إنه نورتون! فاقشعر بدن ريتشارد لا إراديًّا. استطاع ريتشارد بصعوبة بالغة أن يقفز من الطريق؛ إذ كان يسير الموكب المكون من الرجال الأربعة بتؤدة خلفه.

شُل ريتشارد من هول الصدمة، وفي عجالة تفرس الوجوه الثلاثة الأخرى، التي لم تتغير تعبيراتها وهم يسيرون. لقد كانوا ثلاثة رواد آخرين من طاقم رواد فضاء مركبة راما ١.

كانت نيكول إلى جانبه بعد لحظات من مرور الشخص الأخير به. قالت نيكول: «ما الخَطب؟ لماذا لم يتوقفوا؟» بهت وجه ريتشارد وتجمدت الدماء في عروقه. فقالت نيكول: «حبيبي، هل أنت بخير؟»

دمدم ريتشارد: «إنهم مخلوقات آلية. إنهم مخلوقات آلية بشرية ملعونة.»

ردت نيكول: «مااااااذا؟» وكانت هناك مسحة خوف في صوتها. ركضت سريعًا إلى طليعة الطابور وحملقت في الوجه المتواري خلف الخوذة الزجاجية. لقد كان نورتون بلا أدنى شك. كل ملامح الوجه وحتى لون العينين والشارب الخفيف، كانت هي نفسها بالتمام. لكن عينيه كانت تخلو من أي تعبيرات.

غير أنها لاحظت أيضًا أن حركة الجسم تبدو مصطنعة أيضًا. فقد كان كل زوج من الخطوات يتكرر بنفس النمط. كان هناك اختلاف طفيف فحسب بين حركة كل شخص وآخر. وقالت لنفسها: «ريتشارد محق. هذه مخلوقات آلية في صورة بشر. قطعًا جرى تقليدهم من الصور مثل معجون الأسنان والفرشاة.» تزايد الخوف في صدرها بصفة مؤقتة. قالت نيكول لنفسها في محاولة لتهدئة روعها: «لكننا لسنا بحاجة إلى فريق إنقاذ. فالسفينة العسكرية لا تزال راسية أعلى التجويف.»

كان ريتشارد مذهولًا من اكتشاف المخلوقات الآلية البشرية. لقد مكث في الطوافة بضع دقائق راغبًا عن القيادة، يسأل نفسه الأسئلة التي تجول بخاطره والأسئلة التي تطرحها نيكول التي ربما لن يجد لها إجابات. قال ريتشارد مرارًا وتكرارًا: «ما الذي يحدث هنا؟ هل كل هذه المخلوقات الآلية هي تقليد لأجناس حقيقية وُجدت في مكان ما في الكون؟ لكن لماذا صُنعت في المقام الأول؟»

قبل أن يقودا الطوافة إلى التلفريك، أصر ريتشارد على أن يصور كلاهما بالفيديو البشر الآليين لمدة دقائق عديدة. قال ريتشارد وهو يأخذ لقطة قريبة مميزة من حركة

أرجل نورتون: «الطيور وكائنات الأوكتوسبايدر مدهشة لكن هذا التسجيل سوف يفوق جميعها.»

ذكَّرته نيكول أنه لم يتبقَّ سوى وقت قليل لا يتجاوز الساعتين على حلول الظلام، ولا يزال يتحتم عليهما أن يرتقيا السلالم المهيبة. وعندما شعر ريتشارد بالرضا لتصويره الموكب الغريب لتشهده الأجيال القادمة، ركب الطوافة واتجه إلى سلالم ألفا.

ولم تكن هناك أي حاجة إلى أن يجري أي اختبارات ليرى هل يعمل التلفريك جيدًا، إذ كانت تعمل بالفعل عندما اقتربا منها. قفز ريتشارد من الطوافة وأسرع إلى غرفة التحكم.

قال ريتشارد وهو يشير إلى المقاعد: «شخص ما ينزل.»

قالت نيكول بحدة: «أو ربما شيء ما.»

وبدت الدقائق الخمسة التي انتظروا خلالها هبوط هذا الشخص وكأنها دهر. في البداية لم يقل أيٌّ من ريتشارد أو نيكول أي شيء. لكن ريتشارد اقترح بعدئذٍ أنه ربما ينبغي لهما أن يجلسا في الطوافة تحسبًا، فربما يحتاجان إلى الهروب السريع.

وجَّه كلٌّ منهما منظاره على السلك الطويل الممتد لأعلى في السماء. صرخت نيكول: «إنه إنسان!»

قال ريتشارد بعد لحظات معدودة: «إنه الجنرال أوتول!»

وقد كان هو بحق. الجنرال مايكل ريان أوتول، ضابط القوات الجوية الأمريكية، نازلًا عبر التلفريك. وكان لا يزال على ارتفاع بضع مئات من الأمتار فوق ريتشارد ونيكول، ولم يرهما بعد. فقد كان منهمكًا في النظر عبر منظاره للتأمل في جمال المناظر الفضائية من حوله.

وكان الجنرال أوتول يستعد لمغادرة راما للمرة الأخيرة، وبينما كان جالسًا على التلفريك، رأى ما قد يشبه ثلاثة طيور محلقة بعيدًا نحو الجنوب في سماء راما. وقرر الجنرال أن يعود ليرى هل بإمكانه العثور على هذه الطيور مرة أخرى. ولم يكن مستعدًّا للتحية المبهجة التي كانت بانتظاره لدى وصوله إلى أسفل.

الفصل الثالث والخمسون

الثالوث

عندما غادر ريتشارد ويكفيلد نيوتن لكي يرجع إلى داخل راما، كان الجنرال أوتول هو آخر أعضاء الطاقم الذين ودعهم. وقد كان الجنرال ينتظر في صبر حتى ينتهي الرواد الآخرون من محادثاتهم مع ريتشارد. وحينها قال جانوس تابوري لصديقه البريطاني: «هل أنت متأكد فعلًا من أنك تريد أن تفعل هذا؟ أنت تعلم أن اللجنة بأكملها عازمة على أن تعلن أن راما منطقة محظورة في غضون ساعات.»

ابتسم ريتشارد لجانوس: «عندها سأكون في طريقي إلى بيتا. ومن الناحية الفنية، لن أكون قد انتهكت أوامرهم.»

قاطعهم الفريق البحري هيلمان: «هذا هراء. أنا ودكتور براون المتوليان أمر هذه البعثة. وقد أخبرناك أن تمكث على متن نيوتن.»

قال ريتشارد بحزم: «وأنا أخبرتك مرارًا أنني قد تركت على متن راما بعض الأغراض الشخصية المهمة جدًّا لي. بالإضافة إلى أنك تعلم، كما أعلم أنا أيضًا، أنه لا توجد هنا أي واجبات ليقوم بها أي فرد منا على مدار اليومين القادمين. ففور أن يُتخذ قرار الإلغاء على نحو حازم، ستدخل كل أنشطة البرمجة الرئيسية المجدولة حيز التنفيذ على أرض الواقع. وسوف نُخبَر متى ننطلق ونتجه إلى الأرض.»

رد عليه أوتو هيلمان: «أود أن أذكرك مرة أخرى أنني أعتبر ما أنت عازم على فعله عصيانًا. وسوف أحاكمك عندما نعود إلى الأرض وأطالب بتوقيع أقصى عقوبة عليك ...»

قاطعه ريتشارد: «وفرها، يا أوتو، هلا فعلت؟» ولم تكن نبرة صوت ريتشارد تحمل أي ضغينة. عدَّل ريتشارد بذلة الفضاء وأخذ يرتدي خوذته. وكالمعتاد كانت فرانشيسكا تسجل المشهد بكاميرا الفيديو. وكانت تلتزم الصمت على خلاف العادة بعد الحديث

الخاص الذي جرى بينها وبين ريتشارد قبل ساعة. لقد بدت منعزلة كما لو كان ذهنها سابحًا في عالم آخر.

اتجه الجنرال أوتول نحو ريتشارد ومد يده إليه. وقال: «إننا لم نمضِ الكثير من الوقت معًا يا ويكفيلد، لكنني معجب بعملك. حظ طيب هناك. لا تقم بأي مخاطرات لا داعي لها.»

ذُهل ريتشارد من ابتسامة الجنرال الدافئة. لقد توقع أن يثنيه ضابط القوات الجوية الأمريكية عن عزمه على الرحيل. قال ريتشارد: «إن راما من الداخل خلابة يا جنرال. إنها أشبه بمزيج من الجراند كانيون وجبال الألب والأهرامات، جميعها مجتمعة معًا في مكان واحد.»

رد عليه أوتول: «لقد فقدنا بالفعل أربعة أفراد من الطاقم. أود أن أراك هنا مرة أخرى سالمًا ومعافًى. ليباركك الرب.»

انتهى ريتشارد من مصافحة الجنرال، ووضع خوذته ثم اتجه إلى غرفة معادلة الضغط. وبعد مرور بضع لحظات على رحيل ريتشارد، كان الفريق البحري هيلمان حانقًا على تصرف جنرال أوتول. فقال: «إنني منزعج منك مايكل. فقد يستخلص الشاب من وداعك الحار له أنك تؤيد بالفعل صنيعه.»

التفت أوتول إلى الفريق البحري الألماني. وقال: «ويكفيلد يتحلى بالشجاعة، يا أوتو. ويتمتع بالإيمان الراسخ أيضًا. إنه لا يخشى سكان راما ولا العقوبات التأديبية من جانب وكالة الفضاء الدولية. يُعجبني ذاك النوع من الثقة بالنفس.»

جاوبه هيلمان في سخط: «هذا هراء. ويكفيلد مجرد تلميذ متهور متغطرس. أتعلم ما الشيء الذي تركه داخل راما؟ زوج من شخصيات شكسبير الآلية. إنه لا يحب أن يتلقى الأوامر. لكنه يريد أن ينجز ما له الأولوية على جدول أعماله الشخصي.»

علقت فرانشيسكا: «هذا يجعله يتشابه معنا كثيرًا.» خيم الصمت على الغرفة للحظة. ثم قالت فرانشيسكا في نبرة منخفضة: «إن ريتشارد غاية في الذكاء. من المحتمل أن يكون لديه ذرائع للرجوع إلى راما لا يفهمها أحدنا.»

قال جانوس: «آمل فقط أن يعود قبل حلول الظلام كما وعد. لست متيقنًا من أنني أستطيع تحمل فقدان صديق آخر.»

سار الرواد عبر الدهليز إلى الرواق. سأل جانوس فرانشيسكا وهو يسير جانبها: «أين دكتور براون؟»

أجابته: «إنه مع ياماناكا وتورجينيف. يراجعون الواجبات التي يتسنى على الطاقم القيام بها لرحلة العودة. فنظرًا لوجود نقص في عددنا، علينا أن نتلقى تدريبات اللياقة البدنية قبيل الإقلاع.» ضحكت فرانشيسكا. ثم استرسلت: «لدرجة أنه سألني إن كان بمقدوري أن أكون مهندسة ملاحة احتياطية. أيمكنك تخيل هذا؟»

رد عليها جانوس: «بالطبع. من الممكن أن تتعلمي أيًّا من المهام الهندسية في هذه المرحلة.»

وكان هيلمان وأتول يسيران خلفهما متثاقلَي الخُطا في الممر. وعندما وصلا إلى القاعة التي تقود إلى غرف الطاقم الخاص، همَّ الجنرال أوتول بالرحيل. فقال له أوتول هيلمان: «لحظة من فضلك. أود أن أتحدث إليك بخصوص شيء آخر. لقد جعلني ويكفيلد اللعين أسهو عن ذلك الأمر. أيمكنك أن ترافقني إلى مكتبي لمدة ساعة تقريبًا؟»

قال أوتو هيلمان وهو يشير إلى الشفرة التي تم حل رموزها على الشاشة: «أساسًا، يُعد هذا تغيرًا كبيرًا في إجراءات الثالوث. وليس هذا بالأمر المفاجئ. فنحن الآن نعرف الكثير عن راما، ولك أن تتوقع أن يختلف انتشار القوات قليلًا.»

أجابه أوتول: «لكننا لم نتوقع البتة استخدام كل الأسلحة الخمسة. فالسلاحان الاحتياطيان لم يُحملا على متن السفينة إلا لكي يُستخدما في حالة إخفاق أحد الأسلحة. إن مثل هذه القوة الانفجارية التي تقدر بميجات الأطنان يمكنها أن تجعل من راما بخارًا.»

أجابه هيلمان: «وهذا هو المطلوب.» جلس هيلمان على مقعده وابتسم. ثم قال: «دعني أطلعك على سر. أعتقد أن ثمة الكثير من الضغط يقع على عاتق الفريق العام هناك في الأرض. وهذا يُعزى إلى أننا أبخسنا قدرات راما منذ البداية.»

سأله أوتول: «لكن لماذا يودون أن يضعوا أكبر سلاحين في ممر المعدية؟ بالطبع تستطيع قنبلة قوتها الانفجارية مليون طن أن تحقق النتيجة المرجوة.»

رد عليه: «ماذا لو لم تنفجر لسبب ما؟ ينبغي أن يكون هناك سلاح احتياطي.» ثم مال هيلمان للأمام بحماسة على مكتبه. واستطرد: «أرى أن هذا التغيير الحادث في الإجراءات يحدد بوضوحٍ الاستراتيجية. فسيضمن السلاحان الأخيران أن التكامل الهيكلي للمركبة قد دُمر تدميرًا كليًّا، مما يعد ضروريًّا لضمان أنه يستحيل على راما أن تناور مجددًا بعد الانفجار. أما القنابل الثلاثة الأخرى فسوف تُوزَّع حول الجزء الداخلي لتضمن أنه لم يتبقَّ أي جزء من راما سليمًا. وعلى نفس القدر من الأهمية، ينبغي أن تحدث الانفجارات في ظل تغيير كافٍ للسرعة حتى لا تصيب أي شظية متبقية الأرض.»

رسم الجنرال أوتول صورة في ذهنه للمركبة الفضائية العملاقة وهي تدمرها خمس قنابل نووية. لم تكن صورة مبهجة. ذات مرة، منذ خمس عشرة سنة، سافر هو وعشرون عضوًا آخرون من ضباط أركان مجلس الحكومات إلى جنوب المحيط الهادي لمراقبة انفجار سلاح قوته مائة ألف طن. وأقنع المهندسون بمجلس الحكومات القادة السياسيين والإعلام العالمي أن «إجراء اختبار نووي أمر ضروري كل عشرين عامًا تقريبًا» لضمان أن كل الأسلحة القديمة سوف تنفجر بالفعل عند الطوارئ. وشاهد أوتول وفريقه التجربة، على ما يبدو لتعلم أكبر قدر ممكن عن آثار الأسلحة النووية.

غاص الجنرال أوتول في ذكرياته، ليعيد إلى ذهنه الخوف الذي جعل بدنه يقشعر من جراء إطلاق القذيفة في السماء الصافية لجنوب المحيط الهادئ. حتى إنه لم يشعر بأن الفريق البحري هيلمان كان يسأله سؤالًا. قال أوتول: «أستميحك عذرًا أوتو، كنت أفكر في شيء آخر.»

رد عليه هيلمان: «كنت أسألك كم سيستغرق الأمر في رأيك حتى يتسنى الحصول على الموافقة على الثالوث.»

أجابه أوتول في دهشة: «أتقصد في حالتنا هذه؟»

رد عليه هيلمان: «بالطبع.»

أجابه أوتول في عجالة: «لا يمكنني أن أتصور ذلك. لقد أُدرجت الأسلحة ببيان شحنة المركبة، كي تستخدم فقط للحماية ضد الأعمال العدائية الصريحة لسكان راما. أنا حتى أتذكر السيناريو الأساسي، ألا وهو هجوم المركبة الفضائية على الأرض دون سبب، باستخدام أسلحة عالية التقنية تفوق قدراتنا الدفاعية. أما الموقف الحالي فهو مختلف تمام الاختلاف.»

حدق الفريق البحري الألماني في زميله الأمريكي. ثم قال: «لم يتصور أحد قط أن تدخل المركبة الفضائية راما في مسار التصادم مع الأرض. إذا لم تنحرف عن مسارها، فسوف تحدث ثقبًا هائلًا في السطح وتسبب اضطرابًا عظيمًا حتى إن درجات الحرارة سوف تنخفض في كل أنحاء العالم على مدار عدة سنوات ... على الأقل، هذا ما قاله العلماء.»

جادله أوتول: «لكن هذا منافٍ للعقل. لقد سمعت كل المناقشة التي دارت أثناء المؤتمر الهاتفي. ما من إنسان متعقل يمكنه أن يصدق أن راما سوف تصدم الأرض بالفعل.»

رد عليه: «التصادم هو أحد السيناريوهات المفجعة فحسب. ماذا كنت ستفعل إن كنت رئيس أركان؟ تدمير راما الآن هو حل آمن. لن يتضرر أحد في شيء.»

استأذن مايكل أوتول الذي كان من الواضح أنه صُدم من الحوار مع الفريق البحري هيلمان واتجه إلى غرفته. ولأول مرة منذ انضمامه لبعثة نيوتن يفكر أوتول في أنه قد يتلقى أوامر أن يستخدم شفرة الآر كيو الخاصة بتشغيل الأسلحة. ولم يفكر أوتول قط لحظة واحدة في أن القنابل الموجودة في الحاويات المعدنية بمؤخرة المركبة العسكرية لا تزيد عن كونها مهدئًا لمخاوف الساسة المدنيين.

جلس أوتول المهموم أمام جهاز الكمبيوتر وأخذ يتذكر كلمات أرماندو أوربينا، ناشط السلام المكسيكي، الذي كان يؤيد تدمير مستودع الأسلحة النووية الخاص بمجلس الحكومات تدميرًا كليًّا. قال السيد أرماندو: «كما رأينا في كلٍّ من روما ودمشق، إذا وُجدت الأسلحة في المتناول، فلسوف تُستخدم. ولو مُحيت الأسلحة على الإطلاق، لضمنا أن البشرية لن تعاني مجددًا الرعب الناجم عن التدميرات النووية.»

لم يرجع ريتشارد ويكفيلد قبل حلول ظلام راما. ومنذ أن تسبَّب الإعصار في قطع الاتصال عن محطة الاتصالات بمخيم بيتا (وقد رصدت المركبة الفضائية نيوتن انهيار البحر الأسطواني وبداية الإعصار من خلال تقنية القياس عن بعد التي رصدتها محطة بيتا قبل أن تتعطل)، أصبح ريتشارد خارج نطاق تغطية الاتصالات عندما كان في منتصف الطريق عبر السهل المركزي. وكان اتصاله الأخير بجانوس تابوري الذي تطوع بأن يشغل جهاز الاتصال، يشير إلى أنه ويكفيلد بنفسه بلا جدال. وبينما كانت الإشارة القادمة من داخل راما تتلاشى، سأله جانوس بنبرة مرحة كيف يريد أن يتذكره «معجبوه» إذا ابتلعه وحش المجرة العظيم.

صرخ ريتشارد في جهاز الاتصال: «أخبرهم أنني أحببت راما، ليس حبًّا عاديًّا بل حبٌّ جنوني.»

تعجب أوتو هيلمان: «ما هذا؟» وكان الفريق البحري قد جاء باحثًا عن جانوس ليناقش معه مشكلة هندسية في نيوتن.

قال جانوس وهو يحاول دون جدوى أن يغلق الإشارة مرة أخرى: «لقد قتلها.»

رد عليه ريتشارد: «من قتل من ... عمَّ تتحدث؟»

أجابه جانوس وهو يلف بمقعده الدوار ثم يقفز في الهواء: «لا عليك، إنه أمر تافه. الآن، ما الذي يمكنني أن أقدمه لك يا سيادة الفريق البحري؟»

ولم يُؤخذ أمر عدم رجوع ريتشارد محمل الجد إلا بعد مرور بضع ساعات بعد فجر راما التالي. وقد أقنع سائر الرواد الباقين على متن نيوتن أنفسهم الليلة السابقة، أن

ويكفيلد قد انخرط في بعض المهام («ربما انخرط في إصلاح محطة اتصالات بيتا» كما اقترح جانوس)، وأنه لم يشعر بمرور الوقت وقرر ألا يركب التلفريك وحده في الظلام. لكن عندما لم يعد ويكفيلد في الصباح، بدأ يغلب طابع الكآبة على الحوار الجاري بين أفراد الطاقم.

قطعت إيرينا تورجينيف الصمت الذي ساد العشاء: «لا أعلم لمَ لا نسلم بالأمر الواقع. ويكفيلد لن يعود أيضًا. فما ألمَّ بتاكاجيشي ونيكول ألمَّ به بالمثل هو الآخر.»

رد عليها جانوس بانفعال: «هذا سخف يا إيرينا.»

فقالت له: «عجبًا. هذا ما تقوله دائمًا. في بادئ الأمر عندما تقطع الجنرال بورزوف إربًا إربًا. ثم الحادثة التي هاجمت فيها السرطانات الآلية ويلسون. وبعدها اختفاء الرائدة نيكول في درب ...»

صرخ جانوس: «مصادفة. كلها مجرد مصادفات!»

صرخت إيرينا فيه: «أنت غبي يا جانوس. أنت تثق في كل الناس وفي كل شيء. ينبغي أن نطيح بهذا الشيء الملعون قبلما يفعل المزيد ...»

صرخ ديفيد براون بصوت مرتفع، عندما احتد النقاش بين الزميلين السوفيتيين: «صه، صه كلاكما!»

أضاف جنرال أوتول: «حسنًا. نحن جميعًا متوترون قليلًا الآن. لا حاجة للنزاع.»

سأل جانوس المنفعل: «هل سيذهب أحد للبحث عن ريتشارد؟» ولم يكن جانوس يوجه سؤاله لأحد بعينه.

ردت إيرينا: «ومن الذي جُن حتى ...»

قاطعها الفريق البحري هيلمان بحزم: «لا. لقد أخبرته أن زيارته غير مصرح بها، وإننا لن نذهب سعيًا وراءه تحت أي ظرف. علاوة على أن دكتور براون والطيارين أخبروني أننا يمكننا أن نقود بشق الأنفس مركبتي نيوتن إلى الأرض من خلال القوى البشرية المتبقية، وكان تحليلهم يفترض وجود ويكفيلد معنا. لذا، لا نستطيع خوض المزيد من المخاطرات.»

هيمن صمت كئيب على طاولة العشاء. ثم قال ديفيد براون وهو يقف إلى جانب مقعده: «لقد نويت أن أخبركم جميعًا بالخبر التالي عندما نفرغ من تناول العشاء، لكن يبدو لي أنكم سوف تستقبلون أخبارًا سارَّةً الآن. لقد تلقينا الأوامر منذ ساعة. سنغادر إلى الأرض في فترة أقصاها ١٤ يومًا، أي ما ينيف على أسبوع من الآن. ومنذ الآن وحتى

ذلك الحين سوف ندرب العاملين، ونأخذ قسطًا من الراحة استعدادًا لرحلة العودة إلى الأرض، ونتأكد من أن كل الأنظمة الهندسية في نيوتن تعمل جيدًا.»

صرخ الرواد تورجينيف وياماناكا وفرانشيسكا تعبيرًا عن موافقتهم. تساءل جانوس: «إذا كنا عازمين على الرحيل دون الرجوع إلى راما، فإذن لمَ كل هذا الانتظار؟ بالتأكيد يمكننا أن نجري الاستعدادات الكافية في غضون ثلاثة أيام أو أربعة.»

رد عليه دكتور براون: «على حد علمي زميلانا العسكريان لديهما مهمة خاصة سوف تشغل معظم وقتهما — ووقت البعض منا — على مدار معظم الأيام الثلاثة القادمة.» ثم نظر إلى أوتو هيلمان وسأله: «أتود أن تخبرهم؟»

وقف الفريق البحري هيلمان في مكانه. وقال بصوت رنان: «أود أن أناقش التفاصيل أولًا مع الجنرال أوتول. ثم سنشرح الأمر للجميع في الصباح.»

ولم يكن أوتول في حاجة أن يريه أوتو هيلمان الرسالة التي تلقاها قبل عشرين دقيقة فحسب. لقد كان يعلم مضمونها. وطبقًا للإجراءات، كان هناك ثلاث كلمات فحسب: «نفذ عملية الثالوث.»

الفصل الرابع والخمسون

بطل سابق

لم يستطع مايكل أوتول أن يذوق للنوم طعمًا. وأخذ يتقلب في فراشه، واستمع إلى الموسيقى المفضلة إليه، وأخذ يعاود سماع ترنيمة «السلام عليكِ يا مريم» والصلاة الربانية «أبانا الذي في السموات» مرارًا وتكرارًا. ولم يُجدِ معه شيء. وكان يرنو إلى أي شيء يلهيه ويجعله ينسى مسئولياته ويمنح روحه بعض السكينة.

«نفذ عملية الثالوث.» هكذا قال لنفسه أخيرًا، مركزًا على السبب الحقيقي وراء انزعاجه. ماذا يعني هذا بالضبط؟ استخدام الرافعة الآلية، وفتح الحاويات، وإخراج الأسلحة (التي كانت في حجم الثلاجات)، واختبار الأنظمة الفرعية، ووضع القنابل في الحجرة المخصصة لنقل الطاقم، وحملها إلى غرفة معادلة الضغط براما، ونقلها إلى مصعد الأحمال الثقيلة ...

قال أوتول لنفسه: «وماذا أيضًا؟» ثمة شيء آخر. لن يستغرق أكثر من دقيقة مع كل سلاح، لكنه أمر ذو أهمية قصوى. فكل قنبلة لها زوج من لوحات المفاتيح الرقمية الصغيرة جدًّا على جانبها. وكان عليه هو والفريق البحري هيلمان أن يستخدما لوحات المفاتيح لإدخال سلسلة خاصة من الأرقام، يُطلق عليها شفرة الآر كيو قبل تشغيل الأسلحة. ودون هذه الشفرات تظل القنابل خاملة إلى الأبد.

وقد رنَّت أصداء المناقشات الأولى بشأن إدراج الأسلحة النووية أو عدم إدراجها ضمن بيان شحنة مؤن نيوتن المحدودة، عبر ممرات مقر قيادة مجلس الحكومات العسكري في أمستردام على مدار أسابيع عديدة. وكانت نتائج التصويت الذي أعقب ذلك متقاربة. واتُّخذ القرار بأن تحمل نيوتن الأسلحة النووية؛ ولكن ولكي يهدئوا من روع الكثيرين، قُرر أن تطبق إجراءات سلامة مشددة للحماية من الاستعمال غير الآمن.

وفي الاجتماع نفسه، قررت القيادة العسكرية لمجلس الحكومات أن تتحاشى احتجاج الجماهير من خلال التعتيم الكامل والشديد على حقيقة أن نيوتن تحمل على متنها قنابل نووية في موعدها مع راما. وحتى الأعضاء المدنيون لطاقم راما لم يتم تبليغهم بأمر الأسلحة.

وكان فريق العمل الذي يتكتم أمر إجراءات سلامة الثالوث التقى سبع مرات في أربعة أماكن مختلفة حول العالم قبل إقلاع نيوتن. ولجعل عملية الانتشار محصنة ضد المدخلات الإلكترونية غير المتوقعة، اختيرَت طريقة عمل يدوية لتشغيل الأسلحة النووية. ومن ثَم لا يتسنى لشخص مجنون على الأرض أو حتى رائد مذعور على متن نيوتن أن ينفذ العملية عن طريق إدخال بعض الأوامر الإلكترونية البسيطة. وقد أعرب رئيس الأركان الحالي لمجلس الحكومات، وهو رجل متقد الذكاء وصارم ولكنه عديم العاطفة يُدعى كازو نوريموتو، عن مخاوفه أنه دون خاصية الأمر الإلكتروني، ستكون القوات العسكرية في حاجة إلى الاعتماد الكلي على الرواد المنتقين في هذه البعثة. غير أنه أُقنع أنه من الأفضل أن يعتمد على الضباط العسكريين الموجودين على متن نيوتن بدلًا من أن يقلق بشأن أن تقع شفرة التشغيل في يد شخص إرهابي متعصب.

لكن ماذا لو استبد الهلع بأحد الضباط العسكريين على متن مركبة نيوتن؟ كيف يمكن حماية النظام إذا شنَّ أحد أفراد الطاقم الحرب النووية دون الرجوع إلى أحد؟ وعندما انتهت كل المحادثات، كان نظام الأمان الناتج بسيطًا نسبيًّا. ينضم إلى الطاقم ثلاثة ضباط عسكريين. كل واحد منهم لديه شفرة آر كيو خاصة به لا يعرفها أحد سواه. وعند الإدخال اليدوي لأي تسلسلين رقميين من التسلسلات الثلاثة الطويلة، تُغذي الأسلحة النووية. ومن ثَم أصبح النظام محميًّا ضد أي ضابط متمرد أو أي ضابط مذعور. ومن ثَم أصبح النظام مضمون الفاعلية.

قال أوتول في نفسه وهو مستلقٍ في سريره: «لكن موقفنا الحالي لم يُوضع قط في الحسبان خلال عملية تحليل الاحتمالات. ففي حال حدوث أي إجراءات خطيرة، سواء أكانت عسكرية أم غير ذلك، كان من المفترض أن يُعين كل واحد منا شخصًا بديلًا ليحفظ شفرتنا. لكن من خطر بباله أن استئصال الزائدة الدودية سيكون خطيرًا؟ لقد ماتت شفرة الآر كيو الخاصة بفاليري معه. مما يعني أن النظام يتطلب الآن التسلسلين المتبقيين فحسب.»

انقلب أوتول ليستلقي على بطنه ودفن وجهه في الوسادة. فالآن أدرك بوضوح لمَ لمْ يستطِع أن يخلد إلى النوم. قال أوتول في نفسه: «إذا لم أدخل شفرتي، فلن يمكن

استخدام هذه القنابل.» وتذكر أوتول إحدى المرات التي كان يتناول فيها الغداء مع فاليري بورزوف وأتو هيلمان في أثناء الإقلاع على متن المركبة العسكرية نحو راما. مزح الجنرال السوفييتي: «إنها مجموعة جيدة من الضوابط والموازنات، وربما اضطلعت بدور في عملية انتقائنا الفردية. فأوتو هيلمان سوف يطلق القذيفة عند أول تحريض له، وأنت يا مايكل سوف تستاء للأمر من الناحية الأخلاقية حتى لو كانت حياتك عرضة للخطر. أما أنا فمن سيرجح كفة أحدكما على الآخر.»

قال الجنرال أوتول لنفسه: «لكنك ميت الآن، وقد أُمرنا أن نُفعِّل القنابل.» ثم نهض من فراشه وسار نحو مكتبه، وكما كان يفعل طوال حياته كلما واجه قرارًا قاسيًا، أخرج مفكرة إلكترونية من جيبه وأعد قائمتين قصيرتين، تلخص إحداهما ذرائع اتباع أوامر تدمير راما والأخرى تعرض الحجج التي يمكن أن تفند هذه الذرائع. ولم يكن لديه حجج منطقية واضحة لمخالفة أمر التدمير يمكن أن يركن إليها؛ فالمركبة العملاقة هي غالبًا آلة جامدة، وزملاؤه الثلاثة تقريبًا صاروا في عداد الموتى، علاوة على أن هناك خطرًا ضمنيًّا جسيمًا على كوكب الأرض. لكن أوتول لا يزال متحيرًا. ثمة شيء ما بشأن اقتراف مثل هذا الجرم الفاضح جعله مضطربًا.

عاد أوتول إلى فراشه وانقلب على ظهره، وصلى وهو يحملق بالسقف: «يا إلهي، كيف لي أن أدرك ما الصواب في هذا الموقف؟ أرجوك أنِر لي الدرب.»

بعدما رن منبه الاستيقاظ بثلاثين ثانية فحسب، سمع أوتو هيلمان طرقًا خافتًا على بابه. دخل الجنرال أوتول بعد بضع ثوانٍ. وكان الرجل الأمريكي مستعدًّا لاستقبال يومه. قال الفريق البحري هيلمان وهو يعد قدح القهوة التي كانت تسخن آليًّا بالفعل منذ خمس دقائق: «لقد استيقظت مبكرًا، يا مايكل.»

رد عليه أوتول بلطف: «أردت أن أتحدث إليك.» وانتظر بلطف حتى التقط هيلمان عبوة القهوة.

سأله الفريق البحري: «ما الأمر؟»

أجابه عليه: «أريدك أن تلغي اجتماع هذا الصباح.»

رد عليه هيلمان: «لماذا؟ نحن نحتاج بعض المساعدة من باقي أفراد الطاقم، كما ذكرنا الليلة المنصرمة. وكلما تأخرنا في بدء العملية، تأجل رحيلنا.»

قال أوتول: «إنني غير مستعد بعد.»

عبس وجه الفريق البحري هيلمان. واحتسى رشفة كبيرة من قدح القهوة ثم تفرس في رفيقه. وقال: «أفهم ذلك جيدًا. وماذا تحتاج أيضًا قبل أن تصبح مستعدًّا؟»

أجابه: «أود التحدث إلى شخص ما، ربما إلى الجنرال نوريموتو، لعلي أفهم لماذا ننوي تدمير راما. أعلم أننا تحدثنا بهذا الصدد البارحة، لكنني أريد أن أسمع السبب من الشخص الذي أصدر الأمر.»

رد عليه أوتو: «يتوجب على الضابط العسكري أن يتبع الأوامر. وطرح أسئلة قد يُنظر إليه على أنه خرق للنظام ...»

قاطعه أوتول: «أعي كل ذلك، أوتو، لكن هذه ليست ساحة المعركة. أنا لا أرفض الانصياع للأوامر. أود فقط أن أتأكد ...»

انقطع أوتول عن الحديث وأخذ يحدق بعيدًا في الفضاء.

فسأله هيلمان: «تتأكد من ماذا؟»

أخذ أوتول نفسًا عميقًا: «أتأكد من أنني أفعل الصواب.»

رُتب مؤتمر فيديو مع نوريموتو وأُرجئ اجتماع فريق نيوتن. ولما كان المؤتمر منعقدًا في منتصف الليل في أمستردام، كان الأمر يستغرق بعض الوقت إلى أن يُترجم البث المنقول في شكل رموز ويُقدم إلى رئيس الأركان. وطلب الجنرال نوريموتو كعادته بضع ساعات أخرى حتى يجهز إجابته، ومن ثَم يتسنى له أن يحصل على «إجماع آراء الفريق» حول ما سيقوله لأوتول.

وكان الجنرال أوتول والفريق البحري هيلمان يجلسان معًا في مركز تحكم مركبة نيوتن العسكرية عندما بدأ البث من نوريموتو. وكان الجنرال نوريموتو مرتديًا زيه العسكري الكامل. ولم يبتسم عندما حيا ضباط نيوتن. وارتدى نظارته ثم أخذ يقرأ من نص مُعد مسبقًا.

قال جنرال نوريموتو: «أيها الجنرال أوتول، لقد اطلعنا بعناية على الأسئلة التي طرحتها في البث الأخير الذي وصل منك. كل مخاوفك كانت مأخوذة بعين الاعتبار في قائمة القضايا التي نُوقشت هنا على الأرض قبلما نصل إلى قرار متابعة عملية الثالوث. وفي ظل الشروط الخاصة المنصوص عليها في برتوكولات الإدارة الخاصة بوكالة الفضاء الدولية ومجلس الحكومات، أنت الآن والعاملون العسكريون الآخرون الموجودون على متن نيوتن تعملون مؤقتًا كجزء من فريقي الخاص، وعليه أنا قائدك الآن. وينبغي أن تتعامل مع الرسالة التي تسلمتها كأمر عسكري.»

تمكن الجنرال نوريموتو من رسم البسمة على وجهه بصعوبة. ثم استرسل في قراءته: «لكن نظرًا لأهمية الفعل المتضمن في طلبك واهتمامك الواضح بأصدائه، أعددنا ثلاث جمل ملخصة قد تساعدك على فهم أسباب قرارنا:

أولًا: نحن لا نعلم إذا كانت راما معادية أم مسالمة. وما من طرق أخرى للحصول على المزيد من المعلومات لحل المسألة.

ثانيًا: تندفع راما بعنف نحو الأرض. وقد تتصادم مع كوكبنا، أو قد تقوم بموقف عدائي ما إن تصبح في حيز كوكبنا، أو حتى قد تقوم بأعمال حميدة لا نستطيع أن نحدد كنهها نحن.

ثالثًا: من خلال تنفيذ عملية الثالوث عندما تكون راما لا تزال على بعد عشرة أيام أو أكثر، يمكننا أن نضمن أمن كوكبنا بغض الطرف عن نوايا راما المستقبلية أو أفعالها فيما بعد.»

توقف الجنرال لحظات قصيرة. ثم اختتم حديثه بقول: «هذا كل ما في الأمر. نفذ عملية الثالوث.»

اسودَّت الشاشة. فسأله الفريق البحري هيلمان: «هل أنت راضٍ الآن؟»

تنهد أوتول: «أظن ذلك. لم أسمع أي شيء جديد، لكن ما كان ينبغي لي أن أتوقع أي شيء آخر.»

نظر الفريق البحري هيلمان في ساعته. وقال: «لقد أضعنا يومًا كاملًا تقريبًا. ألا ينبغي أن نعقد اجتماع الطاقم بعد العشاء؟»

رد عليه أوتول: «لا أحبذ الأمر. لقد استنزفني هذا الحدث وأنا لم أنم الليلة المنصرمة إلا أقل القليل. أفضل أن ننتظر حتى الصباح.»

أجابه هيلمان بعد تردد قليل: «حسنًا.» ثم نهض ووضع ذراعه على كتف أوتول. وقال: «سوف نعقد الاجتماع كأول شيء نقوم به بعد الإفطار.»

في الصباح لم يحضر جنرال أوتول اجتماع الطاقم المحدد سلفًا. لقد اتصل بهليمان وطلب منه أن يواصل النقاش دونه. وكانت حجته أنه مصاب «باضطراب شديد في المعدة.» وقد أرتاب بشأن ما إذا كان الفريق البحري هيلمان قد صدق حجته، لكنه لم يأبه للأمر.

شاهد أوتول الاجتماع وسمعه على شاشة مؤتمر الفيديو من غرفته، لكنه لم يقاطعهم قط أو يُضِف أي شيء على الإجراءات المتخذة. ولم يبدُ أن أحد الرواد الآخرين قد صُعق

بوضوح عندما علم أن نيوتن تحمل على متنها مستودع أسلحة نووية. ونجح هيلمان في شرح ما الذي يُفترض فعله. وقد طلب الاستعانة بكل ياماناكا وتابوري كما ناقش هو وأوتول، وذكر باختصارٍ تسلسل الأحداث الذي يجب أن ينتهي بالأسلحة منتشرة داخل راما في غضون اثنتين وسبعين ساعة. وهذا من شأنه أن يتيح للطاقم مدة ثلاثة أيام أخرى للاستعداد للرحيل.

وعندما انتهى الفريق البحري هيلمان من حديثه، سأله جانوس تابوري بحدة: «متى ستنفجر القنابل؟»

فرد عليه: «سوف تُضبط على أن تنفجر بعد مرور ستين ساعة على رحيلنا المقرر. ووفقًا للنماذج التحليلية، ينبغي أن نكون خارج نطاق الحطام في غضون اثنتي عشرة ساعة، لكن من أجل السلامة حددنا في إجراءاتنا، ألا تنفجر الأسلحة إلا بعد أن نصبح على بعد أربع وعشرين ساعة على الأقل ... وإذا تعطل رحيلنا بسبب وقوع أزمة ما، يمكننا أن نغير توقيت الانفجار عن طريق أمر إلكتروني.»

قال جانوس: «هذا مُطَمئن.»

سأل هيلمان: «هل هناك أي أسئلة أخرى؟»

قال جانوس: «سؤال واحد فحسب. ما دمنا سنذهب إلى داخل راما لنضع هذه الأشياء في مكانها المناسب، أفترض أنه من الأفضل أن نبحث عن أصحابنا المفقودين. تحسبًا أن يكونوا يتجولون ...»

رد عليه الفريق البحري: «وقتنا محدود للغاية أيها الرائد تابوري، وعملية نشر الأسلحة ذاتها بداخل راما لا تستغرق سوى ساعات قلائل. وللأسف، نتيجة لتأخرنا في بدء اتخاذ الإجراءات، سوف نضع الأسلحة في مواقعها المخصصة في أثناء فترة الظلام براما.»

قال أوتول لنفسه وهو في غرفته: «عظيم، وهذا شيء آخر يمكن أن يؤخذ عليَّ.» ولكنه شعر في مجمل الأمر أن الفريق البحري هيلمان قد أدار الاجتماع جيدًا. أخبر أوتول نفسه: «لقد أحسن أوتول الصنيع عندما لم يقل شيئًا بشأن الشفرة. ربما يتوقع أنني سوف آتي. وربما يكون محقًّا.»

عندما استيقظ أوتول من قيلولته، كان وقت الغداء قد مر، وكان جائعًا جوعًا ضاريًا. وعندما ذهب إلى غرفة الطعام لم يجد أحدًا بها سوى فرانشيسكا ساباتيني؛ كانت تنتهي

من احتساء قهوتها وتدرس بعض البيانات الهندسية على شاشة جهاز الكمبيوتر الخاص بها.

قالت فرانشيسكا عندما رأته: «أتشعر بتحسن، الآن يا مايكل؟»

أومأ أوتول برأسه بالإيجاب. ثم سألها: «ماذا تقرئين؟»

أجابته فرانشيسكا: «هذا كُتيب البرمجة التنفيذية. ديفيد قلق للغاية بشأن غياب ويكفيلد؛ إذ يرى أنه من دونه لن نعلم إذا كانت برمجة نيوتن تعمل جيدًا بالفعل أم لا. لذا أتعلم الآن كيف أقرأ مخرجات اختبار التشخيص الذاتي.»

أطلق أوتول صفيرًا قائلًا: «عجبًا. هذا أمر شاق للغاية على صحفية.»

ضحكت فرانشيسكا وقالت: «إنه ليس بهذا القدر من التعقيد. كما أنه منطقي للغاية. ربما سأصبح مهندسة في حياتي المهنية القادمة.»

صنع أوتول لنفسه شطيرة، والتقط عبوة لبن، وانضم إلى فرانشيسكا على الطاولة. وضعت فرانشيسكا يدها على ساعده. ثم قالت: «بالحديث عن المهن القادمة، هل لديك أي أفكار بشأن حياتك المهنية القادمة، يا مايكل؟»

نظر إليها متسائلًا. ثم قال: «عمَّ تتحدثين؟»

أجابته: «أنا واقعة في فخ المعضلة المهنية المعتادة يا صديقي العزيز. فواجباتي كصحفية تتصارع صراحة مع مشاعري.»

توقف أوتول عن المضغ. وقال: «هل أخبرك هيلمان؟»

أومأت برأسها. وقالت: «لست غبية يا مايكل. كنت سأعرف عاجلًا أو آجلًا. وهذه قصة هائلة للغاية. وربما تكون من أهم أحداث هذه البعثة. ألا تشاهد عناوين الأخبار كل ليلة؟ «جنرال أمريكي يرفض الانصياع للأوامر بتدمير راما.» يمكنك أن تشاهدها في أخبار الخامسة.»

أخذ الجنرال يدافع عن نفسه. فقال: «أنا لم أرفض. إن إجراءات الثالوث لا تتطلب مني أن أدخل شفرتي حتى خروج الأسلحة من الحاويات …»

أكملت فرانشيسكا الجملة: «… وحتى تكون جاهزة لوضعها في الكبسولات. وهو الأمر الذي سيستغرق ثماني عشرة ساعة من الآن. صباح الغد على حد تصوري … أنوي أن أكون جاهزة لتسجيل الحدث التاريخي.» ثم قامت فرانشيسكا من على الطاولة واستطردت قائلة: «مايكل، إن كنت تتساءل بداخلك هل أذعتُ الأمر، أود أن أخبرك أنني لم أذكر شيئًا عن مكالمتك مع نوريموتو في أيٍّ من تقاريري. قد أشير إلى حوارك معه في مذكراتي، لكنني لن أنشرها قبل خمس سنوات على الأقل.»

استدارت فرانشيسكا ونظرت مباشرة في عينَي أوتول. وقالت: «أنت على وشك أن تتحول بين ليلة وضحاها من كونك بطلًا دوليًّا إلى سفيه. آمل أن تضع جيدًا نصب عينيك عواقب قرارك.»

الفصل الخامس والخمسون

صوت مايكل

قضى الجنرال أوتول فترة الأصيل في غرفته، يشاهد التلفزيون في حين كان تابوري وياماناكا يتفقدان الأسلحة النووية. وقد اعتذر عن أداء المهمة المُكلف بها وهي اختبار نظم الأسلحة متذرعًا بحجة استمرار اضطرابات معدته. وكانت الإجراءات بسيطة للغاية، وفي الواقع لم يتخيل أحد أن هذه الأسلحة قد صُممت خصيصى لتدمير أكثر الأعمال الهندسية التي سبق أن شاهدها البشر روعة.

وقبل العشاء طلب أوتول إجراء مكالمة مع زوجته. وكان الاتصال بين نيوتن والأرض يصل سريعًا الآن، وأصبح وقت التأخير بين البث والاستقبال أقل من ثلاث دقائق. وأصبحت المحادثة التقليدية الجارية بين طرفين ممكنة مرة أخرى. وكان حديثه مع كاثلين وديًّا وتقليديًّا. وفكر الجنرال أوتول لفترة وجيزة في مشاركة زوجته بالمشكلة الأخلاقية التي تواجهه، لكنه أدرك أن مكالمة الفيديو غير آمنة فعدل عن الفكرة. وقد أعرب كلٌّ منهما عن توقه الشديد للالتقاء مرة أخرى في القريب العاجل.

تناول الجنرال العشاء مع أفراد الطاقم. وكان جانوس في أكثر حالاته المزاجية تأججًا، فكان يسلي الآخرين بقصصه عن الأمسية التي قضاها مع «الرصاصات»، وهو اللقب الذي أصر أن يطلقه على القذائف النووية. وقد أخبر فرانشيسكا التي كانت تضحك بلا انقطاع منذ أن بدأ في سرد رواياته: «في لحظة من اللحظات، وضعنا كل الرصاصات على الأرض في صف واحد مثل أحجار الدومينو. أرعبت ياماناكا. فقد دفعت الرصاصة الأمامية فسقطت جميعها وأحدثت ضجة وتخبطت بعنف في جميع الاتجاهات. وكان هيرو متيقنًا إنها ستنفجر لا محالة.»

سأله ديفيد براون: «ألم تخشَ من أنك قد تضر ببعض المكونات الأساسية؟»

أجابه: «لا. الكتيبات التي أعطاني إياها أوتو هيلمان تقول إنك لا تستطيع أن تلحق الضرر بهذه الأشياء إذا أسقطتها من أعلى قمة ناطحة السحاب ترامب تاور ذات الثمانية والخمسين طابقًا. بالإضافة إلى أنها لم تُفعَّل بعد. أليس كذلك سيادة الفريق البحري؟»

أومأ هيلمان برأسه، وانطلق جانوس في سرد رواية ثانية. سبح جنرال أوتول بمخيلته بعيدًا متصارعًا بشدة مع العلاقة بين هذه الأشياء المعدنية الموجودة على متن السفينة العسكرية وبين السحب التي تأخذ شكل عيش الغراب في المحيط الهادي …

قطعت فرانشيسكا حبل أفكاره. إذ قالت: «لديك مكالمة عاجلة على خطك الخاص يا مايكل. الرئيس بوثويل سيكون معك بعد خمس دقائق.»

انقطع الحديث الدائر حول الطاولة. قال جانوس باسمًا: «حسنًا، قطعًا أنت شخصية مهمة. فالجميع لا يتلقون مكالمة من سلاجر بوثويل.»

استئذن الجنرال أوتول بلطف من على الطاولة ثم ذهب إلى غرفته. وأخذ هيلمان يفكر وهو ينتظر المكالمة بفارغ الصبر حتى تصل: «حتمًا هو يعرف. وإنما هو يعرف بلا ريب. فهو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.»

لطالما كان أوتول هاويًا للعبة البيسبول، وكان فريقه المفضل هو فريق بوستن ريد سوكس. ووضعت كرة البيسبول تحت الحراسة القضائية في ذروة فترة الفوضى العارمة عام ٢١٤١، غير أن مجموعة جديدة من الملاك أعادت الدوري إلى الانطلاق مجددًا بعد مرور أربع سنوات. وعندما كان مايكل في السادسة من عمره عام ٢١٤٨، اصطحبه والده إلى استاد فينواي دوم لمشاهدة مباراة بين فريق الريد سوكس وهافانا هاريكنز. وكانت هذه بداية علاقة حب عاشها أوتول مدى حياته.

وكان شيرمان بوثويل الأعسر يلعب في مركز المدافع الأول في فريق ريد سوكس في الفترة ما بين ٢١٧٢ و٢١٨٧. وكان يتمتع بشعبية هائلة. وكان بوثويل، المولود في ميزوري، مميزًا بتواضعه الأصيل وتكريسه الجاد للعمل مثلما كان مميزًا في لعبه، فقد أحرز على مدار الست عشرة سنة التي كان يلعب فيها مع الفريق الرئيسي خمسمائة وسبعًا وعشرين ضربةً خارج أرض الملعب. وفي غضون سنته الأخيرة مع البيسبول، لقيت زوجته حتفها في حادثة قارب مريعة. وكانت كل البيوت الأمريكية تتغنى بتكريس شيرمان نفسه لتربية أولاده بلا ضجر أو تأفف باعتباره أبًا وحيدًا لا معين له.

وبعد مضي ثلاثة أعوام، عندما تزوج من ليندا بلاك، الابنة المحبوبة لحاكم تكساس، كان من الجلي لكثيرين أن شيرمان ينوي الدخول إلى الحياة السياسية. وبالفعل تدرج في

المناصب بسرعة البرق. فعمل أولًا وكيلًا لحاكم ولاية، ثم حاكم ولاية، ثم المرشح الرئاسي. واختِير شيرمان للبيت الأبيض بأغلبية ساحقة عام ٢١٩٦، وكان مترقبًا أن يهزم غريمه المسيحي المحافظ هزيمة نكراء في الانتخابات العامة القادمة عام ٢٢٠٠.

عندما ظهر الرجل الذي كان يرتدي بذلة زرقاء على الشاشة قال بابتسامة عزبة: «مرحبًا يا جنرال أوتول. معك رئيسك شيرمان بوثويل.»

ولم يكن بحوزة الرئيس أي مفكرات. وكان يتكئ إلى الأمام على مقعد بسيط، ساندًا مرفقيه على فخذيه، ويطوي يديه أمامه. وكان يتحدث كما لو كان يجلس إلى جانب الجنرال أوتول في غرفة معيشة مريحة.

استرسل الرئيس: «كنت أتابع بعثة نيوتن بلهفة شديدة — وكذلك كل أفراد عائلتي بما فيهم ليندا والأطفال الأربعة — منذ إقلاعكم. غير أنني صرت أكثر اكتراثًا بـ «درجة خاصة» على مدار الأسابيع الأخيرة؛ إذ انهالت الفواجع عليك وعلى زملائك البواسل كوابل من الأمطار. يا إلهي. من كان يتوقع مثل هذا الأمر، أن مركبة راما حقيقة قائمة؟ يا له من أمر مريع ...

على أي حال، علمت من ممثلنا في مجلس الحكومات أن الأمر قد أُصدر بتدمير راما. وأعي جيدًا أن مثل هذه القرارات لا تؤخَذ بسهولة، وإنها تضع مسئولية كبيرة على عاتق أناس مثلك. غير أنني متيقن من أن هذا هو القرار الصائب.

نعم، أعرف أن هذا هو القرار الصائب. آه، أنت تعرف ابنتي كورتني — البالغة من العمر ثماني سنوات — إنها تستيقظ كل ليلة تقريبًا على كوابيس. لقد كنا جميعنا نشاهد عندما كنتم تحاولون أن تقتنصوا المخلوق الآلي، ذاك الذي كان يبدو مثل السرطان، ويا للهول، كان المشهد مريعًا بلا شك. والآن كورتني تعلم — رغم أن كل هذه الأحداث كانت على شاشة التلفزيون — أن راما متجهة الآن إلى الأرض «مباشرة» وهي مذعورة بحق. إنها مرتاعة بشدة. فهي تعتقد أن تلك السرطانات سوف تغزو البلد بأكملها، وأنها سوف تُقطعها إربًا هي وكل أصدقائها مثل الصحفي ويلسون.

إني أخبرك بكل هذا أيها الجنرال؛ لأني أعلم أنك تجابه قرارًا صعبًا. وقد سمعت من الشائعات الرائجة أنك قد تكون مترددًا في تدمير المركبة الفضائية العملاقة بكل عجائبها. لكنني أخبرت كورتني عنك أيها الجنرال. لقد أخبرتها أنك أنت وفريقك سوف تنسفون راما وتجعلونها كالفتات الصغيرة قبل أن تصل إلى الأرض بكثير.

لهذا السبب اتصلت بك. كي أخبرك أنني أعتمد عليك. وكذلك كورتني تعتمد عليك.»

اعتقد الجنرال أوتول، قبل أن ينصت إلى الرئيس، بأنه قد يستفيد من هذه المكالمة بأن يطرح هذه المعضلة أمام قائد الشعب الأمريكي. حتى إنه تخيل أنه من الممكن أن يسأل سلاجر بوثويل عن طبيعة الناس التي قد تدمر أشياء لتحمي نفسها ضد مخاطر بعيدة الاحتمال. لكن بعد الحديث القصير الذي يخلو تقريبًا من أي ثغرة، من المدافع الأول السابق للريد سوكس، لم يكن لدى أوتول ما يقوله. كيف له أن يرفض الاستجابة لمثل هذه المناشدة؟ فكل الفتيات الصغيرات على وجه كوكب الأرض يعتمدن عليه.

بعد أن نام أوتول خمس ساعات استيقظ في تمام الساعة الثالثة. وكان يعي أنه يجابه أهم حدث في حياته برمتها. وقد بدا له أن كل شيء فعله، سواء في حياته المهنية، أو دراسته الدينية، وحتى الأنشطة العائلية، كانت جميعها تعده لهذه اللحظة. فقد عهد الله إليه بقرار عظيم. لكن ماذا يريده الله أن يفعل؟ وكانت جبهة أوتول تتصبب عرقًا وهو ساجد أمام صورة المسيح على الصليب الموضوعة خلف مكتبه.

صلى أوتول وهو يشبك يديه بشدة: «يا إلهي، لقد حانت ساعتي وما زلت لا أعرف مشيئتك بوضوح. من السهل جدًّا أن أنصاع للأوامر المعطاة لي وأفعل ما يرضي الجميع. لكن هل هذه مشيئتك؟ كيف يمكنني أن أتيقن من ذلك؟»

أغمض مايكل أوتول عينيه وأخذ يصلي طالبًا الهداية بخشوع لم يشعر بمثله من قبل. وبينما كان يصلي تذكر فترة أخرى من حياته، منذ سنوات عندما كان لا يزال طيارًا يعمل في قوات حفظ السلام المؤقتة في جواتيمالا. استيقظ أوتول وجنوده في صبيحة أحد الأيام ليجدوا القاعدة الجوية العسكرية الصغيرة الخاصة بهم محاطة بالإرهابيين اليمينيين الذين كانوا يحاولون إخضاع الحكومة الديمقراطية الجديدة لسطوتهم. وقد رام المخربون الحصول على الطائرات مقابل المرور الآمن لأوتول وجنوده.

استغرق الرائد أوتول حينذاك خمس عشرة دقيقة كي يتدبر الأمر ويصلي قبل أن يقرر القتال حتى آخر قطرة دماء. وفي المعركة التي أعقبت ذلك، دُمرت الطائرات ولقي نصف رجاله تقريبًا مصرعهم، لكن عضَد موقفه الباسل ضد الإرهاب الحكومة اليافعة وكثيرين في أنحاء أمريكا الوسطى، في الوقت الذي كافحت فيه البلدان الفقيرة بيأس للتغلب على الخراب الذي حل بها على مدار عقدين من الكساد. ومُنح أوتول وسام الاستحقاق، وهو أرفع وسام عسكري يمنحه مجلس الحكومات، نظير العمل البطولي الذي قام به في جواتيمالا.

وبعد مرور بضع سنوات، وعلى متن نيوتن، كانت عملية اتخاذ القرار التي سيقوم بها الجنرال أوتول أكثر تعقيدًا. ففي جواتيمالا لم يكن لدى الرائد الشاب أدنى شك حول

مشروعية تصرفاته من الناحية الأخلاقية. لكن الأمر الذي تلقاه بتدمير راما، مختلف بالمرة. فمن وجهة نظر أوتول، لم تقم المركبة الفضائية جهارًا بأي أفعال عدوانية. بالإضافة إلى أنه يعلم أن الأمر الذي تلقاه يركن في الأصل إلى عاملين هما: عامل الخوف مما «قد» تفعله راما، وعامل المجاهرة بالرأي العام المعادي لكل ما هو أجنبي. وبالنظر إلى التاريخ نجد أن كلًّا من الخوف والرأي العام لم يأبها صراحة بالجانب الأخلاقي. لو كان بمقدوره فقط أن يعرف ما هي النوايا الحقيقية لراما، لكان …

وتحت صورة المسيح على المكتب الموجود في غرفته، كان هناك تمثال صغير لشاب أجعد الشعر واسع العينين. وكان أوتول يصطحب هذا التمثال للقديس مايكل من كاتدرائية سيينا معه في كل رحلاته التي قام بها منذ زواجه من كاثلين. وعندما نظر إلى التمثال خطرت بباله فكرة. ففتح أحد أدراج المكتب وأخرج مسجلًا إلكترونيًّا. ثم أداره ونظر في قائمته ثم دخل على فهرس وعظات القديس مايكل.

ووجد الجنرال في الفهرس تحت كلمة «راما» عددًا ضخمًا من المراجع المختلفة. كان المرجع الذي يبحث عنه هو المرجع الوحيد المكتوب بخط واضح. وكان هذا المرجع المميز العظة الشهيرة «عظة راما» التي كان قد ألقاها القديس في معسكر حضره خمسة آلاف من معتنقي أفكاره الجدد، قبل المحرقة التي حدثت في روما بثلاثة أسابيع. بدأ أوتول يقرأ.

«الموضوع الذي نحن بصدد تناوله اليوم هو القضية التي أثارتها الأخت جودي في مجلسنا، وهو بالتحديد؛ إلامَ أستند في البيان الذي قدمته حول أن المركبة الفضائية التي تُدعى راما قد تكون بحقٍّ أول إعلان عن المجيء الثاني للمسيح. وأعرف أنه لم يكن لديَّ رؤية واضحة بطريقة أو بأخرى، لكن مع ذلك أوحى إليَّ الله أن نُذر المجيء الثاني للمسيح يجب أن تكون خارقة للطبيعة، وإلا فلن ينتبه الناس على الأرض. فلو بوق ملاك أو اثنان في السماء فهذا لن يكفي. يجب أن تكون النذر مثيرة وهائلة كي تجذب الأنظار.

وثمة حادثة سابقة عن الإعلانات النبوية التي تبزغ من السماء في نبوءات العهد القديم التي تنبئ بمجيء المسيح. وقد كانت مركبة إيليا هي بمنزلة راما ذلك العصر. فبالتحدث من الناحية التقنية، كان الأمر، يفوق إدراك أولئك الذين رأوها مثلما حدث مع راما اليوم. وبهذا الإدراك، نجد أن هناك نمطًا معينًا يعزز هذه الحقيقة، فهي منظومة متساوقة لا تتنافى مع أوامر الله.

لكن ما أراه مشجعًا بشأن وصول المركبة الفضائية الأولى راما، التي وصلت منذ ثماني سنوات — وأقول «الأولى» لأنني متيقن من أنه سيكون هناك المزيد — هو أنها

ترغم البشرية على أن تفكر في نفسها من منظور أكبر منها. فكثيرًا ما نحد مفهومنا عن الرب ومفهومنا عن روحانياتنا ضمنًا. فنحن ننتمي إلى الكون. نحن أبناؤه. إنه لحظ محضٌ أن ذراتنا قد بزغت إلى الوجود على هذا الكوكب بالأخص.

إن راما تدفعنا إلى التفكير في أنفسنا وفي الله بصفتنا كائنات هذا الكون. إن إرسال الله هذا النذير في هذه اللحظة لهو تعبير عن قدرة الله. وكما أخبرتكم مرارًا وتكرارًا، نحن مدينون لتطورنا النهائي، لإدراكنا أن الجنس البشري بأكمله ليس إلا كائنًا حيًّا واحدًا. وظهور راما هو بمنزلة كائن واحد آخر، وعليه حان الوقت لكي نغير طرقنا ونبدأ هذا التطور النهائي.»

وضع الجنرال أوتول المسجل جانبًا وأخذ يفرك عينيه. لقد قرأ هذه العظة من قبل، قبيل لقائه مع البابا في روما مباشرة، لكنها لم تبدُ حينها ذات مغزًى مثلما تبدو الآن. قال أوتول في نفسه: «إذَن ما ماهيتك يا راما؟ هل أنت مصدر تهديد لكورتني بوثويل أم نذير المجيء الثاني للمسيح؟»

في غضون الساعة التي سبقت الإفطار، كان الجنرال أوتول لا يزال مترددًا. ولم يكن يعرف بحق ماذا سيكون قراره. وكانت تستنزفه بشدة حقيقة أن قائده الأعلى قد أملى عليه الأوامر صراحةً. وكان أوتول يعي جيدًا أنه قسم عندما تسلم أمر تفويضه لهذه البعثة بأنه لن يتبع الأوامر فحسب، بل أيضًا سيحمي كل بنات هذا الكوكب. فهل لديه أي دليل أن هذا الأمر بعينه كان فاسقًا للدرجة التي يحنث معها بقسمه؟

ما دام جنرال أوتول يفكر في راما باعتبارها آلة فحسب، من السهل عليه أن يؤيد فكرة تدميرها. فصنيعه هذا في آخر الأمر لن يودي بحياة أي من سكان راما. لكن أهذا ما قاله ويكفيلد؟ ألم يقل إن مخلوقات راما من المحتمل أن تكون أكثر ذكاءً من أي كائن حي على وجه كوكب الأرض بما في ذلك البشر أنفسهم؟ ألن يكون لعقل آلة متقدمة مكانة خاصة بين مخلوقات الله، وربما مكانة أعلى من أنماط الحياة الدونية؟

أخيرًا استسلم الجنرال أوتول للتعب. إذ لم يتبقَّ لديه أي قدر من الطاقة للتعامل مع معين لا ينضب من الأسئلة التي لا إجابة لها. وقرر على مضض أن يوقف الجدال الدائر بداخله ويعد نفسه لتنفيذ الأوامر.

وكانت المهمة الأولى له هي حفظ شفرة الآر كيو الخاصة به، وهي متوالية معينة مكونة من خمسين عددًا صحيحًا ما بين رقمَي صفر وتسعة لا يعرفها أحد سواه ومعالج

البيانات الموجود داخل الأسلحة النووية. وكان أوتول قد أدخل شفرته بنفسه وتأكد من أنه قد جرى تخزينها تخزينًا صحيحًا في كل سلاح من الأسلحة قبل إقلاع بعثة نيوتن من الأرض. وكانت متوالية الأرقام طويلة حتى تقلل من احتمالية نسخها بواسطة باحث إلكتروني متكرر. وقد أُوصي كل ضابط من الضباط العسكريين ببعثة نيوتن بأن يشتق متتالية ينطبق عليها معياران؛ أولهما: ينبغي أن تكون الشفرة مستحيلة النسيان، ثانيهما: يحذر أن تكون الشفرة شيئًا مباشرًا، مثل كل أرقام هواتف العائلة؛ إذ يمكن لأي طرف خارجي أن يحصل عليها بسهولة من ملفات العاملين.

ولأسباب عاطفية، أراد أوتول أن تكون الأرقام التسعة المكونة لشفرته هي أرقام تاريخ ميلاده، ٣-٢٩-٤٢، وتاريخ ميلاد زوجته ٢-٧-٤٦. وكان أوتول يعلم أن أي متخصص في فك رموز الشفرات سوف يبحث على الفور عن مثل هذا الاختيار السهل؛ لذا قرر الجنرال أن يخفي أرقام تواريخ أعياد الميلاد وسط الخمسين رقمًا. لكن ماذا عن الواحد والأربعين رقمًا الأخرى؟ وهذا الرقم بالأخص، ٤١، كان يثير اهتمام أوتول منذ حفل جعة وبيتزا كان قد أُقيم أثناء عامه الدراسي الثاني بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. وكان أحد رفاقه حينذاك، الذي كان مُنظِّرًا بارزًا شابًّا، وقد نسي أوتول اسمه منذ زمن، قد أخبر أوتول أثناء نقاشهما وهما ثملان أن رقم ٤١ «رقم مميز جدًّا؛ إذ يمثل أول عدد صحيح في أطول متوالية متصلة للأعداد الأولية التربيعية.»

ولم يفهم أوتول قط ماذا كان زميله يقصد بالضبط بمصطلح «الأعداد الأولية التربيعية». غير أنه فهم جيدًا وانبهر بحقيقة أن متوالية الأعداد الأولية ٤١، ٤٣، ٤٧، ٥٣، ٦١، ٧١، ٨٣، ٩٧، حيث يُحسب كل رقم تالٍ من خلال زيادة رقم اثنين على الفرق بين كل رقم وسابقه، تؤدي في النهاية بالضبط إلى أربعين رقمًا أوليًّا متتاليًا. ولا ينتهي تتابع الأعداد الأولية هذا إلا عندما يتحول الرقم الحادي والأربعون في المتوالية إلى عدد غير أولي، وبالتحديد ٤١ × ٤١ =١٦٨١. لم يشارك أوتول أحدًا بهذه المعلومة الصغيرة التي لا يعرفها الكثيرون سوى مرة واحدة في حياته مع زوجته كاثلين في عيد ميلادها الحادي والأربعين، وكانت استجابتها فاترة مما جعله لا يخبر أحدًا بها مرة أخرى.

لكن هذه المتوالية كانت مناسبة تمامًا لشفرته السرية، ولا سيما إذا أخفاها جيدًا. ولكي يركب شفرته المكونة من خمسين رقمًا، كوَّن الجنرال أوتول أولًا متتالية مكوَّنة من واحد وأربعين عددًا، وكل عدد ينتج من حاصل جمع العددين الأولين في الطرف المقابل في متوالية الأعداد الأولية التربيعية المميزة التي تبدأ بالعدد ٤١. وعليه يكون العدد «٥» هو

العدد الأول الذي يمثل العدد ٤١، يعقبه عدد «٧» الذي يمثل ٤٣، ثم «١» لرقم ٤٧ (أي ٤ + ٧ = ١١، ثم بُتر رقم ١١ إلى ١) ورقم «٨» يمثل ٥٣، وهلم جرًّا. بعدها بعثر أوتول أرقام تواريخ أعياد الميلاد باستخدام معكوس متتالية فيبوناتشي (٣٤، ٢١، ١٣، ٨، ٥، ٣، ٢، ١، ١) كي يحدد مواقع الأرقام التسعة الخاصة بتاريخَي الميلاد داخل المتوالية الأصلية المكونة من الواحد والأربعين رقمًا.

ولم يكن من السهل حفظ المتوالية، لكن الجنرال لم يشأ أن يكتبها ثم يحملها معه إلى مكان تشغيل الأسلحة. فإذا كتب شفرته فسيتسنى لأي أحد أن يستخدمها، شاء أم أبى؛ ومن ثَم لن يعود أمامه خيار تغيير رأيه مرة أخرى. وما إن حفظ أوتول المتوالية حتى تخلص من كل الحسابات التي قام بها ثم ذهب إلى غرفة الطعام كي يتناول الإفطار مع باقي الرواد.

قال الفريق البحري هيلمان وعلى وجهه ابتسامة عريضة: «هاك نسخة من شفرتي يا فرانشيسكا، ونسخة لكِ إيرينا، وهذه النسخة الأخيرة سوف تكون لهيرو ياماناكا. آسف جانوس لكن ليس بحوزتي أي رصاصات. ربما يدعك جنرال أوتول تدخل شفرته إلى أحد القنابل.»

أجابه جانوس بسخرية: «لا بأس سيادة الفريق البحري. أستطيع أن أستغني عن بعض الامتيازات في الحياة.»

وكان هيلمان يهلل ويحدث جلبة حول موضوع تشغيل الأسلحة النووية، فقد نسخ نسخًا كثيرة من شفرته المكونة من خمسين رقمًا التي كانت مطبوعة، وكان يستمتع بشرحه للرواد الآخرين كيف كان ماهرًا في استنباط شفرته. والآن، وعلى خلاف العادة، كان يسمح لباقي أفراد الطاقم بالمشاركة في العملية.

واستمتعت فرانشيسكا بذلك. لقد كان هذا قطعًا أشبه بحلقة تلفزيونية رائعة. وقد خال لأوتول أن فرانشيسكا ربما اقترحت على هيلمان أن يقوم بمثل هذا الاستعراض، لكن جنرال أوتول لم يقضِ الكثير من الوقت في التفكير في هذا الأمر. لقد كان أوتول منشغلًا جدًّا باندهاشه من حالة الهدوء التي تملكته هو نفسه. فبعد فحص طويل ومعذب للذات، كان من الواضح أنه ينوي أداء واجبه بضمير مستريح.

كان الفريق البحري هيلمان مرتبكًا في أثناء إدخاله للشفرة الخاصة به (لقد اعترف أنه كان متوترًا)، وقد نسي إلى حين أين كان في متتاليته. وقد توقع مصممو النظام إمكانية

حدوث مثل هذا الأمر، من ثَم وضعوا ضوءين أحدهما أخضر والآخر أحمر فوق لوحة مفاتيح الأرقام مباشرة، على جانب القنبلة. وكان بعد إدخال كل رقم عاشر، يضيء أحد الضوءين إشارة إلى ما إذا كان جرى إدخال العشرة الأرقام الأخيرة من الشفرة بنجاح أم لا. وكانت لجنة السلامة قد أعربت عن مخاوفها من أن هذه الخاصية «الزائدة» قد تضر بالنظام (ففك رموز شفرة مكونة من خمس مجموعات تحتوي كلٌّ منها على عشرة أرقام، أسهل من فك رموز شفرة مكونة من مجموعة واحدة من خمسين رقمًا)، لكن الاختبارات الهندسية المتكررة قبل الإقلاع أثبتت أن الأضواء ضرورية.

بعدما أدخل هيلمان مجموعة العشرة الأرقام الثانية، أضاء الضوء الأحمر فقال في حرج سافر: «لقد ارتكبت خطأً.»

صرخت فرانشيسكا من المكان التي كانت تصور منه: «وغد.» وكانت فرانشيسكا قد ضبطت الصورة بدقة حيث جعلت كلًّا من الأسلحة والأماكن الموضوعة بها تظهر في نفس الإطار.

قال الفريق البحري هيلمان صراحة: «لقد أخطأت. لقد شتتت كل هذه الضوضاء انتباهي. عليَّ أن أنتظر ثلاثين ثانية قبل أن أعيد الكَرَّة.»

بعدما انتهى هيلمان من إدخال شفرته بنجاح، أدخل دكتور ديفيد براون شفرة التشغيل للسلاح الثاني. وغالبًا ما كان يبدو عليه الملل في أثناء القيام بذلك، فمما لا شك فيه أنه لم يدخل إلى لوحة المفاتيح شيئًا يبعث على الحماسة. شغلت إيرينا تورجينيف القنبلة الثالثة. وقد علقت إيرينا تعليقًا وجيزًا لكنه حماسي يشدد على اعتقادها بأن تدمير راما هو أمر غاية في الضرورة.

ولم ينبس كلٌّ من هيرو ياماناكا وفرانشيسكا ببنت شفة في أثناء تشغيلهما للقنابل الباقية. أما فرانشيسكا فقد أذهلت باقي أفراد الطاقم بإدخالها الثلاثين رقمًا الأولين من ذاكرتها. مع الأخذ بعين الاعتبار، كما هو مفترض، أنها لم ترَ شفرة هيلمان إلا منذ ساعة فحسب، ولم تُترك وحدها منذ ذلك الحين لمدة تزيد عن الدقيقتين، من ثَم كان عملها الفذ هذا لافتًا للنظر بشدة.

بعدها جاء دور الجنرال أوتول. وسار بخُطًا هادئة وهو يبتسم ابتسامة تنم عن هدوء نفسه نحو السلاح الأول. صفق باقي الرواد إعرابًا عن احترامهم للجنرال وتقديرهم للصراع الذي كان يدور داخله. واستأذن الجميع أن يلزموا الهدوء مفسرًا لهم بأنه يحتفظ بكل المتتالية في ذاكرته. عندئذٍ أدخل أوتول مجموعة العشرة الأرقام الأولى.

ثم توقف لحظة بينما كان الضوء الأخضر يومض. وفي هذه اللحظة، أومضت فجأة في ذهنه صورة أحد اللوحات الجصية في الطابق الثاني من مزار القديس مايكل بروما. وكانت اللوحة لشاب يرتدي معطفًا أزرق، يشخص بعينيه نحو السماء، ويقف بأعتاب النصب التذكاري لفيكتور إيمانويل، يعظ حشدًا من الناس تظهر أمارات التقدير على وجوههم. عندئذ سمع الجنرال أوتول صوتًا مرتفعًا وواضحًا يقول: «لا.»

استدار الجنرال بسرعة. وقال وهو يحدق في باقي الرواد: «هل قال أحدكم أي شيء؟» فهزوا رءوسهم بالنفي. رجع أوتول المتحير إلى القنبلة. وحاول أن يتذكر مجموعة العشرة الأرقام الثانية. ولكن باءت محاولته بالفشل. تسارعت دقات قلبه على نحو مذهل. واستمر عقله يسأل مرارًا وتكرارًا: «ما هذا الصوت؟» وعندئذٍ تلاشى عزمه على القيام بواجبه.

أخذ مايكل أوتول نفسًا عميقًا، ثم استدار مرة أخرى وسار عبر الكبينة الكبيرة. وعندما مر بزملائه المصعوقين سمع الفريق البحري هيلمان يصرخ فيه: «ماذا تفعل؟»

أجابه أوتول دون أن يتوقف عن سيره: «أنا ذاهب إلى غرفتي.»

قال دكتور براون من خلفه: «ألن تشغل القنابل؟»

أجابه الجنرال أوتول: «لا. على الأقل ليس الآن.»

الفصل السادس والخمسون

صلاة مستجابة

مكث الجنرال أوتول في غرفته بقية اليوم. عرج الفريق البحري هيلمان عليه بعد قرابة الساعة من إخفاقه في عملية إدخال الشفرة. وبعدما دارت محادثة قصيرة لا معنى لها (فقد كان هيلمان أخرق تمامًا في هذا الأمر)، سأله الفريق البحري أكثر الأسئلة أهمية.

«هل أنت مستعد لأن تتابع عملية التشغيل؟»

هز أوتول رأسه وقال: «اعتقدت أنني سأقوم بهذا الأمر صباح اليوم يا أوتو، لكن ...» توقف أوتول عن الحديث إذ لم يكن بحاجة لأن يقول المزيد.

نهض هيلمان من على كرسيه. وقال: «لقد أمرت ياماناكا أن يأخذ القنبلتين الأوليين إلى الممر بداخل راما. سوف يكونان هناك بحلول وقت العشاء إذا عدلت عن رأيك. أما الثلاثة الأخرى، فسوف تُترك في القمرة في الوقت الحالي.» ثم أخذ هيلمان يحدق في زميله لبضع ثوانٍ. ثم استرسل: «أرجو أن تعود إلى رشدك قبل فوات الأوان يا مايكل. هناك اضطرابات عظيمة بالفعل في مقر القيادة.»

وعندما جاءت فرانشيسكا بكاميراتها بعد مرور ساعتين، كان واضحًا من الكلمات التي انتقتها موقفها تجاه الجنرال، على الأقل فيما بينها وبين باقي الرواد؛ إذ كانت ترى أن أوتول يعاني حالة توتر عصبي حادة. فهو لم يكن متمردًا. وفي الوقت نفسه لم يشأ أن يفصح عن وجهة نظره. ولم يستطع أحد من باقي أفراد الطاقم أن يقبل بهذه الخيارات؛ لأنهم سوف يبدون جميعًا أناسًا سيئين بسبب مشاركتهم في الأمر. لا، كان من الواضح أن ثمة مشكلة ما في حالته العصبية.

قالت فرانشيسكا برقة وهي تنظر في أرجاء الغرفة، وحاستها التلفزيونية تتخيل بالفعل صور الحوار القادم: «لقد أخبرت الجميع ألا يزعجوك بمكالماتهم. تنهال علينا

المكالمات الهاتفية بطريقة جنونية ولا سيما بعدما أرسلت الشريط هذا الصباح.» سارت فرانشيسكا نحو المكتب وأخذت تتفرس فيما فوقه. ثم سألته وهي تمسك بالتمثال الصغير: «أهذا مايكل من كاتدرائية سيينا؟»

تصنع أوتول ابتسامة باهتة على وجهه. وقال: «نعم. وأعتقد أنكِ تعرفين الرجل المعلق على الصليب في الصورة.»

أجابته فرانشيسكا: «حسنًا، حسنًا جدًّا ... اسمع يا مايكل، أنت تعلم ما سيحدث. أود أن يصورك الحوار الذي سأجريه معك في ألطف صورة ممكنة. هذا ليس لأنني سوف أعاملك برقة، أنت تفهم، لكني أود أن أتأكد من أن أولئك الأوغاد هناك على الأرض سيستمعون إلى القصة من وجهة نظرك ...»

قاطعها أوتول: «هم يطلبون رأسي بالفعل؟»

أجابته فرانشيسكا: «أوه، أجل. ولسوف تئول الأمور إلى حال أسوأ من ذلك. فكلما أجَّلت تفعيل القنابل ازداد السخط والحنق عليك.»

احتج أوتول: «ولكن لماذا؟ أنا لم أقترف جريمة. كل ما هنالك هو أنني أرجأت تشغيل الأسلحة التي تفوق قوتها التدميرية ...»

ردت فرانشيسكا سريعًا: «هذا ليس له علاقة بالموضوع. «فمن وجهة نظرهم» أنت لم تقم بعملك، وبالتحديد لم تحمِ البشر على كوكب الأرض. فهم مذعورون. هم لا يفهمون كل الهراء المتعلق بالفضاء الخارجي. لقد أُخبروا أن راما سوف تُدمر، والآن أنت ترفض أن تخلصهم من كوابيسهم.»

همهم أوتول: «كوابيس، هذا ما قام بوثويل بـ...»

تساءلت فرانشيسكا: «ماذا عن الرئيس بوثويل؟»

أجابها: «آه، لا شيء.» ثم تحاشى أوتول النظر إلى عينيها الفاحصة. وتساءل بفارغ الصبر: «وماذا أيضًا؟»

أجابته: «كما كنت أقول، أريدك أن تظهر قدر المستطاع في أحسن حال. صفف شعرك مرة أخرى وارتدِ زيًّا جديدًا بدلًا من بذلة الطيران. وسوف أضع على وجهك القليل من مساحيق التجميل حتى لا تبدو واهنًا هكذا.» رجعت فرانشيسكا إلى المكتب. وأردفت: «سوف نضع صور عائلتك في مكان واضح إلى جانب صورة المسيح وتمثال مايكل. فكر بعناية فيما تنوي أن تقوله. وبالطبع سوف أسألك عن سبب إخفاقك في تشغيل الأسلحة هذه الصباح.»

سارت فرانشيسكا ووضعت يدها على كتف أوتول. وقالت: «سوف أذكر في المقدمة التي سألقيها أنك كنت مجهدًا. أنا لا أريد أن أتحدث بالنيابة عنك وأقول ما لا تعنيه أنت، لكن الاعتراف ببعض الضعف سيؤدي الغرض. ولا سيما في بلدك.»

اضطرب الجنرال أوتول عندما انتهت فرانشيسكا من الإعداد للحوار. فسألها: «هل يجب عليَّ القيام بهذا؟» وكان يزداد اضطرابًا كلما كانت الصحفية تعيد ترتيب غرفته.

فجاء رد فرانشيسكا المقتضب: «فقط إذا أردت ألا يفكر فيك أي أحد على أنك الجنرال الخائن بندكت آرنولد الذي خان أمريكا خلال حرب الاستقلال الأمريكية وتحالف مع الإنجليز.»

عرج جانوس على أوتول قبل العشاء مباشرة. وقال كاذبًا: «لقد كان الحوار الذي أجريته مع فرانشيسكا رائعًا. على الأقل أنت قمت بإثارة بعض القضايا الأخلاقية التي ينبغي أن نأخذها جميعًا بعين الاعتبار.»

أجابه أوتول في توتر: «من الغباء أن أقول كل هذا الهراء الفلسفي. كان عليَّ أن أتبع نصيحة فرانشيسكا وألقي بكل اللوم على إجهادي.»

رد عليه جانوس: «حسنًا، يا مايكل، قُضي الأمر. لم آتِ إلى هنا كي أسترجع أحداث اليوم. أنا واثق من أنك قمت بذلك بالفعل مرات كثيرة. لكنني جئت إلى هنا كي أرى هل بمقدوري أن أقدم إليك يد العون.»

رد عليه: «لا أعتقد يا جانوس. لكنني أقدر مشاعرك.»

وساد صمت طويل خلال المحادثة. وفي نهاية المطاف وقف جانوس وهمَّ بالتوجه نحو الباب. وسأله بلطف: «ماذا ستفعل الآن؟»

أجابه أوتول: «أتمنى لو كنت أعرف. لا يبدو أنني قادر على إعداد خطة.»

واصلت مركبتا راما ونيوتن المجتمعتان معًا اندفاعهما نحو الأرض. فمع كل يوم يمر، كان خطر راما يلوح في الأفق على نحو أكبر، فثَمة أسطوانة ضخمة تتحرك بسرعة مذهلة نحو الاصطدام المشئوم، ما لم يحدث أي تدخل في مسارها. وكانت نقطة الاصطدام المتوقعة عند ولاية تاميل نادو في جنوب الهند، بالقرب من مدينة مادوراي. وكان الفيزيائيون على شبكة الأخبار كل ليلة، يفسرون التوقعات. وصارت مصطلحات مثل «الموجات الصادمة» و«الطرد» هي المصطلحات التي جرى تبادلها أثناء تناول العشاء.

وحطت الصحافة العالمية من قدر مايكل أوتول. كانت فرانشيسكا محقة؛ إذ صب العالم جامَ غضبِه على الجنرال الأمريكي. حتى إنه اقتُرحَت محاكمته محاكمة عسكرية على متن نيوتن والحكم عليه بالإعدام بسبب عدم الانصياع للأوامر. أما الإنجازات المهمة التي حققها على مدار حياته والمشاركات التي تتسم بالتضحية بالذات فقد نُسيت جميعها. وأُجبرت كاثلين أوتول على ترك شقة الزوجية في بوسطن وأن تلجأ إلى صديقة في ماين.

وكان الجنرال يتعذب من الحيرة. لقد كان يعلم أنه بعدم تشغيل الأسلحة، فإنه يلحق أضرارًا بعائلته وبحياته المهنية يتعذر إصلاحها. لكن في كل مرة كان يقنع نفسه فيها بأنه جاهز لتنفيذ الأمر، كانت كلمة «لا» العالية والمدوية تصدح في أذنه.

ولم يكن أوتول متماسكًا بعض الشيء إلا في أثناء حواره الأخير الذي أجرته معه فرانشيسكا، في اليوم الذي سبق رحيل المركبة العلمية إلى الأرض. لقد طرحت عليه بعض الأسئلة القاسية جدًّا. وعندما سألته فرانشيسكا إذا كانت راما عازمة على أن تدور حول الأرض لمَ لمْ تقم بعد بأي مناورات تدل على انحرافها عن مسارها، انتعش الجنرال لحظات وأخذ يذكرها بأن عملية الكبح الهوائي — وهي تشتيت الطاقة في الغلاف الجوي في شكل حرارة — كانت أكثر الطرق كفاءة للدوران حول جسم كوكبي ذي غلاف جوي. لكن عندما طلبت منه أن يسهب في إفادته لشرح كيف يمكن لراما أن تعيد تشكيل نفسها حتى تحظى بأسطح ديناميكية هوائية، لم يجبها أوتول. لكنه أخذ يحدق بها شارد الذهن.

خرج أوتول من غرفته لتناول العشاء الأخير في الليلة التي سبقت رحيل براون وفرانشيسكا وتابوري وتورجينيف للأرض. أفسد حضوره العشاء الأخير. كانت إيرينا ناقمة عليه بشدة وتوبخه بقسوة جمة، بل رفضت أن تجلس معه على طاولة واحدة. أما ديفيد براون فتجاهله تمامًا، مؤثرًا أن يناقش بالتفصيل الممل أمر المعمل الذي صُمم في تكساس كي يسع السرطان الآلي المُقتنص. ولم يكن أحد ودودًا معه سوى فرانشيسكا وجانوس؛ لذا اتجه الجنرال إلى غرفته بعد العشاء مباشرة دون أن يودع أحدًا بطريقة رسمية.

وفي صبيحة اليوم التالي، وبعد مرور أقل من ساعة على رحيل المركبة العلمية، اتصل أوتول بالفريق البحري هيلمان وطلب الاجتماع به. سأله الرجل الألماني بحماسة عندما دخل الجنرال مكتبه: «إذن، هل عدلت عن رأيك أخيرًا؟ حسنًا. لم يفت الأوان بعد. إن المهلة أقصاها ١٢ يومًا. وإذا عجلنا الأمر لا يزال بمقدورنا أن نفجر القنابل في مدة لا تتجاوز تسعة أيام.»

أجابه أوتول: «أنا على وشك القيام بذلك، لكنني لست مستعدًّا بعد. لقد كنت أفكر في كل هذا بعناية بالغة. وهناك شيئان لا أزال أود أن أقوم بهما. أود أن أتحدث إلى البابا يوحنا بولس، وأن أذهب إلى راما بمفردي.»

أحبطت إجابة أوتول هيلمان. فقال: «تبًّا. ها قد رجعنا إلى نفس الأمر مرة أخرى. لعلنا ...»

قال الرجل الأمريكي: «أنت لا تفهم يا أوتو.» وأخذ يحدق بثبات في زميله. وأردف: «هذه أخبار سارة. ما لم يحدث شيء غير متوقع بالمرة، سواء في أثناء مكالمتي للبابا أو في غضون استطلاعي لراما. سوف أدخل شفرتي في اللحظة التي أرجع فيها.»

سأله هيلمان: «هل أنت متأكد من ذلك؟»

أجابه أوتول: «أعدك بذلك.»

لم يتردد الجنرال أوتول على الإطلاق في إجراء الاتصال الطويل والمثير للعاطفة مع البابا. وقد كان يعي جيدًا أن مكالمته تخضع للمراقبة، لكن هذا الأمر لم يعد يشغله. شيء واحد فقط كان له الصدارة عنده، ألا وهو أن يأخذ قرار تشغيل القنابل النووية بضمير يخلو تمامًا من أي مشاعر ذنب.

انتظر أوتول بفارغ الصبر رد البابا. ولما ظهر البابا يوحنا بولس الخامس أخيرًا على الشاشة، كان يجلس في نفس الغرفة في الفاتيكان حيث جاءت مقابلة أوتول بعد الكريسماس. وكان البابا يمسك لوحة إلكترونية صغيرة بيده اليمنى، وكان ينظر أحيانًا إلى أسفل وهو يتحدث.

بدأ البابا الحديث بلكنته الإنجليزية الدقيقة: «كنت أصلي معك يا بني، ولا سيما في خلال الأسبوع الذي كنت تعاني فيه اضطراباتك الشخصية الأخيرة. ليس بمقدوري أن أخبرك ماذا تفعل. وليس لديَّ إجابات أفصح من إجاباتك. كل ما يمكننا فعله هو أن نأمل معًا في أن يستجيب الله في حكمته لصلاتك استجابة واضحة.

لكن ردًّا على بعض تساؤلاتك الدينية، يمكنني أن أقدم لك بعض التعليقات البسيطة. وسوف أقدم لك هذه التعليقات على أمل أن تكون نافعة لك ... لا يمكنني أن أجزم أو أنفي أن الصوت الذي سمعته هو صوت القديس مايكل، أو أن الأمر كان تجربة روحية. يمكنني أن أجزم أن هناك فئة من التجارب البشرية، وعادة ما أدعوها روحية لعدم وجود مصطلح أفضل، تحدث بالفعل ولا يمكن شرحها على ضوء أسس علمية أو عقلانية بحتة. لقد أعمى نور سماوي شاول الطرسوسي بلا أدنى شك مما جعله يعتنق المسيحية قبل

أن يصبح الرسول بولس. قد يكون الصوت الذي سمعته هو صوت القديس مايكل. لا يستطيع أحد غيرك أن يحدد ذلك.

وكما ناقشنا منذ ثلاثة أشهر، خلق الله سكان راما بلا شك أيًّا كانت ماهيتهم. لكنه خلق أيضًا الفيروسات والبكتريا التي تسبب موت الإنسان ومعاناته. لا يمكننا أن نمجد الله سواء فرادى أو كجنس بأكمله ما لم ننج من المهالك. في نظري، أستبعد أن الله ينتظر منا أن نقف مكتوفي الأيادي عندما يتعلق الأمر بخطر يُهدد بقاءنا على قيد الحياة.

أما عن الدور المحتمل لراما باعتبارها نذير المجيء الثاني للمسيح فهي قضية صعبة. هناك بعض الكهنة داخل الكنيسة ممن يتفقون مع القديس مايكل، مع أنهم قلة قليلة جدًّا. معظمنا يشعر أن مركبة راما عقيمة روحيًّا على أن تكون نذيرًا من الله. إنها بلا ريب مجموعة من العجائب الهندسية الرائعة، لكن لا يوجد شيء بشأنها يوحي بأي دفء أو عاطفة أو أي نوع من السمات الفدائية التي ترتبط بالمسيح. ومن ثَم، يبدو من المستبعد جدًّا أن يكون لراما أي أهمية دينية بحتة.

في النهاية هذا قرار يجب أن تأخذه بمفردك. يجب أن تستمر في صلاتك، وأنا متأكد من أنك تتفهم ذلك، لكن ربما عليك ألا تتوقع أن يستجيب لك الله من خلال جلبة وحديث صاخب. الله لا يكلم كل الناس بالطريقة ذاتها، ولا تصل كل رسائله لك بالطريقة عينها. من فضلك، تذكر شيئًا آخر وحيدًا. عندما تستكشف راما بحثًا عن مشيئة الله، سوف تصحبك صلوات الكثيرين على الأرض. تأكد أن الله سوف يستجيب لصلواتك، والتحدي الذي تواجهه هو تمييز هذه الاستجابة وتفسيرها.»

أنهى يوحنا بولس اتصاله بمباركته ثم صلى الصلاة الربانية. فركع جنرال أوتول تلقائيًّا وأخذ يصلي مع قائده الروحي. وعندما أظلمت الشاشة أخذ يسترجع ما قاله البابا وشعر بالطمأنينة. قال أوتول لنفسه: «حتمًا أنا أتبع المسار الصحيح. لكن لا ينبغي لي أن أتوقع إعلانًا سماويًّا يصحبه نفخ الأبواق.»

لم يكن أوتول مستعدًّا لرد فعله العاطفي العنيف تجاه راما. ربما كان هذا بسبب حجم المركبة الفضائية العملاق الذي كان يفوق حجم أي شيء بناه البشر على الإطلاق. ربما أيضًا أسهم بقاؤه لفترة طويلة داخل نيوتن والحالة العاطفية العنيفة التي مر بها في حدة ردة فعله تجاه راما. أيًّا كانت الأسباب، أُعجبَ مايكل أوتول أيما إعجاب بالمشهد الذي رآه وهو يشق طريقه بمفرده إلى المركبة العملاقة.

ولم تكن هناك سمة معينة تهيمن على البقية في ذهن أوتول. تحشرج صوته واغرورقت عيناه بالدموع من الدهشة في مواقف كثيرة متنوعة: عندما كان يهبط باستخدام التلفريك في نزوله راما للمرة الأولى، وعندما كان ينظر عبر السهل المركزي بخطوطه الطويلة المضيئة التي هي أضواء راما، وعندما وقف بجانب الطوافة على شاطئ البحر الأسطواني وأخذ يحدق عبر منظاره في ناطحات سحاب نيويورك الغامضة، وعندما حملق مرات عدة، مثلما فعل كل الرواد من قبله، في القرون والدعائم الهائلة الحجم التي كانت تزين التجويف الجنوبي. كانت المشاعر التي تتملك أوتول هي الفزع والهيبة في الوقت نفسه، تمامًا مثل تلك المشاعر التي انتابته أول مرة دخل فيها إحدى الكاتدرائيات الأوروبية القديمة.

وقضى الجنرال ليل راما في مخيم بيتا مستخدمًا أحد الأكواخ الاحتياطية التي تركها الرواد أثناء الرحلة الثانية. ووجد رسالة ويكفيلد المؤرخة من أسبوعين، وتملكته رغبة لحظية في تجميع القارب الشراعي والعبور إلى نيويورك. لكن كبح أوتول جماح نفسه وركز على الغرض الحقيقي وراء زيارته.

واعترف لنفسه أنه بالرغم من أن راما إنجاز مذهل، لا ينبغي أن تؤثر روعتها على عملية التقييم. هل رأى هناك شيئًا جعله يعدل عن حكمه المؤقت؟ أجاب أوتول، على مضض، على السؤال الذي يدور في ذهنه بالنفي. وعندما عادت الأضواء مرة أخرى داخل الأسطوانة العملاقة كان أوتول واثقًا من أنه قبل حلول ليل راما التالي سيكون قد انتهى من تفعيل الأسلحة.

ما زال أوتول يتلكأ. قاد الطوافة بعرض الشاطئ، ممعنًا النظر في مدينة نيويورك والمناظر الأخرى من مواقع مختلفة تتيح رؤية أفضل، ومتأملًا في الجرف الذي يبلغ ارتفاعه خمسمائة متر والواقع على الجانب المقابل من البحر. وفي المرة الأخيرة التي مر فيها بمخيم بيتا، قرر أن يجمع بعض الأشياء المختلفة بما فيها بعض التذكارات التي كان قد خلفها أفراد الطاقم الآخرين عند رحيلهم المتعجل من راما. ولم تنجُ الكثير من الأشياء من الإعصار، غير أنه وجد بعض الأشياء التذكارية التي احتُجزَت في الأركان مقابل أقفاص المؤن.

راح أوتول في قيلولة طويلة قبل أن يقود الطوافة عائدًا إلى أسفل التلفريك. ونظرًا لأن أوتول كان مدركًا ما هو عازم على فعله عندما يصل إلى نيوتن، انحنى على ركبتيه وصلى مرة واحدة أخيرة قبل الصعود. وفجأة في أثناء رحلة صعوده، عندما كان لا يزال على ارتفاع لا يتعدى الكيلومتر أعلى السهل المركزي، أدار كرسيه ونظر للخلف نظرة

شاملة الرؤيا لراما. تفكر أوتول: «قريبًا سيتلاشى كل ذلك، سوف يُطوى في فرن شمسي يشعله الإنسان.» ثم رفع عينيه من على السهل وركز على مدينة نيويورك. فظن أنه رأى بقعة سوداء تتحرك في سماء راما.

بيدين مرتعشتين رفع أوتول منظاره. وفي ثوانٍ قليلة حدد مكان البقعة السوداء التي أخذت تكبر شيئًا فشيئًا. على الفور غير درجة وضوح المنظار فانقسمت البقعة إلى ثلاثة أجزاء، كلٌّ منها طائر يحلق في سرب بعيدًا في الآفاق. طرف أوتول بعينيه، لكن الصورة لم تتغير. لقد كان هناك ثلاثة طيور بحق تحلق في سماء راما!

غمرت الفرحة قلب الجنرال أوتول. فصاح في بهجة وهو يتبع الطيور بمنظاره حتى غابت عن ناظريه. أما الثلاثون دقيقة المتبقية في غضون رحلة الصعود إلى أعلى سلم ألفا، فقد بدت وكأنها دهر.

على الفور تسلق الضابط الأمريكي إلى مقعد آخر وهبط مرة أخرى إلى راما. لقد رام بشدة أن يرى هذه الطيور مرة أخرى. قال أوتول في نفسه وهو ينوي العودة إلى البحر الأسطواني مرة أخرى لو تطلب الأمر: «لو كان بمقدوري أن أصورها، لكنت قد أثبت للجميع أن هناك أيضًا مخلوقات حية في هذا العالم المذهل.»

وعلى ارتفاع كيلومترين فوق الأرض، أخذ أوتول يفتش عبثًا عن الطيور في أثناء رحلة الهبوط. وقد فترت عزيمته قليلًا عندما أخفق في العثور عليها، بعدها صُعق بما رآه عندما نزع المنظار من على عينيه وأخذ يستعد للترجل من المقعد. لقد كان ريتشارد ويكفيلد ونيكول دي جاردان يجلسان جنبًا إلى جنب عند قاع المصعد.

حضنهما الجنرال أوتول بقوة، ثم انحنى على ركبتيه على أرض راما ودموع السعادة تنهمر على وجنتيه. وقال وهو يقدم صلاة الشكر في سره: «يا إلهي. يا إلهي.»

الفصل السابع والخمسون

الرفاق الثلاثة

تحدث الرواد الثلاثة بحماسة جمة لما يزيد على الساعة. فقد كان هناك الكثير ليُروى. وعندما أخبرت نيكول عن الذعر الذي انتابها عندما قابلت تاكاجيشي الميت في وكر مخلوقات الأوكتوسبايدر، صمت أوتول لحظة ثم هز رأسه. وقال وهو يحدق إلى السقف المرتفع: «ثمة الكثير من الأسئلة التي لا إجابة لها هنا.» ثم طرح سؤالًا لا يرجو منه جوابًا: «هل أنتما شريران بحق؟»

وأثنى كلٌّ من ريتشارد ونيكول على شجاعة الجنرال في عدم إدخال الشفرة وتفعيل الأسلحة، وقد هلعا أيضًا عندما علما أن مجلس الحكومات قد أمر بتدمير راما. قالت نيكول: «لن يُغفر لنا على الإطلاق استخدام أسلحة نووية ضد هذه المركبة الفضائية. وأنا مقتنعة بأن راما ليست عدوانية من الأساس. كما أومن أنها غيَّرت مسارها لتعترض مسار الأرض لأن لديها رسالة خاصة لنا.»

عنَّف ريتشارد نيكول بعض الشيء لأنها كوَّنت رأيها على أساس العواطف أكثر من الحقائق. فعجلته بالرد: «لعلي أفعل ذلك، لكن هناك خلل منطقي أيضًا خطير في قرار التدمير. نحن لدينا الآن الدليل المادي على أن هذه المركبة كانت على اتصال بالمركبة التي سبقتها. وهذا مبرر جيد للشك في أن مركبة راما الثالثة موجودة في مكان ما، وربما تكون قادمة بهذا الاتجاه. وإذا «كان» هناك احتمال أن أسطول مركبات راما عدواني، فلن يكون هناك مفر للأرض. ربما ننجح في تدمير هذه المركبة الثانية، لكن بفعل هذا حتمًا سنستدعي انتباه المركبة القادمة. ولما كانوا متقدمين تكنولوجيًّا أكثر منا جدًّا، فلن تكون هناك إمكانية للإفلات من هجماتهم المدبرة.»

نظر الجنرال أوتول إلى نيكول في انبهار. وقال: «هذه نقطة رائعة. من المؤسف أنك لم تكوني حاضرة المناقشات التي دارت مع وكالة الفضاء الدولية. نحن لم نأخذ بعين الاعتبار قط ...»

قال ريتشارد فجأة: «لمَ لا نرجئ باقي الحديث حتى نعود إلى نيوتن؟ طبقًا لساعتي، سوف يحل الظلام في غضون ثلاثين دقيقة، قبل أن يصل أحدنا إلى أعلى المصعد. ولا أرغب في الركوب في الظلام لمدة أطول من اللازم.»

كان كلٌّ من الرواد الثلاثة متيقنًا من أنه يغادر راما للمرة الأخيرة. لذا أخذ كلٌّ منهم يتفرس بشدة في المنظر الفضائي الرائع الممتد في الفضاء الفسيح في غضون الدقائق المتبقية التي كان يتضاءل فيها الضوء. وكان الشعور المسيطر على نيكول هو شعور النشوة والبهجة. ولكونها بطبيعتها تنظر لتوقعاتها بعين الحذر، ففي هذه اللحظة التي كانت تركب فيها التلفريك لم تترك نفسها لنشوة الاعتقاد بأنها سوف تحتضن ابنتها المحبوبة جينيفيف بين ذراعيها مرة أخرى. وكان يتدفق على ذهنها في هذه اللحظة مناظر الجمال الريفي في بوفوا، وأخذت تتخيل بالتفصيل المشهد بالغ السعادة عندما يجتمع شملها مرة أخرى مع والدها وابنتها. قالت نيكول في نفسها بنبرة مترقبة: «قد لا يستغرق الأمر سوى أسبوع أو عشرة أيام.» وفي الوقت الذي وصلت فيه نيكول إلى القمة، كان من الصعب عليها أن تكبح فرحتها.

أما مايكل أوتول ففي أثناء رحلته لأعلى أخذ يسترجع مرة أخرى قراره بشأن تفعيل الأسلحة. وعندما حل الظلام براما في اللحظة المتوقعة، كان قد انتهى من إعداد خطته لنقل حكمه النهائي إلى الأرض. لسوف يتصلون بإدارة وكالة الفضاء الدولية فور وصولهم، وسوف تروي نيكول وريتشارد قصصهما باختصار، وسوف تطرح نيكول المبررات الخاصة باعتقادها أن تدمير راما سوف يكون خطأً «غير مغفور». وكان أوتول مقتنعًا أن أمر تشغيل الأسلحة سوف يُلغى عندئذٍ.

أضاء الجنرال مصباحه قبل أن يصل مقعده إلى قمة السلالم مباشرة. سار الجنرال على هذا المكان الذي ينعدم فيه الوزن ثم وقف إلى جانب نيكول. وانتظرا ريتشارد ويكفيلد قبل أن ينتقلوا معًا إلى السلالم المؤدية إلى ممر المعدية الذي يبعد مائة متر فحسب. وبعدما صعد ثلاثتهم على متن المعدية وصاروا مستعدين للانتقال عبر الهيكل الخارجي لراما إلى نيوتن، وقع شعاع الضوء الخارج من مصباح ريتشارد على شيء معدني كبير على جانب الممر. فسأل: «هل هذه إحدى القنابل؟»

وكان جسم السلاح النووي يشبه بحقٍّ رصاصة عملاقة. قالت نيكول لنفسها وهي ترتد للوراء، إذ اقشعر بدنها: «يا له من شيء يسترعي الانتباه بحق. ربما كان من الممكن

أن تأخذ أي شكل آخر. أتعجب أي انحراف هذا سواء كان في الوعي الظاهر أم في الوعي الباطن الذي جعل المصممين يختارون هذا الشكل بالأخص ...»

سأل ريتشارد أوتول: «لكن ما هذه الأداة الغريبة الشكل الموجودة بأعلى؟»

عبس وجه الجنرال إذ رأى شيئًا غير مألوف يسطع في ضوء المصباح. فأجابه: «لا أعرف. لم أرها قط.» ثم نزل من المعدية وتبعه ريتشارد ونيكول.

هُرع جنرال أوتول إلى السلاح وأخذ يمعن النظر في الشيء الغريب المثبت أعلى لوحة المفاتيح. كانت لوحة مسطحة، تكبر قليلًا عن لوحة المفاتيح نفسها، مثبَّتة بمفصلات لها زوايا في جوانب السلاح. وفي الجانب السفلي من اللوحة عشر آلات نقر ذاتي صغيرة، على الأقل هكذا بدت لأوتول. وتأكدت ملاحظته بعد لحظات عندما برزت إحداها لعدة سنتيمترات لأسفل وضغطت على الرقم «٥» بلوحة الأرقام. وبعد الرقم «٥» ضغطت على الرقم «٧»، ثم تبع ذلك ثمانية أرقام أخرى قبل أن يومض الضوء الأخضر مشيرًا إلى النجاح في إدخال العشرة الأرقام الأولى.

وفي غضون ثوانٍ، أدخل الجهاز عشرة أرقام أخرى وأومض ضوء أخضر آخر. تجمَّد أوتول في مكانه. وقال في نفسه: «يا إلهي، هذه شفرتي! لقد فكوها بطريقة ما ...» لكنَّ ذُعره قل بعد ذلك بلحظة واحدة عندما أومض الضوء الأحمر بعد العشرة الأرقام الثالثة معلنًا أن خطأً ما قد حدث.

قال الجنرال أوتول بعد مرور بضع لحظات ردًّا على تساؤل ريتشارد: «يبدو أنهم ارتجلوا هذا النظام في محاولة لإدخال شفرتي في غيابي. وقد تمكنوا من معرفة المجموعتين الأوليين فحسب. لقد هلعت لحظة ...» توقف أوتول عن الحديث بعد شعوره بمشاعر قوية تجتاحه.

قالت نيكول بنبرة جادَّة: «قطعًا افترضوا أنك لن تعود ثانية.»

رد أوتول: «هذا إن كان هيلمان وياماناكا هما من فعلا هذا. فبالطبع لا يمكننا أن نستبعد تمامًا إمكانية أن تكون المخلوقات الغريبة أو حتى ... المخلوقات الآلية هي من وضعت هذه الآلة الغريبة.»

علَّق ريتشارد قائلًا: «هذا مستبعد تمامًا. فالهندسة المستخدمة في صنع هذه الأداة بدائية للغاية.»

قال أوتول وهو يفتح حقيبة ظهره كي يخرج بعض الأدوات كي يفصل بها الجهاز: «على أي حال، لا يمكنني أن أغامر.»

عثر أوتول وويكفيلد ونيكول في نهاية ممر نيوتن على القنبلة الثانية مزودة بالجهاز نفسه. وشاهد ثلاثتهم الجهاز وهو يحاول إدخال الشفرة — بنفس النتيجة، وهي الإخفاق عند رقم معين في مجموعة العشرة الأرقام الثالثة — وعندئذٍ أوقفوه بالمثل. وبعدها فتحوا القفل ورحلوا من راما.

عندما دخلوا مركبة نيوتن العسكرية لم يرحب بهم أحد. افترض الجنرال أوتول أن كلًّا من الفريق البحري هيلمان وياماناكا شعرا بالنعاس وذهبا لتوهما إلى غرفتيهما. على أي حال لقد أراد التحدث إلى الفريق البحري هيلمان على انفراد. غير أن الرجلين لم يكونا في غرفتيهما. ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يكتشفوا أن الرائدين الآخرين لم يكونا في أي مكان في المساحة الصغيرة نسبيًّا التي يعيشان ويعملان بها على متن المركبة العسكرية.

وبحثوا في مكان المؤن بمؤخرة المركبة دون طائل أيضًا. غير أن الثلاثي اكتشفوا أن إحدى المركبات الفضائية الصغيرة مفقودة. أثار هذا الاكتشاف مجموعة من التساؤلات المحيرة. أين يمكن أن يذهبا بهذه المركبة الصغيرة؟ ولماذا خرقا سياسة المشروع ذات الأولوية القصوى التي تنص على أنه ينبغي أن يبقى هناك دائمًا رائد واحد على الأقل على متن نيوتن؟

تحير الرواد الثلاثة وهم عائدون إلى مركز التحكم لمناقشة الإجراءات المحتملة. وكان أوتول هو أول من أثار الشك حول وقوع حادث مدبر. فقال: «أتظنان أن هذه المخلوقات الأوكتوسبايدر أو حتى بعض المخلوقات الآلية قد اقتحموا نيوتن؟ بالرغم من كل شيء، لا يصعب اقتحام نيوتن ما لم يكن نظام الحماية الذاتية قيد العمل.»

لم يرد أحد منهم أن يقول الأمر الذي كانوا جميعهم يفكرون فيه. فإذا كان أحد ما أو شيء ما قد أسر زميليهم أو قبض عليهما على متن نيوتن، فإذَن قد يكون هذا الشيء أو الشخص لا يزال قريبًا منهم من ثم ربما يكونوا «هم» أنفسهم في خطر …

كسر ريتشارد حاجز الصمت: «لماذا لا نتصل بالأرض ونخبرهم أننا أحياء؟»

ابتسم الجنرال أوتول. وقال: «فكرة رائعة.» ثم اتجه إلى لوحة مفاتيح مركز التحكم وشغلها. ظهر على الشاشة الكبيرة عرض للوضع القياسي للنظام. علَّق الجنرال: «هذا غريب. فهذا يدل على أننا ليس لدينا اتصال فيديو مع الأرض في الوقت الحالي. وكل ما لدينا هو إرسال ضعيف فحسب. والآن لماذا تغير تعريف نظام البيانات؟»

ضغط أوتول على مجموعة من الأوامر كي يثبت الاتصال المعتاد المتعدد القنوات والعالي السرعة مع الأرض. ظهرت على الشاشة مجموعة كبيرة من رسائل الأخطاء. صاح

ريتشارد: «ما هذا بحق الجحيم؟ إن الأمر يبدو كما لو أن نظام الفيديو قد تعطل تمامًا.» ثم التفت إلى أوتول. وقال: «هذا تخصصك يا جنرال، ماذا ستفعل في كل هذا؟»

كان الجنرال متجهمًا للغاية. قال الجنرال: «أمقت هذا الأمر يا ريتشارد. لم أرَ رسائل خطأً بهذا الكم سوى مرة واحدة في حياتي، في خلال أحد تدريبات المحاكاة الأولى عندما نسي أحد الحمقى تحميل برمجة الاتصالات. قطعًا لدينا مشكلة كبيرة في البرمجة. إن احتمالية حدوث إخفاقات كثيرة لتشغيل الأجهزة في مثل هذه الفترة القصيرة منعدمة أساسًا.»

اقترح ريتشارد أن يُخضع أوتول برمجة اتصالات الفيديو لاختبارها الذاتي القياسي. وفي غضون عملية الاختبار، أوردت سجلات تشخيص الأعطال أن خاصية التخزين المؤقت للأخطاء في الخوارزمية الخاضعة للاختبار الذاتي قد تجاوزت السعة المحددة قبل إتمام تنفيذ الإجراء بنسبة أقل من الواحد بالمائة. قال ريتشارد وهو يحلل البيانات الواردة في التشخيص: «إذن برمجة اتصالات الفيديو هي قطعًا المسئولة عن كل ذلك. ثم أدخل بعض الأوامر. وأردف: «وسوف يستغرق الأمر بعض الوقت لتصويبها ...»

قاطعته نيكول قائلة: «لحظة من فضلك. ألا ينبغي أن ننفق بعض الوقت لإيجاد تفسير لكل هذه المعلومات الجديدة قبلما نبدأ في أي مهام بعينها؟» توقف الرجلان عن العمل وانتظراها حتى تكمل حديثها. قالت نيكول وهي تسير بتؤدة في أنحاء مركز التحكم: «هيلمان وياماناكا وإحدى المركبات الفضائية الصغيرة اختفوا من السفينة، وأحدهم يحاول تشغيل القنبلتين النوويتين آليًّا في الممر. وفي الوقت نفسه، نجد برمجة اتصالات الفيديو التي كانت تعمل جيدًا على مدار مائة يوم — شاملة فترة تدريبات المحاكاة قبل الإقلاع — تعطلت على حين غِرة. هل يملك أحدكما تفسيرًا منطقيًّا لكل هذا؟»

ساد صمت طويل. ثم قال ريتشارد مقترحًا: «قد يكون الجنرال أوتول محقًّا بشأن الغزو العدواني لنيوتن. ولعل هيلمان وياماناكا قد هربا لإنقاذ أنفسهما، ثم تعمدت الكائنات الفضائية إفساد البرنامج.»

لم تقتنع نيكول بكلامه. فقالت: «لا أرى أمارات تشير إلى أن أي كائنات فضائية أو حتى مخلوقات آلية دخلت إلى نيوتن. إلا إذا رأينا بعض الأدلة ...»

حاول ويكفيلد أن يختلق أسبابًا فقال: «ربما حاول هيلمان وياماناكا فك شفرة الجنرال، وكانا خائفين ...»

صرخت نيكول فجأة: «انتظر. انتظر. ثمة شيء يحدث للشاشة.» استدار الرجلان في الوقت نفسه كي يشاهدا وجه الفريق البحري أوتو هيلمان يظهر فجأة على الشاشة.

قال هيلمان متبسمًا على الشاشة العملاقة: «مرحبًا، يا جنرال أوتول. يعمل شريط الفيديو هذا آليًّا بدخولك غرفة معادلة الضغط على متن نيوتن. لقد أعددناه أنا والرائد ياماناكا قبل رحيلنا مباشرة في إحدى المركبات الفضائية الصغيرة منذ ثلاث ساعات قبل انقضاء المهلة التي كان أقصاها تسعة أيام. لقد أُمرنا بالإخلاء بعد أقل من ساعة على ذهابك لاستطلاع راما. وقد تلكأنا قدر المستطاع، لكن كان علينا أخيرًا أن ننصاع للأوامر.

الأوامر الخاصة بك سهلة وصريحة. عليك أن تُدخل شفرتك إلى القنبلتين في ممر المعدية وإلى القنابل الثلاثة الباقية في القمرة. وينبغي أن ترحل في المركبة الصغيرة الأخيرة في فترة لا تتعدى ثماني ساعات من ذلك الحين فصاعدًا. لا تكترث للأجهزة الإلكترونية التي تعمل على القنبلتين الموجودتين في هيكل راما. لقد أمرت القيادات العسكرية بمجلس الحكومات بوضعها كي تختبر تقنيات جديدة غاية في السرية لفك الشفرات. وسوف تكتشف بنفسك أنه يمكن إيقافها بسهولة باستخدام كماشة وقاطعة أسلاك، أو أحدهما.

وقد أُضيف نظام دفع إضافي عند الطوارئ إلى الزورق الفضائي الصغير وقد جرت برمجته بحيث يقودك إلى مكان آمن حيث ستلتقي بزورق وكالة الفضاء. كل ما عليك هو أن تدخل ميعاد رحيلك بالضبط. لكن ينبغي لي أن أؤكد عليك أن الخوارزميات الجديدة لملاحة المركب صالحة «فقط» إذا غادرت نيوتن قبل مدةٍ أقصاها ستة أيام. أما بعد ذلك الوقت، فقد برمجت مؤشرات الإرشاد أن تصبح مُلغاة باطراد، وسوف يكون من المستحيل إنقاذك بعد ذلك الحين.»

توقف حديث هيلمان لبرهة وصارت نبرة صوته تنم عن إلحاح متزايد. ثم استرسل: «لا تُضِع المزيد من الوقت يا مايكل. شغل الأسلحة ثم اذهب إلى الزورق الصغير مباشرة. لقد زودناه بالفعل بالطعام والأشياء الضرورية الأخرى التي ستحتاجها ... حظ طيب في رحلة العودة. نراك قريبًا على الأرض.»

الفصل الثامن والخمسون

مُجبَر لا بطل

قال ريتشارد ويكفيلد: «إني متيقن من أن هيلمان وياماناكا كانا حذرين للغاية. ربما غادرا مبكرًا حتى يتسنى لهما الحصول على المزيد من المؤن. لكن في مثل هذه الزوارق خفيفة الوزن، يمكن أن يتسبب أي كيلوجرام زائد في خطورة بالغة.»

سألته نيكول: «ما مدى خطورة الأمر؟»

أجابها: «هذا يمكنه أن يحدث اختلافًا كبيرًا بين أن نصبح في مدار آمن حول الأرض، أو أن نسير بسرعة رهيبة يتسنى معها إنقاذنا.»

تساءل أوتول في يأس: «هل هذا يعني أن واحدًا منا فقط يمكنه أن يستخدم المركب؟»

توقف ريتشارد لحظة قبل أن يجيبه. ثم قال: «أخشى أن أقول إن هذا احتمال قائم، إن هذا يتوقف على وقت الرحيل. علينا أن نجري حسابات سريعة لتحديد ذلك بالضبط. لكني أنا شخصيًّا لا أرى ما يمنع أن نفكر في الطيران بهذه المركبة الكبيرة بأكملها. لقد تدربت كضابط احتياطي بالفعل … كل ما هنالك أننا لدينا سلطة تحكم محدودة نظرًا لأن المركبة كبيرة للغاية، لكن إذا تخلصنا من كل شيء لا نحتاجه على الإطلاق، قد نستطيع القيام بذلك، أؤكد مرة أخرى أننا بحاجة إلى إجراء الحسابات.»

وكانت المهمة التي أوكلها الجنرال أوتول وريتشارد إلى نيكول هي تفقد المؤن التي وُضعت في الزورق الصغير، وتحديد مدى كفايتها، ثم تقدير كلٍّ من كتلة الصناديق اللازمة لإمدادات مسافرَين أو ثلاثة وحجمها. وطلب منها أيضًا ريتشارد، الذي لا يزال يؤثر العودة إلى الأرض عن طريق المركبة العسكرية، أن تتفقد بيان شحنة المركبة وتقدر كم الكتلة التي يمكن التخلص منها.

وبينما كان أوتول وويكفيلد يعملان على الكمبيوتر في مركز التحكم، كانت نيكول تعمل وحدها في القمرة الضخمة. تفقدت نيكول أولًا الزورق الصغير بعناية. ومع أن

الزوارق الصغيرة عادةً ما يستخدمها فرد واحد للقيام بالأنشطة التي تُجرى في الفضاء خارج المركبة، فإنها قد صُممت أيضًا كي تُستخدم كزوارق للهروب عند الطوارئ. وفي هذا الزورق الصغير يستطيع فردان أن يجلسا خلف الزجاج الأمامي الشفاف القوي، ويسع مؤنًا تكفي لأسبوع تُوضع على الأرفف خلف القمرة الصغيرة. تساءلت نيكول في سرها قائلة: «لكن ماذا لو كانوا ثلاثة أفراد؟ هذا مستحيل. سيكون على أحدهم أن ينحشر في فراغ الأرفف. وعندئذٍ لن يكون هناك مكان كاف للمؤن.» وأخذت نيكول تفكر لحظة في الانحشار بين الأرفف الصغيرة لمدة سبعة أيام أو ثمانية. قالت نيكول: «سيكون هذا الأمر أسوأ من المكوث بالتجويف في نيويورك.»

تفقدت نيكول المؤن التي ألقاها هيلمان وياماناكا في القارب في عجالة. كان توزيع الطعام صحيحًا إلى حد ما، سواء في الكم أو في التنوع، ويكفي لرحلة مدتها أسبوع؛ لكن عبوة العناية الطبية كانت غير وافية بالمرة. دونت نيكول بضع ملاحظات، وأعدت قائمة المؤن التي اعتبرت أنها ستكون ملائمة لطاقم مكون من فردين أو ثلاثة، ثم قدرت كتلة المؤن اللازمة وحجمها. ثم بدأت تعبر القمرة.

وقعت عيناها على القنابل النووية التي تأخذ شكل الرصاصات الملقاة في سكون على جوانبها بجوار غرفة معادلة الضغط الخاصة بالزورق. سارت نيكول نحوها ولمستها، وتحسست بيديها بتؤدةٍ السطح المعدني اللامع. قالت نيكول في سرها: «إذن هذه هي أسلحة الدمار الأولى والعظمى، ثمرة كد فيزيائيي القرن العشرين البارزين.»

همهمت نيكول وهي تسير بين القنابل النووية: «يا لها من صورة محزنة لجنسنا البشري. جاء زائر ليرانا. وهو لا يستطيع أن يتحدث بلغتنا لكنه اكتشف أين نعيش. وعندما انعطف هذا الشيء في شوارعنا، وبينما لم تكن نيته معروفة لنا بعد، نسعى لتفجيره إلى أن يذهب لغياهب النسيان.»

ثم اجتازت عبر القمرة متجهةً نحو مكان الإقامة، وهي تشعر بحزن عميق في نفسها. قالت نيكول لنفسها: «تكمن مشكلتكِ في أنكِ دائمًا ما تتوقعين الكثير. من نفسك. وممن تحبين. وحتى من الجنس البشري. نحن لم ننضج بعد كجنس بشري.»

أصابت نيكول نوبة غثيان جعلتها تتوقف لحظة. قالت نيكول في نفسها: «ماذا ألم بي؟ هل أعيتني هذه القنابل؟» استرجعت نيكول شعور غثيان مشابه منذ خمسة عشر عامًا، على مدار ساعتين في خلال رحلتها من لوس أنجلوس إلى باريس. قالت نيكول في سرها: «هذا مستحيل. لكنني سأتحقق من الأمر لأتيقن ...»

كان ريتشارد يقول: «وهذا سبب آخر يعلل لمَ لا يستطيع ثلاثتنا أن يطيروا في زورق فردي. لا تستائي يا نيكول. حتى لو كانت المساحة الفارغة في الزورق تسع أجسادنا ومستلزماتنا من المؤن، فإن قدرة تغير تسارع الزورق بكل هذه الكتلة تكاد أن تغلق المدار المحيط بالشمس. وعندها ستنعدم فرصنا في النجاة بالفعل.»

ردت عليه نيكول وهي تحاول أن تبتهج: «حسنًا، على الأقل لا يزال أمامنا الخيار الآخر. يمكننا العودة في هذه المركبة الكبيرة. طبقًا لتقديراتي، يمكننا أن نتخلص مما يزيد عن عشرة آلاف كيلوجرام ...»

قاطعها الجنرال أوتول: «مع الأسف هذا لا يهم.»

نظرت نيكول إلى ريتشارد. وقالت: «عمَّ يتحدث؟»

نهض ريتشارد ويكفيلد وسار نحو نيكول. وأمسك بيديها بين يديه. وقال: «لقد أفسدوا نظام الملاحة أيضًا. إن خوارزمياتهم آلية البحث، تلك التي تعالج كميات هائلة من البيانات والتي استُخدمت في محاولة فك شفرة أوتول، حلت محل حواسيب الأغراض العامة بالإضافة إلى اتصالات الفيديو والروتينات الفرعية للملاحة. من ثَم باتت هذه المركبة عديمة النفع كوسيلة انتقال.»

كان صوت الجنرال أوتول منخفضًا ويخلو من نبرة الحماسة المعتادة. إذ قال: «حتمًا بدءوا في فعل ذلك بعد رحيلي ببضع دقائق فحسب. قرأ ريتشارد ذاكرة التخزين المؤقت للأوامر، ووجد أن برمجة فك الشفرات قد وُصلت بعد رحيلي بفترة لم تتجاوز الساعتين.»

سألت نيكول: «لكن لماذا أفسدوا نيوتن؟»

قال أوتول بانفعال: «ألا تفهمين لماذا؟ لقد تغيرت الأولويات. لم يعد شيء مهمًّا بنفس قدر أهمية تفجير الأسلحة النووية. ولم يشاءوا أن يضيعوا الوقت المنقضي في بث موجات الإرسال ذهابًا وإيابًا من الأرض. من ثَم نقلوا الحواسيب إلى هنا حيث يمكن إدخال كل شفرة متتالية مختبرة من الكمبيوتر مباشرة دون تأخير.»

قاطعه ريتشارد وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا: «إحقاقًا لحق المتحكمين بالبعثة، علينا أن نعترف بأن سفينة نيوتن العسكرية المحملة عن آخرها، لديها فعليًّا قدرة على تغيير المسار أقل من قدرة الزورق الذي يسع فردين فحسب وإن كان يحتوي على نظام دفع إضافي. ومن وجهة نظر مدير الأمن والسلامة بوكالة الفضاء، لم يكن هناك ما يشير إلى زيادة المخاطر فيما يتعلق بجعل هذه المركبة غير قابلة للعمل.»

اختلف الجنرال معه: «لكن ما كان ينبغي أن يحدث أيٌّ من هذا في المقام الأول. اللعنة! لماذا لم يستطيعوا الانتظار إلى حين عودتي؟»

جلست نيكول فجأة على أحد المقاعد الفارغة. كان رأسها يدور، وشعرت لحظة بدوار. قال ريتشارد وهو يقترب منها في قلق: «ما الخَطب؟»

أجابته: «لقد أُصبت بدوار على فترات مختلفة اليوم. أعتقد أنني حامل. سأتأكد من ذلك خلال عشرين دقيقة.» ابتسمت نيكول لريتشارد المصعوق. وقالت: «قلما تحمل امرأة في غضون تسعين يومًا من الحقن بمادة النيوترابريوليت. لكن الأمر حدث من قبل. لا أفترض ...»

قاطعها الجنرال أوتول المتحمس فجأة: «مبروك. لم أكن أدري أنكما تنويان تكوين عائلة.»

أجابه ريتشارد وهو لا يزال مصعوقًا: «ولا أنا أيضًا.» ثم حضن نيكول بشدة وضمها إليه. وكرر جملته: «ولا أنا أيضًا.»

قال الجنرال أوتول لريتشارد جازمًا: «لا مزيد من النقاش في هذا الموضوع. حتى لو لم تكن نيكول حاملًا في ابنك، كنت سأصر أيضًا على أن تذهبا كلاكما في الزورق الصغير وتتركاني هنا. هذا هو القرار الوحيد الرشيد. أولًا، كلانا يعرف أن الكتلة هي أكثر العوامل أهمية، وأنا أكثرنا ثقلًا. علاوة على أنني هرم، أما أنتما ففي ريعان شبابكما. وأنت تعرف كيف تقود الزورق، أما أنا فلم أتدرب على استخدامه ولا مرة واحدة.» أضاف أوتول بجفاء: «ناهيك عن أنني سوف أخضع لمحاكمة عسكرية على الأرض لرفضي اتباع الأوامر.»

استرسل أوتول بعد لحظات: «أما أنتِ، يا طبيبتي العزيزة، فأنا لست بحاجة لأن أخبرك أنك تحملين طفلًا مميزًا جدًّا. فسيكون هو أو هي الطفل البشري الوحيد الذي حملت به امرأة داخل مركبة فضائية خارج الأرض.» نهض أوتول ونظر حوله. وقال: «والآن، أقترح أن نفتح زجاجة خمر ونحتفل بأمسيتنا الأخيرة معًا.»

شاهدت نيكول الجنرال أوتول وهو ينسل بهدوء إلى مخزن الأطعمة. وفتحه وأخذ يبحث فيه. قالت له نيكول: «سأكتفي بعصير فاكهة يا مايكل. لا ينبغي أن أشرب أكثر من كوب واحد من الخمر الآن بأي حال من الأحوال.»

رد عليها بسرعة: «بالطبع. لقد نسيت. كنت آمل أن نقوم بشيء مميز في هذه الليلة الأخيرة. لقد وددت أن أشارك مرة أخيرة ...» منع أوتول نفسه عن الكلام وأحضر الخمر والعصير إلى الطاولة. ثم ناول الأكواب لكلٍّ من ريتشارد ونيكول. وقال بهدوء بعد أن صار مزاجه معتدلًا: «أريدكما أن تعرفا أنني لا يمكنني أن أتخيل رفيقين أكثر لطفًا منكما. أتمنى لكما النجاح الباهر، ولا سيما مع الطفل المنتظر.»

شرب الرواد الثلاثة في صمت ساد بضع ثوانٍ. ثم قال الجنرال أوتول بنبرة خافتة: «جميعنا نعرف، أليس كذلك؟ نعرف أن القذائف قطعًا في طريقها. أتعتقد كم تبقى من الوقت لي؟»

أجابه: «طبقًا لما قاله الفريق البحري هيلمان في شريط الفيديو، يمكنني القول إن القذيفة الأولى سوف تصل في غضون مدة تتراوح بين يوم وخمسة أيام. وهذا سيتوافق مع كون الزورق الصغير موجودًا خارج نطاق الحطام، ومع سرعات الانحراف التي يجب أن تتوافر للأجزاء المتبقية من المركبة الفضائية.»

قالت نيكول: «لقد فاتني ما تقولان. أي قذائف هذه التي تتحدثان عنها؟»

مال ريتشارد نحوها. وقال بنبرة تنم عن خطورة الوضع: «أنا ومايكل متأكدان أن مجلس الحكومات قد أمر بتوجيه قذائف نحو راما. فهم ليسوا متأكدين من أن الجنرال سوف يعود إلى نيوتن ويُدخل شفرته. كما أن خوارزمية البحث باستخدام جهاز النقر الذاتي لم تكن مضمونة النجاح على أحسن تقدير. توجيه قذائف من الأرض هو الشيء الوحيد الذي يضمن أن راما لن تكون قادرة على أن تلحق الضرر بالأرض.»

قال الجنرال أوتول بعد بضع ثوانٍ من التأمل: «إذن لديَّ أكثر قليلًا من ثمانٍ وأربعين ساعة لكي أعيش آخر لحظات السلام مع الرب. لقد عشت حياة رائعة. ولديَّ الكثير لأحمده عليه. وسأقف بين يديه غير نادم.»

الفصل التاسع والخمسون

حلم القدر

بينما كانت نيكول تمد يدها فوق رأسها وإلى جنبيها، اصطدمت بريتشارد عن يسارها وتدلى أحد أوعية الماء قليلًا خارج الرف الموجود خلفها. قالت نيكول وهي تتلوى في مقعدها: «ستكون مزدحمة.»

رد عليها ريتشارد متشتتًا: «بلى.» كان يركز انتباهه على شاشة العرض الموجودة أمام مقعد الطيار في الزورق الصغير. أدخل ريتشارد بعض الأوامر وانتظر الرد. وعندما جاء أخيرًا، عبس وجهه.

قالت نيكول وهي تتنهد: «أعتقد أنني سأقوم بمحاولة أخرى لإعادة تعبئة المؤن.» استدارت نيكول في مقعدها وحدقت في الأرفف. وقالت: «يمكنني أن أوفر بعض الفراغ وأتخلص من أربعة عشر كيلوجرامًا إذا كانت نجاتنا مضمونة في غضون سبعة أيام.»

لم يُجبها ريتشارد. وعندما ظهرت مجموعة من الأرقام على الشاشة دمدم: «اللعنة.»

سألته نيكول قائلة: «ما الخَطب؟»

أجابها ريتشارد: «ثمة شيء غير مضبوط تمامًا هنا. لقد أُعدت شفرة الملاحة بحيث يستوعب القارب حمولة أقل جدًّا من هذه، وقد لا تصل إلى هذا الحد حتى لو تخلصنا من أحد أجهزة قياس التسارع.» انتظرت نيكول بصبر حتى يفسر لها ريتشارد الأمر. استرسل ريتشارد: «من ثَم إذا حدث أي خلل في الوظائف على طول الرحلة، قد يتعين علينا أن نقف لبضع ساعات ثم نعيد التشغيل.»

قالت نيكول: «لكنني أعتقد أنك قلت إنه يوجد وفرة من الوقود تكفي كلينا.»

رد عليها: «نعم، هناك وفرة من الوقود. لكن هناك بعض التفاصيل المهمة والعصية عن الفهم في خوارزميات الملاحة المعادة برمجتها التي تفترض أن الزورق يحتوي على أقل من مائة كيلوجرام، أي وزن أوتول ومؤنه فقط.»

رأت نيكول القلق باديًا على وجه ريتشارد. استرسل ريتشارد: «أعتقد أننا بخير، ما لم يحدث أي خلل وظيفي. لكني لم أرَ قط زورقًا يعمل قيد شروط مماثلة.»

وعبر النافذة الأمامية، استطاعا أن يشاهدا الجنرال أوتول يسير عبر الكابينة باتجاههما. وكان يحمل شيئًا صغيرًا في يده. لقد كان أحد شخصيات شكسبير الآلية التي ابتكرها ريتشارد.

بعد دقيقة قال أوتول بعدما شكره ريتشارد شكرًا جزيلًا: «لقد أوشكت أن أنسى أنه بحوزتي.» وكان ريتشارد يحلق حول مخزن الطعام مثل طفل فرح، وابتسامة عريضة تكسو وجهه المبتهج.

صرخ ريتشارد من فوق أحد الجدران الجانبية حيث حملته قوته الدافعة: «لقد خال لي أنني لن أرى أي أحد منهم مرة أخرى على الإطلاق.»

صرخ الجنرال أوتول ردًّا عليه: «كنت أمر على غرفتك قبل رحيل المركبة العلمية مباشرة، وكان الرائد تابوري يرتب أغراضك وطلب مني أن أحتفظ بهذا الإنسان الآلي المميز، تحسبًا لـ...»

قال ريتشارد: «أشكرك، أشكرك يا جانوس.» ثم هبط بحذر من على الجدار وثبت نفسه على الأرضية. ثم قال وفي عينيه لمعة: «هذا الإنسان الآلي مميز جدًّا، يا مايكل.» ثم شغل الإنسان الآلي. وسأل أوتول: «هل تعرف أي سونيتات شكسبير؟»

أجابه: «هناك واحدة تحبها كاثلين بشدة، لو كنت أستطيع أن أتذكرها. أعتقد أن البيت الأول يقول: ذلك الفصل من فصول السنة يمكن ...»

وعندئذٍ تلا الشاعر تلك الأبيات من السونيتة رقم ٧٣ لشكسبير:

ذلك الفصل من فصول السنة، يمكن أن تراه في مشاعري
حين يكون الورق الأصفر، أو القليل، أو لا شيء،
عالقًا على تلك الغصون، التي تهتز في مجابهة البرد،
آلات عزف عارية محطمة، غنت عليها الطيور الأثيرة ذات يوم.
في كِياني ترى الشفق الذي كان في ذلك اليوم
يذوي في الغرب مثل الشمس بعد الغروب ...

هز الصوت الأنثوي للشاعر كِيان كلٍّ من نيكول والجنرال أوتول. وضربت الكلمات على وتر حساس داخل أوتول، لقد هزته بعنف، حتى إن قطرات من الدمع تجمعت في مُقلتَيه. أخذت نيكول يد الجنرال وضغطت عليها بحنو عندما انتهى الشاعر من إلقاء القصيدة.

قالت نيكول لريتشارد: «أنت لم تخبر مايكل بأي شيء من المشكلات التي وجدتها في ملاحة المركب.» كان ريتشارد ونيكول مستلقيين جنبًا إلى جنب في إحدى غرف النوم الصغيرة على متن المركبة العسكرية.

أجابها ريتشارد بهدوء: «كلا. لم أشأ أن أزعجه. هو يعتقد أننا سوف نكون بمأمن، ولا أريده أن يعتقد غير ذلك.»

مدت نيكول يدها ولمست ريتشارد. وقالت: «يمكننا أن نمكث نحن هنا يا حبيبي، وعندئذٍ على الأقل يمكن لمايكل أن ينجو.»

التفت ريتشارد نحوها. وكانت نيكول تدرك أنه ينظر إليها مع أنه لم يكن بمقدورها أن تراه بوضوح في الظلام. قال ريتشارد: «لقد فكرت في هذا الأمر. لكنه لن يقبل بهذا أبدًا ... أنا حتى فكرت في أن أتركك تذهبين بمفردك. هل تريدين ذلك؟»

ردت نيكول بعد لحظة من التفكير: «كلا. لا أعتقد ذلك. أفضل أن أذهب معك، إلا إذا ...»

سألها ريتشارد: «إلا إذا ماذا؟»

أجابته: «إلا إذا كان هناك فارق كبير بحق في الاحتمالات. إذا كان احتمال نجاة أحدنا يفوق احتمال موتنا نحن الاثنين، فعدم الذهاب عندئذٍ لن يكون خيارًا منطقيًّا ...»

قاطعها ريتشارد: «لا يمكنني أن أقدم لك تقييمًا لاحتمالات دقيقة. لكنني لا أعتقد أن هناك فارقًا كبيرًا إذا غادرنا معًا.

بناءً على معرفتي بالزورق الصغير ونظامه، أرى أنه قد يتحمل تقريبًا الكتلة الإضافية. لكن في كلتا الحالتين من الأفضل أن نكون في الزورق الصغير على أن نظل هنا.»

سألته نيكول: «أنت مقتنع تمام الاقتناع أن القذائف في طريقها إلى هنا، أليس كذلك؟»

أجابها: «أجل قطعًا. هذا هو الشيء الوحيد المنطقي. أراهن أن مثل هذه الخطة المحتملة أصبحت قيد الإعداد منذ أن غيرت راما مسارها باتجاه الأرض.»

التزما الصمت مرة أخرى. حاولت نيكول أن تنام بلا جدوى. لقد قررا كلاهما أن ينالا قسطًا من الراحة ست ساعات قبل الرحيل، من ثَم يمكنهما أن يوفرا بعض الطاقة للرحلة التي ستكون مضنية بلا شك. لكن ذهن نيكول لم يستطع أن يتوقف عن العمل. وظلت تتخيل الجنرال أوتول وهو يلقى حتفه بإحدى القذائف النووية.

قالت نيكول بهدوء شديد: «إنه رجل رائع بحق.» ولم تكن متأكدة أن ريتشارد لا يزال مستيقظًا.

أجابها ريتشارد بنفس نبرة الصوت: «بلى، هو كذلك. أنا أحسده على ثباته الداخلي. لا يمكنني أن أتخيل أني أتخلى عن حياتي من أجل أحد آخر بمحض إرادتي،» ثم توقف لحظة عن الكلام. واسترسل: «أظن أن هذا ينبع من معتقداته الدينية العميقة. فهو لا يرى الموت على أنه النهاية، وإنما هو مرحلة انتقالية وحسب.»

وجال بخاطر نيكول: «بمقدوري أن أفعل هذا. يمكنني أن أضحي بحياتي من أجل جينيفيف. وربما أيضًا من أجل ريتشارد وهذا الجنين. وربما وفقًا إلى معتقدات أوتول الدينية، البشر جميعًا جزء من عائلته.»

في تلك الأثناء كان ريتشارد يصارع عواطفه. هل هو أناني في عدم إصراره على ترك نيكول تذهب بمفردها؟ وهل هو بالفعل يبرر المخاطر المتزايدة الناجمة عن وجوده في الزورق بحجة مهاراته البارعة؟ طرد ريتشارد الأسئلة من ذهنه وحاول أن يفكر في شيء آخر.

قالت نيكول بلطف بعد فترة صمت وجيزة أخرى: «أنت لم تذكر شيئًا عن الطفل المنتظر.»

أجابها: «لم يكن لديَّ وقت بالفعل لأشركه أو أشركها فيما يحدث. أعتقد أنني كنت متبلد الحس ... أنا مبتهج جدًّا به فعلًا. أريد أن أنتظر فحسب إلى حين أن يجري إنقاذنا قبل أن أبدأ في التفكير بجدية كيف سيكون الأمر عندما أصبح أبًا.» مال ريتشارد نحوها وقبلها. ثم قال لها: «الآن يا حبيبتي، آمل ألا تقولي إنني وقح، لكنني سأحاول أن أنام. من الممكن أن يمر وقت طويل قبل أن نحظى بفرصة أخرى ...»

قالت نيكول: «بالطبع. أنا آسفة.» تحول ذهن نيكول إلى صورة أخرى، وكانت هذه الصورة للطفل الصغير. قالت نيكول في سرها: «أتساءل هل سيكون ذكيًّا. وهل سيكون له عينا ريتشارد الزرقاوان وأصابعه الطويلة؟»

كانت نيكول منكمشة في ركن الغرفة المضاءة بنور خافت. وكان مذاق شمام المن لا يزال في حلقها. أيقظها نقر غريب على كتفها. حملقت نيكول لأعلى ورأت الطائر ذا طبقة القطيفة الرمادية يميل عليها. وكانت الحلقات الحمراء حول عنقه تتوهج في الظلام. قال الطائر في توسل: «هيا. يجب أن تأتي معنا.»

تبعت نيكول الطائر إلى الرواق ثم انعطفت يمينًا بعيدًا عن الممر الرأسي. كانت الطيور الأخرى تقف في هدوء أمام الجدار، وجميعها تراقبها من كثب. وتبع الموكب بأكمله الطائر الرمادي إلى أسفل النفق.

وفي غضون ثوانٍ معدودة امتد النفق إلى غرفة كبيرة. وهناك مصدر وحيد للضوء معزول عن الجدار البعيد، فيما عدا ذلك كانت الغرفة مظلمة. وهناك آخرون، لكن نيكول لم تتمكن من رؤيتهم بوضوح. ولكنها تلمح بين الفينة والفينة ظلهم عندما يتحركون فيقطعون الشعاع الخارج من المصدر الضوئي الوحيد. همَّت نيكول بقول شيء ما، لكن قائد الطيور قاطعها. إذ قال: «صهِ، سيحضرون حالًا.»

سمعت نيكول صوت ضوضاء آتيًا ناحيتهم من الجانب المقابل للغرفة. لقد بدا الصوت وكأنه صوت عربة ذات عجلات خشبية تتحرك في درب موحل. وعندما وصل هذا الشيء أحاطت الطيور بنيكول واحتشدت حولها. وبعد مرور لحظات، كانت هناك نيران مضرمة أمامهم.

وكان يوجد أعلى العربة المشتعلة نعش. شهقت نيكول. فجسد والدتها ممد فوق النعش وهي متسربلة برداء أخضر فخم. وعلى ضوء النيران، استطاعت نيكول أن ترى بعض الآخرين الموجودين بالغرفة. كان ريتشارد يبتسم لها وهو يمسك بيد صبية سمراء صغيرة في الثانية من عمرها تقريبًا. والجنرال أوتول قريب جدًّا من النار، ويركع مصليًا بجوارها. ووراءه مجموعة من المخلوقات الآلية وكائنان أو ثلاثة ذوو شكل غريب حتمًا هي مخلوقات الأوكتوسبايدر.

التهمت النيران النعش وبدأت تلتهم جسد والدتها. نهضت والدتها بتؤدة من وضع الاستلقاء التي كانت فيه، وعندما سارت أناوي باتجاه نيكول تغيرت ملامح وجهها. كان رأس أوميه على جسد والدتها.

قال أوميه بوضوح: «روناتا، يجب أن تنتبهي للنبوءات. سلالة السنوفو سوف تمتد، بل ستصل إلى النجوم. ميناو سوف تُهجر. وروناتا يجب أن تسافر مع أولئك الذين أتوا من بعيد جدًّا. انطلقي الآن وأنقذي أولئك الغرباء وأطفال روناتا.»

الفصل الستون

العودة إلى راما

«لا أصدق أنني أفعل هذا»، هكذا كانت نيكول تقول لنفسها بينما كانت تحمل حملها الأخير من المؤن عبر المعدية إلى مصعد الأحمال الثقيلة أعلى قمة سلالم محطة بيتا. كان الظلام يسود داخل راما. وشعاع الضوء الخارج من مصباحها يشع في الفراغ المظلم.

كان الحلم واضحًا للغاية حتى إن نيكول ظلت فاقدة الحس بالزمان والمكان تمامًا لما يزيد عن خمس دقائق بعدما استيقظت. وحتى الآن، بعد مرور ما يقرب من ساعتين، كلما أغمضت عينيها استطاعت أن ترى وجه أوميه بوضوح وتسمع صوته السحري يرتل الكلمات. فقالت لنفسها: «آمل ألا يستيقظ ريتشارد قبل أن أنصرف. فما من طريقة تجعله يتفهم هذا على الإطلاق.»

رجعت نيكول إلى المعدية وقامت برحلة أخيرة عبر الهيكل نحو نيوتن. وظلت نيكول على مدار ثلاثين دقيقة تصوغ كلمات الوداع في ذهنها، لكن الآن عندما حانت اللحظة، كانت نيكول قلقة. فقررت أن تستهل حديثها كالآتي: «عزيزي مايكل وحبيبي ريتشارد، رأيت في ليلتي أكثر الأحلام المقنعة في حياتي على الإطلاق. لقد ظهر لي زعيم السنوفو الهَرِم أوميه وأخبرني أن مصيري مرتبط براما.»

اجتازت نيكول غرفة معادلة الضغط ودخلت مركز التحكم. وجلست أمام الكاميرا وتنحنحت. قالت نيكول لنفسها قبل أن تضيء الأنوار مباشرة: «يا له من أمر سخيف. لا بد أني جُننت.» لكن قوة صورة أوميه في ذهنها أبعدت كل الشكوك التي ساورتها في هذه الدقيقة الأخيرة. وبعد لحظات واصلت نيكول كلماتها الأخيرة لأصدقائها.

قالت نيكول: «لا يمكن على الإطلاق أن أوجز في هذا الوداع القصير أهمية أوميه وخلفيتي الأفريقية في حياتي. يا مايكل، يمكن لريتشارد أن يخبرك بعض قصص السنوفو وأنتما في طريق عودتكما إلى الأرض. يكفي أن أقول إن الشيخ الساحر لم يخدعني البتة.

أعرف جيدًا أن سماع صوت في حلم ليس دليلًا ماديًّا يمكن الاستناد إليه، وغالبًا ما ينبع من العقل اللاواعي، لكنني قررت مع ذلك أن أتبع التعليمات التي أعطاني إياها أوميه.

لقد عزمت على أن أفعل ما بوسعي كي أبلغ راما أن القذائف النووية قد تكون في طريقها إليها. لا أعرف بالضبط كيف سأتمم ذلك، لكنني سأحظى ببعض الساعات التي يمكن أن أخطط خلالها، وأنا أجمع القارب الشراعي كي أعبر البحر الأسطواني. أتذكر جيدًا يا ريتشارد النقاش الذي دار بيننا بشأن أوامر لوحة المفاتيح التي قد تقود إلى أعلى التسلسل الهرمي ...

من الصعب عليَّ جدًّا أن أودعكم بمثل هذه الطريقة، وأعي جيدًا أن هذا بديل حقير لعناقنا الأخير. لكن لو كنتما مستيقظين، ما كنتما لتسمحا لي أبدًا بالرجوع إلى داخل راما ... أحبك يا ريتشارد، لا تشك في ذلك لحظة. أعرف أن ما سأقوله بعيد الاحتمال، لكن ربما نجتمع معًا بطريقة ما في مكان آخر يومًا ما. أعدك أنني إذا نجوت وأنجبت طفلتنا، لن أتوقف أبدًا عن إخبارها عن ذكاء والدها وفطنته وحسه المرهف.

لي طلب واحد أخير. إذا حدث ورجعتما إلى الأرض سالمين ولم أعد أنا إلى الأرض أبدًا، من فضلكما اشرحا لجينيفيف ما ألم بي. أخبراها القصة بأكملها، عن الحلم، والقارورة، والرؤية، واحتفال البورو عندما كنت طفلة. وأخبراها أنني أحببتها من أعماق قلبي.»

كانت الدموع تنهمر على وجنتَي نيكول عندما انتهت من رسالتها. نهضت نيكول ولفت الشريط. وشغلته مدة دقيقة كي تتأكد من أنه قد سُجِّل جيدًا، ثم اتجهت إلى غرفة معادلة الضغط. قالت نيكول وهي ترتدي خوذتها: «يا للهول، أنا في طريقي بالفعل لإنجاز هذه المهمة.»

في غضون هبوطها المرعب باستخدام التلفريك في الظلام، انتابتها هواجس قوية بشأن قرارها بالعودة إلى راما. كان حسها القوي لضبط النفس هو الشيء الوحيد الذي جعلها تطرد المخاوف المستمرة. وعندما ركبت الطوافة وبدأت تقود باتجاه البحر الأسطواني، فكرت كيف سيمكنها أن تتواصل مع العقل الذي يحكم راما. قالت نيكول لنفسها: «قطعًا سأستخدم صورًا، وكلما أمكن سأستخدم اللغة العلمية الدقيقة. لقد تعلمت الكثير جدًّا من ريتشارد.»

وما إن خطر اسم ريتشارد بذهنها حتى أضرمت بداخلها نيران القلق مرة أخرى. قالت نيكول في قلق: «سوف يعتقد أنني تخليت عنه. وكيف لي أن أتوقع منه أن يفكر

عكس ذلك؟» تذكرت نيكول الأيام الأولى الكئيبة من حملها بجينيفيف، ومدى الوحدة التي كانت تشعر بها؛ إذ لم يكن لديها من تشاركه بمشاعرها. مرة أخرى راودها شعور قوي بأن تستدير وتترك راما. لكن البزوغ المذهل للضوء قطع حبل أفكارها. فلقد انبلج الفجر مرة أخرى على راما. وكما حدث من قبل، افتتنت نيكول بالمناظر المحيطة بها. فقالت في نفسها: «لا يوجد شيء في أي مكان بالكون يضاهي هذا المشهد.»

وعندما وصلت نيكول إلى المكان الذي كان يشغله مخيم بيتا من قبل، عثرت أولًا على الحاوية التي تحتوي على القارب الشراعي الكبير ثم بدأت تفرغ محتوياتها. كانت في حالة جيدة. كان القارب موضوعًا في قاع حاوية تخزين ضخمة. كان العمل في تجميع القارب الشراعي شغل نيكول عن التفكير في قرارها بترك نيوتن. ولم تكن بارعة في التجميع الميكانيكي. كاد أن يستبد بها اليأس مرة عندما تعين عليها أن تفك وصلة رئيسية كانت قد استغرقت في تركيبها عشر دقائق في المقام الأول. وقد ذكرها هذا العمل بالعديد من ليالي الكريسماس المحبطة في بوفوا عندما كانت تعمل هي وبيير طوال الليل تقريبًا على تجميع أجزاء اللعب الجديدة لجينفيف. دمدمت نيكول ضاحكة وهي تجاهد لفهم تعليمات تركيب القارب الشراعي: «ينبغي أن يُسن قانون ينص على ألا تبيع المتاجر اللعب إلا المجمعة منها فحسب.»

حملت نيكول جسم القارب وانحدرت به ثم وضعته إلى جانب الماء. لقد جمَّعت البنيتين الرئيسيتين على الجرف بأعلى، حيث كانت الإضاءة أقوى. وكانت نيكول منهمكة بشدة في عملها حتى إنها لم تسمع وقع الأقدام إلا بعدما أصبحت على بعد مترين أو ثلاثة أمتار منها فحسب. عندما التفتت نيكول التي كانت تعمل وهي جاثية على ركبتيها إلى يمينها ورأت شيئًا يقترب منها جدًّا، دب الذعر في أوصالها.

وبعد لحظات كانت هي وريتشارد يتعانقان ويقبل أحدهما الآخر. قال ريتشارد وهو يجلس إلى جانبها ويبدأ العمل في القارب الشراعي معها: «أوتول قادم أيضًا. في بادئ الأمر عندما شرحت له أنني لن أغادر دونكِ؛ لأنه أيًّا كانت الحياة التي سأحياها على الأرض فهي لا تعني شيئًا لي إن لم تكوني معي، فرد عليَّ بأن كلينا مجنون. لكن بعدما تحدثنا، وشرحت له أنني أعتقد أننا لدينا فرصة جيدة لتحذير سكان راما، قرر أنه يحبذ قضاء ساعاته الأخيرة معنا على أن يموت ميتة شنيعة بمفرده في الزورق الصغير.»

سألته نيكول: «لكن أعتقد أنك قلت إنها سوف تكون رحلة آمنة لمسافر واحد.»

أجابها: «هذا ليس أكيدًا تمامًا. فالبرامج المحملة على الزورق أشبه بكابوس. يمكنك أن تفهمي من البرمجة أنها قد أُعِدَّت في عجالة. وكيف تتسنى مراجعتها كما ينبغي؟

صحيح من الممكن أن يحظى أوتول وحده بفرصة للنجاة أفضل من الفرصة التي يمكن أن يحظى بها كلانا معًا ... لكن لا تنسي أنه سوف يجابه مشكلات خطيرة فور وصوله الأرض. فذلك التعليق الخاص بالمحاكمة العسكرية لم يكن على سبيل اللغو في حديث.»

ردت عليه: «لا أعتقد أن مايكل يخشى المحاكمة العسكرية، ربما أراد أن يُجنب أسرته المتاعب، لكن ...»

قطع حديثهما صراخ قادم من بعيد. كان الجنرال أوتول يلوح لهما من الطوافة التي كان يقودها نحوهما. استرسلت نيكول: «لكني لا أفهم. كيف تمكن من المجيء إلى هنا بهذه السرعة؟ أنت لم تأتِ إلى هنا سيرًا على الأقدام، أليس كذلك؟»

ضحك ريتشارد. وقال: «بالطبع لا. لقد تركت إشارة ضوئية عند قاع التلفريك. وبعدما وصلت إلى مخيم بيتا واكتشفت أنك أخرجت القارب الشراعي وأجزاءه، أرجعت الطوافة أوتوماتيكيًّا.»

ردت عليه نيكول: «يا لك من شجاع. ماذا لو كنت قد بدأت في الإبحار في غضون الوقت الإضافي الذي استغرقته أنت لتبحث عني سيرًا على الأقدام؟»

نظر ريتشارد من فوق الجرف، إلى جسم القارب المختبئ بجانب الماء. وقال بنبرة ساخرة: «في الواقع أنتِ أنجزتِ أكثر مما توقعت. لربما انتهيتِ من الأمر في غضون ساعة أخرى أو ساعتين.»

أمسك ريتشارد بيد نيكول وهي تحاول أن تضربه.

كان الجنرال أوتول هو البحار المتمرس الوحيد بينهم. وعندما أصبحوا في عرض البحر، أوكل إلى ريتشارد مهمة الإمساك بأحد المجاديف كسلاح في حال إذا ما هاجمهم زوج القروش الآلية الذي كان يتتبعهم كظلهم. قال أوتول وهو يحدق عبر نيويورك: «إن هذا ليس مثل الموانى المألوفة بالولايات المتحدة مثل ماربلهيد أو ذا كيب لكنها قطعًا رحلة بحرية مثيرة.»

حاول ريتشارد بلا جدوى في أثناء الرحلة إقناع نيكول المتوترة أنه ليس من المحتمل أن تضايقهم القروش الآلية. قال ريتشارد: «في نهاية الأمر، لم يعترضا على الإطلاق طريق القوارب أثناء بعثة راما ١. بالتأكيد لقد قلبا قاربي المرة السابقة بسبب شيء محدد في تصميم قواربنا البخارية الجديدة.»

سألته نيكول وهي تحدق بانزعاج في الظلال الرمادية التي تظهر في الماء إلى جانبهم: «كيف لك أن تجزم بذلك؟ وإن كانا فعلًا لا ينويان الهجوم علينا، فلماذا يتعقبانا كل هذه المسافة؟»

أجابها: «كل ما هنالك أننا نثير فضولهما.» ومع ذلك تأهب ريتشارد للدفاع عندما انحرف أحد الظلين فجأة باتجاه القارب. فقد اختفى الظل أسفل القارب ثم انضم إلى رفيقه في الجانب الآخر. قال ريتشارد وهو يرخي قبضته من على المجداف: «انظري، لقد قلت لكِ، ليس هناك ما يدعو للقلق.»

وعندما وصلوا أرسوا القارب على ساحل نيويورك قبل أن يرتقوا السلالم القريبة. ولما كانت هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها الجنرال أوتول نيويورك، وقد كان مأخوذًا بطبيعة الحال بما كان يراه، أخذت نيكول تخبره بإيجاز عن المعالم على طول الطريق بينما انطلق ريتشارد ليبدأ العمل على الكمبيوتر.

وعندما وصلت نيكول والجنرال أوتول إلى الغرفة البيضاء، كان لدى ريتشارد بعض التطورات بالفعل ليخبرهما بها. قال ريتشارد بعد ثوانٍ معدودة من انضمامهما إليه: «افتراضي كان في محله. أنا متأكد للغاية من أنني دخلت الآن إلى قائمة جهاز الاستشعار بأكملها. قطعًا هم لديهم رادار أو ما يشابهه. وبينما أحاول أنا أن أحدد موضعه، لما لا تعدان أنتما مخططًا تنظيميًّا للطريقة التي سننقل بها تحذيرنا. ضعا في حسبانكما أن تكون بسيطة. فنحن ليس لدينا غالبًا أكثر من أربع وعشرين ساعة حتى تصل القذيفة الأولى.»

قالت نيكول لنفسها: «أربع وعشرون ساعة. أي يوم واحد آخر.» حملقت نيكول في ريتشارد، المنهمك في العمل على لوحة المفاتيح، والجنرال أوتول الذي كان ينظر إلى بعض من الأشياء السوداء التي لا تزال مبعثرة في أحد الأركان. وسرعان ما اجتاحها خوف اجتث إعجابها اللحظي بالرجلين. فقد سيطرت عليها حقيقة أنهما في مأزق. تساءلت نيكول: «هل سنموت كلنا غدًا؟»

الفصل الحادي والستون

سفينة فضائية في خطر

قال ريتشارد بلا انفعال: «لا ينبغي أن نُفاجأ بحق. فكلنا كنا متوقعين ذلك.» كان ثلاثتهم يجلسون أمام الشاشة السوداء العملاقة.

قاطعه أوتول: «لكننا رجونا غير ذلك. في بعض الأحيان، يكون من المحبط إثبات صحة توقعك.»

سألته نيكول: «هل أنت واثق يا ريتشارد من أن كل هذه الصور تعبر عن شيء في الفضاء؟»

أجابها ريتشارد: «لا يساورني شك في ذلك. نحن متأكدون من أننا ننظر في مخرجات جهاز استشعار. انظري، سأريك كيف تغيرين المجالات.» استدعى ريتشارد إلى الشاشة صورة تظهر فيها أسطوانة، هي راما بالقطع، في منتصف مجموعة من الدوائر المتحدة المركز. بعد ذلك أدخل زوجًا آخر من الأوامر، فظهرت صورة متحركة على الشاشة. وأخذت الاسطوانة تتضاءل في الحجم أكثر فأكثر، وفي آخر الأمر أخذت تتلاشى تدريجيًّا حتى أصبحت مجرد نقطة. كذلك أخذ يتضاءل حجم الدوائر الأحادية المركز المحيطة بالأسطوانة في أثناء الحركة ثم ظهرت دوائر جديدة عند حافة الشاشة. وفي نهاية المطاف ظهرت مجموعة من النقاط، ست عشرة في مجملها، عن يمين الشاشة.

سألته نيكول وهي تشير إلى النقاط الصغيرة المضيئة: «لكن كيف عرفت أنها قذائف؟»

قال ريتشارد: «أنا لا أعلم. لكن ما أعلمه هو أنها أشياء طائرة في خط مستقيم تقريبًا بين راما والأرض. أفترض أنها بعثة سلام، لكنني أشك في ذلك جدًّا.»

سأله أوتول: «كم تستغرق حتى تصل إلى هنا؟»

أجابه ريتشارد بعد لحظة من الصمت: «من الصعب تحديد ذلك بالضبط. لكن على حسب تقديري ستصل أول قذيفة في غضون فترة تتراوح بين ثماني عشرة ساعة وعشرين

ساعة. إنها منتشرة في مساحة أكبر مما توقعت. إذا تعقبنها مدة ساعة تقريبًا، سوف نصل إلى التقدير الدقيق للحظة الاصطدام.»

صفَّر جنرال أوتول وأخذ يفكر بضع ثوانٍ قبل أن يتحدث. ثم قال: «قبل أن نحاول إخبار هذه المركبة الفضائية أنها على وشك التعرض لهجوم نووي، هل يمكنك أن تجيب عن سؤال واحد بسيط؟»

أجابه ريتشاد: «إن كان بمقدوري فسأفعل.»

سأله أوتول: «ما الذي يجعلك تعتقد أن راما قادرة على حماية نفسها من هذه القذائف القادمة، حتى وإن استطعنا أن ننقل التحذير إليها؟»

ساد صمت طويل. ثم قال ريتشارد: «هل تتذكر إحدى المرات، منذ عام تقريبًا، يا مايكل، حينما كنا مسافرين معًا من لندن إلى طوكيو ثم بدأنا نتحدث عن مسائل دينية؟»

أجابه: «أتقصد عندما كنت أقرأ كتاب يوسابيوس القيصري؟»

قال ريتشارد: «أعتقد ذلك. لقد كنت تخبرني عن تاريخ المسيحية في أوائل عهدها ... على أي حال، أثناء النقاش سألتك فجأة لماذا تؤمن بالله. هل تتذكر إجابتك؟»

رد أوتول: «بالطبع. إنها نفس الإجابة التي قلتها لابني الأكبر عندما أعلن إلحاده في سن الثامنة عشرة.»

قال ريتشارد: «إجابتك في الطائرة هي التي تسيطر تمام السيطرة على توجهي في الموقف الحالي. نحن نعرف أن راما متطورة للغاية تكنولوجيًّا. وبالطبع، حينما صُممت، أُخذ بعين الاعتبار احتمالات حدوث هجمات عدوانية ... من يعلم، ربما يكون بحوزتها حتى نظام دفع قوي، لم نكتشفه نحن بعد، وستكون قادرة على المناورة بعيدًا عن مسار القذائف. أراهن أن ...»

قالت نيكول: «هل يمكنني أن أقاطعكما لحظة؟ أنا لم أكن معكما في رحلتكما إلى طوكيو. لكني أريد أن أعرف إجابة مايكل عن سؤالك.»

حملق الرجلان أحدهما في الآخر بضع ثوانٍ. أخيرًا أجابها الجنرال أوتول. قائلًا: «يهتدي المرء إلى الإيمان بالملاحظة والتفكير.»

قالت نيكول: «الجزء الأول من خطتك ليس عسيرًا للغاية، وأنا أتفق معك في المنهج، لكن ليس لديَّ صورة ذهنية عن الطريقة التي سوف ننقل بها الناتج، أو كيف سنوصل فكرة التفاعل النووي المتسلسل للقذائف القادمة بطريقة واضحة.»

أجابها ريتشارد: «سنعمل أنا ومايكل على هذه البنود، بينما تُعِدي أنت صور الجزء الأول. فقد قال مايكل إنه يتذكر قدرًا معقولًا من الفيزياء النووية التي درسها.»

وذكَّر ريتشارد نيكول: «تذكري ألا تقومي بافتراضات كثيرة. ويجب أن نتأكد أن كل جزء من الرسالة مستقل.»

ولم يكن الجنرال أوتول مع ريتشارد ونيكول في تلك اللحظة. إذ كان قد غادر قبل خمس دقائق من هذا الحوار متجهًا داخل النفق بعد استغراق ساعتين من العمل الشاق. وفجأة انتاب القلق رفيقيه بسبب غيابه. فقال ريتشارد: «لعله ذهب إلى دورة المياه.»

ردت عليه نيكول: «أو ربما ضل الطريق.»

اندفع ريتشارد نحو مدخل الغرفة البيضاء ونادى في الممر.: «مرحبًا، مايكل أوتول. هل أنت بخير؟»

«نعم»، جاءه الرد من ناحية السلالم المركزية. وأردف: «هل يمكنك أن تأتي أنت ونيكول إلى هنا دقيقة؟»

تساءل ريتشارد بعد بضع لحظات عندما انضم هو ونيكول إلى الجنرال عند قاع السلم: «ما الخَطب؟»

سأل أوتول وعيناه تركزان على السقف أعلى منه: «من الذي بنى هذا الوكر؟ ولماذا تظنون أنه بُني أساسًا؟»

أجابه ريتشارد ونبرات صوته تنم عن نفاد صبره: «نحن لا نعرف، ولا أعتقد أننا سوف نصل إلى حل لهذه القضية خلال الدقائق المعدودة التالية، ولا حتى في غضون ساعات. وفي نفس الوقت، لدينا عمل ...»

قاطعه أوتول بحزم: «أمهلني قليلًا، ينبغي أن أخوض هذه المناقشة قبل أن أمضي قدمًا.» انتظر كلٌّ من ريتشارد ونيكول حتى يكمل حديثه. استرسل أوتول: «نحن نتحرك بفوضوية شديدة نحو إرسال التحذير لهذا العقل المتحكم في هذه المركبة أيًّا كانت ماهيته. وعلى افتراض أننا نقوم بذلك حتى يتسنى لراما أن تتخذ الإجراءات اللازمة لحماية نفسها. كيف لنا أن نعلم أن ما نقوم به هو عين الصواب؟ كيف لنا أن نعلم أننا لا نخون جنسنا البشري؟»

أشار الجنرال أوتول بذراعيه نحو الكهف الكبير المحيط بهم. وقال: «حتمًا هناك بعض الأسباب، بعض الخطط العظيمة وراء كل هذا. لمَ تُركت كل هذه الأشياء البشرية الزائفة في الغرفة البيضاء؟ ولماذا يدعوننا سكان راما للتواصل معهم؟ من وما هذه

الطيور وكائنات الأوكتوسبايدر؟» هز أوتول رأسه في إحباط من كل الأسئلة التي ليست لها إجابة. ثم استطرد: «كنت مترددًا بشأن تدمير راما، لكنني الآن متردد بنفس الدرجة بشأن إرسال التحذير. ماذا لو نجت راما من الهجوم النووي بسببنا ثم دمرت الأرض بعد ذلك بأية طريقة؟»

قالت نيكول: «هذا مستبعد تمامًا يا مايكل. لقد أبحرت مركبة راما ١ عبر النظام الشمسي ...»

قاطعها ريتشارد بلطف: «دقيقة من فضلكِ، يا نيكول، إن كنتِ لا تمانعين. دعيني أحاول أن أجيب عن أسئلة الجنرال.»

سار ريتشارد ووضع يديه على كتف الجنرال أوتول. ثم قال: «مايكل، أكثر شيء أثار إعجابي بك منذ أن رأيتك أول مرة التقينا فيها، هو قدرتك على تمييز الفرق بين الإجابات التي يمكن أن نعرفها عن طريق الاستدلال أو باتباع المنهج العلمي، وبين الأسئلة التي لا يصلح معها إتباع أي منهج منطقي. ما من طريقة أيًّا كانت تمكننا من فهم ماهية راما بأكملها في هذه الآونة. نحن حتى لا نملك ما يكفي من بيانات. إن الأمر أشبه بمحاولة حل نظام معادلات خطية في التو واللحظة في حين أن كم المتغيرات يفوق بشده كم الثوابت. ففي مثل هذه الحالات توجد إجابات صحيحة متعددة.»

ابتسم أوتول وأومأ برأسه. فتابع ريتشارد: «ما نعرفه الآن هو أن سيلًا من القذائف في طريقه إلى راما الآن. ومن المحتمل أن يكون مسلحًا برءوس نووية. إذن نحن لدينا اختيار إما أن نحذر وإما لا، وعلينا أن نتخذ قرارنا بناءً على المعلومات المتوفرة لدينا في هذه اللحظة.»

أخرج ريتشارد جهاز الكمبيوتر الصغير الخاص به وسار إلى جانب أوتول. وقال: «يمكنك أن تمثل هذه المشكلة بأكملها في صورة متوالية ٣ × ٢. افترض أن هناك ثلاثة أوصاف ممكنة للخطر الذي تمثله راما: غير عدوانية بالمرة، وعدوانية للغاية، وعدوانية في حالة إذا ما هُوجمت فقط. ودع هذه المواقف الثلاثة تمثل صفوف المصفوفة. والآن، ضع في اعتبارك القرار الذي نحن بصدده. إما أن نحذرها وإما نختار ألا نحذرها. وتذكر أن التحذير «الناجح» هو الشيء الوحيد الذي يهم. من ثَم هناك عمودان للمصفوفة، وهما تحذير راما وعدم تحذير راما.»

نظر أوتول ونيكول من فوق كتف ريتشارد وهو يركب المصفوفة ويعرضها على شاشته الصغيرة. قال ريتشارد: «إذا نظرنا الآن على نواتج الأحداث الستة التي تمثلها

العناصر الفردية لهذه المصفوفة، وحاولنا أن نضع بعض الاحتمالات كلما أمكنا ذلك، سيتسنى لنا الحصول على كل المعلومات التي نحتاجها كي نأخذ قرارنا. هل توافقان؟»

أومأ الجنرال أوتول بالإيجاب، وهو مُعجب بالسرعة والدقة اللتين وضع بهما ريتشارد هيكلًا يبين ورطتهم. عندئذٍ قالت نيكول: «إن ناتج الصف الثاني الشيء نفسه دائمًا، بصرف النظر عما إذا كنا سنحذرهم أم لا. فإذا كانت راما عدوانية للغاية، فإنه مع كل هذه التقنية المتطورة جدًّا، لن يكون هناك فرق سواء حذرناها أم لا. فعاجلًا أو آجلًا، سواء عن طريق هذه المركبة أو المركبة القادمة في المستقبل، فإنها سوف تخضع الجنس البشري أو تدمره.»

توقف ريتشارد لحظة ليتأكد أن أوتول يتابع الحديث، وعندئذٍ قال بتؤدة: «بالمثل، إذا «لم» تكن راما عدوانية «قط»، فليس من الخطأ تحذيرها. وفي كلتا الحالتين أيضًا، سواء حذرناها أم لا، فلن يكون هناك خطر يتهدد كوكب الأرض. وفي هذه الحالة إذا نجحنا في إنباء سكان راما عن القذائف النووية، فسوف يُنقذ شيء رائع.»

ابتسم الجنرال. وقال: «إذن تنبع المشكلة المحتملة الوحيدة الآن، وهي قلق أوتول، إذا أردتما أن تسمياها هكذا، من أنه إن لم تنوِ راما من الأساس أن تكون عدوانية، فإنها سوف تغير رأيها وتهاجم الأرض حالما تعلم أن ثمة قذائف نووية مصوبة نحوها.»

قال ريتشارد: «بالضبط. لكني سوف أبرهن أن تحذيرنا نفسه من الممكن أن يكون عاملًا مهدئًا في هذه الحالة العدوانية المحتملة. فمع كل هذا ...»

رد أوتول: «حسنًا. حسنًا. أعرف ما ترمي إليه. ما لم تكن هناك احتمالية عالية جدًّا للحالة التي أخشاها، فإن التحليل الإجمالي يرجح كفة تحذير راما.» ضحك الجنرال فجأة. ثم استرسل: «من حسن الحظ أنك لا تعمل لحساب القيادات العسكرية لمجلس الحكومات، يا ريتشارد. لو كنت تعمل لحسابها، ربما أقنعتني بطريقة منطقية بإدخال الشفرة ...»

قالت نيكول: «أشك في ذلك. فلا أحد يضاهيهم في جنون الارتياب.»

ابتسم الجنرال. وقال: «أشكركما. أكتفي بهذا. أنتما مقنعان للغاية. لنَعُد إلى العمل.»

انطلاقًا من حقيقة وصول القذائف التي يتعذر منعها، دأب الثلاثي على العمل ساعات دون كلل أو ملل. أعدت نيكول وأوتول رسالة التحذير في جزأين منفصلين. وعرض الجزء الأول — الذي كان معظمه خلفية تمهد الطريق أمام تعزيز تقنية الاتصال الأساسية — كل

آليات المسارات بما في ذلك، مسار راما عندما دخلت إلى النظام الشمسي، ومسار مركبتَي نيوتن وهما يغادران الأرض وينضمان معًا قبل الالتقاء بالمركبة الفضائية مباشرة، ومناورتا راما اللتان غيرتا مسارها، وأخيرًا الست عشرة قذيفة المصوبة من الأرض نحو راما. أما ريتشارد، فقد بدأ ساعات عمله الطويلة على لوحة المفاتيح والشاشة السوداء تأتي ثمارها، فقد حول كل هذه الأحداث الخاصة بالمدارات والمسارات إلى رسومات بيانية، بينما كان الرائدان الآخران يواجهان صعوبات مع تعقيدات الجزء المتبقي من الرسالة.

كان إعداد الجزء الثاني من الرسالة صعبًا للغاية. لقد أراد البشريون أن يشرحوا فيه أن القذائف القادمة تحمل رءوسًا نووية، وأن القوة التفجيرية للقنابل تحدث نتيجة لتفاعل متسلسل، وأن الحرارة والاهتزاز والإشعاع الناجمة عن التفجير لها جميعها قوة هائلة. ولم يكمن التحدي في تقديم الصورة الأساسية، بل في صياغة القوة التدميرية في مصطلح يمكن أن يفهمه عقل فضائي، وهو ما كان عائقًا مهولًا أمامهم.

وعندما أصر كلٌّ من أوتول ونيكول على أن التحذير سيعد ناقصًا إذا ما أُرسل دون إشارة إلى درجة الحرارة الناجمة عن التفجير وقوة الاهتزاز ومدى الإشعاع، صرخ ريتشارد المستشيط غضبًا: «مستحيل. لماذا لا نشير فحسب إلى كم المادة المنشطرة في العملية؟ فهم قطعًا بارعون في الفيزياء. ويمكنهم حساب النواتج والمتغيرات الأخرى.»

وبدأ الوقت ينفد، وأخذ ثلاثتهم يشعرون بالإعياء. وفي الساعات الأخيرة استسلم الجنرال أوتول للشعور بالتعب، فراح في سبات عميق بعد إلحاح نيكول. وأشار ناتج الإحصاء البيولوجي الخاص به أن قلبه مُجهد. وحتى ريتشارد نام تسعين دقيقة. أما نيكول فلم تسمح لنفسها أن تنعم بالراحة قط. فقد عزمت على أن تعمل جاهدة حتى تصف بالصور القوة التدميرية للأسلحة.

وعندما استيقظ الرجلان، أقنعتهما نيكول أن يرفقا بالجزء الثاني من الرسالة قسمًا قصيرًا يصور ما قد يحل بمدينة أو غابة على الأرض إذا انفجر على مقربة منها قنبلة نووية قوتها الانفجارية مليون طن. وبالطبع، كي تبدو هذه الصور معقولة، كان على ريتشارد أن يوسع مسرده السابق الذي كان قد عرف فيه العناصر الكيميائية ورموزها بدقة شديدة، كي يُدمج المزيد من مقاييس الحجم. دمدم ريتشارد وهو يدخل بكد ودأب مقياس العلامات ورسومه الخطية التي تمثل المباني والأشجار: «لو فهموا هذا، فسيكونون إذن أذكى مما ظننتهم.»

أخيرًا انتهوا من الرسالة وخزنوها. ثم راجعوا التحذير بأكمله مرة أخيرة وأجروا بعض التعديلات عليه. وقال ريتشارد: «من بين الأوامر التي لم أستطع أن أفهمها قط،

خمسة أوامر كان لديَّ مبررات لأشك أنهم قد يتصلون بمعالج مختلف المستوى. بالطبع أنا أخمن فحسب، لكني أومن أنه تخمين مبني على الخبرة والمعرفة. سوف أبث رسالتنا خمس مرات، باستخدام كل هذه الأوامر بعينها على حدة، وآمل أن يصل تحذيرنا الكمبيوتر المركزي بطريقة ما.»

بينما أدخل ريتشارد كل الأوامر المناسبة عبر لوحة المفاتيح ذهبت نيكول والجنرال أوتول للتمشية. لقد ارتقيا السلالم ثم تجولا حول ناطحات سحاب نيويورك. سأل أوتول: «أنت تعتقدين أنه قُدر لنا أن نصعد على متن راما ونجد الغرفة البيضاء، أليس كذلك؟»

أجابته نيكول: «بلى.»

سألها الجنرال: «ولكن ما الغرض؟ إذا أراد سكان راما التواصل معنا، لماذا لجئوا إلى هذه الطرق المعقدة؟ ولمَ يجازفون بجعلنا نسيء تفسير نيَّاتهم؟»

قالت نيكول: «لا أعرف. ربما يختبروننا بطريقة ما. بهدف أن يكتشفوا ماهيتنا.»

أجابها أوتول: «يا إلهي، يا لها من فكرة مريعة. إذ ربما نُصنف على أننا المخلوقات التي تطلق قذائف نووية على زوارها.»

قالت نيكول: «بالضبط.»

وأرته نيكول المخزن ذا التجويفات، والشبكة حيث أنقذت الطائر، والمجسمات المتعددة الأسطح المذهلة، ومدخلَي الوكرين الآخرين. وأخذت نيكول تشعر بالإعياء الشديد، لكنها كانت تعلم أنها لن تنام حتى تُسوى جميع الأمور.

«أينبغي لنا أن نعود الآن؟» هكذا سألها أوتول بعدما نزل هو ونيكول نحو البحر الأسطواني وتحققا من أن القارب الشراعي بحالته كما هو حيث تركوه.

ردت نيكول في نبرة تنمُّ عن تعبها: «حسنًا.» ثم نظرت في ساعة يدها. وكان قد تبقى من الزمن ثلاث ساعات وثماني عشرة دقيقة حتى تصل القذيفة النووية الأولى إلى راما.

الفصل الثاني والستون

الساعة الأخيرة

لم ينبس أحد ببنت شفة على مدار خمس دقائق. كان الرواد الثلاثة جالسين كلٌّ مستغرق في عالمه الخاص؛ مدركين أنه بقي أمامهم أقل من ساعة على وصول القذيفة الأولى. تفقد ريتشارد في عجالة كل مخرجات جهاز الاستشعار بحثًا عن أي أمارات تشير إلى أن راما بدأت تتخذ بعض الإجراءات الدفاعية. دمدم وهو ينظر مرة أخرى في لقطة قريبة للرادار أظهرت أن القذيفة الرئيسية تقترب أكثر فأكثر: «تبًّا.»

سار ريتشارد إلى حيث جلست نيكول في ركن الغرفة. وقال بهدوء: «حتمًا، فشلنا. لم يتغير شيء.»

فركت نيكول عينيها. وقالت: «أتمنى لو لم أكن متعبة حتى نستطيع أن نفعل شيئًا مثيرًا في الخمسين دقيقة المتبقية لنا.» ابتسمت نيكول ابتسامة متجهمة. ثم استرسلت: «الآن أدرك شعور المرء الذي ينتظر تنفيذ حكم الإعدام.»

اقترب الجنرال أوتول الذي كان في الجانب الآخر للغرفة. وكان ممسكًا بيده اليسرى اثنين من الكرات السوداء الصغيرة. قال أوتول: «أتعرفان، لطالما سألت نفسي ماذا كنت سأفعل إذا كان قد تبقى لي فترة محدد قبل أن أموت. والآن ها أنا في هذا الموقف، وذهني يركز على شيء واحد.»

سألت نيكول: «وما هو؟»

رد عليها بتردد: «هل سبق لأيٍّ منكما أن تعمد؟»

صرخ ريتشارد وهو يضحك ضحكة تنم عن الذهول: «مااااذا؟»

قال الجنرال أوتول: «أعتقد لا. ماذا عنكِ، يا نيكول؟»

أجابته نيكول: «لا يا مايكل. لقد كان المذهب الكاثوليكي يعني لأبي التركيز على العقيدة أكثر منه على الطقوس.»

أصر الجنرال قائلًا: «حسنًا. أقترح أن أعمد كليكما.»

تساءل ريتشارد المندهش: «هنا؟ والآن؟ هل خانني سمعي يا نيكي أم إني قد سمعت لتوي هذا السيد يقترح أن نقضي الساعة الأخيرة من حياتنا نؤدي طقوس تعميدنا؟»

همَّ أوتول أن يقول: «لن يستغرق الأمر ...»

لكن قاطعته نيكول: «لمَ لا، يا ريتشارد؟» ثم نهضت وعلى وجهها ابتسامة مشرقة. وأردفت: «ما الذي يتسنى علينا فعله أيضًا؟ فهذا أفضل كثيرًا من الجلوس في خنوع في انتظار القذيفة الهائلة.»

كاد ريتشارد يضحك مقهقهًا. وهتف: «هذا مدهش! أنا، ريتشارد ويكفيلد، الملحد طوال حياته، أفكر الآن في نيل المعمودية على متن سفينة فضائية خارج الأرض، كآخر صنيع أقوم به في حياتي. كم يطيب لي ذلك!»

قالت نيكول متعمدةً استفزازه: «تذكر ما كتبه باسكال.»

رد عليها ريتشارد: «آه، نعم. مصفوفة بسيطة لأحد المفكرين العظام في العالم. «قد يكون الله موجودًا أو غير موجود، وقد أومن به أو لا أومن. والحالة الوحيدة التي سأخسر فيها هي إذا كان الله موجودًا بالفعل ولا أومن به. من ثَم سأومن به كي أقلل من المخاطر».» ضحك ريتشارد ضحكة خافتة. ثم استرسل: «لكني لا أوافق أن أومن بالله حتى يتم تعميدي وحسب.»

قالت نيكول: «إذن، ستؤمن بالله.»

رد عليها وهو يقلد تعليقها السابق: «لمَ لا؟» ثم ابتسم ابتسامة عريضة لأوتول. وقال: «ربما بهذه الطريقة لن يكون عليَّ أن أمكث في جهنم مع الوثنين الأفاضل والأطفال غير المعمدين. حسنًا أيها الجنرال، ها نحن بالكامل تحت إمرتك. افعل بنا ما تشاء.»

قال ريتشارد: «الآن أنصت جيدًا إلى هذا أيها الشاعر. قد تكون الإنسان الآلي الوحيد الذي كان في جيب إنسان أثناء تعميده.»

وكزت نيكول ريتشار بكوعها في ضلوعه. انتظر الجنرال أوتول بصبرٍ ثوانيَ معدودة ثم بدأ المراسم.

وبإصرار من ريتشارد، تركوا الوكر وخرجوا إلى الساحة المفتوحة. فقد رغب ريتشارد «أن تظلهم سماء راما»، فلم يعترض أحد منهما. ذهبت نيكول إلى البحر الأسطواني كي تملأ قارورة العماد بالماء بينما كان الجنرال أوتول يتمم تجهيزاته. كان الجنرال الأمريكي

يأخذ أمر العماد مأخذ الجد، لكن من الواضح أنه لم ينزعج من حالة المزاح المبهج التي دخل فيها ريتشارد.

ركع كلٌّ من نيكول وريتشارد أمام أوتول. رش أوتول الماء على رأس ريتشارد. وقال: «أعمدك يا ريتشارد كولين ويكفيلد باسم الآب والابن والروح القدس.»

عندما انتهى أوتول من تعميد نيكول بالطريقة البسيطة نفسها، وقف ريتشارد مبتسمًا ابتسامة واسعة. وقال: «لا أشعر بأي اختلاف. أشعر بأنني كما كنت من قبل … خائفًا وجلًا من الاحتضار في غضون الثلاثين دقيقة التالية.»

لم يتحرك الجنرال أوتول من مكانه. ثم قال برفق: «ريتشارد، هل لي أن أطلب منك أن تركع ثانية؟ أود أن أصلي صلاة قصيرة.»

سأل ريتشارد: «ما هذا؟ أولًا المعمودية، والآن صلاة؟» نظرت نيكول إليه. وكانت عيناها تتوسل إليه لكي يوافق. قال ريتشارد: «حسنًا، لعلي سأتمم الأمر حتى النهاية أيضًا.»

قال الجنرال أوتول بصوت قوي: «يا الله يا قدير، اسمع دعاءنا.» وكان هو أيضًا راكعًا في تلك الأثناء. وعيناه مغمضتان، ويداه متشابكتان أمامه. استرسل أوتول في صلاته: «لقد اجتمعنا نحن الثلاثة هنا في هذه الساعة التي قد تكون ساعتنا الأخيرة كي نقدسك ونمجدك. نسألك أن تعرفنا كيف يمكننا أن نخدمك إذا قدرت لنا الحياة، وإن كانت مشيئتك أن نموت، نسألك أن تقينا من أن نموت ميتة مؤلمة وشنيعة. فإذا قُدر لنا الموت، نصلي أن تقبلنا في ملكوتك السماوي. آمين.»

توقف الجنرال أوتول ثانية فحسب ثم بدأ يصلي الصلاة الربانية. وبعدما قال: «أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك …» انطفأت الأنوار فجأة في المركبة الفضائية العظيمة. لقد انتهى يوم آخر من أيام راما. انتظر ريتشارد ونيكول احترامًا حتى انتهى صديقهما من الصلاة قبل أن يُخرجا مصابيحهما.

شكرت نيكول الجنرال وعانقته لبرهة. قال ريتشارد بتوتر: «حسنًا، ها قد انتهينا. باقٍ من الزمن سبع وعشرون دقيقة والوقت يمر. ها قد تعمدنا وصلينا. ما الذي يجب أن نفعله الآن؟ من لديه فكرة عن التسلية الأخيرة، وأقصد بذلك آخر تسلية على الإطلاق في حياتنا؟ أينبغي أن نغني؟ نرقص؟ نلعب أي نوع من الألعاب؟»

قال الجنرال أوتول بنبرة جدية: «أفضِّل أن أمكث وحدي هنا وأواجه موتي مصليًا ومكفرًا عن ذنوبي. ويخال لي أنكما تحبذان أن تكونا وحدكما معًا.»

قال ريتشارد: «حسنًا يا نيكي، أين سنقبل بعضنا قبلتنا الأخيرة؟ على شاطئ البحر الأسطواني أم هناك في الغرفة البيضاء؟»

ولم تكن نيكول قد ذاقت للنوم طعمًا منذ اثنتين وثلاثين ساعة متواصلة، وكانت مرهقة جدًّا. فسقطت بين ذراعَي ريتشارد وأغمضت عينيها. في هذه اللحظة كانت هناك ومضات من الضوء المتفرقة تقتحم ظلمة ليل راما الجديد.

سأل الجنرال أوتول في قلق: «ما هذا؟»

أجابه ريتشارد بحماسة: «إنها حتمًا القرون. هيا بنا نذهب.»

وركضوا إلى الحافة الجنوبية من الجزيرة وحدقوا في المباني الضخمة الغامضة في التجويف الجنوبي. وكان هناك أشعة ضوئية تندفع كالسهام بين أزواج مختلفة من الأبراج الستة المحيطة بالنصب الحجري الضخم الموجود بالمنتصف. وبدت الأقواس الصفراء وكأنها تئز في الهواء، متموجة برفقٍ جيئة وذهابًا في المنتصف بينما لا تزال متصلة بأحد القرون الصغيرة عند كل طرف. وصاحب المشهد الرائع صوت طقطقة آتٍ من بعيد.

قال أوتول الذي سيطرت عليه الرهبة: «مذهل. إنه لأمر مذهل بحق.»

قال ريتشارد: «إذن راما سوف تناور.» كاد أن يكبح زمام نفسه. وحضن نيكول ثم أوتول، ثم قبَّل نيكول أخيرًا قبلة على شفاهها. وأخذ يهلل وهو يرقص بطول السور.

صرخت نيكول فيه: «لكن يا ريتشارد، ألم يفت الأوان؟ كيف لراما أن تتحرك بعيدًا عن مسار القذائف في مثل هذه الفترة القصيرة؟»

ركض ريتشارد عائدًا إلى زميليه. وقال وهو يلهث: «أنتِ محقَّة. وعلى كل حال فمن المحتمل أن تكون هذه القذائف الملعونة مزودة بخاصية التوجيه الطرفي لتتبع الهدف.» أخذ ريتشارد يركض مرة أخرى، لكن هذه المرة متجهًا نحو الساحة. وقال: «سأذهب لأشاهد على الرادار.»

حملقت نيكول في الجنرال أوتول. فقال: «سآتي. لكنني ركضت بما يكفي اليوم. وأريد أن أقضي لحظات معدودة أخرى في مشاهدة هذا العرض. يمكنكما أن تذهبا دوني إذا شئتما.»

انتظرته نيكول. وبينما كانت تسير هي وأوتول بحماسةٍ نحو الساحة، شكرها أوتول على سماحها له بأن يعمدها. ردت عليه نيكول قائلة: «لا تكن سخيفًا. أنا الذي يجدر بي أن أشكرك.» ثم وضعت يديها على كتفه. قالت نيكول في سرها: «لم يكن العماد نفسه

هو الأمر المهم. الأمر المهم هو أنه كان من الواضح أنك تهتم بخلاص أرواحنا. لذا أردنا في المقام الأول أن نعبر عن حبنا لك.» ابتسمت نيكول لنفسها. وقالت في سرها: «على الأقل أعتقد أن هذا كان السبب ...»

بدأت الأرض تهتز تحت أرجلهم بشدة، فتوقف الجنرال أوتول لحظة من شدة الهلع. قالت نيكول وهي تحاول أن تجعل كليهما يتماسك عن طريق الإمساك بيد الجنرال: «من الواضح أن هذا هو نفس ما حدث في أثناء المناورة الأخيرة، مع أنني شخصيًّا كنت ملقاة فاقدة الوعي في قاع التجويف وفاتني الحدث بأكمله.»

قال أوتول: «إذَن عرض الضوء كان مجرد إعلان عن المناورة؟»

ردت عليه نيكول: «على الأرجح. لهذا السبب كان ريتشارد مبتهجًا.»

وتمكنا بصعوبة من فتح غطاء الوكر عندما كان ريتشارد مندفعًا لأعلى السلالم وصرخ فيهما: «لقد نجحوا! لقد نجحوا!»

حدقت فيه نيكول وأوتول وهو يلتقط أنفاسه. استرسل ريتشارد قائلًا: «لقد نشروا نوعًا من الخيوط أو الشباك — لا أعرف بالضبط ما هذا — قد يصل سمكها إلى ستمائة أو ثمانمائة متر، تحيط بكل المركبة الفضائية.» ثم استدار ريتشارد. وقال وهو يهبط السلالم، ثلاث درجات في الخطوة الواحدة: «هيا.»

وبالرغم من إعياء نيكول الشديد، فقد تجاوبت مع حماسته بآخر دفقة أدرينالين لديها. قفزت السلالم وراء ريتشارد وركضت إلى الغرفة البيضاء. كان ريتشارد واقفًا أمام الشاشة السوداء يُقلب الصور التالية واللاحقة بدءًا من الصورة الخارجية التي تبين المادة الجديدة التي تحيط بالمركبة إلى مشهد الرادار الذي يصور القذائف القادمة.

قال ريتشارد لنيكول: «لقد فهموا بالقطع التحذير الذي بعثناه.» ثم رفعها من على الأرض في طرب وقبَّلها ولف بها في الهواء. وصاح: «لقد نجح الأمر يا حبيبتي، أشكرك، أشكرك.»

كانت نيكول متحمسة أيضًا. لكنها لم تكن مقتنعة بعد بأن الإجراء الذي اتخذته راما يمكنه أن يمنع تدمير المركبة. وبعدما انضم الجنرال أوتول إليهما، وشرح له ريتشارد ما كانا يشاهدانه على الشاشة، لم يكن قد تبقى على وصول القذائف سوى تسع دقائق. ارتعدت فرائص نيكول من شدة الخوف. استمرت الأرض في الاهتزاز؛ إذ استمرت مناورة راما.

ومن الواضح أن القذائف النووية كانت مزودة بخاصية التوجيه الطرفي؛ لأنه على الرغم من حقيقة أن راما كانت تغير مسارها بلا جدال، فإن القذائف استمرت في الاقتراب

في خط مستقيم. وكانت اللقطة القريبة التي يبينها الرادار توضح أن الستة عشر صاروخًا متفرقة جدًّا بعضها عن بعض. وكان الوقت المقدر لاصطدام كل واحد من هذه الصواريخ بالمركبة تقل قليلًا عن الساعة.

ازدادت حركة ريتشارد الجنونية. وأخذ يذرع الغرفة في اهتياج. وفي لحظة من اللحظات، أخرج الإنسان الآلي شاعر شكسبير من جيبه ووضعه على الأرض، وبدأ يتحدث بسرعة إلى الإنسان الآلي الصغير، كما لو كان الشاعر صديقه الحميم. ولم يكن حديث ريتشارد مترابطًا ترابطًا منطقيًّا إلا بالكاد. فقد أخبر الشاعر في لحظة من اللحظات أن يستعد للانفجار الآتي، وفي اللحظة التالية كان يشرح له كيف أن راما ستنجح بمعجزة في تجنب القذائف الموجهة إليها.

حاول الجنرال أوتول أن يحتفظ برباطة جأشه، لكن الأمر كان مستحيلًا في ظل وجود ريتشارد الذي كان يحوم في أرجاء الغرفة مثل حيوان «شيطان تسمانيا»، وهمَّ أن يقول شيئًا لريتشارد لكنه قرر بدلًا من ذلك أن يخرج إلى النفق ملتمسًا بعض الهدوء.

وفي أثناء لحظة من اللحظات النادرة التي لم يكن ريتشارد يتحرك فيها، سارت نيكول نحوه وجذبت يديه بقوة. وقالت: «حبيبي، اهدأ. ليس بمقدورنا أن نفعل شيئًا.»

نظر ريتشارد إلى صديقته ومحبوبته ثم ألقى بذراعيه حولها. وقبَّلها بعنف، وبعدها جلس على الأرض المهتزة، ثم جذبها إلى جانبه. قال ريتشارد وهو يرتجف: «أنا خائف، يا نيكول. أنا خائف بحق. أمقت أن أبقى مكتوف الأيدي عاجزًا عن فعل أي شيء.»

ردت نيكول برفق وهي تجذب يديه مرة أخرى: «أنا مرعوبة أيضًا، وكذا مايكل.»

قال ريتشارد: «لكن ما من أحد منكما «يتصرف» بطريقة تنم عن ذعره. أشعر وكأنني أحمق مثل شخصية تيجر في فيلم الكرتون ويني الدبدوب.»

قالت نيكول: «كل إنسان يواجه الموت بطريقة مختلفة عن الآخر. كلنا نشعر بالخوف. لكن كل ما هنالك أننا نتفاعل معه بطريقتنا الشخصية.»

بدأ ريتشارد يهدأ. ونظر إلى الشاشة الكبيرة ثم إلى ساعته. وقال: «باقٍ من الزمن ثلاث دقائق على حدوث أول تصادم.»

وضعت نيكول يديها على وجنتيه ثم قبلته برفق على شفتيه. وقالت: «أحبك ريتشارد ويكفيلد.»

أجابها: «وأنا أحبك.»

كان ريتشارد ونيكول يجلسان على الأرض في سكينة، أحدهما ممسك بيد الآخر يراقبان الشاشة السوداء، عندما وصلت القذيفة الأولى إلى حافة الشبكة الكثيفة التي تكتنف راما. كان الجنرال أوتول يقف خلفهما عند مدخل الباب، فقد عاد إلى الغرفة قبل نحو ثلاثين ثانية. وفي اللحظة التي لمست فيها القذيفة الشبكة، أُصيب ذلك الجزء من الشبكة ممتصًّا الضربة لكنه سمح للقذيفة أن تخترق أغوار الشبكة. وفي هذه اللحظة نفسها، أخذت أجزاء أخرى من الشبكة تلف نفسها بسرعة حول القذيفة حائكةً شرنقة بسرعة مذهلة. وانتهى الأمر برمته في خلال جزء من الثانية. كانت القذيفة تبعد نحو مائتَي متر عن الهيكل الخارجي لراما، ومغلفة بالفعل بغطاء سميك عندما انفجرت رأسها النووية. طارت الشبكة الظاهرة على الشاشة قليلًا، غير أنهم لم يشعروا أثناء وجودهم داخل الغرفة البيضاء إلا بهزة خفيفة جدًّا.

صاح ريتشارد أولًا: «واو! أرأيتما هذا؟»

وثب ريتشارد ودنا من الشاشة. علقت نيكول قائلة وهي تدنو منه: «لقد حدث الأمر بسرعة هائلة.»

تمتم الجنرال أوتول صلاة شكر قصيرة جدًّا ثم انضم إلى زميليه أمام الشاشة. ثم سأل ريتشارد: «كيف فعلت هذا في رأيك؟»

أجابه ريتشارد: «ليس لديَّ أدنى فكرة. لكن هذه الشرنقة امتصت الانفجار بطريقة ما. قطعًا هي مصنوعة من مادة مذهلة.» قلَّب ريتشارد الصور عائدًا إلى صورة الرادار. وقال: «دعونا نشاهد القذيفة التالية عن قرب. ينبغي أن تكون هنا في غضون …»

ظهرت ومضات ضوء ساطعة ثم أظلمت الشاشة. وبعد أقل من ثانية، ضربتهم بشدة قوة جانبية عنيفة طارحة إياهم أرضًا. انطفأ الضوء في الغرفة البيضاء وتوقفت الأرض عن الاهتزاز.

سأل ريتشارد وهو يتلمس يد نيكول في الظلام: «هل الجميع بخير؟»

رد أوتول: «أعتقد ذلك. لقد ارتطم ظهري ومرفقي فحسب في الجدار.»

وأجابته نيكول: «أنا بخير يا حبيبي. ما الذي حدث؟»

أجاب: «من الواضح أن هذه القذيفة انفجرت مبكرًا قبل أن تصل إلى الشبكة، لقد أصابتنا موجة صدمية.»

قال أوتول: «لا أفهم. لقد انفجرت القنبلة في الفراغ. فكيف يكون هذا موجة صدمية؟»

أجاب ريتشارد وهو يقف، إذ عادت الأضواء وأخذت الأرض تهتز من تحتهم مرة أخرى: «من الناحية الفنية، لم تكن مجرد موجة صدمية.» ثم قاطع ريتشارد نفسه:

«على رسلك، ماذا عن هذا؟! ها هو نظام الدعم الاحتياطي الشهير الخاص براما يفوز مرة أخرى.» ثم سأل نيكول التي كانت تبدو غير متزنة وهي تنهض من مكانها: «هل أنتِ بخير؟»

أجابته: «لقد كُدمت ركبتي. لكنها ليست كدمة خطيرة.»

قال ريتشارد ردًّا على سؤال أوتول وهو يبحث عبر قائمة جهاز الاستشعار عن الصور الاحتياطية ومخرجات الرادار: «لقد دمرت القنبلة الجزء المتبقي من الصاروخ الذي يحملها، متسببة في تطاير معظم الغلاف وتقليل حجم الباقي إلى شظايا. لقد تحرك الغاز والحطام نحو الخارج بسرعات هائلة، مما تسبب في إحداث الموجة التي صدمتنا. لقد خففت الشبكة من شدة الصدمة.»

تحركت نيكول نحو الجدار وجلست. وقالت: «أريد أن أستعد للقذيفة التالية.»

تساءل ريتشارد: «أود أن أعرف، كم ضربة على غرار هذه الضربات يمكن أن تنجو منها راما.»

سار الجنرال أوتول وجلس بجانب نيكول. وقال: «يمكنها أن تنجو من ست عشرة قذيفة انتهى منها اثنتان ولا يزال هناك أربع عشرة.» فابتسموا جميعًا. فهم لم يموتوا بعد على الأقل.

حدد ريتشارد موقع أجهزة الاستشعار الاحتياطية بعد بضع دقائق. قال ريتشارد بينما كان يمسح الصور الباقية على الشاشة: «يا للهول. ما لم أكن مخطئًا، فإن القنبلة التي انفجرت قبل قليل، انفجرت على بعد عدة كيلومترات. لقد كنا محظوظين. من الأفضل أن نأمل ألا تنفجر إحدى القنابل خارج الشبكة.»

شاهد ثلاثتهم قذيفتين أخريين وهما تقعان في الشرك وتطوقهما المادة المحيطة براما. نهض ريتشارد. وقال: «لدينا فترة راحة قصيرة الآن. لا يزال هناك ثلاث دقائق تقريبًا قبل أن نتلقى الصدمة التالية، وعندها سنتلقى أربع قذائف أخرى خلال مدة قصيرة للغاية.»

نهضت نيكول أيضًا. ورأت أن الجنرال أوتول كان ممسكًا بظهره. فسألته: «أمتأكد من أنك بخير يا مايكل؟» أومأ أوتول برأسه وهو لا يزال يراقب الشاشة. اقترب ريتشارد من نيكول وأمسك يدها. وبعد دقيقة جلسا معًا مستندين إلى الجدار في انتظار الصدمة التالية.

ولم ينتظروا طويلًا. فقد ضربتهم خلال عشرين ثانية، قوة ثانية أعتى من الأولى جاءتهم هذه المرة من جانبهم. ومرة أخرى انقطعت الأنوار وتوقفت الأرض عن الاهتزاز. وكانت نيكول تسمع لهاث أوتول في الظلام. فقالت: «يا مايكل، هل أُصبت؟»

ولما لم يكن هناك من مجيب في الحال، أخذت نيكول تزحف باتجاهه. وكان هذا خطأً منها. إذ لم تكن متشبثة بأي شيء عندما حدث الانفجار الثالث القوي. طُرحت نيكول بقوة إلى الجدار حيث ارتطم جانب رأسها به.

مكث الجنرال أوتول إلى جانب نيكول، بينما صعد ريتشارد إلى نيويورك كي يفحص المدينة. وعندما عاد ريتشارد تحدث الرجلان بهدوء. ذكر ريتشارد أن الخسائر طفيفة. وبعد مرور ثلاثين دقيقة على وقوع القذيفة الأخيرة في الشبكة، عادت الأنوار وبدأت الأرض تهتز مجددًا. قال ريتشارد بابتسامة تنم عن الإجهاد الذي عاناه: «أرأيت، لقد أخبرتك أننا سنكون بخير. هم دائمًا يفعلون كل شيء مهم ثلاث مرات.»

ظلت نيكول فاقدة الوعي لما يقرب من ساعة. وفي غضون الدقائق القلائل الأخيرة كانت تشعر قليلًا باهتزاز الأرض وبالحديث الذي يدور في الجانب الآخر من الغرفة. فتحت نيكول عينيها ببطء شديد.

سمعت ريتشارد يقول: «يكمن التأثير النهائي في زيادة سرعتنا عبر القطع الزائد. من ثَم سوف نقطع مدار الأرض في وقت أقصر من ذي قبل، قبلما يصل كوكب الأرض نفسه.»

رد عليه أوتول: «إلى أي مدًى سنقترب من الأرض؟»

أجابه ريتشارد: «لن نقترب كثيرًا. يتوقف الأمر على وقت انتهاء هذه المناورة. فإذا توقفت الآن، فإننا سوف نبتعد عن الأرض بمسافة مليون كيلومتر تقريبًا؛ أي أكثر من ضعف المسافة من الأرض إلى القمر.»

نهضت نيكول وابتسمت. قالت مبتهجة: «صباح الخير.»

اقترب الرجلان منها. وقال ريتشارد: «هل أنتِ بخير، يا حبيبتي؟»

قالت نيكول وهي تجسُّ الورم الموجود بجانب رأسها: «أعتقد ذلك. قد يصيبني صداع لبعض الوقت.» ثم نظرت إلى الرجلين. وقالت: «وماذا عنك يا مايكل؟ أتذكر أنني كنت قلقة بشأنك قبل الانفجار الأخير مباشرة.»

رد أوتول: «لقد أعجزني الانفجار الثاني عن التنفس. ولحسن الحظ كنت مستعدًّا جيدًا للقنبلة الثالثة. أما ظهري فهو بحالة جيدة الآن.»

بدأ ريتشارد يشرح ما علمه من مخرجات أجهزة الاستشعار الفلكية الخاصة براما. قالت نيكول: «لقد سمعت الجزء الأخير من هذا الحديث. وقد علمت أننا سوف نبتعد

عن الأرض تمامًا.» ساعدها ريتشارد على النهوض، وتابعت نيكول: «لكن إلى أين نحن متجهون؟»

هز ريتشارد كتفيه. ثم قال: «لا توجد أهداف كوكبية أو نجمية في أي مكان قريب من مسارنا الحالي. والطاقة الخاصة بالقطع الزائد في زيادة مطردة. إذا لم يطرأ شيء آخر، فإننا سوف ننحرف تمامًا عن النظام الشمسي.» قالت نيكول بهدوء: «ونصبح رحالة بين النجوم.»

أضاف الجنرال أوتول: «إذا عشنا كل تلك المدة.»

قال ريتشارد بابتسامة مازحة: «من جانبي، فأنا لن أقلق بشأن ماذا سيحدث فيما بعد. على الأقل ليس بعد. أريد أن أحتفل أولًا بنجاتنا من الكتيبة النووية. أقترح أن نصعد لأعلى ونقدم مايكل إلى بعض الأصدقاء الجدد. أينبغي أن نعرفه إلى الطيور أم إلى مخلوقات أوكتوسبايدر؟»

هزت نيكول رأسها وابتسمت. وقالت: «أنت حالة ميئوس منها يا ويكفيلد. لا تتركني بأي حال من الأحوال أن أكبح ...»

لا تتركني في التزاوج بين أفكارنا الصادقة،
أدع سبيلًا إلى العوائق ...

فجأةً قاطعها الإنسان الآلي الشاعر. اندهش الرواد الثلاثة. وحملقوا لأسفل في الإنسان الآلي الدقيق الحجم ثم انفجروا ضاحكين. واسترسل الشاعر في تلاوة السونيتة:

... فالحب لا يكون حبًّا
إذا تغير عندما تجد المتغيراتُ سبيلها إليه،
أو انحنى خضوعًا لما يمحو فيُمحى.
أواه، لا، إنه علامة أبدية الثبات ...

التقط ريتشارد الشاعر وأطفأه. كانت نيكول وأوتول لا يزالان يضحكان. حضن ريتشارد كلًّا منهما على حدة. وقال: «لا يمكنني أن أجد صحبة في الترحال أفضل من صحبتكما»، ثم قال وهو يضع الإنسان الآلي الصغير فوق رأسه: «أيًّا كان المكان الذي نحن ذاهبون إليه.»

خاتمة

كتبها آرثر سي كلارك

التأليف مهنة فردية، وبعد مرور بضعة عقود من العمل الفردي ربما يتطلع أكثر الأشخاص غرورًا إلى الشراكة في عملية التأليف بين الفينة والأخرى. إلا أن التعاون في أي عمل فني هو أمر ينطوي على مخاطر، وكلما ازداد عدد الأشخاص المشاركين، قلت فرصة نجاح هذا العمل. هل تستطيع أن تتخيل أن يشارك ناثانيل هوثورن مع هيرمان ميلفيل في تأليف رواية «موبي ديك»؟ أو أن يشارك فيودور دوستويفسكي مع ليو تولستوي في تأليف رواية «الحرب والسلام»؟ أو أن يساهم إيفان تورجنيف في تأليف مزيد من الحوارات الواردة في الرواية ذاتها؟

أنا قطعًا لم أتخيل قط — قبل بضع سنوات مضت — أنني سأشارك مؤلفًا آخر في كتابة عمل روائي. بالطبع، الأمر مختلف مع العمل غير الروائي: لقد شاركت فيما لا يقل عن ١٤ مشروعًا ساهم فيه عدة مؤلفين (اثنان منها مع محرري مجلة «لايف»)، ولن تجد مشروعًا متعدد المشاركين أكثر من ذلك). ولكن مستحيل قطعًا أن أفكر في القيام بذلك عند تأليف رواية! كنت متأكدًا تمامًا من أنني لن أسمح أبدًا لأي شخص آخر أن يعبث ببصمتي الإبداعية المتميزة …

ثم حدث شيء غريب قبل أن أشرع في عملية الكتابة. ففي أوائل عام ١٩٨٦، اتصل بي وكيل أعمالي سكوت ميريديث محادثًا إياي بأكثر أساليبه إقناعًا، ولسان حاله يقول: «لا ترفض قبل أن أنهي حديثي.» واتضح أن هناك منتج أفلام شابًّا كان عازمًا على تحويل أيٍّ من رواياتي إلى فيلم سينمائي. على الرغم من أنني لم أسمع قط عن بيتر جوبر،

فإنني شاهدت اثنين من أفلامه «قطار منتصف الليل» (ميدنايت إكسبريس) و«العمق» (ذا ديب)، وأعجبت بهما كثيرًا. ولقد تأثرت كثيرًا حين أخبرني سكوت بأن آخر أفلام بيتر، «اللون الأرجواني» (ذا كولر بربيل)، رُشح لستِّ جوائز أوسكار.

غير أنني شعرت بداخلي بامتعاض عندما واصل سكوت قوله بأن بيتر لديه صديق عنده فكرة رائعة يود مني أن أطورها إلى سيناريو وحوار. امتعضت لأنه لا توجد أفكار جديدة في مجال الخيال العلمي، ولو أنها فكرة رائعة بحق لخطرت على بالي بالفعل. فأنا «أكره» كتابة السيناريو والحوار؛ فهي عملية مملة إلى أبعد حد، تكاد تكون غير مقروءة وغير قابلة للكتابة على حد علمي. وكما هو الحال مع النوتة الموسيقية، تُعد كتابة السيناريو مرحلة وسيطة ضرورية في عملية الإنتاج. إذ تتطلب كتابة السيناريو والحوار كثيرًا من المهارات المتخصصة؛ غير أنها لا تحظى بقيمة أدبية أو فنية في حد ذاتها. (فعلى الأقل، النوتة الموسيقية تسر الناظرين إليها.)

ثم أوضح لي سكوت من هو الصديق، وذُهلت حقًّا. فجأةً بدا المشروع مثير جدًّا؛ لأسباب لا علاقة لها ببيتر جوبر؛ بل لأسباب وثيقة بالمخرج الشهير ستانلي كوبريك.

وباسترجاع أحداث الماضي، وتحديدًا قبل عشرين عامًا، وصفت أنا وستانلي، في فيلم «٢٠٠١: ملحمة الفضاء» (٢٠٠١: أيه سبيس أوديسي)، أقمار المشتري — ولم نتخيل قط أن هذه العوالم المجهولة تمامًا تم استكشافها بواسطة روبوتات قبل وقت طويل من تاريخ إصدار فيلمنا. ففي مارس ويوليو من عام ١٩٧٩، كشف مسبارا مركبة فوياجر أن أقمار آيو، أوروبا، وجانيميد، وكاليستو كانت أماكن أغرب مما كنا نتخيل على الإطلاق. ألهمتني الصور الرائعة التي جرى التقاطها لكوكب المشتري من الأقمار الصناعية العملاقة بتأليف رواية «٢٠١٠: الملحمة ٢» (٢٠١٠: أوديسي تو)؛ بل جعلتني أشعر بالالتزام للقيام بذلك. هذه المرة، كان من الممكن أن تستند الأحداث التي وقعت على كوكب المشتري إلى الحقيقة، لا الخيال؛ وعندما حوَّل بيتر هيامز الرواية إلى فيلم في عام ١٩٨٤، استطاع أن يستخدم صورًا حقيقية التقطتها مركبة فوياجر كخلفية لكثير من الأحداث في الفيلم.

وعلى الرغم من أن نتائج بعثات عام ١٩٧٩، كانت مذهلة، كان من المأمول أن يتم التوصل إلى اكتشافات تتفوق عليها في غضون عقد. قضت المركبة الفضائية فوياجر بضع ساعات فقط في محيط كوكب المشتري، لتمر بجوار الكوكب العملاق وأقماره في طريقها إلى كوكب زحل. ولكن في مايو ١٩٨٦، عزمت وكالة ناسا على إطلاق مسبار جاليليو، وهو مسبار فضائي واعد أكثر من سابقيه. وهذا لن يسفر عن رحلة طيران قصيرة، بل

إلى «موعد ولقاء»؛ قضت مركبة جاليليو عامين، بدءًا من ديسمبر عام ١٩٨٨، في مسح تفصيلي لكوكب المشتري وأقماره الرئيسية. وبحلول عام ١٩٩٠، إذا سارت الأمور كما هو متوقع، فسيتوافر سيل من المعلومات الجديدة حول هذه العوالم الغريبة، مما يجعل أمر تأليف جزء ثالث من ملحمة الفضاء أمرًا حتميًّا ولا مفر منه. وهذا ما كنت أخطط لتأليفه؛ إذ كنت عازمًا على ربط نجاحي بنجاح مسبار جاليليو، ولم أستطع أن أهتم كثيرًا بأفكار بعض مؤلفي الخيال العلمي الهواة. إذن، كيف أرفض طلبه بأدب؟ كنت لا أزال أفكر في الأمر عندما واصل سكوت حديثه:

«يريد بيتر جوبر أن يسافر إلى سريلانكا، لمدة ست وثلاثين ساعة فقط، ليقدمك إلى هذا الرجل. اسمه جنتري لي، ودعني أوضِّح لك من هو جنتري لي. إنه يعمل لدى مختبر الدفع النفاث، وهو كبير المهندسين بمشروع مسبار جاليليو. هل سمعت عن هذا؟»

قلت بنبرة مترددة: «أجل.»

«وقبل هذا، كان يعمل مديرًا لقسم تخطيط البعثات لمسبار الهبوط التابع لمركبة فايكينج، الذي أرسل تلك الصور الرائعة من كوكب المريخ. ونظرًا لأنه كان يشعر بأن الرأي العام لا يقدر المجهود المبذول في الفضاء، أسس شركة مع صديقك كارل ساجان لإنتاج المسلسل التلفزيوني «الكون» (كوزموس)، وهو مدير إنتاج المسلسل برمته ...»

قاطعته: «هذا يكفي! يجب أن أقابل هذا الرجل. أخبر السيد جابور أن يأتي به إلى هنا في الحال.»

رد سكوت: «اسمه جوبر. بيتر جوبر.»

حسنًا، اتفقنا على أن يسافر الاثنان إلى سريلانكا، وإذا أعجبتني فكرة جنتري (والمهم أيضًا إذا أعجبتني شخصية جنتري نفسه) فسأضع مخططًا تفصيليًّا؛ ربما اثنتي عشرة صفحة، توفر العناصر الأساسية لرسم الشخصيات والأماكن، والحبكة الدرامية التي يمكن لأي كاتب سيناريو كفء أن ينتج منها سيناريو وحوارًا.

ووصلا إلى العاصمة السريلانكية، كولمبو، في ١٢ فبراير من عام ١٩٨٦ — أي بعد أسبوعين فقط من وقوع كارثة تحطم مكوك الفضاء تشالنجر. كان من المقرر أن يكون عام ١٩٨٦ هو عام الإنجازات الفضائية الكبرى؛ إلا أن برنامج ناسا بأكمله سيطرت عليه حالة من الفوضى التامة. وبالأحرى، كان موعد إطلاق مسبار جاليليو من شأنه أن يتأخر لسنوات. ولن يصل إلينا مزيد من الأخبار عن أقمار المشتري قبل عام ١٩٩٥. وكان من شأني أن أنسى كل شيء يخص الجزء الثالث من «الملحمة» (أوديسي ثري) — مثلما كان

من شأن جنتري أن ينسى كل شيء يخص جاليليو باستثناء استعادته من قاعدة الإطلاق في وسط البحر وتخزينه في مكان ما.

ولحسن الحظ إن اجتماع القمة الذي جمع بين جوبر ولي وكلارك سار على ما يرام، وعلى مدار الأسابيع القليلة التالية، أخذتُ أدوِّن على الأقراص المرنة المفاهيمَ الأساسية والشخصيات والخلفيات والحبكات — وأي شيء يبدو مفيدًا ولو من بعيد لتأليف الرواية التي قررنا أن نُسميها «المهد» (كريدل). قال أحدهم ذات مرة إن تأليف عمل روائي ينطوي على استبعاد البدائل. وهذا صحيح تمامًا: فلو أنني استخدمت العناصر التي ابتكرها ضمن كل إطار فكري محتمل، لتوفر لديَّ ما يكفي من أفكار لتأليف نصف مليار رواية مختلفة على غرار رواية «المهد».

أخيرًا، أرسلت ما اخترته من أفكار إلى جنتري على هيئة مسودة مكونة من ٤ آلاف كلمة. لقد أعجبته، وسافر إلى سريلانكا مرةً أخرى حتى يتسنى لنا استكمال التفاصيل. وفي سباق محموم دامَ لمدة ثلاثة أيام على الجبال المطلة على العاصمة القديمة كاندي، وبالرغم من التشتيت الذي أحدثه أروع مشهد بانورامي شهدته، أكملنا نسخةً شبه نهائية مكونة من ٨ آلاف كلمة، والتي أصبحت في النهاية نقطة ارتكاز الرواية. واستطعنا، منذ ذلك الحين فصاعدًا، التعاون عبر المكالمات الهاتفية المتكررة وتبادل مراسلات ممتدة عبر المحيط الهادئ.

استغرق تأليف الرواية عامًا تقريبًا، رغم أننا بالطبع كنا مشاركين في مشروعات أخرى كذلك. وعندما اكتشفت أن جنتري لديه خلفية بالأدب الإنجليزي والفرنسي أفضل مني بكثير (أما الآن فصارت لديَّ مناعةٌ ضد المفاجآت)، قاومت ببسالةٍ جميع محاولاتي لفرض أسلوبي عليه. وهذا أحبط بعض قُراء مجلة «الخيال العلمي التناظري والواقع» المتمرسين، الذين انزعجوا — عند ظهور رواية «المهد» وعليها اسمانا — من فقرات كنت أجريت عليها مزيدًا من التنقيحات المبالغ فيها. وأوضحت أن الحوارات الأكثر واقعيةً جاءت نتيجة لسنوات عمل جنتري مع المهندسين وعلماء الرياضيات العتلاء الثملين بقسم الديناميكا الفلكية في مختبر الدفع النفاث؛ إذ يُضطرون كثيرًا إلى استدعاء رجال شرطة مدينة باسادينا لفك الاشتباكات بالأيدي بسبب مناقشاتهم الحامية حول دوال بيسل والمعادلات التفاضلية الجزئية غير الخطية.

إلا أنه على حد علمي، لم يطالب مجلس إدارة أي مدرسة حتى الآن بإزالة رواية «المهد» من أرفف مكتبتها. وأذكر هذا لأنني قد اكتشفت توًّا بأن هذا ما حدث قبل عقد

مضى مع روايتي «الأرض الإمبريالية» (إمبريال إيرث)، وهو ما أثار استيائي ودهشتي على حد سواء. والأنكى من ذلك أن مجلس الإدارة تمادى في شعوره بالقلق إلى درجة منع «أي» مجموعة قصصية تحتوي «أي» شيء كتبته على الإطلاق.

أتمنى لو كنت أعرف هذا آنذاك؛ لراقَ لي أن أخبر هؤلاء المتشددين بأن نسخة هذه الرواية المخصصة لـ «المكفوفين»، والتي أثارت استيائهم، سجلتها سيدة من المستبعَد جدًّا أن تروج للإباحية. إذ إنها متزوجة من رجل قانون رفيع المستوى بإنجلترا.

وعلى الرغم من أن رواية «المهد» كانت في الأصل مُعَدة لتكون مشروع فيلم، وتم بالفعل إعداد معالجة سينمائية من أجل شركة وارنر فيلمز؛ إلا أن احتمالات تحويلها إلى فيلم يُعرض على الشاشة الفضية تبدو الآن مستبعدة تمامًا. ولسوء الحظ، ظهرت سلسلة كاملة من أفلام تدور أحداثها تحت الماء خارج كوكب الأرض في وقت قريب من نشر الكتاب، وغرق معظمها أو بالأحرى فشل دون أن يترك أثرًا.

ولكن يسعدني أن أقول إن بيتر جوبر حقق سلسلة نجاحات متتالية. إذ لاقت أحدث الأفلام التي أنتجها استحسانًا كبيرًا، وهي: «ساحرات إيستويك» (ويتشز أوف إيستويك)، و«غوريلات في الضباب» (جوريلز إن ذا ميست)، و«رجل المطر» (رين مان)؛ وتظهر هذه القائمة القصيرة من الأفلام اهتمامه بالموضوعات الاستثنائية والجديرة بالاهتمام. وربما يحول رواية «المهد» إلى فيلم عندما تحين الفرصة لذلك، كما سيحدث حتمًا. «هناك لحظة يتحين فيها الرجال الظرف المناسب والفرصة الملائمة» — وهذا الاقتباس يسري على الأفلام أيضًا.

وعلى الرغم من أنني استمتعت كثيرًا بالعمل مع جنتري، فإننا عندما انتهينا من تأليف رواية «المهد» الرائعة، لم يكن لديَّ أي خطط لمزيد من التعاون — هذا لأن أخبار المذنب هالي كانت تهيمن في ذلك الوقت على حياتي؛ نظرًا لأنه فشل في الهيمنة على السماء الأرضية. وأدركت أن ظهوره التالي، في عام ٢٠٦١، سيوفر فرصة رائعة لملحمة فضائية ثالثة. (ولو أن مسبار جاليليو، الذي تأخر كثيرًا، نجح في إنجاز مهمته كما كان مأمولًا في عام ١٩٩٥، وأرسل كميات هائلة من المعلومات الجديدة من نظام جوفيان، فلربما كانت هناك ملحمة نهائية. ولكنني لا أقدم وعودًا على أي حال).

وبحلول صيف عام ١٩٨٧، كانت رواية «٢٠٦١: الملحمة الثالثة» (٢٠٦١: أوديسي ثري) تحقق نجاحًا باهرًا في المكتبات، والفضل يعود إليها في أنني بدأ يساورني مرة أخرى الشعور المزعج بالذنب الذي ينتاب المؤلف عندما لا يعمل على مشروع ما. وفجأة، أدركت أن ثَمة مشروعًا آخر كان ينتظرني.

وقبل خمسة عشر عامًا، انتهت رواية «موعد مع راما» (راندفو ويذ راما) بجملة أخيرة تقول: «يصنع سكانُ راما ثلاثةً من كل شيء.» والآن، كانت تلك الكلمات بمنزلة فكرة لاحقة خطرت على بالي في اللحظة الأخيرة عندما كنت أقوم بالمراجعة النهائية. لم يخطر في بالي — وأنا صادق فيما أقول — أي فكرة عن تكملة القصة؛ بدا لي أن هذه هي الطريقة الصحيحة لوضع نهاية مفتوحة للرواية. (وفي الحياة الواقعية، بالطبع، ما من قصة تنتهي.)

قفز العديد من القراء — والنقاد — إلى استنتاجٍ مُفاده أنني كنت قد خططت لتأليف ثلاثية من البداية. حسنًا، لم أفعل ذلك، لكنني أدركت الآن أنها كانت فكرة رائعة. وكان جنتري هو الرجل المناسب لأداء المهمة؛ إذ كان لديه جميع المعلومات عن الميكانيكا السماوية والأجهزة الفضائية اللازمة للتعامل مع الظهور التالي لسكان راما.

لقد وضعت بإيجازٍ سريع مجموعةً من الاحتمالات، تمامًا كما فعلت مع رواية «المهد»، وفي وقت قصير جدًّا بزغت فكرة هذه الرواية «راما ٢». وبعد ذلك تبعها روايتا «جنة راما» و«الكشف عن راما» بين عامَي ١٩٨٩–١٩٩١.

وهكذا يتواصل جنتري معي مرة أخرى عبر المحيط الهادئ لعقد جلسات عصف ذهني وسط التلال السريلانكية؛ ليشكو ساعي البريد من حجم المطبوعات الضخمة التي تعيَّن عليه موازنتها على دراجته. لكن هذه المرة، ساهمت التكنولوجيا في تسريع عمليات التأليف العابرة للقارات. أتاح لنا جهاز الفاكس في ذلك الوقت تبادل الأفكار في الوقت الفعلي تقريبًا؛ إنه أكثر ملاءمة بكثير من رابط البريد الإلكتروني الذي استخدمته أنا وبيتر هيامز عند كتابة رواية «٢٠١٠: الملحمة ٢» (انظر مقدمة رواية «ملف الملحمة» (أوديسي فايل)).

وهناك الكثير الذي يمكن قوله عن هذا النوع من التعاون عن بُعد؛ فإذا كان المؤلفان المشاركان متقاربين جدًّا، فلربما أضاعا كثيرًا من الوقت في الأمور التافهة. حتى المؤلف المستقل يمكن أن يتذرع بأعذار لا حصر لها لتبرير انقطاعه عن العمل؛ فما بالك إذا تعاون مؤلفان معًا، تتساوى الاحتمالات على الأقل.

ومع ذلك، لا توجد طريقة لإثبات إهمال الكاتب لعمله؛ هذا حتى لو كان يغط في نوم عميق وشخيره يصم الآذان، فلربما عقله الباطن يعمل بكدح. وأدركت أنا وجنتري أن أكثر رحلاتنا جموحًا في الأدب أو العلوم أو الفن أو التاريخ قد تسفر عن عناصر قصة مفيدة.

فعلى سبيل المثال، أثناء تأليف هذه الرواية، أصبح من الواضح أن جنتري وقع في غرام إليانور دي أكيتان (وأقول لزوجة جنتري: «لا تقلقي، يا ستايسي — لقد ماتت إليانور قبل ٧٨٥ عامًا»)، وكان عليَّ أن أثنيه بلباقة عن أن يفرد صفحات من الرواية لمسيرتها المذهلة. (إذا كنت تتساءل كيف يمكن أن يكون هناك صلة لإليانور دي أكيتان، من قريب أو بعيد، بالمغامرات الفضائية، ففي انتظارك متعة أخرى.)

بالتأكيد، لقد عرفت الكثير عن التاريخ الفرنسي والإنجليزي من جنتري أكثر مما تعلمته في المدرسة. لا بد أن الحادثة التي وبَّخت فيها الملكة إليانور ابنها، الملك المحارب المقدام ريتشارد قلب الأسد «أمام قُواته» لفشله في إنجاب وريث للعرش، كانت واحدة من أكثر اللحظات المثيرة في التاريخ العسكري لبريطانيا. مع الأسف، لم يكن أمامنا طريقة للعمل على فكرة هذا الملك المقدام الشاذ جنسيًّا، الذي صار أبًا روحيًّا، لا أبًا بيولوجيًّا … على عكس جنتري، الذي استقبل مولوده الخامس بنهاية تأليف رواية «راما ٢».

لكنك ستلتقي بأحب شخصية ابتكرها جنتري، ألا وهو القديس مايكل سيينا الذي بصدد أن يخرج إلى النور. أنا متأكد من أنك ستقابله يومًا ما مرةً أخرى، في الكتب التي سينشرها جنتري باسمه، بأقل قدر من المساعدة أو التقييد من جانبي.

وبينما أكتب هذه الكلمات، أكون قد وصلت أنا وجنتري إلى منتصف الطريق لشراكتنا التي أسفرت عن أربعة كتب حتى الآن. وعلى الرغم من أننا نعتقد أننا نعرف ما سيحدث بعد ذلك، فأنا متأكد من أن سكان راما لديهم بعض المفاجآت في انتظارنا …


هنداوي